هارولد ف. يعقوب. ك. س. آي
الضابط في الجيش البريطاني
والحائز وسام جوقة الشرف الفرنسي
ومؤلف كتاب العطور العربيّة

ملوك
شبه الجزيرة العربية



مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء
دار العودة - بيروت

هارولد ف. يعقوب. ك. س. آي
الضابط في الجيش البريطاني
والحائز وسام جوقة الشرف الفرنسي
ومؤلف كتاب العطور العربيّة

ملوك شبه الجزيرة العربية

ترجمة

احمد المضواحي

مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء
دار العودة - بيروت

يطلب من دار العودة - بيروت
كورنيش المزرعة - بناية ريفييرا سنتر
تلفون : ٣١٠٨٤٠ - ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥
تلكس AWDA 23682 LE

الإهداء

إلى الجميلة . .
التي من جمالها الكامل الوضاء
صنع الاله النور والضياء

* * *

ومع مغيب الشمس
يخبو الجمال الذاتي لزهرات اللوتس

« المؤلف »

مقدمة ترجمة الكتاب
بقلم المؤرخ :
محمد جميل بيهم

كلما ازداد الإنسان علماً ازداد ايمانا بما ورد في القرآن الكريم : ﴿وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا .﴾ وكلما أدرك المزيد من أسرار الكون يرى نفسه عائدا الى مذهب اللاأدريين ، أولئك الفلاسفة المسلمين الذين انتهى بهم المطاف حول أسرار الطبيعة الى الاعتراف بالعجز والقصور حتى إذا سُئل أحدهم عن مسألة من مسائلها كان جوابه : « لا أدري » .

والذي أدركه علم الانسان المعاصر ، هذا الانسان الذي حسب نفسه قاب قوسين أو أدنى من سدرة المنتهى بما توافر له من علم لم يطمع به الأقدمون ، هو أن هذا الكون العجيب المستعصي على مدارك البشر حيٌّ كله متفاعل حتى الحجر ، وان الموت والفناء اللذين هما نتيجة للصراع الدائم بين أجزائه انما هما مجرد تحول من هيئة الى أخرى في سياق الحياة ، وان هذا الفناء الجزئي ، والتحول الكلي هما معنى البقاء الدائم .

والاختلاف في المفاهيم عن هذا الكون بين علماء العصور السابقة وبينهم وبين العلماء المعاصرين ، انما يعود الى تباين الوسائل وقوتها التي استعان كل منهم بها لكشف أسرار الطبيعة سواء أكان ذلك بالعين المجردة ، أو بالعين البصيرة عين العلم والمعرفة . أما الكون نفسه المرئيّ في كل زمان على شكل خاص به فهو لم يتغير ولم يتبدل ، وانما تبدلت مناظره حسب قوة النظارات التي استعان بها الانسان على رؤيته سواء أكانت مادية أو علمية .

والواقع ان كل شيء في هذا الكون حتى الأحداث العارضة التي تقع في كوكبنا الأرضي تبدو مختلفة الألوان باختلاف الأزمان ، وباختلاف الوسائل المتوفرة لدى الانسان أسوة بهذا الكوكب . ولذلك فان التاريخ جاء في ضعفه أو في قوته منسجماً مع مستوى درجة الثقافة الذي دون فيه : ففي الماضي البعيد حينما كانت الأرض تبدو متباعدة الأطراف حيث كان كل قطر في عزلة عن سواه كان المؤرخون حينذاك ضيقي الآفاق ، فقيري المصادر ، واذا نقلوا الأخبار فانما ينقلونها عن الرواة على طريقة قال فلان عن فلان وهم كانوا اذا أشرفوا على الكون فانما يشرفون عليه من نافذة واحدة وذلك بنظارات مختلفة الألوان ، امّا بيضاء فتروي الأحداث على نسق يمجد ذويهم ، أو سوداء تنقّص من شأن أعدائهم . فيأتي التاريخ بهذا على نسق حكاية ابن آوى الذي سقطت على رأسه تفاحة ، حتى اذا

تناقلت الحيوانات الخبر شاع بينها في النهاية ان صخرة هائلة انقضت عليه فأهلكته .

أما الآن وقد أصبحت أرضنا صغيرة الحجم بفضل اتساع آفاق العلم ، وأضحت أنباء عالمنا في متناول الجميع في وقت واحد ، كما ان اخبار العالم الماضية أصبحت بفعل الاستشراق من ناحية الغرب ، وبفعل الترجمة من جهة الشرق ، مشاعاً بين هؤلاء وهؤلاء ، فقد أُتيح للتاريخ أن يتطور تطورا عظيماً ، ولا سيما لأن المؤرخين المعاصرين وجدوا أمامهم في هذه الأرض الصغيرة متسعاً كبيراً للأخذ عن الشرق والغرب معاً وللمقابلة بين الروايات ذوات المصادر المختلفة ، ثم لاختيار الأصح منها بعد الغربلة والتدقيق .

فلنأخذ على ذلك مثالاً تاريخ الأندلس ، وما كتبه العرب عنه في الماضي ، وما يكتبون في العصر الحاضر عن هذا التاريخ . فعلى الرغم من أن بعض الكتب العربية التي دوّنت هذا التاريخ في الماضي كانت ذات قيمة علمية ومستوفاة البحث الا انك تجدها ناقصة أو مشكوكاً بصحة بعضها ذلك لأنها اقتصرت على رواية الأنباء عن مصادر محلية اشرفت عليها من نافذة واحدة : النافذة القومية الدينية التي تخضع عادة للتأثر بالعواطف والأهواء بينما ان ما يدوّن في العصر الحاضر عن تاريخ الأندلس سواء أكان من قبل الشرقيين أوالغربيين يأتي أكثر نزاهة لأن المؤرخين المعاصرين اصبح بوسعهم الاشراف على الأحداث من نوافذ مختلفة حتى اذا كتبوا عن الأندلس أو غيرها قابلوا بين كل من المصادر العربية والاسبانية وجربوا ان يوفقوا بينها . هذا عدا ان العناية بالتنقيب عن الآثار خدم التاريخ العام خدمات عظيمة ، وطهّره الى حد ما من أساطير الأقدمين . وهذا ما يحمل مؤرخينا وقراءنا على الرجوع الى ما ألفه أو كتبه زملاؤهم الأجانب في الموضوع الذي يريدون معالجته أو الاطلاع عليه ، أو الرجوع الى ما ترجم عن اللغات الأجنبية ، وذلك حبا منهم بأن تكون المعلومات جامعة بين مختلف المصادر . على انهم اذا خيّروا بين المؤرخين يختارون أولئك الذين كانت لهم علاقات مباشرة بالموضوع على غيرهم من الرواة الآخرين . وعلى هذه الاعتبارات فان هذا الكتاب كتاب ملوك العرب الذي ألفه المستشرق السياسي هارولد يعقوب كان من خيرة المراجع عن شبه الجزيرة العربية في أوائل القرن الحاضر . ليس ذلك لأن واضع الكتاب مستشرق كبير فقط ، وانما لأنه مارس الأعمال السياسية والحربية في تلك البلاد خلال ربع قرن تقريباً ابتداء من عدن الى القاهرة . وهذه الممارسة بالاضافة الى الاستشراق جعلته جديراً بأن يكتب عنها كتابة رجل خبير جمع بين العلم والعمل . وان كتابه هذا الذي عني بترجمته الأستاذ أحمد المضواحي كاف للدلالة على مقدرته وعلى سعة اطلاعه على الشؤون العربية والاسلامية ، كما ان الكتاب بثوبه العربي يشهد للمترجم الفاضل بحسن الاختيار وبالكفاءة .

من هو واضع هذا الكتاب ؟

هو اللفتانت كولونيل هارولد ف . يعقوب ك . س . آي الضابط في الجيش البريطاني ، والحائز على وسام جوقة الشرف الفرنسي ومؤلف كتاب العطور العربية الصادر عام ١٩١٥ .

● مستشرق يحسن اللغة العربية ، ودارس للقرآن الكريم والحديث الشريف . وهو الى ذلك ملم بآداب اللغة العربية بالاضافة الى ثقافته العامة العالية .

● خبير في السياسة على وجه عام ، وفي الشؤون العربية على وجه خاص ، ذلك بأنه مكث سنين عديدة في البلاد العربية ، وساهم في أحداثها : فقد عمل ما يزيد على عشرين عاما في عدن ومحمياتها الشرقية والغربية وكان فيها المساعد الأول للمندوب السامي البريطاني ، ثم كان معتمد بريطانيا السياسي في هذه المحميات .

● خلال الحرب العالمية الأولى كان يشغل تباعا وظيفة المستشار الأول بمصر لكل من المندوبين الساميين السيد ريجنالد وغيت ، وفسكونت اللنبي .

● لعب دورا بارزا في تلك الحرب ، كما فعل قبلها وبعدها ، ولا سيما في شؤون شبه جزيرة العرب . من ذلك انه استطاع ان يجذب السيد محمد بن علي الادريسي صاحب صبيا باقليم عسير الى صف الحلفاء فأبرم معه معاهدتين جعلتاه يعلن الحرب على السلطنة العثمانية ، وذلك قبل أن يعلن الشريف حسين بن علي بمكة ثورته على هذه السلطنة . ولكنه عجز عن زحزحة الامام يحيى امام اليمن الأسبق عن التزام الحياد .

● زار سوريا ولبنان خلال تلك الحرب متخفيا باسم مستعار وذلك في عام ١٩١٣ على أمل أن يعمل لدولته ، ولكن السلطة التركية لم تلبث أن اكتشفت أمره ، وأحبطت مساعيه .

● وضع هذا الكتاب باللغة الانكليزية سنة ١٩٢٣ بعنوان The Kings of Arabia فكان من الكتب التي أحرزت الإقبال والرواج في الأوساط الغربية وغيرها .

ما هو هذا الكتاب ؟

هو كتاب نفيس يتناول أحوال الجزيرة العربية في الماضي القريب ، ومواقف ملوكها وأمرائها ، ونزعات كل منهم وأهدافه ، فضلا عن طبائع العرب على وجه عام وعنعناتهم والى ذلك فهو يشير الى بعض نواحي السياسة التركية ، والى مرامي الامبراطورية البريطانية وأساليبها الاستعمارية . وهو في ذلك يظهر ميلاً للأتراك أحياناً ، عند ورود ذكرهم كما يتحامل عليهم حيناً آخر .

(١) يصف الكتاب الصراع بين الممالك المتعددة في شبه الجزيرة العربية ، وأهداف كل منها ، ولا سيما اليمن الخضراء حيث كان يتنافس على السلطة وقتئذ كل من الامام يحيى حميد الدين ، امام

صنعاء والسيد محمد بن علي الادريسي صاحب صبيا في اقليم عسير . ويذكر الكتاب ايفاد المؤلف الى بلاط الامام يحيى ، وما تعرض له ، هو وأفراد بعثته من السجن في باجل باليمن زهاء أربعة شهور .

(٢) يستهل المؤلف كتابه بذكر الاتصال البريطاني باليمن ابتداء من مطلع القرن السابع عشر حتى الاستيلاء على عدن في عام ١٨٣٩ م ويتوسع في الكلام على عهد هنس الذي احتل عدن بالقوة ، وعن عهد رجال الادارة الأوائل مثل بيارد وجيمس أوترام . وهو في ذلك يسرد صورة للأساليب الاستعمارية البريطانية بكل صراحة التي كانت تنطلق من عدن قاعدة النشاط الاستعماري .

(٣) وحينما يشير الى العلاقات البريطانية ـ التركية ينوه المؤلف ببعض الشخصيات التركية ، ويتحدث عما وقع له معهم ، من أمثال الجنرال سعيد باشا الذي تقدم من اليمن ، واحتل لحج وشرع يهدد باحتلال عدن طوال الحرب العالمية الأولى . الى أن وقع في أسر الانكليز . ومن الجدير بالذكر أن المؤلف يحيط هذا التركي بهالة من الاحترام والتقدير .

(٤) وقد وصف الكتاب الدور الذي لعبه كل ملك من ملوك الجزيرة العربية خلال تلك الحرب بما في ذلك أمير آل سعود ، مبيناً ميولهم وخلافاتهم وعداواتهم المستحكمة وقتئذ وذلك في فصل مستقل من الكتاب أورد فيه بهذه المناسبة المثل الفرنسي القائل :

Nul n'est content de son chapeau; Chacun voudrait une couronne

« لا أحد سعيد بقبعته ؛ وكل واحد منهم يريد تاجاً » .

ومن يقرأ هذا الكتاب يقول ما أشبه الليلة بالبارحة .

من هو مترجم الكتاب ؟

(١) هو السيد أحمد بن أحمد المضواحي الأديب السياسي المهذب من أبناء اليمن ، ومن مواليد بلدة المصنعة القريبة من النادرة في وادي بنا الخصيب الفتان التابع لمحافظة أب الى الشرق من تعز .

(٢) تخرج المترجم باليمن من دار العلوم بصنعاء حيث التعليم فيها يسير على غرار الأزهر بمصر والقرويين في المغرب .

(٣) وتلقى في القاهرة نصيبا وافرا من العلوم الحديثة : فلقد حصل من مدرسة حلوان الثانوية الجديدة على شهادة الثقافة العامة المصرية ، ونال الشهادة الثانوية في البكالوريا من مدرسة الخديوي اسماعيل بالقاهرة . ثم التحق بكلية الحقوق في جامعة القاهرة فحصل منها على شهادة الليسانس في الحقوق .

(٤) عمل في السلك الخارجي لليمن وكلفته حكومته بأن يمثلها في بعض المؤتمرات الدولية والعربية . ثم عيّنته تباعاً سكرتيراً في سفارة اليمن بالقاهرة ، فالرباط ، فبغداد . يعمل الآن قائماً بالأعمال في السفارة اليمنية بيروت[1] .

كلمة شكر

وإني اذ أشكر الصديق المترجم الأستاذ المضواحي على الثقة الغالية التي منحني اياها بتكليفي وضع مقدمة هذا الكتاب أرى من واجبي أن أثني عليه الثناء الكثير على ما بذله من جهود جبارة في سبيل تزويد المكتبة العربية بسفر نفيس يتحدث عن بلادنا وعن أحوالنا بكل صراحة وأمانة ، فيسد الفراغ في هذه المكتبة في النواحي الحساسة التي تناولها والتي وفاها حقها .

ان هذا الكتاب الذي كان انكليزياً فأصبح عربياً بفضل مترجمه الفاضل هو كتاب هام بالنسبة لكل عربي يهمه الاطلاع على شتى قضايا بلاده ومستقبلها . واذا رجوت له الرواج على قدر ما يستحق فإني بذلك أتمنى أن يعاد طبعه مرات عديدة ولا سيما في غضون الأيام العصيبة التي واجهناها ، ولا نزال ، فلعل الذكرى تنفع المؤمنين ، ولعل الماضي يكون مصباحاً لنا في المستقبل .

[محمد جميل بيهم]

بيروت ـ ٢٠ آب ١٩٦٨

(١) يشغل حالياً وظيفه سفير بوزارة الخارجية اليمنية بصنعاء .

(الناشر)

مقدمة المترجم

ليس هذا كتاباً تاريخياً لسرد الحوادث آو جغرافياً لتحديد الأماكن ، ولكنه وصف سياسي مختصر تقريباً ، وكان مؤلفه اللفتنانت كولونيل هارولد .ف. يعقوب على اتصال وثيق بالبلاد العربية لعدة سنوات باعتباره اولا المساعد السياسي الأول للمندوب السامي البريطاني في عدن ثم باعتباره ثانياً المعتمد السياسي في محميات جنوب شبه الجزيرة العربية التي تقع الى جهة الداخل من عدن (الجنوب اليمني المحتل) . وفي اثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ كان مؤلف الكتاب مستشاراً رئيسياً للشؤون السياسية في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية لكل من المندوبين الساميين في مصر على التوالي وهما السيد ريجنالد وينجيت وفسكونت اللنبي **Sir Reginald Wing-ate and Visscount Allenby**

وهو يصور في هذا الكتاب الممالك والامارات المتعددة الاشكال في شبه الجزيرة العربية واهدافها المتنوعة التي تغذى بالشقاق والانقسام . ويصف على الأخص تلك البلاد العريقة التي تكاد ان تكون اليوم غير معروفة وهي اليمن الخضراء ورئيسيها المتنافسين في زمنه وهما امام صنعاء والسيد الادريسي صاحب صبيا الذي ظهر فجأة في مقاطعةعسير حينذاك .

والكتاب يبتدىء بذكر قيام الدولة التركية بعد سقوط بغداد ومركز الحجاز والمدينتين المقدستين « مكة والمدينة » في كل العصور الاسلامية والمحاولات التركية الأولى لاخضاع اليمن ثم الاتصال البريطاني المبكر باليمن والذي بدأ في مطلع القرن السابع عشر وانتهى بالاستيلاء على عدن في عام ١٨٣٩ . ثم يتابع مجمل الأساليب السياسية البريطانية ، جاعلاً من عدن

المحور باعتبارها المركز الرئيسي .كما شرح عهد هينس الضابط في البحرية الهندية القديمة ، الذي استولى على عدن بالقوة في اليوم التاسع عشر من شهر يناير عام ١٨٣٩ ثم خطوات بريطانيا بعد ذلك والتي كانت تتعارض احياناً مع المصالح التركية ـ الاسلامية . وقد عالج مع ذلك تغلغل بريطانيا في المناطق التي بالداخل بعد ان اصبحت عدن قاعدة للانطلاق واشار الى الهبات والمرتبات والرشاوى التي كانت تقدمها بريطانيا للشيوخ والسلاطين .

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى ، بما لها من مظاهر سياسية عملت على تداعي الخلافة التركية ـ الاسلامية في البلاد العربية وفي تركيا نفسها ، وهذه الحرب هي التي مهدت الطريق لكل من بريطانيا وفرنسا لاحتلال البلاد العربية التي اعلنت الحرب على تركيا وقاتلت في صفوف الحلفاء بعد قيام الثورة العربية الكبرى . والكتاب في جملته يصور العقلية الاستعمارية بأجلى مظاهرها ، وان كان لا يعبر صراحة عما يريد ان يقوله ، لكنه بطريق التلميح الامين يعبر عن رأي الغرب في الشرق وشعور غلاة المسيحيين الأوروبيين نحو المسلمين من اولاد اسماعيل ، وجعلهم الدين ذريعة ، واذا كان يتحرى الانصاف في حديثه ، فان التعصب يأبى الا ان يطل على القارىء من خلال السطور ، وتزاحم الكلمات ، وتناثر العبارات . ولقد تحريت في الترجمة نقل المعاني التي كانت تحملها عبارات الاصل بلا تصرف مضحياً بجودة الاسلوب ، وان ظهر على النص العربي البعد عن الجزالة ، مراعاةً لتبسيط المعنى ووضوح الدلالة .

أحمد المضواحي

الفصل الأول :

قيام الاتراك

في عام ١٢٥٨ ميلادية هاجم المغول مدينة بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين وعاثوا فيها نهباً وسلباً وتقتيلاً ، واغتيل الخليفة المستقيم[١] خنقاً فلجأ إبنه الطاهر[٢] الى مصر حيث استقبله السلطان بيبارص واكرمه ، وعينه خليفة روحياً يحمل لقب المستنصر بالله ، فورث هذه السيادة الاسمية ستة عشر من خلفائه حتى عام ١٥١٧ ميلادية حين غزا السلطان سليم مصر وأصبح الخليفة الفعلي تاركاً كرسي الخلافة هذا لمن جاء بعده من سلاطين آل عثمان ولا زالوا حتى اليوم[٣] يحتفظون بالخلافة .

وفي عهد الخلفاء الأربعة الأوائل الذين عاشوا في المدينة وكذلك في زمن الأمويين الذين عاشوا في الشام كان للحجاز والمدينتين المقدستين حق الامتياز والقيادة الروحية وكان يتولى الحكم هناك نواب او حكام مستقلون . وفي عهد الخلافة العباسية بقيت هذه البقعة المقدسة مستقلة في قلب الامبراطورية الواسعة حتى عام ١٠٣٤ ميلادية عندما صارت تلك الزعامة الروحية والخلافة الاسلامية اداة بأيدي القضاة والقواد من الأتراك.وفي ذلك الوقت اعلنت عائلة محمد العلوي القرشية استقلالها بالحجاز وانفرادها بحكمه ، والحروب الصليبية التي لا مبرر لها والدسائس من الداخل على ايدي النساء الشركسيات أعمت

(١) ـ صحته : المستعصم .

(٢) ـ ابن عمه وأحد أقربائه وليس إبنه .

(٣) ـ وقت تأليف الكتاب . (المترجم)

عيون الخلفاء عن اغتصاب هذه السلطة فتمتع أشراف مكة بحريتهم هذه وبالانفراد بالسلطة حتى عام ١٥١٧ .

ثم يهتم السلطان سليم بالتدخل في امتيازات الاشراف وأقنع نفسه بأن امر ان يذكر اسمه في خطبة الجمعة كخليفة للمسلمين ، وبالتفاهم عن طريق المذهب التركي ، قبل الاشراف على هذا الطلب . وفي عام ١٥٣٨ استولى الاسطول العثماني على عدن في عهد سليمان الكبير (القانوني) كما انزل الاتراك قواتهم في جزيرة كمران وجعلوها قاعدة لهم وزحفوا منها على زبيد .

وفي سنة ١٥٣٩ خضع الشاطىء العربي بأجمعه لسيطرة السلطان سليمان وتوغلت القوات التركية في الاراضي اليمنية نحو الداخل وأخضعتها بالقوة واصبح الباشا التركي حاكماً عاماً في العاصمة صنعاء . وفي سنة ١٥٩٩ ثار اليمنيون ولكن حسان باشا استعاد الأمور بعد سلسلة من المعارك . وفي ذلك الحين كان امام الزيدية من البيت المالك الصنعاني هو الامام القاسم بن محمد الذي حمل لقب المجدد للدين والقاسم هذا من اولاد يوسف الداعي احد احفاد الهادي يحيى الذي اصبح بعد القاسم الرَّسّي المجدد الحقيقي للمذهب الزيدي في صعدة ، وهذا القاسم بن محمد الثاني هو الجد الحقيقي للبيت المالك الصنعاني وابتدأ امامته حوالى عام ١٠٠٦ هجرية ، ١٥٩٧ ميلادية (انظر الفصل السادس) وخلفه ابنه المؤيد بالله محمد حوالى عام ١٦٢٠ ميلادية وفي عهد هذا الامام اضطر الاتراك الى الجلاء عن اليمن في عام ١٦٣٠ بعد معارك طويلة وقتال شديد .

ومن المحتمل جداً كما قرر بلي فير Play Faire ان انسحاب التجارة الهندية من البحر الاحمر الى طريق رأس الرجاء الصالح الطويل قد جعل المسافة بعيدة جداً والاعتماد عليها شاقاً وان كانت مناسبة اكثر كما ان اليمن غير مفيدة تقريباً والدفاع عنها مرهق ويصعب القول بانها تستحق كبير عناء .

وسوف نرى في الفصول التالية كيف ان اليمن كانت كابوس الاتراك وقد كان الاجدر بهم ان لا يعودوا اليها بتاتاً في عام ١٨٤٩ ميلادية !!

ولقد استتب الامر للأئمة في صنعاء على اثر انسحاب الاتراك منها في

عـام ١٦٣٠ وانفـردوا بـالسلطة وخلف الامـام محمـد اخـوه اسمـاعيـل عــام ١٦٤٤ واتخـذ لنفسـه لقب « المتــوكـل عــلى الله » وهـو نفس الاسم الــذي خلعـه الامــام يحيى عـلى نفسه اليـوم[1] وكان عهـد الامام اسمـاعيـل مـزدهـراً وملكـه عـظيـماً ولما مـات دفن في مـدينـة ضـوران وخلفـه من بعـده عمـه المهـدي احمـد بن الحسين[2] سنـة ١٦٧٦،وهـو الـذي بسط سلطانـه عــلى حضـرمــوت وعـدن وتبعــه من بعـده محمـد نجـل اسمــاعيـل سنــة ١٦٨٢ وحمل لقب المؤيـد بـالله وخلفـه عــام ١٦٨٧ الامـام المهدي محمـد الذي عقـد معه الفـرنسيون معـاهـدة المخـا سنـة ١٧٠٦ وكـان ظهوره في المواهب .

وفي عهـد حكم الامـام الحســين بن القـاسم الملقب بـالمنصـور بـالله كــان يوجد سوء تفاهم بينه وبين الشركة الفرنسية لشرق الهند فقصفت مدينة المخا بالقنابل سنة ١٧٣٨ ميلادية .

وعنـدمـا ذهب الـرحـالــة الـدانمـركي نيبـور Niebuhr الى صنعــاء في عــام ١٧٦٣ ،وجـد هنـاك الامـام المهـدي العباس وفي ذلـك الـوقت كـان اشـراف « ابـو عريش » قد اصبحوا مستقلين بتهامة عن البيت المالك الصنعاني .

ولا تـوجـد حـاجـة ملحـة الى الـذهــاب بعيـداً في تتبـع سيـرة جميـع الـذين استولوا على الامامة من الأئمة الزيود المتعددين في اليمن .

وفي سنـة ١٨٠٤ اعلن الـوهـابيـون الحرب المقـدسـة ضـد السيـطرة التـركيـة واستـولوا عـلى الاماكن المقـدسة في كـل من مكة والمـدينة . والـوهـابيـون من سكـان المنـطقة الشـرقيـة لقلب الجـزيـرة العـربيـة وقـد حملوا صفـة (المجـددين لـلاسـلام) وبعـد عدة حمـلات تغلب محمـد علي بـاشـا والي مصـر عـلى الحجاز بـاسم السلطان التـركي وكـان ذلـك في عـام ١٨١٣ ميـلاديـة . وامـا الاشـراف فلم تكن الصـلات بينهم وبـين استانبـول ودية تمـاماً وعنـدما كـان يبدو عـلى فـرد من هـذه العـائلة بـانـه غـير صـالـح يـطلب اليـه لـزوم داره ثم يستبـدل بـآخـر من نفس الاسـرة ، وكـانت المكـائـد منتشـرة ، وكـانت رغبـة السـلاطـين ان يجعلوا الحجاز مقـاطعـة تـركيـة اعتيـاديـة ولكن قـوة الاشـراف المتـوارثـة حـالت دون ذلـك حتى عــام ١٨٨٠ حيث

---

(١) ـ وقت صدور الكتاب عام ١٩٢٣ . (المترجم) .

(٢) ـ الصحيح انه ابن اخيه واسمه احمد بن الحسن . (المترجم) .

تمكن الولاة الاتراك من تأسيس الادارة ، وبعد ان طارد محمد علي باشا والي مصر الوهابيين من الحجاز سعى لمحاولة جعل نفسه مالكاً لتلك المقاطعة وسيداً عليها وضع في السيطرة على اليمن فتفاوض مع امام صنعاء عارضاً ان يعيد اليه مقاطعاته التي استولى عليها حاكمه الشريف صاحب «ابو عريش» من الأراضي الواطئة والمنخفضة في كل من عسير واليمن نفسها مقابل خراج سنوي قدره مئة الف دولار (ريال ماري تريزا) ولم يرفض الامام نفسه هذا العرض ولا ذلك الاقتراح لانه تشكك في اهداف الاتراك البعيدة . وفي سنة ١٨٢٢ شاهدنا الصراع على السيطرة بين الباب العالي ووالي مصر وفي سنة ١٨٤٠ تم ارغام القوات المصرية على الجلاء عن اليمن وسلمت الموانىء اليمنية عن طريق الباب العالي الى الشريف حسين بن علي بن حيدر صاحب «ابو عريش» ،وقد كان هذا التقسيم لليمن والتجزئة فيها نذيراً لكل مشاعر العداوات والخصومات المتتالية بين الاتراك وامام صنعاء . وبالرغم من أن أشراف «ابو عريش» طردوا فيما بعد من السواحل اليمنية فان الأتراك أنفسهم حلوا محلهم وعيونهم متجهة لفتح اليمن الخضراء من جديد .

وفي سنة ١٨٥٠ لم ينجح الاتراك في تمكين انفسهم من الشِّحر على ساحل حضرموت واقامة قاعدة لهم فيها ، وفي عام ١٨٥٦ كانوا منشغلين باستقرار الامور الحجازية حيث وقع اختيارهم على احد الأشراف من عائلة عون ، وأشراف مكة ينحدرون من سلالة الحسن الثاني ابن الحسن السبط بن علي بن ابي طالب ومنهم الشريف قتادة بن ادريس الذي استخلص مكة من مختار بن عيسى آخر أمير من السلالة الهاشمية في عام ٥٦٧ هجرية . والضحاوي زيد والضحاوي عون متفرعان من نفس السلالة ، وكان عبد المطلب ايضاً من عائلة الضحاوي زيد الذي حكم في مكة عام ١٢٩٦ هجرية وكان حيدر بك واحداً من ذريته وقد ولد وتربى وترعرع في استانبول .

وفي عام ١٨٦٩ كان افتتاح قناة السويس عاملاً مساعداً للاتراك على الاهتمام عن كثب بالشؤون العربية ومن قاعدتهم بالحجاز رتبوا خططهم للتغلب على اليمن وعسير حيث كان اخضاعها غير مضمون . وفي سنة

١٨٧٢ انشـأوا حكـومتهم في هـذه الامـاكن واستمـروا في العمـل هنـاك حتى استسـلام قـواتهم لـلانجليـز في ميناءى الحـديـدة وعـدن بعـد هـدنـة عـام ١٩١٨ ، وسـوف استبقي بعضـاً من العهـد التـركي في اليمن الى الفصـول الأخـرى مـن الكتـاب وكـذلـك حـربهم مع أئمة صنعـاء ، والتي انتهت عـام ١٩١١ بسبب نشـوب الحـرب التـركيـة ـ الايـطاليـة . وانـا ارغب اولاً وقبـل كـل شيء في أن أروي بـاختصـار قـدر مـا استـطيـع عـلاقـاتنـا الأولى مـع اليمن التي بلغت أوجهـا بالاستيلاء على عدن عام ١٨٣٩ .

الفصل الثاني

إتصالنا المبكّر باليمن

بلغ الدرجة القصوى بالاستيلاء على ميناء عدن عام ١٨٣٩

في عام ١٦٠٩ قامت أول سفينة بريطانية بزيارة عدن بقيادة أ. شاربي Capt. A. Sharpey واسم تلك السفينة (الصعود) Ascension وقد ألقي القبض على شاربي واعتقل عدة اسابيع وحجزت الحمولة التي على ظهر الباخرة وبعد ان اطلق سراحه ذهب الى المخا التي كانت سوقاً للتجارة بين الهند ومصر . وفي عام ١٦١٠ ارسلت شركة الهند الشرقية للتجارة الأدميرال هنري مدليتون Admiral Sir Henry Middleton فوصل الى عدن مع ثلاث سفن ثم ذهب بعد ذلك الى المخا وللمجاملة نزل الى الشاطىء حيث دعي الى ذلك فهاجمه الأتراك غدراً وقتلوا ثمانية من رجاله وأسروه مع الآخرين وأخذوهم الى الباشا في صنعاء. واما الهجوم الذي قام به مائة وخمسون تركيا على سفنه فقد صد بمجزرة رهيبة ، وبعد مرور بعض الوقت اطلق سراح الادميرال ومرافقيه وأنذروا بعدم العودة الى الجزيرة العربية . وبالرغم من ان صنعاء كانت بأيدي الأتراك حينذاك فانه لم يكن يتمكن اي واحد منهم من السفر صعوداً وهبوطاً بغير صك أمان من شيوخ القبائل .

وفي عام ١٦١٢ وصل الى المخا الضابط سارس Capt. Saris مع ثلاث سفن . وفي عام ١٦١٨ بلغ هناك القبطان شيلينج Captain Shilling بناءً على طلب من السيد رو Sir Thomas Roe سفيرنا لدى المغول الكبير وقام ببناء مصنع . وقد كان الفرنسيون انفسهم مهتمين بالبحر الاحمر وغزو مصر سنة

١٧٩٩ انتظاراً منهم لغزو محتمل للهند . ومن اجل ذلك ارسلنا قوة بحرية للطوف في البحر الأحمر ولإحياء التجارة المفقودة فيه واحتل الكولونيل موري Colonel Murray جزيرة بريم القريبة من باب المندب والتي كانت قبيل ذلك مهجورة لا ماء فيها وعديمة النفع وأوت قواته المؤلفة من ثلاثمائة رجل الى عدن حيث استقبلهم بحفاوة بالغة سلطان لحج وعدن وتوابعها احمد عبد تكريمه حتى انه عرض تقديم عدن الى البريطانيين (عندما ترك الاتراك اليمن عام ١٦٣٠ اصبحت البلاد خاضعة للأئمة في صنعاء وفي عام ١٧٢٨ استولى مشايخ لحج على عدن وخرجوا بدورهم عن ولائهم للعاصمة صنعاء) كما تعين ايضاً الدكتور برنجل Dr. Pringle في مهمة خاصة من قبل حاكم الهند نعم لدى امام صنعاء المنصور علي الذي اصدر امراً الى عماله في المخا والتحية ان يقدموا له التسهيلات التجارية . وبعد مرور عامين حاول السيد هوم بوفام الوصول الى صنعاء لإجراء محادثات وللمفاوضة لعقد معاهدة تجارية ولكنه عومل باهانة من قبل حاكم المخا ورفضت اقتراحاته من قبل الامام . وهذا السيد هوم بوفام Sir Home Popham الذي يحمل لقب فارس والحاصل على وسام القديس جون صاحب بيت المقدس والسفير لدى الحكومات العربية لقي مع ذلك حفاوة واستقبالاً ودياً لدى السلطان أحمد سلطان لحج السالف الذكر الذي دخل مع السيد هوم في معاهدة مودة وتجارة سنة ١٨٠٢ . وبهذه المعاهدة منحت الموانىء العدنية للبضاعة التي تأتي بها السفن البريطانية . وقد تضمنت هذه المعاهدة الاتفاق على تحديد الرسوم التي يتم تحصيلها . والتزم السلطان بعدم فرض رسوم اضافية او عوائد جمركية على وقوف السفن في عدن والا تعرض للخسارة ولضياع صداقة الأمة البريطانية وقطع العلاقة التجارية معها . ومن الأشياء الأخرى التي تضمنها الاتفاق المصادقة على ان يكون للرعايا البريطانيين المسجلين حق مطالبة العلم البريطاني بحمايتهم من كل اذى ، وبأن لا يتعرض البريطانيون للاهانات ، وبأن بمكانهم ركوب الخيل او البغال او حمير او أي حيوان آخر يرونه ملائماً بدون ايذاء أو تعرض ، واكثر من ذلك هو تخصيص قطعة ارض لتكون مقبرة للرعايا البريطانيين بدون مقابل . كما تم ايضاً حجز قطعة الأرض التي تدعى حالياً كريتر ليقام عليها مصنع بريطاني . واما فيما يتعلق بالخلافات والمنازعات الناشئة بين الرعايا البريطانيين

فانها ترفع الى الوكيل السياسي البريطاني ، بينما يجب حل المنازعات التي تكون بين رعايا السلطان والرعايا البريطانيين طبقاً لقوانين البلاد العربية . وهذه لا شك معاهدة عجيبة بالنسبة للزمان الذي تمت فيه والاشخاص الذين تخصهم لأن التاجر الاوروبي لم يكن محبوباً في ذلك الشاطىء وينبغي ان يقال بأن السلطان احمد كان رجلاً جديراً بالاعتبار وقد كان يدعى (ابو رعيته) . وهذا اللقب لا يزال العرب يطلقونه على البيت المالك الحاكم في لحج . ولكن الأمور تغيرت كما يبدو ، فقد قال هينس في عام ١٨٣٩ ملاحظاً (انه لشيء محزن ان يقال انه بعد عودة القوات من مصر الى الهند كانت كل من عدن والمعاهدة شبه منسية وان المدينة التي كانت ذات مرة مزدهرة قد تحولت الى قرية مهجورة) . وفي عام ١٨١٧ نهب دار المقيم البريطاني في المخا وأهين الموظف البريطاني عن طريق الحاكم . وفي عام ١٨٢٠ هاجم قسم من الاسطول البريطاني طابية المخا وطلب الاعتذار فقدم له ذلك . وفي عام ١٨٢١ وقعت معاهدة مع امام صنعاء ولكن بعض الاختلافات الخطيرة في بنود المعاهدة بين الترجمة الانجليزية والعربية تسببت في الاحتكاك بين الاطراف المتعاقدين ولأن الامام كثير الشكوك فقد رفض قبول التعديلات . وأذعنت بريطانيا لكل نقطة انقاذاً للموقف ما عدا ما لم يمكنها التساهل فيه وهي المادة السادسة التي اشترطت بأن خدم المصنع يجب ان يكونوا مسؤولين امام الوكيل السياسي البريطاني وحده . ولم تتم المصادقة على هذه المعاهدة وحالاً صارت ورقة ميتة . وقد وقفت على نسخة الامام الأصلية . وسوف نرى في الفصل التالي ومرة اخرى في معظم الاوقات الراهنة كيف ان الامام وكذلك نحن الانجليز عملنا محاولات في يوم ما لقيام الصداقة والوئام غير ان حظوظنا خانها التوفيق ، لكنه يوجد هناك شعب بكامل قواه العقلية فالعربي القوي موجود اليوم في اليمن واين هي القوة السحرية التي يمكنها ان توحد بيننا الإثنين ؟ .

وقد ذكرت قبلاً بان سلطان لحج واسمه فضل بن علي كان نائباً لإمام صنعاء فتمرد عليه عام ١٧٢٨ وتخلص من تلك التبعية التي كانت تجعل لحج تحت الاشراف المباشر للسلطة المركزية في صنعاء . واتحد مع قبائل يافع في

الشمال الشرقي من محميتنا الحديثة العهد على الاستيلاء على عدن واشترطوا فيما بينهم ان يتمتعوا بايراد الميناء بالتناوب . وفي عام ١٧٣٥ اقصى شيخ لحج زميليه[1] وكان جشعه سبباً في سرعة تأخر عدن وانحطاطها وبعد ذلك الوقت بسبع سنين اغتال أهل يافع السلطان فضل بن علي وخلفه ابنه عبد الكريم فحكم مدة إحدى عشرة سنة وخلف خمسة ابناء منهم عبد الهادي الذي حكم مدة اربعة وعشرين عاماً ثم خلفه أخوه الذي مات دون ان ينجب ولداً فخلفه في الحكم أخوه أحمد . وهكذا تحققت نبوءة عمدة عدن وزعيمها الديني السيد العيدروس الذي يوجد اليوم في عدن زعيم وطني آخر من سلالته ولم تكن تلك اللعنة بلا سبب فقد حدث الآتي كما تقول الاسطورة :

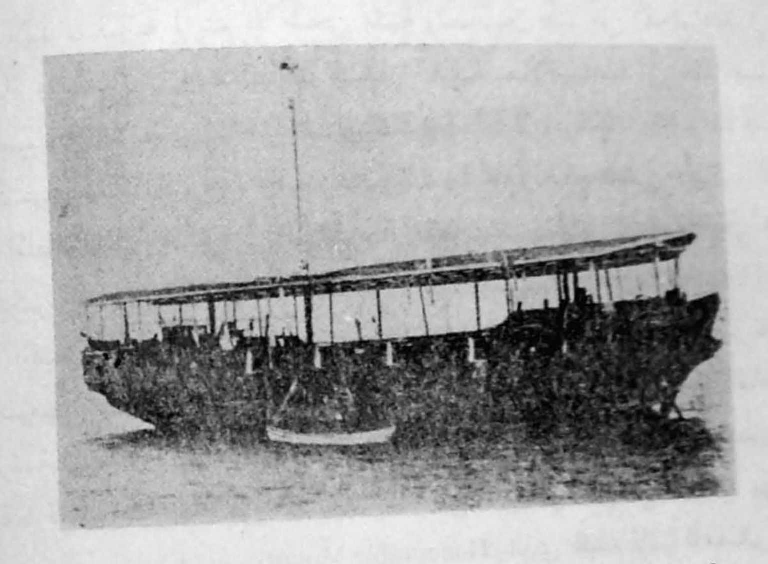
في عهد عبد الكريم كان يوجد نزاع بين السيد العيدروس والسلطان وقد استعمل أحد أبناء الأخير كلمات نابية وألفاظاً جارحة وهو في حالة من الغضب والانفعال ضد الأول ، فاغتاظ العيدروس من هذه الاهانة التي تمس دعوته الدينية وابتهل الى الله أن ينتقم من الطاغية وان يصيب ذريته بالآفات . ولهذا السبب بات أكبر الأبناء في العائلة منقطع الذرية فشغل العرش العبدلي ذرية الأخ الأصغر لعبد الكريم واسمه فضل ومن فضل هذا أنجب محسن فضل الذي أضاع عدن الى هينس وهو السادس من البيت العبدلي ولا زالت ذريته حتى الآن تتناوب الحكم كسلاطين تحت لقب « محسن » . وقرين Green في كتابه (تاريخ وجيز للناس الانجليز Short History of the English People) عزا استيلاء الانجليز على عدن الى اهمية قيام محمد علي باشا في مصر واعتبر احتلال عدن من أجل العمل على هزيمته « خوفاً من قيامه ببسط الحماية على سورية والجزيرة العربية حين انتصب عبر الطريقين الى الهند - وهما البحر الأحمر ووادي الفرات بعد أن وهبهما اختراع البخار أهمية تجارية كبيرة - ولذلك عمد بالمرستون Palmerston الى عقد معاهدة تجارية مع السلطان[2] تتضمن حرية التجارة في كل انحاء

---

(١) - هما سيف اليافعي وفيصل بن علي بن سلام . (المترجم) .

(٢) - في عهد السلطان عبد المجيد . (المترجم) .

الامبراطورية العثمانية ، ومن اجل تنفيذها اقتضى الأمر التنازل عن عدن تلك القلعة التي تلفحها الشمس والواقعة عند فوهة البركان الهامد والتي تتحكم بمدخل البحر الأحمر » . وقد قمنا بالبحث عن محطة مناسبة للفحم في تلك المياه . وفي عام ١٨٢٩ كان الفحم يرسل الى عدن ويتم تفريغه في جزيرة صيرة وكان مقصوداً به لحساب مخازن الفحم ، الهوج لندسي The Hugh Lindsay وهي أول بناء للسفن البخارية في الهند ، يقول هينس : « بسبب كسل الأهلين وبالرغم من مواعيد السلطان بالمساعدة مقابل حصوله على مدفعي ميدان فإنه لم يتم الا شحن مئة وثمانين طناً من الفحم فقط في مدة ستة ايام ونصف » . وقد كانت هذه الحقيقة بالاضافة الى بعد عدن عن بومبي سبباً في الانصراف عن عدن لمصلحة المكلا ، وهكذا (غرقت عدن في زوايا النسيان مرة أخرى) وعند هذه النقطة أود إدماج بعض جوانب الأضواء المفيدة الملطفة والتي مدّني بها الكولونيل المتقاعد بقنولد Bagnold وهي مقتبسة من المذكرة اليومية لوالده ميشيل ادوارد بقنولد Michael Edward Bagnold الذي انضم الى قوة بومبي البحرية كمتطوع في عام ١٨٠٢ ثم نقل الى جيش بومبي التابع لشركة الهند الشرقية في عام ١٨٠٤ وتقاعد عام ١٨٤٦ وهو برتبة لواء . وفي عام ١٨٢٥ عندما كان الضابط بقنولد في الطريق لنيل وظيفة اركان حرب اللواء لقسم من الجيش الشمالي قابل النبيل مونتسرات الفنستون Honourable Mountstuart Elphinston الذي عينه قائماً بأعمال الوكالة السياسية في المخا وسوف اورد في مايلي كلماته : « في عام ١٨٢٧ تبين ان المواصلات البخارية مع اوروبا لا بد وان تصير أخيراً من ذلك الطريق وان عدن فقط هي الموقع المناسب بحكم الطبيعة كمحطة ، فتوجهت الى هنالك وبعد معاينة دقيقة للمكان زرت العاصمة لحج حيث نجحت في اقناع السلطان محسن بتقديم الميناء والقلعة الى الحكومة البريطانية بأحسن الشروط تسامحاً ولسوء الحظ كان رفض ذلك عن طريق السيد جون مالكولم Sir John Malcolm والتكهن الذي ابديته له من أننا سوف نبذل مئات الأحياء ومئات الألوف من الأموال للعودة الى عدن ، وأننا سوف نقدّم التوسلات والتهديدات ثم التوسلات للشيء الذي قدم إلينا هدية بلا مقابل قد تحقق كله واكثر منه في ما بعد » .



صورة السفينة الحربية الشراعية ذات الصوراي والمسماة « الفرات » وهي التي استخدمها هينس في عمليات الحصار في عدن

وإلقاء نظرة على سلوك السلطان محسن في ما بعد كما اتضح من مواقفه التالية مع هينس تجعلني اميل الى الظن بأنه كان غير صادق في ما وعد بتقديمه الى بقنولد كما انه مع ذلك يوجد رجال القبائل دائماً وهؤلاء يجب استرضاؤهم . وقد ترك الميجور بقنولد المخا في سنة ١٨٢٨ عند إلغاء دار ممثل الحكومة هناك وقد اثنى على عمله السيد جون مالكولم . وفي سنة ١٨٣٨ قدم حاكم بومبي الى الكولونيل بقنولد قيادة الحملة العسكرية للاستيلاء على عدن ولكن مرضه اجبره على الترك . واتمنى لو نحصل على مذكرات بقنولد عن المخا . وبعد الذي اوردته عن بقنولد أعود الى حديثي السابق فأقول : أرسلت حكومة بومبي بعد ذلك القائد هينس Haines وهو من رجال البحرية الهندية للقيام بالطواف على طول الشواطىء الحضرمية بحثاً عما اذا كان بإمكانه العثور بطريق الصدفة على مستودعات مناسبة للفحم في المكلا او في جزيرة سقطرة . فقام هينس بمعاينة سريعة لمئة ميل من الشاطىء في شهر واحد وبعد ذلك ابحر الى كشن التي تقع على الارض الرئيسية الى الشمال من سقطرة وطلب من رئيس المهرة السماح له بمساحة تلك الجزيرة وذلك لأن سلطان سقطرة يكون أيضاً سيد الشاطىء العربي هناك . وقد تم الحصول على الاذن ووصل « هينس » في عام ١٨٣٤ الى تماريدا على الجانب الشمالي وانتهت مساحته للارض وذهب الى بومبي Bombay وفي اكتوبر من نفس السنة رجع الى كشن للمفاوضة على شراء سقطرة وقد ابحر اليها على ظهر السفينة بالينيورس Palinurus ووافقت الحكومة الهندية على دفع ١٠,٠٠٠ كرون الماني (ريال ماري تريزا) ثمناً لهذه الصفقة ، لكنها اضافت الى ذلك قولها ان النقود القليلة التي يدفعها هينس سوف يعقبها قيامه بانشاء اعتمادات وديون اكثر منها : (معرفتك الشخصية بأولئك الزعماء وبسجاياهم وطبائعهم سوف تمكنك من ان تكون مفاوضاً لمصلحتهم) (وهكذا) . وكان هينس يتوقع انه بمجرد وصوله يجد القوات البريطانية قد وضعت يدها على الجزيرة كما اخبروه بذلك ولكنه وجد الزعيم الكبير هناك عنيداً وغير راغب في التخلي عما خلفه الآباء من أرض ، على الرغم من أنه اعترف بأن الجزيرة لا تستحق ان تكون مصدراً للدخل وقد خاطب هينس قائلاً :

(ربما يأخذ الانجليز الجزيرة ، ولكن بيعها لن يحصل ابداً)

وشيء شبيه بالكراهية او هو الشك في اهدافنا الاخيرة او البعيدة تسبب ايضاً في مقاومة السلطان واعتراضه على الايراد المقدم اليه مقابل مساحة الارض قبل الحرب العالمية العظمى .

وبتهديد السلطان واعطائه هزة رعب ورعشة خوف تم ارسال جيش الى هناك وبالرغم من عدم نزوله الى البر فقد طلب الى السلطان ان يصعد الى السفن لمشاهدة قوة بريطانيا وهذا يعتبر مجوناً من جلبرتيان Gilbertian وسخرية !! فالعربي يحب وطنه وان كان في اغلب الاحيان يلام بعدم الوطنية . ومثل يقول : « درهم مطبوع باسمي خير من دينار مطبوع باسم غيري » وهذا شبيه بقول هوايت مان Whitman « اتعطر بعطري دون غيره » ... وسقطرة تعتبر جوهرة المحيط الهندي ونشاطنا لا بد وانه قد اعطى العرب كثيراً من الأرق والسهر ، وعندهم حكمة تقول : « احذر من الانجليز الذين في البحر » . وقد ارسلت حكومة بومبي في الحال اسطولاً صغيرا لانها لم تكن تتوقع وجود صعوبات . ويشتمل ذلك الاسطول على السفينة دجلة Tigris بقيادة (روبرت لوي) Robert lowe والسفينة شانون Shannon بقيادة وري Lieut. Warry والطراد باتران Patteran حاملاً فصيلة من جنود المشاة والمدفعية وسلاح المهندسين والجميع تحت قيادة أ. بايلي Cap. R.A.Bayly ونزل الجنود في تماريدا بالرغم من الاحتجاج ومكثوا هناك عدة شهور . وفي الاخير اقتنع السلطان بالموافقة على السماح بإنزال الفحم والمؤن الأخرى في اي جزء من انحاء الجزيرة . ولكن لم تتم المصادقة على هذه الاتفاقية التي برمت معه .

وفي شهر ابريل سنة ١٨٣٥ وصلت السفينة الكوت « The Coote » لإنجاد السفينة دجلة . وكانت الكوت بقيادة « روز Cap. Rose » ومزودة بثمانية عشر مدفعاً . وكان احتلال الجزيرة جالباً للنوائب فأمواج الشاطىء الصخري العنيفة أغرقت أحد قوارب السفينة دجلة بمن عليه من الرجال وأهلكت الحمى عدداً كبيراً من الجنود الذين كانوا يعيشون في الأرض المنخفضة عن مستوى سطح البحر ، وبصعوبة امكن العثور على رجل سليم لحفر القبور . فانسحبت القوة وغدت سقطرة بدورها مهجورة وقد كان على الحكومة ان تصغي الى المساحين البحريين وتحتل مرتفعات جبل هجار فلعل

ذلك يمنع الكارثة .

ونحن نتذكر هنا آلام سنة ١٨٩٩ المشابهة التي قاستها البعثة العلمية برئاسة الدكتور فوربس Dr. Forbes والسيد اوجلفي قرانت Mr. Ogilvie Grant ومرة اخرى رجعت الحكومة الى عدن بعد الفشل والخيبة في كل مكان . وكان هينس قد التقى بسلطان عدن في اثناء مساحته للشاطىء العربي وبحث معه حادثة سفينة مادراس Madras وهي الباخرة المعروفة باسم (داريادولا) Darya Daula والتي تعرض ركابها وبحارتها لأسوأ معاملة وحشية (وكان سلطان عدن هذا اعظم مدمن على نهب حطام السفن وعلى الأخص في هذا الحادث)وقد اوقف هينس أمام عدن واحتج على السلطان الذي سمح ببيع الحمولة المنهوبة في السوق . ولذلك فقد أرسل هينس من جديد وتم تعيينه وكيلاً عن الحكومة التي كلفته بالحصول على تعويض من السلطان وفي حال فشله في ذلك يقوم بالتمهيد لشراء عدن .فأبحر على الباخرة الكوت The Coote الى المخا وعدن . وعندما وصل الى عدن دعي لمقابلة السلطان في اليوم الرابع من يناير . ولما نزل الى البر أنكر السلطان كل علم له بالسفينة على الرغم من ان الحمولة قد بيعت في المدينة . فطلب هينس مبلغ ١٢ الف دولار (ريال) او اعادة كل الممتلكات . وقد سبب طلبه هذا هيجاناً محلياً قوياً . وحاول السلطان جهده لتعديل قرار هينس وقامت جماعات كبيرة من البدو المسلحين باستعراض امام مسكن هينس وصدرت التهديدات ولكن هينس ظل ثابتاً واخيراً حصل اعادة ثلثي الممتلكات واعطيت كمبيالة بالباقي لمدة ١٢ شهراً . وبعدئذ افتتح هينس المحادثة للتخلي سلمياً عن عدن . وكان الحال يستلزم وجود حصافة كبيرة لأن السلطان عنده كل الدهاء والطمع في المال وخيانة الآسيوي ، وخوفه من قبائله يمنعه من التخلي عن عدن علناً لأنهم بطبيعة الحال سوف يطالبون باقتسام الغنيمة . ولذلك طلب السلطان ايراداً منتظماً في مقابل ذلك (مثل الذي اعتاد مهراجا الهند الحصول عليه سنوياً) واخيراً وعد بالتخلي عن عدن عندما يصل الجنود البريطانيون لوضع اليد عليها ، ووافق هينس على اعطائه مبلغ (٨,٧٠٠) ثمانية آلاف وسبعمائة ريال سنوياً .

وبعد مرور أيام قليلة أوقف هينس قارب السفينة الحربية الكوت عند

رأس المضيق (المنطقة البخارية) ، وبينما كان يجتاز رأس حجوف شاهد ترجمانه ومعه بعض الفرسان وقد ناداه المترجم ومن معه بحرارة ولهفة ، وطلبوا اليه بكل قلوبهم أن يعود أدراجه . وعندئذ رسم هينس خطة للمحافظة على نفسه وعلى اوراقه . وهذا السر الذي نقل اليه أفشته امرأة جارية . وهكذا قال عربي هينس في ما بعد : « ان الله قد رعاك بعناية من البداية الى النهاية والا لم تكن تستطيع ان تتغلب على ما كان يقدر لك في عدن » .

وفي شهر سبتمبر ١٨٣٨ رجع هينس الى عدن على ظهر السفينة الحربية الصغيرة الكوت The Sloop of War Coote ومعه فصيلة عسكرية مؤلفة من ضابط وثلاثين أوروبياً كحرّاس ، والملازم وستران انجنيرز Lieut. Western of the Engineers الذي خطط في ما بعد تحصينات عدن . وقد طلب هينس تسليم عدن في الحال كما هو متفق عليه من قبل في شهر يناير . وقام بنصب خيامه على رأس تارشين (حيث يقع الآن دار المقيم البريطاني ومساكن ضباط المدفعية) ولم يستطع أحد من العرب ان يخبرني عن الأصل الذي اشتقت منه كلمة تارشين والتي من المحتمل ان تكون « فارشين » وهذه الكلمة الأخيرة مناسبة اكثر ، فهي تصف الجبلين الداخلين في البحر حيث يمتد صرفهم نحوه ويطلقون عليهما اليوم رأس تارشين ورأس مرباط .

وقد قام أحمد نجل السلطان بزيارة هينس وقال له ان السلطان يرفض كلا من تسليم عدن واعادة باقي حساب الممتلكات المنهوبة ما لم يعد هينس وثيقة الدين المعطاة له . ولم يصدق أحمد رغبة الحكومة البريطانية والبريطانيين في امتلاك عدن مع انهم بالتأكيد قد وضعوا أيديهم على المكان . وطلب من هينس اوراق اعتماد وتفويض فسلمت تلك الاوراق اليه وذهب للتشاور مع والده . وفي اليوم السابع والعشرين من شهر اكتوبر ذهب الكابتن دنتون Capt. Denton الى كريتر طالباً الحصول على تموين وماء للجنود فكان رفض هذا الطلب وعند ذلك كتب هينس الى الحاكم قائلاً بأن ذلك الرفض يساوي اعلان الحرب . وفي الثلاثين من اكتوبر كتب السلطان محسن من لحج يقول بأن قروحاً في رجليه منعت قيامه من سريره وأحال هينس على نجله أحمد في عدن الذي سوف يبت في الشؤون المتبادلة لمنفعة الطرفين . وكتب أحمد الى هينس متوعداً وينذره بأن يكون حذراً وبأن والده لا يمارس عليه السلطة وأن

قبائل البدو قد اعترفوا به وحده كسيد عليهم وبأنهم يرجونه الإيعاز اليهم بالانقضاض المفاجىء على البريطانيين . وصدر تهديد آخر يتوعد هينس ومن معه بضرب اعناقهم وبالاستيلاء على الخيام والسفن ، فحمل ذلك هينس على العودة مع رجاله الى السفينة الكوت .

وفي العشرين من شهر نوفمبر اطلقت النيران على زورق السفينة وكان يقوم بقيادته الملازم هاملتون Lieut. Hamilton فجرح رجلان وأصيب القارب بطلقات في عدة اماكن . وكان هينس قد منع في وقت سابق قوارب السلطان التي تبيع البلح من دخول الميناء مقابل رفضهم امداد الكوت بالمؤن ومن باب المعاملة بالمثل . ولكن حصل بعد ذلك فجأة حادث أخير كان سيئاً فقد صدر الأمر الى دنتون بإيقاف التجارة كلية وتلت ذلك مناوشات . وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر طلب أحمد عقد هدنة فمنحت له غير ان كل ذلك كان عبثاً فقد تسلم هينس خطاباً من :لشاطىء الصومالي وبضمنه رسالة من الشاب أحمد يعرض فيها تقديم مئتي ريال انجليزي الى الزعيم الصومالي تادجورا صوماليس Tadjoura Somolis مقابل قيامه بمنع الماء عن السفن البريطانية وقتل اي بريطاني ينزل الى البر . وعند وصول السفينة ماهي H. C. Shooner Mahi والسفينة آن كريشتون Ann Crichton محملتين بالفحم قاد ذلك العرب الى الاعتقاد بأن البريطانيين جادون فعلاً .

وفي اليوم الحادي عشر من شهر يناير ١٨٣٩ حدثت مناوشة كبيرة في جزيرة صيرة بين المدفعية العربية المقامة على الحائط الذي يحجز مياه البحر وتتكسر عنده الأمواج والمجهزة بالمجندين من الطوبجية المصريين ، وبين السفينة ماهي ومعها قاربان مسلحان . وقد جرح رجلان من الانجليز بينما كان عدد القتلى والجرحى من العرب يتراوح بين العشرين والثلاثين شخصاً . وكان هينس نافراً من اللجوء الى القوة وغير راغب في استخدامها لارتباطه المستمر مع حكومة بومبي وتقيده بتعليماتها ، وكان يوجد شخص آخر تتحتم ترضيته في حالة بيع عدن الينا وهو السلطان الحوشبي الذي تقع سلطنته في شمال لحج . وهذا السلطان هو الذي زوج ابنته الى الشاب العنيف أحمد نجل سلطان لحج . وقد رأى هينس ضرورة قيامه بالاتصال مع قبائل الفضلي واليافعي التي تسكن بالداخل في المناطق المحيطة بعدن ليؤكد لهم صداقة

بريطانيا نحوهم ثم تشجيع التجارة معهم . وقد اعتنق هينس هذه الفكرة : « المهارة السياسية سوف تمنع الشك في تجاوزنا لحدود الغير للمرة الأولى » وقد دافع عن ذلك بقوله : « التأني الزائد والتمسك بالاتزان ، والتصميم على الغرض ، كل ذلك سوف يعيدهم الى الصواب »ولتفاؤله بالخير اعتقد (بعدم ضرورة استعمال القوة للتأثير على تسليم عدن وانما ينبغي ان يكون ذلك بطريق سلمي) ولكنه مع ذلك طلب امدادات متعللاً بأن (البدو لا يستطيعون البت بسهولة حتى ولو كان ذلك على تقسيم كيس من التمر (تسبح ، حيث لا بد من مرور ساعات كثيرة في الشجار عليه) . وان سياسة التشوق كانت (تقضي بتركهم يتعاركون ويقتتلون في ما بين انفسهم وبمرور الوقت سوف يهدأون وينطفىء حماسهم فيدركون السبب ويصغون) وقد استطاع الضابط دنتون Commander Denton النزول الى البر والحفر في الأرض لاستخراج المياه ، وهذا بالتأكيد برهان على قلة ما عملناه في عدن حتى انه في عام ۱۹۲۳ لا زالت عدن بدون مياه نقية . وقد حضر عدد من خبراء الدراسة وقدموا مشاريع وذهبوا بعيداً دون القيام بالتنفيذ . وعدن بحاجة الى الشعور القويم . وفي اثناء ذلك كان العدو قد نصب ثلاثة مدافع على الربوة الشمالية (وهي الممر الرئيسي اليوم) . كما ان مدفعين آخرين صلا على الخليج الشرقي (في كريتر) والممر الذي يقع بين جزيرة صيرة والربوة الجنوبية المؤدية الى خليج حقات ، والذي نسميه (معرشاق) وهو تحريف للكلمة العربية (مع الشيخ) وهو المكان الذي تستطيع القوارب ان تنسحب اليه للوقاية . وقد اختار هينس مخزناً للفحم اقيم على منطقة رملية وأرض مستوية ذات مياه تفي بالغرض لتمكين السفن من الوقوف على بعد مائة ياردة من الشاطىء . وهذا المكان هو « رأس الشيخ أحمد » حيث يقوم اليوم (امير ويلز بندر) The Prince of Wales Bunder ومن خلفه يضطجع في مزاره الولي صائد السمك (أحمد) الذي خلع اسمه على المكان والجزيرة المقابلة له والتي نسميها بعيدين عن الخيال جزيرة الحجر الصحي .

كان هينس مدققاً . وقد قدم الى مبعوثي السلطان ثمانية آلاف دولار (ريال) مقابل تسليم عدن . وتُرجم هذا المبلغ الى سيدهم على انه ستة آلاف ريال مؤملين ان يضعوا الفرق في جيوبهم !!! وكان العرب في عدن

على اتصال بالقائد المصري في اليمن بقصد الحصول على مساعدته بإرسال قوة من الرجال .

ولما حان الأجل ، ونفذ الصبر ، ولم يبق متسع من الوقت اصبح الاستيلاء على عدن امراً مقضياً ! وقد طلب هينس امدادات من الجنود الاوروبيين ومن رجال المدفعية الهنود وعددهم ستمائة وخمسون رجلاً مع عدد من المعماريين ورجال التعدين ، كما طلب أيضاً كتيبة مؤلفة من مائة رجل ومكونة من مختلف الرتب يصحبهم اربعة وعشرون بحاراً مع سفينة مزودة بثمانية عشر مدفعاً وأخرى مزودة بعشرة مدافع ، وباخرة صغيرة وقارب شراعي يحمل كل منهما مدفعاً طويلاً . وبالاضافة الى ذلك أعطى امراً لثمانية وعشرين مدفعاً من ذات عيار يتراوح بين ١٢ و ١٨ رطلاً لكل قذيفة للدفاع عن النقط الرئيسية بعد الاستيلاء على عدن . كما عهد الى مدفعين للدفاع عن طوابي السواحل من جهة المرتفعات التي تقع الى الشمال الشرقي . وطلب على وجه الاستعجال ارسال قوة احتياطية قوامها خمسمائة رجل من الاوروبيين والوطنيين الهنود معللاً تقديراته بحجم سكان عدن واحتمال قيامهم بهجوم . واعتقد بأن عدن سوف تتسع بسرعة وأنه بعد استيلاء بريطانيا عليها ستوفر لها الامن والاستقرار وسوف تصبح مدينة مختصة بالمعاملات التجارية ـ Mercan-tile Emporrium وقد استعاذ هينس حينذاك من قلة السفن الحربية : (لأن البدو ينالهم خوف عظيم بمجرد ظهور السفن المقاتلة امامهم) وأردف قائلاً (ان وجود سفينة حربية واحدة وهي الكوت The Solitary Coote قد شجعهم على ان يتمايلوا استخفافاً عندما تساءلوا فيما بينهم : هل بريطانيا فقيرة لدرجة انها ارسلت سفينة واحدة ؟ وهل وصلت هذه السفينة لمجرد المحادثة فقط ؟ ولماذا لم ترسل من قبل ؟ ولو أن البريطانيين ارسلوا رجالهم وسفنهم لأذعنا لهم ولكن حتى يحدث هذا سوف لن يتملكوا عدن). وهذا تصوير تام للمثل الهندوستاني « يجب ان يسبق المحادثة عراك » أو تفسير له : « بيلي لات بيجي بات Pahle lat . Pichahe bat » .

وقد يقال ان السلطان محسن قد عرض تسليم عدن اذا ما وصلت قوة لذلك وبمجرد ظهورها ، وان انذارات هينس ثم شكواه المتكررة من غدر السلطان كان ضغطاً كبيراً بقصد العنف والإكراه ، لا سيما عندما نعتبر ان الاستيلاء على عدن كان في حد ذاته نوعاً من اللصوصية ! .

ويمكن الرد على ذلك بأن هينس كان واقفاً امام ظروف وفي حالة وصفها بهذه العبارة : « محادثة مع رجال ليس عندهم احترام لربهم ولا لأنفسهم ولا يقولون الحقيقة حتى بطريق الغلط ، ويتمنون بيع اقرب قريب منهم ليستأثروا دونه بمصالحهم الخاصة وبالانفراد بالسلطة » .

وهذا كلام لاذع وأنا أظنه اتهاماً ناشئاً عن التعصب الضيق وقد نسي هينس تجربته في سقطرة عندما تردد الزعيم هناك في تسليم جزيرته . وقد حكى تاسيوس Tacitus بأن البريطانيين في زمانه لقبوا الفاتحين الرومان بالطيور الجارحة . فهل نرتدي نحن ألبستهم في هذه الأزمنة الحديثة ؟ .

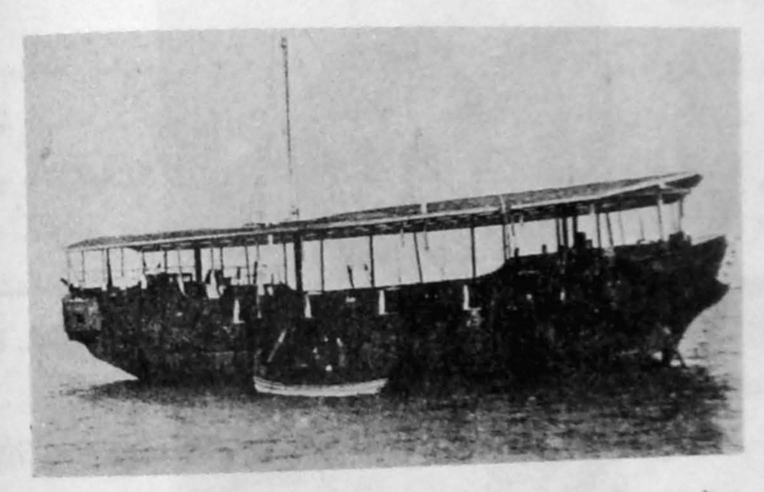
وقد كان على السلطان ان يلعب بورقته الأخيرة فعرض على هينس تسليم النصف من مدينة عدن . وقد رفض هينس ان يناقش هذا العرض وأمر بضرب حصار شديد .

وفي اليوم السادس عشر من شهر يناير عام ١٨٣٩ وصلت السفينة الحربية فوليج H.M.S. Volage بقيادة سميث Capt. Smith ومزودة بثمانية وعشرين مدفعاً والسفينة كروزر H.M.S. Cruizer بقيادة دانيل Lieut. Daniell وهي مزودة أيضاً بستة عشر مدفعاً وعليها ثلاثمائة من الجنود الأوروبيين وأربعمائة من الجنود الوطنيين الهنود تحت قيادة بيلي Major Bailie .

وكتب هينس رسالته الأخيرة والنهائية الى السلطان الاكبر محسن الذي كان عندئذ موجوداً في عدن مع سبعمائة من رجال البدو يأمره فيها بتسليم عدن . فكان الجواب مراوغة . ووصلت رسالة سرية مفادها ان السلطان قد درس تقوية مركزه وان الفاً ومائتين من رجال القبائل المجاورة في منطقة الفضلي تم استدعاؤهم للحضور . ولذلك قرر هينس التعجيل بإطلاق نيران المدافع . وكتب الى الكابتن سميث يخبره بأن عنده معرفة تامة عن الشؤون المحلية وأنه سوف يكون سعيداً في تزويده بكل المعلومات وفخوراً لاتباع قيادة اي السفن في الأسطول تشغل مكاناً لتدمير اقوى مراكزهم الحصينة . وقدم الى الكابتن سميث خطة صعبة واضعاً السفينة الكوت الى جوار بطارية صيرة مع قوات المشاة الذين تمت قسمتهم الى مجموعتين للعمل عندما يتم تدمير القلاع . وقد نفذت خطته باستثناء سميث الذي استبدل سفينته فوليج بالسفينة الكوت التي كان يقف عليها في خليج حقات . واستلم هينس السفينة فوليج ودوّن في مذكراته هذه العبارة : « انني اشعر بالفخر للقول بأن



اللفتنانت كولونيل بتسوورث هينس من البحرية الهندية التابعة للتاج البريطاني



السفينة الحربية التي استعملها اتباع هينس في عمليات الحصار

الجنود في القوارب تحت حماية السفن ، والاحتياطي على ظهر السفينة الكوت . ووقفت السفينة فوليج على أهبة الاستعداد ، وفي الساعة التاسعة والنصف صباحاً اتخذت مكانها على بعد ثلاثمائة ياردة من البطارية الأكبر قوة . وبعد عشر دقائق أخرى اتخذت السفينة كروزر مكانها كما عملت كذلك الباخرة ماهي في خليج حقات . ولقد كانت نيران السفن الثلاث مروعة حيث دمرت القلعة بما فيها من المدافع في الحال . ولكن بقي المدافعون عن صيرة مضطجعين تحت رأس يحميهم من نيران المدافع وكانوا مستعدين لإطلاق النار على بحارتنا بمجرد اندفاعهم الى البر ، ولكن السفينة ماهي ادركت الأمر واتخذت لها موضعاً آخر مطوقة جناح جيش البدو على بعد خمسين ياردة وأصلتهم نيراناً حامية ، غير ان نيرانها المتجددة سرعان ما اخرجت العرب من مخابئهم واخذوا يتقهقرون ، وتوالت عليهم النيران من كل صوب (من السفن فوليج وكروزر وكوت وماهي كلها مجتمعة) فلم يجسر العرب على اظهار انفسهم . وفي الساعة الحادية عشرة وخمسة واربعين دقيقة صباحاً ترك الجنود القوارب على دفعتين ، ونزلت كل مجموعة الى البر مرة واحدة . وقد اعترضتهم مقاومة صغيرة . وهرب ابناء السلطان مع اغلبية رجال البدو من المدينة . وبعد حوالى عشر دقائق من دخول المدينة كان العلم البريطاني يرفرف على قصر السلطان . وفي الساعة الثانية عشرة والنصف احتل قارب تابع للسفينة ماهي وآخر تابع للسفينة فوليج جزيرة صيرة . والقي القبض على ١٣٩ من رجال البدو سيقوا مشياً الى المدينة . وقد دون هينس ملاحظاته التالية :

« لا استطيع أن اعبر عن مشاعر الإعجاب بدقة النيران التي انهالت من السفن ومن مدافع الهاون ، ومن سلوك السفينة الصغيرة ماهي والتي حازت اعجاب الجميع . والشيء الوحيد الذي أثار الاستغراب هو كيف ان السجناء اضطجعوا متقاربين تحت الصخور ولم يهرب واحد منهم ، ولم يكن هناك شيء اكثر تنظيماً من النزول الى البر فكان الجنود ثابتين ومنظمين ، وتصرفوا بشجاعة ، واقتحموا المكان بمهارة ، والشيء الذي ظل مثيراً للاعجاب أكثر ، وكان اكبر برهان على حسن تنظيمهم وتدريبهم هو انه بعد نزولهم الى البر لم تقدم شكوى من رجل او امرأة عن حدوث أية مضايقة أو ازعاج » .

وكانت خسارة البريطانيين طفيفة جداً الى ان حدث التمرد المشؤوم من قبل الأسرى الذين كان قد ألقي القبض عليهم في جزيرة صيرة . وكان عدد القتلى والجرحى منا خمسة عشر وقد حدثت منها ثماني اصابات بعد الاستيلاء على عدن ، وكانت خسارة العدو فادحة حيث فقد منهم ١٣٩ علاوة على الكثيرين من الجرحى الذين فروا الى

الداخل . وقد تلقى جرحى العدو في عدن العناية الطبية وقام الدكتور مالكولمسن Dr. Malcolmson بمعالجتهم وبلغ عدد المقيدين في سجل المرضى اربعة وعشرين وقد اعطاهم هينس قليلاً من ريالات معونة لعائلاتهم . واحتمى السكان في جامع العيدروس حيث وضع جيش حرس قوياً للمحافظة عليهم . وفي اليوم التالي كانوا خائفين من العودة الى بيوتهم ، ولكن هينس ضمأنهم وذكر لهم بأنه قد تولى بنفسه السيطرة على المدينة وتوزيع جنوده في مراكز يقيمون فيها وبأنه سوف ينقل مركز قيادته الى المدينة . يقول هينس في ملاحظته : (ستكون جرأة مني حينما اشير بتقديم مكافأة خاصة او اقوم بطلبها ، وانما ترك ذلك الى الـ .S.N.O ولوزارة الحرب . . . والشيء الذي اقرره فقط طبقاً لاعتقادي الجازم هو ان الجنود البريطانيين والبحارة لم يكن في مقدورهم القيام بأحسن مما فعلوه) . ومن الابطال الذين اظهروا بسالة في المعركة ويستحقون الإشادة والذكر الضباط الآتية اسماؤهم :

دانيل Daniell ومدشبمان Midshipman ونسبت Nisbett الذي اصيب بجراح مع الأسف . وهاملتون Hamilton ودوبري Dobree وايضاً ماتس استيوارت Mates Stewart ورونديل Rundle ، والأخير هو الذي رفع العلم البريطاني على الشاطىء . ثم أخيراً اليوزباشي آيلس Ayles الذي كان مسؤولاً عن الرماة البحريين .

وهكذا سقطت عدن في أيدي البريطانيين ! وفي عام ١٨٤٠ صدر كتاب تكريم الرؤساء ، وقد اثنى على الخدمات الجليلة الشهيرة التي قدمت بواسطة القائد س. ب. هينس S.B.Haines واليوزباشي البحري اي. و. س. دانيل E.W.S. Daniel والسيد نسبت (اسماء تستحق الخلود) ومما جاء في خطاب التكريم : (تلك الاعمال تستحق عن جدارة بعضاً من اهتمامنا البالغ اعترافاً لهم بالفضل ، وقد قررنا طبقاً لذلك منح القائد هينس سيفاً يبلغ ثمنه مائتي جنيه غيني . واليوزباشي دانيل سيفاً آخر ثمنه مائة جنيه غيني - وكتب على كل منهما عبارة تقدير ، وفضلاً عن ذلك تعطى منحة لضابط الصف السيد نسبت Nisbett مقدارها خمسمائة ريال انجليزي) .

وقد قال لي عربي ذات مرة : « العلم البريطاني دفع البلية ! » .

وهذا تعقيب هينس وهو في التاريخ المتأخر يثير العواطف :

(هكذا سقطت عدن في الأيدي البريطانية . ولكن على الرغم من أنه أول فتح لصاحبة الجلالة[1] - بعد اعتلائها العرش- فإنه بلا ريب منسي لا يكاد يذكر من الحكومة

---

(١) - الملكة فكتوريا . (المترجم) .

بسبب قلقهم على انجاح الحملة غير الموفقة في افغانستان . حيث كان الاسرون هناك محل اهتمام ومكافأة ولذلك طغت عاصفة قزوين على احداث عدن . ومهما كان الأمر فلماذا التفرقة وقد تم اول فتح (عدن) وذلك العمل الآخر ؟ . . . ولقد صدت عدن بنجاح ثلاث محاولات كان العرب يتكاتفون فيها لاسترجاعها ، وهي الآن تنعم بالسلام والطمأنينة ، وغدت ماسة ثمينة في التاج البريطاني تطلب فقط من الحرب الأوروبية ان تعترف بقيمتها الحقيقية . بينما في قزوين حصل الكثيرون على المكافأة وزينت المداليات (الأوسمة) صدوراً كثيرة . وفي عدن ضاع الجندي الآن وتلاشى واستعاده من جديد الجنرال وليام نوت) .

وقد تحققت نبوءة هينس عن الفائدة المنتظرة لميناء عدن في حالة حدوث حرب في اوروبا عندما جاء عام ١٩١٤ على الرغم من ان وزارة البحرية تشككت في فائدة عدن ، ورفضت تقديم العون لتعميق الميناء كما هو الحال في غيره من الموانىء الخاضعة للامبراطورية . وقد وصف هينس عدن وقت ان وضع يده عليها في عام ١٨٣٩ بأنها قرية فقيرة بائسة تشتمل على حوالى ٦٠٠ بيت « كوخ » وأغلب السكان فيها من اليهود . والشيء الوحيد الذي أمكن العثور عليه هناك هو الاستيلاء على ثلاثة مدافع نحاسية تتراوح اطوالها بين ١٦ و١٧ قدماً وتتصل بقواعد تزن ١٦ طناً وتطلق قذائف يتراوح وزنها بين ٨٠ و١٠٠ رطل ويرجع صنعها الى مطلع القرن العاشر الهجري (عام ٩٠١ هـ) وقد تم سببها حين العثور عليها ونقلت الى صاحبة الجلالة ويعتقد بأن هذه المدافع قد تركت في عدن كوديعة من قبل الاسطول العثماني في عهد سليمان الكبير عند بداية القرن السادس عشر .

لقد أطنب هينس في الأهمية التي ستكون لميناء عدن فقال :

« ان الامكانيات الكبيرة لعدن في انماء التجارة وتنشيطها ، والتي لا يتمتع بمثلها ميناء آخر في شبه الجزيرة العربية ، واحتمالات بزوغ شمسها لا بد لها من أن تسبب بسرعة في التقليل من أهمية المخا وموانىء البحر الأحمر الأخرى ». وقد روّج هينس للعقيدة الدينية المسيحية ذلك انه « من خلال النفوذ البريطاني ربما انتشر نور الانجيل بين أولاد اسماعيل . وتمتد فضائل المدنية الى الدروب التي كانت حتى الآن بعيدة عنا وفي غير متناول أيدينا » .

ولعل بعثة كيث ـ فالكونر Keith - Falconer التبشيرية الى الشيخ عثمان لم تفز بعدد كبير ممن اعتنقوا المسيحية ولكنني مقتنع بأن وجود رجال وشخصيات مثل هون Hon ايون Ion كيث ـ فالكونر والاطباء ، الكس باترسون Alex Paterson وجون س. يونغ

John C. Young والكسر ماك ري Alex Mac Rae وما قاموا به من جهود طبية تبشيرية قد قدموا مساعدة لا تقدر بثمن لغاياتنا وأهدافنا في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ، وهذه هي خميرة النفوذ البريطاني (قرص) لتخمير الجماعة الساميين !! وربما عزي افول نجم المخا وتدهوره الأخرى في البحر الأحمر بعد عام ١٨٣٩ بصورة رئيسية الى الهجرات المتتابعة منه بسبب حكم سيء على ايدي اشراف «ابو عريش» الذين استولوا حينذاك على الأراضي المنبسطة من اليمن والذي اقترن به عهد هينس بما عرف عنه من عدالة ونزاهة ثم اعلان عدن كميناء حر .

وفضلاً عن ذلك فان مرض الكوليرا الذي تفشى بشدة على طول الساحل كان عاملاً في خراب ميناء المخا .وكمّل هذا الدمار في ما بعد انتعاش ميناء الحديدة على أيدي الأتراك . . . واليوم لا زال ميناء المخا معطلاً في الاتجاه القريب من الحديدة التي هي الميناء الوحيد والمنفذ الطبيعي للعاصمة صنعاء . ويهتم الامام يحيى [1] امام صنعاء بإصلاح ميناء المخا وسوف يكون تجديده سبباً في انعاش التجارة كما يقوي بدوره ميناء عدن بطريقة غير مباشرة .

لقد اصبح ستافورد بتسورث هينس Stafford Bettsworth Haines أول وكيل سياسي لنا في عدن لقاء راتب مقداره (١٦٠٠) الف وستمائة روبية شهرياً ثم زاد راتبه في ما بعد الى (٢٠٠٠) الفي روبية شهرياً .وسكن في كريتر بالمنزل الذي صار الآن داراً لضيوف العرب (أو دار الضيافة العربي) وكان يسكن في رأس مربط في الأوقات التي تكون فيها حرارة الجو شديدة وهذا المكان هو اللسان من الأرض الذي ترسو عنده السفن البخارية . وكان اليوزباشي جنكينس Jenkins نائبه المساعد ، ولكنه أبعد وخلفه اليوزباشي ك . ج كروتندن . C.J. Gruttenden في سبتمبر عام ١٨٤٠ وكانوا جميعاً يعملون في البحرية الهندية التي ألغيت للأسف في عام ١٨٦٣ . وقد أنتجت تلك الخدمة رجالاً كثيرين ماهرين وأنجبت أبناء ممتازين ملأوا كل الوظائف السياسية خلال بداية التجربة الادارية في عدن . ثم تلت ذلك نجدتهم بضباط من الجيش الهندي في عام ١٨٥٥ عند رحيل هينس وكروتندن . ويتذكر الواحد منا بإعجاب نشاط هينس ونزاهته ، وبساطته في الحياة . والى هذا اليوم يشير العرب الذين يقيمون داخل البلاد الى اهل عدن بأنهم عيال هينس (أولاد هينس) . وقد وصفه الكولونيل ف . م . هنتر F.M. Hunter اثناء عمله في مستعمرة عدن

---

(١) - حين اصدار المؤلف للكتاب . (المترجم) .

بأنه رائد الحضارة البريطانية في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ، والاسكندر دوماس Alex. Dumas في كتابه « العربية السعيدة » جعله احدى الشخصيات الثلاث في حديثه عنها عندما قال :

« الكابتن هينس في عدن ، والقنصل هاملتون في زنجبار والميجور هينيل المقيم في بندربوشير يكونون الحلقات الاساسية لتلك السلطة الانجليزية العظيمة والقوة الميكانيكية المحركة . وهم الذين حكموا البحر الأحمر والخليج الفارسي [1] وبحر الهند » .

ولا يوجد في عدن حتى الآن أثر تذكاري أو تمثال منصوب لهينس وكثيراً ما طالبت اثناء عملي كمساعد أول للمقيم بجعل يوم ١٩ يناير عطلة رسمية . ولكن سلة المهملات الحكومية تكون عادة متسعة وأحياناً فسيحة . ويجب أن يترك ذلك الأمر لتجارنا الأمراء في عدن الذين امتلأت خزائنهم بالمال بفضل ذلك البريطاني . وعليهم اليوم القيام ببعض مظاهر التقدير له والإشادة بأعماله وإحياء ذكراه .

ولا ريب ان عزة نفس هينس وطموحه الى العلاء جعله يتخذ لنفسه الشعار القائل : « افعل الخير لذاته ولا تنتظر الجزاء » . وهو شعار السمو في العمل المجرد عن الاطماع الشخصية للانسان الذي تكون ثقته خالصة في الرب وحده ، وكل ذلك جعله يقبل في آخر أيام حياته كل ما لقيه من هوان . وهو استحقاق سيء ثم اعفاؤه نهائياً من العمل وهو الرجل الذي كانت عيناه تتطلعان الى طلوع شمس العظمة والازدهار لمستقبل الجزيرة العربية التي تنبأ بحدوثها تحت الزعامة البريطانية .

ان هينس كان واحداً من عظماء الرواد الانجليز الأوائل ، لكنه الآن منسي ، ولم يلق تقديراً من حكومته . وفي عام ١٨٥٣ منحه ملك اسبانيا لقب فارس صليبي ووسام ايزابلا Isabella الملكة الكاثوليكية تقديراً للخدمات التي قدمها لبحارة السفينة التي تحطمت ، غير ان الحكومة البريطانية اعترضت على تقديم تلك المنحة وعارضت تلك الهبة .

ان هينس ارتكب أخطاءً كأي رائد ، ومع ذلك فما هو دافع التفضيل بين عمل وآخر اذا كانت لهما نفس الجودة ولكن تنقص احدهما الرشاقة ؟ . . . وعلى قواعد هينس اقام البناء اولئك الذين جاؤوا من بعده وساروا وراء ظله ، ولو رجع ثانية الى مسكنه القديم

(١) - تسميته بالخليج الفارسي اسلوب استعماري والصحيح انه الخليج العربي لعروبة السكان والتضاريس المحيطة به غرباً . (المترجم) .

وعاد في وقت ما هتف بحق قائلاً :

(تلك آثارنا لا زالت قائمة تدل علينا) . . . وان كل التفاصيل عن أعمال هينس السياسية لا يمكن تدوينها في نطاق محدود من هذا الكتاب والتي هي علاوة على ذلك أوسع مدى . وسوف أقتصر فقط على رواية النقط البارزة في سياسته وفي بعض الأماكن ، بينما اهتم بترديد عبارات هينس البسيطة أسهب في الحديث وذلك لأن هذه العبارات تكشف الرجل كما كان وتكون في بعض الأحيان اكثر بريقاً من أعماله .

ان هينس دشن حكمنا في عدن ولم يعش مدة طويلة كافية لينظر بعينيه نتائج أعماله ، وان كان قد شاهد أولى الثمار لتلك الأعمال التي كان يفضلها ويقدرها بحق وهي ان عدن قد استيقظت من نومها كما يستفيق الشخص من سباته بعد طول الرقاد (لقد غرست وشاهدت ميلاد ذلك الغراس) Je l'ai planté je l'ai vu na..re

الفصل الثالث

حكم هينس في عدن
مدة خمسة عشر عاماً
سياسة بريطانيا مع العرب في الداخل

كان أول اهداف هينس ان يسيطر الهدوء على القبائل الداخلية . وقد عمل على نبذ المقاومة المتقطعة وايقافها وكان النجاح حليفه . وفي عدن نفسها تم انهاء الاشغال العامة ، وحفر قناة على الخط القديم « الحائط العربي » (درب الحريبي) الواقع في المرتفعات التي الى شمال الداخل من الممر الرئيسي . وقد قام بذلك الملازم وسترن انجنيرز .

وفي اليوم الثاني من شهر فبراير عام ١٨٣٩ تم التوقيع على معاهدة صداقة بين الانجليز والسلطان العبدلي ، ثم استبدلت بوثيقة الثامن عشر من شهر يونيو عام ١٨٣٥ التي تم التصديق عليها من قبل الحاكم العام في الهند في نفس السنة . وتحدد دفع راتب سنوي للسلطان مقداره ستة آلاف وخمسمائة ريال ، كما اخذت الحكومة البريطانية على عاتقها الالتزام بدفع المرتبات والمبالغ التي تستحق الدفع على السلطان عادة قسراً الى اربعة من رجال القبائل البارزين في داخل البلاد . وهذه المنح والعطايا مهمة باعتبار انها صارت أساساً لنظام المرتبات الكثيرة التي منحت بعد ذلك منا لتأمين سلامة الطرق التجارية وتسببت هذه المنح في استقبال الضيوف العرب الذين يقومون حتى اليوم بزيارات متتالية الى عدن ليبرهنوا على صداقتهم التي هي عبارة عن تلقي الهدايا . وفي السنين الأولى من عهد هينس تلقى أوامر مشددة ومستمرة من الحكومة تحث على حفظ المال والدقة في الاقتصاد على الرغم من أن راتبه الشهري الذي يتقاضاه أقل من مائتي روبية[1] . ونحن الآن

---

(١) ـ صحته الفا روبية شهرياً . انظر ما قبله ص ٤٠ . (المترجم) .

بعض رواتب وهدايا سنوية مقدارها ثمانية وسبعون الف روبية . كما ندفع كثيراً من الوف أخرى كهدايا .

ويروي الاسكندر دوماس عن الشريف حسين صاحب « ابو عريش » في تهامة باليمن عام ١٨٤٣ منتقداً الأساليب الانجليزية في انفاق المال بهذه العبارة (ان البريطانيين ينفقون موالاً طائلة ومبالغ جنونية على حلفائهم من العرب ، وقد يجدون من حين الى آخر خائناً أو عميلاً ولكنهم لا يحصلون على صديق أبدي) وهذه العبارة الأخيرة كانت أحياناً تطابق حقيقة . ولكن عن طريق اللباقة والمخالطة الشخصية عاش هينس لإنشاء الصداقات وكان نجاحه كبيراً . ورغم ذلك فانه قبل مضي عام وفي خلال شهر نوفمبر هاجم حوالى (٥٠٠٠) خمسة آلاف عربي مواقعنا على الحائط التركي في مكان البرزخ بتحريض من سلطان لحج الشيخ محسن ولكنهم تقهقروا بعد أن خسروا مائتي شخص وبعد ذلك بأيام قليلة كتب السلطان محسن كرجل مكلوم ما يلي :

« لقد ألقيتم التراب على أعيننا ، وبكلماتكم المعسولة وهداياكم اعميتمونا ، بينما كنتم تقيمون التحصينات والطوابي لتدميرنا ! ، آه !! أيها القائد ! . اعطف عليّ لأنها غلطة قبيلتي ! . سامحني ! . وارجع لي معاشي » . وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر مايو عام ١٨٤٠ حدث هجوم ثانٍ ومرة أخرى لم ينجح بدوره . وعند ذلك أغلق هينس الطريق الى عدن ليحمل السلطان على الاعتقاد بعدم احتياجه الى المؤ ن والسلع المستوردة من الداخل ولو الى حين . . . وهذا العمل اغضب السلطان كثيراً فقام بهجومه الثالث في ١٥ يوليو عام ١٨٤٠ ، وقد تصدت لهذا الهجوم سفينتان حربيتان في اتجاه جزيرة العبد على بعد مئة ياردة من مواقعنا الأمامية فاندحر المهاجمون مذعورين ، واصيب ثلاثمائة من الجانب العربي ولم يُصب أحد من رجالنا . وقدّم السلطان الفضلي مساعدة الى السلطان العبدلي وكانت مراكز الفضلي الرئيسية في ميناء شقرة الى الشرق من عدن فقام هينس بضرب قلعته بالمدافع .

كان هذا الأسلوب من أخذ الثأر وقتل النفس بالنفس عملاً مؤ ثراً جداً كما يقول هينس . وقد استمر حتى عام ١٨٤٣ عندما طلب السلطان محسن قيام سلام بين الفريقين فعقدت معاهدة في عدن في شهر فبراير عام ١٨٤٣ . وقد تأجل دفع بدل المعاش الذي تقدم السلطان بطلبه ، ومع ذلك فقد بدأ سريان العمل باتفاقية جديدة في العشرين من شهر فبراير عام ١٨٤٤ وبموجبها سمح بدفع راتب شهري قدره ٥٤١ كرون الماني (ريال ماري

تريزا) طالما ظل السلطان متمسكاً بمعاهدة ١٨٤٣ . ولم تصادق الحكومة على أي من هاتين الاتفاقيتين الأخيرتين . وقد عاجلت المنية السلطان محسن فتوفي في شهر نوفمبر عام ١٨٤٧ كما توفي نجله أحمد في يناير عام ١٨٤٩ وعند ذلك وقعت معاهدة جديدة مع اخيه علي محسن في السابع من شهر مارس الذي تلاه. وقد تمت المصادقة على هذه المعاهدة وما تزال حتى الآن الوحيدة والمقبولة باعتبارها معاهـدة قانـونية ، والغـرض منها تـأمين التجـارة وتنشيطها مع المحافظة على روابط الصداقة الطيبة واستمرار السلام ولم تتضمن شيئاً عن الحماية الطبيعية . بينما اشترطت ذلك معاهدة يونيو عام ١٨٣٩ ونصت عليه صراحة : « في حالة حـدوث هجوم عـلى لحج او عـلى قبيلة العبدلي او عـلى عدن او عـلى الجنود البريطانيين فإن كلاً من السلطان والانجليز سيقومون بصده » . لكن تلك الاتفاقية المبكرة بالمعنى الحرفي تكون عبثاً لا معنى له ، وبمهارة كافية تضمنت الفقرة الأخيرة من معاهدة عام ١٨٨٢ المتعلقة بشراء مدينة الشيخ عثمان بنداً ينص على ان تكون أراضي السلطان وذريته وخلفاؤ ه من بعده تحت الحماية البريطانية كما كانت عليه في السابق » . وفي المفاوضات التي سبقت معاهدة ١٨٤٩ كان مجلس الادارة The Court of Directors يرفض بقوة تقديم الحماية قائلاً : « يجب أن نرفض الدخول في اتفاقية حماية كما يريدها السلطان » .

وقد توفي السلطان محسن الذي كان خصماً عنيداً ، اما نجله أحمد فيختلف كثيراً عن أبيه وكان مدركاً للمزايا المترتبة على روابط الصداقة مع بريطانيا ، وقد بذل قصارى جهده في تنميتها ، حتى طلبه الطبيعي لمسكن في عدن كان اعتباره « غير مستحسن » والى اليوم لا يملك سلطان لحج سكناً في عدن . وفي المناسبات التي يزور فيها عدن لأمور سياسية يضطر الى استئجار بيت وتقديم القليل من البشاشة والمجاملة يعود بفوائد عظيمـة ، وإظهار بعض مظاهر التكريم والحفاوة يأتي بالكثير من الثمار .

أما من حيث إلغاء المعاهدات فالسبب في ذلك يكون عائداً للمغزى والمضمون ، فقد لا تعد اكثر من مجرد خطاب مكتوب . ومن الواضح ان المعاهدات الأولى لم يبطل العمل بمضمونها وبجوهرها كما أبرمت مع حكومة بومبي . وفي عام ١٩١٠ ثار الخلاف حول المادة الخامسة من معاهدة الحادي عشر من نوفمبر عام ١٨٤٣ حيث تضمنت النص الكامل على تبادل تسليم المجرمين من الرعايا البريطانيين او العبدليين الى المحاكم المختصة في بلد كل فريق عند وجودهم في البلد الآخر ، بينما لم تنص المادة الثالثة من معاهدة عـام ١٨٤٩ القانونية على تسليم رعايا السلطان اليه . وهذه المادة تقابل المادة الخامسة المذكورة . وبناء على صداقتنا في الأيام الأخيرة مع البيت اللحجي (سلطان لحـج) وفوائـدها الممتـازة

لتحقيق غاياتنا ومآربنا في ما وراء عدن قمت كثيراً بمهام خاصة من هذا النوع خلال مدة قيامي بالعمل ، مع مراعاة القو عد التي تتصل بمشاعر القوم وعاداتهم . والحكومات عادة ترسم الخطوط العامة ولكن المسؤولين المباشرين وحدهم يدركون الأحاسيس المحلية وعليهم غالباً أن يعملوا طبقاً لمسؤولياتهم وأن يتحملوا بأنفسهم عبء المسؤولية ويكون لهم قسط من حرية التصرف .

وهينس في بداية عهده كان يحتمي كثيرا « بالسلطة العليا » عندما تطلب منه مساعدة أو خطوة ، وهذه مجرد حيلة القصد منها التخلص ، والا فان هينس نفسه اسقط من حسابه هذه الاعتبارات ، واحرز نجاحاً كبيراً في أيامه الأولى نتيجة مراعاته للظروف التي واجهته . وقد كان يرفع المسائل الهامة الى الحكومة اذا اقتضت الضرورة ذلك ، وعند وصول الأوامر والتعليمات منها تأتي مطابقة للقرار الذي كان قد اتخذه هو .

دقق النظر في عيني شخص عربي حيث تكون فراسته في عينيه على جهة المثل ولسوف تلاحظ على الفور ضآلتك وعجز قوتك وقلة تأثيرك عليه كالمتزحلق على الجليد . ولقد وجدت هذا اثناء إقامتي ثلاث سنين في المنطقة النائية عن الساحل . ومن الصواب ان لا تستشير الحكومة بين حين وآخر وفي أغلب الظروف ، بل عليك ان تقوم بعملك واجتهادك مستلهماً روح القاعدة العامة المصرح بها من السلطة العليا . فالموظف المختص يرى الأشياء في مكانها الصحيح بطابعها المحلي . وانا لا أؤمن ابداً بالمثل الهندي القائل بأن العمى ملازم للسلطة وملتصق بها فيقولون مثلاً : « إن الحيوان حقاً قط لأن السلطة قالت ذلك » .

واعتبر سانيلي Sanely السلطة التي تصيغ القاعدة القانونية والموظف الذي يطبقها شيئاً واحداً وان الجميع يمثلون الحكومة . ولقد قال لي سلاطين لحج « انت الحكومة ، نحن ننظر اليك ونتعامل معك » وبالمقابل شاركت حكام لحج في عدن واعتبرتهم في مرتبة الحكومة . وهكذا يمكنك ان تجعل الشخص الآخر يصبح منك واليك . وصدقني بأن إخلاص سلطان لحج في الحرب ومن قبل الحرب لم يكن فقط تعبيراً عن الأنانية وبدافع المحافظة على الذات ولكنه ناتج عن إعزاز وتقدير للتاج البريطاني وانه اعتبر نفسه جزءاً من المجموعة البريطانية . والمقارنة واضحة بين أسرة العبدلي اليوم وبين أسلافهم الأوائل وبين ما وصل اليه النفوذ البريطاني . وقد حققنا كلمات لاوتسو Lao Tsu « توسع بدون سيطرة » .

ومن الجدير بالتسجيل هنا وفاة الضابط الصغير الالمعي اليوزباشي جون وسترن John Western أحد مهندسي مدينة بومبي وقبره قائم ومعروف في مقبرة عدن الأولى الكائنة في كريتر على الأرض المنخفضة الواقعة بين الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والكنيسة المسيحية

الانجليكانية . وقد قام بتشييده ضباط الحامية تقديراً لما كان يمتاز به من الرجولة المحبوبة والاستقامة وسلامة الطوية وطهارة النفس ، وكان قد وصل مع القوة التي استولت على عدن في هجوم التاسع عشر من يناير عام ١٨٣٩ . وبعد تشييد خطوط الدفاع في القلعة التركية والشروع في تحصين المرتفعات مات في اليوم الرابع من شهر يونيو عام ١٨٤٠ نتيجة لتعرضه للشمس واصابته بضربات اشعتها المحرقة وكان عمره حينذاك ٢٧ عاماً .

اما عدد سكان عدن الذي كان حوالى (٦٠٠) ستمائة في عام ١٨٣٩ فقد ارتفع في شهر سبتمبر من تلك السنة الى (٢٨٥٥) الفين وثمانمائة وخمسة وخمسين معظمهم من الذكور وكان عدد النساء من بين اولئك (٥٣٧) خمسمائة وسبعاً وثلاثين امرأة وذلك عدا الجنود . وفي عام ١٨٤٢ وصل العدد الى (٢٥,٠٠٠) خمسة وعشرين الفاً . وهذا دليل على انتشار الأمن في ظل الحكم البريطاني .

لقد نوقشت كل الطرق الحكيمة والاساليب الممكن اتباعها وكان اكثرها ملاءمة للظروف نظرية (فرق تسد) لأن الامكانيات الحربية كانت محدودة . وقد شعر هينس بان ليس له الخيار فالامكانيات والامدادات العسكرية التي طلبها لمعاقبة لحج كانت تتأخر او ترفض .ولم يكن بد من إثارة القبائل ليقتتلوا في ما بينهم ويضرب بعضهم البعض الآخر . وقد دافع هينس عن سلوكه هذا بقوله : « انني انظم الأمور واقوم باعداد الترتيبات واجعل القبائل المعادية والمشاغبة تقاتل ضد قطاع الطرق بدون استدعاء الحراب البريطانية » . والمال دون شك عصب الحروب . وقد تأكد هينس من جاذبيته وقوة فعاليته . وبعد اتحاد السلطان العبدلي والسلطان الفضلي على اقلاق حامية عدن خسرا ما كانا يتقاضيانه من مرتبات وكان ذلك سبباً جوهرياً لتلاشي أهميتهما . واستطاع هينس ان يجعل قبيلة الفضلي منشغلة بالدس والتآمر مع جيرانهم قبائل العولقي واليافعي . وقد اقترح تشكيل جنود لركوب الخيل من رجال قبيلة العبدلي بحيث يكون تعدادهم عشرين رجلاً تحت قيادة شخص عربي . وقد علل ذلك كما قال هو بحكمة « من اجل ان يتعرف الانجليز على السكان » ووافقت الحكومة على هذه الطريقة وقد اعيد تكوين هؤلاء الرجال من جديد على يد بونا Poona المساعد في سلاح الفرسان وكانوا الرواد والطليعة لجنود عدن الذين تم تسجيلهم في الهند .

ان ذكر السياسة المتذبذبة لحكومة بومبي أمر محزن ويؤسف له . ففي عام ١٨٤٦ ومع مرور سبع سنين من الخبرة في عدن وبعد ان اهدرت معظم التدابير والخطط التي ناضل من اجلها هينس كانت تلك الحكومة بعد كل ذلك مستعدة لقبول الخصام والانشقاق

والتنازع بين العبدلي والفضلي معللة هذا الاستحسان والقبول بقولها : (ومع ان خسارة الأرواح والحياة امر يؤسف له ، فانه يجب ان تبقى الأحداث مستمرة ففي ذلك اما بأن مثل هذا سوف يبرهن على مزايا الوجود البريطاني في عدن وعلى حسنانه ومثل هذا يحصل اذا سمعت منه خلاف بين القبائل المختصمة) .

ويجب الاعتراف بأن مجلس الادارة The Court of Directors ابتـدأ سياسـة عدم التدخل في شؤون الأمم الأخرى بالتخفيف واللين عندما كانت المشاعر المستاءة تتطلب الإمهال من السلطة مع إجراءات خفيفة للعقاب .

وفي عام ١٨٣٩ كانت القوات المصرية في اليمن تحت قيادة إبراهيم باشا تعتدي على الجنوب للحصول على إقليم الحجرية وهو الجهة الخصبة من اليمن الواقعة الى الشمال الغربي من عدن والذي يصدر من البن سنوياً ما قيمته « ٦٠,٠٠٠) ستين الف دولار (ريال) . وقد نصح هينس الحكومة بالتصدي لإبراهيم باشا والقيام بصد تقـدمه لأن المصريين إذا تغلبوا على اليمن سوف يوجهون ضربة شديدة الى تجارتنا الهندية كما ظن ذلك هينس . وقد كتب شيخ الحجرية من عاصمته ذبحان يقترح التصدي للغزو لأنه فضَّل إرسال منتجاته الى عدن بدلاً من المخا . وقد اعتقد هينس بناء على ذلك بأن المخا سوف تتلاشى وتتقهقر بان ذبولها سوف يظل مستمراً طالما بقي العلم البريطاني مرتفعاً في سماء عدن (طلب مني شيخ عربي في داخل منطقتنا علماً انجليـزياً قـائلاً : « إن العلم يمنـع الكارثة » او كما عبر بلهجته العربية (البنديرة تدفع البلا) . فانتابني شعور من الزهـو والخيلاء الجميلين لسمعتنا الطيبة ، وقد أعطيته بالطبع علماً ، وهذا لم يكن مسموحاً به على الخصوص . لكن « اولئك الذين يمارسون السلطة لن يكونوا اكثر من الذين يمارسـون الالعاب ويكونون عادة اشخاصاً مقبولين » كما قال ذلك ر . ل . س . R.L.S.) .

وفي عام ١٨٣٩ طلب بالمرستون Palmerston من محمـد علي « بـاشا مصـر » ان يسحب جنوده من اليمن وأبدى ملاحظته قائلاً إن الحكومة الهندية ليست متضايقة ولا محاصرة من تعاملهم مع الرؤساء في الداخل ولا مع سلطان صنعاء ولا يهمها أمر محمد علي ، غير انه ليس له حق مهما كان الأمر على البلدان المحكومة بأولئك الحكام العرب . وليت بـالم كان وزيـراً للخارجيـة عندمـا كنت موجـوداً في الضالـع في الفتـرة مـا بـين ١٩٠٤ - ١٩٠٧ !! وكان قد سبق أن أخبر الباشا السالف الذكر في نهاية عام ١٨٣٨ عن رغبة بريطانيا في عدن وعبَّر عن قبوله لاحترام تلك الرغبة . وكان الباشا واحداً من اولئك الذين أخطرهم هينس باستيلائه على عدن وإدخالها تحت العلم البريطاني وقد أجاب بكرم

خصوصي قائلاً : (لقد أخذتم في يوم ما ما كنت أطمع فيه وأسعى للحصول عليه عدة سنين بدون جدوى ، وهي العين التي لليمن) يقصد بذلك عدن .

كان أعضاء المجلس الحاكم The Court oi Director s الذين يوقعون على رسائلهم باعتياد «اصدقاؤ كم المحبون » يمتدحون بافتخار سلوك حامية عدن في صد المهاجمين العرب لكنهم عبروا عن الأمل بأن شيئاً لم يحدث من قبل العساكر او من جانب آخرين غيرهم لإثارة العدوان . كما انهم استحسنوا جهود هينس التي بذلها لتقوية مراكزه . وألح هينس على القيام بغارة عاجلة واحتلال لحج عاصمة العبدلي لكن الرؤ ساء عارضوا القيام بعمل جسيم كهذا قائلين بحق ان العداوة لعربية طبيعية ، واعتبروا ذلك عملاً مختلفاً عن المآرب التي لباشا مصر وهي تشجيع القبائل في مضايقتهم لجنودنا ولو انهم اعترفوا بأن السلطات المصرية المحلية الموجودة في اليمن مسؤ ولة عن الاعمال العدائية التي كانت تجري ضد مصالحنا كما كانت شكوك هينس على الأرجح محقة في هذا الشأن . وعندما تكررت الهجمات اعطى الرؤ ساء لهينس صلاحية اكبر ، وكتبوا يقولون انهم يرحبون بالخطط التي تسندها الحكومة الهندية اما بمصالحة الزعماء الخصوم او بتهديدهم وارهابهم لمنع تكرار هجومهم ، وفي النهاية فهم اولئك الناس الطيبون ان محمد علي لم يخف ارتياحه لأحداث المخا حيث أهين العلم البريطاني . وبعد طول انتظار وصلت امدادات من بومبي وعندها شعر السلطان محسن العبدلي برعب كبير ، وخاف من تقدم بريطانيا . ووصل كثيرون من المشايخ الذين في داخل البلاد« لزيارة العلم »وكتب رجال العشائر الزيدية القوية من« ذومحمد وذو حسين » الذين يحملون لقب « اجنحة امام صنعاء » يعرضون تقديم مقاطعاتهم الى هينس . حتى الامام نفسه استفهم من أقاصي البلاد الداخلية عن النوايا البريطانية .

وقد أجاب هينس بلطف وتودد على الجميع بدون استثناء قائلاً انه ليست لنا اهداف توسعية بالذات .

كان هينس متفائلاً وهو يعرف السجية العربية وان الاصلاحات تحتاج الى الوقت والصبر :

(والأمر الذي لا يمكن توقعه والتكهن فيه ان جيراننا المشاغبين وهم الذين يعتبرون السلب والنهب والسرقة امورأ لا تشكل جرائم كبيرة سوف لا يقتنعون جملة واحدة بأخطائهم ، او بالمزايا المؤدية الى الحياة الهادئة ، ولا يستطيعون حتى الآن تقدير الكرم والعطف البريطاني بمظاهره الحقيقية . والأيام سوف تعلمهم كيف يحترموننا او على اي حال يعتبروننا اناساً ليسوا سوى وسائل لتطوير عقولهم ويعملون لراحتهم ، وبما ان الخوف

من تعدينا على حدودهم يقل ويتناقص فانني آمل أن احترامهم سيزيد) .

ان هينس حكم بإخلاص وبكل قلبه . وهو لم يكن مستشرقاً ولا يعرف شيئاً من القرآن . إنه بحار أمين وصريح اعتقد ان بامكانه محو الثأر والعداوة التي اعترف « النبي » نفسه بأنها جزء كامل من حياة الانسان العربي . يقول الله : (يا أيها الناس انّا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) . لم يقل لتتحدوا ولم يذكر الوحدة والانضمام ، بل ممارسة التعارف او الاتحاد ضمن التنوع والتعدد [1] . وقد استحسن الجنرال جون يعقوب John Jacob قائد العمليات العسكرية ليعقوب اباد اعمال هينس ومن اقواله المأثورة : « ان القوة الأدبية تكون الحاجة اليها اكثر بكثير من القوة المادية لإحضاع القبائل التي تعيش على السلب والنهب !! وكلتاهما ضروريتان ، حيث تكون القوة المادية اساسية كذلك في تمكيننا من فرض القوة الاخرى الادبية » . وهكذا اعتقد هينس وفكر وأنا أميل ايضاً الى كلام جون يعقوب : (اذا درست سجية الوطنيين تصبح عارفاً تماماً عاداتهم ومشاعرهم وأساليب تعابيرهم ، وحاول دائماً وبكل الوسائل ان تبقى تماماً الرجل الانجليزي النبيل ، فان كل قوتنا تعتمد على ذلك) . وهكذا كان هينس . وفي اثناء الحرب الكبرى مر بعدن شخص مسلم له مركز اجتماعي كبير ، وهو من موظفي أحد الأمراء الهنود وقد قال لي بخصوص صنف خليط نوعاً ما من لعب الداما التي كنّا قد ارسلناها للجيش الهندي : (لماذا لم توفدونا الى الخارج ايها الأصحاب) ؟ حافظوا على الجنس والسلالة المهذبة والجيش الهندي سيكون مخلصاً للجوهر ووفياً للحقيقة .

ان مما يبعث على النشوة والفخر ذكر حب هينس للجندي البريطاني واعجابه بالمجندين الانجليز : (إنهم محبوبون من السكان اكثر بكثير من الوطنيين . ويتصرفون باحترام كبير ولم يحدث نزاع من أي نوع بينهم وبين الناس ، بينما تحدث المنازعات مع المساعدين الهنود البحريين وبالأخص على موضوع الماء) . وعندما كنت في داخل البلاد (بالضالع) عام ١٩٠٤ كانت تجربتي مماثلة ، وكان تومي انكينس Tommy Atkins

---

(١) - رغم ان المؤلف كان مستشرقاً ، ورغم ان بعض المستشرقين الذين يجيدون العربية وتعمقوا في دراسة القرآن والعلوم الاسلامية كانوا منصفين في ما كتبوه عن الرسول ﷺ وعن الدين الاسلامي فانهم كثيراً ما عمدوا ويعمدون الى التشكيك والتضليل مجانبة للحقيقة في حين ان القرآن يخاطب اتباعه بلسان الرب جل شأنه قائلا : ﴿ ان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ فالاسلام دين التوحيد والوحدة لا تثليث فيه ولا فرقة .

(المترجم)

مساعدي السياسي الأول . وانا مدين بكل شيء للجندي البريطاني . وانني اعتبر النجاح عائداً الى الجنود والضباط المدربين تدريباً عالياً وممتازاً من رجال الفرقة الثالثة .

ان التحركات الحربية البطيئة ، « وفنون التكتيك » التي اتبعها هينس وطبقها بلبلت المحاربين العرب ، وقد نسبوها الى نقص في الشجاعة أو برودة القلب لأنه مغاير تماماً للمبدأ الخاص بهم وهو الانتقام وأخذ الثأر من كل اهانة بسيطة . اما سكان عدن فقد ظلوا هادئين عندما رأوا سخافة الهجمات العربية على الحامية . وقد شعر هينس كما يشعر الأسد الموضوع في القفص ، وهو يتحرق شوقاً للقصاص من المضايقات المتوالية . وقد كتب قائلاً : (ان هذه التدابير المعتدلة والرقيقة ستكون مضرة . ولسوف تؤول خطأ من القبائل على طول الشاطىء العربي بأجمعه) .

وقد استعان هينس « باليهود » واستخدمهم كمخبرين وكانت تبليغاتهم تكتب الى ابناء ملتهم في عدن باللغة العبرية حتى لا يتمكن السكان العرب من حلها وتفسيرها في ما لو عثروا عليها . والبيت التجاري الغني في عدن لمناحم ميسا Menahim Messa كان ممثلاً في ايام هينس في شخص مناحم ميشا Menahim Mesha الذي خدم في دار المكوس والجمارك كموظف حسابات بسيط . وكان المشروب الروحي المقطر وما يزال بأيدي اليهود فقط . وهو مشروب صحي ولو انه ضعيف وكان يصنع من البلح والزبيب ، ولم يكن الجنود يستسيغونه وكانوا يكرهونه . ومع ان الطبقة العاملة من اليهود مسموح لها بالشرب غير انه في حدود قدح واحد يومياً . ولم تحدث حالة سكر بين اليهود .

ولا يفوتني هنا ان اسجل ملاحظات هينس : « أنا لا أظن بأن جندياً واحداً يرغب في شربه لأنه يحتاج للعديد من الزجاجات لتسكره . ولم ألاحظ ابداً ولو قدراً يسيراً من الأذى أو المعاكسة البريئة حيث يلتقي كثير من الجنود تلو الجنود في مكان مثل عدن . وقد سلكت أول فرقة أوروبية الطريق الذي افضى الى الثقة بها ، لأنه منذ الاستيلاء على عدن لم نستلم شكوى من المسلمين او الصوماليين والبانيان الهنود ولا من اليهود عن حصول مضايقة او سوء سلوك » .

في مطلع عام ١٨٤٠ انتقد هينس مرة أخرى خطة محمد علي ، وقد اعتبر البدو نائبه ابراهيم باشا كالقاهر المنتصر على الجميع . ومنذ عام ١٨٣٥ كان هينس قد لاحظ حنين الباشا لعدن وطمعه فيها ، وبأن الخطابات المتكررة كانت متبادلة بين لحج وابراهيم باشا في الحديدة .

وقد أرسل محمد علي رسالة خطيرة الى امام صنعاء . وكان يُشاع بأنه قد بات من

المقرر بوجه عام ان الامام قد يُوافق على تسليم صنعاء والأقاليم المجاورة اذا تمكّن من الاحتفاظ بقصوره وحدائقه ونفوذه على القبائل الزيدية . وكان من المتفق عليه ان يستلم راتباً سنوياً كبيراً من مصر . وطلب منه القيام بطرد الانجليز من عدن ، وبمقابل قيامه بخدمة كبيرة كهذه تكون له السلطة والسيطرة على تعز والمدن الداخلية غير الساحلية . ومع ذلك فقد كان رد الامام مغايراً حيث قال في جوابه انه من غير الممكن مقاومة الانجليز .
وحدث ان فر بعض الجنود المصريين الى عدن فطلب ابراهيم باشا من الوكالة البريطانية في المخا اعادة تسليمهم غير ان هينس لم يستجب بل شعر مرة أخرى بعدم وجود مبرر للقبول (بدون ان يكون الطلب من سلطة عليا) وعندما تم الاستيلاء على عدن كان يوجد عدد كبير من المصريين في هذه المنطقة ، وكان الجميع احراراً في الدخول ، ولم يرتكب واحد اي إخلال بالقوانين البريطانية . وفي شهر يناير عام ١٨٤٧ فر عدة جنود بريطانيين بحريين من مختلف الرتب من السفينة الحربية « دجلة » الى المخا . وفي عام ١٨٤٨ أسرع إثنان من الأوروبيين وهما من رجال مدفعية مدراس الثقيلة الى الشريف حسين في المخا ، وعندما طلب منه اعادة تسليمهما أجاب بأنهما قد اصبحا مسلمين . وقد طلب الضابط البحري الذي قام بالمفاوضة إعادتهما « كرعايا بريطانيين فارين من الجندية ولصوص » وأما أن يقال بأنهما قد أصبحا مسلمين فليس إلا لمجرد حصولهما على حماية الشريف في حين أن من واجب الأخير تسليمهما . وبالطبع رفض الشريف ذلك وهذا بالتأكيد مطابق للعادة المألوفة .

وفي شهر نوفمبر ١٨٤٩ صادق المجلس الحاكم على دفع مبلغ عشرين ريالاً بواسطة هينس الى العرب مقابل القبض على ثلاثة جنود فارين من عساكر المشاة الأوروبيين الثانويين ، وكان هينس يعلق كثيراً على كراهية الجنود لعدن ، وقد حاول كثيرون منهم الهرب الى المخا مؤملين وجود ممر الى امريكا . ومن ملاحظات هينس: « انهم يدخنون فقط وينامون ، والضباط يقترحون احداث نشاط يستوعب فراغهم ، ويرون ان الالعاب يجب تعزيزها وهي على جهة المثل ألعاب الكركت والتمثيل المسرحي ورمي الكرة والركت الخ » وقد اصبح الاختلاف كبيراً جداً الآن فالجنود اليوم لا يلعبون وحدهم يومياً ولكنهم قد علموا العرب والصوماليين ان يلعبوا كذلك . والالعاب في جميع انحاء العالم من احسن النظم والاساليب لحمل الشرق والغرب على ان يلتقيا معاً . وانني ارغب كثيراً في ارسال فريق اللاعبين الصوماليين « سوكسر » Soccer الى بلادي انجلترا واتوق الى ذلك جداً . كما ان رجال أول فرقة من جنود المشاة اليمنيين سوف يقدمون لعبة عادلة لفريق جمعيات

المرفق الثالث عدن .

في شهر يوليـو عام ١٨٤٠ كـان الفرنسيـون متجهين بأبصارهم نحـو الشاطىء الافريقي المواجه لعدن . وجاءت النصائح من انكلترا الى هينس باتخاذ خطوات سريعة بهدوء وفي صمت لتأمين المصالح التجارية والسياسية لبريطانيا العظمى في زيلع وبربرة ، كما ان اي استعمار اجنبي لذلك الشاطىء الصومالي سيكون مضراً بالمصالح البريطانية واضافت تلك النصائح والتوجيهات المرسلة من الوطن From Home ما يأتي :

(بأية حال يجب ان تؤمن ذلك الهدف . وانت من خلال خبرتك المحلية ستكون قادراً على تقدير الأمور . وعندنا ثقة كبيرة جداً في غيرتك وحماسك ، وبمقدرتك لدرجة أننا نمنحك عن رغبة واختيار حرية التصرف الكامل لما تتخذه من تدابير ما عدا اننا نرغب في عدم الالتجاء الى الاكراه) . ولم يطلع هينس على أيّة معارضة في زيلع او تدخل مثل ما ازعج ذلك الامام في صنعاء لأنه اعتبر زيلع ذات مرة اقطاعية وحقاً طبيعياً . وبما ان الامام كان في ذلك الوقت يطلب التقرب الينا فان عملاً كهذا ربما سبب استياء وتأذياً . وعند نهاية العام وافق المجلس The Court of Directors جملة وتفصيلاً على كل سياسة اتخذها هينس في هذه البلاد . وعندما يقرأ المرء كل السجلات من أولها الى آخرها عن الثقة الوطيدة التي وضعت في هينس يصاب بصدمة حينما ينظر كيف ألقي به جانباً في عام ١٨٥٤ مثلما ترمى البرتقالة بعد عصرها . عجباً كيف يهبط بالرجل العظيم ؟ . . . وكيف يتم انزال الشخص القوي الأمين ؟ . . . شيء غامض لا يمكن شرحه او تفسيره . . . وغير انجليزي !! ولأهمية المأساة أشير على القارىء بمراجعة كتاب = لو = « تاريخ البحرية الهندية » وكتاب = ألن = « الدرع الهندي » الصادر في شهر اغسطس عام ١٨٦٠ Low's History of the Indian - Navy , and Allen's Indian Mail of August 1860 .

في عام ١٨٤٩ كتب القنصل الفرنسي في مدينة مصوع الى وزيره قائلاً : (يجب التفكير اليوم او غدا ببناء قناة في خليج السويس . وحينئذ سيكون البحر الأحمر بلا ريب منطقة من أهم المناطق الاستراتيجية في العالم . وعليه يجب تأمين وجود مؤسسة تجارية وسياسية لبلادنا يكون لها مركزها) . ومع ذلك فقد كانت الحكومة الفرنسية مشغولة جداً بمشاكلها الداخلية علاوة على الاهتمام بالشؤون الخارجية .

كان المصريون في عام ١٨٤٠ يستعدون للجلاء عن اليمن ، وقـد ارسل هينس سفينة للمحافظة على المصالح البريطانية . وعلم عند ذلك ان ابراهيم باشا قد سلم الموانىء اليمنية للشريف حسين بن علي بن حيدر مقابل خراج سنوي مقداره ٩٠,٠٠٠ تسعون

الف ريال المائي . اما امام صنعاء الذي يُعتَبر الوارث الشرعي وصاحب الحق فقد كان في ضائقة مالية شديدة منعته من الزحف والتقدم الى الأمام . وكان الصراع قائماً على أشده لاستلام تلك المناطق والاستئثار بها بين كل من الشيخ علي حميدة[1] صاحب باجل والشريف حسين بن علي بن حيدر السالف ذكره وهو شخص حديث النعمة والعهد وكان مؤيداً فقط بقداسته كواحد من اشراف « ابو عريش » . وكان قد سبق لابراهيم باشا ان وافق مبدئياً على تسليم موانىء تهامة الى محمد بن عون شريف مكة ولكن حسين صاحب « ابو عريش » انكر ذلك ودافع عن تسليمها او الاستيلاء عليها وبالتحالف مع أهل أبها في عسير وبقية المناطق استولى على الحديدة ، وعند ذلك عقد الباشا اتفاقية مع حسين باعتباره الرجل الاقوى . وقد كان هذا الشريف في عام ١٨٣٦ كاتباً للحاكم المصري في المخا ، غير ان نشاطه وذكاءه ودهاءه كانت اسباباً لصعوده ، وتفوقه وارتقائه .

ان جلاء المصريين افسد الفكر طبقاً للمألوف مثل ما حصل بالضبط في عام ١٩١٨ عندما سلمت الينا المعسكرات التركية بشروط الهدنة ووقف القتال فقد تركت كل انحاء البلاد في حالة اضطراب وخراب وانتظار . ولا زالت الطوائف المتدينة المتعددة تتخاصم من اجل السيادة والتفوق .

بمجرد ان اكتشف الشريف حسين قدميه طلب من الامام الانقياد والإذعان له بعد ان كان في وقت ما سيده . وكتب خطاباً مهيناً لحكومة بومبي يأمر فيه تلك الحكومة بتسليم عدن . وقد تلقى الرد الذي يستحقه . وقام باحتجاز التجار الذين أمنوا على اطلاق سراحهم بدفع غرامات مالية فادحة . واستأجر النجارين الذين بنوا له مستودعات (شونة) واسعة لخزن الغلال . وبعد ان انجزوا مهمتهم دعاهم الى الدخول فيها لقياس مقدار سعتها للخزن . وبعد ان دخلها خمسة وعشرون أغلق الغطاء عليهم وكان ثمن تحريرهم مصادرة أملاكهم ، والشخص الذي كان يرفض الإذعان منهم يؤخذ الى الخارج ميتاً .

ولقد كانت لديه خطة همجية وهي ان مضائق باب المندب يجب اغلاقها والعمل على سدها غير انه لاحظ بأن الامم الأخرى لن تسكت وسوف تحتج وتعلن الحرب . وينشأ عن ذلك الجهاد ، ولهذا نظر حسين المتعصب نظرة بعيدة الى الأمام . ولم تكن ايدي حسين تعمل ضد الكفار في عدن ولكنها ايضاً كانت تعمل ضد زملائه العرب وقد اعترف امام

---

(١) - لا تزال هذه العائلة تتمتع بمركز رفيع في باجل . وهي التي قدمت لي مساعدة عظيمة عندما كنت محتجزاً هناك في عام ١٩١٩ . (المؤلف) .

صنعاء عند ذلك بأن خصام حسين معه ضار بالاسلام ومما قاله الامام :

« لو كان العرب فقط متحدين لكانت قوتهم عظيمة امام عدوهم ، ولسوف تستعمل تلك القوة للتآلف في ما بينهم » ! والعرب يرددون اليوم هذه العبارة جيداً .

وقد تنبأ الامام بأن عداوة حسين للبريطانيين في عدن عقيمة وانها قد تسبب الخراب والدمار لشبه جزيرة العرب وقال : ان تحمس حسين سببه الفقر والعوز ، غير ان التسامح وحده يستطيع ان يجلب الثروة .

كان حسين على اتصال بالسلطان محسن سلطان لحج . وقام بإنزال العلم البريطاني في المخا واحتمى بالباب العالي زاعماً انه من رعايا تركيا . وقد عارضت ذلك سفارتنا في استنابول (القسطنطينية) وقامت بالاحتجاج . وأرسل مأمور تركي هو أشرف بك لإزالة الشريف حسين وقد استشهد حسين ببساطة الى ان حقوق الوراثة على هذه المناطق لأئمة صنعاء ! وأخذ البيك رشوة باهظة من حسين وسمح له ان يتمتع ثلاث سنين أخرى بأملاكه التي استولى عليها . وفي عام ١٨٤٧ عاد من جديد وقدم لحسين أوسمة تركية معترفاً علناً باستيلائه على الموانىء مقابل دفع مبلغ (٧٠,٠٠٠) سبعين الف ريال سنوياً . وكتبت سفارتنا في استانبول حينذاك الى بالمرستون تقول ان الصدر الاعظم راضٍ كثيراً عن خضوع اليمن للباب العالي ، وان الشريف حسين الشيخ الرئيسي لليمن (هكذا) قد رقي الى منصب الباشا وان ضابطاً للباب العالي سوف يقيم في المستقبل في المخا للاشراف مع الشريف على شؤون الأقليم . وكان هذا الأسلوب من أقل الخطط التي اشتغل بها الباب العالي ثباتاً في فترة ضعفه ، ولم يكتشف الأتراك الا في عام ١٩١١ فقط نتائج سياستهم في تنصيب حاكمين في اليمن ، وكان الوقت متأخراً جداً لمحو الادريسي حاكم صبيا الذي كون نفسه في الأراضي المنخفضة من اليمن في الفترة ما بين عام ١٩٠٧ وعام ١٩١١ . وهو الذي جعل من نفسه حليفاً للايطاليين في حرب ١٩١١ ضد تركيا . ان وزارة خارجيتنا في ذلك الوقت المبكر أيدت الأتراك على اخراج المصريين في عهد محمد علي لكنها بعدئذٍ = وبعيون عليها رباط = تغاضت في عام ١٨٤٨ عن استبدال الباشا بآخر وبعربي منافس لصنعاء . وفي عام ١٩٢٣ ، كانت تتبع نفس السياسة باصرار وتشدد .

انحدر الامام في عام ١٨٤٨ من المرتفعات الجبلية نحو الغرب ، وبعد سلسلة من المناوشات ألقي القبض على حسين الذي أصبح سجيناً لدى قبائل « ذو محمد وذو حسين » . وكانت شروط الامام لإطلاق سراح حسين دفع ٢٠,٠٠٠ عشرين الف ريال نمساوي وتسليم الموانىء البحرية غير انه تم اخلاء سبيل الشريف من السجن عن طريق

تقديم رشوة للذين اسروه وكان محتجزاً لديهم .

لقد كان الحظ في ذلك الوقت يحالف الامام تارة والشريف تارة اخرى فاستعاد الشريف الاستيلاء على زبيد ، وحاصر المخا التي كان قد استولى عليها حاكم امامي ، وتم تسليم المكان الى حسين نتيجة للخيانة بعد شهرين من الحصار . واخيراً ارسل الأتراك في عام ١٨٤٩ اسطولاً بحرياً وقوات برية للاستيلاء على الحديدة ، ووقّع الشريف حسين على تسليم كل الموانىء البحرية اليهم ، وانسحب الى عاصمته في (ابو عريش) . وفي عام ١٨٥١ ذهب لتقديم شكاياته وضرحها امام الباب العالي ولكنه مات بالسم وهو في الطريق ، وقد قيل بأن ذلك حصل في جدة .

والسم الذي يوضع في القهوة اختراع معروف جيداً في شبه الجزيرة العربية للتخلص من العدو والقضاء على الخصم . ففي عام ١٨٥٠ توفي صبري باشا الحاكم التركي لليمن في ذلك الوقت ، وكان موته فجأة في باجل بينما كان ينزل ضيفاً على الشيخ علي حميدة . وقد قال العرب بسخرية (ان القهوة لم تناسبه) !.

ان محاورات هينس مع امام صنعاء جعلت الباب مفتوحاً لبعض النواحي السياسية الهامة جداً والتي لها قيمة خاصة اليوم عندما قررنا التوفيق بين المصالح العربية المتعارضة بعد رحيل الأتراك .

في عام ١٨٤٠ أرسل الإمام ابن أخيه الى هينس لإتمام معاهدة للأمن والتجارة ، وللشكوى مما فعله الباشا حيث قام بتقديم الموانىء هدية للشريف حسين على الرغم من الحقيقة الثابتة وهي ان زبيد والحديدة والمخا كانت مدنه وحده واجزاء من بلاده . ولم تكن لدى هينس افكار ملتبسة او مبهمة حول حقوق الامام وقد كتب مُستطلعاً رأي الحكومة . ومن آراء هينس قوله :

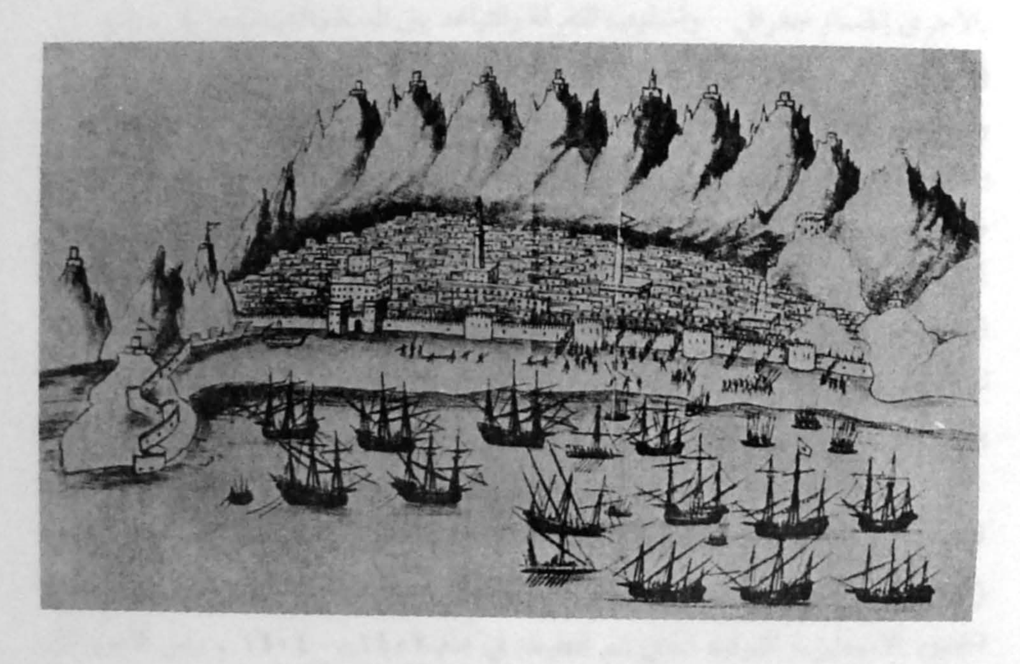
« اذا فتحت الطريق ذات مرة مع صنعاء ، واصبحت المواصلات مكفولة والطرق مأمونة للتجارة . . . عدن سوف تنمو وتترعرع » . وأمرت الحكومة الهندية هينس ان يستقبل مبعوث الامام بمجاملة لائقة ، غير انه يجب عليه ان يكون حذراً في ان لا يورط الحكومة بارتباطات متصلة بمطالب ذلك الزعيم في المخا ، واما بشأن الاشارة الى أعمال الشريف حسين العدائية فانه (ربما كان من الأعمال السياسية للمستقبل البعيد تشجيع

ودعم مطالب الإمام) . ومهما كان الأمر فانه لم يتم عمل اي شيء عندما حصلت الفرصة المناسبة ، وقد كان هذا طرف الإسفين الرفيع الذي أدخل لتحطيم التقارب بيننا وبين الحاكم الشرعي لليمن وهو الإمام . وان نتائج توانينا محسوس بها اليوم في اليمن . ولو كانت تربطنا بالبيت الصنعاني شروط ودية لكانت خطة الحرب العظمى مغايرة كثيراً ، ولما كانت هناك طوائف متباينة تتحارب وتتنازع من اجل السيادة العربية على المخلفات والاشلاء التركية . وفي عام ١٨٤١ وصل مرة ثانية وفد من الامام الى عدن لطلب تعاون بريطانيا بحراً في تمكين الامام من تخليص موانىء تهامة من يد الشريف حسين ولكن مبدأنا القائل بعدم التدخل في السياسات العربية لم يشجع الامام ، وتركه ساكناً عديم الحركة . وفي شهر يوليو عام ١٨٤١ أرسل الامام وفداً آخر ، وكان وفده هذا مفوضاً لقبول اي شروط يطلبها هينس ، وحتى زيلع على الشاطىء الصومالي يمكن التنازل عنها كثمن للتعاون البريطاني . وقد رفض هينس ذلك بسبب خطتنا في الحياد الكامل . ومرة أخرى بعث الإمام رسولاً في عام ١٨٤٣ يطلب ضابطاً بريطانياً ليشغل وظيفة مستشار في صنعاء . وكانت هذه فرصة رائعة لنشر النفوذ البريطاني بمهارة ولكن الحكومة رفضت التدخل .

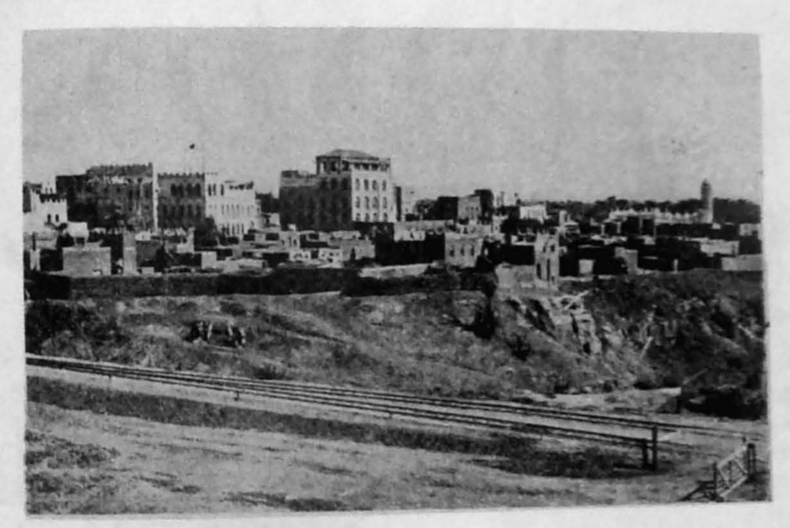
وفي شهر يناير عام ١٨٤٨ كتب الإمام الى هينس يسأل عمّا اذا كانت انجلترا قد نوت باطمئنان قبول اهانة هينس لعلمها . وهو يقصد بذلك عدم مساعدة عدن له والإحجام عن تقديم العون ضد حسين الذي اغتصب البلاد التي كانت خاضعة لأسلافه .

وللعلم بأن الحديدة والمخا ستكون فائدتها قليلة بالنسبة اليه اذا انقطعت عنه التجارة الهندية اتجه الامام الى الحكومة البريطانية باعتبار ان بريطانيا هي الأمة الأكثر امكانية لمساعدته على (انشاء معاهدة تجارية) فاذا اضطره الأمر نتيجة لضغط الأتراك الى تسليم ميناءي المخا والحديدة والتخلي عنهما فقد سبق له أن رأى احتمال ضياع الآمال فيهما ومن ثمة خرابهما بتحويل القوافل الداخلية ، وجعل عدن المنفذ الوحيد لاستيراد السلع التجارية ، وتصدير البن ، وللتجارة الهندية بوجه عام ، وقد اعتقد هينس بأن الامام يستطيع القيام بذلك وان تقدم له التسهيلات ولكن الشكوك ساورته وظن بأنه من المحتمل ان يكون موت سلطان لحج قد أثار طمع الامام وان الغرض الوحيد لذلك الزعيم هو ضمان معاهدة مرتقبة مع البريطانيين حول لحج للحصول على تلك المقاطعة .

ان الامام محمد بن يحيى المتوكل[1] كان افضل من أسلافه ، ولخوف اقاربه منه بسبب معارفه السامية كان طرده من صنعاء . وقد رآه هينس في المخا عام ١٨٣٦ وهو عبارة عن شحاذ متجول يحمل سجادة صغيرة تقيه حرارة الشمس ويعيش على الصدقات الاختيارية وبواسطة حدى تلك التقلبات المألوفة في شبه الجزيرة العربية وجد نفسه إماماً في صنعاء . وحسن سلوكه دعم اختياره الشعبي . وبعد ان أعاد الهدوء والاطمئنان الى التلال المرتفعة من البلاد اتجه باهتمامه الى الموانىء البحرية التي زعم الباب العالي بأن له حق في السيادة والسلطان عليها .



عدن عام ١٥١٢ [Frontispiece



لحج عاصمة العبدلي

ابتدأ هينس يرتاب في إلحاح الإمام واستشف رعب القبائل التي على الطريق الى عدن اذا تم إبرام معاهدة تجارية مع الإمام لأنه اعتقد بأن القبائل الشافعية التي في السهول سوف لا تتحمل استعباد السادة الزيود . ولعل هينس لم يفطن للحقيقة وهي ان كل تلك المقاطعات خضعت ذات مرة للحاكم الزيدي وانه ، بحكمة وبعد نظر ، اقام على هذه الجهات الشافعية حكاماً من المذهب الشافعي نفسه . وسيكون من غير المعقول قيام أي واحد اليوم بالاعتراض على حكم ملكنا البروتستانتي على الرعايا الكاثوليك . ونحن ميّالون كثيراً الى تحريك الاختلاف والتباعد بين الطائفتين في شبه الجزيرة العربية وهو بالأحرى إنقسام جغرافي . وأسلوب التفرقة والتباعد بين السنة والشيعة معروف بعنف أكبر فى الهند . ولربما كان ذلك راجعاً الى الاختلاف في فهم الاسلام في التاريخ المتأخر كثيراً . والمهتدون الذين اسلموا وارتدوا من الديانة الهندوسية اكثر تمسكاً بتعاليم رجال الدين وآدابهم في السلوك .وفي اليمن تصلي كِلا الطائفتين في مسجد واحد ، أما في الهند فلكل طائفة مسجدها الخاص . وبينما يفتح السنيون منابرهم للخطباء الهنود في بعض المناسبات تحت تأثير الاضطرابات السياسية فان عملهم على العكس يكون محل انتقاد عند ابناء دينهم الواحد من الشيعة. والسنة والشيعة اليمنيون يتزاوجون في ما بينهم . ولم أرَ أو أشاهد حالة نادرة بأن رجلاً غيّر عقيدته الدينية بسرعة كما يغيّر عباءته . وأي شخص من هذا النوع يقول عنه العرب بانه تلبس بالاسلام او يستعمل الاسلام كالعباءة .

إعتقد هينس إنه من المضر بالمصالح البريطانية ان يصبح الإمام الزيدي اوإمام الزيدية قريباً جداً الى عدن . وقد دافع عن وجهة نظره القائلة بضرورة القيام في رسم خط للحدود (كحد) لمنع تقدم الزيود نحو الجنوب في اتجاه قعطبة . وهذا هو الحد الجنوبي المعين من قبل لجان الحدود الانجليزية التركية الذي تم تخطيطه في عام ١٩٠٢ - ١٩٠٤ ، ومن الأمور التي اقترحها هينس انتداب مساعده اليوزباشي كروتندن Crutenden لمقابلة الإمام في صنعاء . وقال هينس كلمات لا يزال صداها يتردد في أنحاء عدن وبين اهلها في اكثر الأحيان :

(١) - اظن ان هذا - على الارجح - هو الامام محمد بن عبد الله . (المؤلف) .

(على الرغم من ان المسافرين الفرنسيين والألمان يوجدون كل سنة في الاجزاء الداخلية من اليمن مع اليهود من فينة وبودابست ، ويتجولون علناً لتقصي الأخبار ، فما تزال الأمة البريطانية وحدها هي التي استولت على أعظم موانئهم الهامة والناس جميعاً جهّال) . ويا له من انتقاد حقيقي !!!

قال لي عربي ذات مرة ان الحكام العرب في الزمن القديم كانوا يتجولون ، ويسافرون الى مسافات واسعة ، ويظهرون انفسهم على رجال القبائل ولا يفهم العرب لماذا يقبع الحكام البريطانيون في قعر عدن بمعزل عن القبائل المجاورة .

ان جمودنا جعل الإمام يظن بنا الظنون واشتبه في ضعفنا . وقد كتب الى هينس رسالة يقول فيها انه قد جمع قوات كبيرة وانه سوف يأتي الى لحج ، وطلب مبالغ مالية ليستعين بها في فترة وجوده بالقرب من عدن. واقترح علينا ان ندفع اليه المرتبات التي دفعناها لمختلف الزعماء والرؤساء لأن الواجب يقع على كاهله في حفظ الأمن واستقرار النظام في البلاد بقوة الله . وجاء في رسالته : « هذا مكتوب بروح المحبة . واذا لم تقبل طلبي فإن هذا سيكون آخر خطاب ودي وسوف تعقبه عداوة وهذا تحذير عادل . ودعني اؤكد لك بأن النقود التي اطلبها هي مجرد قرض سيكون رده) . خدعة عربية محضة . لكنها احبطت في تلك الايام المبكرة من التجربة البريطانية . واليوم ومع ذهاب الأتراك لا استطيع ادراك وجود برنامج أسلم من تسليم الإمام كثيراً من الرؤساء العرب الذين يتوقون الى إعادة الحكم العربي على يد هذا الحاكم العربي اليساري . اما جواب هينس على الإمام فقد كان خصوصياً وموجزاً إذ جاء فيه :

(انا سوف أرسل خطابكم مع السفينة التالية الى حكومة بومبي . وانا مجرد وكيل لا استطيع ان اعطي سموكم جواباً غير ذلك . ولكن اذا امرتني السلطة العليا بالعمل خلافاً لهذا فانني أطيع) .

لقد ظهر في زمن هينس العديد من المتعصبين والحديثي العهد بالنعمة للإخلال بالامن بالاضافة الى مشاكله الأخرى . ففي بلدة الدنوة على بعد مسافة اربعة أيام من عدن ظهر الفقيه سعيد في عام ١٨٤٠ واطلق على نفسه لقب المهدي المنتظر[١] وسجلت هذه الاسطورة على وجه نقوده المسكوكة بينما كتب على ظاهرها هذه العبارة (سلطان البر والبحر) . وكان هذا الفقيه في الأصل بائعاً لورق القات ، ولكنه بعد ذلك كسب ولاء الألوف من الناس لوعده لهم بإلغاء الضرائب واستعادة اليمن من ايدي الكفار . ووافق على الغزو والنهب الشامل . وشجع اتباعه المؤمنين به عندما وعدهم بالحصانة من تأثير السيوف او الرصاص . وكتب هذا الفقيه الى الشريف حسين صاحب المخا يأمره بتسليم مدن المخا والحديدة وزبيد . وقد اجاب حسين بأن على المسلم طبعاً إطاعة الأوامر ولكنه

(١) - هذا لقب الامام الثاني عشر عند الطائفة الامامية (الإثني عشرية) . وهذا هو الامام المهدي الذي سوف يظهر مرة أخرى باعتباره الامام الثالث عشر . (المؤلف) .

ضبط الفقيه المتحمس ان يبرهن على صدق نواياه باستعادة عدن في الأول . وارسل سلطان لحج عشرة من الزعماء التابعين له لإحضار هذا المدعي تحت الحراسة الى لحج وبعث بكثير من القبائل التي الى الشرق والى الشمال الشرقي من عدن بالولاء والتأييد في حرب مقدسة ، حسن هينس بالأمن خلف خطوطه . وفي مراكز دفاعه ، وبالثقة في قدرته عن صد أي تحرك .

وقمت قوات الإمام بالتصدي لهذا الفقيه المغتصب للسلطة ، وتخلى عنه اتباعه يوماً بعد يوم . وأوفد الأخير الى رجال قبيلة بكيل من (ذو محمد وذو حسين) يحرضهم بالهجوم على مركز قيادة الامام ، غير ان اولئك الجنود المحترفين ذهبوا الى ولي امرهم الشرعي وذبحوا (١٣٠) مائة وثلاثين من اتباع الفقيه . وعند ذلك زحف الإمام على الدنوة وبعد قتال شديد انهزم المدعي وذبحت المئات من رجاله في فناء المسجد . وكتب الإمام مرة ثانية الى هينس يعرض عليه الصداقة . لكن هينس قوى خطوط دفاعه فقط ، وكانت قوته « على الخائط التركي » تقدر في مجموعها بحوالى (٥٤٦) خمسمائة وستة واربعين رجلاً منهم (١٦٣) مائة وثلاثة وستون من الجنود البريطانيين لا غير .

وفي عام ١٨٤٦ حدث اضطراب آخر Trouble - féte تزعمه وقام به السيد اسماعيل الذي قدم من مكة . وكانت قواته معزولة عن المخا وقد التحقت بها قبائل من بكيل وبني عسير ويام . وقدم اليه سلطان لحج ولاءه واخلاصه . وانضمت اليه قبائل الفضلي ، والحوشبي ، والعقربي . وقد قام بترتيب خططه قائلاً انه في اللحظة الحاسمة التي يختارها سوف يستولي على عدن في نصف ساعة . ولقد ترك عدن الف من الناس معتقدين ان بريطانيا لا تستطيع مقاومة هذا القائد المسلم الخارق للعادة . واصبحت التموينات التي تأتي عادة عن طريق البر مقطوعة عن عدن . وكان التصدي للهجمات المتوالية على مواقعنا قوياً مع انزال خسائر في قوات العدو . وكتب السيد خطاباً مطولاً الى هينس شارحاً فيه رسالته المقدسة وقائلاً ان هينس لن يستطيع صد جيوشه لكنه يكره الالتجاء الى التدابير العنيفة ما لم ترفض عروضه المهذبة . ومما جاء في رسالته : (اذا استمعتم لنصيحتي وسلمتم نفوسكم اليّ باحترام فسوف يباركك الله ويعطيكم ثوابه ضعفين . وسوف نصبح جميعاً أنا وانتم مرة واحدة اصحاب عقيدة واحدة بعد ان كان اختلافنا في الدين سبباً في خلافنا وانقسامنا زمناً طويلاً . إن ما يكون لي سيكون لكم ، وما هو لكم سيكون لي . خذوا نصيحتي وإلا فلا لوم عليّ من النتائج والله معي ، ولم احضر

من بعيد طمعاً في المال ولجمع الثروة وانما أبحث عن عظمة الله وثقتي به) . وقد تم اعتقال الثلاثين شخصاً صومالياً الذين وصلوا بهذا الخطاب وايداعهم في السجن باعتبارهم جواسيس ، وبعد ذلك ارسلوا بحراً الى بلادهم . ثم حدث هجوم آخر كان صده بواسطة المدافع المقامة على الحائط التركي تساعدها مدافع السفينة (سيسوسترس) Sesostris بقيادة اليوزباشي هاملتون Hamilton الذي استفاد من مزية المد والجزر واقترب من الشاطىء والتف حول جسر خَوْرمكْسَرْ ، وطوق البدو وأجبرهم على التقهقر والتراجع عبر أراضي موحلة . وابتدأت أهمية السيد تتزعزع بين رجال القبائل الموالين له ، فارتحل الرجل المقدس الى بلاد الفضلي تحت ستار التظاهر بالاحتفال والتكريم والحفاوة بشهر رمضان . وقد استغاث بالامام طالباً منه النجدة ، وعبر الامام في رده عن الدهشة والاستغراب من رجل يقول عن نفسه انه يملك قوى خارقة فوق الطبيعة ، ثم يتنازل بالاتكال كلية على مساعدة دنيوية مادية !! وحينما كان المجلس الاعلى The Court of Directors معترفاً بمخاوف هينس ومسلماً بحذره وبتحذيره من هجوم محتمل وافق على خطة معاقبة جيرانه حلفاء اسماعيل معللا ذلك بقوله : (ان شعور العداء الدائم الذي سوف يتوالى حدوثه سيكون أكثر عند المقارنة بما يعادله من استياء مؤقت له مزيته ، ويكون ناجماً عن الفزع الذي قد ينشأ من تدبير حازم وعاجل) .

وفي عام ١٨٥١ ظهر مرة أخرى شريف غريب باليمن في بلدة الصبيحي القريبة من عدن ، ولم يكن اسمه معروفاً ، وقد قيل إن عينيه تشعان بالبريق واللمعان ، وانه استطاع ان يعمل التعاويذ والتمائم ضد البنادق لمنعها من اطلاق النار . وحتى إذا ما خرجت الرصاص من السلاح فانها تعود الى الرامي !! . وانفتحت الدروب والمسالك لقدومه . وطلب سلطان لحج الجديد السلطان علي مساعدة هينس . وقد سخر هينس من هذه القوى الخارقة التي يتبجح بها المدَّعي واخبر السلطان ان يرجع الى قرآنه حيث سيجد بانه حتى النبي لم يزعم بأنه يملك قوة كهذه . وذكره بنهاية الفقيه سعيد ، وقد رجع صانع المعجزات المتعصب الى بيته واصبح في زوايا النسيان .

وفي عامي ١٨٥٠ و ١٨٥١ كان بعض رجال البحرية البريطانية يتعرضون للقتل ، كما قتل الكابتن ميلن Capt. Milne غدراً . وقام بقتل الأخير أحد أتباع السيد اسماعيل من قرية الوهط بالقرب من عدن . واصدر هينس أوامره بتسليم القتلة الذين يغيرون اقامتهم من مكان الى مكان في أقاليم الزعماء العديدين قريباً من عدن . وتوعد بانتقام مريع اذا

اهملت مطالبه ، وعندما استحث على التسليم كان كل زعيم يطرد المجرم عبر حدوده الى سلطة ولاية أخرى . وأخيراً ولإيقاف إلحاح هينس واستجابة لمطالبه كتب زعيم سلطنة الفضلي تقريراً عن وفاة احد المجرمين بالتسمم ، وانه كلم أحد اتباع الزعيم عن ثقته بأن روح السيد اسماعيل سوف ترتاح بسلام في جنات النعيم عند الله . وكان الشيخ العقربي صاحب بير أحمد التي تقع على الجانب الآخر للخليج الى الشمال من عدن يشجع المجرمين ويتستر عليهم . وحرض هينس الحكومة على تدمير معاقله التي كانت ايضاً مراكز لتدبير جميع المؤامرات والمكائد من جانب السلطان الفضلي ضد عدن ، ولكن الحكومة ظلت جامدة ، واستطاع هينس ان يوقف مرتب الفضلي (فقط) ، كما حاصر موانئه ، وأوقف المواد التموينية التي تصل عن طريق البحر الى بير أحمد ، وقد تأكد من عدم الحكمة في تغريم الزعيم وتنبأ بزيادة التحريض على السلب والإغارة على الطرق التجارية . لكن الهند وافقت بعد اتصالات عديدة ومراسلات طويلة على استعمال القوة البريطانية لمعاقبة السلطان الفضلي . وكتبت الحكومة خطاباً صارماً قائلة ان على هينس ان لا يكتفي بالتسوية في مدينة او مدينتين قريباً من الشاطىء ، بل يتحتم عليه ان يحمل السلاح الى داخل البلاد ، وان يوقع أقصى العقاب الصارم بشدة وفي عنف على الأشخاص وعلى ممتلكاتهم مع مراعاة الشفقة ! ، وتركت حرية التصرف لهينس في الوسائل التي يستخدمها بناء على حصافته وعلى حسن تقديره للأمور ، غير ان الحكومة كانت دقيقة في تحديد الوقت اذ قالت ان الامدادات لا يمكن ارسالها قبل شهرين على الأقل ، وانه يجب تجريد الحملة سريعاً من قوات الحامية الموجودة في عدن فقط .

لقد كان الأمر عادياً وجميلاً جداً عند هذا الحد لولا ان جهات حكومية اخرى The Home Commitee كتبت مستعيذة من أي تقدم نحو الداخل باستثناء الحالات الضرورية البالغة في الأهمية . وعبرت عن الرغبة التي تؤمن بها وهي أنه ربما اصبح من الممكن ترويض الزعيم الفضلي بدون الالتجاء الى العمليات الحربية . وبناء على ذلك لم يتم عمل شيء ما . وعلى الرغم من ان هذه الرسالة وصلت في الوقت المعين لمنع الجنود من القيام بأي حركة فإن رسالة هينس مع كل ذلك كانت قد نشرت منذرة بعقاب شديد ومريع اذا لم يتم تسليم القاتل . ولذلك كان هينس حائراً ولديه شعور بالإهانة والكمد حيث يعرف ان العدو سيعتبره مجرد شخص عاطل وثرثار ، عاجز عن تنفيذ تهديداته . كل هذا التذبذب والاختلاف بين السلطات كان تهديداً لهيبة بريطانيا . وكان خطأ هينس يتمثل في اصراره على الشيء الذي يعد مستحيلاً أخلاقياً بالنسبة الى العربي وهو تسليم المجرم من الشخص،

الذي طلب اللجوء اليه . وقد كتب الجنرال كوقلان Coghlan في عام ١٨٦٣ وهو مقيم ومعتمد لاحق هذه العبارة :(على الرغم من ان النظريات والامثال متناقضة في ما بينها ومع نفسها ، والتمسك بالتهديدات المتكررة حيث لا تملك القوة والقدرة لكي تتحقق فإن العرب يقدرون الثبات ويعرفون التمسك بعادات وتقاليد وأمثال تخصهم . ولسوء الحظ كانت الحاجة اليها هي التي تختص بسياسة الكابتن هينس . ولو ان غلطة ذلك الضابط ليست وحدها المسؤولة عن معظم الأثر الضار والمجحف الذي كان سبباً في إضعاف هيبتنا وإذلالها في السياسة العربية وفي إدارة شؤون العرب) .

وفي سنة ١٩٠٤ اتبعنا نفس المنوال مع الأسف عندما كان اغتيال الضابط الشهير الممتاز الكابتن وارنيفورد Capt. Warneford في أم ريجة ببلاد الصبيحي . وقد طالبت عدن بتسليم الشخص القاتل عارضة جائزة طفيفة مقدارها (٢,٠٠٠) ألفا ريـال . وكان السلطان العبدلي في ذلك التاريخ متضايقاً من المطالب المتوالية عليه للاستفادة من خدماته الطيبة في تأمين تسليم المجرم ، ولذلك كتب تقريراً بوفاة ذلك الشرير أثناء شجار قبلي . وانا لا أثق بأنه مات .

كان كوقلان مؤمناً بأخذ الثأر لأنه اقتبس سياسة حكام الملتان Multan السابقين في البنجاب Punjab وكان البرهان على ذلك القيام بالعمليات الهجومية ، واستخدام قبيلة ضد أخرى حتى قمع الحكام غاراتهم . غير أن مقيماً آخر في عدن كان ماهراً وقديراً هو السيد وليام ميرويذر Sir, William Merewether تلميذ جون يعقوب أبدى ملاحظاته على هذه السياسة كما يلي :

(عملت هذه أضراراً كثيرة لا يزال الشعور بها موجوداً الى هذا اليوم . وأسلوب مقابلة الشر بمثله والأخذ بالثأر غير مقبول . عاقب الاشرار باليد القوية للسلطة ولكن لا تتبع العادات البربرية التي يوصف بها اللصوص المتوحشون . ان العقوبة المهيبة والرزينة تقدر حق قدرها ، اما في اللعبة الأخرى فسوف يتفوق عليك البربري المتوحش في الحيلة والدهاء ، وانت تنمي مشاعر العداوة والكراهية فقط .)

ان الأمر لم يكن هيناً وسهلاً حتى عام ١٨٥٧ حيث سوينا عندئذٍ خلافاتنا رسمياً مع قبائل الفضلي والعقربي . وحيث يتحتم عليّ السير في الحديث الى الامام وبسرعة مع بعض الاستطراد أحياناً لا تفوتني الاشارة الى ان هينس كانت تواجهه اختلافات ومشاكل أخرى عرضية مع الجمارك والجنود ، وهي التي كانت قسوتها وخشونتها وممارستها الدائمة مع

العرب تعترض طريقه . وتسخط ذلك الشخص الذي كان يضع امـامه ونصب عينيه الاحتمالات والامكانيات التجارية ، ويحرص على ضرورة الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة مع الوطنيين . وهو الذي اعتبر عدن الميناء الأول الذي له حق الأسبقية كمركز تجاري يجب ان تغذ ايه التجارة من أرض الصومال ومن أماكن أخرى غيرها قريبة أو نائية . وكانت هد فه في هذا خط المرسوم تقابل بالاعتراض من الجيش والعسكريين الذين قرروا في عام ١٨٤٦ بأن : « تكون عدن مكاناً محصناً ، وتظل منطقة عسكرية » .

لقد وجد الجنود البريطانيون وعائلاتهم المكـان البركـاني (كريـتر Crater)متعباً جداً . وكثير من اولئك المقيمين في البرزخ الممتد الى البحر كانوا يعيشون في أكواخ حقيرة . وعند اشتداد الحر كانوا يزحفون الى الكهوف التي في التلال للوقاية ، لذلك اقترح هينس بناء مصحة في منطقة رسو السفن البخارية ، لكن حكومة بومبي كانت معارضة ومما قالته (ليس لدينا استعداد لتجشم أي نفقة غير إعتيادية تنشأ من إيجاد مكان للالتجاء والوقاية . وتتردد اليه العائلات من محطة عدن العسكرية) .وقد تهدم مقر اقامة هينس الواقع عند فوهة البركان (كريتر) وسقطت جوانبه من جراء الاهتزاز الذي كان يحدثه اطلاق المدافع عند الساعة الثامنة مساءً وكانت توجد وسائل ناقصة في منزله للضيوف . وكان عليه (ان يضع ما بين ثلاثة وأربعة من ضيوفه الأفاضل في غرفة واحدة) فلا تبقى له غرفة خاصة به . (وكانوا يتناولون الطعام بالدور بعد تصنيفهم الى جماعات صغيرة) ولذلك شيد بنايـة صغيرة مسقوفة ومبنية بالطوب وسعف النخل وملاصقة للسكن ، وقد أعد فيها غـرفة للطعام وغرفتين للنوم او الجلوس مؤملاً ان ذلك سوف يقابل بالاستحسان والموافقة من المجلس الحاكم الموقر . واكبر غرفة في مسكنه كان اتساعها ١١ × ١١ قدماً لا غير وهي غرفة طعامه (وكان على الخدم ان يمروا من المكتب حتى يصلوا اليها ، وتلك حالة غير مريحة . وفيها مضايقة كبيرة ، كما ان كلاً من النقود والسجلات والاوراق كانت مودعة ومحفوظة هناك) . أما اليوم فان دار المندوب السامي لعدن يقع على رأس تارشين المنطقة البخارية . وهو عبارة عن مخزن طويل مزود بقليل من اقفاص النوم ، ومواجـه لسلالم منحدرة ، وعلاوة على ان المكان الذي وقع الاختيار عليه هو الاصلح للمخيم فان هينس فضل منطقة كريتر لانها انسب للجنود على مدار السنة . والمزية التي ينفرد بها ذلك المكان او بالأحرى موقع البرزخ هو اليوم مادة لمنفعة العدنيـين . والموظفـون الطبيـون يأتـون ويذهبون وافكارهم في حالة من الغليان والهيجان . وقد عرفت اثناء تجربتي في عدن أول حكم بالقضاء على منطقة البرزخ وحصلت الموافقة عند ذلك ، ومرة أخرى قضي عليه أكثر

فأكثر . وأخيراً تم احتلاله بواسطة الجنود البريطانيين وهو يقوم بحجز الماء عادة .

هل لعنة قابيل المدفونة فوق ممر عدن الرئيسي تؤثر في العقول بطبائع الوجهاء المحليين رفيعي المنزلة ؟ . وإذا لم تكن لعنة قابيل فان العدنية هي السبب . وهذا مرض محلي غير مركز أو محصور في الغدد اللمفية كما يوصف في سجل العقاقير ومهما كان السبب فإن التأثير فادح وخطير . وقد نجحت عدن وأفلحت الى نقطة معينة ولا تستطيع الاستمرار وربما كان تغيير المندوبين السامين المتكرر في السنين الأخيرة سبباً ساعد على عقمها السياسي والتجاري . والحقيقة ان الموظفين العموميين الذين يجمعون بين المكاتب العسكرية والادارية يكونون في معظم الحالات غير مؤهلين عن طريق التدريب لسد الحاجة . وطالما ان سمله[1] Simla تقوم بتعيين رئيس الموظفين G.O.C. الذي سيكون حقيقة وفعلاً Ipso Facto مقيماً سياسياً فلا أمل لعدن . وعندما لا تكون الحكومة في الهند بحاجة الى موظف عمومي أو General Officer فانها تُهدي اليه هذا الأجاص الذي في حيازة مصلحة بومبي السياسية . وقد كان هينس محقاً لأن عدن مركز تجاري متفوق ، وقد تأخر نموها بواسطة أنصار المذهب الحربي الذين يسمونها قلعة فقط .

بدأت سلطات بومبي Bombay الحربية في عام ١٨٥٤ تدرك حالة النقص وعدم الكفاءة في الميناء وفي الدفاع عن فوهة البركان كريتر . وتم الاكتشاف بوضوح عن احتمالات الضرر والتلف والدمار التي يمكن ان تسببها سفن العدو . وكان هينس قد حث على ذلك مرات ومرات ، ولفت النظر الى تقصيرنا . وفي عام ١٨٦٩ حل هناك نائب الملك اللورد « ميو » Lord Mayo وقد لاحظ هذا القادم ضمن اشياء أخرى لاحظها بأن الدفاع الحربي يمكن اعتباره كأن لم يكن ضد هجوم تقوم به سفن مدرعة ، او حتى ضد سفن عادية مجهزة بمدافع ثقيلة ، وبأنها لا يمكن ان تكون قلعة حربية على الاطلاق ، ما عدا انه يمكن لها ان تقاوم ضد القبائل المحلية من الوطنيين ابناء البلاد او ضد القوات البرية التي ليست مزودة بمدفع حصار ، وقد دافع اللورد ميو عن انشاء خط حديدي لربط فوهة البركان والبرزخ مع المنطقة البحارية لتنظيم القوة العددية للحامية . وعندنا اليوم نوع من الخط الحديدي في عدن ، ولكن لا زالت الاماكن غير مرتبطة بالرغم من وجود خرائط ورسوم كثيرة صممت لهذا الغرض ، وينبغي ان يكون الشعار العملي لأولئك الذين

---

(١) ـ « سملة » مدينة في شمال الهند وهي المقر الصيفي الرسمي للحكومة الهندية . (المترجم) .

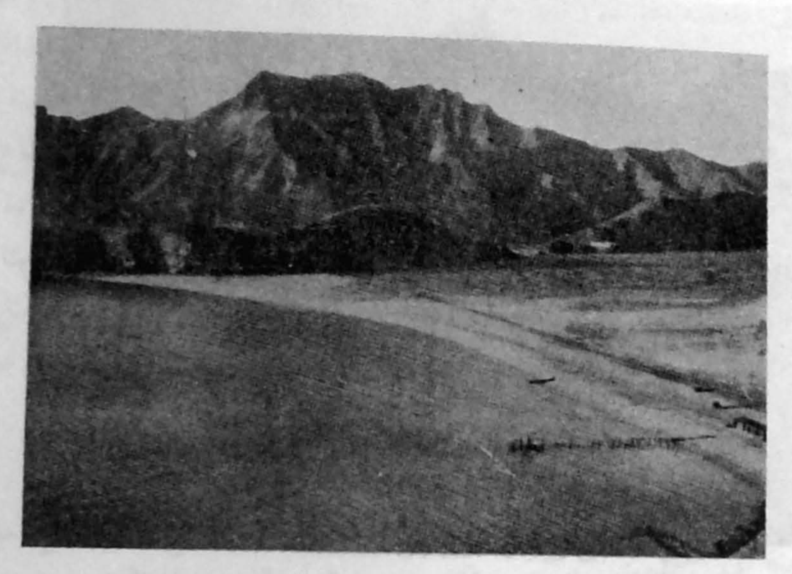
يديرون دفة الأمور العدنية ويتحكمون في اقدار عدن هكذا : (ليست المسألة مجرد كلام يقال ، وانما العبرة بالعمل والتنفيذ) .

هكذا ظلت عدن وحتى قيام الحرب العظمى تواجه نقصاً في الدفاع عنها ضد إلقاء القنابل من ناحية الشرق . ولم افهم لماذا لم يقم بعض القراصنة من الألمان بإلقاء قنبلة او قنبلتين في عدن من هذا الجانب ، ما لم يكونوا قد وجدوا القرصنة في أعالي البحار تعود بالربح والفائدة اكثر . وانني اتذكر البرلمانية العسكرية التي كانت محل اهتمام في وقت قصير قبل الحرب عندما كان اللورد روبرتز Lord Roberts مصراً على التدريب الاجباري للوطنيين المدنيين على استعمال بنادق الشيشخان . وقد أبدى ملاحظاته قائلاً انه يجب ان يكون التدريب كافياً للاستجابة السريعة عندما يصل الالمان بالفعل . ولقد كان اللورد روبرتز عبارة عن صوت يتردد في قفر .

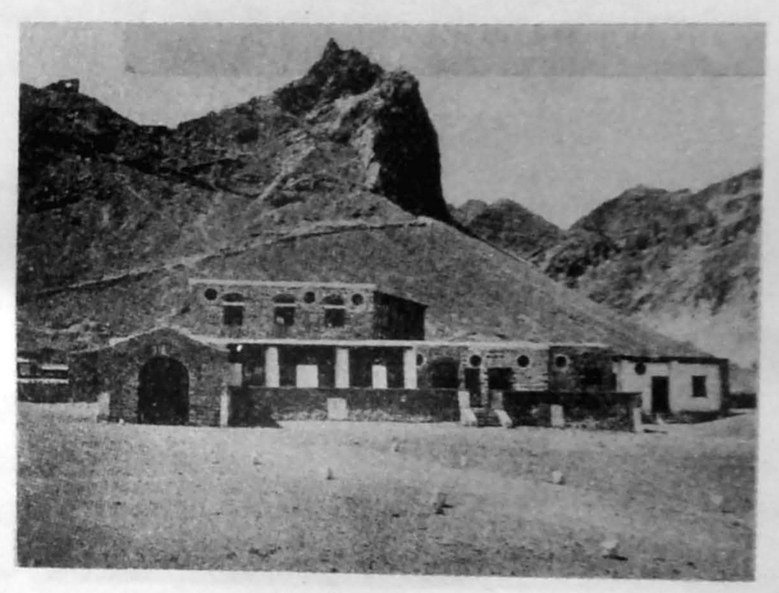
أما الحاج الفرنسي الذي زار عدن في عام ١٨٤٣ فقد كانت له وجهات نظره الخاصة حول شرفات عدن ومعاقلها ، وجعله الاسكندر دوماس يعقب كما يلي :

(يجب التسليم بصحة نظر البريطانيين : ان انشاء القلاع في جبل طارق ومالطة هي بمثابة تحصينات ضد الفرنسيين والامريكان وليست ضد العرب) ! . ولقد اعتقد الحاج بأنه من المستحيل الاستيلاء على عدن من البحر وبأنه كان من السهل جداً تحريض الصوماليين لتسلق الجبال والتلال ، واطلاق النار على البيوت المكونة من الخيزران ، وان كان من الممكن الاستيلاء على عدن بواسطة الاسطول الانجليزي ولكنها لن تكون عدن بعد ذلك . وكان مستهزئاً ـ في رأيه هو ـ باللغة التي كان القوم ينطقونها : (وفي عدن كما في سائر بلاد الشرق يوجد شعب يتكلم أحياناً اللغة الايطالية (هكذا) بأسلوب رديء وهم يسمونها لغة الافرنج « فرانجي ») .

* * *



خليج حوكات ـ كريتر



مركز هينس - قرب كرية . وهو الآن دار الضيافة العربية

من المفيد قراءته وإثباته في هذا الباب تنويراً للقارىء ذكر وجهات النظر المتناقضة لدى اولئك الذين يمارسون السلطة العليا حول علة وجودنا في عدن او سبب الاستيلاء عليها . في مارس عام ١٨٥٣ جاهرت حكومة بومبي بوجهة نظرها على النمط التالي :

(لم يفهم المجلس الحاكم بوضوح محاولة شرح وتفسير الاختلاف بين الدفاع عن الحامية والدفاع عن المدينة وتصوير الفرق بينهما . ان التحصينات الشاملة التي اقيمت بتكاليف باهظة مفترض فيها عادة ، انها تمت بنية الدفاع عن شبه الجزيرة العربية بوجه عام ، ثم للغرض الخاص الذي هو صد هجمات العرب عبر البرزخ ، وبهذا القصد يجب ان تعتبر مدينة عدن على الأقل كمستحق لنصيب . وعلى فرض ان المدينة خارجة عن الموضوع كلية فأعمال البرزخ المعتبر كأنه قلعة تكون غير مأمونة اذا استطاع الاشخاص الغرباء الالتفاف حوله لأنه غير منيع او غير مُلْتَفت اليه وحصلوا على قيادة الوادي مع الينابيع (الآبار) . . . ومع انه من المسلم به كقاعدة ان مدينة عدن ليست حاصلة على الاعتبار الأول او حتى الثاني ، وهي دائماً محل للتكهن في أنها سوف تحصل على بعض الاعتبار ، فإن حمايتها تكون جزءاً وجزءاً مقرراً من نظام الدفاع الذي تزداد بمقتضاه التحصينات وتقوى) .

وفي الحرب العظمى لم تكن مدينة عدن مطلقاً محل الاعتبار الأول . وقد نقل مال الخزينة الى الجبل . اما سلامة السكان فكانت مشكلة ثانوية . وسجل احتجاج سياسي من فعل الفزع الذي حدث وكان نتيجة لسوء فهم من السكان المحليين .

وفي شهر سبتمبر عام ١٨٥٣ كتبت حكومة بومبي باعتبارها ادارة عسكرية الى كيو . م . ج . Q.M.G. قائلة : (لا تستطيع الحكومة قبول الوضع جملة بأن الاستيلاء على عدن تم لتكون مركزاً حربياً فقط . ولقد كانت مدينة شبه الجزيرة في حيازة بريطانيا لمدة ثلاثة عشر عاماً . وعن طريق التشجيع الذي قدم للمعاملات التجارية وبواسطته نهضت المدينة واصبحت تحتوي على أكثر من عشرين ألفاً من السكان . والاستفهام عمّا إذا كانت السياسة التي اتخذت صواباً أم خطأً جاء متأخراً وبعد فوات الأوان . والتأثير واضح . والحقيقة لا يمكن تجاهلها وهي وجود مدينة مزدهرة جديرة بان تكون محمية بالأمن

والطمأنينة التي تشتمل عليها الثقة والشرف البريطانيين .

لذلك يعتبر صاحب السعادة رئيس المجلس ان المصالح التي للحكومة يجب ان تكون محكومة بالاعتبار المطلوب لسكان عدن بصورة جيدة كالرعاية ذات التأثير اللائق بالحامية وهو لا يتفق تماماً مع القائد العام بأن كل اجراء أو خطة تتعلق بعدن يجب ان يرعى فيها سلامة وفي الغالب القدرة الكاملة للجنود . وربما كان الضغط على القاعدة بعيد جداً وإذا كان لا بد من القيام بتضحيات وتحمل للصعوبات فإنه من الممكن عدلاً وبثقة تحت ضغط الظروف المعقولة ان يكون الجنود مدعوين لحمل نصيبهم . ويرى رئيس المجلس أنه ليس من الضروري تماماً تحديد أي من هذه الأطراف يجب أن يكون الأول ، وأي منها يكون الأخير من وجهة نظره هو ، وأن الإثنين لا يعارض كل منهما الآخر . وفي الحقيقة يبدو انهما قد يكونان متماثلين في كل الأغراض العملية . وليس عند صاحب السعادة رئيس المجلس شك في أن القوة الكاملة والفعالية للحامية يمكن المحافظة عليها بدون التأثير على الحقوق العادلة والمصالح التي للناس الذين قد استقروا في عدن باعتماد كلي على حماية العلم البريطاني . اما ضرورة وضع عدن تحت السلطة المباشرة لنائب حاكم . وأن تجتمع في يد شخص واحد السلطة السياسية والقضائية والحربية ، فقد كان هذا محل اعتبار منذ بضع سنين خلت ، وكانت مزايا توحيد مثل ذلك ظاهرة ولكن الحكومة في لندن أصغت الى الاعتراضات على الخطة فكان تركها وإهمالها . . .)

ما أجمل قراءة كل هذه التوجيهات . وما أبدع هذا الدفاع عن الحقوق المدنية . لكن كتبت نفس الحكومة الى هينس في الشهر التالي : (وفي رأي الحكومة ان اهمية عدن الحربية يجب اعتبارها اعظم من تقدمها التجاري . ويجب أن يكون هذا هو الهدف الأول المنظور والمشاهد) . يا له من هبوط ، وانتكاس وتراجع كان حدوثه !! لقد خطوتم خطوات جميلة فما الذي حملكم على التراجع ؟ . وسارت الأمور سيراً حسناً فمن الذي أعاقها ؟ إن عدن منذ هذا التاريخ المحدد تأخرت كمركز تجاري ولم تعد تستعيد مكانها .

إنني أستطيع الكتابة أكثر فأكثر عن هينس في عدن . إن السجلات القديمة تكشف الكثير والمهم عن الجوانب المشرقة في شخصية ذلك الرجل العظيم . عن أفعاله ، عن معاملاته مع ملك (شوا Shoa) وتصرفاته . عن جهوده لتأمين سلامة التجارة الحرة . عن ايمانه في الامكانيات الكبيرة لتجارة القهوة ، ثم عن خلقه لكنائس عدن وتشييدها ، وعن

ايجاده مقابر للمسيحيين وعن ملاحظاته الهامة على الموبلاس[1] Moplahs الـذين كانـوا عندئذٍ شوكة في جنبنا . أما رأي هينس عن القيمة النسبية والعددية للعرب والصوماليين والهنود فقد أظهر معرفته غير المحدودة بالجنس البشري والمقدار المتنوع لأعماله . ولم يكن في سلوك هينس الواضح والجلي شيء صغير أبداً ومن كلمات توريو Thoreau (كانت حياته العادية زاخرة بالمجد والعظمة لخير الناس) .

ولقد كان مكتب الجمارك تحت إشرافه بينما يقوم بإدارته موظف عربي من رجال العهد القديم لعدن يساعده شخص يهودي وبعد ذلك كان استخدام بعض الموظفين من أب أوروبي وأم هندية (أوراسيين) . وقد حصـل اتهامهم بـالاختلاس فكـان طردهم حالاً . وأظن أنهم لعبوا دوراً في سقوطه اللاحق . واعتاد هينس على تقديم النقود كسلف للضباط البحريين ، وبغباء كانت التقارير ترفع الى الحكومة عن عمليات مالية كهذه . ولقد طالب كثيراً بإرسال موظفين مدربين ولكن لم يتأهب أحد للمجيء . وفي نهاية عام ١٨٥٣ تعينت لجنة لفحص الحسابات العامة وتم الكشف عن عجز كبير ، فأرسل هينس ومساعده القدير اليوزباشي كروتندن معاً الى بومبي وأُفتتح عهد جديد إذ كان المندوب السامي ومساعده بعد ذلك ضابطين في الجيش الهندي .

وفي بومبي اتهم هينس أمام محكمة تحقيق بجريمتين منفصلتين وقد برأت المحكمة ساحته من كليهما . ومع ذلك كان لا بد من جعل العجز ثابتاً وأُلقي القبض على هـذا الضابط الممتاز وأودع في السجن باعتباره مديناً ولم يفرج عنه إلا بعـد ست سنوات من الاعتقال ولفترة قصيرة بعد أن ساءت صحته الى درجة خطيرة . لكن ساعة رحيله كانت قد دنت فأدركه الأجل ومات . ويوجد ضريح لذكراه في مقبرة « بومبي كولابا » وليس على الضريح كتابة تروي قصة حياته ما عدا تاريخ وفاته في اليوم السادس عشر من شهر يونيو

---

(١) ـ « الموبلاس » اسم اطلقه الهنود على العرب الذين هاجروا من شبه الجزيرة العربية الى جنوب الهند . وعندما احتل البريطانيون الهند كان هؤلاء العرب فعلا شوكة في جنبهم ولكن البريطانيين شنوا عليهم حرب ابادة ، واضطر الأحياء منهم الى الهجرة من جنوب الهند الى اماكن عديدة من شبه القارة الهندية . والمؤلف لا يتورع من استعمال هذه التسمية مرة اخرى مع عرب اليمن بعد أن احتل هؤلاء القراصنة جنوب الجزيرة العربية السعيدة بالقوة قسراً واعتدوا على حرمة مياه البحر العربي ولم يسعهم بحر الشمال للقرصنة على الموانىء الأوروبية لأن سكانها أوروبيون وليسوا موبلاس طبعاً !! (المترجم) .

عام ١٨٦٠ ، وقد كان طاعناً في السن حين موته إذ بلغ من العمر خمسة وثمانين عاماً

Sic itur ad astra

« وهكذا صعدت روحه الى السماء واتخذت طريقها بين النجوم »

***

عاما

الفصل الرابع

الأتراك في اليمن

كان رحيل المصريين عن اليمن في عام ١٨٤٠ بفعل الباب العالي وبناء على طلب من الحكومة البريطانية . أما محمد علي فقد أقلع عن حب الشهرة والطموح . والأتراك كما نرى خسروا فرصة عظيمة وكان في إمكانهم تسليم اليمن بكامله الى إمام صنعاء وأن يحتفظوا لأنفسهم بالنفوذ والسطوة فقط ، غير أن ضعفهم أوحى اليهم بأنصاف الحلول . وهكذا قامت في اليمن مملكتان احداهما في المرتفعات والأخرى في السهول المنخفضة . ولعل الخطة كانت موجودة ومبيتة من وراء حماقتهم وهي ان ينحّوا فيما بعد دمية « ابو عريش » ، التي نصبوها وان يضعوا انفسهم مكانه .

كانوا أشبه شيء بأنف البعير حين يندفع الى خيمة العربي من خلفها ثم لا يلبث ذلك البعير ان يدخل الى الخيمة بكامل بدنه . وفي عام ١٨٧٢ جعل الاتراك من اليمن ولاية واحدة ثم قسموها الى أربع متصرفيات في كل من تعز وصنعاء وعسير والحديدة . وكان الوالي (الحاكم) يقيم في صنعاء . أما هذه المتصرفيات فقد كان تقسيم كل واحدة منها الى عدة أقضية وكل قضاء يحكمه قائمقام . وتشتمل متصرفية تعز على قضاء إبْ ، والعدين ، والحجرية والمخا وقعطبة . وتحتوي صنعاء على حراز ، وحجة وذمار ويريم ورداع وعمران . وتتضمن عسير من بين ذلك محايل أو أبها ورجال الماء والقنفذة . بينما كان كل من قضاء زبيد واللحية وريمة وحجور وبيت الفقيه وباجل وابو عريش تابعاً للحديدة . وفي الحجاز كان الحاكم العام يسكن في الطائف . وكانت توجد هناك متصرفيتان تم تكوينهما في كل من جدة والمدينة . وكان قائمقام ينبع تابعاً للأخيرة على اعتبار ان ينبع ميناؤها . وبعد ذلك تم انشاء الخط

الحديدي الحجازي لربط دمشق بالمدينة . وقد قام بذلـك السلطان عبد الحميـد الذي تتلمذ على أيدي الألمان . وقد كان هـذا الخط استراتيجيـاً حيث كانت نهايتـه السيطرة على شبه الجزيرة العربية . وقد قوبل تشييده بـالترحـاب والسرور من مسلمي الهنـد . لكنه كان باعثاً على اشمئزاز العرب المحافظين من سكان المنطقة الذين كانوا حساسين لأنهم أدركوا الخسارة التي ستحل بهم نتيجـة لافتقـادهم مـوارد الحجـاج المـرتبـطين بالمدينتين المقدستين (مكة والمدينة) . وتخوفوا من تعريض هذه المنـطقة لـلأخطار والى التصنيع فيها من قبل الأجانب غير المسلمين ومع ذلك يعتبر انشاء قناة السويس في عام ١٨٦٩ الحدث الهام والسبب المباشر في ايقاظ الشرق وعلى الأخص تركيا ، وفي إدراك أهمية شبه الجزيرة العربية ولا سيما في التجارة .

كانت سلطة الخليفة السلطان في شبـه الجزيـرة العربيـة ضئيلة وليست أكثر من تعبير جغرافي . ولم يكن الأتـراك سعداء أبـداً سواء في الحجـاز أم في اليمن . وكانت الثورة ضد حكم الباب العالي شرسة ومستمرة . والعرب يحترمون الخليفة التركي حتى في ذلك الجزء من اليمن حيث أبدى المذهب الزيدي أساساً مغايراً . أما حكم الحكام والـولاة الأتراك فلم يكن دائـماً محبوبـاً . والتعبير الشـائع عنـد العـرب حـين منـاقشـة التفضيل النسبي بين البريطانيين والأتراك هو قولهم « نـاركم ولا جنة التـرك » . وهذه كلمـات تنم عن التشاؤم والنحس ولكنهـا تبدو كـما لو كـانت مدحـاً للبـريـطانيـين إذ تقول : (الذهاب معكم الى الجحيم أفضل من نصيب نناله في جنـة الأتراك) أو أنهم استشهدوا مرة ثـانية عن الأتـراك بالحـديث الذي حكتـه المرأة عن القـاضي الحريـري حيث قالت : « ان الوجه الذي للحريري مثـل وجه القـرد ، لكن الضرورة اجبـرتني على التقرب منه » . ورغم ذلك كان يوجد بالطبع حكـام أمناء ولهم مكـانتهم المرمـوقة وشعبيتهم في اليمن وقد كسبوا الحب والاحترام . وانا اذكر بصورة خاصة محمود نديم بك الذي كانت حصافته وحبه للعرب ، تلطِّف من حدة الخـلافات بـين إمام صنعـاء والباب العالي . ولولا مقدرتـه الشخصية عـلى الإقناع والاستمـالة لمـا استطاع الحـاكم العام عزت باشا تأمين انجذاب الامام نحو تركيا أثناء الحـرب الايطاليـة التركيـة حتى مـع وجود المبـالـغ الكبيـرة التي تم دفعهـا في عـام ١٩١١ . ولا ريب أن الأشخـاص السافلين في الحكم التـركي قد ضـايقوا العرب كثيراً بأساليبهم المتعجرفة . وهـذا

الأسلوب هو الذي أضر بالمصلحة التركية . وكان يطلق على الأتـراك اسم « الأروام » وهم جماعة الـروم أو البيزنـطيين . واسم آخـر مَشْؤُوم كان يـطلق عليهم وهـو (بني كنتورة Bani Kantura) ففي التاريخ القديم يروى أن محظيـة أبراهـام (ابراهيم) التي منحته ستة أبناء كانت تدعى قدورة (Kenturah) والمسلمون يصفون قـدورة (كينتورة او كينتور Kintura or Kintur) ، وكأنها امـرأة عربيـة من أصل كـريم وسلالـة طيبة . وقد استوطن اربعة من الأبناء في خراسان فجاء الأتراك من ذلك الاسم .

كـان العنصر الـزيدي في الهضـاب اليمنية الـطيف المزعـج للأتـراك . ورجـال القبائل من حاشد وبكيل يعدون من أحسن البطون والعشائـر المحاربـة في اليمن وعلى الأخص وبصورة اكبر ذلك القسم من القبيلة الأخيرة الـذين يقال لهم « ذو محمـد وذو حسين » اذ كانوا متطرفين بتعصب ضد التسلط التركي . وقد نصبوا زعيماً لهم يسنـده الامام في الميدان . وحتى الامام نفسه الـذي كان حـريصاً في إنفـاق المال وممسكـاً يده وجـد انـه من الصعب السيـطرة عليهم او ادارتهم . وفي عـام ١٩١١ دفن الامـام والأتراك البلطة والحسام وقامت بينهم هدنة مدتها عشر سنين عندما تطلب الأمر التفرغ لمنازلة الايطاليين ومقاتلتهم . وكان الامام مسروراً بجعـل الأتراك يـدفعون الى رجـال تلك القبائل مـرتباتهم مبـاشرة . وكـان الحكم التركي في اليمن سبـة وعاراً كغيـره من أنظمة الحكم التي تسير على طريقة (فـرق تسد : Divide and Rule) وأنـا لا أدرك أو أفهم كيف انهم لم يستـطيعوا عمـل العكس . وقد وجـدوا العرب انفصـاليـين بحكم العادة والعرف الذي ثبت مع الزمن ، وطول الاستعمـال والممارسـة . وشعار العـربي قوله : (أترك كل شخص يرعى نفسه) . أما السيد الادريسي صاحب صبيا في عسير المقـاطعة اليمنيـة فقد جـاء ظهـوره في عـام ١٩٠٧ . وحبَّب نفسـه الى قبـائـل عسـير المتوحشة . وفي أبها العاصمة كان اسمه يستعمل مثلاً وكأنه ساحـر حكيم بالـرغم من أن حكمه هناك لم يصبح بعد سـارياً أو طبيعياً لأن أبها تعتبـر مدينـة الأشراف الـذين يتـطلعون نـوعاً مـا الى الحجاز ولـو أنهم ينادون بـالاستقـلال . والادريسي ينتمي الى الـطريقة الأحمـدية أمـا « الماد مـولاه » صاحب أرض الصـومـال فقـد كـان ينتسب الى الطريقة الرشيدية . والطريقة الأحمدية هي التي أعطت قـوة دافعة للطريقـة السنوسية الأفريقية . والسيد محمد بن علي الادريسي ينحدر من أحمد هذا الـذي نادى بـدعوتـه

من فاس وتنسب اليه الطريقة . وقد كان السيد محمد بن علي يتوق ويتطلع على الدوام الى النجاح في الحصول على تركة أشراف « ابو عريش » الذين تحدثت عنهم في الفصل السابق . وقد شرحت في الفصل الثاني الغلطة التركية في تنصيب أشراف « ابو عريش » ضد البيت المالك الصنعاني .

وفي عام ۱۹۱۱ اكتشف الأتراك غلطتهم الماضية، وبأنهم غير قادرين على ترويض الادريسي ، فاستمالوا شريف مكة (الملك حسين فيما بعد) لمساعدتهم على ترويض ذلك الحاكم . وبالرغم من ان سليمان باشا كان قائداً تركياً قديراً فإنه كان مجهزً تجهيزاً رديئاً من الباب العالي كما أخبرني عندما قابلته بدمشق في عام ۱۹۱۳ وقد استطاع العمل لكنه كان ضئيلاً . وقد قام شريف مكة والأتراك باقتحام جزء من شطىء عسير وتخريب بعض مدن الادريسي . واستطاعوا بصعوبة فك الحصار عن القوات التركية التي كانت محاصرة في أبها على المرتفعات . وبعد ذلك انسحبوا تاركين الاشياء وراءهم . وقد جند الادريسي رجال قبائل بني عسير الذين كانت بسالتهم الحربية محل اعجاب وأثنى عليهم سليمان باشا بحرارة . وكان امام صنعاء عدواً لدوداً للادريسي وقد ذهبت كل المساعي التركية فيما بعد عبثاً للتوفيق بين هذين المتحاربين .

كان من الممكن للأتراك في اليمن أن يأخذوا مثلهم من الايطاليين في أرتيريا ، وان يقتدوا بهم في تجريد الشعب من السلاح ولكنهم اعتمدوا نوعاً ما على رباط الأخوة الاسلامية المشترك . وكانوا مجابهين بمصالح عربية مقسمة في أماكن هائجة . وانا لا ادافع عن سياسة فرق تسد ولكنهليس من العدلبوجه عام الطعن فيها . ففي الهند كانت لدينا هذه السياسة عبارة عن القوة الدافعة لنا وكانت اكثر من مجرد اصطلاح نستعمله بدراية . وقد كيَّف الأتراك سياستهم بالنسبة الى جميع الخصومات العربية حولهم . وهذا تفسير للمصالحة الجزئية التي قدمت للعرب . والوحدة العربية ليست القبيلة من نفس المستوى ، ولكنها نوعا ما العائلة . ولا يستطيع العرب ان يتحدوا اكثر مما استطاع البريطانيون في زمن اقريكولا Agricola والخلافات القبلية المستمرة كانت موجودة في زمن النبي بكثرة وقد قال الله في القرآن : ﴿ يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ وتلك الاختلافات اوجبت وجود التدخل

التركي . وبينما يكون فريق واحد من العرب متشبثاً بالمخطط التركي يكون الفريق الآخر متغلباً . وهكذا صار الحال في « عثمنة » اليمن والتي صاغ لها العرب كلمة « تتريك » . وبكلمات اخرى مبسَّطة كان الاتراك مصممين « على تلوين الخريطة باللون الأحمر » او هكذا جاءت التسمية . والسياسة قد تستصوب احياناً ما هو اكثر من ذلك موافقة للعقل ! .

هل نحن بدورنا لم « نؤنجلز » الهند لكي نجعل اهلها يصيرون انجليزاً ؟ . . ولماذا لم يكن من الأفضل ترك الهند لتحسين نفسها بطرقها الخاصة ؟ . . ولقد سألني هذا السؤال مفكرون هنود تتلمذوا على المذهب المعتدل المحافظ ويتزعمون الاصلاح .

ولماذا شعور الدهشة والفزع عندما طلب منا زعيم الهند غاندي بالشكل الأكثر اخلاصاً ، والخالي من الإطراء والتملق أن يُسمح له (بمواصلة الحركات التي يؤديها) على الأساليب الغربية طالما ان الهنود قد تعلموا التفكير الرفيع ؟ . . وكم أنا معجب بالسطور التي رسمها والت وايت مان Walt Whiltman عندما قال :

أنا استاذ الرياضيين الأقوياء .

ان تلميذي هو ذلك الذي يفرد صدراً أعرض من صدري ليبرهن به عن قوة تفوقني .

انه بهذا يكرّم أسلوبي أعظم تكريم لأنه الأسلوب الذى تعلم في ظله تدمير الاستاذ .

ولا شك أن مغربة الهند وصبغها باللون الغربي كان صدمة وجهت لشعورها الديني . فهل يمكن أن يقال حقاً بأن عثمنة اليمن وتتركيها قصد به تحطيم الاسلام ؟ . . أنا لا أظن ذلك بل على العكس فإن سيف الأتراك المسلول كان دائماً دفاعاً عن الاسلام ، وقد جاءت الدعوة قبلاً طبقاً لمذهب أبي حنيفة . « ان الدين سوف يبقى طالما ان السيف باقياً في أيدي الأتراك » . . وقد حاول الأتراك محو الثار لكنهم كانوا واقفين أمام قضية جامدة ، فالعرب منقسمون كما كان الألمان في زمن تاسيتوس (عن طريق الشكوك المتبادلة : Mutuo Metu) ولوجود الجبال الوعرة .

وشريعة الأخذ بالثأر توجد في دماء العرب . والقران يقول : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ !. ويوجد الكثير مما يمكن أن يقال عن قتل النفس بالنفس وقد أسهب دارون Darwin عن خسة القبائل في تيرادلفيوجو Terra del Fuego في عهد التدخل الأجنبي المتسم بالمصالحة والمهدّىء عندما قرر ان المساواة الكاملة بين القبائل تعوق حضارتهم حتماً . ومنذ مدة وجيزة قال عربي في عدن (سوف تصبح مروّتنا القبلية The Roman Virtus منطفئة اذا انتهت عادات الأخذ بالثأر) . وقد قال عربي اكبر منه ولو انه قد يكون حديثاً مرسلاً : (عندما تعكفون على مزاولة الحرف ، وتمسكون بأذيال الأبقار ، وعندما ترضون بالزراعة وتتركون القتال في سبيل العقيدة فإن الله سوف يسلط عليكم الذل والهوان) ، انهم سيصبحون عند ذلك مثل حسام السيد هوديبراس Sir Hudibras حين علاه الصدأ وجعله يتآكل ويضمحل مع نفسه لعدم وجود شخص ما يرعاه بالصقل والشحذ .

ولو أنك ايها القارىء أقمت في هذه البلاد (اليمن) كما فعل الأتراك فإنك لا تستطيع ان تتحمل العداوات المستحكمة التي تقض مضجعك وتسفه نفسك ووجودك هناك . ولقد اعتقد الأتراك بأن التزامهم في القيام بعمل مثل ذلك كان في مصلحة السلام . وعبارة مارتيان مطابقة لحالتهم : (اذا لم يكن مخطئاً فسوف يفعل ذلك الشيء الأقل[1]) والعرب إجمالاً يفضلون بلاد الأتراك على صحبتهم وشعورهم نحونا يكون شبيهاً بذلك . (فمشاعرهم اذن مشابهة للمروج الخضراء). ان الاستقلال شعارهم ولا يزال ينقصهم التماسك لتحقيقه . انهم على عكس بقر الدربانية لا يستطيعون ان يحافظوا على السير في صف . وليسوا مثل الزيبولون Zebulon أو بعض بني اسرائيل يخضعون لمن يكون اعلى منهم في الرتبة او المقام . انهم يريدون حكومة (دولة) تقدم لهم اللازم وتتركهم منفردين بأنفسهم . ويجدر بي هنا الاستشهاد بكلام رينان Renan والاقتباس من حديثه حيث يقول : (ان الاساس الحقيقي المكوّن للأمة والذي يؤلف بين ابنائها ليس هو الجنس ، ولا اللون ، ولا اللغة ولا الدين ولا الحدود الطبيعية ، ولكنه الرغبة في الانسجام وقيام حياة مشتركة) .

---

(1) - Si non errasset , feceratille minus .

وليست نـوازع امام صنعـاء في تحريـر المقاطعـات الاخـرى بـاقـل الحـاحـاً من الفاشستيين الايطاليين . وهو سلوك قرآني : (كل حزب بما لديهم فرحون) وقد استفز الأتراك عدم وجود تجاوب نحوهم من العرب . ولذكر المقارنة والاستشهاد بالبريطانيين القدماء في زمن تاسيوس يمكن القول بأن العرب بدورهم لاهون بـالتحزب ، والنـزعة العصبية القبلية . وليس عند الاتراك فعلاً اي سلاح امضى واكبر نجاحـاً ضد اقـوى الاجناس من هذا الانقسام حيث لا يملك هؤلاء القوم هـدفاً شـاملاً وغـرضاً عـاماً ، ونادراً ما ترغب مقـاطعتان او ثـلاث في التشاور وتبـادل الرأي لصـد خطر عـام ، فهم لذلك يقاتلون افراداً منقسمين ، ويكونون بوجه عام مغلوبـين ، وهكذا كـان العرب يجبـرون على تقـديم رهائن . وكثيـرون منهز تخلوا عن الخصـومة والأعمـال العائيـة وكانوا يحاطون بمهارة بالحاميات التركية .

اما العرب الـذين يسكنون في المنـاطق التي نشرف عليهـا وتقع في جهتنـا خلف الحدود التي تم رسمها وتحـديدهـا في عام ١٩٠٤ فقـد تمسكوا بنا على الأخص بسبب العطايا والمنح والاموال التي وزعناها عليهم . وحب العرب للاستقلال الذي جـردهم منه الاحتلال التـركي جعلهم ينظرون شـزراً الى عدن ، فـاذا بالحكـومة هنـاك تصبح معزولة ، ولكنها كانت مع ذلك قد نشرت على اراضي القبائل التي الى الداخل حمايـة وهمبة ، وأعطتهم الاموال ، والتزمت بعدم التدخل في عاداتهم او انظمتهم . وقد كان اختفاء الضرائب وعـدم مطالبتهم بهـا ثم دفع الهبـات اليهم بسخاء بـدون مقابـل من العـوامل والاسبـاب التي جعلتنا محبـوبين . ولـو اننا حـذونا حـذو الاتـراك . واتبعنـا الاساليب التركية ، وعملنا على تطبيق قـوانيننا ، وجـردنا النـاس من السلاح ـ وهـو الشيء الذي كان يجب علينـا فعله ـ لنشأ عن ذلـك بغضهم لنا ، ومـواجهتنا بـالحقد والكـراهية ، والتمـاس عودة الأتـراك . وعبـارة (الانجليـز يـوجـد عنـدهم الصـدق والاستقامة لكنهم غير طيبين) أصح رأي للعرب فينا .

ان الأتراك بصورة اجمالية قد تركوا العرب يديرون شؤونهم بأنفسهم مع وجـود حد أدنى من التدخل طالما كانوا يدفعون خراجـاً سنويـا ، وهو عبـارة عن الجبايـة التي كان يلتزم بها بعض الاشخاص وتـدفع من دخـل الفلاحـين . وقد كـان يتم تغييرهم بصفة دورية لمنع الاختلاس . ورجال قبيلة الزرانيق الـذين تقع مسـاكنهم الى الجنوب

من الحديدة قاموا بمضايقات خطيرة للأتراك وكانت هذه المضايقات دائمة ومزعجة . وتقع موانىء هذه القبيلة في غليفقة ، والطائف ، والجاح . وهم يولدون مطبوعين على القرصنة . ولعله من المحتمل ان الكتابة عن شخصيتهم ، واثبات هويتهم قد وردت في كتب المحسيب من تاريخ الخزرجي . وكان من المحتم على الاتراك غالباً القيام بالتعذيب والقصاص من اولئك القتلة . واحيانا كان ينبغي عليهم ترك الحبل على الغارب . معتمدين على المساعدة المعنوية والادبية من سادة المراوعة الاقوياء الذين لهم اكثر من اي جماعة اخرى غيرهم بعض انواع السيطرة والنفوذ على رجال تلك القبيلة منذ زمن طويل . وبعبارة فيها الكثير من الحقائق اقول ان الأتراك كانوا مضطرين الى ان يحكموا لا بالصولجانات فقط وانما بالمناجل ايضا . قال اناتول فرانس Anatole France (الرجال حيوانات تحمل بنادق) والعرب يقعون ضمن هذه الفئة من الرجال[1] . وهم يعترفون في قرارة انفسهم بأن السياسة شيء له مدلوله ، لكن الأساليب العنيفة كثيرا ما تكون قطعية وحاسمة . وهم يمتدحون اللطف (جميل) على ان يكون متبوعاً بالهراوة (صميل) .

لقد فهم الأتراك ان سوق القطيع اسهل من سوق خروف واحد . لكن في الجزيرة العربية لم يرغب اهلها في ان يكونوا قطيعاً . والعرب انفراديون ، وانعزاليون ، اذ ليسوا اجتماعيين ، ولا يحبون مصاحبة الآخرين ، ويكون الخوف الصحّي من الرجل المقدس والاعتقاد بالشفاء الناجع على يديه امرا بالغ الاهمية ، فهو الذي يستطيع ان يفعل احسن الاثر على ضمير الفرد وبنيته . ومع ذلك ليس كل العرب يبجّلون الولي حيّاً كان او ميّتاً . فقد صدمني ذات مرة سيد يمتطي حماراً عليه سرج مطهّم وحلي كثيرة بينما كنت اسير في طريق المشاة . وقد اغتاظ شيخ محب من غلاظة ذلك الآخر وفظاظته وعدم لطفه ، وطلب مني اذناً باقتفاء اثر ذلك الراكب وانزاله من ظهر الحمار ! . وكنت مرة استفهم عن الافعال المعجزة للولي المدفون والذي كان ضريحه يقذف الى الخارج اجساماً من الدخان سنوياً كما يعتقد البعض . والناس المتدينون يرتجفون عندما يسمعون كلاماً مثل ذلك . ولكن واحداً ممن يميلون الى

---

(١) ـ لم يعرف التاريخ اعدل وارحم من العرب . وغلاة الغربيين يغمطون هذه الحقيقة تضليلاً وستراً لغدرهم وعدوانهم في ابتزاز الشعوب وطمس حضاراتها ونهب ثرواتها ولا سيما في آسيا وافريقيا . (المترجم) .

الارتياب والشك ذكر القول المأثور (كرامة الولي دفنه) وهو يقصد بذلك ان الاعمال الخارقة والمعجزة للولي تنقطع بوفاته .

قال باكون Bacon « لا شيء يقضي على الحكم والسلطان اعظم من عدم الاعتدال ومن استعمال القوة في غير وقتها ، او حيث تستخدم بلا قيود او تترك بلا حدود » بينما اعتقد بورك Burke انه في المجتمعات الكبيرة يجب ان يكون استعمال القوة بطبيعة الحال اقل عنفاً وفي الحالات التي تستدعي ذلك . « لم تستطع تركيا ان تحكم مصر وشبه الجزيرة العربية . . . مثلما حكمت اليونان . والحكم الاستبدادي نفسه يكون مضطراً الى الأخذ والعطاء والمبادلة كبيَّاع متجول . والسلطان ينال من الطاعة والخضوع مثلما يريد ويقدر . وهو يحكم بزمام فالت لكي يستطيع ان يحكم حكما مطلقا ابديا . وكل قوة لسلطته في مركزه ناشئة عن التسامح الحكيم في كل حدوده » . وبورك يسمي هذا « القانون الأزلي لاتساع الامبراطورية وزوالها » . وقد فهم الأتراك أحياناً كيف يحكمون بزمام فالت في شبه الجزيرة العربية ، كما وقد فهموا ان نجاحاً افضل قد حالف جهودهم عندما كان اختيار الموظفين سديدا ، وهو مثل شائع للخليفة عمر حيث يقول : (ضع الرجل الصحيح في المكان الصحيح) .

ولم يكن الحكم التركي ثابتاً في اليمن واحسن رجالهم خافوا من ضياع السمعة في اقليم تكون الشعبية فيه ضئيلة للغاية وكان يسمى (مقبرة الأتراك) على جهة المداعبة بسبب الخسائر التركية في حرب العصابات التي استمرت على المرتفعات منذ عام ١٨٩٢ . وقد قال واحد من أئمة صنعاء الأقدمين وهو كلام شائع في اليمن بأنه كان يتحتم على الأتراك اذا رغبوا في الإبقاء على سلطتهم في البلاد أن يتخلوا للعرب عن الأماكن التي يكون الحرف الأول من اسمها مكتوبا بالصاد مثل صنعاء ، وصبر وصعدة ، وصبيا . وكانت الفكرة تقوم على اساس ان الاتراك سوف يحسنون صنعا ويعملون حسنا في الاحتفاظ بالمدن الشاطئية وترك داخلية البلاد للأئمة . وقد وجد الايطاليون هذه احسن سياسة في استيلائهم على ميناء طرابس بليبيا .

لم تكن صنعاء الهدف التركي فحسب بل كانت مطمح أنظار الأتراك ، وهي عاصمة اليمن . وتقع في المرتفعات عند الخط ١٥° و ٢٢ من خطوط العرض شمالاً و ٤٤° و ٣٢َ ، من خطوط الطول شرقاً ، وهي احدى معاقل الزيدية الكثيرة الى

جانب صعدة وشهارة . وفي اثناء الحروب التي دارت رحاها بين الأتراك والامام وعلى الأخص من عام ١٩٠٤ حتى عام ١٩١١ كانت صنعاء تارة بأيدي الأتراك وتارة بيد الامام وفي حالة من الحصار الدائم . وصنعاء تعد مركز الادارة للسلالة الملكية الثانية من أئمة اليمن كما ان صعدة التي كانت تسمى في القديم جُمعة او جُماعة تعد مركز السلالة الملكية الأولى او دولة الرسي . أما صبيا فهي الآن [1] مقر الحكم للسيد الادريسي مع مينائها جيزان التي كانت تكتب أحيانا جازان Jazan او هران Hairan (نتيجة للالتباس بين الحرفين ج ـ J و هـ H) . واسم صنعاء الاصلي ازل الخليقة (سفر التكوين ١٠/ ٢٧ ـ Uzal of Genesis × 27 واسمها العربي ازال ثم حصل تغييره . وقد قيل ان اسمها الحالي يعود الى القرن السادس الميلادي عن طريق ابرهة وجماعته من الغزاة الاحباش الذين صاحوا مذهولين ومعجبين عندما رأوا المدينة الجميلة وهي ممتدة في السهل المنبسط تحتهم حينما اطلوا عليها من المرتفعات التي تحيط بها فهتفوا بهذه العبارة (ما هذه الصنعة !) او What a creation وقد قسم احد المؤرخين مدن الجنة الى اربع مدن وهي مكة والمدينة وبيت المقدس (ايليا) ودمشق . ووضع هذا المؤلف انطاكية وتطوان واستانبول وصنعاء في مجموعة مدن النار . ويقول العرف والكلام المنقول بأن صنعاء كانت اول مدينة انشئت بعد الطوفان ويعزى تأسيسها الى سام بن نوح . وقد جعل ملوك التبابعة او الحميريين مقر اقامتهم في مأرب ثم في ظفار ثم في صنعاء على التوالي . وفي محمية ارتريا الايطالية [2] يوجد مكان يدعى صينافي Senafé وقد قابلت عدداً من التجار الصنعانيين المقيمين هناك ويقولون اولئك على جهة التورية والجناس (توجد صنعاء اخرى هنا) أو « صنعاء فيه » كما ان اجزاء اخرى من ارتريا تذكّر الانسان باليمن وتلفت النظر ايضاً الى التشابه الكبير والتقارب في بعض الاماكن .

في عام ١٩٠٤ نشأ في سورية حزب عربي قومي وكان هدفه تخليص البلاد العربية جميعها من النير التركي . وفي عام ١٩٠٥ وجه هذا الحزب بياناً الى الدول العظمى الأوروبية طالباً حيادها الكريم الأريحي . ونُشر كتاب لنجيب عازوري بك

(١) ـ أي حين صدور الكتاب .

(٢) ـ أي حين صدور الكتاب كانت ارتريا تحت الحماية الايطالية . (المترجم) .

يتضمن البرنامج وقد طُبع هذا الكتاب في باريس واسمه (صحوة الأمة العربية في آسيا التركية) Réveil de la nation Arabe dans l'Asie Turque وأصبح لزاماً على البلاد العربية كما يقول مؤلف الكتاب ان تتجاهل الخليفة السلطان في استانبول ، كما حدث ما يمكن اعتباره قبل اي شيء آخر انقساماً جوهرياً في الشؤون الاسلامية وفي مصالح الاسلام وايذاناً بالتصدع وهو الدعوة الى الفصل بين السلطة الزمنية (المدنية) والسلطة الروحية (الدينية) بعد أن اصبحت الخلافة مزرية لا يعتد بها في ايدي الاتراك . وكان الهدف من ذلك امبراطورية عربية قوية تمتد من دجلة والفرات الى قناة السويس ومن البحر الابيض المتوسط الى خليج عمان ، على ان يكون هناك سلطان منتخب ، وايجاد دستور يضمن الحرية الكاملة للمواطنين (الرعية) . وقيام حكم ذاتي كامل في كل من لبنان واليمن ونجد والعراق . اما عرش الامبراطورية فقد كانت هناك فكرة تقول بتقديمه الى احد ابناء العائلة الخديوية المصرية وتبقى مصر نفسها منفصلة عن هذه الامبراطورية العربية لأن المصريين أصلاً لم يكونوا منحدرين من الارومة العربيه . ومن ناحية اخرى يصبح شريف مكة الخليفة للمسلمين من الناحية الروحية واما حكمه السياسي والزمني فيجب ان يكون محصوراً ضمن حدود الحجاز وقد سمي هذا بالحل السلمي للمشكلة الشرقية . واما الطرق والسكك الحديدية الاستراتيجية التي اختطها السلطان عبد الحميد بقصد اخضاع العرب فإنه يتحتم عليهم استعمالها لاستغلال الثروة الواسعة والضخمة في بلادهم العربية[1] .

ومع ذلك كتب مؤلف آخر - م. يوجين جونق M.Eugén Jung في كتابه التأثيرات امام الثورة العربية Les puissances devant la Révolte Arabe يقول ان يقظة

---

(١) - نجيب العازوري هذا كان موظفاً في الدولة العثمانية ولما اقيل من وظيفته سافر الى باريس حيث الف جمعية وانشأ جريدة كانت الغاية منها النكاية في الدولة العثمانية وكان تمويله يتم من فرنسا ومن جهات أجنبية اخرى دأبت على محاربة الدولة العثمانية في البلقان وفي البلاد العربية ابَّان ان كانت الخلافة العثمانية تدعو للجامعة الاسلامية .

وكلام العازوري هذا يمثل دوره في خدمة الدول الاستعمارية وكان الباعث على اخراج مصر من الدعوة الى العروبة والى القومية يرجع الى أنها كانت البلد العربي الوحيد الذي تجاوب في ذلك الحين مع السلطان عبد الحميد في الدعوة الى الجامعة الاسلامية .

ومما لا يدع مجالاً للشك والريب أن مصر عربية الدم واللسان كغيرها من الأقطار العربية الناطقة بالضاد وستبقى عربية كذلك مدى الدهر ورغم أنف الجاحدين .

(المترجم)

الأمة العربية اظهرت ان هناك ازمة عالمية . ولم يكن الامام يحيى بن محمد امام اليمن فاتحاً متلهفاً يسعى الى اخضاع كل شبه الجزيرة العربية لحكمه وسيطرته ، ولكنه كان عربياً يوجه جهداً مشتركاً ضد الأتراك المكروهين في البلاد العربية والذين يحقد عليهم كل العرب . وبعد ثلاثين عاماً من العسف والظلم اتحدت القبائل اليمنية جميعها والتفت حول شخص هذا الامام الذي كان في سنة ١٩٠٢ يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً . ولم يشترط شروطاً تعسفية على اتباعه العرب ولكنه طلب اعترافهم بسلطته فقط ودفع العشر من المحاصيل (الغلة) اثناء سير العمليات الحربية ونصف العشر بعد أن يتوطد السلم [1] .

ولم يكن عند ذلك الكاتب احترام للخلافة التركية فهو يقول : « الخلافة لا تقوم على قواعد دينية قطعية او متواترة ، ولا توجد آية واحدة في القرآن تشير الى الخلافة على عكس البابوية التي هي مبنية على امر السيد المسيح (كذا) » . والرسول لم يعط فكرة عن خليفته . ولا ابدى اشارة او تلميحاً الى اتباعه عن نوع الحكومة التي يجب ان تستمر بعد وفاته . « واذا كان للخلافة بعض الفائدة اثناء زمن الخلفاء الثلاثة الاوائل فإن استمرارها بعد ذلك يقدم الدليل على شناعة النظام » . وقد قيل بأن خلفاء العرب نشروا فتوحاتهم وأحدثوا مدنية مشرقة غير ان الاتراك من ناحية اخرى عملوا على تجاهل العرب ، وطمس ما فعلوه وغمط امجادهم وقللوا من هيبة الاسلام واضعفوا سلطانه . وزعماء الحركة العربية المصلحون يقولون انهم سوف ينشئون سلطنة تكون بوجه خاص سياسية ودستورية . ويوجد اقتراح في ديباجة برنامجهم يوصي بقيام خليفة للاسلام عامة ويكون في نفس الوقت أيضاً ملكا زمنيا على حكومة صغيرة واماما للمسلمين وللسكان المحصورين ضمن الحدود الحجازية من خليج العقبة الى مقاطعة عسير . وكان من المحتمل تعديل هذا البرنامج نوعا ما لو كان امام صنعاء الامام يحيى مستعدا لإعلان نفسه ملكا لليمن والحجاز واميراً للمؤمنين (خليفة للمسلمين) .

---

(١) ـ هذا ركن في الاسلام وفريضة يدفعها المسلم بعد الحصاد الى ولي الأمر الذي يقوم بانفاقها في اوجه حددها الاسلام وهذه هي الزكاة وهي عبارة عن العشر مما تنتجه الأرض التي تروى بالانهار والمطر ، ونصف العشر من محصول الأرض التي تسقى من الآبار لا فرق في ذلك بين زمن السلم وزمن الحرب . (المترجم) .

كان هذا برنامجا جميلا جدا لكن الذين كتبوه قد تجاهلوا الطبائع العربية كليـة .
ومن البديهي حاليا القول بـأن العرب لا يستـطيعون أن يتحـدوا . وأي شخص يقول العكس فهو لم يدرس العرب الموجودين اليوم . . . وقد يكون هناك احتمال بقيام اتحاد على الاكثر في نطاق التنوّع والانقسـام دون قيام وحـدة بمعنى الضم . وبعد ذلـك وفي اثنـاء الحرب العـظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) تكلم الملك حسين ملك الحجـاز بسهولـة وذلاقة لسان عن الحركة العربية (النهضـة العربيـة) وهو مـدفوع الى ذلـك من وزارة الخـارجية البـريطانيـة ومن مصر [1] وكـل منهـما لا يفهم العقليـة العـربيـة ، حتى أن « حسين » طبع وساماً لتمجيـد ذكرى هـذه النهضة العـربية وتخليـدها وهي التي اشـاد صرحها كما تخيَّل بمساندة لورانس Lawrence ومن معه من الضباط الانجليز ، غـير ان « حسين » لم يكن له نفوذ على الملوك والسـادة العرب المنـافسين لـه والمتساوين معـه .
وسوف اذكر فيما بعد كيف انتهى به الامر ، ولـولا حركـة اللورد اللنبي الناجحـة التي وقفت بجانبهم ايضا لما تم النجاح للنهضـة العربيـة الحجازيـة أبداً بـالرغم من تجنيـد بعض اعداد من العرب في الاقـاليم المجاورة ، وبـالرغم من المبـالغ الكبيـرة والأموال الضخمة التي زُوِّد بها الملك حسين ودُفعت اليه عن طريقنا أثنـاء مدة الحـرب . ولم تكن هذه الأموال تذهب بكاملها للغرض الذي أعطيت من اجله وانما كانت تُبدد هنا وهناك بين السلالات الملكية المتنافسة . ولا يوجد حاكم عربي واحد استطاع ان يدشن نهضة عربية لا في زمن يوجين جونج (١٩٠٥) ولا في الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) ولا اليوم في عام (١٩٢٣) . ولهذا السبب ذهبت ادراج الرياح تلك المشاريع العربية المـطروحة للوحـدة وكانت من احسن مـا تم وضعه . وعنـدما اصـل قريبـاً الى شـرح الحرب التركية - الايطالية سوف نرى الفطنة السياسية للأتراك الذين استمالوا معـظم العالم العربي وعطف الرأي العام الهندي بـاسم الاسلام رغم الخـلافات والخصـومات السـابقة ، ولم يكن جـزء صغير او كبـير من هذا النجـاح عائـداً لشريف مكـة (الملك حسين فيما بعد) ولا للسيد احمد فضل الحـاكم الاداري للحج بـالقرب من عـدن عن طريق الدور الكبير الذي قام به والعمل الكثير الذي كان يؤديه لحساب شريف مكة .

---

(١) - يقصد بمصر هنا السلطة البريطانيةهناك بعد ان اعلنت بريطانيا الحماية على مصـر خلال الحـرب العالمية الأولى . (المترجم) .

ان حزب النهضة العربية الذي تزعم هذه الحركة لم يضع ايضا اعتبارا لمشاعر المسلمين الهنود ولا لأمير افغانستان ولم يقدر آراءهم . ولم تعارض الهند ابدا دعوى الأتراك بشرعية الخلافة وبأنهم اصحاب الحق القانوني فيها . وفي الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) بينما كان الهنود يقاتلون الاتراك استنكروا بمرارة النهضة العربية . واستغربوا من قيام الحركة العربية الموجهة ضد السلطان الخليفة . وللرأي الهندي مكانة كبيرة جدا في العالم الاسلامي اليوم[1] . وفي زمن الحرب كان المرحوم السيد مارك سيكيس Sir Mark Sykes يعمل وكأنه واحد من قواد « المرميدونيين[2] L.G's Myrmidons وهو شخص ممتاز ورجل نشيط لا يستقر به قرار ، وقد عبر البحار لمعرفة الرأي الاسلامي نحو الخليفة وقد اصيب بالصدمة والخيبة عندما أوعزت اليه بوجوب ترك الخلافة للأتراك واستمرارها في ايديهم لأن ذلك هو الأفضل وبالأحرى اذا جُردت تركيا من السلطة الزمنية وسُلبت منها بعد الحرب لأن العالم لم يعد فيه مكان او اتساع لمخلوق جديد او لقيام خليفة عربي يرفع راية الحرب والجهاد من جديد والذي قد يحتمل ان تكون مكنسته مكتسحة تنظف اكثر من اللازم . واذا ما قام خليفة عربي اليوم فإنه سوف يصحو كالمارد الذي حاول ان يجد الراحة والانتعاش في النوم فتبين انه متعب وغير مريح . والأتراك عن طريق حقهم المكتسب مدة اربعة قرون ، ومدنيتهم التي تعد اسمى وافضل يكونون مؤهلين بتفوق للمحافظة على الخلافة ومفضلين عن جدارة على غيرهم لاعتدالهم اللطيف في المسائل الدينية . والمسيحي لا يستطيع احداث خليفة . واي عربي يتطاول على المنصب الذي يتجاوز التقدير تكون اهميته منبعثة من الاسلام .

---

(١) - صدر الكتاب عام ١٩٢٣ قبل قيام دولة الباكستان في المناطق التي تحتوي على غالبية السكان من المسلمين في شبه القارة الهندية .

(المترجم) .

(٢) - المرميدونيون Myrmidons هم افراد شعب تساليا الذين رافقوا ملكهم اخيل الى حرب طروادة . ويطلق اسم « مرميدوني » على التابع الوفي او المرؤوس الذي ينفذ اوامر سيده تنفيذاً أعمى .

(المترجم) .

واذا كان حنين الخلفاء السلاطين الى السيطرة والسلطان على المدينتين المقدستين في الحجاز امرا طبيعيا ، فان احتلالهم لليمن - وتشمل عسير باعتباره جزءاً مكملا والجهة الشرقية لوسط شبه الجزيرة العربية لم يكن له مبرر قوي . ومع ذلك فانه (لا يستطيع ان يقضي بين الثعابين او يصدر حكماً الا ثعبان) . وينبغي ان يكون الهدف الذي يسعى اليه العرب ويعملون من اجله هو قيام مجموعة من الحكومات العربية المستقلة ،ويكون من العبث توقع الوصول الى ذلك في الحال ، والزمن وحده سوف يأتي بذلك ويعمل على تحقيقه . ويجب علينا ترك العرب الذين تربطهم رابطة القومية والجنسية وحدهم ويحلّون مشاكلهم بانفسهم ، ويعملون على الخلاص بطرقهم الخاصة والتي تأتي من الداخل ولا ينبغي أن تطابق لما تحكه لاصابع لاجنبية حتى الجمال الفتّان الذي لوزارة مستعمراتنا ليس بحكيم أيضا ! . . .

لقد قيل الكثير عن انحراف الأتراك ضد الاسلام . وعن عملهم على تشويه القرآن بما يناسب العقلية والعادات الطورانية . وقد قال قتيبة بن مسلم عن الاتراك (انهم مرتبطون ببلادهم ومشدودون ليها بقوة واخلاص اكثر مما تفعل الإبل) . والوطنية عند الشرقيين تمشي جنباً الى جنب ويداً بيد مع الشعور الديني . وعندنا نجد التفسيرات الخاصة للكتاب المقدس من محققينا الكبار ونقّادنا ، واعمال المصححين الكنسيين والقساوسة المصلحين لكتاب المزامير غير مناقضة في حد ذاتها لمسيحيتنا القائمة والناسخة . وكذلك الحال في النظام الديني او طقوس العبادة المنسقة للمذهب الانجليزي - الاسرائيلي . ومن المحتمل ان تكون راهباً وشديد التدين لتنكر على الدين التكيّف والملاءمة لحاجات العصر المتزايدة . وهذا ما نراه على جهة المثل عند الملك حسين فقد القى خطبة مؤثرة ضد الميول المتساهلة للمسلمين الآخرين وأنحى باللوم على البعض منهم ، والذين يطالبون بتحرير المرأة كما لو كان القرآن ليست به رسالة الى اليوم وغير موجه لزماننا . وقد نُشرت هذه الاعتراضات في النشرات الدورية المتكررة غالباً . بينما المعروف عند بعض مسلمي الهند انهم متطرفون في تسامحهم ، وقد ذهب احد مبرريهم المشهورين في التساهل بعيداً جداً في كلماته لاثبات مزاعمه حيث قال : (ان جنة المسلم الشديد التعصب (ارثوذكسي) اسوأ من سوق المومسات) . كما ان مسلماً آخر هو ميرزا غلام احمد اعتقد بتناسخ الأرواح ،

والا لم يستطع أن يكون كـريشنا Krishna ويسـوعاً في آن واحـد كما ادعى . وقـد قال المسلمون ان المصلين الذين يستقبلون الحجر الاسود في الكعبة يكونون مشركين وعبدة اوثـان بينما الصلوات تكـون صحيحة احيـاناً حتى ولـو كان وجـه الشخص المصلي في اتجاهات اخرى من القبلة . وذات مرة وجدت جندياً متعباً من جماعتي يركب جملاً وقد ترجل عن ظهر البعير لأداء الصلاة وكانت هذه الفريضة صلاة المغرب وأدار ظهره الى مكة فأشرت نحوه لضابط هندي فقـال لي هذا الضـابط بدوره (ايهـا الصاحب اتـرك هـذا مجهولاً ! . ان الله سـوف يصفح عن الخـطأ والغلط الـذي ينشـأ عن الضعف البشـري ألم يقل القـرآن : ﴿ أينما تـولوا وجـوهكم فثم وجه الله ﴾ ؟ . . . وهـذا هو نفـس (البقافات قيتا Bhagavat Gita) بحذافيره ، غير متناه وغير محدود مواجه في كل مكان .

ولقد قال مسلم آخر متعلم ملاحظاً : (ان القرآن سجل يـومي عنيف للنبي) والـدين سوف لن يضعف بسبب الأوهـام التي يُمَنِّي بها اتبـاعه وخيـالاتـه في التـرغيب والترهيب، ثم ان الشعور الديني يكون غالباً (شيء جغرافي بحت في مجموعـة)[1] . ولذلك فأنا اقول ان اولئك المنحرفين المغامرين الواقفين ضد الرأي المستقيم في العقيدة عند الاتراك يكونون صنائع للأعداء ويبثون الدعايات . وانا احب المحاكمة الناعمة . واستطيب مناقشة الحساب كما هو وارد في القرآن : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيـراً من الظن ان بعض الظن إثم ﴾ .

(١) ـ هكذا نجد هنا أن التشكيك في الوحي وفي العقيدة الاسلامية السمحاء لا يستمد دليله من المعقول والمنقول عند من يكونون حجة في الرأي من علماء الدين الاسلامي الحنيف ، لأن الحقيقة عندهم تفسد على الضالين والمضللين حجتهم فيعمدون الى الاستشهاد بكلام من يجهلون من أدعيائه . فالمؤلف هنا يستنكر آراء الملك حسين بن علي التي انحت باللوم على بعض المتساهلين من المسلمين والتي تدعو المرأة الى التمسك بالفضيلة . كما لا يتورع عن النقد اللاذع المغرض لهذا الشريف ولانجاله عند التصدي لذكرهم في موضع آخر من كتابه ، بينما لم يتصد بشيء من التنديد على آراء غلام أحمد وغيره من مسلمي الهند الذين قال عنهم انهم متطرفون في تسامحهم واستشهد بكلام احدمشهوريهم .

كما يبدو على المؤلف الرضاء التام عن هذا التطرف والافراط في كلام بعض من يجهلون احكام الاسلام ممن قال عنهم أنهم بعض المسلمين الهنود . وجعل من خروجهم على أحكام الاسلام تسامحاً من وجهة نظره ، ولم يتورّع عن وصف احدهم « بالمتعلم » رغم أنه من خلال ما روى عنه من اجهل الناس بمحمد وبما جاء به محمد صلوات الله وسلامه عليه . وهذا المسلم الآخر « المتعلم » الذي تعمّد المؤلف الاستشهاد بكلامه ولم يجرؤ على ذكر اسمه لو لم يكن جاهلاً لما قال عن القرآن انه سجل=

وفي عام ١٩١٨ أحنى الاتراك رؤوسهم لليمن وأعاد التاريخ من جديد ذكرى خروجهم من هذه البلاد في عام ١٦٣٠ ميلادية . وفي الأخير هل ينبغي للقبائل والطوائف التي تعيش في شبه الجزيرة العربية ان تتعارف مع بعضها البعض وتعيش بسلام كما يقول القرآن : ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ ؟ . . لا يستطيع أحد ان يتنبأ بالتأكيد . الله وحده يعلم والزمان كاشف او كما يقول اهل تلك البلاد بلغتهم الدارجة : يعلم الله والزمان ما هو عليم . . .

يومي عنيف للنبي وان الدين يمنّي اتباعه بالأوهام . في حين ان كلاماً كهذا تعبير واضح عن الجهل بالدين وبأحكامه التي تقوم في الحقيقة على العقل والحكمة ويدعمها الدليل المنطقي وآيات الكتاب صريحة وقاطعة لمن وعى وتدبّر وألقى السمع وهو شهيد .

﴿ وفي الأرض آيات للموقنين وفي انفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

﴿ ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب ﴾ .

﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل يسابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ .

فهل الغرض مما اورده المؤلف واستشهد به تضليل القارىء الانجليزي وتسميم فكره ؟ . . ام القصد به الطعن في العقيدة عند المسلمين ؟ . .

علماً بأن طعناً كهذا يكون بالتالي طعناً في الكتب السماوية الأخرى وبالأنبياء والمرسلين الذين تلقوها عن الله لأن القرآن مصدر وحيد لايمان المسلمين بمن سبق رسولهم من الرسل وبما جاءوا به : ﴿ آمن الرسول بما انزل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴾ . هذا مع أن المؤلف قد يتراجع أحياناً عندما يدلي برأيه ولو أنه يبدو عليه التعصب لمسيحيته رغم استشراقه او بسبب ذلك ، ويدعّم تعصبه هذا استشهاده بالأباطيل وبمن لا يعرفهم الاسلام . ولا شك أن القرآن عربي غير ذي عوج وهو كلام الله ووحيه تحدّى الانس والجن على أن يأتوا بمثله . فلم يستطيعوا . والذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة . (المترجم) .

الفصل الخامس :

الاستيلاء البريطاني على الضالع

الواقعة في داخل البلاد الى جهة الشمال من عدن

في عام ١٩٠٢ ذهبنا الى الضالع التي تبعد مسافة ستة وتسعين ميلاً الى الشمال من عدن ، لأن امير الضالع كان يشكو من الغزو التركي منذ عام ١٨٧٢ كما كان متذمراً من طغيان الاتراك . وأمراء الضالع استولوا على مقاطعاتهم عنوة بعد ان حكموها اصلا كنواب للبيت المالك الزيدي الصنعاني ، ولكن مع مرور السنين اصبح الأئمة ضعفاء فتمرد هؤلاء الأمراء ، وشقوا عصا الطاعة ، وقضوا على كل اثر لحكم السلطة المركزية . ومهما كان الأمر فإن الحاكم العربي ليس مستبداً ، ولا حاكما مطلقا . وهو يحكم طالما ان رجال قبيلته المساوين له راضون عنه ، ومقتنعون بوظيفته كمعبر عن لسانهم ، فاذا اثبت انه عاجز يكون استبداله بآخر .

ابتدأ الاتراك يتوسعون نحو الجنوب وطمعوا في جحاف الهضبة الجميلة التي تكثر فيها المحاصيل ، ويوجد بها نحو ثلاثمائة وستين بئراً ، وارتفاعها عن سطح البحر يقارب ثمانية آلاف قدم ، وتطل على نجد الضالع من جهة الشرق . وفي المدى المقابل تظهر في الافق مرتفعات جبل حرير الشاهقة والمماثلة ، بينما يطل الشخص نحو الشمال على اصقاع واسعة وخصيبة . ومن خلفها تقف سلاسل الجبال صفا وراء صف . والى جهة اليسار من الناحية الامامية تداعب الرياح سطح المياه الفضية التي تعكس ضوء الشمس من نهر تيبان الخصيب الذي وصل ذات يوم الى البحر مارا بالشيخ عثمان ولكن مياهه تغور الآن في رمال الصحراء بالقرب من لحج وقد طالب الأمير الشاب أمير الضالع بهذه الهضبة وأورد الحجج والأدلة الإمامية لإثبات دعواه .

وسواء كانت حججه امامية ام لا ـ والكثير من العرب هناك يعتقدون بأن هذه الادلة كانت نوعاً من مزورة ـ فانه لا يوجد برهان كاف لاظهار ملكية البيت الاميري لتلك الهضبة او للتمتع بالحقوق في مواجهة حقوق الامتيازات والحيازة التي لرجال الهضبة الواضعين ايديهم عليها . ولقد كان اهمال هذه الادعاءات المختلفة بحكمة وترو من قبل مندوبينا على اعتبار انها لا تطابق الواقع ولا تلائم المسألة العريضة المطروحة امامهم . وقد مثلنا في هذه القضية فتزموريس Fitzmaurice وكان يدعى فارس ممارس او الفارس الماهر ، والكولونيل وهاب ر. اي. Colonel Wahab R.E. ولا زال العرب هناك يرددون الثناء والمدح لهما معاً ويذكرونهما بالخير .

لقد تم رسم الحدود ورغم التدقيق في تخطيطها وتحديدها ابدى الاتراك بعض الملاحظات على ذلك مع شيء من الارتياب ، ولكن بعد رحيلنا عن تلك المناطق وعودتنا من داخل البلاد الى عدن في عام ١٩٠٧ حاول الامام نفسه بعد ان تقلص النفوذ التركي استعادة املاكه التي كانت له السيطرة عليها في الزمن القديم لا سيما وقد اصبح قويا بعد عقده معاهدة مع الاتراك في عام ١٩١١ وقيام هدنة بينه وبينهم بعد سنين طويلة من القتال . ان اطماع الامام وغاياته تكبر يوما بعد يوم ولا زال يواصل الضغط للحصول على مطالبه وادعاءاته . ونحن اليوم نجد قواته في داخل ما كان يسمى ذات مرة الحدود التركية ـ الانجليزية .

من الاشياء التي انا متأكد منها ان احتلالنا لعدن في عام ١٨٣٩ واقامتنا القصيرة فيما بعد في الضالع قد قوّض النفوذ التركي في اليمن بطريقة غير مباشرة . ولم يكن هناك اي تعمد من جانبنا لإحداث نهاية كهذه ، ولكن سلطة جذابة لحكومة اخرى (دولة) قد ظهرت على المسرح .

كان هدفنا من بداية اقامتنا الى آخرها في المناطق التي الى جهة الداخل والبعيدة عن عدن هو الامتناع بعناية عن مساعدة العرب او تحريضهم ضد الاتراك . وقد رجاني المئات من العرب حينما كنت معتمداً سياسياً في الضالع ان اضطلع بالامر في تلك الجهات وبطريقة عرضية وبالصدفة ادفع لهم مرتبات ! .

ان العربي يحب المال رغم انه لا يخزنه او يدخره . فالمال بالنسبة اليه (مثل السماد لا ينفع الا اذا كان مفروداً ومنثوراً) . والدولة « تُعطي ولا تَستَعطي » أي ان

الحكومة تمنح ولا تطلب . والاتراك طلبوا منهم المال ونحن لم نفعل ذلك ، ولهذا كان قبولهم لنا وشهرتنا لديهم . والعرب يفضلون الاتراك من وجهة النظر الدينية والعقائدية ، وحتى في عدن اليوم حيث ان الحكم البريطاني محبوب لانه عادل ومستقيم ، اذا سألت العربي من هي حكومته فانه سوف يجيب بلا تردد وبثبات الدولة الاولى اي الباب العالي . فالعربي يفكر تفكيراً روحياً .

وبالنسبة الى الإلحاح العربي من أجل التدخل البريطاني استطيع القول صراحة بأننا لم نرغب في القيام بعمل شيء ما لمضايقة اصدقائنا الأتراك الطيبين. والعربي مرتاب وهو يردد الحكمة القائلة أن دور الحكومة الصريح ، المفهوم عبارة عن توسيع نفسها ، ونشر سلطانها وابتلاع الآخرين .

استشهد عربي ذات مرة بافلاطون كما لو كان يشاركه رأيه في الحكومة : « اذهب الى الشخص الذي يعتبرك مرؤوسا له . لكن تجنب الشخص الذي يكون من طبقتك الاجتماعية وله نفس مركزك » والحكومة « شجرة مثمرة تقدم لك المأوى وتمدك بالاطمئنان » انها « بحيرة عميقة لا يدرك كنهها ولا يقلل من مياهها الاغتراف بالجرادل والدلاء » ، انها « الشمعة التي يقتبس منها رجال القبائل نوراً اذا أرادوا دون انقاص اللهب الذي يشع منها » . وحتى مع ذلك فإن من الواجب على الحكومات ان تظل مصونة ومحتفظة بمركزها . ومشائخ عائلة الموسطة في يافع داخل منطقتنا ربطوا انفسهم باتفاق مع العرب التابعين لتركيا عبر الحدود في مريس من اجل حفظ النظام والأمن على هذه الحدود . وكتب اليّ مشائخ الموسطة قائلين ان للحكومات قواعدها وانظمتها ولكن عربنا يجب ان يحموا الحدود البريطانية اذا ما حدثت تعديات تركية على هذه الحدود ، بينما يكون من الواجب على اهل مريس الدفاع عن الحقوق التركية اذا اعتدى البريطانيون على الحد التركي ، والسبب الذي ابدوه هو قولهم : « لأن الحكومتين تعتمدان على الناس اصحاب البلاد الذين لهم حق التوجيه والارشاد » . وهذا شرح مفيد وجيِّد لاهمية الطقوس والانظمة لدى رجال القبائل ! . انه ينبغي ان يحيا العرب حياتهم الخاصة بالرغم من خط الحدود وان يتجاهلوا الحكومتين ما لم تطلق الاخيرتان لنفسيهما العنان ، وتخلان بالسلام ، وترتكبان اعمالاً عدوانية فانهم عند ذلك يتحركون . وكان خط حدودنا مع الاتراك يقع في اماكن اصطناعية وغير طبيعية وفيها الكثير من المضايقة ، وتقع بعض الولايات مثل جُبَنْ في الجانب التركي

وهي المنطقة التي تمد عدن بالكثيرين جداً من الحمّالين للفحم، كما تمد السفن البخارية التي تعبر المحيط بالرجال المطلوبين لاحراق الوقود المحرك للآلات البخارية ويقال لهم «وقّادين». وقبائل جُبَنْ وبني ضبيان وناوه حلفاء مع قبيلة الموسطة التي تعد واحدة من اكثر البطون نفوذاً في يافع ، وهي المقاطعة المعترف بها داخل حدودنا .

لم يهتم اغلب السكان العرب مطلقاً بخط الحدود الذي يكون واخداً بين حكومتين ، وقالوا ان صداقاتهم او عداواتهم مع بعضهم البعض لا تمس اي طرف في الحكومتين . والاشخاص الذين لا يرضون عن قرارات المحاكم القضائية على جانب حدودنا يستأنفون الدعاوى مباشرة لدى محكمة جبلة على الجانب التركي . والمعاملات ، والمواصلات الداخلية وكذلك المبادلات التجارية تكون حرة بين الولايات على كلا الجانبين . . . والاتراك حكموا رجال قبائلهم كما لو كانوا دولة مقيمة . وقاموا بتحصيل الضرائب او الخراج . أما نحن فقد اقمنا في عدن ، وتقدمنا صعوداً نحو الداخل لبعض الوقت لا بقصد البقاء بل من اجل تخطيط الحد الانجليزي - التركي ، وتقديم مَشْورتنا لتعزيز مركز امير الضالع . وقد حوّلنا اقامتنا الى نفع بترويض المناطق المنعزلة والبعيدة مثل يافع الواقعة في الشمال الشرقي ضمن حدودنا وحاولنا ان نُعَوِّد السكان على الاساليب والنظم البريطانية . والهدف من ذلك تحويل الريبة الى ثقة . وقد توسطت بين المتخاصمين بناءً على طلبهم لحل منازعاتهم المتصلة بأخذ الثأر مستعينا على ذلك بالآيات القرآنية ، وتحولت في كل مكان من الاقليم بناء على طلبي وبحكم عملي ، ومزجت رجال القبائل وعجنتهم بخميرة النفوذ البريطاني بحرية واختيار متجنباً قدر الإمكان ان اكون فضولياً او اتدخل في ما لا يعنيني . ومن ثم كانت الخبرة التي حصلنا عليها وهي لا تقدر بثمن بالنسبة لنا فيما بعد . وفي سبتمبر عام ١٩٠٧ عدنا الى عدن بعد ثلاث سنين من الاقامة في انحاء البلاد . وقد بكت القبائل الكثيرة على رحيلنا ، وتنبأوا بقيام المنازعات والانقسامات القبلية ، والاضطراب الشامل . ولو أننا تدخلنا بطريقة محسوسة في شؤون العرب فان مغامرتنا سوف تكون مضرة بهيبتنا . ولذلك حدث العكس تماما فقد علا صراخهم بصدق على رحيلنا لأن حضورنا قام بتقديم الخدمات اليهم وساهم في المحافظة على الهدوء في البلاد بينما الجلاء عنها كان مضراً وغير ضروري . . وكان يوجد لدينا هناك

في السنة الاولى خمسمائة من جنود الفرقة الثالثة ، واحدى الفرق الهندية ، وقليل من مدافع الميدان وبعض الجنود المختصين بالهندسة المعمارية ، وأعمال الحفر والتعدين ، بالاضافة الى واحد وعشرين جنديا من الجنود العدنيين المخصصين للقيام بحراستي . وفي خلال السنة الثالثة نُقلت الحامية البريطانية وتأخرت انا مع مائة وخمسين رجلاً من رواد مدراس ، ومدفعين آليين . وقبل ان تُعطى الاوامر بأن نترك الضالع تقدمت بطلب للبقاء مع الحامية التي تم تخفيضها . ولكن هذا الاقتراح قوبل بالرفض باعتبار ان تلك تجربة خطرة ، وتم بعد ذلك سحب كل القوة . وقد كان انسحابنا برهانا صادقا لدى العرب بأن المناطق التي الى جهة الداخل والبعيدة عن عدن لا يهمنا امرها كثيرا . اما الامام فقد كان حرا في بسط نفوذه . وكان من السهل على الاتراك عند انضمامهم الى العدو في نوفمبر عام ١٩١٤ ، القيام بأعمال الكيد والدس مع العرب على طول حدودنا التي اصبح معتدى عليها بازدياد نظرا لغيابنا ، وصار من الأمور الهينة عليهم لعدم وجود خط حديدي القيام بغارة سريعة من ماوية حيث كانت قواتهم تحتشد هناك لفترة طويلة ، ثم من اقليم الحجرية نحو الجنوب وقد احضروا معهم اعدادا من العرب المُدرَّبين (المجاهدين)[1] والسائرين في فلكهم مخترقين الممر الذي يطل على نوبة دكيم مع بعض ممن كانوا يتقاضون منا مرتبات والذين شاهدوا سياستنا الجامدة التي تتبدل نحو التقهقر او الضعف والانحلال . وقد سبب لي امير الضالع كثيرا من المتاعب عندما ذهبت لأول وهلة الى هنالك . فقد توقع مني ان اكره رجاله على الطاعة والانقياد . ورفضت بحزم ان افعل ذلك معللا الأمر بأن الدار التي تقوم على دعائم غير ثابتة ومصطنعة سوف تنهار بسرعة عندما نذهب ونترك المنطقة .

وطقوس رجل القبيلة وشعائره وهي التي يقال لها باللغة الدارجة العربية « القبيلة » من الصفات الخاصة التي يمتازون بها عمن سواهم . ولزعيم القبيلة العربي اتباع « رعية » يقومون بدفع الضرائب وبالخدمة العسكرية الاجبارية لصد الاعداء . وعنده ايضا رجال القبائل الذين يلبون نداءه ويأخذون برأيه عندما يكونون بدورهم

---

(١) - في النَص الانكليزي سماهم سونترزز Sauntrers وهذا خطأ لأن سونترزز كما يقول « تورين » في شرح هذه الكلمة تعني القوم العاطلين عن العمل الذين طافوا في العصور الوسطى بحثاً عن الصدقات والاحسان تحت ستار التظاهر بالذهاب الى الأرض المقدسه ومن ثمة جاءت التسمية . اما عن « المجاهدين » فانهم اولئك الناس او القوم الذين ينشغلون بالجهاد او بالحرب المقدسة . (المترجم) .

مقتنعين بذلك الرأي . والبعض من هؤلاء لا يتقاضون راتباً بينما يتقاضى البعض الآخر مبلغ رمزياً . ومع ذلك فإن زعيم القبيلة مُلزم بضمان دفع مبلغ من المال (الريالات) الى اقارب القتيل او الجريح من رجاله اذا ما مات او جُرح اثناء قيامه بعمل يؤديه لحسابه او عن امره . ورجل القبيلة شخص معتد بنفسه ويعتبر زعيم القبيلة مجرد شخص يعبر عن لسانه ويتكلم باسمه ليس الا ولكن مراكزهم الاجتماعية متساوية . ورجل القبيلة أيضاً يأبى الضيم ولا يتحمل القيود والأصفاد ، وخنجره ينتزع احترام الآخرين ويلزمهم به . وللرؤساء حق الامتياز في ان يبعثوا بخطابات توصية يقدمون بها رجال القبيلة المؤهلين لاستلام الهبات والمنح البريطانية . ولم تبدأ هذه العادة في المناطق الداخلية فقط ولكنها قديمة في عدن أيضاً منذ أيام هينس ولا زالت مستمرة وهي احدى الوسائل التي بواسطتها نجامل الرئيس ورجال القبيلة ونستميلهم ونتودد اليهم وهذا اسلوب باهظ التكاليف ، ولكنه اذا لم يستمر سوف يكون انقطاعه سبباً في قيام المتاعب . وأول خطر يترتب على ذلك تهديد الطرق التجارية . واحسن طريقة للتخلص من وصمة هذا الاستغلال وجوب استخدام رجال القبائل كمجندين على طول الطرق مع دفع مكافآت على القيام بعمل حقيقي يؤدونه . والتجنيد سوف يعلمهم النظام ويبرهن بصورة اكيدة على ان الأموال تذهب الى ايدي الكثيرين من السكان وانها لا تنفق على قلة منهم كما هو الحال عندما يتولى زعيم القبيلة صرفها طبقاً لهواه وكما يحلو له . ومع ذلك فقد اهملت الحكومة هذا الاقتراح ونُبذ ذلك المشروع . وعلى العكس من ذلك في فترة الحرب العالمية (١٩١٤ ـ ١٩١٨) فقد تطلب الأمر أن تكون لدينا نواة طيبة من الرجال المدربين والمستعدين لصد زحف الأتراك .

لقد خسرنا بكل تأكيد الهيبة والكرامة بعد انسحابنا من الضالع في عام ١٩٠٧ . ومهما كان السبب فان اولئك الذين كانوا واقفين خلفه مسؤولين عن الحركة التي أعلنت ضدنا وقامت لمناهضتنا . وقد خسرنا ايضا مصحة جميلة لجنودنا على قمة جبل جحاف . وكان انشاء سكة حديدية من الأمور الضرورية كما ان التخطيط لذلك اظهر ان الصعوبات قليلة . ومشروع كهذا سوف يقنع كلاً من العرب والأتراك بأننا أداة يُقاس بها وعامل يرجع اليه في تقدير الحسابات ، ولكن الذي حصل عكس ذلك

وأثبت بأن اختلاطنا بالعرب وتداخلنا معهم كان عقيماً .

في فصل آخر سوف اتكلم عن الاحتكاك الايطالي باليمن . لأن الايطاليين الذين لم يسبق لهم ان عاشوا في اي نقطة من البلاد كان لديهم اهتمام - اقل مما لدينا - في قيام صلات وانشاء روابط . ولكن عملهم كان ينطوي على مكر ودهاء خبيثين في مراميه البعيدة . ويستوجب الاهتمام والحذر . ولم نكن قبل انتهاء الحرب العظمى تقريباً مهملين في تدريبنا لفرقة واحدة من العرب ولكننا رفضنا ان نضعهم موضع التجربة والاختبار على الرغم من أن الايطاليين كانوا يجندون العرب وجربوا معهم ذلك فعلا في طرابلس ، وقد كانوا متحمسين فوق كفاءتهم وحسن تدريبهم .

في عام ١٩٠٧ وقبيل عودتنا الى عدن نَصَحَنا احدُ المشايخ بأن نقوي مركزنا وقد تنبأ هذا الشيخ بعودة سيطرة الامام ونفوذه بعد رحيل الاتراك وتركنا للمنطقة . وهذه النصيحة التي قدمت الي لم تكن تعني مواصلة السير نحو الشمال ، والتقدم بعيدا الى الداخل ، ولكن المراد بها ترك نفوذنا قويا وجعل الضالع مركزا له ليشع منها ويتألّق على بقية المناطق . وانا اعترف بان حضورنا الى داخل البلاد قد ضايق الأتراك ولكن كان لنا حق كبير في ممارسة نشاطنا في منطقة نفوذنا ، كما ان لهم نفس الحق في دائرة نفوذهم . وكانوا عبارة عن الطفيليات التي قهرت البلاد وارغمت اهلها ، ولكننا ذهبنا الى هناك لغرض ولمهمة وبناء على دعوة عربية وجهت الينا .

لقد عارضنا الاتراك حتى في انشاء طريق يمتد عبر ممر الخريبة الى الضالع . والمستشفى الخصوصي الذي قمت بافتتاحه للعرب كان لعنة عليهم ، كما استنكروا المصحة التي كان من المنتظر اعدادها لجنودنا . انني احب الاتراك وأعطف على خسائرهم وضياع اليمن منهم ، واعتقد بأنهم مؤهلون بصورة خاصة لحكم العرب . ولكنني لا استطيع فهم العقلية التي اعترضت على دخولنا البلاد وأبدت العداوة عند ظهورنا على المسرح ، وليس للاتراك سبب شرعي او اساس قانوني للخوف من تقدمنا نحو الداخل من أجل تأمين الذات . واتصالنا النزيه في الماضي دليل على المستقبل . وبعض العرب الذين يسكنون على حدودنا الشمالية الشرقية استاءوا قليلاً عندما ارتفع العلم فوق معسكري باعتباري معتمداً للمناطق الداخلية من البلاد وتساءلوا عن معنى البلاغ الذي صدر عن عدن بغير عناية وبعدم مبالاة نوعاً ما والذي شرح مهمتي كمعتمد

للأقاليم التابعة للتاج (تحت حمايتنا) . ولم تكن تلك بدعة كبيرة فقد سبق لنا ان تمنا قبل ذلك بإبرام معاهدات حماية مع الجميع ما عدا واحد من اولئك الذين يتقاضون منا مرتبات . وإلقاء نظرة على تحركاتنا السريعة والجديدة في البلاد المتسمة بالخفة يكون من الأفضل استعمال التعبير الأقل اعتراضاً وهو : « البلاد التي تحت النظارة او الاشراف » او يقال (تحت دعايتنا بدلاً من حمايتنا) .

اني اتذكر جيدا عندما خلعت الحكومة التركية اوسمة رفيعة على سلطان لحج حينما زار مصر في عام ١٩١٣ . وقد كتبت الصحف القاهرية عن الأحوال في لحج وبأنها بلد خاضع لبريطانيا . كما ان السلطان احمد فضل نفسه ارسل اليّ نسخاً من تلك الصحف بعد ان اضاف الى هوامشها اقوالاً لاذعة وانتقادات جارحة لوصايتنا !!! . والسير احمد كان سياسياً ذكياً ورجل دولة داهية تكلم بالحقيقة لأننا كما ذكرت من قبل لم نعقد حماية مع اسرته ، ولكن حمايتنا تكون مرغوبة عند الحاجة حيث يطالب بها بحماسة . وكنت اجد تسلية ، بملاحظة روح الاستقلال التي يتصنعها في حين ان السير احمد هذا يعتمد بدرجة كبيرة على عدن لأنه كما يقول الكاتب Sanskrit سنسكريت : (الملوك والنساء والزواحف تتعلق تقريباً بالاشياء المجاورة لها والقريبة منها) .

ان الذي انا خائف منه وأقلق عليه هو ان اصدقائي الأتراك الطيبين قد أثّروا في عقول العرب بقولهم ان لنا نوايا عدوانية واهدافا شرّيرة . والأتراك انفسهم توقعوا شراً من تغلغلنا في البلاد وتقدمنا نحو الأمام . والعبدلي الذي حصل حديثاً على الأوسمة كان يمثل دور الاسلام في اقصاء شبح القوة المسيحية . ولعل العبدلي كتب حول ذلك وتحدث عنه بلسانه وبلغته وصفاقته المعهودة . وانا لا انكر ان السير احمد كان واحداً من اصدقائي المخلصين . ووفاته في مارس عام ١٩١٤ كانت خسارة شخصية لا تعوض .

ونحن مدينون كثيراً للبيت اللحجي وقد تغلبنا على العبدلي في عدن بعد ان ظل مدة من السنين حانقاً ومعانداً . وكان بالطبع مغتاظاً منفوخاً بالسمنة كتمثال الشمع

ومنبوذاً وعن طريق سياسة التذويب والتفتيت والمعاملة الودية كسب هينس ومن تبعه في العمل جميع السلاطين المتعاقبين الى جانبنا وتفهموا مقاصدنا وبالمقابل كسبت لحج كثيرا لقربها منا وبسبب ملازمتنا فهي تسمى (بوابة عدن) . وفي السنين الأولى المبكرة كنا مضطرين الى جعل التعامل مع لحج فريدا من نوعه ، وحرَّضنا السلطان بذلك على الانتقام والثأر للاهانات الشخصية ، وهذا الى حد كبير عائد الى سياسة الحكومة الهيَّابة والمترددة . وكانت تلك غلطة كبيرة وخطيرة ، وكان الحال شبيهاً بترويض احد الفيلة وتدريبه لإيقاع آخر في الشراك او ليخدع الفيلة المتشردة . وكان من المعتقد ان بقاءنا في عدن منفردين ومعزولين عمل مفيد واقتصادي على ان يكون تعاملنا مع اولئك الذين يُقيمون بعيداً عنا وعلى مسافة منا عن طريق الإبنابة وقيام واسطة بيننا . وعيب النظام انه كان قائما على المغالاة في شخص واحد ، وهو الذي حصل فعلا على مركز عال وممتاز ، وهذا الامر قد جعل الآخرين وخاصة الزعماء المهمين والمساوين في المكانة متحمسين بسبب الغيرة ، وعلاوة على ذلك وضع لحج في مركز حرج ومربك . ومهما كان الامر فان المرحوم السيد جورج بوري Mr. George Wyman Bury اخطأ في الملاحظات التي ابداها في كتابه « الرابطة الاسلامية Pan Islam » حيث قال : (ان السياسة في عدن كانت نوعا من عدم التدخل وفقدان حرية التصرف ، وذلك منذ انسحاب لجنة الحدود في عام ١٩٠٤ . واعتمدت عدن في الحصول على اخبار محمياتها على الملفات الرسمية وتقارير أبناء البلاد وعلى الأخص ذلك الصديق والحليف الذي صداقته تفوق الوصف وهو صاحب سلطنة لحج) . وهذا الكلام فيه تعصب للسلطان وغير صحيح كما لاحظنا ذلك بأنفسنا. وانا متأسف للاعتراض على ملاحظات الرجل الذي قطع المسافات ، وكان مكتشفاً شجاعاً في شبه الجزيرة العربية . كما كان مراقباً ودقيقاً في مشاهداته للناس العرب هناك ولكنه نظراً للحقائق او بالأحرى للمعرفة المجرَّدة عن علاقاتنا مع لحج يضطرني الأمر الى تصحيح اقواله .

لقد سبق لي ان شرحت عداوة لحج المبكرة نحونا ولذلك فانني اشك في كل الصلات مع حليف فائدته قليلة . وقد تغيرت سياستنا كلية عندما ذهبنا الى الضالع لتخطيط الحدود ثم بعد ذلك ، وكان الجنود حينئذٍ او الناحية العسكرية على درجة عالية من الكفاءة . وقد تولّى اليوزباشي وارن فورد Capt. Warneford منصب الضابط

السياسي لقوات المسحة ومعه السيد بوري كمساعد له ثم اصبحت المعتمد السياسي الدائم على اثر مقتل وارن فورد وبعد ان خلفه في منصبه البكباشي ميرويذر Merewether لمدة سبعة شهور . ولم تصبح الحدود تحت الاشراف السياسي الا بعد غياب بوزي . وكان الجنود يقومون بالخدمة وهم تحت الإنذار .

كان سلطان لحج في البداية ينظر شزراً وبارتياب الى اقامتنا القصيرة في داخل البلاد لأنه خاف من ان معرفتنا المباشرة لرجال القبائل سوف تفقده اهميته . وحتى مع ذلك فقد كنت مهتما بإقامة الصداقة مع السير احمد لأن اشراك ذلك البيت معنا في عدن يُعد من الأمور السياسية ذات المغزى البعيدَ . ثم من باب المجاملة قيامنا بعمل مثل ذلك ، وحينما نقوم به لن نخسر شيئاً جوهريا بل سنظل نكسب عن طريق استرضائه . وليس من الحكمة ان يركل المرء بقدمه السلَّم الذي تسلقه . وبعد مضي ثلاثين عاما تقريبا من الخبرة السياسية استطيع ان اؤكد ايضا بأننا اذا اقترحنا اصلاحا فانه يكون من الافضل لنا ان نترك العمل به يأتي كما لو كان منبثقاً من الرئيس او زعيم القبيلة فانني لو مكثت العديد من الساعات مع العرب فأنا دون شك سوف اعود خائباً اذا ما حاولت اقناعهم بأن مصالحنا جميعا عرباً او انكليزاً هي من حيث التماثل وعدم التجزئة واحدة او نفس الشيء . وقد كانت احدى لعنات حكمنا في الهند تلك الغطرسة الزائدة ، وانا لا أندد بما فعله البريطانيون ولكنني اعتقد بأن الكثير قد كان يتم حدوثه في صمت وبسكوت تحت تأثير المصالح المشتركة الجذابة . وانا اكره القاعدة القائلة (غالب ومغلوب) وايضا فان التعبير المبتذل « تفوق القوة » او « القوة السائدة » له طنطنة جوفاء لا سيما والعربي يشرك نفسه مع الرفيق الاعظم وذلك الرفيق هو الله . وليس هذا وهماً او غروراً بل طاعة وانقياداً وان شئت فقل : انه الاسلام .

وفي خلال الحرب العظمى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) فشلنا في القيام بحماية محمياتنا . وقد بذل السير احمد بن علي العبدلي مقاومة مشكورة جدا بوسائله المحدودة قبل التسليم لضغط القوات التركية المتفوقة . وظل امينا في دفاعه عن لحج حتى اصبح في مركزه عاجزا عن الدفاع ثم انسحب الى عدن وجُرح برصاص قواتنا نتيجة للاضطراب الذي حدث اثناء الليل . ولقد وافته المنية هنالك بينما كان تحت العملية

الجراحية التي اجريت له . وخلفه ابن عمه السير عبد الكريم . وظل هذا الأخير منفياً في عدن ولم يفقد الثقة بنا او بقضيتنا على الرغم من توانينا الفعلي وترك رعاياه اثناء الاحتلال التركي لعاصمته . والسير عبد الكريم واحد من اوفياء اصدقائنا . واذا تذكرنا العداوات والاحقاد السالفة عند ذلك البيت اللحجي التي لا تُنسى ونظرنا الى حالته ووضعه اليوم يقودنا الأمر الى ان نثني على السبب ونهلل له وهو العدل البريطاني المقترن بالعطف دون الحقد او التذمر على النجاح العجيب لتلك الاسرة التي احتفظت عبر السنين الطويلة بالكنية العربية (ابونا) . وان الشهرة للسلطان العبدلي المستمرة برهان على كيفية وجهة النظر البريطانية نحو عرشه . ومنذ الجلاء عن الضالع وعودتنا منها بعد ان كسبنا الصداقات الشخصية الممتازة بدأنا بالفعل نعتمد على البيت اللحجي في الأمور السياسية . ولم نزل نطلب من جارنا ان يتقدم بنصحه ، ومن السياسة عمل مثل ذلك . ونحن نمارس سياستنا المستقلة والمباشرة مع بقية المحميات ، وندير امورنا الخاصة بنا مع محمياتنا تلك ونشكلها كما نريد دون ان يستمر الحسد العبدلي طويلاً على معاملاتنا معها . وقد كافحت وعانيت الكثير من اجل هذا الأمر لأنه شيء اساسي وعمل رئيسي في سياستنا مع القبائل التي تعيش خلف عدن .

انني ارجو ان لا اكون قد طعنت في الأتراك عند الكلام عن شكوكهم في دوافعنا . وانا استعيد صداقتهم القديمة ، والاخوة المتينة التي كانت ذات يوم قائمة بين الامتين . وسوف استشهد على ذلك بخطاب رسمي كتبه الصدر الاعظم الى حاكم جدة « حبيب باشا » في عام ١٨٤٩ بخصوص الإهانات التي حدثت للتجار الانكليز ولحقت بعَلَمِنا :

(والأمر الذي لا حاجة لذكره ،هو انه مع ذلك ، وفقاً للصداقة التامة والخالدة القائمة بين الامبراطورية العثمانية وبريطانيا العظمى ، يجب في كل مناسبة ان تتوفر الحماية للرعايا الانجليز تجاراً ومفاوضين) .

من الاشياء التي ينبغي الإيمان على ذكرها اليهود في اليمن او اليهود اليمنيون فانهم يستحقون دراسة خاصة . وانا نادم دائما وباستمرار لان الطقوس عند القبائل العربية استرعت انتباهي الى ابعادهم الفعلي . والعرب يزدرون اليهود ويعيش

الآخرون بالقرى في اماكن منعزلة ، وبيوتهم المعزولة قذرة ، وكنائسهم المبنية من الطين لا فرق بينها وبين مساكنهم . ولا يُسمح لليهودي بحمل السلاح بل يقوم العرب بحمايتهم مقابل اجرة اسمية . ولا ترتدي نساؤهم الحلل المزركشة والموشاة الاطراف . ومن السهل استخدام الرجال والنساء كمراسلين وسعاة سرّيين حيث يستطيعون المرور بين العرب واجتياز مناطقهم في اوقات الحرب دون ان تحدث لهم مضايقات او ازعاج . ويقال « ان الاكل مع اليهودي مباح » وهذه القاعدة لها في القرآن ما يؤيدها « لكن لا تمشي بصحبته ولا تتخذه رفيقاً » وهذه قاعدة قبلية لا قرآنية ! . واذا قتل احد رجال القبائل آخر من اليهود فلا يقام حد القتل وانما يدفع رجال قبيلة القاتل طاقية مملوءة بالمال الى اقرب قريب للقتيل .

ان سلطان لحج السير احمد فضل قد احدث فزعاً في حادثة مقتل احد يهود لحج في احد الاماكن من سوق المدينة ، وكان القاتل واحدا من رجال القبائل الذين تربطهم صلة بالزعيم ، وذلك عندمااستُدعي القاتل امام القاضي فقد اصر الزعيم على حكمه بتنفيذ الاعدام،غير ان القاضي اعترض على ذلك دفاعا عن العادة التي هي قاعدة مرعية عند العرب . ومهما كان الأمر فان السلطان احمد كان عنيدا واليهودي القتيل تحت حمايته ، وهل هناك شيء آخر غير الموت يستطيع ان يزيل وصمة العار التي لحقت بسمعة السلطان ؟. وقد نُفِّذ الاعدام في الرجل القاتل مقابل جريمته . اما اليهود فقد خارت عزائمهم امام الأخذ بالثأر المتوقع .

وكانت طريقة الاتراك مع اليهود مرضية . وقد خيَّم الحزن على كبار اليهود في عدن عندما وصل العهد التركي الى نهايته في عام ١٩١٨ . فهل كان الاتراك يلعبون دور غاليو Gallio ؟ انا لا أظن ذلك . ولم يكن عدم المبالاة في مجموعة هو الذي ظهر هنا ولكنه بالاحرى تغاضيهم الوراثي ، وبرهان على ان حكمهم العادل يسري على كل المعتقدات ولا يحابي بين الطبقات .

وفي مقاطعة الحالمين التي تقع على حدود يافع السفلى قمت بجولة شاملة في عام ١٩٠٥ حيث توجد هناك قرية يهودية هي المنصورة ، وهذه القرية تعد تجربة شاذة لقاعدة القدح والتحقير اليهودي . وقد افتقد رجل من هذه القرية جديا سرقه واحد من قبائل هضبة ردفان فرفع اليهودي الأمر الى الشيخ المجذوم المختص

بالقبيلة . وتكلم بجراة غير معتادة حيث قال : « اذا كنتم رجال قبيلة حقا وحقيقة فهذا عظيم وطيب ، والا فنحن نعتبركم كالبعض منا » . وقد جمع الشيخ رجال قبيلته ودعاهم الى اجتماع سرّي ، وسألهم عما سوف يعملون . فاذا قرروا السكوت وعدم القيام بأي عمل فمن الافضل لهم ان يطحنوا الحبوب كما تفعل النساء . ! وكانت هذه العبارة هي آخر ما قيل من عبارات التقريع اللاذع وقد قرر رجال القبيلة القيام بالعمل بعد ان جُرحت احاسيسهم . وكانت غرامة اللص دفع ثمن الجدي ، كما أُجْبِرَ على تقديم اتاوة « بخشيشاً » للشيخ المجذوم !!! . . .

اما الامثال المضروبة عن اليهود فليس فيها تكريم او ثناء وليسمح لي القارىء بأن اسجل بعضاً منها والأول فيها يشمل النصارى ايضا . « لعنة الله تقع اول ما تقع على اليهود ، ثم على اليهود ، ثم على ارواح النصارى (المسيحيين) ! » . « اليهودي يهودي ولو اسلم لان زِنَّارَهُ يظل في قلبه » و « من يكذب يعذَّب مثل اليهودي » . « اذا كذبتُ اكتب عني بأني مثل اليهودي » .

ان مشكلة استيراد الاسلحة الى هذه المنطقة من العالم امر له خطورته . وكان سلطان لحج متعوداً على مهاجمة قبائل الصبيحي الذين وصفهم احد الكتاب بمهارة بأنهم « فرسان قطاع طرق » وكان سلطان لحج شخصاً مُشتبهاً به من قبل الأتراك الذين ارتابوا في انه يستورد الاسلحة التي كانت تُرسل الى الامام . وهذا بالطبع طعن وتشهير لأنه انما طَلَبَ اسلحة للدفاع عن النفس ولمعاقبة الأشرار . وقام الفرنسيون بإرسال كمية من الاسلحة من جيبوتي Djibouti الى شبه الجزيرة العربية . وكان هذا السلاح من نوع القرابينة او البنادق التي يحملها الفرسان وهو يشبه البارودة او بندقية الششخان الصغيرة Le Gras Carbine والعرب قادرون على اعادة تعبئة الخراطيش ، و « فشكات » الذخيرة في البيوت . وقد اعتاد رجال قبيلة الصبيحة انزال الاسلحة والذخيرة الحربية في منطقة رأس العرى التي تقع الى الغرب من عدن ، واستمر هذا الى ان وضع السلطان حرساً في ذلك الخليج . وفي عام ١٨٨٣ ، امرت الحكومة الهندية بوجوب منع الاسلحة الفتاكة من دخول محمياتنا ، ولكن العربي يتوق الى البندقية ويجد الطريق للحصول عليها . واخيرا عملنا على ابطال استعمال البندقية التي من صنع فرنسي ، وابدلناها ببنادقنا من نوع مارتين هنري Martini - Henry rifle .

ولذلك اصبح لدينا نوع من الاشـراف على الـذخيرة . وشبـه الجزيـرة العربيـة مغمورة بالاسلحة لاننا ادخلنـا لذ لاد اسلحـة من جميع الانـواع اثناء الحرب العظمى « ١٩١٤ - ١٩١٨ » والصعوبة التي يمكن مواجهتها بعد الآن من قِبَل كل من فرنسا وايطاليا تكمن في احتمال ارسال تلك الاسلحـة واعادة تصـديرهـا مرة ثـانية من شبـه الجزيرة العربية الى الممتلكات الفرنسية والايطالية في افريقيا . ولو كنا قد تبنينا سياسـة « سـانديمـانيان » Sandemanian في بلوشستـان Beluchistan وتنقلنا بحـرية في محميـاتنا لتعلَّم الوطنيون من ابناء البلاد بالتدريج فنون الامن والسلام ، فإن كان هذا لا يقلل من احتمال حدوث القتل للمارة عن طريق استخدام السلاح في نطاق محدود وضيِّق .

عند اقامتنا في المناطق الداخلية من البلاد كوّنـا منطقـة حرام حيـادية بيننـا وبين الأتراك ، وهكذا وضعناهم على مقـربة من ذلـك . وسوف يسمي الكتّـاب المحدثـون هـذه الطريقـة احدى تلك « الـطرق المبتكرة من طـرق العـزل الخـاصـة التي سـاهمت بريطانيا العظمى في تقديمها الى عالم السياسة » . وقد حققت هذه الطريقة اغراضها ، كما انها تركت العـرب احرارا في تحقيق مـآربهم ولتطويـر انفسهم بأنفسهم . أمـا الآن وقـد ذهـب الأتراك فـان هذه السيـاسة لا معنى لهـا . ويجب علينـا من الآن فصـاعـداً الترحيب بتآخي العربي مع اخيه العربي حتى ولو لم يتحقق هذا الهـدف بغير الشغب او حتى سفك الدم المطلوب الذي تقتضيـه الحاجة . وقد تعلمنـا على أيـة حال اشيـاء كثيرة اثناء اقامتنا المؤقتة عن طريق المخالطة والمعاشرة الشخصية . يقـول دزرائيلي D'Israeli « ان المعاشرة الشخصية اعظم شيء في الأمور السياسية » .

لست شديد الاسف على رجوعي الى عدن من الضالع وحتى بعد الجلاء التركي ما عدا الحسرة على فقدان مصحة كانت الحاجة اليها شديدة بالنسبة لعدن . وتود Tod في كتابه راجاستهان Rajasthan تحدث عن الخوف الشديد الذي كان يشعر به الأمـراء المتصالحون اشد من الاتحاد او الاندماج معنا واعتقد تود انه نتيجة لذلك سوف يُقابَل بالمقاومة ليس من اجل سعادتهم فحسب بل من اجل استقرارنا ايضاً . ونفس الفكرة راسخة عند العرب فهم لا يريدون منا ان نخلف الاتراك في السيطرة عليهم وان نخضعهم لحكمنا . وانا لا أقول هذا دفاعاً باعتباري بريطاني الاصل والعرق ولكن الحماية ربما ادت

مع مرور الزمن الى الضم . ومن الخطأ تكرار الغلطات التي حصلت في الهند وفي مصر ولا نريد كذلك ان نرى العرب وقد اصبحوا انجليزا . والحقيقة كما قال تود ملاحظا انه في الأمور السياسية يضفي عامل الزمن سحراً على الهدف ، كما ان الغاية تبرر الوسيلة . وان انشاء وكالة في لحج او حتى في احد الاقاليم بالمرتفعات البعيدة من البلاد سوف يكفي ويفي بالغرض اذا أُحسن اختيار المعتمد ، وإلا فمن الافضل ترك العربي يواجه مشاكله بنفسه وحيداً . كما ان حكمنا في عدن على مقربة من العرب وفي نفس الوقت بعيدا عن مناطقهم احسن درس عملي يشاهدونه ونستطيع وضعه امامهم . وعندما مكثنا في الضالع بداخله البلاد لم نقترح قيام اتحاد معنا ، أولاً لأن المدة كانت قصيرة ، وثانياً لأن المنطقة بعيدة عن قاعدتنا في عدن . ومن الواضح للجميع ان مسافة تقدر بحوالى مائة ميل بين عدن والضالع يكون العربي فيها حراً ليعمل ما يحلو له وكما يريد .

ان واجبات المعتمد السياسي في الضالـع كثيرة ومتعـددة ، ولم يمر يـوم الا وكان مثقلاً بالعمل . وحوادث الأخذ بالثأر شغلت الجزء الأكبر من وقتي . ولقد جمعت ثروة من تـراث القوم ، وقصصهم ، وفنـونهم الغنائيـة واساليب تفكيـرهم ، وكان جـريان الحبر لا يلائمني ومغايراً لطبعي ، وان تركي للكتابة قد ازعج عدن واحزنها لأن افضل سيـاسة في رأيي تكـون في الابتعاد عن كتـابة التقـارير ، ولا شـك ان الكتب الزرقـاء Blue - Books تبـدو جميلة ولكن عملها يستغـرق الوقت الـذي كـان ينبغي تكـريسه لإتقان حرفة او تعلّم صنعة قد تنفع في الليالي الحالكـة وربما تـدر دخلاً . غـير انه من المؤكد ان كاتبة شهيرة متعلمة كانت على حق عندما كتبت تقول : (ان عدة الموظفـين البريطانيين تتألف من معرفة كاملة بالكتب الزرقاء Blue Books ، ومن رصيد كبير من النوايا الحسنـة والمقاصـد الطيبـة ، وعلم تام بسيكلوجيـة اولئك النـاس الذين سـوف يحكمونهم ، وتغاضي عن الجهل المغروس في نفوسهم) .

ان فورد في كتابه البديع « مقتطفـات من اسبانيـا » جعل الكتـاب المقدس The Bible وشكسبـير ودون كوكشـوت Don Quixote رفاقـه في الـرحلة . والسيـد رتشـارد بورتون Sir Richard Burton ازاح الرجل الاسبـاني واستبدلـه باقليـدس Euclid . وقد حبك كتبه الثلاثة في مجلد واحد كبير . اما انا في شبه الجزيرة العربية فقد كنت افضل الكتاب المقدس بصورة عامة وكتاب ايوب بصورة خاصة ثم القرآن وكتابـات لا وتسو

وكل هذه الاشياء المختارة ترتبط بالاذواق والميول . ويتحتم على المرء ايضا Lao - Tzu ان يكون قادرا على اقتباس العادات في مواطنها ، كما ان دراسته للتقاليد المحلية والفنون الشعبية الفلكلورية سوف تجعله محبوبا للغاية وتكسبه شعبية .

والنساء في اليمن لهن اهمية كبيرة . وجمال المرأة في صنعاء وفي جبلة تُضْرب به الأمثال . اما اولئك اللاتي بالقرب من زبيد فإن حسنهن يسبي العقول لدرجة ان هناك حكمة تنصح الإنسان فتقول : « عند دخولك مدينة الخُصيبْ اجعل دابتك تغدو راكضة ! . . » والسيدات اللاتي في مرتفعات شرقي جزيرة سقطرة لديهن جاذبية خلّابة لدرجة أن أحد سكان الجزيرة وصفهن لي بقوله : « ان حسنهن وجمالهن يجعلك تخفض بصرك وتغمض عينيك » ! . اما الهمداني فقد وضع الأمر بشكل افضل حيث قال في وصفه ان قوة الجاذبية لجمال الفرس ينطبق بالمثل على الفتاة الحسناء : (عندما ينظر المرء اليها بعينيه تتطلّع بدورها اليه وترمقه بنظرات يشوبها الازدراء والكبرياء معاً لتدخل الى نفسه كل جوانب حسنها) والنساء في القرى والهضاب لا يرتدين الخمار . وكنت أزورهن في بيوتهن في معظم الأوقات . وغالباً ما كنت اقدم لهن الاسعافات الطبية واستمع عدة ساعات الى ادق شكاياتهن ومظالمهن . وكانت الفتيات الراقصات يقمن بزيارات متكررة لمرابعنا . فكنَّ بذلك زائرات مألوفات ، ومخبرات لا يباريهن أحد أو يزاحمهن . وكذلك كان الحال بالنسبة للصبيان . والمثل الاغريقي يقول ان الخمرة والطفل يقولان الحقيقة . وبالنسبة للحجاب لم اجد دليلاً واضحاً عليه في القرآن ولم يرد ذكره صريحاً حتى في الآية ٣١ من السورة الرابعة والعشرين (سورة النور)[1] فالحجاب اذن اما ان يكون قد جاء من ايران او من الهند الى شبه الجزيرة العربية حيث يوجد غالباً بالمدن الكبرى . ويكون الحجاب ضرورياً او لا بد منه في اوساط الطبقة الراقية جدا . واما بالنسبة للناس العاديين فإن الأزواج لا يجبرون نساءهم على مثل ذلك .

والأمثال العربية السائرة ليس فيها بالتأكيد تكريم او ثناء على الجنس اللطيف . وتحصل المقارنة بينهن وبين الاحذية عندما تُستبدل القديمة بأخرى جديدة ! . . .

---

(١) - قارن بين الآيتين ٣١ و ٣٢ من سورة النور وبين الآية ٥٩ من سورة الأحزاب مع ما ورد في قول الرسول صلوات الله عليه لزوجتيه أأعمى وانتما تريانه ؟ (المترجم) .

ويقولون عنهن : « النساء مخلوقات شيطانية » وكان النبي بطلاً رحب الصدر عندما قال : (الجنة تحت اقدام الامهات) . ومهما كان الامر فان القرآن قد وضعهن في مكان ادنى من مكان الرجل . وشوبنهور المتشائم دعاهن بهذه التسمية : (جنس براق أو أداة متعة) ونابليون كان بالمثل تماماً حيث قال (النساء ليست لهن مرتبة) . والعرب الذين يعملون وقَّادين في السفن البخارية يترددون على موانئنا الانجليزية ويتخذون لانفسهم محظيات او زوجات من البيض لتمضية الوقت . ولكن تلك الزوجات لا يسافرن الى الشرق مع رجالهن . وانا اتذكر سيدة من كارديف كان قد عقد قرانها لتصبح زوجة . وكتبت تستفهم عما اذا كان لدى زوجها زوجات أُخَرْ في بلاده وبعثت اليَّ بصورة مضحكة لحيدر محمد الذي كان يرتدي ملابس اوروبية ويضع على رأسه قبعة . ووقعت اسمها مضافا الى الزوج (السيدة محمد) جاهلة بالحقيقة وهي ان ذلك الاسم ليس اسم زوجها بل اسم والده ! وقد تمكنت من ابلاغها عن معرفتي بذلك السيد الذي يملك بيتاً للحريم من الاناث السمر في بلاده بالضالع .

ان البعثة النسائية الدانمركية (الإرسالية) التي قدمت الى عدن تقوم بعمل عظيم. وتبذل مُحاولة كبيرة لتحسين الحياة المنزلية . وقد جعلت من النساء هناك رفيقات يقمن بمساعدات حقيقية لازواجهن . وتعمل تلك البعثة بكل حشمة وأدب وبلا تطفل في الحي الشعبي من سوق كريتر ، وهذه الاعمال سوف تؤتي ثمارها . ونحن ندين لها بشكرنا الحار على ما تبذله وما تحمله لان حياتها ضرب من التضحية بالنفس . والعمل الجليل الذي قام به كارل راسموسن Carl Rasmussen الدانمركي هو ايضاً من المآثر الحميدة فلقد افتتح مدرسة نموذجية للبنين في كريتر وأنشأ فرعاً لها في المعلّا وهذا الشخص يتمتع بالاحترام بين كل الطبقات العربية ويعتبرونه انساناً عظيماً ويلقبونه بالمعلم او الاستاذ . وهو معتمد في عدن بصفته وكيل عن جمعية الكتاب المقدس B.F.Bible Society وعلى الرغم من انه دانمركي الاصل فقد قام بدعاية كبيرة لانجلترا واكسب البلاد الانجليزية سمعة طيبة . . . واظن ان النساء اليمنيات يتخطين ازواجهن احيانا رغما عن تعاليم القرآن . ومنذ عهد الملكة بلقيس والتاريخ يروي لنا البسالة والجرأة والذكاء والدهاء عند الكثير من النساء . وقد عرف الشعر الجاهلي قبل الاسلام كيف يكرِّم مناقب المرأة ويتغزل في محاسنها . وانا معجب بالاستقلال

المتين ، والاحساس بالمسؤولية اللذين اظهرتهما الملكة الصُلَيْحية السيدة أروي بنت احمد التي اخبرت سيدها المكرَّم بأن المرأة تريد ان تحتل مكانها في المجتمع وفي مجلس الشورى لان المضجع لا يليق بها . فكانت تلك السيدة في تلك الايام بطلة حقوق المرأة من اجل حصوها على مقاعد في البرلمان .

وفي الحروب القَبَلِيَة تتبع المرأة زوجها الى المعركة حاملة جرار الماء ، واحتياطي الذخيرة ، والاسلام في شبه الجزيرة العربية سوف لن يستعيد امجاده ويحتل مكانه ـ لا سيما على خطوات الشريف حسين ـ طالما أن المرأة تُرغم على أن تكون في مكان أدنى . بينما النساء في تركيا والهند أصبحن يقمن بتجديد المجتمع وإنعاشه ، ويؤدين دورهن بثبات .

من الممكن بل من المفترض ان ينشغل الضابط السياسي في الأمور السياسية وحدها ، ولكن عند اقامتنا في داخل البلاد كانت النساء من بين أعز اصدقائي . وسوف تُصدم الحكومة عندما تعرف ان الفتيات الراقصات كنّ يَرقصن في مخيمي ـ واكثر الاوقات قبل الظهر ـ بينما يجتمع من هب ودب حلقات حول الحيطان وهم يصفقون استحساناً للبرنامج . طرب وتخطيط كان هذا هو حالي بالضبط . ولم يكن ذلك عملاً حلواً ولذيذاً فقط ، ولكنه كان أيضاً عملاً سياسياً . وكلاهما من أجل مخالطة السيدات وملاطفتهن فقد كنَّ يجعلنني أطّلع على خفايا الامور ، واتعرف على الاعمال والافعال القبلية ، وفي نفس الوقت ساهم هذا اللهو البريء في انعاش الجندي من الملل والسأم وهو الذي كان احد العوامل الاساسية في مساعدتي على عملي السياسي . وتوجد مناهج متنوعة للمعرفة . والقيمة الكبيرة لما تعلمته في تلك الحشود البهيجة يجب ان تصفح عن التفاهة في الوسيلة المؤدية الى ذلك الهدف فالغاية تبرر الواسطة .

ان الاصطياد ومطاردة الوعل المكار في التلال قد منحتني ثغرات كبيرة لدراسة العقلية العربية . ان العربي في رشاقته وسرعة حركته كالحيوان تقريباً ومراقبة خفته على قمم التلال تعد نوعاً من الالهام والوحي . وان العربي ساكن التلال حيوان نفيس واحسن ما يكون للمرء هو أن يدركه ويتعرف عليه في العراء . يقول رتشارد جيفيريس Richard Jefferies ان الحياة في العراء بحاجة الى مرور مئة وخمسين عاما حتى تصبح ممتعة وتحدث جمالا . وحياة كهذه لا شك انها قد صورت عشيق افروديت

العربي Arab Adonis وصاغتـه . ثم غدت نمـاذج الفنانـين والنحاتـين العرب غـزيرة وعديدة . ان العربي شخص طروب وهو يُغني بقدر ما يعمل وثقتـه تكون بالله الـرفيق المسيطر على حيـاته . ولا يـوجد عـربي يُعنِّف ربه او يـرغب في العدول عنه وابدالـه بـآخر . ولا يفهم العـربي او لا يرغب في ان يفهـم التـلاك Tilak صاحب الهنـد الذي اخبر مجلسه بانهم لم يعودوا محتاجين الى الخوف من براهما ولا من فشنو او شيفـا الذين اصيبوا جميعا بالعجز والشيخوخة ، وفقدوا رجولتهم وبأن عليهم من الآن فصاعدا ان يعبدوا ذلك الرب الأوحد الذي يستطيـع وحده تخليص الانسـان من مشاكله ومتـاعبه اي من الشقـاء وأعني غـانبـاتي Ganpati . ولنستمـع الى السـورة رقم (١١٢) وهي سورة الاخلاص التي تُعد من اعظم واروع ما نطق بـه الكتاب حيث تقـول : ﴿ قل هو الله أحد . . الله الصمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

ان العربي لديه احترام قليل للهندي وهو يسميه « آكل الحمص والرز » من باب الاحتقـار والازدراء . وذات يوم بينـما كان واحـد من العـرب جـالسـاً معي في خيمتي يحدثني وكان الوقت حوالى الـظهر تقـريباً وهـو ميعاد الصـلاة اذا به ينهض فجـأة لأداء الفريضة . ولكن عودته السريعة حيَّرتني . ولما سألته عن السبب سألني بدوره قـائلاً : (هل لم يسبق لك ان استمعت الى امام الصلاة) ؟ وكان قد قام بدور الامـام في ذلك النهار احد رجال الفرقة الهندية وهو لا يحسن النـطق بالعـربية مثـل بقية الهنـود . وقد تسبب ذلك في جعل الشخص الآخـر يزيـد من سرعتـه قائـلاً : « ان الله لا يستطيـع اجـابة صـلاة كهذه حيث يكـون النطق فيهـا بالغلط » ! . والقصـة تُذكـرِّنـا بحكـايـة الفرنسي الذي كـان يرقـد على سـرير المـوت وهو يتلقى من القس المـواساة والعـظات الخيالية ويستمع منه الى المواعيد بالهناء والنعيم القادم . فصرخ في وجهه قائلاً : (قف فان اسلوبك الملحون يُكرِّه اليّ هذه المواعظ) .

عـلى الرغم من الاخـوة الاسلاميـة التي تساوي بـين اتباع الـدين الاسلامي او بسببها يتمتع بعض العـرب بامتيازات اجتماعيـة او نوعيـة ويتشبثون بـالميزة او بمكـانة متميزة وكلمة سيد دون غيرها هي التي يستدعيها المقام تقريبا للدلالة على الاحتـرام ، وقد وجدت هذه ذريعة لتكـريم اولئك الاعيان والـذوات ، كما وجـدت البعض منهم اعضاء من الكهنة غير المؤهلين . وبعض افراد هذه الجماعة يُغَذّون الخصـومات بـين

رجال القبائل ثم يتدخلون بسرعة لحلها لانهم يحصلون على عيشهم ويكسبون رزقهم من هذه المهنة . والسيد شخص اذا لمس انسان آخر ثيابه حصل على البركة . أو كما يقولون : « الواحد يتمسح به » واما بالنسبة للاشخاص القديسين او الاولياء كما يسمونهم فان شهرتهم تعم الآفاق ، وتعترف لهم قمم التلال بالكرامات . واعظم واحد من هؤلاء هو « ابن علوان » المدفون في يفرس بالقرب من تعز. وهذا الولي تأتي مرتبته عندهم الثانية بعد النبي ، بل انه يوجد في هذه الايام الفاسدة بعض الناس الجاهلين الذين يقدمونه في التكريم ، ويتقربون اليه بالنذور وأتباع هذا الولي المتعصبون يطلق عليهم اسم المجاذيب او اولئك القوم الذين يتجولون في كل انحاء البلاد وهم يمجدون اسمه بينما يكونون سابحين في جاذبية قدسيته . والعلامة التي تميزهم وتعد شعاراً لمأموريتهم هي الطبل وقضيب الحديد الذي يسمونه (دبّوس) . وتدنيساً لهذه الأشياء المقدسة اشتريت ذات مرة تلك الشعائر بريال واحد . وقد تنبأ لي صديق عربي بحدوث كارثة قائلاً سترى ! . وبعد مرور عشرة أيام على ذلك الحادث أُصبْتُ بأذى في الجفن فتردد الدوي بالمدح والتمجيد لابن علوان في كل انحاء البلدة لانه قد انتقم لنفسه من طيش الملحد واندفاع الكافر . وتقدم اليّ صديق آخر من السادة بعلاج فعّال ينقص العلاجات الحديثة والعقاقير الطبية الاخرى ! لقد نطق بكلمات ناعمة من التعاويذ وضرب عيني التي تقاسي من الألم بخبطة قوية من راحته المفتوحة قائلاً : سترى النتيجة ! وفي اليوم التالي كنت انظر بوضوح كما كان الحال قبلاً . لقد عطف الولي عليّ ، واحرز الكاهن العربي نجاحاً آخر . أما انا فأختلف معهم في ذلك وأشذ عنهم .

وللعبد مكانة ، ولطبقة العبيد حق الدخول الى المجتمعات الراقية لأن شجاعتهم الحربية تتطلب ذلك . اما ما يسمونه هجرة Hijri (مزيِّن) فهو يُعامل بازدراء ، ودرجته أدنى . وهو يقوم في الغالب بأعمال الحمل . واما طبقة المغنين المتجولين والمنشدين او المزمِّرين ، وكذلك الراقصين و « الدواشين » والمداحين فكل واحدة منها تُعد من الطبقات الفقيرة . ويقوم بعض افرادها بتلاوة الاغاني والاناشيد في مدح الرسول وهذه الفئات تُعتبر من الطبقات الدنيا بخلاف القبائل او رجال القبيلة فان مرتبتهم تأتي بعد السادة ويزدرون بالرعية . والشخص الذي يكون راكباً

على صهوة الجواد ينتظر من الشخص الراكب على ظهر الجمل ان يبتدئه بالسلام ، وبالنسبة للأخير ينتظر المبادهة من راكب الحمار .وكل شخص يركب دابة او حيوانا يكون انسانا أرقى من اخيه الذي يمشي على قدميه .

ان الأخذ بالثأر ميراث عزيز تتم تغذيته وتركة يجب الحفاظ عليها واحتضانها كما يقول تاسيتوس Metiuo Metu aut Monti Bus ويحدث الانقسام بين القبيلة وزميلتها الأخرى عن طريق الشك المتبادل والريبة المشتركة . ان الطبيعة والتشكيل الجغرافي للبلاد والتضاريس تساعد على ذلك فالتلال تُعد فاصلاً طبيعياً بين كل قبيلة واخرى . ولهذا التناحر والخصام ما يؤيده في القرآن فلا يمكن أن يصبح سلوكاً قديماً مهجوراً أو يبطل استعماله . والمثل يقول « أخذ الثأر ما هو عار » أي ان القودَ « القصاص » يمنع الفضيحة . ولهذا السبب سوف تستمر الحروب القبلية وستبقى طالما عبذ الله ، وطالما ظل الغراب محتفظاً بسواده .

ان سجايا رجال القبائل قد تُفهم بسرعة عن طريق دراسة امثلتهم فهم يقولون : (سمِّني نقيب واقطع معاشي) كما يقولون (لطمة على الوجه اسهل من قطع العادة) . وهذه الامثلة التي اتيت على ذكرها تدل على المفاهيم العربية للكرامة وعزة النفس كما تدل على حبهم للمحافظة على القديم وهو ما عبرت عنه بصدق الآية التالية في السورة رقم ٤٣ (سورة الزخرف) : ﴿ بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وإنَّا على آثارهم مهتدون ﴾ . فالجديد لعنة او كل بدعة شنعة . ولقد عزّز الاسلام نزعة العرب الاستقلالية ونهاهم القرآن عن السجود او الخضوع لآخر ، ومنعهم من عبادة الاسلاف والاجداد ، وزهدهم عن الشغف باقتناء الاشياء[1] . انهم كالكواكب

(١) ـ الاسلام شغل الغربيين الشاغل وعدوّهم اللّدود لانه سرّ عظمة الامة العربية . واذا اشاد بعضَ الغربيين بالاسلام احياناً فانما يكون ذلك لحاجة في نفوسهم . لقد جاء الاسلام والعرب في خمول وركود يأكلون الميتة ويشربون الخمرة ويئدون البنات احياء ، ويعبدون اصناماً ينحتونها بأيديهم . جاء الاسلام وعرب سورية تحت حكم الرومان ، وعرب العراق خاضعون للفرس ، وعرب اليمن تابعون لفارس ايضاً . فالاسلام هو الذي حرَّر العرب ووحّدَهم ، وهذّب نفوسَهم وجعلهم اشداء على الكفار رحماء بينهم : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألَّف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا ﴾ . والاسلام ابعد العرب عن العادات الرذيلة وحافظ على عاداتهم القويمة .

والاسلام جعل الأمة العربية في خلال قرن واحد تصل الى حدود الصين شرقاً والى قلب فرنسا غرباً . بالدين الاسلامي اصبح رعاةُ الابل رعاةَ ممالك وامبراطوريات ، وهزموا اعرق امبراطوريتين حضاريَّتيْن عرفهما التاريخ عند ظهور الاسلام وهما =

كل واحد يسبح في فلكه وحيداً وكل قبيلة منهمكة في شؤونها وشجونها الخاصة بها وتفرح وتمرح . والعربي في ندائه العدائي او هتاف الحرب يشبه دودة العلق الصغيرة التي تمتص الدم من الجسم ولسان حاله يقول اعط ! . امنح ! . ولكنه لا يحصل على المال بقصد ادخاره او خزنه بالرغم من انه كلاعب الشطرنج يأخذ كل ما عندك ويحتفظ بكل ما لديه ويمكنه . ان الشاعر يغني قصيدته السباعية التي يبتدىء كل بيت فيها بحرف الكاف وتتضمن الأشياء اللازمة في الليالي الباردة والمطيرة . اما العربي فان كيساً واحداً للنقود يحتوي على كل حاجاته او ما يعوزه . فهو لذلك يشتري مجموعة منها . وهو يحب بلاده وبالاكثر قريته وبيته الذي يَحنُّ اليه مهما كان قذراً ، ومهما كانت الحياة هناك مملّة (عظمة الحصان في اسطبله حتى ولو كان العلف على مسافة قصيرة منه) او كما يقول المثل الدارج عندهم (عزّ الخيل صبولها) . ولقد كان احد العرب يعمل في مناجم للذهب باستراليا فرجع من هناك ونطقه محشو باللغة العامية الاسترالية وكان مقتنعاً جداً بعودته الى قريته الوحيدة المنعزلة في جبل حرير حيث يوجد له فيها حقلان او ثلاثة من تراث الاجداد ويستدعي الأمر منه حراستها

الامبراطورية الرومانية - البيزنطية - ، والامبراطورية الفارسية . ان الدين الاسلامي ليس دين عبادة ذات طقوس كهنوتية رتيبة ، وانما هو دين الحياة بكل معانيها وفيه تهذيب للروح وعناية بالجسد . الاسلام دين الاخلاق إذْ جعل الأنسان جسماً وروحاً ، حيواناً ومَلكاً . ان الوضوء في الاسلام طهارة ونظافة والصلاة تهذيب ورياضة . والصوم ليس امساكاً عن الطعام والشراب وانما هو الى جانب ذلك صوم عن الرذيلة والموبقات الانحلالية . والزكاة اصلاح مالي ونظام اجتماعي وهي حق وفريضة . الاسلام عزة وكرامة وقوة : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ . ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ . ﴿ وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوي عزيز ﴾ . وليس في الاسلام ضيم او عدوان . وليس فيه اباحية او هوان وانما فيه حق وعدل وخير واحسان : ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القُربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ . وليس في الاسلام حرمان وعزوف عن طيبات الحياة بل يُذَكِّرنا احكم مُشرِّع بما انعم به علينا : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً ﴾ ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك ﴾ . ثم يُعَلِّمنا ربّ العالمين كيف ندعوه : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ . وهكذا يبدأ بذكر الدنيا قبل الآخرة . ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ .

ان الاسلام دين جامع شامل ، والقرآن يخاطب كلاً من الرجل والمرأة ويلقي عليهما عبء التكليف : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر او أُنثى وهو مؤمن فلنُحيينّه حياة طيبة ولنجزينّهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون ﴾ . صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم القائل : (اني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي ابداً كتاب الله وسُنّتي) .

(المترجم)

واعدادها للزراعة . وانا لا انكر بأن (حبّ المرء لوطنه نوع من الاخلاص وضرب من الوفاء والتضحية) غير ان ذلك الوطن بعيد تماماً عن القرية موضوع الحديث ومنفصل عنه .

ألم يكن لوتسو هو القائل : « اذا كانت هناك مقاطعة متاخمة لنا ، كلا بل لو كنّا متقاربين بما فيه الكفاية لدرجة ان كل فريق منا يسمعُ صياح الديوك ، ونباح الكلاب لدى الفريق الآخر المجاور فان الناس من كلا الفريقين سوف يولدون ، ويكبرون ، وتدركهم الشيخوخة . ثم يموتون دون حدوث اختلاط متبادل » .

وهناك حكم وأمثال أخرى يتردد صداها مثل : (الجلد الذي لا يخصني اجرجره على طول الطريق وفي ساحة السوق) وكذلك : (املأ بطني والله سوف يملىء بطون الآخرين) . وقد كتب فورد FORD هذين المثلين عن المصطلحات المحلية عند الاسبان ، وهذه الخاصة شائعة عند العرب وكثيرة الحدوث . فالعربي يقول انا لست عربياً فحسب بل انا يافعي . او يقول انا عولقي أو انا فضلي . . . وهلمَّ جرا .

انه مشغول البال خوفاً من ان تحيق به الشرور من عين الحسود ، والجنّي البرّي يحوم دائماً حوله . انه ينطق باسم الله قبل ان يجلس راكباً على ظهر جمله لأن الوصفة التي هي (بسم الله) سوف تعيذه من شر ابليس الذي يسكن سنام بعيره . وعندما ارسل يعقوب ابناءه لشراء الحبوب من مصر نصحهم بأن ينقسموا الى مجموعات صغيرة وبأن يدخلوا المدينة من ابواب متفرقة ، ولقد فعل ذلك بسبب خوفه عليهم من العين . والعربي رفيق جذّاب . ان حضور النكتة عنده ، وسرعة بديهيته ، وصبره على الحياة بشهامة ورجولة ، وثقته بالله ، التي تجعله غير مكترث بالغد تغطي طفولته ، وتطغى على كبريائه الواضح ، وعلى جشعه في جمع المال كسائر الساميين وعلى تشبثه بالخرافات التي تؤدي الى التسويف في العمل ، وتقهر اكبر العقول الغربية خبرة ، وتهزم ارقى الأشخاص فهماً وعلماً في الحقل التجريبي ، انه عديم الاكتراث بالحاضر اذ ليست لديه مدنية او حضارة مستمرة . انه يتكل على المستقبل حيث سيلتقي بالله .

ان حضور النكتة عنده ، وسرعة بديهيته ، وصبره على الحياة بشهامة ورجولة ، وثقته بالله ، التي تجعله غير مكترث بالغد تغطي طفولته ، وتطغى على كبريائه الواضح ، وعلى جشعه في جمع المال كسائر الساميين وعلى تشبثه بالخرافات التي تؤدي

الى التسويف في العمل ، وتقهر اكبر العقول الغربيـة خبرة ، وتهـزم ارقى الاشخاص فهما وعلماً في الحقل التجريبي ، انه عديم الاكتراث بالحاضر اذ ليست لديـه مدنيـة او حضارة مستمرة . انه يتكل على المستقبل حيث سيلتقي بالله .

وهـو ميَّال جـداً للتقليد . وصـائغ كفـوء للكلمات الجـديدة التي تـطرق سمعه وسوف اقدم على جهة المثال كلمة « دمفلة » التي يقصد بها « لعن او سخـر او سفَّه اي He Abused أو Damn - fooled اما الكلمة الانجليزية Punctured فانها تصبح بالعربية « بانكشار » . وتطلق على الرجل الذي يحصل على قبعة مستـديرة فيقـال ذلك الـرجل استـوى بانكشـار ! . وكلمـة Dozen تصبـح (درزنـة) فيقـولـون أعـطاه درزنـه من المنطمـات . ولكن ما الـذي يمكنني ان اقولـه ، او اقوم بتشـرحه اكـثر مما فعلت ؟ ان الوقت يجعلني عاجزاً عن تفصيل كل طبائع الانسان العربي وأمزجته .

وقبيل تركنا لمنطقة الضالع والمناطق الأخـرى التي بالـداخل في عـام ١٩٠٧ كان قد اخبرني احد العرب بأن الكتابات والاساطـير القديمـة عندهم قـد حكت عن قدوم بني الاصفر (الاتراك) الى اليمن وبأن بقاءهم فيهـا لن يكون طـويلا وبـأن خلفاءهم وورثتهم ستكون لهم صولة ، وسيحتشدون على ظهور السفن ويجوبون البحار . وانهم سوف يجلسون عـلى الكراسي التي شغلهـا غيرهم وتخلوا عنهـا . وبأن قـائدهم سـوف يكون من اقارب الهنتر او احد الفرسان الذين ذكرتهم في الفصل الأخير .

ان اليمن بلد لـطيف وجميـل . آه ! . كيف انســاك أيتهـا اليمن ! . ان اليمن الخضـراء لن تُنْسى طـالمـا بقيت يـدي اليمـين حيـة تؤدي وظيفتهـا دون ان تنسى مهارتها ! .

انني احب اليمن . احب روابيهـا وأحب وديانها ونضـارتها ، كـما احب كذلـك صحاريها الرملية .

ان قمم هضـابهـا تحتـوي آثاراً مـادية ، ومخلفـات للكثـيرين من كـرام الاسـر والعائلات القديمة .

ان العـالم القديم والجـديد مـوجود هنـا في بقعـة واحـدة . انني اتمنى ان يسجى جسدي هناك هادئاً مرتاحاً وكلمات الشاعر المعري ترن في أذني :

عندما يحين أجلي ؛ ويأتي وقت رحيلي . دعوني اضطجع متوسد الثرى في زاوية من الأرض .

اليمن معبودتي اوسنثيا . . . وانا العابد الولهان أوبرو برشيوس .

(سنثيا كانت الأولى ، وسنثيا ستكون الأخيرة) .

The Yamen is my « Cynthia » (1)

1 The adoring « Propertius » (2)

« Cynthia prima fuit ; Cyntfria Finis crit . »

---

(١) ـ احدى الآلهة في جبل سنثوس المرتفع في جزيرة ديلوس كما تقول الأساطير الاغريقية .

(٢) ـ شاعر روماني وجد قبل ميلاد السيد المسيح ، وخلّد معبودته سنثيا في شعره . (المترجم)

الفصل السادس :

العداءات المستحكمة

والخلافات التي كانت مستمرة بين الاتراك وامام صنعاء قبل قيام الهدنة التي تمت بين الفريقين في عام ١٩١١ توحيداً للجهود من اجل محاربة الايطاليين . . .

لم يشعر الأئمة في صنعاء قط بالهدوء والسكينة في بيوتهم منذ أُعيد تثبيت الحكم التركي باليمن في عام ١٨٧٢ . وقد وجد أئمة الطائفة الزيدية انه من السياسة والحكمة احترام السلطان الخليفة على الرغم من الاختلافات المذهبية فيما بينهم . ولكنهم لم يستطيعوا تماماً معاشرة الموظفين الاتراك الذين يُرسلون الى بلادهم او مشاركتهم . وصنعاء نفسها والمناطق القريبة منها تعد موطن السادة والاشراف ، واتصالهم بالعالم الخارجي قليل ولعل هذا هو السبب في التحفظ الذي قد يكون دليلاً على التعصب الموجود . ورجال القبائل مثل حاشد وبكيل يكونون متعصبين كذلك ولكن تعصبهم قليل . وقلما رأت عيناي ابطالاً محاربين يغمرهم الطرب والمرح مثل اولئك المقاتلين الزيود . واما الشوافع الذين يسكنون تهامة فان حظهم من تلك المزايا قليل عند المقارنة بالزيود . بل انهم جماعة راكدين ولعل السبب في ذلك ان الشمس المحرقة التي تسيطر على هذا السهل الساحلي المنبسط تجعل هؤلاء السكان خاملين . وعلى العكس من ذلك في التلال والمرتفعات حيث الجبال تهذّب اولئك الذين يسكنونها ويمشون عليها وتصقلهم . فالسبب اذن يعود الى الاختلاف الجغرافي الذي اوجد الاختلاف في

المزايا التي يتمتع بها كل فريق من اصحاب المذهبين المتنافسين . وهذا العامل تأثيره فعال اكثر من أن يكون السبب ناشئاً عن الاختلاف المذهبي لأن الطائفتين تختلطان في مسجد واحد . وقد تقتتلان بالفعل دفاعاً عن مذهبيهما . ولكن هذا مجرد احتمال فقط ، لأن حبهم للقتال متوارث ويشربونه مع لبن الامهات . وقد قال عربي مفاخراً بقومه :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

كما قال عربي آخر :

مفرشي صهوة الحصان ولكن قميصي مسرودة من حديد

وقبائل حاشد وبكيل تنحدر من همدان . فهم اذن فروع لهذه السلالة . والى قبيلة همدان تنتمي الاسرة المالكة التي حكمت عدن وحمل رئيسها لقب الداعي وأول داعي فيهم كان ولاؤه لمصر هو علي الصليحي الذي ظهر من بني يام في نجران . وبنو يام هؤلاء انفسهم قسم من همدان . غير ان قبيلة حاشد وبكيل من البطون المتمسكة بالمذهب الزيدي واما « بني يام » فانهم من الطائفة الاسماعيلية . كما تنتمي الى هذه الطائفة ايضا القبيلتان القويتان وهما « بني المقاتيل وبني اليعابير » وهؤلاء يعيشون في حصون حراز التي تبعد عن نجران بمسافة يقطعها المسافرون في عشرين يوماً (مشياً على الاقدام) وتقع على الطريق بين الحديدة وصنعاء . وتبعد حراز عن مناخة بحوالى نصف ساعة على ظهر الراحلة . وفي قلب منطقة حراز يرتفع جبل شبام عاليا بقمته الشاهقة . والمكارمة عائلة او جماعة متسلطة ومسيطرة في نجران . وهي تسوس وتتحكم في قبيلة بني يام . واما بنو المقاتيل وبنو اليعابير فانهم يخضعون لمشايخهم الذين يحكمونهم . وهؤلاء المشايخ على اختلاف مع أئمة صنعاء وفي حالة خصام معهم . والحقيقة ان وجود الاتراك كان سبباً في قيام هذه العداوة وفي استمرارها . غير ان الامام الحالي يصالحهم ويسترضيهم كما يسترضي اليمنيين قاطبة . وفي الخطوات التالية سوف يجتذبهم نحوه دفعة واحدة . .

اني لا أنوي شرح تفاصيل حرب العصابات المتعاقبة التي كانت تدور رحاها بين الاتراك والامام . ولقد انتشر قواد الأخير ونوابه في طول البلاد وعرضها . كما وصلوا ايضا الى قعطبة التي تبعد عن مركز قيادة جيشنا في الضالع بحوالى اثني عشر ميلاً فقط . وقد أبدت عدن مخاوفها من ذلك . ونشأ هناك رعب ليس له ما يبرره . وظهر الفزع الذي لم يكن له سبب معقول ولم يستطع العرب ان يفهموا مغزى عدم اهتمامنا الواضح . وتساءلوا عن ذلك فيما بينهم قائلين : لماذا قلة الاكتراث ؟ . . . وبينما اصبح القتال على مقربة منا استمرينا بصلابة نمارس لعبة التنس والبيبر شيسيز على ظهور الجياد ، وحتى لعبة البولو كنّا نقوم بها على ظهور الابل . ولا شك اننا كنا في نظرهم مجانين ، وان الانصراف عن الاهتمام بالاخطار التي اصبحت محدقة ، والتجاهل عنها قد حيَّر العقل الشرقي ، مع ان الخبر عن جميع ما يدور حولنا كان قد طار الى بريطانيا . . . وان كان كل شيء يحدث يثير فضول الوطنيين .

ان عدم فهم الأشياء فهماً تاماً يكون سبباً في عدم فهم الركود والبرود في السلوك . . . ولا يكشف شيئاً عمّا يتم فعله في الخفاء أو من وراء الستار . ولعل طبائعنا نحن الانجليز ومزايانا التي نمتاز بها عن الغير هي بعض اسباب تفوقنا على الآخرين .

في عام ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ كان سلطان لحج قلقاً أيضاً وكثير الانزعاج من نجاح عساكر الامام وتقدم جيوشه . وهذه الأسرة العبدلية التي تحكم لحج ترجع في اصلها الى قبيلة ارحب الزيدية . وفي رسالة بعث بها الامام الى السير احمد سلطان لحج في عام ١٩٠٦ اشاد الامام في سياق كلامه بهذه الاسرة مستشهداً بالاصل الذي ينتمي اليه المرسل اليه . وهو انه من نسل همدان الذين ينحدرون من بكيل الجد الاعلى . وفي لحج حصل اسلاف السلطان على استقلالهم وانفصلوا عن صنعاء في عام ١٧٢٨ واصبح هذا البيت حليفا للحكومة البريطانية في عدن منذ سنين طويلة . وقد تظاهر السير احمد بالقلق والهموم من رؤية الاتراك وهم ينتصرون مع ان الحدود التي كانت بين هؤلاء وبين البريطانيين قد تم تعيينها وتثبيتها قبل ذلك ولم يبق شيء يخافه من تلك

الجهة . وبما ان هذا السلطان ولد في بيئة تمارس السياسة وتربى عليها فقد قام بعد ذلك بوقت قصير بعقد معاهدة مع البيت المالك الزيدي الصنعاني . وهذه الاتفاقية التي اكتشفتها في وقت مبكر من عام ١٩١٤ تضمنت قدراً كبيراً من الأمور التي يقوم بتنفيذها مع الامام ومن جملتها امتناع الامام عن القيام بأي نشاط في حرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) والكف عن المشاركة فيها . وكان الامام في عام ١٩٠٤ قد بعث بالرسائل الى عدن . كما ملأ الآفاق بالدعايات للتشهير بما يقوم به الاتراك من فظائع . وقد عبر عن الغضب والحقد للحكم التركي والذم للاتراك . ومما قاله : (لقد لبسوا ثياب الطغيان . وتسربلوا بحلل الغطرسة والعصيان) . واتهمهم بالفسق وبارتكاب جرائم أخرى لا يمكن ذكرها ولا يصح . وقد ترك صنعاء ، ثم انسحب الى شهارة في الجبال . وكانت خمر والسودة وعمران من الاماكن الاخرى التي ينزل فيها الامام عادة ويتخذها موطنه . وفي عام ١٩٠٥ استولى الامام على الحامية التركية في صنعاء وأسر من فيها من الجنود بعد حصار طويل . ولكنه بعث كل مساجينه الأسرى في امان دون ان يمسهم سوء الى الشواطىء اليمنية وحافظ على حياتهم مستبقيا لنفسه فقط أسلحتهم وذخائرهم ، وذلك لأنه لم يكن مختلفاً مع الجنود الاتراك ، ولا شأن له فيهم . وكثير من هؤلاء الجنود فرّوا الى معسكرات الامام كما فعل ذلك ايضا القائد التركي أ.د.ك. نفسه .

لا شك ان تلك الحرب المستمرة قد خرّبت البلاد وأفقرتها . ولقد اشتاق الامام الى السلام وتاق الى الأمن وتطلع الى الرخاء . . وكان هدفه الوحيد الرفاهية لليمن واحياء الدين ونشر السعادة بين المواطنين من ابنائه . وكان يرى عدم وجود فرصة للمصالحة الوطنية وتهدئة البلاد طالما ظل الاختلاف والانقسام قائماً بين السنة والزيود من اتباع المذهبين . بينما يوجد وطن واحد يجمع ومكان واحد يستطيع ان ينعم فيه كلا الفريقين بسلام تحت زعامة حاكم عربي قوي .

ان مرور اثنين وثلاثين عاما من الاحتلال التركي لليمن قد حافظ على النزعات بين العرب المتخاصمين والمتنافسين . وجعل الخصام يزداد حدة وينمو

دون ان يتغلب فريق منهم على الآخر . وكان وجود الأتراك وحضورهم من العوامل المفرّقة بين العرب .

لقد قلت فيما سبق بأن الامام يحيى كان في تطلعه الى اخضاع البلاد وتحرير المقاطعات الأخرى يشبه موسوليني في ايطاليا الحديثة . والجميع يهتفون بالحمد ويكيلون المديح للرجل الذي سوف يوحد البلاد ، ويحقق لها الأماني والاحلام يوفر لها الأمن من الاضرار مهما كانت الظروف يقيها العاديات ، ويمكن مواطنيه من حاجاتهم . والعبارة الدارجة في اليمن اليوم هي : « اتفقوا الشوافع على أن لا يتفقوا » اي بمعنى ان الطوائف الشافعية قد قبلت ان تختلف فيما بينها . وهؤلاء يتكلمون بعض العبارات ، ويناقشون بلغتهم الدارجة الحقوق المتعلقة بهم ، وما يرتبط بمذهبهم ومقاطعتهم .

نعم . . . انهم كذلك فيما يخص مذهبهم وحده . ولكن الزيود لا ينوون تحطيم المذهب السني (الشافعي) ولا يعملون على ذلك . ولهذا فان الامام الزيدي اعقل من الذين يحملون رتبة لواء من موظفينا المسؤولين ، واكثر حكمة من احد جنرالاتنا عندما اعتقد خلال الحرب بأن الحل الوحيد بالنسبة لمشكلة العرب هو تحطيم عقيدتهم !! . . .

ان العقيدة او المذهب عند العربي شيء والوطن شيء آخر . ومن رأي السنيّ (الشافعي) انه لا يستطيع حكم مقاطعته ، وهو يمتدح المنازعات التي تحدث في صفوف جماعته ويثني عليها . ولقد انتظرت اليمن طويلا لمجيء الرجل القوي . وها هوذا قد وصل . ولسوف يعيد الامن والنظام بعد الفوضى والاضطراب ، اذا ما وضعنا أيدينا بعيداً ولم نفسد عليه عمله اذ لسنا أهلاً لحسم الخلافات وللفصل في المنازعات بين المذاهب المتصارعة . ولا نستطيع ان نحسم في رسم الحدود بين اصحاب الشأن المتنازعين . وانما الشخص القدير على ان يفعل ذلك هو الرجل العربي القوي ابن البلاد .

ولقد كان في استطاعة الاتراك وهم الذين عاشوا في البلاد وعاشروا اهلها ان يحافظوا على النظام ويتغلبوا على المشاكل . ولكنهم بطبيعة الحال كانوا فاقدين للمعرفة الكاملة بطبائع العرب ، ونفسياتهم . وكانت تنقصهم أساليب

التودد والعطف التي تؤثر عادة في العربي ، لأن لديه مفاهيم وتقاليد اخرى تشغل باله وتملأ نفسه وعقله . وليس زنديقاً متعصباً يعمل ضد الدين لمصلحة قومه كما هو حال التركي الذي يعتقد ان مجرد كونه مسلماً يستطيع ان يجعل من العربي تركياً مخلصا . وانا اظن بأن هذه كانت غلطتنا في الهند .

والاسكندر الأكبر عندما أخبر أرسطو طاليس بأنه سوف يُخْضع الشرق ، ويحوِّل سكانه الى مقدونيين مخلصين وطيبين أنذره أستاذه من الانتكاس وحذره من الردة الى الاساليب الشرقية .

انه من غير الممكن لأي شعب ولأي كائن مهما كان ان يحول العربي الى شيء آخر الا اذا كان من الممكن محو الاصل الذي ينتمي اليه وانقراضه واندثاره . وهذا ايضا هو عين ما نشاهده مرة أخرى في الهند .

لقد قيل (ان الرجل الانجليزي المتقمص لشخصية الايطالي يكون شيطاناً متجسداً في شكل انسان) . وبالمثل يكون العكس صحيحاً . والقرآن يردد ذلك ﴿ قل كلٌ يعمل على شاكلته ﴾ . وقد قلت فيما سبق بأن الأتراك افضل من اي اناس غيرهم كانوا يعرفون كيف يحكمون العرب . ولكن الحسن يكون عدواً للأحسن وعندئذٍ يُصْبحُ المفضول عدواً للأفضل .

ومن يكون سيد نفسه لن يكون خادماً لغيره .

انه الاستقلال . . ذلك الشيء الذي يتوق اليه العربي .

* * *

لقد كتب الامام الى ملكنا متودداً لكي يحصل على مساعدته والتعاون معه . ولم يُرسل له رد ، لأننا كنا نحرص بدقة على أن لا نظهر متعصبين معه ، كما كنا مهتمين بارتياب وشك في أن لا نبدو متحيزين ، لأن الأتراك كانوا يعتقدون بأننا علمنا الامام على التمرد وشجعناه على العصيان . وكانت توجد شائعات يتم الترويج لها . وتذاع في البلاد وبين الناس بأن سلطاننا الذي هو سلطان لحج يرسل النقود الى الزيود . وتلك مجرد اتهامات . وسلطان لحج فضلا عن ذلك شخص عربي . والدم اكثر كثافة من الماء واسمك منه . والمثل

العربي يكون اكثر تعبيراً : (ان يد المرء هي يده حتى ولو كانت مجذومة) .

* * *

ان الحقيقة التي يجب الاعتراف بها ان النبي محمداً كان يهدف الى تكوين عقيدة واحدة وانشاء دين واحد ومجتمع سياسي موحد ليحل محل العادات والمعتقدات المختلفة التي كانت سائدة بين القبائل والبطون العربية المتعددة . وقد قال القرآن : ﴿ ان اكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وقال أيضاً ﴿ انما المؤمنون اخوة ﴾ وهذا التنظيم الاسلامي سوف ينطبق على التركي المسلم كواحد ممن يشملهم الكلام ، وكعضو في الجماعة التي تدين بالاسلام . ولكن الطقوس القبلية لا تزال محفوظة ، والعادات موروثة . وقال القرآن معبراً بصدق عن الشقاق والاختلاف في الرأي عند العرب : ﴿ بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون ﴾ السورة ٤٣ آية ٢٢ . وفي اليمن يكون الوزن الأكبر للطقوس القبلية وللعادات العشائرية هناك . وهذا دليل صادق او محك صحيح لما حكاه القرآن .

ان فشلنا مع امام اليمن بعدم الرد على رسالته قد ترك استياء وريبة عنده رغم قيامنا بمساعدته فعلاً ولكن بطريقة اخرى . ولقد كانت مساعدتنا له من تلك الجهة الاخرى عظيمة وان كان الامر يبدو غير معقول ولا منطقي . فلقد صدرت الأوامر من انجلترا الى شركة عدنية لتقوم بصك النقود للامام . واصدار العملة باسمه رغم أن السلطان العثماني وحده هو الذي يملك حق اصدار العملة ، لأن السيادة على اليمن كانت للاتراك الذين كانوا مغتاظين للحادث . وقد قامت آلة السك بإصدار العملة كما ارسلت « للامام » آلة جديدة ولكن قائمة الشحن لم تأت على ذكرها وتضمنت اسماً آخر .

وبعد ان تركت قافلة الابل عدن وذهبت بعيداً متوغلة في الأراضي اليمنية عرفنا في تلك اللحظة فقط طبيعة السلع التي تحملها ، ونوعها ، والجهة التي تقصدها . ولقد ارسلت الرسائل لاسترجاعها واستعادتها ولكن الوقت كان متأخراً جداً . كما بعث الأتراك الجنود لقطع الطريق على القافلة ولكنها بحمد

الله وصلت سالمة متخذة لنفسها طريقاً ملفوفة منحنية . وكان يتولى حراستها خمسمائة من رجال القبائل . واختارت القافلة لنفسها الطريق التي تمر بالضالع ومريس ودمت ورزحان والتبن والشيم والعود .

اما انا فلقد قمت بانذار الشركة التي كانت مخطئة وسيئة . واما الامام فقد عبر عن امتنانه وتقديره لحكومة عدن . واما الاتراك فقد ايد الحادث صدق معتقداتهم عن الغدر البريطاني ! وقام سلطان لحج بتقديم المساعدات لمرور القافلة . وقد شكوت من ذلك واعلنت بأن عمله هذا سوف يضر بعلاقاتنا مع الأتراك . فاظهر استغرابه وابدى الدهشة والالم من صداقتنا للأتراك ولكنه شكرني على لطفي بوضع هذه الحقيقة امامه .

لقد كان الامام يشعر بشدة ما يعانيه في وحدته ، يشكو من عزلته باليمن . كما كتب شارحاً حالته هذه بقوله : « مثل انقملة البيضاء في جلد البعير الاسود » ! .

ومن المفيد والضروري معرفة الاصل الذي ينتمي اليه الامام والشيعة الزيود باليمن . وكذلك معرفة الآراء والمذاهب عند بقية طوائف الشيعة الآخرين .

عندما اعتلى الخليفة العباسي المأمون كرسي الخلافة ظهر الدعاة الطالبيون كما يقول ابن خلدون ، واعلنوا الرئاسة بالعراق لمحمد بن ابراهيم طباطبا . ومحمد هذا هو الأبن الاكبر لابراهيم فهو محمد بن ابراهيم طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن ابي طالب رابع الخلفاء بعد الرسول ، (والخليفة المأمون هو احد الخلفاء الذين بلغت بهم الخلافة الاسلامية اوج مجدها ، وكونت اعظم فترة تاريخية مشرقة رائعة من مراحل التاريخ الاسلامي والعربي . وتسمى هذه الفترة بحق عصر اغسطوس الاسلامي - اي عصر العلم - كما يقول الكاتب والباحث سيد امير علي) . وعندما قتل محمد بن ابراهيم الطباطبائي ظهر جعفر الصادق بن محمد . وقد نودي به في الحجاز . وفي اليمن لم تكن الثورة ضد الخليفة العباسي ناجحة حيث ارسل الخليفة المأمون الجيوش الى هنالك فأخضعوا هذا الاقليم ، ونفوا

اعداداً كبيرة من اعيان اليمن ورجالها البارزين وكان من بينهم احد بني زياد الذي صالح الخليفة واسترضاه ثم اعيد الى اليمن كحاكم من قبل الخليفة . فقام باخضاع الأراضي المنخفضة ، والسهول المنحدرة من اليمن وشيَّد مدينة زبيد كعاصمة له . وصار عند ذلك سيد اليمن بأجمعه . واصبحت سلطته معترفاً بها حتى في صنعاء حيث كانت ما تزال باقية تحت اشراف بني يعفر من ابناء السلالة الحميرية . وبعد وفاة ابن زياد اعقبه اثنان من خلفائه على التوالي ، ثم جاء من بعدهما حكم « ابو الجيش » الذي استمر فترة طويلة . وعندما سمع بمقتل الخليفة المتوكل ، وتنازل المستعين عن العرش واخضاع الخلافة الاسلامية للموالي من الاتراك امتنع عن دفع الخراج الى بغداد ، واعلن استقلاله وزعم لنفسه الحق في الانفراد بالسلطة والسيطرة . وفي عهده قام الشريف الحسني الهادي الى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسيِّ إبن ابراهيم طباطبا . ولقد ظهر في اليمن ونادى بنشر المذهب الزيدي واعلان سلطانه . وقد رجع يحيى هذا من السند حيث كان جدّه القاسم قد فرّ الى هنالك خوفاً من القبض عليه بعد ان امر المنصور بذلك عقيب مقتل اخيه محمد بن ابراهيم كما ذكرت قبلاً . وهذه القصة حكاها ابن خلدون ولكنه لا يوجد ما يثبت صحتها . وعند رجوع يحيى بن الحسين الى اليمن ذهب الى صعدة . وقد اطلق عليه اتباعه لقب الإمام . وهذه العائلة المالكة « الرسيَّة » هي التي ارست قواعد هذا البيت العربي الهاشمي باليمن وتدعى « بالرسية » نسبة الى جدّ الهادي يحيى وهو القاسم الرسِّي . ولا زالت هذه الأسرة الزيدية الحاكمة مستمرة الى الوقت الحاضر ولو أن العاصمة صعدة قد استبدلت بالعاصمة صنعاء كما سبق ذكر ذلك آنفاً .

ان انصار الخليفة علي واتباعه ينقسمون الى عدة طوائف شيعية . وهذه الطوائف تشمل الزيود ، والإثني عشرية ، والاسماعيلية . والزيود يختلفون مع الطائفتين الأخريين على مسألة الامامة والحقوق المتعلقة بها . والجميع يجمعون على الاعتراف بعلي وابنيه الحسن والحسين . ولعلهم يجمعون ايضا على الاعتراف باكبر ابناء الحسين بن علي وهو زين العابدين علي بن الحسين . ومن

بعده يختلفون . فالبعض يعترف بابنه الاصغر محمد الباقر والبعض الآخر كالزيود يمنحون الخلافة ويسندون الحق في هذا الارث الى اخ الباقر وهو الامام زيد مؤسس مذهبهم ثم لابنه يحيى الذي خلفه بعد وفاته .

والاسماعيلية فئة منشقة على الإثني عشرية ومختلفة معها في الرأي حول وفاة جعفر الصادق بن محمد الباقر وهو الامام السادس . اما اسماعيل بن جعفر فقد مات قبل والده . ولكن الاسماعيليين يعتقدون بأنه الامام السابع ، وبأن الميراث في الخلافة يأتي عن طريقه ، وينتقل هذا الحق منه الى ابنه محمد المكتوم . ومن سلالة هذا الأخير ينحدر المهدي عبيد الله مؤسس الخلافة الفاطمية ، الذي جدد هذا الحق وطالب به .

اما في ما يتعلق بمسألة الامامة والامام بالنسبة الى الزيود فان هؤلاء لا يوافقون كذلك في انها تنتقل من يحيى الى ابنائه بالوراثة . وبينما يعتقد البعض منهم بأن اخاه عيسى قد خلفه في الامامة بعد وفاته يصرّ البعض الآخر بأن يحيى كان قد اوصى قبيل مماته بانتقال الامامة منه الى محمد النفس الزكية . وهكذا على هذا النمط نقل الزيود الامامة من عائلة الحسين بن علي الى عائلة اخيه الحسن بن علي . ويزعم البعض بأن الامامة بعد محمد هذا تكون لأخيه الاصغر ابراهيم الذي خلفه بعد مماته . بينما يرى آخرون ان الخليفة والوريث هو اخوه الاكبر ادريس مؤسس الاسرة المالكة الادريسية في مدينة فاس بشمال افريقيا . ولا يزال يوجد حتى الآن اولئك الذين ينتمون في اصلهم الى السلالة الحسينية كما لا يزال هناك من يمنحون هذا الحق ومن ثمة الافضلية فيه والاسبقية لمحمد آخر من هذا الفرع وهو محمد بن القاسم بن علي بن عمر الأشرف الاخ الاكبر لزيد بن علي مؤسس المذهب الزيدي ومنشئه . ومن الاهمية بمكان الاتيان على ذكر هذه التفاصيل لانها قد توضح العقيدة التي تعتنقها جماعة الادريسي المعاصر وهو السيد صاحب صبيا في عسير حيث يعتقد بأنه صاحب الحق الطبيعي في منازعة خصمه الكبير امام صنعاء . . . وفي المطالبة بالاستيلاء على ممتلكات هذا الأخير . . . ومهما كان فإن اجداد الادريسي

قد هاجروا في وقت مبكر الى افريقيا ، وظلت اخبارهم مقطوعة عن اليمن . ومن الممكن بسهولة فهم المعارضة الشديدة من جانب الملك حسين ضد الادريسي حديث النعمة الذي انتصب في اليمن فجأة . وكل من [illegible] والادريسي [illegible] الى فرع الحسن بن علي

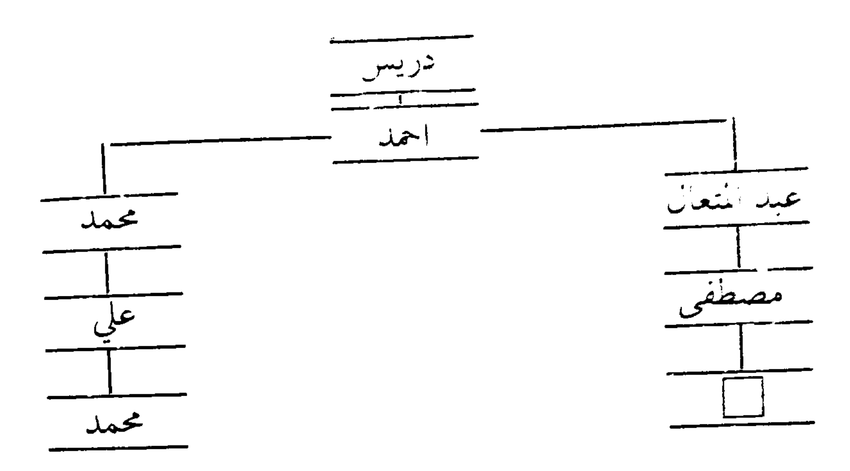
وفي [illegible] وصف مختصر لسلسلة نسب الادريسي [illegible] العدنيين :

لقد هرب ادريس الى المغرب خوفاً من غضب الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور وهناك انتشرت ذريته وقامت مملكته . وهو أخ لمحمد الذي كان يطلق عليه اسم « المهدي او النفس الزكية » وادريس هذا نفسه هو ايضا ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط بن علي بن ابي طالب . وعندما نودي بمحمد النفس الزكية خليفة قوبلت دعوته بالاعتراف والتسليم من اخيه هاشم وبالعطف والاستحسان من المنصور العباسي الذي وافق على انتخابه . ولقد حارب هاشم بالمدينة المنورة ضد النفس الزكية الذي حصل على تأييد سكانها ولكنه قتل في المعركة .

والسيد محمد بن علي امير صبيا يقتفي اثر اسلافه وسلالته التي انحدر منها وهؤلاء هم ادريس الأول وبقية اشراف المغرب وبالاخص اولئك الذين في فاس ومكناس ومراكش .

ومحمد الادريسي هذا هو محمد بن علي بن محمد بن احمد بن ادريس . وقد كانت تسميته بالادريسي نسبة الى ادريس الأخير . اما السيد مصطفى صاحب الاقصر والموجود الآن فيها فانه يكون ابن عبد المتعال بن احمد بن ادريس . وعبد المتعال هو اخو محمد جد محمد بن علي الادريسي . ولذلك فان مصطفى يكون ابن عم علي وهو ايضا وفي نفس الوقت عم السيد محمد بن علي الحاكم الادريسي

(المتوكل) طبقاً للشجرة الملحقة فيما يلي :



وامام صنعاء يكون مقبولاً عادة باعتباره منتمياً الى فرع السلالة الحسنية .ولكنه يفاخر بنفسه على اعتبار ان اصله يرجع الى الاصل الذي ينحدر منه زيد الحسيني لأن هذا هو نسبه الحقيقي . وترتبط بين الملك حسين صاحب الحجاز والبيت المالك الصنعاني علاقات حسنة وصداقة طيبة ، والاصل الذي ينتمون اليه جميعاً واضح . ومثل هذا يكون سبباً في اختفاء الغيرة ولذلك فان احد اسباب الحسد مفقود .

ويتم انتخاب الأئمة الزيود في الحقيقة وفي الواقع من كلا العائلتين الحسنية والحسينية منذ ايام القاسم الرسي . وعلى الرغم من ان زيدا الحسيني هو الجد الاعلى المباشر للبيت المالك الزيدي فان القاسم الرسي ومن بعده الهادي يحيى - وكلاهما من السلالة الحسنية - قد قاما بارساء دعائم ذلك البيت العريق وترسيخ قواعده الاساسية وتثبيتها . ومن الصعوبة الكبيرة الاشارة الى ان ذرية الحسن يطلق عليهم اسم (شريف) بينما كلمة (سيد) تطلق على ابناء الحسين لانهم جميعاً متساوون في الكفاءة والحسب وينحدرون من اصل شريف طاهر (احفاد الرسول) . واما جماعة الاشراف من ذرية علي ومن نسل زوجاته غير فاطمة فانه يطلق عليهم اسم « العلويين » ، ويكثرون بغزارة في حضرموت حيث لهم هناك نفوذ كبير ، كما ان تعصبهم وتحمسهم الديني كبير ايضاً .

واما بخصوص المذاهب المتعددة للاماميين - الإثني عشرية ، (وحملوا هذا الاسم لانهم يعترفون بوجود إثني عشر اماماً فقط وبأن الامام الاخير هو المنتظر ولا زال منتظراً) ، والاسماعيلية ، فان كلا من الطائفتين تتباهى في الحوار والمناظرة بأن علياً حاز مكانته الفريدة ومنصبه الرفيع بفضائله الشخصية وطهارته الذاتية ، وان ابناءه ساروا على ذلك النهج المنتظم المستقيم واقتفوا اثره القويم ، وورثوا صفاته الحميدة ، وانه لا يوجد حق بشري يقف الى جانب حقوقهم ، ولا يتطاول شخص على مكانتهم . ومن اجل ذلك تنكر هاتان الطائفتان خلافة ابي بكر وعمر . ومن جهة اخرى يؤكد الزيود بأن عليا كان تعيينه خليفة ليس بسبب فضائله الذاتية او الشخصية ولكن بسبب الافضلية لما فيه من صفات يمتاز بها ولمؤهلاته الخاصة . كما يعتقد الزيود بان الحق للامام الذي يتم انتخابه مقصور على ذرية فاطمة . والامامة الزيدية تشترط شروطا قاسية جدا في الشخص الذي يتم انتخابه اماما . واي عيب او تشويه في الوجه سوف يجعل الامر جريمة يعاقب بها المرشح .ولقد كان احد القادة الاشراف المؤهلين لمنصب الامام يحمل كنية التصقت بعائلته وهي « أبو نيب » . والسبب في هذه الصفة او الكنية هو ان احد اسنان الرجل كان ناتئاً . فشوَّه هذا البروز في الناب او السن وجهه ، وافسد عليه احلامه وآماله في الترشيح بالرغم من تفوقه في بقية الشروط الاخرى التي تخوله الحق في الامامة .

والزيود ليسوا مثل الشوافع او اصحاب مدرسة السنة ، انهم لا يضعون مخزناً بالاربعة الاوائل ويكرمونهم وهم علي والحسن والحسين ثم زين العابدين علي بن الحسين .

والزيود ليسوا مثل الشوافع او اصحاب مدرسة السنة ، انهم لا يضعون مخزنا في شكل قبة فوق قبر الولي المدفون ، ولا يُشَيِّدون ابراجا عالية على اضرحة الموتى . ولكنهم مع ذلك يقدمون الاحترام لضريح مؤسس مذهبهم الامام الهادي يحيى المدفون في صعدة والذي كان موته بواسطة السم .

والامام الزيدي يحمل اسم « امير المؤمنين » وقد منع الاتراك استعمال هذه الصفة او الاسم (امير المؤمنين) وإذعن الامام لذلك بعض الوقت ، وقبِلَ احياناً التخلي عن هذا الشعار . وتوجد هذه الاسطورة (امير المؤمنين) محفورة على ختمه

الذي يحمل اللون الاحمر ، كما تُرش خطاباته ورسائله بتربة حمراء (لون امغر) ليبرهن بذلك على انه قد نجح في ارتقاء عرش الامراء الحميريين القدماء الذين حكموا البلاد [illegible] [illegible] يحمل اللون الاحمر واسمهم يشير الى هذا اللون

لقد شرحت في الفصل الرابع برنامج الجمعية العربية في باريس . اما الامام يحيى نفسه فقد اعلن منشوره وكتب يقول ان الجهل والعمى قد خيَّم على شبه الجزيرة العربية . وان سكانها قد أُهينوا . وانهم يُعاملون باحتقار واذلال ، وان الله قد ألهمه الطريق وكلفه العمل على تحريرهم ، وقد اقتبس الامام آيات قرآنية لكي يثبت بالحجة والدليل صحة دعوته . وبأن الله سوف يحقق لليمنيين اهدافهم ، ويعيد اليهم حقوقهم المسلوبة . ثم قال انها ستغرب شمس اولئك الذين ليسوا عربا وانما هم من اصل عجمي مكروه بغيض . وهم الذين نبذوا كتاب الله وسنة رسوله ، وقاموا بوضع قوانين للدين ما انزل الله بها من سلطان ، ليس لها سند الهي ، ويعوزها الدليل الشرعي . فلقد اباحوا ارتكاب الاشياء المحرمة مثل شرب الخمر والزنى وسائر الفواحش الاخرى . وعلى الرغم من كل هذه الامور التي اقترفوها قام العرب بتقديم المساعدة لعدو يعبث بمصالحهم . ولقد قاسوا من جراء ذلك ما يعد انتقاماً إلهياً لعملهم هذا وعقاباً عادلاً . ولكنه استدرك قائلاً : ان الشيء الجميل والمفرح هو ان العرب قد استولوا على الاسلحة التركية واغتصبوها والا لو لم يفعلوا كذلك لكان اهمالهم وعدم مبالاتهم قد استعبد اولاد اولادهم . وقد فتح الله عيونهم في الوقت المناسب . ثم استشهد الامام بالكوارث التركية والنكبات التي حلَّت بالاتراك في حملتهم ضد ابن سعود صاحب نجد وكذلك في سائر الميادين والمعارك الاخرى التي خاضوا غمارها او وجدوا انفسهم مضطرين بدرجة كبيرة للقيام بها في مواجهة اعدائهم العديدين .

وقد عنَّف اليمنيين الذين قال انه يجب عليهم تتبع الاتراك ومطاردتهم الى خارج البلاد . كما لفت انظارهم الى الغفلة التي اصابت من قبل قوم عاد المتعجرفين . غير ان الله مع العرب وهو امامهم وخلفهم اذا كانت قلوبهم مؤمنة ، وعيونهم مفتوحة ترى وتبصر .

ولا ريب ان الأسلوب العربي في خطابات الامام يحيى رفيع وجذاب . وهو اكثر فصاحة من اي ملك او سيِّد عربي آخر . فهو بحق سيِّد اللغة ويجيد اساليب

السجع بمهارة على النمط المقفّى في القرآن . ولكن اللغـة في المناطق اليمنيـة المنخفضة والسفلى او الواطئة فاسدة مثل اللهجة المصرية والسورية . وغالبـاً ما كنت اذكـر النبي داود اذ قال في سفر المزامير بـالسورة ٨١ = اي المـزمور ٨١ = فقـرة (٥) « على أرض مصر سمعت لسانا لم اعرفه » . والمدن البحرية في شبـه الجزيـرة العربيـة لا بد من ان تتكلم بلغة مختلفة بحكم الضرورة والاختلاط . وعدن نفسها غير مستثناة من ذلـك . واللهجة في الحديدة تتخللها كلمات تركية تكسبها جمـالاً . وكلمات اخـرى من اصل افـريقي[1] . وكلما صعد المرء الى الجبال المـرتفعة في اليمن يجـد ان اللغـة تصبـح انقى صفاء واعمق جذوراً . ولهجات الحجاز مختلطة جداً . ولعل المرء يجد اللغة العربية في نجـد في احسن صورهـا فعلاً . وفي بعض البلدان العـربية مثـل اليمن التي لا تصدر فيها الصحف ، « ولا توجد فيها مـطابع او مـطبوعـات ، ومن النادر جـداً ان تدخـل اليها المطبوعات والصحف المصرية » يكون الناس مرتبطين بالقرآن وحـده وبالشعـر العربي ومن ثمة باسلوبهم العربي الاصيل ، ولغتهم الفصحاء النقية .

ان عدم مقدرة العـرب على الاتحـاد ، واستعدادهم للفـرقة ، هـو السبب الذي جعـل نداء الامـام ودعوتـه عبارة عن صـرخة في قفـر ، وهذا التفـرُّق هو الـذي مهد الطريق للاحتلال وللتغلغل التركي في اليمن من جديد في عام ١٨٧٢ . ولقـد علمت بأن القبيلة « آ » كانت في حالة حرب مع القبيلة « ب » وبـأن كلاً منهما بعثت الرُسُـل لتجنيـد القبيلة « ج » لنصرتهـا والوقـوف الى جانبهـا . فـاذا بـالقبيلة « ج » تنقسم الى فريقين وينضم كل فريق الى كل من القبيلتين « آ » و « ب » وبمجرد ان حدث اطـلاق بعض الـطاقات النـارية فقط رحلت القبيلة « ج » هـاربـة عـادت من جـديـد الى مواطنها الاصلية لرعي الماشية . ومع ذلك فان الامام قد حصل على عدة انتصارات . واحرز الكثير من النجاح . وفي احدى المـرات تحصنت قواتـه واتخذت لنفسهـا مراكـز على سهل مرتفع تابع لقبيلة بني زهير الى الشرق من صنعاء . وهنالك مكثوا في انتظار

---

[1] ـ من الكلمات الشاذة في اللهجة الدارجة بالحديدة واللهجات القريبة منها استعمال المؤنث في مخاطبة المذكر عندما يوجه الحديث الى المذكر فيقال مثلا : (انتِ) بدلا من (انتم) وهذا يذكر بالكلمة الايطالية (Ella) . (المؤلف) .

الفرصة المناسبة واللحظة الحاسمة . وبينما كان الاتراك يتقدمون نحو الامام كانت قوات الامام تنسحب الى الخلف . وهكذا استمروا في هذه الحركات الحربية البطيئة والحذرة (تكتيك) يجرون فيضي باشا ويجتذبونه بعيدا وبعيدا عن قاعدته وعن مركز قيادته . وعند ذلك ارسل الامام باعتباره القائد العام خمسة عشر الف مقاتل لقطع خط الرجعة عليهم . وبعد ان تم بالفعل قطع كل خطوط المواصلات وجميع الطرق مع صنعاء هجم الامام مع جيشه الرئيسي الذي كان يقف في المقدمة ويتألف من خمسين الفا على قوات العدو البالغ عددها خمسة واربعين الفا ولكنها كانت في حالة سيئة من الفوضى والاضطراب وانتشار المرض ونقص الاحتياطي والمؤن . بينما كانت قوتهم المعنوية والنفسية في حالة انهيار كلي . وقد كان النصر للعرب في هذه المعركة تاما . وعندما حاول فيضي باشا الانسحاب الى صنعاء واجهته القوات المؤلفة من خمسة عشر الفا والتي كان الامام قد ارسلها لقطع الطريق عليه ، ومنع انسحابه . ففتح الباشا طريقا وسلكه في اتجاه عمران ووصل بعد ان تجشم نكبات خطيرة . ونقص جيشه بما يقارب الثلثين من العدد الاصلي . . . وقد طلب الامدادات من بلاده تركيا لإسعافه في عزلته ونجدته في وحدته . . . وبعد مجهود كبير تمكن الباشا من العودة الى صنعاء حيث كانت حاميته فيها محاصرة .

ومما كان يساعد الامام بدرجة كبيرة وجود سيل مستمر من الجنود الاتراك الفارين من الخدمة في اتجاه الشاطىء متلمسين طريق العودة . وقد وصل بعض هؤلاء الى الضالع ايضا وكانوا في حالة من اليأس والقنوط . وكنت اقوم بارسالهم الى عدن بشكل مجموعات . وكانت السيدات من بين اولئك المعذبين الذين قاسوا الكثير من الالم وارتحلوا في اتجاه المناطق المنخفضة عن طريق الضالع . ولا زلت اتذكر المساعدة الحقيقية التي قُدمت لبعض السيدات التركيات اللاتي وجدتهن على جانب الطريق يبكين على الفعل الكبير الذي اقدم عليه خادم سافل تابع لأمير الضالع . وقد اطلقت سراح بغالهن وماشيتهن ، وارجعت ممتلكاتهن التي كانت قد صودرت منهن ، وارسلتهن تحت الحراسة الى الشاطىء . وبعد ذلك بوقت قصير تسلمت رسالة مجاملة باللغة الافرنسية من الحاكم العام في اليمن عزت باشا يشكرني فيها بحرارة على ما قمت به ، ومثنيا على ما فعلته .

وفي وقت آخر اكتشفت وجود امرأة شركسية وهي زوجة جنرال تركي قتل باليمن بينما كانت تأوي الى حصن امير سناع الذي يقع على الحدود بين الضالع وقعطبة . وكان يرافقها خادم واحد . وقد حملت معها سيف زوجها ، وكانت تقاسي من تورّم القدمين (داء الفيل) ، ولا تستطيع المشي . وقد حُملت في نقالة على ظهر بعير الى مصحتي في الضالع حيث مكثت شهرين حتى شفيت . وبعد ذلك تركت المستشفى ليُلقى القبض عليها فقط بواسطة الامير الذي اضافها الى حريمه . وقد خلصتها منه وحررتها ثم ارسلتها عبر الحدود .

ولقد ارسل الاتراك امدادات حربية كبيرة الى صنعاء ، ومن بين جنودهم كان يوجد عدد كبير من الالبانيين . وعندما ذهبت في احد الايام راكباً الى قعطبة لزيارة القائد التركي رأيت هناك مجموعة من الجنود الاتراك متجمهرين ومتزاحمين بمناكبهم وهم يضربون احد الضباط لانه استولى على مرتباتهم وحبس عنهم المعاش . والمرتبات التي كان الاتراك يدفعونها للجنود زهيدة وطفيفة . ويحصل عليها الجنود في آجال ومواعيد متأخرة ، وغير ثابتة . وانا استغرب كيف يقومون بالقتال وعلى أية صورة . وأتعجب كيف وبأية حال قاتلوا .

كان جنودهم على الاغلب من الاورطة والمجندين السوريين . وقد اخذت معي في رحلتي هذه بعض حرسي من الفرسان . وحملنا معنا علب سجاير من نوع المقص وقمنا بتوزيعها على الجنود الاتراك . وقد قال احد هؤلاء متأثراً كثيراً بالهدايا البريئة : « لقد عملتم لنا في عشر دقائق اكثر مما عمله لنا ضباطنا في شهور عديدة » .

ولم تكن الحرب مألوفة او محبوبة في الصفوف التركية وفي اوساطهم الشعبية ، ولا مرغوبة عند الجنود . والكثير منهم كانوا يكرهون القتال ضد اخوانهم في الدين ، ولذلك كانوا يهربون من الخدمة العسكرية ويفرّون من الجندية .

كانت رسائل الامام ترد على سلطان لحج السير احمد الفضلي بكثرة وغزارة ، وكان يقول في ما يكتب انه مولع بالجهاد ، وشغوف به لانه الذي يبتغيه ويقصده ، واستشهد بعبارات لها سجع وقافية بأنه يرى ويعتقد ان الله قد حبب الجهاد الى قلبه ، واصبح لا ينظر الا اليه ، وانه قد صار ضرورياً لديه ، ومهمّاً عنده كالطعام والشراب : (لقد حبَّب الله الينا الجهاد ، حتى صار كثالث للماء والزاد) . والحقيقة

ان العربي لا يعيش على الخبز فقط !، فالجهاد فرض مقدس وله دليل الهي .

وفي تلك الفترة كانت المجاعة منتشرة ، وكانت ارجال الجراد محتشدة تموج ، وقد تقاطر الجائعون عبر الحدود ، وجاء معهم عدد ممن يمارسن البغاء والدعارة نتيجة للفقر والجوع ، ونساء من هذا النوع لا يوجدن في اليمن او من النادر العثور على مثل ذلك او رؤيته . وسريعاً ما ازدحمت القرى التي حول الضالع ، ولقد زارني وفد يمثل المشايخ ، وطلب الاذن بإبعاد النساء الموجودات بالقرب من الضالع ، وزحزحتهن . فأخبرتهم بأن ذلك من خصائصهم ويتعلّق بمصلحتهم . وكانوا قد اعتقدوا بانني كنت امد بهنّ الجنود البريطانيين للمتعة والترفيه !!. . . وعندما فنّدت هذه التهمة ونفيت تلك الوشاية انسحبوا بسرور وابتهاج قائلين انهم قادرون على فعل الشيء الآخر المطلوب .

كان الاعتقاد سائداً بأن الجهاد العام والشامل وشيك الحدوث اذا حقق الامام هدفه . واصبح منفرداً بالنصر واتجهت قواته المنتصرة نحو الجنوب . ولذلك اصبحت محمياتنا متبرمة وقلقة من الشعور بالخوف . وجاء الى القرى القريبة من الضالع والواقعة بجانبها او في الجوار شخص متعصب خامل الذكر ليس له اسم وقام بوعظ الجماهير وارشادهم . وكان يُلقَّب بالانسان « المجنون » او الشخص الذي يملكه الجان . وهذه الكلمة او الصفة « المجنون » لا تحمل معنى القدح او الذم او الهجو لأن الله قد سمح للجني بملازمة الشخص . وكان يأويه ويتستر عليه احد السادة النبلاء الذي رفض الإذعان لأمر الاستدعاء الصادر اليه من الامير بحضوره الى الضالع . وقد رفض ذلك طالما بقي النصارى موجودين هناك .

كان اسلاف الامير شايف نوابا اماميين يمارسون السلطة كولاة من قبل الامام . ولكن الشايف اليوم ونتيجة للخوف من انتقام الامام بعد ان عاد من جديد يتبوأ السلطة يذكر الاتراك بالخير ويمتدحهم لأن مجيئهم الى بلاده وتهديدهم للضالع كان سبباً في استدعاء البريطانيين وفي حضورهم اليها في عام ١٩٠٢ . ويمكن القول بأن العائلة الامامية (او الحاكمة في الضالع باسم الامام) كانت قلبياً مؤيدة للأتراك وعميلة لهم . او لم يكن كل من امير الضالع « او البيت الامامي هناك » والاتراك مسلمين معاً ؟ .

اما « المجنون » فقد سُمح له بالبقاء في جبل حرير بجوارنا وهناك عامَله نصر ابن الامير بإكرام ولو ان سكان المنطقة عارضوا لجاجه واعترضوا على إلحاحه وإلحافه . ومهما كان فإن الاغلبية من العرب (هناك) لم يكونوا ضد بريطانيا ولا يقاومونها . وان وجودنا في الضالع قد روَّج لنا بين الجماهير العربية ثمة والمدة التي مكثناها بينهم قد قرّبتنا من فهمهم ، وجعلتهم يألفوننا ويألفون طرقنا ، ويتعودون على اساليبنا ونظامنا . وقد اخبرني رئيس قبيلة ناوة Nawi الواقعة ضمن الحدود التركية بانه يكره الامام ولكنه يحب الاتراك لما لهم من بعض الصفات والكفاءات والمناقب ، واما نحن الانجليز فاننا البقرة الحلوب التي يجب المحافظة عليها وصيانتها ، واما عن الأتراك فانهم اكلة طعام جشعون ويتطلعون بشراهة ، بينما الامام « براح » او مثل الزوبعة الهوجاء التي تجرف كل شيء امامها .

والاشراف من ذوي النفوذ والجاه في منطقة الجوف لديهم رأي رفيع وفكرة طيبة عن السلطان الخليفة ، ولكنهم يصمون بالعار موظفيه على اعتبار انهم فاسدون ومرتشون . كما يقولون عن الاتراك انهم يشربون الخمر ، وعندهم امل كبير في قدرة الامام على طردهم من البلاد .

ان الناس يتكلمون غالباً كما لو كان الاسلام محصوراً في الجملة الآتية « انت لا تشرب الخمر » .

ان العقيدة تكون بالاحرى واحدة في كل التعاليم الموجبة والداعية للايمان . اما النواهي والجمل السالبة في الدين فهي متكاثرة ، وهذه تحط من قدر المسلم المنحرف وتهبط بفضائله ، ولكنها لا تجرده من الاسلام حين يخالفها . وقد اصر الاشراف على ان هدف الامام لم يكن طرد الاتراك ومحاربة حكمهم الدنيوي (اي السلطة الزمنية) طالما استقاموا على « السنة النبوية » وتمسكوا بها (اي السلطة الدينية) . ولم يكن الحصول على الاستقلال وحده هو المطلب الذي كان الامام يتوق اليه كثيراً ، بل كان الحافز الاكبر له هو حقه الشرعي في صيانة الفضائل الروحية ، واعطاء الحقوق لأصحابها .

ان الامام رجل قوي لا يهاب من احد ، ولا تأخذه في الله لومة لائم . وقد

يكون غير قادر على مباراة القوى الاجنبية ومنافستها ولكن لديه « اعتماداً كلياً على الله ، وتمسكاً بحبله » . وذلك هو الشيء الذي تكون حاجة المرء اليه كبيرة وكثيرة .وكلمة « ياحبل الله »شيء ضروري . وهذا يذكرني بما حدث ذات يوم في عدن. فقد دعا ابني الصغير نجل سلطان لحج الى حفل شاي . وسُئِل عبد الحميد الطفل من قبل مضيفه الأكبر منه سناً عن الأصل الذي ترجع اليه العبارة العربية التي تحتويها هذه الصرخة « الحمد لله » !. ومن اين استمدها. فأجابه الأمير الصغير متأوهاً : « آه !! . . لو عرفت ذلك لعرفت كل شيء » !.

امنح العربي ربه ، واذكره له اثناء السلب ، وعند شرب العديد من فناجين القهوة ، وحينما يأكل ورق القات فهو يكون عند ذلك في منتهى السعادة !

والعرب يختارون اسماء مناسبة من اجل غاية . فعبد الحميد نجل سلطان لحج سُمّي بهذا الاسم لانه اسم الخليفة العثماني . وكان والده يرجو الحرية ويريدها للمدينة التركية قعطبة التي تبعد عشرة اميال عن حدودنا في الضالع ويريد لها الامان .

كان الناس من سكان الجوف متأثرين بالاساليب البريطانية ومتفاعلين معها ، ويرغبون في قيام صلات ودية . وكانت توجد عندهم حسبة او « تنجيم » تدل على انه سيكون استبدال الاتراك بالانجليز . وقالوا ان المسلمين لا يتحتم عليهم الكفاح والكد ولكن كل شيء مقدر . . . وعندما ذكّرتهم بانهم يسكنون بعيداً عن الاماكن التي تعنينا ، وخلف المناطق التي تهمنا من الناحية السياسية ، وبأننا اصدقاء لكل الاطراف المتحاربة ولا نستطيع ان نتدخل اقتنعوا بكلامي .وجماعة اخرى من الإقليم التركي في جُبَنْ اخبروني بان الصراع بين الامام والاتراك من الاهمية بمكان كبير ، وان الجانب المهزوم سوف لن تقوم له قائمة .

اضافة الى ذلك ، اردف هؤلاء اصحاب جبن قائلين ان اسلافهم كانوا في الاصل زيود المذهب ولكنهم الآن انفسهم اصبحوا من الشوافع . وعندما سألت رئيس الجماعة عن علاقته مع حاكم صنعاء الزيدي الذي ترك مذهبه اجاب على استفساري قائلاً : « كيف لا احبه ؟ ولكن بالنسبة للأتراك انت لا تستطيع ان تحب المرء الذي يجلدك . (ذي يلبجك ما تحبه) » . وعبد الرحمن بن حسين شيخ مدينة سبأ الاثرية القديمة (او مأرب) . ذلك المكان الذي سافرت منه ملكة سبأ كدليل على

حكمة سليمان قال انه بينما الله سلطان متفرد في مملكته ، فانه اي الشيخ عبد الرحمن سلطان آخر في بلاده . وعندما سألته عمن يكون خليفته اجاب على سؤالي : « كل واحد خليفة نفسه » . ولما ابتسمت ابتسامة يشوبها الانكار وعدم التصديق ، اضاف بخجل « ربما يكون سلطان الروم (تركيا) ! . . » وقد اخبرني عن عجائب « البحر السافي[1] »وهو عبارة عن طبقة من الكثبان الرملية المتحركة . ثم امسك بكلتا يديه ممثلاً حقده على الاتراك وصرخ قائلاً « ارجو الله ان يغرقهم في ذلك المحيط من الرمال ! » .

وشريف بيحان احمد عم محسن احد الخاضعين لحمايتنا كان واضحا وصريحا في تقدير القيمة للصلات والروابط التي بينه وبين الامام والاتراك ، فقد وضع يده على رأسه وصاح قائلاً : « من هذه النقطة فما فوق انا مع الاتراك ، ومن قلبي فما تحت انا مع الامام» . لذلك كان هذا السنّي الممثل بطل الرواية على علاقة طيبة مع الامام الزيدي (الشيعي) ويكنّ له الاحترام والمحبة . والمسألة على اية حال مسألة دم ، وترتبط بالعنصر . فهو في قلبه وعواطفهم مع العرب ويفضلهم بينما عقله يقول له ان التظاهر بالولاء للأتراك ، والحصول منهم على المال اسلم سياسة ، وهذا يذكر بفتوى الخليفة علي بن ابي طالب الذي كان يصف ابنيه بقوله « الحسن مثل النبي في كل الاعضاء التي بين صدره ورأسه ، والحسين مثل بقية الاجزاء التي تحت تلك » .

انني غالبا ما كنت استغرب واندهش كيف يُشهِّر العربي كثيرا بالاتراك ويطعن فيهم من اجل تحقيق رغبته ، وفي تحبيب نفسه الينا والتقرب منًا . وليس على المرء الا ان يقبل بهدوء معظم ما يقوله العربي ثم يضعه في غليونه ليتصاعد دخانا محترقا !

---

(١) - هذه الطبقة من البحر السافي او الكثبان الرملية المتحركة تشبه بعض الشيء منطقة ران كوتش Rann of Gutch في الهند . وعلى مقربة منها في الجوان Al Juwan توجد جماعة من الناس يقال لهم اهل باديلا Ahl Badhela ويقول الكثيرون ان هؤلاء يولدون بذراع واحدة هي اليمنى ويأكلون الحب كما هو بدون طحن واكواخهم مغطاة بالجلود . (المؤلف) .

لقد ذكرت في فصل سابق [1] مكائد الجمعية العربية التي كانت تحاك وتدبر في باريس . وكانت لدى قائمقام تركي آراء جريئة ووجهات نظر قوية حول المشكلة العربية ، وكنت على علاقة طيبة معه بعد ان قام بتحريات دقيقة عن رتبتي ، ومهمتي ، وطبيعة عملي ، وقد نصحه رئيسه الاعلى الصدر الأعظم بعدم السعي لكسب صداقتي الا اذا قمت بزيارة فعلية وعندها فان عليه حينئذ ان يظهر البشاشة والمجاملة نحوي . وقد قمت بزيارته ، وكان غالبا ما يزورني في الضالع حيث كان يرغب في الحضور اليها لشراء البضائع وبعض الحاجات المعروضة في يوم السوق . وكنا نشرب معا انخاب بعضنا البعض ونرغب في تبادلها في اقداح من الشمبانيا . كما كنا نجلس ايضا لندخن ونتسامر ، ونتجاذب اطراف الحديث في خيمتي . وكان يتناول معي ايضا طعام العشاء على مائدة الاكل المعدة لضباط فرقة المشاة . وكان زميلا طيبا في الساعات الاولى من الصباح المبكر .

وفي احد الايام من شهر مايو عام ١٩٠٥ اسرَّ اليَّ بما عنده من سرّ خفي عن الثورة المقبلة ، وعن احتمال قيام خليفة عربي . وبعد ذلك بأربع سنين نفذ الاتراك الصغار من شباب تركيا الفتاة ذلك السر . وفي العاشر من شهر مايو عام ١٩٠٩ استسلم عبد الحميد الثاني لمحمد رشاد الخامس وافسح له الطريق .

كان القائمقام التركي يحاور على الصورة التالية :

ليست الحركة العربية حركة عصيان وفوضوية كما يثرثر الاتراك بعبث . والقبائل اليمنية في القديم كانت متفوقة على كل العرب الآخرين والقبائل الموجودة اليوم متحمسة جدا لاستعادة امجاد اسلافهم القدماء . وقد حان الوقت الذي سوف يجتمع فيه المسلمون جميعا تحت قيادتهم ويعود الاسلام بالتدريج الى مكانته . وحتى الشبّان المسيحيين السوريين اعترفوا بالقرآن كرسالة عالمية ، وليس

(١) - في الفصل الرابع .

مجرد كتاب لتعليم الاسلام كمنهاج مدرسي او لمجرد الحفظ . وهم يعطفون على اهداف واماني الامة العربية ، ويحفظون آيات القرآن واوامره عن ظهر قلب .

ان الائتلاف العنصري يكون في الهواء ، (وكذلك الحال في الأئتلاف السلالي او البشري داخل الوطن فهو يجمع الشمل ويؤلف بين المواطنين) . ثم استمر في حديثه يقول :

ان الامام يحيى يحتفظ بوجهات نظر عميقة الجذور وقوية حول الخلافة والتي مفادها ان حق الامتياز فيها مقصور على ذرية علي وفاطمة . والاتراك خلال الثلاثين او الاربعين عاما الماضية هائمون على وجوههم انتظارا للسيطرة ، وقمع الحرية واخضاعها في المشرق . وقال القائمقام ان واجبه الديني يكون في الخدمة والعمل على تمهيد السبيل لنجاح تلك الثورات ، وتشجيع الزيود اليمنيين على ان يلقوا عن كواهلهم نير الاستعمار التركي وان يحصلوا على الحرية التي يعشقونها على مر الزمن . وهذا فرض مقدس واجب الاداء لبني الانسان ، وان تركيا بسبب سياستها العمياء خسرت اقاليمها في اوروبا وآسيا وافريقيا . والحكم التركي سبب في هذا الاضمحلال وعنوان هذا التلاشي . ولو ان العهد التركي كان شريفا ومتسامحا مثل الدول الكبرى الاخرى التي تتسامح مع رعاياها من المسلمين لما كان هذا المأزق الحرج الموجود في الوقت الحاضر باليمن .

وهذا الضابط او الموظف التركي كان يبدي عطفا كبيرا على البريطانيين وتقديرا لبريطانيا . وكان هدفه الانضمام الى الامام وتشجيعه على الدخول في معاهدة صداقة مع الحكومة البريطانية . ولا شك ان الامام بحاجة ملحة الى مستشارين امناء لتدشين الاصلاحات . وحكم الامام وحده هو الذي سوف يؤمن الحكم الذاتي ، ويضمن الاستقلال في البلاد ويوفر لها الامن والطمأنينة .

كان صديقي هذا واحدا من الاتراك الشبان المنتمين الى جماعة تركيا الفتاة . وكان يقوم بشرح وجهات نظر الحزب والترويج لها . وقد كوّن رأسمالاً

من المساعدات التي كان يقدمها الكثيرون من الاتراك لهذه الغاية ، ومن ثمة للتخلص من الخلافة العثمانية . وهنا يكمن الضعف في برنامج ذلك الحزب وفي منهاجه في ما اعتقد او اظن . وكانت الطريقة المثلى والاحسن لو اتبعوها هي قيامهم بجمع الاتراك والعرب معا على هدف واحد ، وسياسة جديدة متسامحة مع وجوب المحافظة على الوحدة الاسلامية تحت عظمة تركيا وحماها .

وهذه الطريقة ليست ثورة ولن تكون عنفا يُسبِّب نكسة وانما اصلاحا وارتقاء . وهو ما كانت اليمن (وغير اليمن) بحاجة اليه .

ونحن ايضا في ذلك الوقت أخطأنا في اعتبار الامام مجرد شخص متمرد ، وقد تجاهلنا تاريخ اليمن . وانا اعلم واعترف بان تدخلنا كان غير ممكن . ولكن اظهار بعض الميل والمشاركة الوجدانية نحو اماني العرب واهدافهم سوف لا يعد انتهاكا لحرمة الحياد التام . وليس في ذلك مخالفة لالتزاماتنا الصارمة به .

وعند العرب نبوءة مؤكدة حول صعود بريطانيا وعن انتشار نفوذها . ولديهم عبارة مروية ونص متناقل يشير الى ذلك . وقد وصلتني هذه الاسطورة عن طريق شيخ جبن في المنطقة التركية الذي كتب يقول : « توجد نبوءة قديمة تتكهن بأن سطوة اهل فرانج (هنا يقصد البريطانيين) ستنتشر . وبأنهم سوف يغطون الأرض ويملأونها كما يغطي الضباب قمم الجبال وسوف تتغلب قواتهم على الشرق وشواطىء البحار وتصعد ايضا الى « بيت المقدس » . وقد اصبح حلم العرّاف حقيقة في مابعد تحت قيادة ماود Maude ومارشال Marshall واللنبي Allenby الذين كانت اسماؤهم تُؤَوَّلْ بمهارة وتفسر ببراعة مثل الله والنبي As « God and His Prophet !!! .

وفي عام ١٩٠٦ قام محمد علي باشا الحاكم العام التركي بمحاولات مع الامام بقصد الدخول معه في محادثات للسلام . وقد تقدم بمقترحات وتزلف الى الامام ولكنه باء بالفشل والخيبة . والامام رجل محافظ على القديم ، ومطبق للحدود الشرعية الواردة في القرآن . فهو يقطع اليد من اجل السرقة ، ويجلد الزاني بينما الاتراك يدافعون عن المثل العليا للانسان ويطبقون القواعد القائمة على اساس الشفقة بناء على قواعد القانون المدني الوضعي والشرائع الحديثة على

عكس الامام الذي يستشهد بما نص عليه القرآن في السورة الخامسة ، الآية الثالثة ، والتي يقول البعض انها آخر ما نزل على الرسول من الوحي وبأنه مات بعد واحد وثمانين يوما على نزولها وهي برهان قاطع ودليل مقنع بالنسبة للمسلم : « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » .

وكان الامام يتساءل قائلاً : كيف يستطيع الانسان الفاني ان يعترض على الله ويعصيه ويخالف تعاليمه ثم يمتثل لقوانين من صنع البشر ؟ . . .

ويجدر بي الآن ان اذكر جهود الشريف حسين صاحب مكة ، وأشيد بما بذله من اوجه النشاط في وقف العداوات . فهو قد عمل مع كل من سلطان لحج وعزت باشا على تقريب شقة الخلاف . وتوصلوا الى نتائج ناجحة ومرضية . وذلك الذي قاموا بتسويته يشمل التوفيق بين كل المصالح المتعددة والمختلفة . ولقد تم الاتفاق بين العرب في اليمن وبين الاتراك في شهر مايو عام ١٩١١ مما جعل الجمعية العربية تصاب بنكسة .

وقبل ذلك وفي شهر مارس من نفس عام ١٩١١ كان الشريف قد كتب الى السيِّد احمد سلطان لحج قائلا ان عزت باشا قد وصل مع قوات كبيرة قوية ، وبأنه مصمم على اعادة النظام والامن في اليمن ، ثم قال ان الحكومة طلبت منه الاشتراك ضد الادريسي الذي يقوم بالدعوة لنفسه في الاراضي الجبلية وفي السهول الساحلية من عسير ، ثم اردف قائلا : انني ارجو بأن « اخونا المحترم زعيم لحج المعظم » سوف يتصل بالامام يحيى ويخاطبه ، وبأنه سوف يقتنع بالعدول عن العدوات التقليدية ضد الباب العالي واما عن دراسة مقاصد الاسلام وتطبيق تعاليمه فان غاياته سوف تتحقق بسهولة اكبر عند التفاهم واذا رفض فان دماره قريب وهلاكه آت « قاب قوسين او ادنى (قرآن) » ، وان الحكومة سوف تضرب بحزم ولن تقع في اخطاء جديدة .

كما كتب الشريف ايضا الى الامام مباشرة مشيدا بفضائل عزت باشا ومطريا له ثم قال انه يرغب في حل المسائل وديا وبالحسنى طبقا للمصالح الاسلامية ومبادىء الدين . وذكَّر الامام بدعوته السامية واشاد بندائه العظيم . وبينما اعترف بقوة الكثير من حجج الامام وسلَّم ببراهين ادلته قال ان مثل

ذلك النداء يعد كارثة في ذلك الوقت العصيب ، بل انه جالب للنوائب ، ومفرق بين المسلمين ، وممزق للاسلام . وان من واجب كل مسلم تقوية خليفة المسلمين « حتى بعقال بعير » . ومن جهة اخرى لا يجوز تبديد قوته لان مثل ذلك يعتبر جريمة ومقترفها مجرم لانها ضد أبناء دينه ، كما ان سفك الدماء سوف يغضب النبي العظيم جد الامام يحيى[1] . واضاف الشريف قائلا انه نفسه على وشك الذهاب الى عسير لقمع حركة الادريسي ومنع قيامه .

ولقد اجاب السير احمد سلطان لحج في الحال على مذكرة الشريف . وعبر عن فرحته لسماع الاجراءات المتخذة ضد الادريسي . ووعد بالاتصال بالامام ، كما كان مرتاحا بسماع عودة جيش الباب العالي المنتصر الى صنعاء ودخولها ثانية ولكنه اضاف قائلا : اذا لم يمكث الوالي التركي هناك فان النزاع سيتجدد . وكان قلقا خوفا من عزم الاتراك على الزحف نحو الشمال . وقد عبّر عن خوفه هذا خشية من تقدمهم بعيدا الى المنطقة التي يوجد فيها الامام رغبة منهم في احتلالها لأن ذلك سوف يثير القبائل الزيدية ، وتنتشر الحرب في كل انحاء اليمن . كما كان حريصا على تذكير الشريف بخصائص القوم الزيود وشرح له مميزاتهم . كما اضاف الى ذلك ما يعد تفسيره كما لو كان « نشرة بابوية » : (الجميع في هذا البلد سيصبحون وادعين ، هامدين بعد الآن . ويجب ان يصيروا كذلك منقادين ما عدا الزيود فقط ـ رجالاً ونساءً ـ فان هؤلاء القوم سوف يصرّون على انتخاب خليفة من عائلة الامام) .

والمتاعب الزيدية سوف لن تنتهي قط الا بانقراض تلك العائلة . واحسن خطة للاتراك وللامام هي التسوية والمصالحة . وقد اعتقد السير احمد بأنه لا يوجد وسيط للصلح اكفأ وأنسب من المرسل اليه وهو شريف مكة نفسه .

ان النشاط الذي قام به الشريف والاتراك معا في معركتهم ضد الادريسي ، ثم البراعة وحصافة الرأي التي كان يتمتع بها عزت باشا بالاضافة

---

(١) ـ ان هذا الاعتراف الضمني دليل على ان ابناء الحسن والحسين جميعاً شيء واحد في مرتبة واحدة . (المؤلف) .

الى حسن تصرفه في الامور ، كل ذلك قد وضع الاسفين لأي احتمال في قيام محبة او صداقة بين الامام والادريسي .

وبالاضافة الى الرسالة الاولى التي بعث بها الشريف الى السير احمد سلطان لحج كتب اليه رسالة اخرى . ويظهر منها ان الاتراك قد اشتكوا وتذمّروا من الاسلحة والذخائر التي كانت تستورد الى محميات عدن ومقاطعاتها التسع . وان الغرض من ذلك تقوية الامام وتشجيعه على التمرد والعصيان . واعتقدوا بأن ذلك من فعل أمير لحج الذي كان الشريف قد اثنى عليه وامتدحه على اساس انه مخلص للباب العالي وانه يفضله مع ان افعاله تناقض اقواله . وقد اوضح الشريف بأنه عقّب على ذلك الاتهام مباشرة بشرح السمعة الطيبة التي يمتاز بها صديقه كما ضرب امثلة على صداقته ومودته وتمسكه بالباب العالي وبالحكومة العلية . واضاف الشريف ببساطة وسذاجة وحسن نية ما يلي : « انني ارجو ان اكون قد صوّرت لهم موقفك على حقيقته . وبأن أفعالك في المستقبل سوف تفنّد شكوكهم . والوقت يستدعي الحرص الشديد . . ومن الأهمية بمكان توحيد المسلمين تحت الزعامة التركية بقيادة الخليفة العثماني . وقبل القيام بأي عمل نسعى اليه ينبغي الاهتمام بالوحدة الاسلامية مع الخلافة التركية » . وقد اجاب السير احمد بغضب شديد ، وحلف بالله ، وأقسم بالايمان التقليدية المتناقلة بأن مشاعره وعواطفه مع الحكومة التركية . ولكنه اضاف بهزل وفكاهة قائلا : « لعل الله يجازي موظفيهم بما يستحقون » او لم يكن يكافح في الماضي من اجل حمل الامام والاتراك على وقف سفك الدماء ، ومنع تمزيق الاسلام ؟ ولا يتهمه احد ما لم يكن احمق بإحضار السلاح وجلبه الى البلاد لأنه مع السلطات العدنية شيء واحد في العمل على ايقاف استيراد السلاح ، وهذا معلوم للجميع القريب منهم والبعيد .

وتأييدا لكلامه ارسل السلطان الى الشريف صورا من المراسلات التي جرت بينه وبين محمد علي باشا الحاكم العام (التركي) لكي يؤكد للشريف صدق قوله . وكانت تلك المراسلات تتعلق بالمقترحات التي تمت من اجل مراقبة حركة تهريب الاسلحة ، وحول احلال السلام بين الامام يحيى والاتراك . وهكذا نرى

ان شخصا مثل سلطان لحج او آخر مساوٍ له وفي مثل مركزه كان يتصل بالاتراك مباشرة ويتعامل معهم ! وهذا لا شك بسبب تقهقرنا وانسحابنا من الضالع قبل اربع سنين على ارسال جوابه هذا للشريف . وكان الاتراك يرفضون رفع شكواهم الى عدن ضد القبائل التي تسكن على الجانب التابع لنا من الحدود مدّعين عدم مقدرتنا على تهدئتهم وايقاف نشاطهم كما اتضح لي ذلك في عام ١٩١٠ .

بينما قال لي عربي في عام ١٩٠٦ عندما كان رحيلنا عن الضالع قيد البحث ومحل حوار « لا يستطيع احد ان يحدث ضررا او يقوم بعمل اي اذى او معاكسة طالما بقيت الخيام البيضاء قائمة ومنصوبة » . واردف قائلا : « ان الثعبان يظل ثعبانا حتى ولو لم يبق منه الا قشره المنسلخ فقط لأن المرء عندما يرى ذلك يهاب » .

ومعنى هذا ان علينا ان نترك خيامنا منصوبة في اماكنها بالمعسكر . وذلك امر سهل ليس فيه كبير عناء للبرهان على ان انسحابنا مؤقت ولفترة من الزمن محدودة .

والرؤوس الحكيمة والمفكرة من العرب رأت عدم الحكمة في ترك الضالع وفي الارتحال الى عدن .

وفي عام ١٩١٠ دافع السلطان العبدلي نفسه في سبيل عودتنا . ومرة اخرى طالب بإلحاح في بناء الخط الحديدي ومده الى لحج عاصمة بلاده حيث يصبح من الممكن تمديده من ثمة الى مناطق اخرى بعيدة كلما استدعى الحال ذلك . وتنبأ بضياع هيبتنا اذا لم نُظهر أنفسنا من وقت لآخر داخل محمياتنا .

ومما لا شك فيه ان الخط الحديدي كان من اهم العوامل التي سوف تساعده حتما على مراقبة قبائل الصبيحي الذين يعيشون على السلب والنهب حيث كنّا قد اعتبرناه مسؤولا بسبب العلاقة الطيبة معه ولحسن تصرفه . وكانت الاضطرابات والقلاقل على طول الطرق التجارية قد احدثت تأثيرا خطيرا وبدرجة كبيرة على تجارته وعلى تجارتنا في عدن . وكانت الحكومة غير قادرة على معارضة السياسة المرسومة في عام ١٩٠٧ ، وهي التي طردتنا بقضنا وقضيضنا ،

واخرجتنا من الضالع والمناطق الداخلية من البلاد ، وأصدرت فتوى بعدم التدخل في شؤ ون العرب « المقيمين في المناطق الخلفية من عدن » وقررت هذه القاعدة .

ومهما كان الامر فإن العرب لم يحصلوا على مزايا قليلة من اقامتنا بينهم ، فقد رضعوا وامتصوا « من طعم الحالي طنطل مشافره »[1] . وهم يلتمسون عطفنا ونصيحتنا ، ويقطعون المسافات لنيل ذلك . وكانوا يحصلون ايضا على العلاج الطبي الذي يُعد وجوده في المناطق الداخلية من البلاد مستحيلا . وفي الشيخ عثمان كانوا يجدون المعالجة والرعاية على ايدي المبعوثين لهذه المهمة تحت اشراف الدكتور جون كاميرون John Cameron الذي كان دائما اكبر مساعد لنا في عدن .

لذلك فان سياسة عدم التدخل في شؤ ون الامم الاخرى كانت مفيدة وملطِّفة . ومن الممكن للذين يكونون بعيدين عن مجال التنفيذ ان يرسموا الاطار العام وان يضعوا القاعدة العريضة للمبدأ ، اما التنفيذ والتطبيق فيجب ان يكون بالضرورة خاضعا لتقدير الموظفين المباشرين . (واولئك الذين يلعبون طبقا للقاعدة سوف لن يكونوا اكثر من لاعبين مقبولين) .

وفي عام ١٩١٠ ، كتبت جريدة التايمز اللندنية مقالا حول زيادة اهتمامنا بشبه الجزيرة العربية . واما من الناحية الرسمية فقد دافعنا عن منهاج عدم الاهتمام ! . . . وعلقت جريدة المؤ يد القاهرية على ذلك قائلة « انه يتحتم على جميع الناطقين بالضاد الإمعان والتدبر في وجهة النظر البريطانية « ثم قالت » ان الانجليز يلعبون لعبة خطرة ، وان عواقبها الاثيمة ونتائجها الشريرة ستقع على الحكومة العثمانية بصورة خاصة وعلى شبه الجزيرة العربية على وجه العموم . يحافظوا على حقوقهم ومصالحهم المشروعة . وبما أن الأتراك مشغولون في أوروبا بالمقاومة لحركات اليونانيين ، وقمع نشاطهم وطموحهم ، وفي منازلة سكان جزيرة كريت لإخضاع غرورهم فإنه يجب على العرب وقف القتال مع الأتراك والتغلب على الدسائس الأجنبية في بلادهم » . وقد تأثر الحاكم العام في اليمن عزت باشا

(١) ـ مثل دارج عامي في اليمن ، ومعناه ان الذي يأكل الحلوى تنفتح شهيته وتتدلى شفتاه . (المترجم) .

بهذه النصيحة وتجاوب معها بسرعة وعلى الفور . وهو لم يكن جنديا قديرا وممتازا فحسب ولكنه كان ايضا رجلا اداريا من الدرجة الاولى وسياسيا ماهرا . وقد استمال الامام يحيى بحسن بيانه وقوة حجته .

اما سخاؤه وكرمه فإنه يفوق الوصف . وقد كان اتهامه في ما بعد واستجوابه امام السلطات العليا وعن طريق رؤسائه بتهمة التبديد وتوزيع مبالغ ضخمة . وذلك عند المراجعة النهائية لتلك الهبات التي كان يقدمها . ولا ريب ان جوده وكرمه يُذكّر بذلك الكرم الذي اشتهر به حاتم الطائي . وقد برهن بهذه الهدايا والمنح والعطايا على نوايا الباب العالي ، كما كان يحقق مراميه عن طريقها . والاتراك مدينون كثيرا للباقته وسرعة بديهيته ودهائه . وقد حقق العديد من الانتصارات . وبعد دخول هذا الباشا المنتصر الى صنعاء اصدر الامام امراً بإعدام ثلاثة من كبار اعوانه ونوابه الذين كانوا يقودون جنوده . ثم عفا عنهم بعد ان تقدموا بالتماسات قوية الحجة والمنطق وجاء في هذه الالتماسات التي تدافع عن اصحابها ما يلي : « أو لم تخبرنا ايها المولى بأن نأخذ منهم صدقة لعلها تطهرهم ؟ وقد حاربنا الاتراك طالما استطعنا الى ذلك سبيلا . والآن نأخذ منهم بقدر ما نستطيع . !!!... ونحن مستعدون للامتثال لأمركم المقدم » .

وقال عربي (من عملاء الاتراك وهو من الشرّاح المفسرين للامور) : ان السياسة الحاضرة التي يسير عليها الاتراك في تقديم المنح والهدايا وتوزيع الاموال بسخاء سوف تزيد من جشع العرب وتشجعهم على التمرد والعصيان باستمرار على امل جمع الاموال والحصول عليها من اجل الاسترضاء وبقصد التهدئة . والنتيجة ستكون مذبحة مستمرة من الاتراك الابطال .

وقد حثت احدى الصحف القاهرية الاتراك على منافسة البريطانيين في عدن من حيث تقديم المنح والهبات لأن جاذبيتهم كما تقول الصحيفة تكمن في توزيعهم للأموال بسخاء !!..

وفي شهر مايو عام ١٩١١ تم الاتفاق بين الامام والاتراك على عقد المعاهدة الامامية ـ التركية .

وفي اليوم الثالث عشر منه قطع الادريسي الخطوط البرقية الموصلة مع الصليف . وقام السيد مصطفى القائد العام الادريسي بتشديد الحصار على ابها عاصمة عسير واحتل سحار (شعار) حيث اوقع في الشراك عددا من الاتراك وأودعهم السجن . واستولى على بعض الاسلحة وأخذها الى عاصمته صبيا مع الاشخاص السجناء . وقد ذكرت في الفصل الرابع النجدة وفك الحصار عن ابها .

وقصة هذه الحملة موجودة في كتاب يسمى (الرحلة اليمانية) لمؤلفه الشريف المكي عبد المحسن البركاتي .

والآن انتقل الى المعاهدة التركية ـ الامامية . وهي التي وضعت علامة مميزة للمد العالي عند اقصى نقطة بلغ اليها الطغيان التركي في اليمن . وقد ابتدأ الجزر والارتداد بالحرب ضد ايطاليا والتي كانت تبدو في ظاهرها لفترة من الوقت وكأنها تُقوّي مركز تركيا . ثم تلت ذلك الحرب البلقانية . وبعدئذ اندلعت الحرب الكونية في عام ١٩١٤ فجاء الجزر التام والانحسار الكامل ، واذا بالقمر العربي في صعود ، والشمس التركية في افول .

﴿ وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ .

(قرآن كريم) « الآيتان ٧٦ و ٧٧ من سورة الانعام »

* * *

الفصل السابع :

المعاهدة الامامية التركية

المعقودة في شهر مايو عام ١٩١١ والحرب التركية - الايطالية الناشبة عام ١٩١١ - ١٩١٢

قام عزت باشا باستخدام الاساليب القوية الحجة في الاقناع ، واستطاع ببراعة ان يكسب المعركة وان يتفوق على امام صنعاء فيستميله اليه . والأقوال المأثورة والأمثال المنقولة تتقدم بعرض هذه النصيحة (تهادوا تحابّوا) بمعنى ان الصداقات المتبادلة تكون مكفولة عن طريق الهدايا المتواصلة . وفي هذه الحالة اعطى الأتراك المال ، وقدّم الامام ما هو اعز من المال وهو اخلاصه للاسلام والمسلمين ضد الايطاليين .

ولقد وصل عزّت باشا الى دعّان الواقعة في بقاع كثيرة التلال والآكام بين منطقة حاشد وحصون السودة وعمران . وكان لديه تفويض تام من الباب العالي . وقد عُقدت اتفاقية بين الطرفين ، ومما نصت عليه بنودها الاساسية ما يأتي :

للامام الحق في نظر جميع القضايا وتصريفها بالاضافة الى اقليم صنعاء في الاقاليم البعيدة مثل عمران وحجة ، وكوكبان وحراز (باستثناء صعفان وبني مقاتل) وكذلك في آنس وذمار ويريم ورداع. وفي حالة ما اذا كان عدد الزيود المقيمين في تعز يزيد على النصف من مجموع السكان تكون الدعاوى والقضايا

خاضعة لأحكام المذهب الزيدي . ويكون الحكم فيها والقرارات طبقا لقواعده . وتتألف المحاكم الاستئنافية من رئيس وعدد من الاعضاء ينتخبهم الامام وقراراتهم خاضعة للتصديق عليها من الباب العالي . واذا كانت القضية المعروضة على القضاء تتعلق بالقصاص وأقرت المحكمة الاستئنافية الحكم بإعدام القاتل فإن للقاضي حق اختياري في أن يطلب من ورثة القتيل منح العفو عن القاتل مقابل دفع الدية اليهم ، فاذا رفضوا وكانت قلوبهم متحجرة وجب على المحكمة رفع المسألة الى استانبول لطلب التصديق على تنفيذ احكام القانون ، وقد نُص على تحديد مدة أربعة اشهر كحد اقصى لصدور الارادة السنية خلالها من وقت ارسال حكم المحكمة الاستئنافية .

وتوجد آيات متفرقة هنا وهناك في القرآن تشرح عمل هذا القانون المتعلق بالقَوَد ومقابلة المثل بالمثل وأثره على الجماعة والمجتمع مثل ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ وهذا قانون ، ونستطيع ان نفهم من دراسة النصوص كمجموع وجمع الآيات ككل انها لم تترك الامر للأفراد العاديين ولأصحاب الشأن في تطبيق احكام هذا القانون وتنفيذه بأيديهم ، وانما المسألة من اختصاص المحاكم وحدها وولي الامر . والمسلمون المعاصرون في اليمن لا يأخذون دائما بوجهة النظر هذه بل انهم حتى الآن يقتلون اي قريب يمت الى القاتل بصلة القربى) واي عضو من قبيلة الرجل القتيل سوف يأخذ الثأر لقبيلته بذبح اي واحد من قبيلة القاتل حتى عندما يقابله صدفة . والمثل يقول : « الغريم والا ابن عمه » اي مرتكب الجريمة او ابن عمه اذا لم تحصل عليه . وكلمة ابن عم تعطي للمسلم مجالا في العمل وتمنحه مرتبة فيه تفوق آراء الاسكتلندي الاكثر عنفاً وتبزّ تصوراته .

ومما نصت عليه الاتفاقية انه اذا كانت الدعوى مقامة بين واحد من الزيود وآخر من احدى الطوائف غير الزيدية (باستثناء رجال الجبال) فانه يجب احالتها على محكمة مختلطة من القضاة الزيود والاحناف . وقد تُركت ادارة الاموال الموقوفة والاملاك الخيرية للامام وتحت اشرافه ، كما أُعفيت منطقة جبال الشرق التابعة لاقليم آنس من دفع الضريبة لمدة عشر سنين ، وهذه الجهة

تشمل عزلة جبل الشرق ، وبني قُثيب ، وبني اسعد والمنار ، وبني خالد وبني سويد .

كانت هذه النصوص الاساسية في الاتفاقية . وقد أُرِّخت الوثيقة في اليوم السابع والعشرين من شهر شوال عام ١٣٢٩ هجرية الموافق ٧ تشرين اول عام ١٩٢٧م. ووضع شرط صريح يقضي بأن الاتفاقية لا تكون نافذة الا بعد التصديق عليها واقرارها من الباب العالي .

وكتب الامام يحيى عقيب هذه الاتفاقية الى صديقه السَّيِّد احمد صاحب لحج مطريا بكل من المعاهدة والسلطان اذ قال ما نصه : « ثمرة ما خلفه اجدادنا العظام ، وما زرعه سلفنا الصالح ، والذي يعتبر منا والينا » واضاف « ونحن وذريتنا سنحافظ على عظمة سلطنته ونقدم لهم كل المساعدات الضرورية والتعاون الممكن ». واستمر في رسالته يقول « لقد تمت المعاهدة . ونحن بصرف النظر عن الاختلافات المذهبية اتجهنا بافكارنا الى الوحدة الاسلامية والى توحيد كلمة المسلمين وصد اعتداءات الاجانب في حالة ما اذا اصرت ايطاليا على العدوان في طرابلس » وارسل الامام الى سلطان لحج عددا من الهدايا التكريمية التي تشتمل على الملابس الحريرية ، والشيلان ، والخيول وبنادق الموزر . وقد شاركه صديقه سلطان لحج فرحته وابتهاجه .

والسير احمد كان واحدا من اعظم حكام ذلك البيت اللحجي . ولو انه عاش الى ما بعد عام ١٩١٤ لكان نفوذه عند الاتراك والامام يحيى عاملا مؤثرا . وقد يحمل كلا من الوالي التركي والقيادة التركية باليمن على الوقوف على الحياد في اثناء الحرب ، او على الاقل كان سيعمل على وقف الزحف التركي على لحج في شهر يوليو عام ١٩١٥ .

وقد اعلنت الحرب عن طريق ايطاليا في اليوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩١١ . ونزل الجنود الايطاليون في طرابلس . وقد وصف صحافي بولندي عمل ايطاليا كما لو كان « سياسة الحراب او الطعن بالخنجر » . وكان السيد الادريسي صاحب صبيا خارجا على الاجماع الاسلامي . وقد عقد معه الايطاليون معاهدة لاستعمال موانئه ، وشراء محاصيله الزراعية ، واعطوه اسلحة

خفيفـة وذخيرة . وكـ اعضوء البنـادق اعـطوه ايضـا الـذهب . وقـد نُسب ارتبـاطهم بالادريسي وعلاقتهم معه الى الدسائس البريطانية !.

ولم يكن الادريسي يقوم بمساعـدة الايـطاليـين بصـورة جـديـة وبـاخـلاص ، وحينـما اشترء الايـطاليون ضـد تركيـا كان يقـوم بمناوشـات ويشغـل القـوات التركية في ابهـا عاصمـة عسير حيث كـانت الحامية التـركيـة محـاصـرة . وقـد وصلت قـوات تـركية ومكّيَـة نفك الحصـار . وعند وصـولها الى حـالي (الـواقعـة عنـد خط العـرض ١٨ و ٣٦ شمـالاً) وجـدت كمية كبيرة من الاسلحـة المخـزونـة التي زعمـوا انها وصلت من ايـطاليـا وانجلتـرا (هكـذا) . وقـد قـال ذلـك مؤرخ مكي وهـو عميل تـركي خـدم في القـوات المـوحـدة : « ان الاسلحـة مـرسلة من الحكومات التي لهـا اهتمـام بانهيـار الحكومـة التركيـة » . واضاف قـائـلا : « والنـاس البسـطاء من اهـل عسير اعتقدوا بأن الاسلحة البريطانية والذهب البريطاني مخبأة سراً ومحفوظة خفية داخل ثنيات المسجدة او السجادة التي يصلي عليها سيدهم » !.

وكـان الادريسي يُسَمَى « متحـايـل » أو رجـل معجـزات او صـاحب كـلام وسحـر ، او الرجـل الذي يـردد الكلمات كتـابة وكـلاما ويستعمـل الـرقيـة والسحر والتعـاويـذ او كـما عبـر عنـه احـد الاشخـاص « حينـما تـرغب الحكـومـة التـركيـة بمحـاربتـه والقتـال ضـده يكـون لـديـه بـاب للنجـاة مفتـوحـاً . ومن هـذا البـاب الحاضر يستطيع الاختفاء حالا والهرب بسرعة » .

وكـانت البطاريـة الكهـربـائيـة العـلامـة المميـزة والشعـار المختص بـوظيفتـه . وكـانت الصدمـات والهزات تعـطي لقبائله السُذَّج . وكانت هـذه تُستخدم كـوسيلة لإ ـار صيتـه واعـلاء سمعتـه في السحـر والغمـوض . وأنـا كنت أُدعى سـاحـرا . وعنـدما انـدلعت الحرب العـظمى وجَّه احـد الضبـاط الاتـراك خـطابـا عـامـا ، كـما اصـدر منشـورا دوريـا الى جميـع الـذين يحصلون منـا عـلى المرتبـات محـذرا لهم من تعـاويذي وشعـوذتي التي قال عنهـا انه سـوف يبرهن لهم عقمهـا وبأنها عنـد التجربـة ستكـون عـديمـة القيمـة وليست لهـا ثمـرة ، ولن تقيـه ممـا قـدره الله اذا مـا اصبـح الاتراك منتصرين .

والحـال اني لست سـاحـرا . وليس من الحكمـة ان ادعي ذلـك . وكلمـة اخرى كـانت تـطلق عـليّ وهي « شيـطان » !. وكـان لهـا مـدلـول ثـانـوي لعبـارة « سياسي محنـك او ذو دهـاء » . وعنـدمـا يخاطب واحـد من العرب ابنـه الصغـير بكلمـات شؤم مثـل « قـاتلك الله » فـانــه لا يقصـد بـذلـك استنــزال غضب الله وسخطه وانما الغرض منها المداعبة والمزاح ، والاعتراف بـاستقلال الـطفل . وتعبـير كهـذا افضـل جـدا من الثنـاء غـير المنمق او الاعجـاب والاطـراء الـذي قـد يجلب النحس . وفي مثـل تلك الحـالات يكـون الشكـر والحمـد لله والله محصن من العـين ومستثنى ! وكـذلـك ايضـا عبـارة المـدح والثنـاء « يهلك ابـوك » او بـالمعنى الحـرفي (ليس لـك اب او فقدت ابـاك) تعبير مـازح عن الـدهشـة او الاعجـاب ويستعمـل لـوصف اي شيء متقن وتام . ولكن يتـوقـف كـل ذلـك عـلى اهميـة الشخص الـذي يقول العبارة وكيف تُقال .

لم يجد الايطاليـون مجالاً كبيـرا للعمل في البحـر الاحمر . وقـد قـامـوا بحصـار جميـع المـوانىء بـاستثنـاء تلك التي تحت ايـدي الادريسي . واطلقت سفنهم قليـلا من القنابل على منطقة الشيخ سعيد المقابلة لجزيرة بريم ، ولكن لم يحدث تلف كبير . وكتب شاعر محلي رسالـة بعث بها الى صحيفـة قاهـرية شـارحا فيهـا المعركـة الكبرى التي حـدثت هنـاك والتي كـانت خسـائـر العـرب فيهـا عبـارة عن وفـاة مـاعـز واحـد وقـد كان هـذا المـاعـز المسكين يقفـز متوثبـا لمقاومـة رجال المـدفعية الايـطاليين الى ان وافـاه الاجـل المحتــوم ، واختـار لــه الله الانتقـال من دار الـدنيـا الفــانيـة الى دار الآخـرة البـاقيــة . « ومـا من دابــة في الارض ولا طـائــر يـطير بجنـاحيـه الا امم امثـالكم ثم الى ربهـم يحشـرون » (قــرآن كــريـم) . وكم أنــا محـب للشمــول والتعميم الذي جاء به القرآن ومعجب به .

والايـطاليـون يملكـون محميـة في ارتيـريـا عــلى الجـانب الافـريقي من البحـر الاحمـر . وقـد انفقــوا عليهـا مبــالـغ كبيــرة لم يستعيـدوهــا الى الآن . ولكن من الممكن استعـادتهـا مـع مـرور الـوقت بـلا ريب والخط الحـديـدي الممتـد من مينـاء مصـوع الى سهـل اسمـرة المـرتفـع يبلغ حـوالى اثنـين وسبعين ميـلا طـولا ، ويعـد طـرفة فـريدة من المهـارة الهندسية . وقد كـان توسيعـه وتمـديـده الى عـدة اتجـاهـات

مختلفة . والمياه متوفرة في كل مكان والجوفية منها تقع قريبة من السطح .
وأساليب الايطاليين كمستعمرين باهرة وبديعة . وحكمهم محبوب ومألوف لانهم يتآخون بسهولة مع الناس . ويملكون وسيلة فعالة وطريقة تساعدهم على النجاح في الحكم والاستشراق . ومن الممكن لنا على اية حال الاستفادة من مزاياهم الكثيرة وأخذ صفحة من كتابهم فهم قوم كرام مع ضيوفهم ، ورفقاء طيبون لمن يصحبهم . وحين انظر الى الوراء اتذكر تلك الايام الجميلة ، والليالي البهيجة التي قضيتها بينهم ، وهذا على عكس ما هو موجود عندنا في عدن تماما .
والاجانب الذين يصلون الى عدن او يقومون بزيارتها يفسرون التحفظ البريطاني هناك بالبرود والكبرياء ، بينما الايطاليون في ارتريا مثال للأدب والمجاملة ، وصورة حية من البشاشة ، وعندهم اقتناع بعدم وجود ازعاج في اكرام الغرباء قد يوفره الجفاء والانكماش . كما لا ينتظرون قدوم ملائكة على حين غفلة لكي تقدم اليهم الضيافة وحدهم فقط .

ولعل الايطاليين قد بذلوا جهودا كبيرة ومساعي جليلة لنشر النفوذ حضاري في البحر الاحمر . ولكن قد تكون مصالحنا نحن الانجليز هنا في هذه لمنطقة سائدة ومتفوقة . وبعض الناس الذين تفيض قلوبهم بالحسد والغيرة يسمون هذا البحر بحيرة بريطانية والخليج الفارسي[1] بحيرة اخرى . وفي استطاعتنا القيام مع الايطاليين باستخدام البحر الاحمر بالشراكة . وكلمات سيمبلين Cymbeline ملك بريطانيا نوع من الوحي والالهام ولها مدلولها اليوم .

« دع البريطاني والروماني علمان يخفقان معا بالود والصداقة » .

ان ايطاليا هي التي توددت في البداية الى السيد الادريسي صاحب صبيا الذي ظل ينتظر مرارا لمساعدتها لان موانئه كانت سنين طويلة مقطوعة الصلة بالموانىء الايطالية الافريقية في كل من عصب ومصوع . وليس من المستغرب او المفاجىء ان يقال بان ايطاليا كانت تنظر عبر شبه الجزيرة العربية بترقب

(١) ـ صحته : الخليج العربي .

وأمل ، وتتطلع اليها بتحفز وانتظار ، وان الايطاليين كانوا يرغبون في توسيع تجارتهم وانتشارها . ولقد اصبحت الموانىء الادريسية تصدر الماشية الى ميناء مصوع وهذه تعبأ اخيرا في علب من الصفائح في مصنع اللحم بأسمرة . وفي الارض الصومالية كان للايطاليين اهتمام حيث توجد مصالحهم في المناطق التي الى الشرق وفي الجنوب الشرقي من محميتنا . وفي محميتهم في بنادير Banadir كانوا ينفقون الكثير من الاهتمام والحرص ، والمزيد من المال . واما بالنسبة الى اليمن فقد قال عن ذلك كاتب ومؤلف الماني في عام ١٩١٣ : (منذ قرن مضى « كذا » جعل البريطانيون انفسهم سادة على عدن ومالكين لها . . . والايطاليون عيونهم مفتوحة على اليمن وانظارهم متجهة من ارتريا نحو الشواطىء الخضراء للعربية السعيدة) .

ولا ريب ان الايطاليين كانوا مهتمين بالقيام في فتوحات جديدة باليمن . وكان قنصلهم في عصب على الشاطىء الافريقي رجلا يتمتع بخبرة عظيمة ، ومعرفة جيدة ، واطلاع واسع بكل ما يجري حوله او يعبر المياه . ولما كان عدم اكتراثنا بما وراء عدن يبدو واضحا ، وجمودنا بالنسبة للمناطق اليمنية الاخرى بيّناً فان ايطاليا بطبيعة الحال سوف تبحث عن مجال لها في نطاق التوسع ، وللظهور والنمو هنا وهناك . وفي العاصمة صنعاء اقام احد التجار الايطاليين مدة طويلة . وكانت له علاقات ودية مع الامام . والتجار الايطاليون في عدن كتبوا في ذلك الحين الى الامام لمعرفة وجهة نظره نحو ايطاليا وكان الواسطة بينهم شيخ صباح . وصباح هذه تقع بين العرش التي الى الشمال والرياشية التي الى الجنوب وهي تابعة اداريا لقضاء رداع (تحت الادارة التركية) . وقد تقدم القنصل الايطالي الى سلطان لحج وطلب اليه ان يسعى جهده ويستخدم وجاهته ومكانته مع صديقه الإمام ليستثيره ويغريه على العمل ضد الاتراك لان ذلك سوف يُقوِّي من ساعد السيد الادريسي الذي جعل من نفسه حليفا مع ايطاليا . وهذا الأمر كان متعذراً وغير ممكن السير فيه لان الامام متفاهم مع الاتراك بعد ان سَوَّى بعض مشاكله معهم وألقى السلاح بالنسبة اليهم ، واصبح مؤملاً منهم القضاء على المنافسين له من العرب وازالتهم من طريقه .

وقد اجاب الامام على سلطان لحج بلغة قوية واسلوب رفيع . وقد رأى في تقدم ايطاليا وفي تسللها محاولة من القوى الغربية لتحطيم الاسلام في شبه الجزيرة العربية حيث كتب يقول : « انهم يتصورون بأن كل شيء امامهم ابيض يكون عبارة عن قطعة من الشحم » . او كما عبر عن ذلك بقوله « يرون كل بيضا شحمة » .

اما أنا ، فلا ألوم الايطاليين لانهم كانوا يحاربون تركيا في اليمن . وكان من المعقول والمنطقي في ما يتعلق بهم القيام بملاطفة العرب في تلك الاصقاع ومجاملتهم والتودد اليهم واستخدامهم كما استخدمناهم في عام ١٩١٤ ضد العدو .

وحالتنا التي تعد نوعا من السبات نحو محمياتنا قادت الايطاليين الى الاعتقاد بأن شاطىء حضرموت التي تقع الى الشرق من عدن حقل صالح لنشاطهم . وقد استولوا على قارب شراعي عربي من ميناء المكلا كان يرتفع فوقه علم المسلمين الاحمر ذو النجمة والهلال على اعتبار انه من الممتلكات التركية . وشبه الجزيرة العربية في نظرهم ليست دولة مستقلة تتمتع بحكم ذاتي ولكنها جزء من الامبراطورية التركية . وعندما يقتنعون بخطئهم ستظهر صداقتهم لنا . وسوف يبرهنون على ذلك عمليا حينما يتصرفون على الدوام بحذر وعناية في هذا الشاطىء . وقد سألت ضابطا بحريا ايطاليا ونحن على مقربة من الحديدة لماذا لا يستولي على هذا الميناء . فنظر اليّ بألم وقال « لان هذا الشيء لا يسر اصدقاءنا البريطانيين الطيبين بل يكدرهم » ! .

وكان الايطاليون حريصين جدا على عدم جرح الاحاسيس العربية في البحر الاحمر . وكانوا في خطواتهم يمشون بحذر خشية ان تتعرض تجارتهم لنكسة او تعاني متاعب . وقد فتحوا مضافة في الحديدة وكانت المعالجات الطبية تقدم فيها بالمجان . ولكن الحرب العظمى اغلقتها . ومنذ عام ١٩٠٦ جندوا آلافاً من العرب اليمنيين لمحميتهم ببنادير Banâdir في جنوب رأس جارد افوي Cape Gaurdafui (بالصومال) . وهؤلاء المجندون العرب قدموا من داخل حدودنا والمناطق التي خلفها . وقد تم تدريبهم في بنادير وأُرسلوا للقتال ضد

الاتـراك في طـرابلس . وهـذا المصـدر من الإمدادات الـوقتيـة افتقـده الايـطاليـون في عـام ١٩١١ وهم يحترمـون اولئك المحـاربين ويقـدرونهم حق قدرهم . وقـد اخبـرني ضـابط ايـطالي بـأن دقتهم في استخـدام السـلاح ، وحسن تـدريبهم عـلى استعمـالـه يفـوق الـوصف . وانهم كـانـوا افضـل بكثيـر من المجنـدين الأحبـاش والأرتـريـين ، ومتفـوقين عليهم . كـما اخبرني بـأن التدريب العسكـري في بانـاديـر لم يكن عـلى ايـة حـال صارمـا وشديـدا فعنـدمـا كـان الـرجـال ينتهـون من تـدريبهم واستعـراضـاتهم العسكـرية ، يُسمـح لهم بالعـودة لمزاولـة الاعمال التجـارية . وقـد تـركـوا زوجـاتهم في الجزيرة العـربيـة وأخـذوا في منفـاهم يتـزوجـون من بنـات المستعمـرة . وعنـدمـا سألت ذلك الكولونيل الايطالي عما اذا كان يجيد استعمال اللغة العربية والنـطق بها ؟ . . أجـاب « لا أحسن النطق بهـا مـطلقـا وانمـا كنت اديـرهم واشـرف عـلى توجيههم بـالود والمحبـة » . قـال لي ذلـك وهـو يضـع يـده عـلى صـدره مشيـراً الى مكـان القلب . وعلاوة عـلى الاستعراضـات العسكريـة والتدريبـات الحربيـة التي كـان الجنـود العـرب يجيـدونها وكـذلـك التسهيـلات التي كـانت تقـدم اليهم للقيـام بـالأعمال التجـارية فـانهم كانـوا يُستخدمـون أيضا في الاعمـال المفيدة عـلى اليـابسـة مثل تنظيف الغـابات وتنقيـة المستنقعات وتـطهيرهـا ، وتشذيب الاشجـار ، واصلاح الطرقات . وكانت المرتبـات التي تدفـع لهم مجزيـة ومغريـة . وبعد مـرور عامـين من الخـدمـة يُسمـح لهم بـالسفـر الى بـلادهم وتسلم اليهم مـرتبـات كـاملة عن مـدة الاجـازة هـذه . وتقـدم اليهم النصـائـح والتـوجيهـات وكـل المغـريـات بـالعـودة الى الجنديـة من جـديـد . وعنـدمـا يعـودون الى بـلادهم يقـومـون بنشـر الـدعـايـات والـروايات والسمعـة الـطيبـة عن الكـرم الايـطالي . وهكـذا ينتشـر النفـوذ الايـطالي بـدهاء ومكـر . وانـا من انصـار الفكـرة وأحبـذ هـذه الـطريقـة وأحبها ، وهـي التي كنت انـادي بهـا وابشـر فيهـا في عـام ١٩٠٥ عـلى اعتبـار انها احسن سيـاسـة لنـا ، ولكن نـدائي كان صـرخـة في واد وتكلمت في كنيسـة مقـاعـدهـا فـارغـة او لعله من الممكن القـول بـأن عـدد المستمعـين كـان قليـلا وكلمـاتي تسـاقـطت عـلى اكـوام من الاشواك التي تطايرت متناثرة فأصابت البذور المزروعة بصدمات اعاقت النمو .

ولقـد كـان الضـابط الايـطالي شـديـد الـدهشـة ، وعبـر عن الاستغـراب من

الاهمال البريطاني وعدم المبالاة ، كما تساءل لماذا لا ننتفع من القبائل المحاربة المجاورة لنا ؟ . . بينما هم يتمتعون بمزايا نادرة ان لم تكن فريدة (وكيف يستطيع المرء أن يحصي مواهبهم المعطلة وحسناتهم الجميلة المهملة ! ! Dolce far niente) .

لقد كتب عنا كاتب فرنسي قائلا : « سوف لن يفرض الانجليز لغتهم ، ولا مدنيتهم او حضارتهم بالقوة على محمياتهم . انهم يتسللون ويثبتون وجودهم على اكثر تقدير بطريقة سلمية واسلوب بطيء . وبتردد وارتياب يحترمون العادات والنظم الوطنية والقومية مختفين وراء اساليب اخرى يوجهون بها البلاد الى طريقة جديدة تبدو وكأنها من فعل السكان انفسهم ، وبأنهم اعتنقوها بمحض ارادتهم وباختيارهم . وهذه سوف تؤدي الى محو الاساليب السيئة القديمة ، وازالة اثرالتقاليد البالية التي يعاني الناس من وطأتها ويقاسون تحت اعبائها » .

والحضارة الايطالية في ارتريا تسعى الى جعل الناس ايطاليين وتعمل على طلينتهم في الفكر واللغة والعادات واللباس . وفي هذا رجوع الى اساليب روما القديمة التي يقول عنها تاسيتوس Tacitus انها كانت تُطَبَّق على البريطانيين القدماء وتُمارس معهم بطريقة تشبه هذه ، لدرجة ان « طريقة ارتداء ملابسنا اصبحت مختلفة . . . وشيئا فشيئا انزلق البريطانيون الى الاعمال المغرية ، وانحدروا الى الرذيلة والفسق ، وقلدوهم في اماكن الاستراحة وفي الحمام والعشاء المعروف . والمواطنون البسطاء اطلقوا اسم التثقيف والثقافة والتمدين على هذا اللون من العبودية » . والأرتريون بالاحرى متعلقون بروما الحديثة ومرتبطون بها عن اخلاص ومحبة اكثر بكثير من حالة اولئك الذين تحت حمايتنا .

والكاتب الفرنسي يستطرد قائلا : « والرجل الانجليزي لَينٌ وبسيط في علاقاته مع الناس لدرجة انه لا يستثير كراهيتهم ولا يستفز غيرتهم وحماستهم ، واختلاطه بهم قليل لدرجة انهم لا يتضايقون من حضوره » .

ان لكل من النظامين او الاسلوبين مزاياه ، كما ان لكل منهما فضائله وحسناته وسيئاته ، ولكني اظن بأنه عند المقارنة بينهما ككل متكامل يكون

اسلوبنا افضل وطريقتنا أتم . والحقيقة ان تلك السياسة نتيجة للطبائع والامزجة القومية والعادات الوطنية لكل من الامتين . ومن الممكن استعمال العبارة الدارجة وهي « تلك مسألة تتأثر بجغرافية كل ببلاده » . وقد يكون هذا هو واقع الحال . ومن المحتمل ان يكون الايطاليون مستعمرين ممتازين ، ومع هذا اقول - بفخر يشوبه التعصب والتحيز - انهم يأتون في المرتبة الثانية بعدنا .

ان الايطاليين يتصرفون بحذر شديد واهتمام كبير ، وحرص زائد حتى لا يمسوا العاطفة الاسلامية او يجرحوا احاسيس المسلمين ولا أظن ان واحدا منهم أو أيهم استطاع أبدا ان يطبق عمليا الكلمات المنسوبة الى البارون دستورنل دوكونستانت The Baron d'Estournelles de Constant الذي قال في كتابه[1] (التآخي الديني عند العرب وفتح افريقيا) ما يأتي :

« ان دور الضابط او القائد هو ان يتكفل بسحق اية قوة اسلامية . وانَّ الذي يأخذ على عاتقه تحطيم المسلمين سيكون انبل الرجال واعظمهم فائدة ، بل انه الرجل الذي يستطيع ان يلعب الدور الكبير من اجل بلاده »[2] .

كانت السياسة الايطالية دائما على العكس من ذلك بنّاءة ومجددة وانشائية . ولقد اقتبس كاتب في صحيفة مسلم ريفيو Moslem Review عام ١٩١٤ وهو يتحدث عن تلك الفترة ما نشرته الصحف القاهرية حول القرار الايطالي القاضي ببناء رواق قريب من جامعة الازهر . ثم العزم على تزويد الطلاب المسلمين من ارتريا وطرابلس بالغذاء واللباس وتمويلهم بما يحتاجونه ، وان تكون تلك الدار او المضافة مجهزة لايوائهم . كما ينبغي ان تشتمل على مائة وخمسين سريراً وعلى مكتبة كبيرة للمراجع ، ودفع مرتبات اضافية الى التلاميذ شهرياً ، وارسال أساتذة ايطاليين لتعليمهم اللغة الايطالية .

---

(١) - Les Congregations religieuses chez les Arabes et la conquête de l'Afrique

(٢) - الغربيّون يُرَكّزون على محاربة الاسلام لانه سرّ عظمة الامة العربية .ولهذا التعصب الاعمى ضد العرب اسباب اخرى كالطمع في الثروات الطبيعية غير المحدودة وفي المركز الاستراتيجي الفريد . وقد اتخذت الحرب ضد العرب اشكالاً عديدة كالصليبية ثم الحماية والانتداب واخيراً زرع الصهيونية في قلب الوطن العربي ،فماذا أعددناه لهذا التَّحَدِّي ؟ (المترجم) .

وقالت جريدة المقطم ان هدف الحكومة من الموضوع المشار اليه هو تعليم اساتذة جُدُد واعدادهم من اجل التدريس في طرابلس حتى يستطيعوا تدريب الجيل الطالع على العقيدة الاسلامية واللغة العربية وارضاعهم على حب ايطاليا .

كل هذا جميل ويدخل تغييرا ناجحا على الاساليب العربية . ونحن الانجليز الذين نقف على مشارف اليمن ونجاور العرب اليمنين لماذا لا نسمح لانفسنا في القيام بنشر النفوذ البريطاني هناك ودفعه بينهم او تمهيد طريق للآخرين اصحاب الجوار للتفكير والاهتمام والميل كذلك .

ان الرغبة تحدو بي هنا للاقتباس والاستشهاد بما ذكره احد المؤلفين في كتابه (ابحاث في السياسة والاستعمار[1]) والذي كان يقارن فيه بين وجهات النظر نحو الاسلام والمسلمين عند كل من الفرنسيين والانجليز في المستعمرات الخاصة بهم والخاضعة لكل منهم ، فلقد فضًل الدور الذي يقوم به الفرنسيون لانهم يعارضون انتشار الاسلام ويحاولون ان يغرسوا في الاذهان الافكار الفرنسية والثقافة الفرنسية واكًد بأن هذه الطريقة تفضي الى التوحيد ، والى ائتلاف العناصر المختلفة ودمجها في قومية واحدة ملحقة بالافكار والمعارف الفرنسية .

وصَوَّر الكاتب الاسلوب انجليزي بأنه عبارة عن ترك الحكم الذاتي للشعوب والاقاليم التي تحت اشرافهم ، وللوطنيين من ابناء البلاد تحت مراقبتهم ، مع منحهم الحرية في ممارسة الشعائر الدينية والتعليم كما يريدون ويهوون . وقد سمى هذه السياسة باللامركزية . . . ولقد قال لندور Landor ان سياستنا لا يمكن ان تُحمل معنا ولاان تنقل حيثما ذهبنا . ! بل يجب تكوينها في نفس المكان وعلى الطبيعة . وقال صولا العظيم Sulla « كل مقرراتي وشروحي السعيدة والحلول السارة عندي لم تكن نتيجة للتعقل والتفكير بل نتيجة للالهام الوقتي والعلم اللَّدُنّي » . وفاولر Fowler في كتابه « روما » يعقب على ذلك بأن

(١) - Questions Diplomatiques et Coloniales

صولا لم يكن يؤمن بالتروّي وامعان النظر في المشكلة فكان بهذا رومانيا حقيقيا . وكان ينتظر مؤملا في ان يعمل الشيء الصحيح بداهة ومن فوره بلا تروي بل من وحي الساعة . ولم يكن ابدا ليعرف ما سوف يفعله كما لا يستطيع واحد ان يثق به ويطمئن اليه (انه يؤمن بعمق في الحظ والصدفة مثل غيره من الكثيرين في ذلك العصر وفي العصور التي تلته) . وفي ما يتعلق بسياستنا العربية اشعر انني مضطر الى القول اننا نبدو كما لو كنا قد تبنّينا منهاج صولا !! ولعل السياسة مرنة ومطاطة ولكن علينا ان نتأكد بأن تكون قواعدنا ثابتة ومقررة ، ومبادؤ نا سليمة وراسخة .

كان المسلمون في عدن نوعا ما فاقدين للشعور والعاطفة في هذه الحرب - « التركية - الايطالية » - ولو انهم بطبيعة الحال كانوا يدعون بالنصر لتركيا ويلقبون الايطاليين بقولهم عنهم انهم « جماعة المكرونة » . ومهما كان الأمر فانهم توانوا جدا وسوَّفوا كثيرا في الاكتتاب للهلال الاحمر التركي بمبلغ من المال . وبعد ثلاثة اشهر من النشاط والاجتماعات المتعددة استطعت ان انجح في تأمين مبلغ ثلاثة آلاف ريال تم ارسالها الى القسطنطينية Constantinoble وكانت سياستنا الخاصة بنا نوعا من الحياد الكريم غير ان السياسة التركية كانت قاسية نحونا . وكان يذاع في الخارج باننا نعمل على اضعاف قوة الاتراك والامام معا من اجل ان نستولي على اليمن . وانا اعترف بان هذه الرواية لم تكن في جملتها مؤذية لنا ، كما أُسلِّم بانها ليست عدائية . ومن الضروري قراءة ما بين السطور من اجل فهم المعنى الصحيح الذي تحتويه كلماتها . والحقيقة ان الاتراك لم يكن لهم الخيار بسبب ضغط الحرب . ولم يكونوا على وجه الاجمال احرارا في الشك والارتياب حتى من سلوك الامام نفسه حيث تساءلوا في ما بينهم عن ماذا يكون عليه الامر اذا نقض معاهدة عام ١٩١١ وهو يرى ضعفهم رأي العين ؟ فعملت دعايتهم على اثارته ، ونفوره ، وتحريكه نحو الانجليز . وحقا ما يقوله العرب « الحرب خدعة » .

ولم اجد في عدن اي دليل او اثر لتعصب المسلمين ضد المسيحيين . والتعصب الديني لا يستطيع ان يعيش في جو عدن التجاري . وطالما ان التجار

يستطيعون ممارسة الاعمال التجارية بحرية ويركضون جيئة وذهابا فان الحصار الايطالي لا يعوق حركتهم . ولقد مرت ايامه بسرعة كبيرة . وكانت تجارة عدن اثناء الحرب مربحة . وقد تحدث ناصح امريكي عن ذلك وضرب مثلا لحالة عدن بالحكمة القائلة « ان ريح السموم لا تأتي بخير » لانها انما كسبت، ارباحا عن طريق تحويل الشحنات التجارية القادمة من الهند والشرق مع انها لم تكن تقصد هذا الميناء بالذات بل كانت تقصد موانىء البحر الاحمر ولكن ايطاليا ضربت حولها الحصار .

كان الاتراك اصحاب الحق في الاشراف على الانارة البحرية لارشاد السفن في البحر الاحمر . وقد اطفأوا تلك الانوار في هذه الحرب فاصبحت صعوبة الملاحة البحرية مضاعفة . وكدليل على الاحترام لصاحب الجلالة الملك جورج اضيئت جميع الفنارات اثناء عبوره هذا البحر في طريقه الى الهند في شهر نوفمبر عام ١٩١١ .

اصبح السيد الادريسي بولائه لايطاليا مكروها في عدن وقد أُفْسِدَ اسمه فتحول الى الابليسي او الرجل الشيطان ونحن قد نتساءل ونقول اي اسم هذا وماذا يعني ؟ غير ان الطرق كثيرة ، والاساليب وفيرة لكل جهة في شبه الجزيرة العربية . والعرب يقولون ان كل اسم للرجل يشير الى صفاته . وقد حدث ذات مرّة ان ارسل تاجر من المكلا خادمه للبحث عن قارب ليحمل عليه بضاعته الى عدن فرجع الخادم ناجحا لأنه عثر على ذلك . وعندما سأله سيده عن اسم الرّبان اخبره بان اسمه « شاني » او الرفيق الرديء والآباء يمنحون أبناءهم مثل هذه الاسماء تجنبا لعين الحسود وخاصة اذا حمل طفل اسما مشهورا وحدثت له كارثة والاسوأ من ذلك ان اسم القارب « محنتني » اي بليّتي . واهل سقطرة يستعملون مثل هذه الاسماء للوقاية من الشر .

فقال السيد لخادمه اذهب بعيداً عني وارجع ثانية للبحث فان كلّاً من هذين الاسمين جالب للنحس وسوء الحظ . فعاد الخادم في ما بعد باسماء ذات فأل حسن حيث السفينة تدعى « جاد الكريم » وربّان السفينة يحمل اسماً سعيداً حسن الطالع وهو « امين صالح » !! والسكان اليمنيون مثل سكان اثينا قديما

يعتقدون نوعا ما بالخرافات والخزعبلات ، والا ما هو الفارق اذا كان القاربان في الحقيقة قاربا واحدا ، والربان اللاحق هو نفس الربان السابق ، ولكنه ظهر من جديد حاملا أسماء اخرى اكثر لمعانا وبريقا ! لا ريب انه سينال غرضه ويحقق القصد ويتعامل معه التاجر .

لقد أدرك الامام ان الاتراك يميلون الى التقهقر والانهزام ، فعمل الترتيبات لكي يخلفهم ، وتأهب للحلول محلهم . وابتدأ يقوم بحملة سياسية لبسط نفوذه ، وتوسيع سلطانه ، وذهب مبعوثوه ورسله (مقادمة) الى كل مكان يمهدون له الطريق « من بحث عن التفاح تحت الشجر تساقطت عليه » وقد تعرقلت جهود الامام بدرجة كبيرة عن طريق النشاط المضاد الذي كان يقوم به منافسه وخصمه السيد الادريسي في تهامة .

وتودد الينا مشايخ عديدون من رؤساء القبائل الذين يقطنون على الجانب الآخر من الحدود طالبين الدخول ضمن النفوذ الذي تكفَّل به ما اشتهر عنا من توزيع للاموال ، فقدمنا اليهم جوابنا الذي لا يتغير وهو اننا سوف لن نقوم بالكيد والدس ضد أصدقائنا الاتراك الطيبين . وبعض اولئك الزعماء خافوا من توسّع الامام ، واعترفوا بأن ريع الاموال والضرائب التي يطلبها اخف من تلك التي تُجبى عن طريق الاتراك ، ولكنهم يرحبون بحكم الاخيرين (الاتراك) لانهم يستطيعون في ظله ممارسة الابتزاز والنهب وهو الشيء الذي لن يستحسنه الامام العربي ، ولا يشجع عليه . والتسامح والسلوك الحسن والدماثة عند الاتراك أدت في اغلب الاحيان الى تبني سياسة عدم التدخل والتعرض Apolicy of laissez - faire .

خطب سيِّد مهمٌ من المراوعة بالقرب من الحديدة . وقد تحدث بمنطقه الفصيح عن قرب زوال الاتراك ، كما انتحب وبكى مرثيا خلع السلطان عبد الحميد الذي افتى عنه واصدر حكما بانه حاكم افضل من خلفه محمد الخامس . وهذا هو الرأي العام السائد في اليمن . وقد ابديت ملاحظة على الرقم خمسة الذي كان رقما مشتركا بين كل من سلطانه « محمد الخامس » وملكنا « جورج الخامس » ، قائلا : ان ذلك بالتأكيد فأل حسن من اجل

الرخاء والرفاهية للامتين . فضرب بدوره مثلا بالطغيان والظلم في الحكم الذي مارسه عزت باشا في اليمن ، واتهم ضباطه وموظفيه بشرب الخمر ثم قال : طالما ان الطوائف الاسلامية مختلفة فانه من المحتم على اليمن ان تنتقل الى ايدي الناس آخرين . وهؤلاء الناس « الآخرين » الذين قصدهم في حديثه هم « بريطانيا العظمى » .

وعندما اسرعت بالحديث عن كراهيتنا المعلنة والمتكررة للتوسع ونفورنا المعاد ذكره والذي عبرنا عنه كثيرا ومرارا أجاب : « اذا ألقيت قطعة من الحلوى في فمك لا يسعك الا أن تأكلها . وأنتم ايها الانجليز سوف تتغلبون على اليمن بالمال لا بالسلاح » . ثم تمتم بأسف وحزن قائلا : (اذا راح اليمن راح الاسلام) . ويمنه هنا في هذا التعبير تشمل الحجاز ايضا . وهذا هو اسلوب كل راسمي الخرائط الجغرافية من العرب .

وسيدي هذا المروعي حزن على مغازلة الادريسي للايطاليين وأبدى اسفه لذلك ولكنه اعتقد بأن الصداقة مرتبطة باستلام الذهب الايطالي ، وان الشغف بهم يكمن عند هذه الحدود .

وانا اتذكر الحديث الذي دار عن الادريسي في عام ١٩١٨ مع حاكم ارتريا فقد اخبرني بانهم اشتروا الادريسي وحده لارباك الاتراك في تلك الجهة فقط . وعندما تم السلام لم يبق لديهم اهتمام اضافي غير ما كان في ذلك المغامر الذي ادى دوره ، وقدم في خدمته عملا مفيدا في الوقت المناسب . وفي حديثه عن هذه الخدمة التي قدمها ذلك الحاكم العربي تحقيقا لاهدافهم قال ملاحظا : (اذا عندك ثقة بالغير فهذا حسن ، واذا لم تكن عندك ثقة فهذا أحسن) . Fidersi é bene ; non fidersi é meglio .

كان الادريسي رجلا طموحا محبا للشهرة والصيت العريض . وكان علمه من القماش ذي اللون الاخضر ، والكلمات المكتوبة عليه تروي القصة المنقولة عن القدماء وهي كلمة الاسلام (لا اله الا الله) والكلمات المضافة اليها هي (والادريسي ولي الله) .

لقد اخبرني أحد الزيود من اتباع الامام بأن العلاقات بين الامام والاتراك

اصبحت متوترة جدا ، ووصلت الى درجة القطيعة تقريبا . وكانت توجد بلا ريب بعض الاختلافات ، لان الامام مخوّل بموجب اتفاقية عام ١٩١١ بالحق في طلب المساعدة التركية ضد رجال القبائل المتمردين . ولكن الحرب مع ايطاليا والادريسي اذهلت الاتراك واربكتهم فكان من الصعب عليهم القيام بمساعدة الامام في هذا المجال . وكان الإمام يراقب الصراع الدائر بين الاتراك والادريسي المتمرد عليهم باهتمام كبير . وكان تقهقر الاتراك يلوح في الافق ظاهرا ، وانهزامهم يبدو وشيكا . ولذلك فان المسألة بالنسبة اليه مهمة جدا حيث يرى في قرارة نفسه وجوب التخلص من منافسيه واستئصال خصومه قبل خروج الاتراك .كما اعتقد انه اذا ما اختفى الاتراك في النهاية فان حكمه الممتد في اليمن سوف يأتي من بعدهم كما لو كان امرا طبيعيا لا بد منه ، وذلك شيء جميل وامر حسن . اما خطة سلوكه نحو الادريسي او اسلوب تفكيره نحوه فقد عبر عن ذلك كما يلي : « اذا كان الاتراك اقوياء بما فيه الكفاية للقضاء على الادريسي بدون عون او مساعدة فلا شأن لي « بالدوشة » والهرج والمرج والعراك الصاخب في هذه الملحمة واذا تعثروا فسوف نؤيد قضيتهم » .

كان العرب كما قلت يبحثون عن الهبات والمنح البريطانية وكان الاضطراب في كل مكان والقلق من كل جهة ، والتوقع المبهم والترقب الغامض لحدوث شيء ما لا يمكن تفسيره او تحديده ، ولكنه في طريق النشوء والارتقاء . فاذا اعطاهم الانجليز مرتبات مغرية فبها ونعمت ويكون الحال حسناً ، والانسجام تاماً . والا فانهم سوف يذهبون الى الرجل الأقوى . وكان الرأي المتفق عليه عندهم في صالح الامام . والصورة الذهنية العربية تميل الى صفه . لا سيما وانه قد صالح الاتراك ، ويخدم اغراض الاسلام وقضاياه في اليمن . وكل عربي يتوق قلبيا الى استقلاله بنفسه . وسوف احاول ان اشرح في فصل لاحق اننا لو اعفينا العرب من معاهدات الارتباط معنا فانهم سوف يتقدمون جميعا الى الامام عند انهيار الحكم التركي في البلاد وزواله منها .

في شهر اغسطس عام ١٩١٢ عين الفرنسيون أول نائب قنصل لهم في الحديدة . وبتصريح من الايطاليين اوصلت الى ذلك الميناء على سفينتنا المسيو

رو M. Roux وزوجته - وكلاهما شخصيتان جذابتان - ووجدت ان الايطاليين قد احدثوا اضرارا ضفيفة جدا في الحديدة ، وألحقوا قليلا من التلف في ضربهم المدينة بالمدافع . وان الحصار قد ضايق العرب ورأيت كثيرا من القوارب الراسية على الشاطىء مضمحلة من قلة الاستعمال . وكانت شكوى السكان الرئيسية عن الحرمان من الدخان .

* * *

قام سلطان لحج برحلة الى القاهرة حيث استقبله المصريون بالترحيب الكبير والحماسة العظيمة ، وقام بزيارة للخديوي . وعند عودته ارسل اليه الاتراك اوسمة من الطبقة المجيدية بواسطة عزت باشا الحاكم العام في صنعاء . وقد اثنى الخطاب التركي المرفق على خدمات السير احمد المخلصة ، وعلى غيرته وميوله المتحمسة نحو الخليفة . وقال الخطاب ان الاوسمة سوف تقوم بدور التعاويذ المقدسة وبأنها للبركة على صاحب السمو وعلى العائلة .

وفي رسالة الى السير احمد سلطان لحج بعث بها الامام طلب فيها منه القيام بإرسال قطع غيار للآلة التي تقوم بصك نقوده . وهذه « الضربخانة » أو الآلة التي تصك النقود المعدنية هي التي خلقت هيجانا ونوعا من الحماسة في تاريخ سابق . وليست هناك حاجة بعد الآن لافتعال ازمة او للقيام بتعاطي العمل في مثل هذه المسألة ولكن السير احمد سلطان لحج اعتقد بأن افعاله الطيبة وواجباته التي يقوم بها سوف تبنى بقوة الصداقة بينه وبن الامام وبيننا ايضا . وقد اخبرت السير احمد بانني كنت اظنه مفكرا في اداء المعروف واسداء الجميل للأتراك والتعامل معهم . غير انه نصحني بالاقلاع عن ذلك والكف عنه قائلا انه من الافضل مساعدة الامام الزيدي . وعندما عبرت له عن الدهشة من تحيزه الى المذهب الزيدي ومن تحزبه نحو الزيود - غير عالم كما هو حالي عند ذاك بالاتفاق السرّي الذي تم بينه وبين الامام - أجاب بأن شهادة لا اله الا الله وحدت كل المسلمين بقطع النظر عن المذهب وذكّرني بأن الكاثوليك والبروتستانت يؤمنون جميعا بسيدنا عيسى . والسير احمد لَقَّب الاتراك

بقوله انهم « دهريون » وقال « انا لا أصلي صلاة الجمعة للخليفة بل لنفسي » .

وفي شهر سبتمبر عام ١٩١٢ استحثيت الحكومة قائلا : « إن اللحظة قد حانت لتقوية رباط الصداقة بين الاتراك والامام . وقدمت اقتراحا بوجوب قيامي بالخدمة للاتراك وتقديم الجميل نحوهم تأمينا لتلك الغاية في اليمن ، لأنَّ عملا كهذا ليس المقصود منه عرقلة مجهود الايطاليين في الحرب الحاضرة بل الغرض الوحيد المنتظر منه هو منع تحطيم الاسلام كقوة سياسية لان اضعاف المسلمين معناه اضعاف الهيبة البريطانية في العالم الاسلامي . ولكن اقتراحي هذا احدث الذعر والدهشة !! »

وكان العالم العربي مجمعا على الاعتقاد بأننا قد شجعنا الادريسي وأيدناه في الارتداد الى ايطاليا . حتى أن رجلا كالسيد احمد بن قاسم بن عبد الله بن حميد الدين الضحياني المنافس الخطير للامام (يحيى) تكلم عنا في رسالة بعث بها الى شريف بيحان في القسم التابع لنا من اليمن . وقد اعتبرنا في رسالته هذه خونة كافرين استوطنا اليمن . وبأنه من المؤكد ان يوم الحشر آت ، والبعث والنشر قريب !. اما الامام يحيى نفسه فلم تكن عنده رغبة ظاهرة في معاداة بريطانيا والوقوف ضدها وجهاً لوجه . وهيامه الوحيد المسيطر عليه هو احياء الدين الاسلامي . وهذه الفكرة متسلطة عليه . وقد اعتقد الكثير من الناس بأن قلق الامام وانزعاجه ناتج عن الخوف من تغلب التعليم التركي ومن ثمة سيطرة الاتراك والتأثر بثقافتهم .

وتقدم الى الامام عدد كبير من الشوافع التابعين لنا والذين يستلمون منّا المرتبات والمعاشات وطلبوا منه ارشاداته وتوجيهاته في حل منازعاتهم الخاصة ، والبت في عداواتهم المستحكمة ، واتخاذ القرارات فيها . وعندما عاتبت واحدا منهم وحاولت ان اصرفهم عن مثل ذلك اعترض بسذاجة قائلا ان للرجل المريض الحق في أن يستشير الرجل الآخر غير المريض ، وان يطلب الرأي منه والحل الثاني عنده . وذهب امير الضالع الشاب الى ابعد من ذلك لدرجة انه دافع عن لم الشعث ، والاحتماء تحت علم الامام ، والتخلي عن الاخلاص

والـولاء لنـا . وهـذا عبـارة عن ميـل العـربي نحـو العـربي وتعبـير عنـه . ويبـدو ان الحرب الايطاليـة وأفعال الايـطاليين قـد تحدّت الـوجود الاسـلامي نفسه واستثارته للنزال .

وقـدحدث أن قـدَّم رسـول امامي الى الامـير نصـر مبلغـا نقـديـا جديـرا بـالاعتبار في مقـابل استخـدام جبل حـرير والاقـامة فيـه مـدة وقتيـة . ولكنـه خـوفا عـلى استقلالـه ومن أن يُصبح مهـددا على هـذا النمط بصـورة خـطيـرة أجـل الامير القبول بطريقة مهذبة .

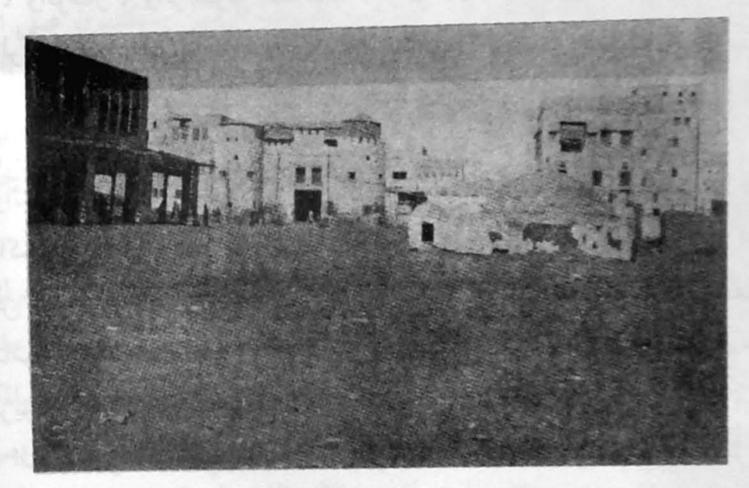
وكـان رجال القبـائل من يـافـع التـابعـين لنـا يتبـادلـون ايضـا الـرسـائـل مع الامـام . . وكان نفـوذه يـزداد ويكبـر . او كـما يقـول المثـل الـدارج عنـدهم (كـلام الامـام لا بذ منـه) . وقال واحـد من اشراف الجـوف الـذين يسكنـون عـلى الجانب الآخـر من الحدود انـه بينـما كـان الحـال منـذ وقت قـريب ان يقف التـركي الـواحد في وجـه اربعين عـربيـا ويصـدهم انعكس الامـر اليـوم وأصبـح الفـرد العـربي اكـثر من نـد ، ويقف في وجه اكـثر من اربعـين رجـلا من الاتـراك . وصـارت الحكـومة عبارة عن نقنقة وقهقهة فقط ! .

ان هـذا غلوّ سام . والمبـالغة يعتـادها السـاميون . ولكن القشـر المتحرك يـدل عـلى هبوب الـرياح ويبـرهن كيف يكون . وكـان هدف الامـام يحمي موضـوعا امـامه ونصب عينيـه دائـما . ونستـطيـع او لعله من الممكن ان نـدعـو ذلـك بـالمكيـدة والتـرقب لتحريـر كـل المقـاطعـات وضمهـا اليـه . وكـان يعلم انـه سـوف يصـل في يـوم من الايام الى غـرضه . وان بـاستـطاعتـه الانـتظار والتَّرقب . والمثـل الفـرنسي يقـول : (لا يكـون المثـل الأعلى حقيقـة سهـل المنـال ، بـل لا بـد من الجهـد والوقت) .

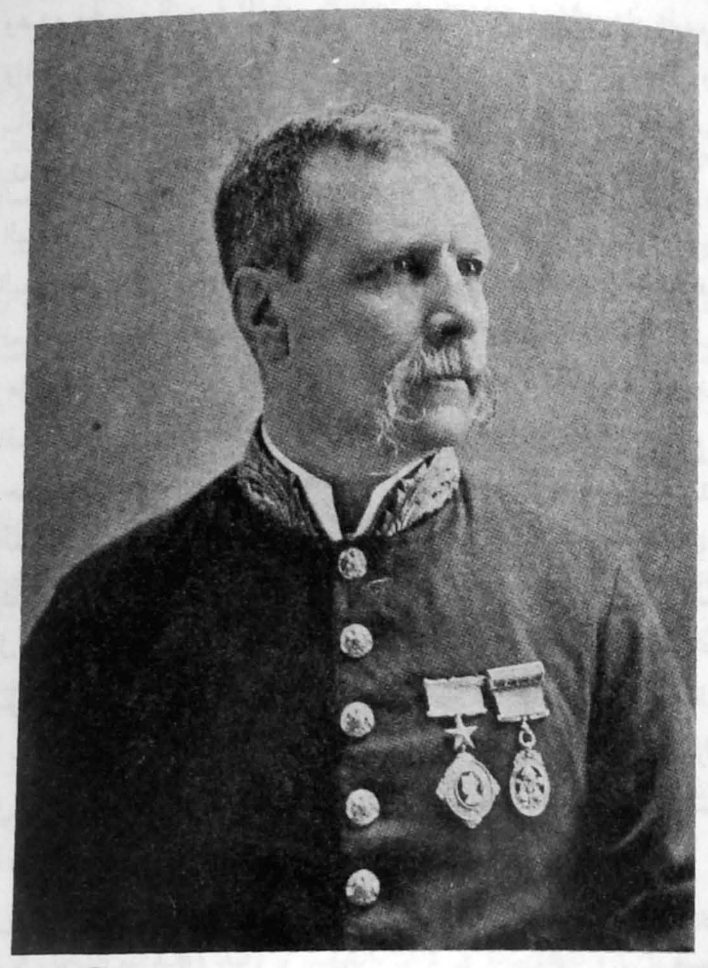
لقـد تكلمت سابقـا عن ايطاليـا كقوة حضـارية . وانـا اتذكـر مقالا كتب منـذ وقت طـويـل وفي حـوالى عـام ١٨٨٦ في صحيفـة « بـرمنجهـام ديـلي بـوست » وهـو الـوقت الذي حصـل فيه جـدال عريض ، ونقـاش حاد حـول مقتـل الكـونت بـورو Count Porro في هـرر بعـد ان ذهب الى هنـالـك واستمـر يعسل عـلى رأس بعثتـه ، ويتـوغل في تلك المنـاطق بالـرغم من تحذيـر الماجـور هونـتر Major Hunter المساعـد

الأول للمقيم البريطاني في عدن ، والذي كان قد رتب بمهارة فائقة لانسحاب الحامية المصرية من هرر بالارتباط مع ردمان باشا صاحب مصر . ولقد تحدث كاتب المقال عن التنافس والتسابق في ما بيننا وبين ايطاليا ، وبأنه حل محل التنافس مع فرنسا ، وان النفوذ الايطالي قد اصبح منتشراً في كل انحاء العالم ، وان الكونت بورو هاجم بدون تبصر السنيور هونتر مع انه الشخص الذي ظل مدة اربعة عشر عاما يجوب انحاء بلاد الصومال وكان على صلات قوية مع القبائل ، وله تأثير فعال بينهم . وهونتر جدير بأن يوصف بالرجل الذي بلغ الاربعين عاما وحصل على رصيد كبير من التجارب : « وان طلعته تنم عن الاتزان ، والوقار ، والرجولة الفاضلة . وهو مملوء بالبشاشة ، ودماثة الاخلاق ، وخفة الروح ، والطبائع الحسنة ولذلك منحته الحكومة الهندية صلاحية مطلقة (كذا) » . وقد كان هونتر يوصف عن جهل كما لو كان عدوا للتوسع الايطالي .

واثنت صحيفة « مورننج بوست » في عام ١٨٨٦ على ايطاليا فقالت : « لقد اكملت بعض المنجزات العظيمة في العصور الحديثة . وكسبت استقلالها رغما عن الصعوبات . كما حققت الاحلام القديمة للشعراء ، والفلاسفة . وقد عبر الناس المتمدينون عن الدهشة والاعجاب على الاعمال العظيمة التي تمت عن طريق الشجاعة التقليدية ، والتي عُرفت بها امبراطوريتها القديمة بفضل الحكمة النادرة لرجالها السياسيين ، والوطنية الصادقة الموجودة عند كل ابنائها » وهذا ثناء رفيع جاء في مكانه الصحيح وجدير بالاستحقاق . وعلقت صحيفة التايمز على موت بورو بقليل من السخرية قائلة : ان انجلترا لا تنخدع بالصفة العلمية البحتة التي كان اصباغها على البعثة بصورة رسمية ، ولا الأنباء التي اذيعت رسميا بأنها انما ذهبت لامور فنية . وذلك لان الصحافة الايطالية لم تغمط الحقيقة بل جاهرت بالامر الواقع وهو ان الغرض الحقيقي الثابت للبعثة كان تمهيد الطريق وتعبيدها لاحتلال ايطاليا لهرر . وألقت هذه الصحيفة المسؤولية كلية عن الكارثة على انجلترا ولخصت الحالة بالقول : « ان الربح الكبير الذي عقد الانجليز عليه الامل في التجارة مع هرر قد تلاشى في الهواء ، وتبخر بسبب مسألة بورو » .



الحديدة ـ الميناء العربي الرئيسي على البحر الأحمر



اللفتنانت كولونيل أم. سي. ليك . قائد اول فرقة مشاة يمنية

لقد مارست ايطاليا نشاطها في هذه الجهة . والمنافسة بين الامم الاوروبية تنذر بالسوء وعدم الخير بالنسبة للناس الذين يسلبونهم وينقضّون عليهم . وهؤلاء لا بد وانهم سوف يصبحون مستقلين أحراراً في تصريف شؤونهم ، وفي ادارة امورهم بأنفسهم ان عاجلا او آجلا . وفي تلك الحالة سوف يكونون مستعدين تماما لتقديم معروفهم واسداء جميلهم الى الجميع .

وهونتر الذي كان اسمه كلمة مألوفة في كل بيت من ارض الصومال ، ثم في عدن واليمن آمن بحق الناس في تلك الاقاليم في أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم . ودافع عن السياسة التي يؤمن بها . وفضّل القيام بمكافحة الاعمال الشريرة ومنها على جهة المثال تجارة العبيد الافريقيين . وهذا الامر كان يشغل بال اوروبا في ذلك الحين . وعن طريق فرض رقابة مشددة وحسنة استطاع ان يضرب حولهم حصارا شديدا ، واشرافاً أميناً . وكان يرغب في القيام بعقد المعاهدات ، والعمل على نشر الحضارة . ولكنه كان يرى ان حرية التجارة لا بد من أن تكون مكفولة اولا وقبل كل شيء . . . وذهب الى ابعد من ذلك والى درجة القول بوجوب قيامنا بالقضاء كلية على جميع وسائل الدناكلة ومحو اساليبهم من الوجود اذا أردنا أن نتدخل على الفور في تجارة الرقيق بالبر والبحر . وحث على وجوب استخدام سفننا في البحر للقبض على كل القوارب التي تُستخدم في مثل ذلك . وكتب يقول : « انني مستقل الرأي في الأمور السياسية والتبعيَّة و المركزية لا تفرض نفسها عليَّ ولا تُقيِّدني » .

وكان يرغب في مسايرة البلدان والاقاليم التابعة للتاج وارضاء الخواطر عن طريق توسيع النفوذ البريطاني والتجارة البريطانية دون الزيادة في مسؤولياتنا او مضاعفتها . كما كان يعمل بطريقة تبعث الثقة في عقول الوطنيين ونفوسهم بعدم عزمنا على امتلاك تلك الاقاليم ولكن بطريقة تبين لهم الفوائد والمنافع المترتبة على الاتحاد او التحالف مع بريطانيا . وقد اختلف مع غوردون Gordon عندما قال انها لن تكون لطمة كبيرة للنفوذ البريطاني اذا ما اصبحت ايطاليا فعلا القوة الوحيدة في شوا Schoa (بالحبشة) .

وكان بالاحرى مرتابا في نجاح الاساليب الفرنسية كما كان شائعا حينذاك . وقال ان الفرنسيين اذا مكثوا مائة سنة في خليج عدن فانه لن يكون لهم نفوذ فعلي على القبائل اكثر مما هو موجود لهم حينئذ ! .

وعندما توفي الكولونيل هونتر في عام ١٨٩٨ كتبت جريدة التايمز الهندية حول مماته في شهر اغسطس قائلة : « انه كان رجل المناقب الباهرة . وقد حقق الكثير من النجاح والشهرة والصيت الحسن بسبب لباقته ، وحصافته ، واتباعه للحلول السلمية والمصالحة . وكانت عقيدته عظيمة في الاخذ بأوجه الصلح والتراضي لتحقيق الحلول الموفقة . وكان محبوبا عند الصوماليين ومحترما . وعلى مدى البصر في الجانب الآخر المواجه للشاطىء الصومالي وقع تحت ادارته اولئك الناس الذين كانوا يرفعون اليه مشاكلهم ، ويستأنفون عنده منازعاتهم المدنية للفصل فيها او وقف الخصومات .

ان اسمه خالد . وسوف يظل ترديده مستمراً مع اولئك الخالدين امثال هينس ومعاونه الشهير كروتندن كمؤسسين للقوة البريطانية ، وللنفوذ البريطاني في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية » .

وقد تكلمت في مكان سابق من هذا الكتاب عن « هينس ورجاله » ودورهم في الشرق الاوسط . وسوف أضيف الى تلك الاسماء اللامعة اسم هونتر باعتباره رجل عدن والصومال .

ولإكمال هذا الفصل اقول : انه تم توقيع اتفاقية السلام بين ايطاليا وتركيا في شهر اكتوبر عام ١٩١٢ . وكانت توجد امور وأسباب حملتني على القيام بزيارة للحديدة في ذلك الشهر . وقد وجدت الناس هناك متعبين جدا من الحرب . وكان باستطاعتي اعطاؤهم الاخبار الاولى عن اتمام معاهدة السلام . وقيام الامن ، وانهاء الحرب . وقد استقبلني المتصرف رجب بك في دار الحكومة بترحيب كبير وحار . وكان الشعب اكثر تحمساً ناسباً هذه النهاية السعيدة (للعداوة والخصام) الى وساطة انجلترا وزاعما بأنها هي التي سعت بالتوفيق . وقد شربنا القهوة ، ومشروبات أخرى مختلفة وردية اللون . وقمنا ببعض الزيارات من باب المجاملة والتحية والتكريم كما تقبلنا مثل ذلك . وقد

اعتـذر البيك عن النقص الموجود في الشمبـانيا ، وتـأسف لانها غير مـوجـودة . ولـو كانت متوفرة لذية وحاضرة عنده لشربنا منها نخب صحتنا .

ومن الحـديدة قمت بإرسال بـرقية تهنئة الى عـزت بـاشـا في صنعـاء . وعنـد رجـوعي الى السفينـة بعثت منهـا الى المتصـرف صنــدوقـا من اجــود انـواع الخمــور (الجعــة) التي ادخلت السـرور الى قلبــه ، ودغـدغت حنكــه ، وداعبت شفتيه ، وقـد أعـاد اليّ هــذا المعـروف ولم ينس ذلــك الجميـل حيث رد عــلى تحيتي بـاللطف والمجـاملة بعـد ذلـك بـوقت قصــير ، وأرســل لي الى عــدن كمية ضخمــة من بن المخـا المصحـوب بخـطاب تقـديـر واعجـاب عـلى الشيء القليـل الـذي كنت مخـولا بتقديمه اليه . .

الفصل الثامن :

هبوط الأتراك وصعود العرب

قبل اعلان السلام بين ايطاليا وتركيا اندلعت الحرب الاولى البلقانية في الثلاثين من شهر سبتمبر عام ١٩١٢ . لذلك كان السلام مع ايطاليا محل ترحيب عند تركيا التي لم يكن في مقدورها ان تأخذ على عاتقها مواجهة القتال في عدة جبهات ، كما لم يكن من المحتمل تجريد حملات مضاعفة في جميع الميادين .

وقد كانت البلاد المسيحية في البلقان مسرورة بانتهاز فرصة عجز تركيا بعد أن صارت عرجاء كسيحة . وباتفاقية لندن في الثلاثين من شهر مايو عام ١٩١٣ تم التوقيع على معاهدة السلام وعلى تجريد تركيا من ممتلكاتها هناك وعلى طلوعها من تلك الاقاليم التابعة لها .

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر يونيو بدأت كلاب البلقان في العراك والانقضاض فوق الهيكل المتداعي . واخذت تنهش في الجثة المحطمة . وفي اليوم العاشر من شهر اغسطس عام ١٩١٣ أنْهَت الصراع معاهدة بوخارست .

ويتعجب المرء حينما ينظر كيف كان اولئك المسيحيون يحب بعضهم البعض الآخر ! ففي شهر مارس عام ١٩١٣ وقبل معاهدة لندن على وجه التحديد كانت المانيا قد قررت ان تمارس علاقتها الطيبة مع تركيا ، وان تتعامل معها من اجل شراء ميناء المخا كمحطة للفحم . وكان الدخل التركي قد اصبح منخفضا ، والايراد قليلا بالنسبة للنفقات . ومتصرف تعز المعزول الذي





السيد احمد فضل سلطان لحج .

من المحتمل ان يكون قد اخذ ثأره بافشاء السرّ هو الذي اخبرنا بهذه المعلومات . ولعله اخطأ انتقام عنها من باب الانتقام .

ومن ناحية اخرى قد تكون الرغبة في الثار والانتقام حافزا على المبالغة ، ولعلها تدفع الى المغالاة احياناً . وعلى أية حال فان تلك الرواية كانت منتشرة في كل مكان .

وقد اثنت الصحف الهندية على انجلترا التي لم تنضم الى القوى المتحالفة على تحطيم تركيا . وكان من المعتقد هناك انها سوف لن تفعل مثل ذلك ايضا في المستقبل .

وجريدة السند وهي تناقش اجتماعات الهنود وتجمعاتهم حول هذا الموضوع ابدت ملاحظاتها قائلة : ان الأمر سيكون صعبا وشاقا اذا اعترضت بريطانيا على المظاهرات التي يقوم بها رعاياها التابعون للتاج تأييدا لتركيا ، او اذا منعتهم من التعبير عن مشاعرهم نحو الاتراك او لمصلحتهم ، بينما الدول الاخرى المحايدة في اوروبا تسمح بالمظاهرات التي تعطف على البلقان ان لم تكن تشجع عليها .

واخذت صحيفة اسبوعية انجليزية بوجهة نظر اخرى قائلة : ان للاتراك شهرة بين المسلمين اكثر من غيرهم بكثير . والقوى المحمدية في العالم تعرفهم وتعطف عليهم بدون وسائل وبلا وسائط لدرجة ان انجلترا اصبحت مُطالبة بالتخلي عن واجباتها كرسول للحضارة والمدنية في احدى القارات خوفا من المشاعر المفقودة ، وخشية من الاحاسيس غير الموجودة عند سكان قارة اخرى . واضافت الصحيفة قائلة :

« انما تكون انجلترا عظيمة طبقا لمقدار ما تقوم به من عمل باعتبارها « انجلترا » لا باعتبار ما تحمله العبارة التقليدية الجوفاء والخالية من الروح نوعاً ما وهي (الإمبراطورية البريطانية) » .

وما اعجب هذا البيان الرنان ، والعرض الفصيح والمباهاة بهذه العبارة « انجلترا الصغرى » !! وانا استعيد الى الذاكرة ما جرى لي مع احد الضباط

في عدن ، فقد اقترحت عليه ان نشرب نخب « الملك ـ الامبراطور » وعندما سمع مني ذلك شرب نخب الملك فقط قائلا انه يخدم بريطانيا ويعمل في خدمة انجلترا وكأنه لا يعترف بشيء اسمه الامبراطور !! ثم تابعت الصحيفة المتحدثة حوارها قائلة : اذا رضي المسلمون بالحكم البريطاني في مصر والهند ، وقبلوا الحكم الفرنسي في الجزائر والمغرب ، فلماذا نفترض بأنهم اعداء للحكم المسيحي في مقدونيا ؟ .

وهذا الحوار ينقصه الاثبات . فالمسلمون تقبّلوا حكمنا بمفرده بسبب انه حكم عادل وطالما بقي كذلك . وتركيا لها كل الحق للشك في حكم المسيحيين او النصارى في مقدونيا . والوطنيون في مصر ايضا لهم اكثر من فكرة ومن رأي في الوقت الراهن حول موضوع تقرير المصير . وينفرون من اي حكم اجنبي مهما كان عادلا ومستقيما . والموضوع ليس موضوع من يكون حكمه الافضل ولكن الأمر يتعلق في الحكم الذي يكون مقبولا عند الناس .

ان سلطاننا السير احمد فضل صاحب لحج لم تكن تساوره الشكوك حول الموضوع . وقد قرأ في الصحف القاهرية عن حملة البلقان ، واحتدام المعركة هناك ، كما عبر عن الفرح عندما سمع بأن سفنا حربية بريطانية وفرنسية موجودة في سالونيكا . ولكنه كان قلقا . وابدى اهتماما بمعرفة الجانب الذي كانت تلك الحكومات منحازة اليه ثم قال اذا كانوا مع الاتراك فان الله عند ذلك سوف يبارك لهم وبهم !

ويلاحظ المرء ان هذه العاطفة نحو الاتراك تأتي من الشخص الذي كان قد اسند ظهر الامام العربي ضد الاتراك وآزره . ولكنه الشخص الذي يقطر قلبه دماً عندما يرى تداعي تركيا امام الكفار لأن السير احمد كان واحداً من المؤمنين . ولم يكن متأكداً من الدور الذي تلعبه المانيا ولذلك استنزل عليها لعنة الله قائلا : « قاتلها الله ، وخذل قوتها وشتت شملها » ! .

وقد اعتقد السير احمد باحتمال سقوط اسطمبول . وكتب بحماس وتهور واندفاع يقول : « ان انجلترا اكثر من غيرها استحقاقا بامتلاك عرش الخليفة الاسلامي ، وافضل كثيرا من تخلي تركيا عن ممتلكاتها والأراضي التابعة لها

للموسكوف (روسيا) او لالمانيا او النمسا » .

ان الحرب الايطالية - التركية قد تركت الأتراك في اليمن اكثر لينا ورقة . واصبحوا متسامحين جدا . ومع ان امام صنعاء يحيى بن محمد كان قد دفن النفس و نشطة بعد سنين من الكفاح ضد الاتراك فانه اثناء الصراع الاخير مع ايطاليا قد تربّع على السور بينما كان يراهن على حقوقه التي يطالب بها في اليمن متعهدا بتحقيقها . وهدفه هو ذلك الهدف الذي كان يسعى اليه وريث البيت الحجازي اثناء الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) . والاختلاف الواقع بين الاثنين في ذلك ان امام صنعاء رسم خططه للحصول على المقاطعات التي كانت قبل الان خاضعة لأسلافه في السنين الماضية ، ومطالبه لا تتعدى ذلك . بينما الرجل الآخر يلعب لعبة مبعثها الانانية والخداع للسيطرة على املاك جيرانه اذ كان يلعب باداة الغير .

كان الاضطراب عاما والشغب منتشرا بين القبائل التي تحصل منّا على مرتبات . كما كان يوجد ميل الى الانحياز نحو امام صنعاء والتحزّب معه لان قوته كانت في نمو وازدياد بمقدار ما كانت قوة الاتراك تميل الى الانحدار نحو الضعف والتقهقر . وقد شعر الشيخ الصقلدي الذي تقع قبيلته الى الشمال الشرقي من الضالع بضغط الحرب ، وطلب منا مساعدة مالية . وهذا الشيخ نفسه شافعي قوي ومخلص ، فلو ترددنا معه واخّرنا طلبه فانه يعرف الامام الذي يعرف بدوره اجداده ، وسوف يتحول الشيخ اليه على الفور . وامير الضالع وهو يتنبأ بتوسّع الامام في المقاطعات التي كانت ذات يوم امامية طلب ايضا حمايتنا له ، وباطلاق تسعة مدافع تحية له لتقوية ارتباطه بنا . واخبرني سلطان لحج بانه يُقدّر وجودي في عاصمته . وسوف يكرّم حضوري اليها كمعتمد سياسي .

ولقد تحول الكثيرون من مقاطعة يافع (محمية بريطانية) الى الامام . وكتب اليه سلطانهم الاكثر نفوذاً وهو صالح بن عمر يخبره بأن الانجليز يستميلون العرب بالذهب . وان اولئك لا يستطيعون مقاومة الرشوة . وفي معرض حديثه تقدم بعرض يطلب فيه القيام بثورة لمصلحة الامام .

وطلبت منا قبائل الشعار العودة ثانية الى الضالع . والسيد المحترم محمد ابن طه من جبل جحاف في هذا الاقليم دافع عن قيام معاهدة بيننا وبين الأتراك كأحسن حل للمشكلة . وكان قد وصل مبعوثو الامام الى تلك الهضبة ، وقدموا انذارا للسيد الذي شعر بالخطر وأدركه .

والشيخ النمراني شيخ مراد على الجانب الاخر من حدودنا الشمالية - الشرقية كانت لديه مخاوف من الامام الذي كان قد كتب عن طريق هذا الشيخ الى شريف بيحان (محمية بريطانية) مقدما له راتبا اكبر من الراتب الذي يحصل عليه منا ويتقاضاه من عدن . كما عرض عليه ايضا هبة ، وهي عبارة عن منحه قطعة من الأرض في خولان . والشيخ حسين بن ناجي حاكم مدينة صرواح الواقعة الى الشرق من خولان طلب ان يصبح واحدا من الذين يتقاضون المرتبات منا لانه خاف ايضا من تقدم الامام الزيدي .

لقد ذكرت في فصل سابق الشريف احمد صاحب بيحان ذلك الصديق الودود ، والرجل المسن الوقور باعتباره شخصا معتقدا بنا ومسلما امره الينا ، وقابلا للاحتماء تحت علمنا .

وكان المشايخ والسلاطين الذين يحصلون منا على المرتبات يملكون اختاما زوّدناهم بها . وبتلك الاختام يبصمون على رسائل التوصية والاعتماد التي يعطونها لرجال قبائلهم الذين يأتون لمقابلة المقيم البريطاني في عدن او يحضرون لرؤيته وزيارته . وقد حدث ان الشريف احمد العجوز رهن ختمه من جار محتاج لمدة من الزمن في مقابل مبلغ من المال مقداره الف دولار (ريال) ! وقد لاحظت الزيادة الكبيرة في عدد اولئك الذين وصلوا عدن ، ونزلوا من المرتفعات النائية من اجل الحصول على هباتنا ومساعدتنا المالية !!! وفي احدى الزيارات اخبرني الشريف بصراحة ، وبدون خجل عن هذه الصفقة ، وطلب مني عدم اعتماد الخطابات التي تحمل ختمه القديم او تكريمها بعد الآن لأن العقد قد انتهى وقد صنع لنفسه محليا ختما آخر وهو الذي يجب علينا ان نعترف به ونقبله في المستقبل ! وكان اليهود يصنعون الاختام ويتاجرون بها . وقد كان الشريف يرفع علمنا في عاصمته النقوب . وقام الشيخ الزيدي

صاحب مأرب - « سيدة المدن ودرة في جبين الدهر ، وتاج على هام الزمان » - بإخبار الامام وابلاغه الامر فأصدر تفويضا الى قواته بالزحف والتقدم الى بيحان . وقد وصلت الى الاعروش التي تبعد مسافة ثلاثة ايام عن العاصمة . والمرء يعجب هذا الحادث الْجَلَلِ لأن النار التي اندلعت كانت قنيلة !

وقد تسلم السلطان العوذلي (تحت الحماية البريطانية) ويدعى قاسم بن احمد رسالته من السيد احمد بن ناصر الرونل احد مقادمة الامام ونوابه على خولان يخبره فيها باستبدال حكم الأتراك بحكم الامام ، وحلول الاخير محل الاولين ، ويشرح الفائدة المرجوة والتي ستعود بالنفع على الأمة العربية طبقا لمشيئتها ، وان الإمام سوف يرسل قوة الى بلاده والى البيضا - التي تُلَقَّبُ بطريقة فنية بني ارض - ، من اجل تهدئة تلك المقاطعات ، وازالة الطغيان ، ومحو الفساد . ومما لا شك فيه ان الامام قد فهم تماما المعنى الحقيقي لعبارة « التوغل السلمي » !.

وقاضي بيحان المتعلم كتب بارتعاش وفزع الى سلطاننا الفضلي يخبره عن نائب الامام ثم قال انه لا يرغب في نزول الجنود الزيود عن طريق رداع بالقرب منه . ولكنه اضاف مؤثرا مصلحة الغير حيث قال : ان من الافضل لأولئك وجوب السفر عن طريق الضالع الى لحج واردف قائلا : « اذا وصلت القوات ونزلت بالفعل من المرتفعات فان من واجبي مرافقتها . ولكن ارجو الله وادعوه ان يتجنبوا المناطق الشافعية » .

اما نائب الامام فقد اختار لنفسه لقب « الواثق بالله الجليل » احمد الخ . وكتب يقول انه من الواجب على كل مسلم قبول سيِّده الذي ليس له هدف آخر غير توحيد العقيدة الاسلامية ، والدفاع عن اليمن ضد اعداء الدين ، واقامة الشريعة المحمدية .

والرونل اسم مستعار اطلقه الكاتب على نفسه . ولكنه حجب قليلا الاسم الحقيقي للشخص الزيدي صاحب النفوذ المؤثر وهو ناصر المقدشي من بلاد عنس .

وقد كانت الرسائل تصل الينا في عدن يوميا من الحدود ومن خلف الحدود تطالب بتدخلنا . ولم يكن التدخل قاعدة نسير عليها . ولم يقبل حكمنا بأن يكون متدخلا . وقد تم استدعاؤنا وانسحابنا من المناطق التي بداخل البلاد في عام ١٩٠٧ لأنه ـ والحق يقال ـ كان يوجد تداخل زائد وتحرش مفرط في شؤون العرب .

ولا جدال في اننا لو بقينا في الضالع الى ما بعد ذلك التاريخ لحصل التدخل بدون شك ولا ريب . وكان مجرد حضورنا هناك ـ لفترة محدودة ـ عبارة عن منفعة لجيوب العرب . وقد افادهم ذلك ماديا . كما قدَّم لهم دليلا ظاهرا وعمليا عن العدل البريطاني ، والنزاهة والاستقامة عند البريطانيين .

وهؤلاء العرب اعتقدوا في عام ١٩١٢ ـ ١٩١٣ بانهم لا يستطيعون مقاومة نفوذ الامام الزيدي . وكانوا في رعب منه . وكانت قواته الزيدية مثل الجراد . وكانوا يقولون ، (اذا خاطبنا الإمام وتحدث الينا لا نستطيع معارضته) .

لماذا يريدون البقاء معنا اذن ؟ لان الذهب البريطاني اجتذبهم . ولعدم وجود ضرائب . والضرائب تكون مطلوبة تبعا لشخص الحاكم وبسببه . وكان حاكمهم المقبل والمنتظر امام صنعاء الذي لا توجد فكرة لمقاومته او لمقاومة اتساع نفوذه او لمنع امتداد المنطقة التي يسيطر عليها هذا الامام حتى لو بقينا في المناطق الداخلية المرتفعة من البلاد . كما انه لا يستطيع قطعيا التوسع طالما ظل الاتراك موجودين هناك وكانوا اقوياء .

ومهما كان فان الحروب كانت تُقوِّض القوة العثمانية تدريجيا ، وتدمرها شيئاً فشيئاً . وقد كان حضورنا الى الضالع مثقفا فقط ، وتهذيبيا صرفا . وليس عندي اعتراض على اللسان البريطاني الدارج الذي يحتويه هذا التعبير (عش واترك غيرك يعيش Live and let live) حيث يقرر قاعدة تشجيع الوطنيين من ابناء البلاد على التوسع والامتداد والنمو .

وكان الامام « مثل راعي بعير بدون ان يكون له بعير » كما يقولون . فهل نستطيع مماحكة جشعه الجائر او نكابر على ذلك ؟ وكان شعاره الزيادة في التطرف والافراط الفعلي في التصرف مثل الذي كان عند تشارلز الخامس .

ولم يعترف الأتراك اثناء اقامتهم باليمن بنفوذ اي عربي آخر مثل اعترافهم بالنفوذ

الذي كان للامام يحيى ، وبتلك السطوة التي تمت له . وقد نظروا شزراً الى مطالب الادريسي الحديث العهد جدا .

وبينما اعترف عزت باشا الحاكم العام في صنعاء بثبوت النسب الشريف للامام يحيى وانحداره من السلالة الهاشمية وان ذلك مبني على ادلة تاريخية وحجج قوية اعتبر الشخص الآخر (الادريسي) حديث النعمة انتصب فجأة في الطريقة المهدية . ولو حصل الاعتراف بدعواه ومطالبه لاستدعى الحال قيام متظاهرين ودعاة آخرين ينتحلون لانفسهم صفات وألقابا . وقد كان الاتراك على حق في الاعتراف ببسالة الامام لان حوالى ستين الفا من الجنود قد تم تدريبهم وانتدابهم لقهره واخضاعه ولكنهم لم يكسبوا النصر عليه الى ان برز الذهب العثماني في النهاية عدا ونقدا . وهذا هو الذي لعب الدور ، بالاضافة الى الحرب التي اعلنتها ايطاليا ضد الاسلام .

* * *

وفي عام ١٩١٣ بعث اليَّ شيخ الحجرية القوي احمد نعمان رسولا . وقد اخبرني هذا المبعوث بان اليمن ستقع بيد بريطانيا كما يقول بذلك الحساب الذي توصل اليه منجموهم ، والتخمين الذي اهتدى اليه عرّافوهم « الحُسَّاب » . وقد اقترحت عليه بطريقة المباسطة ، ومن باب المزاح والتنكيت مجيء الالمان او الفرنسيين ، او الايطاليين . ولكنه حطَّ من قيمة هؤلاء وعزف عن ترشيحهم . واشفع كلامه باليمين . وتنبأ بقيام حرب عالمية يشترك فيها الاتراك والامام والادريسي . وان اهل عدن (الانجليز) سوف يضطلعون بكل الاقليم ويديرون شؤونه بالسياسة وبدون قوة - بلا طعن ولا ضرب - وانهم سوف يحتلون صنعاء .

ولقد حدثت الحرب كما تكهن العرّاف . ولكن معاذ الله ان نكون قد اضفنا الينا ولو شبرا واحدا من التراب العربي باليمن غير الذي تحت اشرافنا ! وشيخ الحجرية هو الذي كان قد عبَّر في ايام هينس عن الحب لبريطانيا وجاهر بالميل اليها من اجل مقاومة ضغط الجنود المصريين . ولو تبنينا في تلك الايام سياسة اكثر تسامحا ولينا وسخاء تجاه العرب بدلا من رفض عروضهم الودية واجتناب السير فيها لكانت اليمن اليوم بكاملها ضمن مناطق النفوذ البريطاني ولنفذت تدريجياً الينا من خلال تأثيره . ولقد رفضنا فرصاً لا تُقدر بثمن

ورفسنا بأرجلنا مناسبات لا نهاية لها .

كتب الامام الى سلطان لحج شاكياً بمرارة من هجوم ايطاليا على الاسلام، وغزوها لبلاد المسلمين وتساءل قائلا : هل تأمل ان تكسب لنفسها النفوذ والسيطرة بعد ان جعلت من الادريسي طعماً وذريعة . وهو الذي محا الله اسمه من سجل المؤمنين ؟ ثم اردف قائلا : ان على ايطاليا كدولة مصلحة وناهضة ان تكف عن تشجيع الادريسي مزة واحدة لا سيما وانه (اي الامام) قد اتفق مع الحكومة العليَّة بعد حروب طويلة واذا لم تكف (ايطاليا) بعد الآن ولم توقف الحرب الجديدة فانها سترى جميع المسلمين قاطبة على اختلاف جنسياتهم يهبّون متحدين لحماية الكعبة المشرفة والدفاع عنها . وان على ايطاليا ان تعرف جيدا بأن جارتها الحكومة البريطانية لا تستطيع بمهارتها السكوت عليها ولا السماح لها بالإضرار في تجارة بريطانيا او بمصالحها ونفوذها . . . ثم اضاف قائلا : والحقيقة انه سوف يأتي اليوم الذي تأخذ فيه بريطانيا حذرها من النَّار المتأججة تحت الرماد ، ومن الحقيقة التي يعطي دخانها دليلا على ما تخفيه . ولا جرم ان انجلترا سوف تكف عند ذلك عن مداجاة ايطاليا ، وتقلع عن التملق لها ، وتصحو للدفاع عن مصالحها الخاصة بها في البر والبحر . واذا ما تابعت ايطاليا والادريسي السير في طريقهما العمياء ، وامتدت ألسنة الحرب ولهيبها الى اليمن السعيدة المباركة فان الامام يدعو الله ويصلي له بأن يلهم بريطانيا مساعدة المؤمنين ، وتدمير الطغاة . ثم قال:ومهما كان الأمر فقد فضّلنا دور المتفرِّج السلبي لان الفرصة الميتة لا يوجد فيها بعث او نشور .

في عام ١٩١٣ ازيلت بعض اعمدة الحدود التي كانت قد وضعت كعلامة للحد الانجليزي ـ التركي . وكان العرب يحرضوننا على حماية حقوقنا . ويعد معيبا عند رجال القبائل اهانة الحكومة . وهم يعترفون الى الآن بان الحكومات تتحرك بثبات ، وتمشي بترو وثقة ، ولو كان ذلك ببطء .

والمثل يقول : « جمل الدولة يزحّف ضبي القبيلي » . اي ان بعير الدولة البطيء ينهك غزال رجل القبيلة السريع الرشيق .

وذهبت في عام ١٩١٣ الى الحدود ، وكان الترحيب بي في كل مكان ، وان غياب ست سنين لم يمح الذكريات .

وقد حدث ان تخطى تركي معروف حدوده ، وتجاوز حدود السلطان الحوشبي الذي يخضع لحمايتنا واعتدى على ممتلكاته .وتمت الترتيبات لذهابي في ما بعد الى هنالك في وقت لاحق ، ومقـابلة الممثـل التـركي عـلى تلك الحـدود . ولكن الحـرب العـظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) تدخلت ولم يتم عمل اي شيء .

وقد كتبت جريدة الاهرام القاهرية الصادرة في اليوم الرابع عشر من شهر يونيو عام ١٩١٣ حديثاً مطولا فيه تهجم وشقشقة لسان حول زيارتي تلك . وقيل بانني ذهبت الى هنالك مع خمسمائة من الجنود ، وتصرفت بطريقة متغطرسة وبعصبية .

ثم قالت انني قد وعدت قائمقام القماعرة بمبلغ من المال اذا رضي بمطالبي ، وعندما فشلت في محاولاتي باستمالة هذا الموظف توجهت بجيشي الى اقليم الحجرية حيث نزلت ضيفاً على الشيخ الزريقة الذي بالغ في اكرامي واستضافني ببذخ ، ووعدته براتب دوري من الحكومة البريطانية . واعطيته بالفعل مدفعا ومائة بندقية . وقدمت هدايا اخرى مختلفة لافراد عائلة الزريقة رشوة لهم على الانضمام الى جانبنا ! .

ومن المحتمل ان يكون الرجل الذي اختلق هذه القصص الخيالية رجلاً معروفاً جيداً ، وهو الحاج علي الكمراني الذي عاش عيشة شاقة في قريته بالقرانيم . وقد زارني في معسكري بالكفوف على الحدود الحوشبية - التركية في نفس المكان الـذي ازيلت منه الاعمدة التي كانت قد وضعت بين الحدود . وهذا الحاج نفسه حدثت له معي خلافات في تاريخ مبكر عندما اعترضت على تدخله في شؤون غيره على الحدود . والمقال الذي اقتبسته واستشهدت به مملوء بالنفاق المثير الفظ المعهود عن الحاج والمشهود في مناقبه .

وقد واصل الكاتب شرح الزيارة التي قام بها في نفس الوقت المقيم البريطاني في عدن مُسْتَصْحِباً بمعيته سلطان لحج الى ميناء المخا حيث جرى استطلاع كامل عن فائدة هذا الميناء وأهميته من الناحية السياسية . وقد وصف الكاتب المخا وكأنها الميناء الأول والرئيسي لليمن قبل احتلال عدن ، واستمر في حديثه يقول إن سلطان لحج وهو يشاهد المخا قد أُصيب بصدمة من رؤية انقراض عظمتها السابقة . وانه ابدى ملاحظاته على ذلك تعبيراً عن حزنه العميق على غروب شمسها بعد الاحتلال البريطاني لميناء عدن وقال في ملاحظاته : « ما هذا ! . هل هذه هي المخا - هامة اليمن وشريانه ! . أين ذهبت ؟ . . . أين رخاؤها وازدهارها التجاري ؟ . . أين سكانها وصناعتها ؟. . لقد قتلت فيها الحياة ولم

يبق منها غير الهيكل العظمي » ! .

والسير احمد سلطان لحج كما يقول باكون Bacon عنده « حكمة التماسيح التي تذرف الدمع عندما تشتهي اكل الفريسة » . او كما يقول القرآن ﴿ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴾ .

انه يعتقد في قرارة نفسه بأن خراب المخا هو القوة الدافعة الضرورية لتقدم عدن وازدهارها . وبالتالي قد جلب ـ ذلك الخراب للمخا ـ الرخاء الى لحج والى جميع الذين بجوار لحج . وهو وحده الذي مدّهم بالوسائل الضرورية وغير الضرورية .

وقد عقبت الاهرام على ما نشرته على لسان مراسلها كما يلي :

« هل الأستانة (اسطمبول) على علم بما قد حدث وما يزال يحدث ؟ وهل لم تعد تتذكر بان اليمن بلد لا مثيل له على وجه الأرض ؟ وهل لا زالت على علم باعتدال مناخها ، وعذوبة مائها ، وخصوبة تربتها ، وبانها البلادالتي يتم حصد المحاصيل الزراعية فيها ثلاث او اربع مرات في العام ، وان سكانها على درجة كبيرة من الذكاء ، وبان فطنة بنيها نادرة ، وعلى الرغم من انهم بدو فان القليل منهم اميون ؟ وكما ان المناجم في اليمن تكثر بغزارة ، ومصادر الثروة فيها شهيرة ولو ان السمعة عن حاصلاتها رديئة . ولعل اليمن توحي الى القارىء عنها وكأنها بلاد الهمج (البربر) ولكن العيوب والاخطاء ليست في الأرض ، ولا في مناخها ولا في سكانها . ولقد استولينا (كذا) على هذه البلاد مدة نصف قرن من الزمان ، والى الآن وباستثناء الموظفين الأوائل لم يقم كل من سنان باشا وحسين حلمي وكامل بك بواجبه ولم يعط اي منهم اهتماما لهذه البلاد ، وجميعهم اعتبروا بان وظيفتهم في اليمن عبارة عن مكان للنفي او كما لو كانت هذه البلاد قطعة من الجحيم بينما هي جنة الارض ، وكان اهتمامهم الوحيد منصباً على ظلم السكان ، والتجبر عليهم ، وتجريدهم من اموالهم ، ونهب ثرواتهم . ولو ان الله اراد لوالدنا (ابونا) آدم ان يزور هذه الأرض من جديد ، ويطوف فيها الى اقصى حدودها فانه سوف لن يجد مقاطعة او اقليما يرجع الى عهده مثل هذه البلاد اليمنية » ! . وهلمَّ جرّا .

ولا ريب انه يوجد اساس من الحقيقة في الاتهامات الموجهة الى تركيا لانها تعتبر قوة عسكرية ، ولديها كفاءة حربية ، ولكن عندها اهتمام قليل بالادارة السياسية ، وعبقريتها اقل في الخدمة المدنية .

ولهذا السبب فاتحت الحكومة The Home Government في شهر مايو عام ١٩١٤ واقترحت وجوب قيامنا بعمل ما لتقوية تركيا ، وتعزيزها في شبه الجزيرة العربية وعلى الأخص في اليمن حيث كنت مهتما بها اكثر . وكانت الفكرة تتضمَّن المساعدة على انهاء الخصومات بين الاتراك والادريسي ، والمحافظة على المعاهدة المعقودة بين الامام والاتراك ، والجمع بين الاثنين المتنافسين ، والعربيين المتخاصمين ، وهما الامام والادريسي معا ، وتقريب وجهات النظر بينهما . وعند ذلك نستطيع اقناع العالم الاسلامي قاطبة بأننا من الاصدقاء المخلصين للمسلمين . وقد اعتقدت بان الاتراك اذا خرجوا من اليمن فاننا سوف نُجابَه بمجموعات وفئات من العرب المتعصبين . وقد تكون النتيجة الخروج التدريجي علينا من اولئك الخاضعين لحمايتنا والذين يتقاضون منا مرتبات والانضمام الى حكومة عربية تخاصمنا وتناصبنا العداء في عدن او يكوّنون في ما بينهم دولة عربية تهدد مصالحنا هناك .

ولقد لاقت خطتي هذه قبولا واستحسانا من سلطاتنا العليا المسؤولة في ارض الوطن ، وزكَّت نفسها في بلادي غير ان الوقت كان مشؤوماً . ومهما كان الأمر فانا باعتباري رائداً في فرقة يعمل من اجل الائتلاف الثلاثي الموجود في اليمن والمكوَّن من الاتراك والعرب ومنا الانجليز ، وثم بحكم وجودنا جميعاً في تلك البقعة ، تقدمت الى السفارة التركية في لندن عارضاً خدماتي لتركيا في تلك البلاد . وكان السفير اكثر فرحاً واستبشاراً . وقد اعطاني توصية خطية ، وتقدمة مكتوبة موجهة الى مركز الادارة في صنعاء . وكان يوجد عيب واحد في تلك الرسالة اكتشفته في ما بعد بعدة شهور ، وهو وصفي فيها كمسلم وكشخص نافع ومفيد وبصورة خاصة لاهداف الاتراك في اليمن !.

فهل كان هذا تصور خاطىء في مذهبي ، ووهم مغلوط في عقيدتي ام انه ابرة في ذنب العقرب ؟ ولقد كان الخطاب مكتوبا باللغة التركية ، وكان الظرف مختوما . وكل الذي رغب السفير توفيق باشا ان يقوله لي هذه العبارة : « انه خطاب توصية عظيم » . ولقد وضعت الحرب عقبة في طريقي . وبعد مرور شهر على دخول تركيا الى المسرح فتحت الاختام وقرأت محتويات الرسالة وحقا ما يقوله القرآن ﴿ ان بعض الظن اثم ﴾ . وانا اعفي التركي من الشك ، واعتبره بريئاً من الشبهة فلقد عناني بالفعل في ما قصد .

كان رجال قبائل الصبيحي في الشمال الغربي من عدن يقاتلون جيرانهم وزملاءهم

عبر خط الحدود . وقام سلطان لحج العبدلي بتدشين خط اتصال مباشر مع العرب الخاضعين للادارة التركية تأميناً للهدوء والاستقرار . وكان خط الحدود مسرحاً لكل الاغراض الفعلية ، ورواية لكل الاعمال والافعال الحقيقية . ونحن انفسنا كنا معتادين على الاتصال المباشر مع الموظفين الاتراك وعلى التعامل معهم ولا ريب ان في هذا الاتصال السريع المباشر اقتصاداً في الوقت . والاهم من ذلك هو انه يقدم الدليل العملي للاتراك على اننا محلياً في تلك البقعة نتأثر بسرعة وبحساسية في كل ما يتعلق بمصالحنا . وكان اولئك المختصون بالسلطة في هذا الصدد يوجهون الينا التهم والانتقادات . وكان يُظن بانه من الاسهل ارسال المواضيع والمسائل المتعلقة مع الاتراك باليمن الى سفيرنا في اسطمبول (استانبول) في حين ان المزايا من اتصالنا المباشر كبيرة والعلاقات الودية المتبادلة مباشرة بين الاتراك وبيننا لم تكن تكلف شيئاً .

لقد نسب بعض العرب الحقد المستحكم بين الامام والادريسي ، والضغينة التي كانت قائمة بينهما الى الدسائس البريطانية . وقالوا ان سياسة حكومتنا تعمل على نصب واحد وخفض آخر ، وبأننا نصدم رأساً برأس .

« الدولة تقيم ناس ، وتهدم ناس ، وتكسر رأس برأس » . بينما قام البعض الاخر بنشر تقرير مغاير عن وجود حلف امامي ـ ادريسي ، وقيل ان مندوبي الامام قد وصلوا الى « ابو عريش » وبان الادريسي قد قبل المقترحات المعروضة ، والشروط المفروضة . وبانه سوف يتنحّى عن مطالبه بالسيادة على خمس مناطق قبلية محدَّدة المساحة . وسوف يتنازل للامام عن مقاطعتي افلح والخميسين اللتين سوف يرفض الادريسي رغبة سكانهما في الاحتماء به اذا ما سعوا الى ذلك ، كما انه لن يقبل منهم العشور (الضريبة) وبمقابل تلك الوعود تعهد الامام بسحب رجاله من مواقعهم في اقليم عسير . وقد نُسب هذا التقارب الى الحاكم العام التركي الجديد في صنعاء . والحقيقة انه لم يتم قيام حلف ولا اتحاد ولو ان محمود بك نديم قد بذل من جانبه قصارى جهده .

وكتب العرب في اليمن رسائل يمجدون فيها ببسالة الامام الذي كان يُلَقَّب (ابن رسول الله) لان تقديم الاحترام اليه دَيْنٌ مستحق اكراما لجده محمد . ولا يوجد واحد يتغاضى عن حكم الامام او يتوانى عن مبايعته لانهم يتوقعون الحصول على الثواب والفائدة من ولائهم لعائلة الحسين . وهذا يبين اعتقاد العربي في الأسرة التي ينحدر منها الامام ،

وايمان العرب بأن اصل الامام مُسْتَمَد من الابن الاصغر للخليفة الرابع كما كتبت عن ذلك في الفصل السادس .

ان العبارة الشائعة والمتداولة تعبر عن الشعور العربي الحقيقي « اذا وقعت الشريمين شريم واحد فترت العرب » . اي اذا اتحد المجزّان في مجز واحد تلاشى العرب . والمجزّان (الشريمان) هم الاتراك والامام .ومع ضعف الأتراك المتزايد تمسكوا بالامام باصرار كما تتمسك الحرباء بغصن الشجرة . واظهر الامام من جانبه نوعا من الغنج والدلال وان كان قبيه يتجنب المغازلة والمداعبة . ولو ان الامام والاتراك استطاعوا الاتحاد ، وكانوا قادرين على النقاء والالتئام معا لنظر العرب باخلاص وببساطة الى مصلحتهم المقبلة من خلال هذا الاتحاد السياسي الذي سوف يجعل الاتراك يحصلون على فيض من الحيوية ، وبمرور الوقت يبتنعون كلا من الامام واليمن . وبناء على ذلك ارتاب العرب بالاتراك ، وفضَّلُوا انفراد كل واحد باستقلاله غير ان الحكم الزيدي او السيادة العربية بعبارة اصح افضل عندهم من انفراد الاتراك وحدهم بالسلطة وحصرها في ايديهم .

في شهر يناير عام ١٩١٣ جرى لي حديث مع موظف تركي كان ذات مرة يشغل وظيفة قائمقام في مدينة أب باليمن ، ثم سافر بعد ذلك الى بغداد للالتحاق بوظيفة هناك . وكان يعتقد بأن الاتراك سوف لن يتركوا اليمن . وان السلام الذي تم مع الامام في عام ١٩١١ سيبقى ساري المفعول لمدة عشر سنين . وقد تصرف الإمام طبقاً للمشروع والخطة، وسوف يعمل كذلك طالما بقي منافسه العربي السيد الادريسي غير مغلوب. والاشياء قد تتبدل بعد ذلك وتعود الحالة الى ما كانت عليه منذ ذلك العهد الذي ارتاب فيه كل من الاتراك والامام بعضهم ببعض . ومهما كان الامر فان الطرفين معا على وفاق في ضرورة ابادة بيت ابن ادريس (اي العائلة الإدريسية) .

وعند الحديث عن انجلترا قال التركي : انها دولة صديقة لتركيا منذ عهد غارق في القدم . وان الاقدام على انشاء صداقة مشابهة مع آخرين والمثابرة على ذلك في ايام عبد الحميد كان في حد ذاته خطأ كبيراً . وكان من رأيه قيام اتفاق ودي انجلو- تركي ، وابدى وعياً وعطفاً على ضرورة وجود تفاهم حبّي بين الدولتين لأن الجوار يحتم هذا ولان صداقة بريطانيا لا تقدر بثمن ، ووصف تعيين شوكت باشا كمصدر اعظم بانه اختيار سيِّىء ، وفي غير محله لأن مؤهلاته العسكرية افضل من مؤهلاته السياسية وهي مؤهلات حربية

اكثر منها مؤهلات مدنية .

وزارني سيد تركي كريم من ازمير ، وهو ضابط في البوليس الحربي (الشرطة العسكرية) . وقد وصل الى صنعاء لدراسة الموقف هناك ، وكان على وشك الذهاب بعدئذ الى الهند لمقابلة سيدة بهوبال المسلمة Begum of Bhopal وقد ابدى هذا التركي اعجابه ببريطانيا ، ولكنه كان مرتابا من حكومة الاحرار عندنا ثم قال انه حتى في عهد سالزبوري Salisbury تركت السياسة البريطانية الكثير من الرغبة والاستحسان والاعجاب لدى الآخرين . وان تركيا مولعة بصداقة بريطانيا وكَلِفَةٌ بها . ونفى ايضا الاشاعة التي تقول بالتخلي عن اليمن والتنازل عنها للامام . وقد نصح حكومته بإعطاء حق الاولوية التجارية والامتياز التجاري في اليمن لبريطانيا ، حيث يجب ان يبقى الحكم العسكري التركي مسيطراً وسائداً فيها .

لكن تركياً آخر من أصل كردي اطلعني على آرائه وكان هذا الرجل يشغل مؤخراً منصب متصرف في اليمن . وقد اعتقد بأن الامام سوف يبقى في صنعاء ، وان وضع يده عليها وحكمه لها امر مُسَلَّم به ، ولا يقبل الجدل ، غير ان الاتراك سوف يُبقون في ايديهم منطقة مناخة بلاد الطائفة الاسماعيلية . وكما انهم سيحتفظون بها فانهم سيحتفظون كذلك بكل المناطق التي تقع في جنوبها والى جنوبها الغربي . وقد سخر من مشاريع الخط الحديدي المقترح انشاؤه في اليمن باعتباره غير واف بالغرض . فماذا يكون القول عن مشاريع خطنا الحديدي الخاص بنا ؟ لقد رغب سلطان لحج منذ مدة طويلة ببناء خط حديدي لربط عاصمته بدار الامير الواقعة عند خط حدوده مع عدن وخلف الشيخ عثمان مباشرة . وهي نفسها تبعد عن عدن بحوالى عشرة اميال . وهذا المشروع فائدته محققة . وفي الاستطاعة ايصال هذا الخط بعد ذلك نحو الشمال لينساب في البلاد الغنية باتجاه ماوية وهي القلعة التركية على الجانب الآخر من الحدود . ومهما كان الأمر فاننا قد ألقينا على المشروع ماء باردا ، وهو الذي كان سيمول ميناء عدن ، ويغدق عليه الثراء بدرجة كبيرة . ولقد كان الاعتقاد سائدا بأنه من غير المرغوب فيه ربط المناطق الداخلية من البلاد التابعة لنا بخط حديدي مع عدن حتى ولو كان ذلك على نفقة اتحاد اصحاب الاموال البريطانيين ! وقد كان رحيلنا واجلاؤ نا عن مناطقنا الداخلية من البلاد بناء على بواعث سياسية . وانشاء سكة حديدية معناه العودة الى سياسة السير الى الامام التي سوف تزعج تركيا ، وتضايق

الذين نعطيهم المرتبات من اتباعنا !.

وهكذا خسرنا فرصة اخرى من فرص التدخل السليم والتوغل السلمي ، وبسط النفوذ الهادىء .

وانا مقتنع اكثر من ذي قبل بأن لعنة قابيل لا زالت تجلب النحس القائم والمبهم على عدن ، وتعطل كل الاهداف التي تؤدي الى الرخاء ، وتعترض مقتضيات الحضارة والمدنية .

وهذا مرتبط بجرح احاسيس تركيا !! وفي عام ١٨٨٢ عندما حصلنا على بلدة الشيخ عثمان واقتنيناها من سلطاننا سلطان لحج اعترضت اسطمبول وعارض اتراك اسطمبول على توسعنا !.

ولقد اصبحت قوة تركيا في اليمن عبارة عن قوة اسمية ، ومجرد سلطة رمزية . وقد تحدث اليَّ عن ضعفهم قاضي بيحان ومما قال : « أعمى الله بصائرهم بسبب تشتيت كلمتهم . واذا اوقفوا العجلة الاماميَّة عن السير فانهم سيكونون ملعونين في سقوطهم » ! وهذا القاضي يشبه سيدته التي ندبت الخليفة سليمان (ابن عبد الملك) قبيل مماته في عام ٩٩ هجرية اذ قالت في مرثاتها له بنغمة حزينة ! :

لقد كنت تختزن الثمين وتقتني النفيس وكنت الاسمى ، وفعلت ذلك من اجل البقاء والدوام ،

لكن الانسان الفاني تنقصه الازلية .

وتوجد غلطة فيك ولكنها غير مقصورة عليك بل انها تعم كل الناس وهي انك زائل ومدتك قصيرة[١] .

---

(١) ـ سليمان بن عبد الملك هو الخليفة الأموي الذي استخلف عمر بن عبد العزيز بعد وفاته ، وقبل مماته بأسبوع خرج لصلاة الجمعة فوجد امرأة في صحن الدار انشدته هذه الأبيات :

انت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير ان لا بقاء للانسان

ليس فيما بدا لنا منك عيب ... عابه الناس غير انك فان

(المترجم)

واخيرا زارني في عام ١٩١٣ موظف تركي يعمل مفتشاً للتعليم العام . وقد وصل حينذاك من تعز معبراً عن عطف كبير ، ومحبة للانجليز . واعترف بان الحكم التركي في تقلص وتناقص مستمر ، وعلى وشك الزوال ثم قال انه سوف يصبح مخبراً لنا ، وجاسوساً لحسابنا ويتقاضى اجراً على ذلك . وأخبرني بأن الأتراك والامام قد فتحوا جبهة سياسية في حضرموت ، وان هناك حملة موجهة ضدنا وان البيك وصل من اجل ان يحيطني علماً بالمشروع . فاخبرته بان صداقتنا مع تركيا تمنع استجابتي له وتسليمي بما قال ونصحته بالعمل من اجل الصداقة التركية - البريطانية خيراً له من ان يحارب حكومته او يخونها ويعمل ضدها . وقد وافق على خطتي وقال انها هي الطريقة الفضلى وتركني بعد المساومة على اخذ عشرة جنيهات استرلينية سلفة قابلة للدفع ثانية على ان يسددها عند رجوعه الى مركز الادارة . ! ووصل اليَّ هذا السيد نفسه مرة ثانية في شهر مارس عام ١٩١٤ مدعياً الحماسة التي لا تخبو والغيرة التي لا تهدأ على مصلحتنا ، وبقاءه على العهد والوفاء لهدفنا . وهذا الشخص يبحث عن الشهرة اكثر من بحثه عن الاتعاب والمكافأة ! والقرآن يقول ﴿ ان انكر الاصوات لصوت الحمير ﴾ . ولكني افضل ان اعطي كفاً للصوت الذي يخون حكومته وصفعة للرجل الذي يفشي سرَّ دولته ليكسب حمد الاجنبي وثناء لغريب . وقد اخبرني مخبري هذا بأن الحاكم العام في صنعاء استلم مؤخراً خطاباً ممهوراً بتوقيعات واختام ثمانين من مختلف مشايخ حضرموت الذين يشكون ويتذمرون من الحكومة البريطانية . وان ذلك الرئيس صاحب المقام الرفيع قد اجاب عليهم واعداً ومتعهداً بادخالهم في حظيرة الباب العالي وضمهم الى امبراطوريته ! وهذا بسبب التحريض من الامام في تلك الناحية الشرقية من عدن . والامام بدوره يفكر في الامبراطورية وبالتوسع . This Was the Imam's Drang nach Osten

كتب الينا السير احمد فضل سلطان لحج متنبئاً بخروج الاتراك من اوروبا ،وقال انه من الافضل للعرب ان ينظروا الى مصالحهم كما ان عليهم ان يفكروا في مشاكلهم ، واما عن الحاكم العام لليمن فانه قد ذهب الى اسطمبول . واذا كنا نحتفظ بأي فكرة لاحتلال اليمن فان السير احمد سوف يكون مسروراً لمساعدتنا ، كما وانه من الممكن لنا جميعاً جني الثمار ، وحصد المزايا وان نستفيد من ذلك معاً ! .

وما ابسط اصدقاءنا الاكثر طيبة ! انهم يؤمنون بسرعة وبسهولة في انكارنا للتوسع

الذاتي ونفينا للتدخل المباشر ، او للسعي من جانبنا لاحتلال بلاد الغير !! وهذا هو دهاء انجلترا ! ومكر الانكليز ! Perfide Allion .

وفي اليوم العاشر من شهر مارس عام ١٩١٤ ميلادية و ١٣٣٢ هجرية باغتت المنية السير احمد ، ووافاه الاجل المحتوم . وكانت خسارته عندي لا تعوض . ولن يوجد هناك في المنطقة حاكم عربي اكثر وعياً وثقافة منه . كما لن يوجد صديق اكثر صدقاً واخلاصاً مثله . وعندما كنت اجلس معه في اغلب الاحيان كنّا نناقش الأمور الاجتماعية ، ونبحث المسائل السياسية ، ونتعرض بالحديث لأمور الدين والعقيدة . وكانت حاسته في الفكاهة حادّة . وكل ما اتمناه هو ان استطيع الحصول على فسحة من الوقت لتسجيل قصصه وحكاياته وطرائفه . وكان مرض البول السكري قد جعله حادَّ الطبع في ايامه الاخيرة . وقد كان قلقاً على مستقبل اولاده الثلاثة وكان من وصاياه الاخيرة ، تفويض امر تربيتهم اليَّ وفي عهدتي وكذلك امر العناية بهم والمحافظة عليهم . وقد كانت خزائنه فارغة ، وجيوبه مفرغة تقريباً بسبب سخائه واريحيته على الزعماء الاخرين ، وكرمه وعطفه على الرعاع الناجين من قبائل الصبيحي الذين يحترفون السلب ، ويعتمدون بدرجة كبيرة على هباته وهداياه . وكثيراً ما كان يطالب بزيادة راتبه لان مصادر ثروته قليلة ، وموارده محدودة وضئيلة . وكان كل واحد من المندوبين السامين ، والمقيمين المتتابعين على عدن يعترف بخدمته الشهيرة .ولكن لم تُقدم اليه زيادة شهرية في راتبه رغم ان عدن كانت توصي بذلك ، وتنصح كثيراً برفع راتبه . وهذا التصرف مشابه لجواب رجل الدين على الحاح الرجل الفقير اذ يكتفي بالرد عليه بهذه العبارة (بورك فيك) او (سوف احيلك على كرم الله واوصيه بك ـ على الله ـ) وهذا الجواب غير كافٍ لانه يعوق افتتاح اربطة كيس النقود ، ويمنع خيوط المال عن الحركة .

ومصاهرة السير احمد لقبائل يافع منحته صوتا مسموعاً في ذلك الاقليم . وكان نفوذه موضوعاً دائما تحت تصرفنا. ولما كان مغتاظاً لتسويفنا الواضح بزيادة مرتبه وعدم مبالاتنا المكشوفة بأزمته المالية كتب يذكّرنا باننا قد سرقنا عدن من اسلافه . ومما جاء في رسالته قوله : « لقد مضى الوقت ، وبمرور الزمن افسح شعور العداء والمرارة مكانا للحب والعطف نحوكم . وعدن الان في حوزتكم كما لو كانت باقية في يدي . وقد اصبحت اليوم قلعة هامة في ايديكم ، ومركزاً تجارياً عظيماً وميناء غنياً . ونحن نفرح لنجاحها ونطرب

لازدهارها » .

وذكّرنا بان النفوذ البريطاني قد نفذ الى اليمن ، وبأنه مسرور لذلك ظناً منه بأن تلك الغاية قد تحققت نتيجة لخدماته الطبية وتمت بفضل ما قام به من عمل كثير وجهد وفير .

وفي عدن كان قد تم التخطيط لمشروع مائي يتم بمقتضاه ايصال المياه العذبة عن طريق مد انابيب لنقلها بعد الترشيح من الآبار التي حُفِرت حديثاً في قريته (مزرعته) بالفيوش . ولا شك ان مشروعاً كهذا سوف يحقق زيادة في دخله وفيضاً في موارده بدرجة كبيرة . ولكن المشروع لم ينضج بسبب المعارضة التي كان احتضانها في عدن . ويوجد اختلاف في الرأي عن ملاءمة حمل المياه بواسطة الانابيب الى عدن من تلك الجهة وانا شخصياً أُفضِّل الزيادة في عدد الآلات التي تقوم بتقطيرِ المياه (مكثفات) وتحويلها من مالحة الى عذبة ، وإعطاء السكان ماء نقياً مقابل قيمة اسمية ، وثمن رمزي . وعدن بلدة صغيرة لكن كانت بومبي قليلة العناية بها ولا تولي تقدمها اهتماماً .

وفي شهر فبراير عام ١٩١٤ اشترى الأتراك الموجودون في الحديدة ذخائر واسلحة حربية من جيبوتي Djibouti وقد طلبوا بواسطة وكيلهم المفوض في عدن السماح بنقلها على احدى بواخر الشحن المحلية التي تعمل في عدن . وكان انتداب اليوزباشي حسني بك لإنهاء التفاصيل والترتيبات المتعلقة بالنقل . وهذا الضابط « اليوزباشي » هو الذي اشتهر في تاريخ لاحق كواحد من اركان حرب اللواء علي سعيد باشا في لحج على ابواب عدن . واليمن قبل الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) زُوِّدَت جيداً بالذخائر والاسلحة والقنابل ، ومُدَّت بها بغزارة . وقد كان الاتراك يقاتلون هناك باستمرار ومن المؤكد ان مخازنهم لم تُملأ ثانية اثناء الحرب . ولكن لم تكن تعوزهم الحاجة . ولم تنقصهم الكفاية ابدا في اية فترة من الفترات .

في شهر سبتمبر عام ١٩١٣ أخذت اذنا بالسفر الى سورية . وكان مقررا ان ترسو بي السفينة في بيروت . وقد نزلت هناك فعلا . وكان ينقصني جواز سفر ولكن صديقاً قابلني على ظهر السفينة القادمة من بور سعيد ، وكان اسمي مضافاً الى جواز سفره باعتباري خادمه ، وهذه الطريقة حمتني من المضايقة . وقد سألني موظف الجمارك التركي عما اذا كان عندي اي شيء اعلن عنه ففتحت احدى حقائبي واخرجت منها علبة من اجود انواع السيجار وانتخبت واحدا منها ووضعته بأدب بين شفتيه وقدحت عود ثقاب واشعلت

اللفافة ثم وقفت مترقباً حركته التالية : فرسم على الفور بالطباشير خطوطاً متقاطعة على كل حقائبي ومشيت في طريقي . اما رفيقي الذي كانت تنتظره عبارة « افتح يا سمسم » فقد كان المفتاح السحري جنيهاً ذهبياً قدمه بدوره علنا الى الموظف الذي فتح كل حقائبه الكثيرة نتيجة لذلك او بالمقابل !! لقد لجأ كلانا (انا ورفيقي) الى الرشوة ولكن التركي في ذلك النهار كان يتحرق شوقاً الى الدخان لا الى المال الحرام . وكل ما في الأمر ان القضية تعتمد على الحظ والبخت مثلما تُلقى قطعة النقود عند القرعة ، وبالاحرى كان « مكتوباً » بأن واحداً منا سينجح والآخر سيسقط .

واثناء اقامتي في تلك البلاد (السورية) كان يتعقبني جاسوس سرِّي تركي في شكل محترم مضحك ومُسلٍ . وكان هذا الرجل يجلس مجاوراً لي في الفندق الذي نزلت فيه ، ويطربني بقصص مضحكة كما كتب ايضا ابياتا من شعر الغزل والحب في كتابي الخاص الذي كنت ادوِّن فيه مذكراتي . انه فعلاً تركي لطيف ومسلّ حقيقة !.

وفي ذات يوم اتهمته علنا بالجاسوسية فظهر منزعجاً من الفكرة ثم اختفى ولم أره مرة اخرى . ولا شك ان شخصاً آخر كان يتعقبني ويحصي خطواتي ، ويترصدني وان كان اقل تطفلاً وازعاجاً في مهمته .

وفي وقت متأخر من بعد ظهر يوم وصولي الى دمشق كنت مدعواً عن طريق المجاملة والتكريم لقنصلنا الى حفلة رسمية حكومية اقيمت اكراما لعيد ميـلاد السلطان . ولقد كانت حفلة زاهية جميلة ذات شأن بديع ، حضرها كلا الجنسين . وكان البعض من اولئك بارِّين صالحين ، والبعض الآخر ليسوا كذلك تماما كما يقول القرآن في سورة الجن[1] وقام بواجب الضيوف رهط من الموظفين الالمان « الخيَّالة » ، وكانوا مرتدين ملابس زاهية براقة على نمط واحد . وكانت حفلتنا مُنْهمِكةً ومُثَابرةً على اكرام الضيوف ، وتقديم الشمبانيا والكعك والحلويات الاخرى بسخاء .

وكنت قد وصلت الى دمشق قبل وصول حقائبي مرتديا فقط ملابس من الكاكي التي يرتديها الجندي عند السفر . وقد عقدت النية على عدم الاختلاط باعيان دمشق والذوات

(١) - يشير بذلك الى الآيات ١١ ، ١٤ ، ١٥ ، من هذه السورة : ﴿ وانَّا منَّا الصالحون ومنَّا دون ذلك كنا طرائق قددا ، وانَّا منَّا المسلمون ومنَّا القاسطون ، فمن اسلم فاولئك تحروا رشداً ، واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾ . (المترجم) .

فيها ، وعزمت على الابتعاد عن عليّة القوم في المجتمع الدمشقي ، ومع ذلك فان الحاكم التركي اومأ لي بالجلوس الى جانبه على الديوان . وتحدثنا معاً نصف ساعة حول مواضيع متعددة . وقد كان هذا الحاكم سيداً شهماً وتركياً لطيفاً حسن المعشر - فهل احتاج الى القول اكثر من ذلك ؟ انه يوجد شيءُ ما من النبل الفطري ورحابة الصدر عند الاتراك الاحسن تربية ، وتهذيباً . ولقد جعلني الحاكم اشعر تماماً بأنني في بيتي . وعندما اعتذرت عن ثيابي غير اللائقة نبذ جانباً هذه الملاحظة الزائدة عن الحاجة وهو يبتسم ، ثم رد على ملاحظتي مستشهداً بالنص الوارد في الكتاب برفع الحرج عن المسافر اذا كانت ثيابه غير نظيفة .

وكانت للحاكم التركي ميول نحو الانجليز . فهو يحب اساليبهم وطرقهم . كما كان معجباً بسلوكهم . وكان اولاده في عهدة مربية انجليزية تتولى العناية بهم .

وحينما كنا نجلس عادة بعد تناول طعام العشاء في ردهة فندقنا مصغين الى خرير مياه بردى « أبانا كما في العهد القديم » مردداً بتلعثم أغنية التهويدة كنّا نستقبل كل ليلة الزيارة التي يتحفنا بها هذا الحاكم سليمان باشا الذي كان يرغب في الجلوس الينا بعد ان يفك رباط سيفه ويضعه جانباً ليسامرنا ثم نتجاذب معه اطراف الحديث بينما يتناول مشروبه النادر المكوّن من الصودا المخلوطة بالويسكي .

والتركي يؤمن بالحريري وبي أيضا في ان فقدان رشف المعتق ، وعدم استنشاقه من الكأس يجعل الفم ضيقاً لا يجيد المزاح والدعابة والحديث السار .

وذات مرة رسم لي الباشا خرائط بالقلم الرصاص لاقليم عسير باليمن . وروى لي قصصاً عن بطولة قبائل بني عسير وبسالتهم ، وكيف قاوموا بنجاح كبير الجيش الذي كان يقوده . وكان تحت امرته حينذاك مجموعة من الضباط الألمان الذين يخدمون في الشرطة العسكرية . وكانوا يشغلون وقتهم بلعبة البولو ، وفي التدريب على الفروسية التركية . كما كانوا معجبين بالجنود الا ان اعجابهم بالضباط كان اقل .

واثناء اقامتي كنت متأثراً على الخصوص بلطف الحاكم التركي وبصداقته السارة المنتجة ، ومشاعره الكريمة ، وملزماً بمراعاتها . واثناء الزيارة التي قمت بها لخرائب بعلبك كنت شديد الاهتمام بالاسطورة التي كانت تُزين احد الحيطان ومكتوبة باللغتين العربية والالمانية وتُمجِّدُ سخاء القيصر (الالماني) واريحيته على اعمال التجديد والاصلاح .

وكانت السلطات مضطرة الى وضع شبكة من الاسلاك على الكتابة لحمايتها من الرمي بالحجارة بعد ان تسبب ذلك في ضمس جزء من القصة المكتوبة على الجدار .

وسأختتم هذا الفصل بذكر الزيارة التي قامت بها السفينة الحربية النمساوية المسماة « القيصر فرانتز يوسف الاول : Kaiser Franz Joseph I لميناء عدن في شهر نوفمبر عام ١٩١٣ . وكانت هذه السفينة قادمة من المياه الصينية بقيادة الكابتن « هاينريتش ريترفون ناولا Heinrich Ritter Von Naula الذي تناول معي طعام الغذاء هو وجماعة اخرى قليلة العدد .

وقد اقترحت شرب نخب ملكنا ، ومن ثمة نخب الدولتين الملكيتين ونخب الامبراطور والبحرية النمساوية . وقلت ذلك في الوقت الذي كنّا فيه على صلات ودية مع الالمان ومع ايطاليا ايضا وتمنيت ان لا ينضم النمساويون اليهم ، وان لا يكونوا طرفا ثالثا معهم . وقد نهض « فون ناولا » للرد ، وكان مؤيدا تماما لوجهة النظر البريطانية ، واكد في وهو يشير الى صدره ويقرعه بيده بأن قلب النمسا يخفق بالألفة والوفاق مع انكلترا والانكليز . وبانه يكره الالمان وقد عبَّر عن الاعتقاد بان اليوم الذي تضمحل فيه البحرية الايطالية سوف يحين قريبا ، وعندها تختفي من الادرياتيك .

وكان رجاله في كل ميناء يحل فيه يلعبون كرة القدم مع البحارة والجنود البريطانيين حيث يكون الامر ممكنا . ومع ان فريقه لم يستطع المباراة معنا بنجاح فانهم لغاية الان قد تحسنوا في ذلك . وبينما خسروا منذ عام مضى لصالح الجانب البريطاني دون الحصول على هدف واحد ، فانهم قد لعبوا حديثا ومن جديد مع نفس الفريق ، وخسروا من هدف واحد الى اربعة اهداف فقط (١ - ٤) .

وفي الليلة التالية استضافت السفينة الحربية كل العدنيين ، وقدَّمت اليهم التسلية . وعند العشاء كانت الموسيقى تعزف الالحان النمساوية والبريطانية . وعندما تبادلنا الانخاب قال الكابتن ان الانكليز احسن الناس في العالم وانه يجب ان يراهم في كل مكان في صعود . وقد كان العشاء فاخرا ، والزينات نفيسة وكانت بيرة ميونيخ حلما من الاحلام !!

وصورة اخرى حدثت تقريبا في وقت قريب على الزيارة النمساوية الآنفة

الذكر - وهذه الصورة مصنوعة في المانيا - ففي شهر يناير عام ١٩١٤ حضر الى ميناء عدن « الكورفيتن كابتن قراسهوف Korveten Kapitan Gras hof على ظهـر السفينة الحـربية (العقاب - Geier) وقد قام بزيارتي ، وقمت في اليوم التالي باعادة الزيارة واثناء الحديث سألت هذا الضابط « الكابتان » بطريقة الهزل عما اذا كان ينوي الاستيلاء على عدن ؟؟ وقلت ذلك وانا اعرف بان لديه السفينة العقاب وان السفينة (نسر البحر See Adler) ترسو في الميناء هي الأخرى ، بينما السفينة (كوندور Kondor) متوقع وصولها قريباً !! فضحك بتكلف وانزعاج واحمر وجهه بعمق ثم قال « انه عمل مستحيل تماما » .

وقد شربت كثيراً من بيرة ميونيخ وتسامرنا فوق الضحكات العديـدة لمياه البحـر الراقصة . فهل كانت تلك تعرف بأن حرباً شاملة بين الخير والشرّ تقترب بسرعة ؟

الفصل التاسع

[الحرب الكبرى « ١٩١٤ - ١٩١٨ »]

كان دخول تركيا في الحرب أمراً أحسّ به الامام قبل حدوثه فهو الذي حذر المسلمين في شهر يوليو عام ١٩١٤ من مغبة ذلك ونصحهم بمقاومة الهجوم القادم على العالم الاسلامي وبصد كل غزو مرتقب ؛ ولقد كانت الحرب البلقانية عالقة في ذهنه . وفي شهر سبتمبر عام ١٩١٤ كان الأتراك محتشدين في الشيخ سعيد[١] المقابل لجزيرة بريم الواقعة تحت أيدينا والخاضعة لحكمنا .

كان الامام مرتاباً في الادريسي المدّعي باعتباره الشخص الذي انحاز الى الايطاليين في عام ١٩١١ ووقف بجانبهم ضد تركيا ؛ وقد يكون الشخص الوحيد الذي سيبتهج كثيراً ويفرح من جديد في عام ١٩١٤ ؛ وقد يقوم بتمهيد الطريق للنصارى (المسيحيين) من أجل فتح اليمن واحتلالها . وفي صنعاء كان الحاكم العام التركي نشيطاً بشكل يشوبه الانفعال ومُجداً في محاولاته الدائبة للتغلّب على الادريسي أو في استمالته نحو الأتراك الذين كانوا يرغبون في تأمين الطرق التجارية وفي سلامة القوافل التي تمر عبر عسير ، غير أن الادريسي رفض العرض الذي تقدموا به؛ وكانت مهمة محمود نديم شاقة وعسيرة ، اذ كان في موقف دقيق يستدعي العناية ويتطلب الحصافة واللباقة لأنه اذا ما حاول استرضاء الادريسي أو استمالته ضد رغبات الامام فان الأخير سوف يُقابل ذلك بالسخط والاستياء ، كما انه لن يسكت على تقوية خصمه المنافس أو على زيادة نفوذه المتلاحق في الأراضي السهلية والساحلية من اليمن . لقد نجا الادريسي من الإبادة وأفلت من الهلاك في عام ١٩١١ بفضل ايطاليا واليوم حان الوقت لتحطيمه وسنحت الفرصة لسحقه من قبل الخصوم ولذلك أرسل مبعوثاً الى عدن للقيام بإجراء محادثات ومن أجل عقد معاهدة .

---

(١) الشيخ سعيد اسم للجبل المرتفع في باب المندب والمطل على الساحل اليمني والافريقي معا وتقع جزيرة بريم على مقربة منه داخل المياه اليمنية الاقليمية .
(المترجم)

ومن لحج كتب السير علي بن أحمد ك . س . آي . إي[1] K. C. I. E. سلطان لحج رسائل الى الامام قائلاً فيها ان دخول تركيا في الحرب أمر محتم لا مفر منه وبأن على الامام ان يمعن النظر ويعقد العزم على الوقوف الى جانب الملك[2] الذي يسيطر على معظم المسلمين أكثر من أي ملك آخر في العالم ، وبأن البريطانيين سوف يحافظون على حرمة المدينتين المقدستين في الحجاز (مكة والمدينة) ويضمنون استقلال الدول العربية مع مراعاة السيادة الكاملة لكل حاكم في منطقته ومستقلا عن غيره .

وفي شهر يناير عام ١٩١٥ وبعد دخول تركيا في الحرب (نوفمبر ١٩١٤) أرسل الامام مندوبه محمد علي شريف الى لحج للبحث في وجهة نظر الحكومة الانكليزية ، وكانت حجة الامام تتلخص كما يلي :

لقد دافع عن عدم قدرته على نقض العهد أو الاخلال بالوعد مع الأتراك الذين أبرم معهم اتفاقية عام ١٩١١ وهي التي تنص على قيام هدنة بين الفريقين لمدة عشر سنين ، رغم ان الأتراك بعد دخولهم الحرب قد فشلوا في تنفيذ بعض بنود الاتفاقية وعجزوا عن القيام بدفع رواتب الامام ومرتبات قبائله من حاشد وبكيل ؛ ولكنهم تعويضاً عن هذه الثلمة في المعاهدة قد منحوا الامام قدراً أكبر من السيادة والسلطة كما اقترحوا ترك صنعاء والجلاء عنها وعن المناطق المجاورة وجعل تعز مركزاً لهم . ثم ناقشوا احتمال انشاء متصرفية لهم في لحج ولكن الامام اعترض على هذه النقطة ، وقال المندوب ان الأتراك قد يرغبون في الذهاب الى أبعد من ذلك ويتركون اليمن بكاملها للامام اذا لم تتشاءم من ذلك الممثلية الالمانية أو تقدم رأياً مخالفاً أو تقول بأن خطوة كهذه سوف تُسهّل الاحتلال البريطاني للبلاد !! ومن جهة أخرى لم يستسغ الامام تخلي الأتراك عن صنعاء خشية من خروج قبائله من اليد . وكانت الهبات والاعانات التركية المدفوعة مباشرة الى رجال تلك القبائل قد أبعدتهم عن سيدهم الحقيقي .

---

(١) هذه الحروف ترمز الى النياشين والأوسمة التي كان الانكليز يمنحونها لبعض الأشخاص في الشرقين الأدنى والأوسط . وكانت تنحصر في رتبتين هما :

Knight Companion of the Indian Empire. (K. C. I. E.)

Knight Companion of the Star of India. (K. C. S. I.)

(المترجم)

(٢) يقصد بالملك هنا ملك بريطانيا التي كانت حينذاك موجودة في مصر والسودان وفي شبه القارة الهندية .

(المترجم)

في شهر نوفمبر عام ١٩١٤ ضربت بحريتنا بالمدافع منطقة الشيخ سعيد الواقعة على البر الرئيسي وكان هذا العمل الذي قمنا به رداً على حشد القوات العسكرية التركية التي كانت تستعد لعمليات حربية متوقعة ، وعندما أصبحت خطراً يهدد جزيرة بريم . وبعد أن قامت مدافعنا بإسكات المدافع التركية نزل جنودنا الى البر ،ولم تُصَب القرية العربية بأذى غير ان المدافع التركية القليلة والمقامة على قمة الهضبة قد أصبحت غير صالحة للعمل ؛ وبعد ساعات قليلة رجع الجنود من البر وركبوا السفن واستأنفوا رحلتهم من جديد نحو الغرب . وحادثة الشيخ سعيد هذه قد تم تنفيذها بدون الموافقة السياسية من عدن، وكان الامام مغتاظاً لهذا الحادث الذي أثاره ، وأما الحاكم العام التركي في صنعاء فقد نشر بياناً رسمياً شرح فيه البواعث الخفية التي تضمرها بريطانيا العظمى ، والنوايا المُبيّتة ؛ وقال انها تميل الى بسط سلطانها والى ضم بلاد الآخرين وإلحاقها بممتلكاتها . ويبدو أن عملنا هذا الذي قمنا به قد ساعد الدعايات التركية ، وأعان مروجيها من الأتراك ، كما لم تكن له نتائج ملموسة . ولقد خاطبت الامام على الفور مدافعاً عن تصرفاتنا وعن العمل الذي قمنا به كضرورة حربية وأكدت له عدم وجود أهداف لدينا أو نوايا خفية نضمرها وبأن رحيلنا السريع عقيب الحادث مباشرة سوف يؤكد افادتي ويؤيد صدق ما قلته . ومن عمران أجاب الامام بأنه يدرس بوضوح اتجاهنا العام بعدم التدخل في الشؤون العربية ولكنه عبّر عن أسفه لحادثة الشيخ سعيد التي أثارت شكوك العرب في كل مكان ، ثم شرح أهدافه في اليمن وقال بأنها أهداف روحية لا زمنية ووصفها بالدينية لا الدنيوية . وفي رسالته الى سلطان لحج شرح ضروب نشاطه في بعض المقاطعات والأقاليم العربية المعروفة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة ؛ ولعل عمله كان نتيجة للضعف التركي الذي حركه الى تقوية البلاد ضد أي عدوان من الخارج . ولقد اسهب عن اخلاصه وعن غيرته على لحج ووعد بصد كل الهجمات في تلك الجهة . والامام كان راغباً قلبياً في خروج الأتراك ومرحباً في قرارة نفسه برحيلهم اذ كان محصوراً بين العفريت والبحر العميق ، ولكن التمرد المكشوف ضد الأتراك كان أمراً متعذراً أو غير قابل للتطبيق للأسباب المذكورة سابقاً كما انه اذا ما مكث ساكناً أو ظل محايداً فانه كان يتصور بألم النشاط المتزايد لمنافسه الادريسي الذي كان حراً في العمل وفي التشاور مع كل من يزور البلاد أو يدعى اليها لأنه كان يسكن على البحر وكان غير محاط كالامام الذي كان مقيماً في الجبال محاطاً بسياج من الجنود الأتراك حول صنعاء . وعلاوة على ذلك فان عدم قدرة الامام على العمل كان يُؤوّل ويُفسّر كرمز للعداوة معنا والخصومة لنا ، ولقد دافعت شخصياً عن هذه الفكرة التي كانت موضوعة في مقدمة كل شيء أثناء الحرب ولا زالت حتى اليوم تحتل مكان الصدارة عند

أولئك الذين لم يدرسوا عقلية الامام . وهؤلاء النقاد لا تفوتهم فرصة الا ويغتنموها للحط من قدر عائلة زيد التاريخية أو للطعن في البيت الزيدي العريق والافتراء عليه *

ومندوب الامام امتدح البريطانيين كما استشهد بالآية القرآنية التي تميز النصارى (المسيحيين) وتعتبرهم أقرب مودة للذين آمنوا ، ثم أدلى برأيه قائلاً بأن الأمنية تكمن في (أن تكون جزيرة العرب للعرب مع قيام خليفة في مكة .) ونظراً الى طموح الامام يحيى فانه يتحتم عليّ أن أوضح بأن المبعوث لم يتنازل بهذا الاعتراف عن مطالبة سيده بالمنصب الروحي الأسمى « وهو مركز الخلافة » .

وفي شهر أغسطس عام ١٩١٤ كانت العلاقات بين الامام يحيى والسيد الادريسي متوترة جداً ولم يستطع الامام أن يعترف للادريسي فيما يدعيه من حقوق السيادة على منطقته . ولعل التصاق الادريسي بايطاليا قد أغلق الباب نهائياً بينهما وحال دون اعادة الوئام اليهما أو جمع الشمل بينهما .

ولقد كان استمرار العلاقات الطيبة بين الأتراك والامام خلال الحرب العظمى من أسمى الأمور نبلاً وأعظمها أهمية . والفضل في ذلك يعود الى محمود نديم والى تصرفاته الحكيمة . وهذا الرجل هو الذي خلف عزّت باشا في اليمن وحل محله في حكم هذه البلاد ، ولم يستطع امام صنعاء أن يعترف في قرارة نفسه بالخليفة التركي أو يحمل ذمته مثل هذا الاعتقاد ؛ ومحمد الخامس بالنسبة الى الرأي الزيدي لم يكن الا عبارة عن مجرد ملك مسلم فقط ، وهذا ليس الا شيئاً طبيعياً عندما ينظر المرء الى أصل البيت الامامي في اليمن أو يتأمل في سلسلة نسبه الطويل المتعاقب والذي تمتد جذوره الى زيد ابن حفيد الخليفة علي . وكان الامام قبل الحرب الكبرى على اتصال مباشر مع شريف مكة ومع كل من ابن سعود وابن رشيد . ولقد أبدى رغبة في قيام علاقات ودية معنا وفي الاعتراف بسلطتنا على الأماكن الواقعة خلف عدن بعد أن تأكد أيضاً من عدم وجود أهداف لنا بقصد التوسع الذاتي ؛ واما بعد الحرب فان أدنى سبب لديه كان كافياً لاعتبارنا غير مبرئين من الغش والمكر ولا سيما بعد أن عرف بعلاقاتنا مع الادريسي وعلم بتواطئنا معه وتغاضينا عن احتلاله للحديدة وهي الميناء الرئيسي لصنعاء عاصمة بلاده . وكانت سياسة الامام أثناء الحرب نوعاً من الحياد . ولقد قال لي مندوبه بأن سيده سيكون مجرد متفرج فقط اذا ما دخل الأتراك في الحرب . والامام يحصل على موارده التموينية من مزارعه الخاصة ومن الجهات التابعة له ، ولكن رعاياه المنتشرين يعتمدون بدرجة كبيرة على عدن وعلى

---

* ـ نرجو ان يتذكر القارىء ان الكاتب البريطاني يعبر عن نظره ووجهة نظر دولته . ـ الناشر ـ

موانىء البحر الأحمر الأخرى ، ولذلك كان دخول الامام في الحرب ضد البريطانيين عملاً غير ملائم ، كما تنبأ بالدمار للأتراك اذا ما صادقوا المانيا أو أيدوها .

ولقد عبّر المندوب عن رغبة سيده في أن نرسل اليه خبراء مدربين أو مدرسين لصناعة البارود وقال رسوله هذا (انكم اذا استطعتم الاستجابة فانه سوف لا يوجد شيء لا يفعله الامام لكم) ولكن استجابتنا كانت غير ممكنة في ذلك الوقت .

وعند اعلان المانيا الحرب أُقيمت الصلوات ، وقُدمت الابتهالات في جميع المساجد العدنية من أجل نجاح الجيوش البريطانية . وكان ترجيع صدى الترانيم والأدعية يتردد في كل أرجاء المستعمرة هكذا :

يا قوي ! يا عزيز !

اهلك الجرمان ، وانصر الانكليز .

وعندما انضمت تركيا الى قوات المحور كان السكان الذين يقطنون داخل البلاد التابعة لنا والزعماء من ذوي النفوذ يدعون ويصلون من أجل نجاح البريطانيين ، والسيد العيدروس منصب عدن وشريفها وزعيمها الديني استنكر دخول تركيا في الحرب وأكبره وتحدث بفصاحة عن ذلك ومما قاله : « ان أخطاء خطيرة قد ارتكبت عن طريق تركيا ضد أقرب صديق للمسلمين ؛ وهو الوحيد في مواقفه التي أيدت الباب العالي في أحوال كثيرة . » . ولقد عبر عن شديد أسفه ثم قال : « نحن أعظم المخلصين لبريطانيا ولا نزال أوفياء لها من بين جميع الأصدقاء منذ احتلالها لعدن في عام ١٨٣٩ ؛ واننا ندعو لبريطانيا بالنصر لأنها أحسن الحكومات وأكثرها عدلا ، وهي التي تعمل دائماً من أجل قضية الاسلام. » . وما أكبر الفرق وأبعد الاختلاف بين العيدروس اليوم وبين سلفه الذي كان موجوداً عام ١٨٤٠ فهو الذي اتهم هينس باطلا بالرغبة في تحطيم الاسلام وهدد بالذهاب الى القائد المصري الذي كان موجودا حينذاك في اليمن !!

بقيت عدن مخلصة لنا أثناء الحرب في حين ان تعاليم الدين في جملتها ترشدهم بأن يدعوا للخليفة التركي بالرفاهية والتوفيق ؛ ولعل حكمنا في عدن مدة خمسة وسبعين عاما قد طبع الناس على الثقة الحسنة فينا وأجبرهم على الايمان بحسن نيتنا ؛ ولم يكن مثل هذا يحدث دائما بحسب الظاهر ففي عام ١٨٨٤ كتب عن عدن المساعد الأول للمندوب السامي الرائد ف . م . هونتر ضمن تقرير رفعه عن الميول نحو البريطانيين عند أهل هرر بالحبشة التي كان المصريون على وشك الجلاء عنها . وفي تقريره هذا جاء عن عدن ما يلي :

« وفي عدن نفسها يجب علينا بالطبع أن نحتفظ دائماً بشعب خليط من السكان بصورة منتظمة ، وبقبضة حديدية ، ولكن الجميع سوف يجدون بأن منفعتهم تكمن في السلام ، وبأن مصلحتهم تكون في الاستقرار وبالحرية من القيود على التجارة . » .(١)

وفي بداية الخصومات مع تركيا صدر من الهند أمر عاجل الى السلطة العسكرية بإبعاد كل الرعايا الأتراك من المستعمرة ولكننا استطعنا الحصول على إلغاء لهذا الأمر اذ كان قد استوطن عدن عدة آلاف من الرعايا الأتراك والاماميين وهؤلاء يجدون في عدن عملا مربحا يعود عليهم بالفائدة ويفضلون الادارة البريطانية ويزيدون حجم العمل والتشغيل في الأسواق العدنية ، واختفاؤهم سوف لا يكون عقابا للتجارة فحسب ولكنه يسبب الاستياء ضدنا ويثير الكراهية في المناطق الداخلية من البلاد .

وفي مستهل الحرب اقترح البوليس المحلي ارغام مالكي سيارات الأجرة والعربات على محو العَلَم التركي الموضوع على واجهات بعض المركبات أو المرسوم من أجل الزينة ؛ وهذا العَلَم هو عَلَم الاسلام أيضاً . ولقد ألغيت مشروع هذا الاقتراح اذ كان من المحتمل بأن اجراء كهذا سوف يثير الهيجان ويسبب الهرج والمرج وقد يدفع الى الثورة . ومن الأفضل

---

(١) تحدث عن عدن الأستاذ أمين الريحاني في كتابه (ملوك العرب حديث من خبر وشاهد وفيما يلي بعض ما جاء على لسانه بالنص تحت عنوان الثالوث المادي في عدن : « ان المدينة تقسم قسمين ، عدن الفحم والحصون والسياسة وتدعى التواهي . وعدن التجارة والموبقات وتدعى كمب أي المعسكر . في الأولى وهي على الشاطىء دار الاعتماد والقنصليات وبيوت الضباط والمتوظفين والانزال ، وبعض المخازن التي تباع فيها بضائع الشرق والغرب الرديئة بأسعار غالية . وفي الثانية وهي وراء الجبل على مسافة خمسة أميال في فم البركان أو ما كان بركاناً في قديم الزمان ، وفيها أربعون ألفا من السكان من كل شعوب الأرض والأديان . فيها المسلم الذي يصلي الى الله ، والفارسي الذي يصلي الى الشمس ، والبُنيان الذي يصلي الى الأوثان والمسيحي مكرّم الصور والصلبان ، والاسماعيلي صاحبُ صاحب الزمان ، واليهودي مُسبّح الذهب الرنان . وفيها من يغسلون ويكفنون أمواتهم، ومن يحرقونهم ومن يحملونهم الى برج السكينة لتأكلهم النسور والعقبان .

كل هؤلاء يتاجرون ولا يتنافرون ، ويربحون ولا يفاخرون . أما بيوتهم فواحدة لا تعرف أعربية هي أم هندية أم أوروبية ، وأما أديانهم فهي كالأشجار والأدغال في الغاب ، وهم في ظلالها لا يتغيرون ولا يتطورون . الزاهرون والزاهرات والشانكون والشانكات ؛ قلت ان يوم زار المسيو لاروك عدن لم يكن فيها غير الاسلام وحفنة من اليهود والبنيان . أما اليوم ففيها من المذاهب الدينية مئة مذهب ومذهب تعيش كلها في قمم البركان بسلام وأمان . وليس فيها غير واحد من المذاهب السياسية . تصونه التقية ، ويعززه الدينار والقوة ، هو مذهب الاحتلال . والتاجر وطنيا كان أو أجنبيا هو دائما مع الحكومة أو بالحري لا يهمه من الحكومة غير الأمن والنظام . » .

راجع الفصل الأول ـ القسم الرابع من كتاب الريحاني « ملوك العرب »

المترجم

تصغير الحقيقة وترك المخلصين من العرب ليتقدموا بالاقتراح من جانبهم ، ولعل التنكيت الهادىء والتلميح الخفيف يعمل المعجزات فيزول العَلَم ويمحى الشعار وهكذا كان الأمر .
ولقد كانت عدن في مواسم معينة وفي احياء معلومة مشغولة البال تستبد بها فكرة ما يسمى بالعَلَم التركي ؛ وكان هذا العَلَم يرفرف فوق معظم أضرحة الأولياء وعلى قبور القديسين .
وعندما صدرت التعليمات وأعطيت الأوامر بـإزالتها امتثل العرب على الفور ولم يسبب لهم العمل الرسمي إلا قليلا من اللهو .

وفي شهر يناير عام ١٩١٥ ارتفع ما يسمى بالعَلَم التركي على قصر سلطان سقطرة في الحديبو وقد طُلب منه استبدال الراية أو تغيير الشخص أو الهوية عند اقتراب كل سفينة بريطانية وهكذا فعل بسرعة وقبول . ان العرب مسلمون وهم يحبون عَلَمَ المسلمين ويوجد مَيْل ديني في الموضوع الى جانب الناحية الدنيوية . والاحترام الموجود لرئيس المسلمين أو زعيم الاسلام لا يمنع من الاخلاص لملك بريطانيا ؛ وأنا أتذكر باننا في عام ١٩١٠ تلقينا في عدن فيضا من رسائل الاخلاص والحب من جميع العرب الذين يأخذون منا المرتبات بعد مرور الملك ادوارد السابع ؛وكانت العبارات شبيهة بتلك العبارات التي تقال أو تستعمل لملك مسلم . وعند اعتلاء الملك جورج الخامس العرش استوجب ذلك تقديم عبارات الصداقة والاخلاص والولاء . وللعربي في شبه الجزيرة العربية ملكان زمنيان ، وهو يدين لواحد منهما فقط بالاخلاص الروحي ، وهذا الباعث أو الإخلاص الروحي يعطي أيضاً ميلا للجانب الزمني ويكسبه طابعا معينا .

* * *

ان الشرح المفصل أو المسهب للحرب في عدن سوف يملأ مجلدا ولكنني سألزم نفسي بالملاحظات العامة وسأعالج بالأحرى الناحية السياسية ، والتأثير على الذين تحت حمايتنا أو محمينا والأدوار التي كان يلعبها حليفنا السيد الادريسي ، وأما امام صنعاء الذي كان توددنا اليه عبثا فلقد ذهبت محاولاتنا معه أدراج الرياح .

ومن عدن خاطبنا كل زعيم تربطنا به معاهدة شارحين عمل تركيا ونوايانا نحو العرب . وكان السير علي سلطان لحج شخصا مجدا وناشرا مجتهدا للدعاية في مصلحتنا . والبيت اللحجي يتمتع بالاحترام في كل أنحاء المنطقة الخاضعة لنا وفيما ورائها وكانت علاقته الحسنة مع الامام تقدم لنا خدمة فائقة القيمة ولا تقدر بثمن . وفي شهر يونيو عام ١٩١٥ كان الأتراك يبحثون بنشاط وإلحاح عن التعاون الجدي والفعال مع الامام الذي اعتذر بالارتباطات القائمة

وبالعهود الموجودة التي قطعها على نفسه ثم بالوعود التي قدمها الى لحج وبالتالي الى دار المندوب السامي في عدن بالتزامه جانب الحياد .

* * *

وفي اليوم الثاني من شهر نوفمبر عام ١٩١٤ أعلنا بلاغنا الذي يجعل من الأماكن المقدسة ومن مدينة جدة مناطق محرمة ومحصنة من أي هجوم أو مضايقة تقوم بها السفن البحرية البريطانية أو القوات الحربية طالما لا يوجد تدخل ضد الحجاج الهنود الوافدين الى الديار المقدسة ، وقد ترك هذا الاعلان أثرا طيبا عند كل المسلمين وعند حلفائنا العرب[1] بصورة خاصة ، وكان الأخيرون متهيبين الانضمام الينا اذ تقاعسوا فعلا وبإصرار عن الوقوف معنا لعدم تحققهم من المصير النهائي لكل من الأتراك والامام في اليمن ، كما طلبوا مساعدتنا والتمسوا دعمنا المسلح ، وقد أعطت الحرب برهاناً واضحاً عن الطبيعة غير الملائمة لمعاهدات الحماية الشاذة وغير المناسبة .

لقد كان نزول الأتراك من المرتفعات والغارة التي شنوها من منطقتي ماوية والحجرية، نتيجة لعدة أسباب مباشرة وغير مباشرة ، ولا شك ان تراجعنا من الضالع في عام ١٩٠٧ ثم فشلنا في انشاء خط حديدي رغم الإلحاح المتواصل في اقامته قد أثّر كثيراً في نفوس العرب اذ ترك عندهم اعتقاداً عميقاً بقلة اهتمامنا وعدم اكتراثنا . وقد حوّل الأتراك أموراً كثيرة لمصلحتهم من جراء عدم مبالاتنا . وفي شهر يناير عام ١٩١٥ اقترحت القيام بزيارة للحدود كدليل على الاهتمام الذي أوقظ من جديد في محيط دائرتنا أو في منطقتنا ولكن لم تتم الموافقة على هذا ولا السماح به ؛ وقد استعجلنا ارسال امدادات ولكن الفهم للوضع كان قليلا لدرجة انه حصل الاقتراح بسحب نصف الحامية على شكل خطة وهمية في أرض الصومال ولم يكتمل هذا المشروع لحسن الحظ . ولكن الاقتراح بإنقاص حاميتنا أصبح أمراً ذائعاً وحالة شائعة. ولقد شجع الأتراك هذا النقص الموجود في الجنود لدينا ومن ثمة حاجتنا الى المزيد منهم ، كما ان قصف الشيخ سعيد بالمدافع قد هيّج العرب وأثارهم في الجانب التركي من الحدود . وأما القصف الأخير الذي حدث لميناء اللحية في شهر يونيو عام ١٩١٥ فلقد كان القصد منه تهدئة السيد الادريسي ومن ثمة استرضائه بعد أن جعل من نفسه حليفاً لنا في شهر ابريل عام ١٩١٥ كما قُصدَ به حمل الأتراك على الارتياب بوجود انقسام ضدهم في هذه الجبهة الامامية ؛ وقد

---

(١) يريد بكلمة « العرب » هنا سكان الجنوب اليمني الذين فرضت بريطانيا عليهم حماية وهمية استناداً الى صكوك صورية وقع عليها الشيوخ والسلاطين في فترات متعاقبة بعد احتلال عدن عام ١٨٣٩ . (المترجم)

كتب السيد الادريسي نفسه يقول بأن الضرر الذي لحق بالمدينة العربية اللحية قد آلم رجاله وأزعجهم . ولعلّ الشيء الذي جعل علي سعيد باشا يضطر أخيراً الى ترك ماوية ويتحرك منها نحو الجنوب الى لحج هو كراهيته لإيواء جنوده عند السكان العرب من رعايا تركيا داخل حدوده لأن مثل ذلك سوف يكون سببا في تغيير ولائهم وفي ابعاد المشاركة الوجدانيه من نفوسهم ؛ ولهذا قرر ذلك الجندي - السياسي ، والعسكري المحنك احضار رجاله نحو المنحدرات والزحف على لحج لجعل هذا البلد الأخير يمدهم بما يحتاجونه أو ليدفع أجر صيانتهم وصمودهم وكان الامام كارهاً للمشروع ومعارضاً للاقتراح ولكن الجنرال علي سعيد كان بارعاً ولقد أدار أذناً صمّاء لكل اعتراض .

* * *

لقد سرد مؤلف كتاب «العالم الاسلامي Pan - Islam » روايته عن الأحداث التي أدّت الى سقوط لحج في اليوم الخامس من شهر يوليو عام ١٩١٥ مع انه لم يكن موجودا هنالك بالذات وانما اعتمد على رواية من شاهد ، بالاضافة الى اشتراكه شخصيا في الشؤون السياسية العدنية والتي يرجع تاريخها الى عام ١٩٠٤ أي الى عشر سنين قبل الحرب ؛ وقد أشرت فيما سبق الى تقييمه لدور السلطان العبدلي في الشؤون العدنية ؛ ومن الافراط في الخطأ الكتابة عن السلطان الحوشبي بأنه كان مُحرّضاً أو متواطئاً وبأن « كل شيء كان يحدث في الخفاء عن جاره القريب الملاصق » ومن النقص في حسن الذوق وصف العبدلي بأنه « سلطان أعمش بطيء الفهم » وبأنه « أحجم عن الاضطراب الذي طرأ على هدوء عدن المقدّس وزعزع أمنها الطاهر » والحقيقة ان السلطان الحوشبي انما نقض العهد معنا وانضم فجأة الى الأتراك في ماوية للضرورة قبل سقوط لحج بحوالى ثلاثة أسابيع تقريباً ، وكان الجيش العدني قد وضع حرساً من الجنود في نوبة دُكَيْم القريبة من لحج لنقل الأخبار الينا مباشرة عن كل تحركات العدو ؛ ولكن ولأسباب عقيمة قيل بأنها تتعلق بالخطر وبعدم الأمن سُحبت هذه الحامية الى لحج وبذلك خسرنا مصدراً مفيداً للأخبار الموثوق بها ، ومن تلك النقطة بالذات وللسبب نفسه كان في استطاعة القوات القادمة من الحجرية الخروج من المأزق وأن تنضم الى القوات الرئيسية بينما كانت هذه تمشي نحو المنحدرات قادمة من ماوية. وكانت طلائع الاستكشاف العبدلية موجودة هناك ولكن ليست لديهم بطبيعة الحال الكفاءة والمقدرة بقدر كاف وفعّال كما هو الحال لدى جنودنا المدربين من الخيالة والفرسان .

ولقد جمع السلطان ألفي عربي من داخل محمياتنا لحراسة عاصمته وكانت تكاليف

نفقاتهم وإيوائهم عبئاً ثقيلاً على موارده . وقبل ستة أيام على تحرك الأتراك وعلى زحفهم بالفعل ذهبت الى لحج لجمع سبعمائة من الابل استعداداً للأحداث الحربية المتوقعة ؛ وفي اليوم الثالث تمّ امدادنا بذلك العدد عن طريق السلطان ، وعندئذ تأكد بأننا نولي الموضوع أهميته ونتوي العمل بأنفسنا فشعر بالرضاء وأحسّ بالارتياح للتخلص من جنوده المرتزقة ولإعفائه من مسؤوليتهم .

وفي زيارتي التي كانت مستعجلة ـ لأن الحكومة كانت قد منعتني من ترك عدن ـ استشهد السير علي سلطان لحج بالآية القـرآنية الرابعة والعشرين من سورة مريم حيث يقول المسيح لماري ـ مريم ـ : ﴿وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾ فكان هذا تلميحاً واضحاً بأن الوقت قد حان لعملنا . ولقد كنّا في عدن صوتاً مدوياً لعدة شهور خلت ولكن الإهمـال كان حليفنا أو حليف ما نقوله فلم يُلتَفَتْ الينا ؛ واذاً لم يكن ثمة نقص في الحذر من جانبنا اذ عرفنا مُسبقاً بأمر الغزو وأخبرنا المعنيين به .

وبعد مرور ثلاثة أيام على جمع الابل تحرك الأتراك من ماوية ، وفي نفس الوقت تحركت حاميتنا الصغيرة الموجودة في عدن الى الشيخ عثمان ومن ثمة الى لحج . وما حدث بعدئذ قد كان ادراكه من قبل ثم الإخبـار عنه والتبليغ به ، وأنا لا أرغب في اسناد اللوم علي أي من الأطراف المعنية ؛ وكانت القوات العبدلية قد أنشأت مركزاً حصيناً بالقرب من أم تنعان ونوبة ـكيم ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أو مقاومة المدافع التركية ، ولذلك يُعَد من التعصب وضيق الفكر الكتابة بأن « أي ذكي يدرك في الوقت المناسب قوة العدو ونواياه سوف يعطي الرجل المسكين وقتاً كافياً لجمع صناديقه المطعمة وحشد مفارشه الايرانية الخ . . والانسحاب بسلام الى عدن » . ان المشاهدين مثلاً ينظرون معظم الألعاب والمباريات التي تدور أمامهم فعلاً ، ولكن نادراً ما يكون الغائبون والبعيدون عنها مؤهلين للنقد والتنديد أو اسناد الخطأ ؛ ولم يكن السير علي يبحث عن المأوى أو الأمن في عدن ، فلقد حافظ على مركزه في لحج ببسالة وكان منتظراً تفوقنا ومباهياً بقوتنا ثم انسحب فقط الى مواقعنا في يوم الاثنين عند الساعة الثانية صباحاً بعدما أصبح استيلاء الأتراك على عاصمته أمراً محتماً ولا مفر منه ومن غير الممكن مقاومته ، ثم أصيب في جنح الظلام بجروح على أيدي رجالنا ونُقل بسيارته الى عدن حيث لفظ أنفاسه الأخيرة بعد ذلك بأيام قليلة وهو تحت العملية الجراحية ؛ ويقول السيد بوري Mr. Bury انه بعد انسحاب لجنة الحدود أجهدت السلطات العدنية سياسة عدم التدخل في شؤون الآخرين وأرهقتها لدرجة « انهم لم يحافظوا على تلك الحدود لا بالاتصال المباشر

والشخصي الذي يقوم به الموظفون بأنفسهم ولا بتـرك أي واحد آخر ليقوم بمثل ذلك » وبانه « عندما تكون الخبرة الصحيحة والجديدة والمعرفة المتجددة عن المناطق التي تقع في داخل البلاد عزيزة القيمة أو باهظة التكاليف فانها تكون حينئذ غير مفيدة !! » وهذا كله قلب للحقائق ، فاذا كنا قد انسحبنا من الضالع فعلاً في عام ١٩٠٧ فان ذلك قد تم بناءً على تعليمات من حكومتنا في أرض الوطن Home Government وهي لا تفهم غير القليل عن العاطفة العربية ، وباتصالنا الشخصي والمباشر في المناطق الداخلية من البلاد في الفترة ما بين عام ١٩٠٤ - ١٩٠٧ اكتسبنا خبرة ثمينة ومعرفة مفيدة عن الموظفين وعن الزعماء والمسؤولين في الداخل وأحسن برهان على الأثر الذي تركناه والانطباع الذي خلّفناه كان جليا في السلوك العام لمحمياتنا أو لمحميينا Our protégés في أثناء الحرب العظمى . ومنذ انسحابنا في عام ١٩٠٧ خسرنا المزايا التي نشأت عن اقامتنا الفعلية والقصيرة في داخل البلاد ولكننا كنّا نقف على وجهات نظر المشائخ وآرائهم وكذلك الأمر بالنسبة الى رجال القبائل الذين كانوا يتقاطرون على عدن ويتدفقون اليها لرؤيتنا ، ولهذا لم تنقصنا « الخبرة الصحيحة والمعرفة المتجددة عن المناطق التي تقع في داخل البلاد » وليس النقص في مثل هذه المعرفة كما قيل هو الذي عرقل خططنا أو أفسد اجراءاتنا عندما اندلعت الحرب ولكنه بالأحرى قصور الحكومة عن الإصغاء الى النصائح المعروضة وفشلها في سماع ما قُدم اليها وهذا هو الذي أوصلنا في عام ١٩١٥ الى حافة الهاوية . وانني شديد الأسف جداً لأن الفرصة لم تسنح لي بتفنيد تلك الروايات والتصريحات في وقت سابق وفي حياة مؤلفها ؛ والحكمة العربية تنهى الأحياء عن الطعن بالموتى بهذه العبارة المأثورة : « لا تسبّوا موتاكم فانهم قد أقضوا الى ما عملوا » . والسير علي « سلطان لحج » ميّت أيضاً ، ولكن توانينا أو تراخينا قد أدّى الى وفاته قبل الأوان وعجل بنهايته قبل أن تحين . وأنا على علم بأن مُؤلَفنا قد كتب بحثه وهو على سرير الموت تحت وطأة من الآلام الشديدة التي لا تُطاق ، فعانى منها الكثير وتحملها بصبر بطولي ؛ ولقد مرت مسودة الكتاب الأصلية بين يدي عن طريق الرقيب العسكري الذي كان يشرف بالقاهرة على المطبوعات . وكان المؤلف في أثناء حياته قد قام بأعمال جليلة بل عظيمة ، وهو الآن في مماته ينام مرتاحاً في حراسة الله وتستقر روحه في رحابه .

وفي عملية الاستيلاء على لحج والتي تمت في اليوم الخامس من شهر يوليو عام ١٩١٥ اشترك فيها الضابط التركي رؤوف بك وهذا الضابط الذي كان يحمل رتبة رائد Major هو الذي ألقى جنودنا القبض عليه هناك واقتادوه أسيراً ثم أحضروه اليّ في عدن حيث التقطته من

بينهم وأوقفته على ممر رملي بُعَيْدَ حضوره مع الجنود الهنود الذين استعجلوا احضاره على الفور ولم يعترفوا برتبته العسكرية ؛ ولقد التمس ماءً لأن الحر كان شديداً لا يطاق احتماله ، فقمتُ بإفراغ ما في زجاجتي من الماء على رأسه العاري فقبّل يدي وسقط بعدئذ على الأرض مغشيا عليه ؛ وبعد أيام قليلة حكى لي في عدن قصته .

كان هذا الضابط يقود لواء من المشاة يتألف من ثلاث كتائب : وفي صباح يوم الأحد الرابع من شهر يوليو عام ١٩١٥ وصل الى لحج مع واحدة من كتائبه وثلاث من كتائب اللواء حسني بك واما عن كتيبتيه الأخريين فواحدة منهما تركت في نوبة دكيم والأخرى في زايدة ، وكان لواؤه يحمل الرقم ١١٥ ولقد تحرك من ماوية يوم الخميس ووصل الى الدارجة في نفس اليوم وفي اليوم التالي وصل الى مسيمير وفي يوم السبت كان في نوبة دكيم ، وفي يوم الأحد وصل الى لحج ، وكان معدل عدد كل كتيبة من كتائبه يتراوح ما بين ٣٥٠ و٥٠٠ رجلا ، ولدى هذه القوة ٢٢ مدفعا أحضر منها الى لحج ١٥ مدفعاً ولكن المدافع التي استخدمت في المعركة كان عددها ٦ فقط . وكان اثنان من تلك المدافع من نوع Q. F. Ulms ومحمولة على ظهور البغال . وأما البقية فكانت مدافع جبلية ورشاشات يحملها الرجال (المتريوز) ؛ وفي ماوية تخلف لواء من الجنود وبقيت كتيبة في تعز ، وعند نشوب القتال واحتدام المعركة كان علي سعيد باشا القائد الأعلى للحملة موجوداً خلف لحج وعلى مقربة منها ، وقد أرسل رؤوف بك في المقدمة الى لحج لمنع نشوب الحرائق عمداً ، كما كانت توجد مع القوات المتقدمة قوة أخرى مكونة من ثلاثة آلاف رجل جميعهم من العرب المجندين (المجاهدين) من اقليم الحجرية ، وبعض الرجال من قبيلة الصبيحي واليافعي وجميع المقاتلين الأشداء من قبيلة الحوشبي الذين حضروا بأنفسهم وبمحض إرادتهم وكانت ترافق المجندين من الحجرية كتيبة من الجنود الأتراك تحت قيادة القائمقام عبد القادر ، وقد اجتازت تلك القوات وادي عكان ثم انضمت الى القوة الرئيسية في حبيل أم سويدة ، ولقد قام العرب بالنهب والسلب وأطلقوا النار على نوبة دكيم وزايدة ، وكان البيك رؤوف يسير متجولا بالقرب من لحج في يوم الأحد بعد الظهر عندما تم القبض عليه واقتيد أسيرا ، ولم يكن يعرف بأنه انما كان يقاوم القوات البريطانية في لحج ، ولقد قال لي بأن الأتراك سوف لن يزحفوا الى عدن الا اذا كانوا مسنودين من العرب بقوة وبتأييد منهم ، وبأن خطتهم تنحصر في الاستيلاء على لحج وفي الحصول على اخلاص السلطان وولائه لهم ثم قال « لقد كنا مغتاظين من ضرب مدينة اللحية بالمدافع ولذلك زحفنا من ماوية » وكان من الضروري القيام بحركة مضادة لعمل الادريسي ولدوره (كذا) في اللحية . ثم قال انهم لم يبعثوا في طلب الامدادات من الحجاز كما أنكر وجود أي من الالمان في اليمن وبأن حوالى

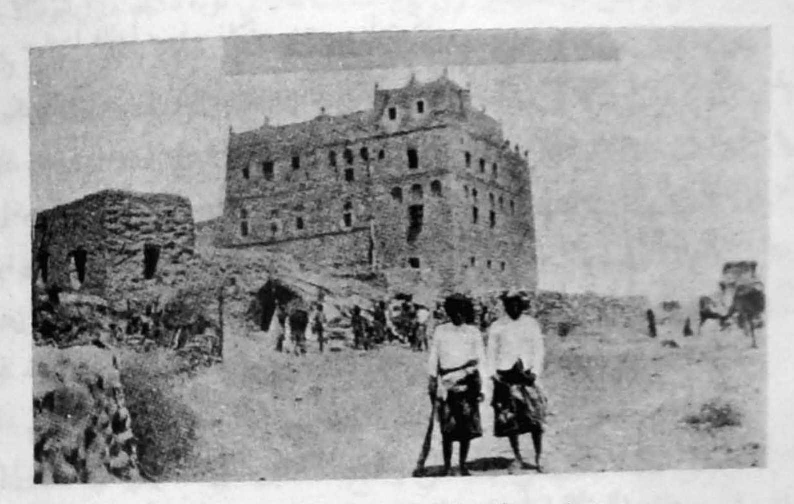
اربعين المانيا فقط قد جاؤوا عن طريق الحديدة ، ولكن لما لم يكن هنالك قتال يمكن وعدهم به ذهبوا الى مكان آخر (وكان من المعروف بأن أولئك الرجال قد عبروا البحر من مصوع حيث كانت السفن الالمانية قد أوت الى هنالك في بداية الحرب لأن ايطاليا لم تدخل في الحرب ضد المانيا الا في شهر أغسطس عام ١٩١٦) . وأنا أتذكر نقاشا جرى في شهر مارس عام ١٩١٥ مع ضابط ايطالي عن امكانية دخول ايطاليا في الحرب وعن احتمال ظهورها على المسرح ولقد قدم لي ثلاثة أسباب ضد أي عمل سريع وعاجل وفيما يلي تلك الأسباب :

١ ـ الثلوج المتراكمة وكثافة هطولها . ٢ ـ الزلازل التي صرفت الفكر الى متاعب البلاد ومشاكل الوطن . ٣ ـ اذا دخلت ايطاليا في الحرب فان الالمان مستعدون لاجتياح سويسرا ، واذا لم تخضع هذه الأخيرة راضية أو تنضم الى المانيا ضد ايطاليا، أو تقبع ساكنة تحت كسر حيادها فانها سوف تلاقي مصير بلجيكا .

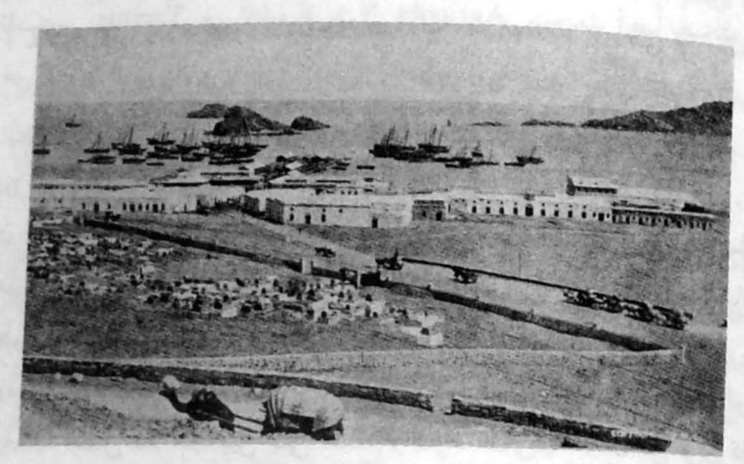
لم يكن الضابط رؤوف معتقداً بأن الامام سينضم الى الأتراك فعلا اذ كان مقيماً في شهارة وكان حذراً ومتهيباً من دخول صنعاء . والرائد رؤوف كان موجوداً مع فرقته في باب المندب ولكن بعد اطلاق المدافع البريطانية على الشيخ سعيد صدرت اليه الأوامر بالهجوم على جزيرة بريم الا انه رفض ذلك فأبدل برفعت بك وأعيد الى تعز ؛ وكانت توجد في اليمن ٣٥ كتيبة من الجنود الأتراك أو ما يقارب أربعة عشر ألفاً من الرجال الذين قدموا على الأخص من سورية .

* * *

بعد أن انسحب جنودنا الى عدن اتخذوا لهم مكاناً في خور مكسر من أجل حراسة المحطة اللاسلكية الجديدة ؛ وأخلينا مدينة الشيخ عثمان التي احتلها الأتراك والعرب في الحال . وفي اليوم الواحد والعشرين من شهر يوليو استرددنا الشيخ عثمان بعد أن تلقينا الامدادات من مصر ، ومنذ هذا الوقت والى حين عقد هدنة عام ١٩١٨ تطلب الأمر منا الاحتفاظ بعدد كبير من جنودنا في عدن بسبب مجيء الأتراك أو بعد حضورهم الى لحج ، ويمكن القول أيضا بأننا قد عبأنا الأتراك في زجاجة ووضعناها أمامنا . غير انه كان من المتعذر على أولئك التراجع الى مكان آخر لو رغبوا في ذلك . وفي الجانب المقابل لعسير كان يوجد عدد لا يُستهان به من الجنود الأتراك ، ولكنهم ظلوا عملياً غير قادرين على الحركة ، وقد عقدنا في شهر ابريل عام ١٩١٥ اتفاقية مع الادريسي وبواسطتها تعهد بمضايقة العدو على النطاق المحلّي أو ازعاجه في مكانه ، ولكن ولأسباب عديدة قام الادريسي بالعمل من جانبه قبل أن نقوم بخطوتنا الأولى التمهيدية من البحر ولكن عمله كان ضئيلاً .



قصر السلطان الحوشبي في مسمير



المعلا هوارق ومراكب يهودية

ولعل العمليات الحربية التي ظلت دائرة أمام الشيخ عثمان وعند مشارفها كانت تبدو على وجه الإجمال وكأنها للاستكشاف والاختبار على كلا الجانبين - معارك صغيرة يعقبها تراجع المهاجمين من كلا الجبهتين الى أماكنهم السابقة والمتناثرة بدون تقدم أو تقهقر. وجون يعقوب صاحب يعقوب اباد لديه فراسة كاملة وبصيرة نافذة عن السجية الأسيوية ؛ ودعني أقتبس من كتابه (ملاحظات عابرة obiter dicta) ما قد يتناسب مع حالتنا هذه امّا عرضاً أو اتفاقاً :

(نحن لا نريد تحصينات ، والنقص في حماية أنفسنا أو في الدفاع عن مواقعنا يكون مساوياً للهزيمة في الهند . ويجب أن نتظاهر بالسمو وأن ندعي التفوّق وأن نكون أهلاً له ، ثم نحافظ عليه ؛ وبعد الطرق على العدو أو بعد تقهقره يجب أن لا نتخلى عن شبر وأن لا نتراجع الى الخلف قدماً واحداً .) .

وتاسيتوس Tacitus في كتابه أقريقولا Agricola يتحدث أيضاً بصوت لا لبس فيه ولا غموض :

(التقهقر أو الانسحاب قدرٌ مشؤوم وهلاك محتوم لكل من الجيش والقائد . Neque exercitus neque ducis terga tuta esse ، .

كان القائد التركي يسمح للقوافل بأن تعبر الى عدن بحرية لأنه كان يحصل من تلك القوافل على رسوم المرور . وقد سمحنا من جانبنا للقوافل التي تغادر عدن بالمرور الى خارج خطوطنا لأن التأثير المعنوي على مُحبينا الذين يعتمدون على عدن في مواردهم التموينية وسلعهم الاستهلاكية سوف يكون على العكس مشؤوماً وجالباً للكوارث لو لم نسمح بذلك ؛ وهكذا حصل كلا الجانبين على السلع والمواد التموينية . ان كل فريق كان يحصل أيضاً على الأخبار والمعلومات عن تحركات الفريق الآخر ، ولذلك يمكن تلخيص المعركة وكأنها « سلام في حرب أو هدوء في معمعة » .(١) .

---

(١) يقول أمين الريحاني في كتابه « ملوك العرب » : « بينما كانت رحى الحرب تطحن الانسانية في شمالي فرنسا وتملأ الأرض هولاً وقبوراً كان الترك والانكليز في هذه الزاوية المباركة من اليمن السعيد يتبادلان المعروف والإحسان . وكان للقائد الجركسي سعيد باشا الفضل الأكبر في ذلك بشهادة الانكليز أنفسهم . أما العرب فلا يزالون يذكرونه حتى اليوم بالفخر والاعجاب » ، ثم يستطرد قائلاً : « قلت ان شيئاً من اليسر عاد الى لحج بعد نكبتها لأن الأهالي والعساكر شرعوا يزرعون ويشتغلون فازدهت بالاخضرار والثمار تلك البقعة الخصبة التي تستقي من فرعي وادي تبن أما عدن وهي في فم البركان فلا ترى فيها ولا في جوارها ورقة خضراء . فتبادل القائدان السلام ، ثم الكلام ، ثم : . . هذه بقولاتنا نرسلها اليكم كل يوم على الرأس والعين . فشكر الانكليز الترك قائلين : وهذا الأرز والسكر لكم منهما ما تبغون ، وهذه فوق ذلك السكاير . فهتف عسكر الدولة : ليحيا الانكليز . كذلك تم الصلح بين الاحلاف

ان التأثير لتلك الأعمال الاستكشافية أو الاستطلاعية التي لم تحقق غرضاً مباشراً ومفيداً كان ذا أثر كبير في الضغط على محميينا أو الخاضعين لحمايتنا ، فلقد ذهب عدد من أولئك الى الأتراك في لحج ، وكان هذا السلوك ناشئاً عن الضغط والإكراه بالدرجة الأولى .

وعندما انسحب معنا السلطان العبدلي الى عدن في اليوم الخامس من شهر يوليو كان مصحوباً بعدد كبير من رجال قبيلته ولكن الكثيرين قد مكثوا في مناطقهم من أجل رعاية حقولهم ، والبعض من أولئك المتخلفين كانوا مرغمين على البقاء من قِبَلِ الأتراك . والأغلبية من سادة الوهط - باستثناء الرئيس - ساعدوا الأتراك ، كما كانوا يستخدمون رجال قبيلة الصبيحي لمضايقة القوافل ؛ وهؤلاء كانوا يهاجمون قوافل الطرفين ويقوم الأتراك بمعاقبتهم ؛ وشعر السلطان الفضلي بعد أن رفضنا تسليحه بأنه مرغم على الامتثال لطلب الباشا بالحضور الى لحج ، وقام القليل من رجاله بمساعدة الأتراك بعزيمة ونشاط ؛ كما ان بعضاً من رجال قبيلة اليافعي فعلوا مثل ذلك . أما السلطان الحوشبي فقد رافق الأتراك الى لحج ومعه جميع أفراد قبيلته ، وخلق منه الباشا « سلطاناً على لحج » ولكن علي مانع لم يفعل شيئاً ، بل كان جباناً واجف القلب اذ عاد على الفور الى عاصمته المسيمير .

وعندما استدعى سلطان لحج رجال قبيلة يافع العليا كجنود مرتزقة لمقاومة الغزو التركي المرتقب أجابوا حينذاك بأنهم سوف يساعدونه شخصياً بكل سرور اذا ما تقدّم الأتراك نحو المنحدرات في اتجاه لحج ، ولكنهم أضافوا قائلين بأن الحرب حالة تتم بين حكومتين ولا أثر لها على رجال القبائل ، ولذلك ليس عندهم ميل لمساعدة البريطانيين في عدن .

ولقد طلب أمير الضالع مساعدتنا ، وعندما لم تُقَدْم له أية مساعدة أصدر في شهر ديسمبر عام ١٩١٥ منشوراً عن الانطباع الموجود لديه قال فيه ان الحكومة الاسلامية حكومته ، والسلطان خليفته ، وبأن عليه طاعة من تكون طاعته طاعة لله ولرسوله ، ومعارضته بدعة فاسدة وضلال مبين . وهذه الحالة التي كان الأمير نصر موجوداً فيها تشبه حالة من يقول « أينما دارت الزجاجة درنا » . وبعبارة أخرى : ان الأمير كان يسبح مع المدّ ، ويسير مع التيار ويصعب على المرء أن يلومه . ولقد لخّص الأمير نصر هذه الحالة وشخّص الوضع

= والدول الوسطى أو بالحري بين ممثليهم في عدن وفي لحج ، قبل أن انتهت الحرب بسنتين . ولما أعلنت الهدنة دخل علي سعيد باشا الى عدن ليسلم سيفه الى الانكليز ، فاستقبل فيها استقبالاً جميلاً . دخل المدينة لا كالمهزوم بل كالفاتح المنصور . » . راجع (ملوك العرب) للريحاني ، الفصل الرابع من القسم الرابع ص ٣٦٥

(المترجم)

بدقة حقيقية وبراعة متناهية ! اذ قال : « قناطر الأتراك أقوى من طيارات الانكليز » ، (أي ان أحذية الترك أقوى من الطائرات البريطانية !!) . وفي عام ١٩١٦ كان الأمير يُرى في لحج مرتدياً ملابس تركية ، والمثل السائر محلياً يقول « لا تأمن بيت القرافة ولو حلفه » ، (أي لا تثق في عائلة القرافة حتى ولو أقسمت يميناً) ! والقرافة هي القرية التي يُقال بأنها مسقط رأس تلك الأسرة التي ضرب فيها المثل[1] .

ولقد بقي معظم ذوي المعاشات الذين يتقاضون مرتباتنا غير موالين للأتراك ، بل واقفين ضدهم . وكان السلطان العبدلي مسروراً بالوعود التي قطعناها على أنفسنا للعرب ، اذ تأكد بأن البريطانيين عبارة عن أصدقائهم الطيبين الذين يحافظون على وعودهم بدقة . وقبيلة الشعار المتمردة التي تعيش في سهل الضالع ، والتي تكون عادة على خلاف دائم مع الأمير عرضت تقديم المساعدة للبريطانيين ضد طغيان الأتراك . وعبّر أحد العرب البارزين عن شعوره هكذا : « اذا أمرني الافرنج بالوقوف أمام فوهة بندقيته فانني سوف أفعل ذلك وأمتثل له[2] وأنا أرجو الله بأن يُهلك الأتراك وينصر الانكليز » ، ولكنه أضاف وهو ينظر الى الأمام ويتطلّع قُدُماً : « لعلّ الله يقضي بأن يحل السلام فيما بينهم » . والشيخ المفلحي دعا لنا بالنصر ، وذهب أخوه الى لحج بدافع الفضول أو حباً في الاستطلاع . وقاضي بيحان صاحب النفوذ اعترف بأن العرب يدينون بكل شيء للبريطانيين وقال انه يتحتم عليهم تأييدهم واسنادهم ، ولقد عقد علينا الأمل بطرد الأتراك من بلاد العرب ، كما نادى بذلك في كل مسجد ، وفي الأسواق العامة وهي التي يجتمع فيها الناس بصفة دورية .

وكانت النزعة الفردية عند العرب سبباً حقيقياً في منع انضمامهم الفعلي الى جانبنا ، أو عاملاً حال بينهم وبين الدخول معنا الى حد بعيد ؛ ويمكن استخلاص هذه الصفة أو الميزة العربية عن طريق المثل الدارج عندهم : [اذا ارتكبت أختي الفحشاء فماذا

---

(١) لعل المثل الشعبي الدارج على هذا النحو : « لا تأمن عيال قرابة ولو حلفوا »

(المترجم)

(٢) في عام ١٩١٣ كنت أقوم برحلة تفقدية في منطقتنا البعيدة عن الساحل والواقعة داخل البلاد حيث أعطينا العرب عرضاً تطبيقياً عن المدافع الرشاشة والسريعة الطلقات M. G. وأقمنا معرضاً لذلك . وقد قال واحد من العرب رداً على سؤالي عما يعتقدونه في الصاروخ : « ان الذي صنع هذا المجلجل (مقعقع) رجل حكيم ، ولكن الذي يقف أمامه رجل غبي . » .

(المؤلف)

يعنيني ؟](1) ومهما كانت عواطفهم نحونا فانهم لم يشتركوا معنا بأية حال . كما لم يقوموا بأي نشاط الى جانبنا طالما بقينا في الشيخ عثمان .

ولقد كتب الى عدن الشيخ ناصر مبخوت زعيم قبيلة حاشد الزيدية يقول : « نحن لا نظن بأن الأتراك يستطيعون البقاء في لحج ولا حتى شهراً واحداً بحول الله ! » و السيد الادريسي عزا سكوننا الى التأنّي ولم ينسب توانينا الى الضعف بل نسبه الى التمهّل والبطء ، والشيخ العلوي حزن على سقوط لحج ولكنه نسب ذلك الى حكم الله وقضائه ، وحَرَّضَنَا شخصٌ يافعيٌ يتقاضى منا راتباً على أن نخوض المعركة بقوة لأننا افتقدنا النشاط على حد تعبيره ، ولم نستخدم هجومنا ، بينما لو فعلنامثل ذلك لكان انسحاب الأتراك سريعاً وعاجلاً ولكانت لحج لنا . والمبعوث المكي الذي وصل الى عدن في شهر نوفمبر عام ١٩١٦ كان حزيناً مكروباً حينما شاهد جمودنا في عدن وطلب منا القيام بعمل بعض الشيء الجاد والفعال لتجنيد العرب الملتصقين بنا والمنجذبين نحونا في كل مكان من البلاد ، وحثّ على التصدي للدعاية الخبيثة التي تنتشر من مصادر تركية ـ المانية .

* * *

وكانت القصص الغريبة منتشرة في عدن عن الأعراس المرتقبة والتي يتم الاستعداد لها وعن اتخاذ الترتيبات داخل عائلتي الخليفة والقيصر ولهلم الذي قيل بأنه قد اعتنق الاسلام . وأنا لا أقول بأن عدن أكثر سذاجة من أي مكان آخر في تصديق ما يقال ، ولكن من المسلّي والمفيد ذكر المثل الدارج عند سكان البحر الأحمر : « اذا تشأ الكذب المجمّع ، دير(2) عدن وتسمّع . » . أي (إذا كنت ترغب في سماع الكذب الكثير فما عليك الا أن تأتي الى عدن وتفتح أذنيك .) .

---

(1) لعلّ هذا المثل ينطبق تماماً على الانكليزي وعلى أخته ، ولكنه غير صحيح اطلاقاً في حق العربي الذي اشتهر بالغيرة والحمية وعرف عنه بأنه كان يدفن ابنته أو أخته أو قريبته وهي على قيد الحياة خوفاً من العار ومن أن تلحق الأذى بشرفه أو بعرضه ، فكان العرب يقولون « دفن البنات من المكرمات » ، حتى جاء الاسلام ودعاهم الى مكارم الأخلاق وحرّم عليهم الزنا وجميع الفواحش التي تبيحها شرائع الغرب وتروج لها بمختلف الوسائل والطرق ؛ : ﴿ فأحلّ لكم الطيّبات وحرّم عليكم الخبائث ﴾

(المترجم)

(2) دير Dir كلمة تُستعمل في الخوخة القريبة من المخا .

(المؤلف)

وفي شهر ديسمبر عام ١٩١٥ كنت مؤيداً للزحف على لحج كرد مقابل لفشلنا في اقتحام مضائق الدردنيل لأن الأتراك اذا كانوا مهزومين في اليمن فان ضربة قاسية سوف تسدد الى هيبتهم ، وسوف لا يعيد هيبتنا شيء أقل من ذلك . ولقد ناور الأتراك في عام ١٩٠٧ وأخرجونا من محميتنا الداخلية البعيدة عن الساحل بالوسائل السياسية المتفوقة ، هكذا قال العرب ، واذا فشلنا الآن في ارغامهم أو كان موضوع انسحابهم وأمد ازالتهم من عمل السياسيين فقط فان نفوذنا في شبه الجزيرة العربية سيبقى ضعيفاً الى حد أبعد ؛ فكيف بعدئذ وحين أن تنتهي الحرب ؟! هل نستطيع فعلاً القضاء بين العرب المتنافسين أو المطالبين ببقايا الأتراك وكيف سيكون الفصل في منازعاتهم ؟ في حين اننا اذا اتخذنا نحن بأنفسنا الاجراءات الفعّالة والضرورية فان العرب سوف يتبعون المناسب ويحذون حذوه ، لأنهم يبحثون عن قيادة ، وهي حالة شبيهة بحالة الجزار العدني : يا لحمه ، هيا لحمه، ـ (لحم ! تعال واشتر لحماً) ـ وهذه هي المناداة التي تحدث عادة في عدن عندما يجوبون السوق مع البعير المسوق فبائع لحم الجمل ـ وهو على وشك أن يذبحه ـ يكون راغباً في أن يتبعه من سيأكلون لحمه وأفواههم تسيل لعاباً .

ومن ناحية ثانية اذا ما قمنا بعمل كهذا فان المبالغ الضخمة من الأموال المستخدمة أو المخصصة لتأمين العمل العربي المنفرد ستكون مخفّضة لا سيما وان انسحاب الأتراك السياسي من اليمن سوف يترك على حدودنا حاكماً عربياً قوياً وربما شديد الازدراء بنا وهو الامام نفسه وهذا الشخص هو الذي تاقت أسرته منذ عام ١٨٧٢ الى توسُّع العرب في أرض عربية ، ولكن حضور الأتراك كان عائقاً أو حاجزاً ، واليوم قد يكون يومه للعودة أو للاستعادة .

ومما لا شك فيه بأننا قد دافعنا أولا عن استقلال العمل العربي وعن اعتماد العرب أولا و قبل كل شيء على أنفسهم ونحن انما نقوم بتمويلهم أو بإمدادهم بالوسائل المادية اللازمة ، وعندما يفشلون في العمل أو في القيام بالدور تحين لنا الفرصة المناسبة وعندئذ تكون اللحظة السيكلوجية أو النفسية حاسمة من أجلنا لضرب المثل الذي يحتذيه الغير أو للقدوة له في السير . ومما يلفت النظر بأنه عندما يترك الأتراك اليمن فان خطَّ حدودنا لعام ١٩٠٢ ـ ١٩٠٤ سوف يصبح في حد ذاته غير موجود فعلا ، فكان من المحتم علينا العمل على إلحاق الهزيمة بالأتراك ثم السير قدماً نحو المرتفعات والزحف من ثم الى تلك الحدود ؛ وهذا العمل هو الذي كان سيرد الينا اعتبارنا أو يعيد حقوقنا في مواجهة كل من الامام والادريسي معاً و يمنعهما من أي ادعاء أو من قول أي شيء بالنسبة لحلفائنا من العرب . ولقد انتظر الناس

في داخلية البلاد الخطوة الأولى البريطانية أو روح المبادرة ولكن لم نفهم المغزى السياسي لموضوع هو في جوهره عمل عسكري محض ومباشر ولا سيما في لحج اذ قيل لنا بأن هيبتنا انما تكمن في فرنسا فقط وأما عدن فانها واحدة من تلك المشاهد الجانبية التي تدعو للأسف المجرد .

إنني أريد أن أجعل الأمر أكثر وضوحاً حينما أقول ان حماسة الجنود العرب اليمنيين وبأسهم وجَلَدهم لو وضعت بكاملها موضع المحك والاختبار لعادت بأطيب الثمار تحت قيادتنا ؛ أما في الحجاز فان جهود لورانس المتواصلة وجهود زمرته من الضباط هي التي أيقظت المواهب الحربية في ذلك الاقليم ، ولكنني متأكد بأنه حتى مع كل ذلك فان الحركة الحجازية لم يكن لها أي تأثير لو لم يتحرك جيش اللنبي المنتصر في نفس الوقت ويعطي للعرب هنالك القوة الدافعة والمحرّكة غير ان مادة القتال وجوهره في اليمن شيء مختلف تماماً ، فهو متفوق كثيراً عن أي شيء آخر يستطيع الحجاز اظهاره أو الاضطلاع به ، والأتراك سوف يؤيدونني هنا ويدعمون ما أقوله . والايطاليون متحمسون أيضاً بدورهم حول هذا الموضوع . وعندما جندنا أخيراً وفي زمن الحرب الجيش العربي الذي أطلق عليه بعد ذلك اسم (كتيبةالمشاة اليمنية الأولى) لم نختبر كفاءتهم الحربية ، ولم نضع موضع التجربة تلك الغريزة الحربية التي فطروا عليها ، لأننا ارتبنا فعلاً فى اخلاصهم لقضيتنا ! وساورتنا حولهم الشكوك ! فلماذا اذاً جنّدناهم على الأرض ؟

وفي بداية الحرب تقدم الينا رجال قبيلة الزرانيق الذين يسكنون في المنطقة الواقعة الى الجنوب من الحديدة ، وعرضوا علينا بيع موانئهم . وكان الحصار البحري قد جعلهم معدمين وفي أمس الحاجة الى النقود الحاضرة والتي يشترون بها سلعاً وأمتعة ، وكانت الأثمان قد ارتفعت الى درجة كبيرة بسبب الاحتكار أو حق الامتياز الذي منحناه للادريسي في مينائه ميدي . ولقد طلب الزرانيق الحصول منا على البنادق التي يقاتلون بها أعداءهم الأتراك . ولقد قدم رجال تلك القبيلة الكثير من المتاعب للأتراك فيما مضى ، فكانوا دائماً مصدر ازعاج لهم ، ولم يذعنوا أبداً للحكم الأجنبي ، ويقدر عددهم بحوالى خمسة وعشرين ألف نفس . وبصرف النظر عن أسرة اشراف المراوعة الذين ذكرتهم سابقاً ، فان رجال هذه القبيلة يمنحون ولاءهم المباشر لزعيم سيد هو أحمد بن يحيى البحر الذي يعيش في المنصورية على بعد خمس ساعات ونصف تقريباً سيراً من الحديدة ؛ بينما يعيش في مينائهم بالجاح سيد آخر . ويوجد اثنان من الزعماء المشائخ وهذان يقيمان في خوخر والحسينية .

ولقد عرض علينا عدد آخر من مختلف المشايخ العديدين على ساحل البحر الأحمر تقديم خدماتهم عندما شعروا بالضائقة وأحسوا بالحاجة ، ولم تكن تلك الخدمات مقدمة بدافع الإخلاص ولذلك كان رفضها بأدب . ووصل الى عدن شيخ الخُوخَة وهي احدى الأماكن الرئيسية للتصدير ، ويقوم بخدمتها أسطول من القوارب الصغيرة الخاصة بسكان البلدة ، وقد شكا هذا الشيخ من عدم اهتمامنا قائلاً : « الزوج طلّق والصاحب هرب . » . وهو يقصد بالزوج الأتراك ، وبالصاحب البريطانيين . وعندما خاب الأمل في عدن ذهب مشائخ الزرانيق الى جيبوتي Djibouti وقدموا عرضاً مماثلاً الى الحاكم الفرنسي الذي رفض العرض وبعث الينا تقريراً عن الموضوع من باب المجاملة واللطف .

لقد كان الحصار على موانىء البحر الأحمر صارماً ودقيقاً وقد قام الأسطول الملكي بتنفيذه ؛ وكان القصد من ذلك ايقاف توسيع التجارة بالأسلحة ومنع انتشارها ومراقبة تهريبها ، ولكن فيما يتعلق بالمواد الغذائية فان موضوعها كان محل اخفاق . وبسبب عدم التمييز بين أصناف البضائع والشحنات التي تقوم القوارب الريفية بحملها كان ميناء ميدي الادريسي في البداية ثم ميناء جيزان بعد ذلك هو الميناء الوحيد المفتوح للتجارة القانونية أو المشروعة ، فاحتفظ الادريسي بالاحتكار وأمسك بيده زمام الاستئثار ، وقد جمع ثروة على حساب الآخرين و« تَرَيَّشَ » ونما عشُه ، وكانت قواربه التي يملكها تعمل بحرية وتجوب البحر باستمرار بين موانئه الممتدة من الشمال الى الجنوب وهي : البرك والوصم والقوز وجيزان ، ومضاية وتعشر وشيخ اقبال ، وميدي ، وشخيخ ، والحَبْل وعقم .

* * *

ولقد ساد الاعتقاد دوائر معينة بأن المواد الغذائية والأطعمة المهربة الى شبه الجزيرة العربية كانت توزع على نطاق واسع من أجل وصولها الى أيدي الأتراك لتغطية حاجاتهم الاستهلاكية، وأنا أعتقد بأن وجهة النظر هذه لم تكن تستند الى دليل ، وليس لها ما يؤيدها فالعرب هم الذين طلبوا السلع التموينية والمواد الغذائية ، وكانوا المستلمين المباشرين والمتلقفين الرئيسيين لتلك السلع ، وفي أغلب الظن أن الفائض عن الحاجة عندهم قد تسرب فعلاً الى الجيوش التركية ، ولكنه لم يكن كافياً الى الدرجة التي تؤثر في قدرتهم على القتال . ان الحصار البحري والاحتكار الذي كان يتمتع به الادريسي في موانئه الشمالية قد رفعا أسعار الأطعمة والمواد الغذائية الى درجة كبيرة جداً وكانت جميع الموانىء الجنوبية معطلة بقسوة ومحاصرة بصرامة فكانت بذلك في أمس الحاجة الى سباق العدل بحيث تصبح فرص الكسب متكافئة . ان الطعام لا غنى عنه ، ويتحتم على السكان السعي للحصول عليه وامتلاكه ، وسريعاً ما وجدوا

طريقاً لذلك فالبحر الأحمر محمي بسلاسل صخرية قريبة من سطح الماء، وخلف تلك الصخور الواقية كانت القوارب تتخذ سبيلها خلسة أثناء الليل بدون معرفة الدوريات ، وفي أغلب الأوقات كان من الصعب الالتقاء بها أو رؤيتها ، ولم تكن القوارب وحدها هي التي كانت تقوم بمهمة نقل المواد الغذائية أو تهريبها بل ان القوافل على اليابسة كانت تقوم بإحضار المؤن والسلع من مناطق الى أخرى ، أو تأتي بها من المرتفعات الى السهول . وان الأسعار العالية التي كان من المحتم على العرب دفعها ثمناً للسلع قد أغاظتهم وهيجتهم فكان الحصار البحري عقيماً الى حد كبير وأصبح مفعوله عديم الجدوى عن طريق الحِيَل العربية ولوجود التكتيك والبراعة عند العرب . وكان الجواب السريع من قيادة البحرية يرد على هذا النمط : « اجعل العرب يقاسون ويتعذبون وعندئذ سوف ينضمون الينا ويقاتلون الأتراك الذين سببوا لهم ذلك الانزعاج وهذا التعب . » . وهذا الكلام مألوف ومبتذل وصحيح نظرياً أكثر منه عملياً . ولقد كانت قواربنا وسفننا تتعقب القوارب العربية وتطاردها يوميا على وجه التقريب ، وينشأ عن ذلك تبادل الطلقات النارية السريعة على كلا الجانبين . وهذا يبرهن حتماً على فشل الحصار ، وعلى ان العرب كانوا معرّضين للخسارة ، وهم يقولون بحق : « الصاحب المُخسِّر عدو مبين » . وهذا يعني ان صديقك الذي يلمس بيده كيس نقودك يكون في حقيقة الأمر عدوك . ولقد كانت المهمة التي تواجه رجال الأسطول والسلاح البحري شاقة اذ كانت القضية أمامهم صعبة المنال ، وكانت السفن التي استخدموها من أجل ذلك كبيرة الحجم جداً ولم تحقق الغرض المطلوب ، ولم يحصل استبدال تلك السفن الكبيرة بسفن أخرى صغيرة من النوع المستخدم في صيد الأسماك الا عندما أوشكت الحرب أن تقترب من نهايتها الأخيرة . وكانت الموانىء الواجب حصارها أو مراقبتها كثيرة وعديدة . وفيما يلي أسماء هذه الموانىء المهمة أو الرئيسية ابتداء من باب المندب في الجنوب حتى ميناء الحديدة في الشمال :

ذباب ، ووهيجة ، وأم قعدة ، وهي تابعة لقبيلة الحكمي ، ثم المخا ويَختُل وأم سحاري (الزهاري) ، وهذه تابعة لقبيلة الزهاري ؛ ثم موشج ، والخوخة (ام خوخة) وقيتابة والحيمة ، وهذه لجماعة حيس ؛ ثم أم متينة (المُتَيْنَة) وأم فازّة (الفازّة) ومُجَيْلِس ، وهذه لقريش (قبيلة قراشيا سفلي) ، ثم الجاح وغُلَيْفِقة وأم طائف (الطايف) ، وهي لقبيلة الزرانيق . وأنا أشير بهذا الى ما يتصل بالموانىء الداخلة ضمن خفر السواحل في جنوب البحر الأحمر ، وأما ما يتعلق بالموانىء الشمالية منه والداخلة ضمن خفر السواحل الشمالية فانها وان كانت بالمثل تحت مراقبة الأسطول والسلاح البحري الا ان الاشراف السياسي عليها كان مصرياً .

وكان الأتراك كما قلت يحصلون على المواد التموينية من مصادر عديدة ، وكانت البلاد نفسها مزودة بالطعام الذي ينساب اليها ، ومجهزة بالموارد الاعتيادية ، وأما الموارد والسلع غير الاعتيادية أو غير المحلية فانهم كانوا يعتمدون بصورة رئيسية على القوافل التي تدخل الى عدن وتخرج منها ، وفي أحيان أخرى على القوارب التي تبحر من عدن قاصدة الموانىء الصومالية ، ولم تكن جميع تلك القوارب تذهب رأساً الى ميناء الوصول الذي تقصده بل كانت تسلك في أغلب الأوقات طريقاً آخر وتفرغ جزءاً من حمولتها في موانىء البحر الأحمر .

وكان واجبنا الأول توجيه الضربات الى الأتراك الموجودين أمامنا على أبواب عدن وغض الطرف عن الفيضان الدافق من مواد التموين والسلع التي تصلهم من مصادر عربية أخرى ! ولقد علمنا بأن قسماً من المواد التموينية وغيرها من السلع التي حملتها السفن الى ميناء الادريسي قد تسربت عبر ذلك الميناء الى الأيدي التركية ، وكان المقدار تافهاً وجديراً بالإهمال . وفي ذات مرة عاتبت السيد مصطفى[١] على هذا التسرُّب وقدمت احتجاجاً على ذلك فقال : « هل تعتقد بأن وزير الادريسي يحب الأتراك لأنه يقوم بتمرير بضائعكم اليهم ؟ لا والله وانما هو متعطش الى عمل صفقة تجارية فقط ، وهو في الحقيقة باق على العهد ، وما زال صديقكم الطيب . انه يعاف الأتراك ويكرههم ، والله !! » . نعم انه ينبغي التجاوز عن هذا العمل لأن الدافع اليه شيء آخر غير الحب للعدو ! ومصطفى هذا كان على الدوام شخصاً مزّاحاً ومُضحِكاً يحب النكتة ! فكان عتابي عقيماً واحتجاجاتي عديمة الجدوى ، أو لم يقل الحديث الشريف « انما الأعمال بالنيّات » ؟ والعربي شخص يحب الربح الفاحش والمال القذر[٢] The Arab loves filthy lucre. والحريري يقول : « لولا التُقى لقلت جلّت قدرته » . وهذه العبارة التي يكتبها

---

(١) السيد مصطفى قريب السيد محمد بن علي الادريسي حاكم عسير حينذاك . راجع ص ١٢٩ ـ ١٣٠ من الجزء الأول .

(المترجم)

(٢) في هذا الكلام مغالطة للحقيقة وفرية على العرب ، وهو تصوير خاطىء يخلق عند القارىء غير العربي صورة مشوهة وكاذبة للانسان العربي ، ولكنه أسلوب المستعمر الذي لا يرحم حتى العادات والأخلاق اذ يعتدي عليها وينهشها مثلما يفعل في الشعوب والسكان تماماً . والكاتب يناقض نفسه مع ما رواه في الفصل ١١ عن شهامة عرب القحرة بباجل وعن رفضهم للهبة والرشوة وعن استضافتهم له ولبعثته ٤ شهور بدون مقابل.

إنه هنا يذكرنا بأفعال قومه وببلاده وكيف اشتهرت بريطانيا بالرخاء لأنها استغلت شعوب الآخرين ونهبت ثرواتهم ، كما اشتهرت بأنها امبراطورية « عظمى » لأنها حكمت وتحكّمت في رقاب عباد الله على الأرض واستباحت لنفسها كل شيء ولكن في سبيل ماذا يا ترى ؟ هل هنالك سبب آخر غير الربح الفاحش والمال القذر ؟ ان العربي شخص نبيل وصادق ووفي ومخلص ولهذا وثق بالشرف البريطاني غير المحدود عندما يكون الانكليز في الجزر البريطانية وغير الموجود عندما يكونون خارج تلك الجزر ولهذا وقف العرب مع البريطانيين جنبا الى جنب في حربين

الحريري واصفا بها الدينار انما تكون صالحة للاستعمال في حق الله وحده ، ولك أن تقارن بين هذه العبارة وبين عبارة « الدولار المعبود ! » «Almighty dollar!» .

* * *

ولقد أبرمنا مع الادريسي معاهدتين الأولى منهما عقدت في شهر ابريل عام ١٩١٥ والأخرى في شهر يناير عام ١٩١٧، ثم قمنا بتزويده بالأسلحة الخفيفة وبالذخيرة تلقائيا ومن غير قيود ؛ واوكلنا الى القبائل الشمالية من رجال الماء القيام بمهمة خاصة وبنشاط معين ،وهؤلاء هم الرجال الذين كان ولاؤهم له من جهة أخرى سلوكاً غير ثابت أو فيه نظر، وما يزال كذلك ، لأن النفوذ الادريسي انما هو في المقام الأول على الساحل ؛ وهذه هي الحالة التي كانت دائمة ومستمرة ، وما زالت كذلك حتى في الأيام الأولى المبكرة والتي كان فيها اشراف « أبو عريش » موجودين في المنطقة ؛ وهؤلاء هم الذين قابلناهم في الفصل الثالث .

وقد استلم الادريسي منا أربعة مدافع حصار قذّافة عيار خمس بوصات، وثلاثين مدفعاً تطلق قذائف زنة كل منها خمسة عشر رطلاً . وبعد الكثير من الإقناع والاستمالة أرسل رجاله من أجل تدريبهم على استخدام المدفعية ، ولكنه بعد ذلك امتنع عن استعمال تلك المدافع مفضلا استعمال المدافع الأخرى التي كان الايطاليون قد أمدّوه بها بدلا عنها وتلك المدافع هي التي كانوا قد قدّموها اليه في عام ١٩١١ ؛ ولقد شاهدت بنفسي مدافعه تلك فكان بعضها مُلقى على ساحل جيزان ، وكان البعض الآخر قابعاً في مخازن بيوته ، أو في مستودعاته ؛ وكانت المعاهدة الثانية متعلقة بجزر الفرسان التي اغتصبها في شهر يناير عام ١٩١٥ من أيدي الأتراك ، ثم قام بوضع اليد عليها واحتلالها ، ولكنه ظل خائفاً من رفع علمه عليها كما ان رفع علمنا كان يعد لعنة عليه ، ولقد أخبرني بأنه على يقين من أننا سوف نكسب الحرب ضد

= عالميتين ، ففي الحرب العالمية الأولى حارب العرب في صفوف الانكليز ضد اخوانهم الأتراك المسلمين من أجل الحصول على الاستقلال ولكن ما ان انتهت تلك الحرب حتى احتلت بريطانيا بلاد العرب وكان ما كان من اتفاقية سيكس ـ بيكو الانكليزية ـ الفرنسية الشهيرة والتي أبرمت في الخفاء كما ان بريطانيا أصدرت على لسان وزير خارجيتها حينذاك وعدها المشؤوم والمعروف بوعد بلفور الذي يهب اليهود قطعة عزيزة من بلاد العرب لتكون وطناً قومياً لليهود . وهذه لعمري هبة من لا يملك لمن لا يستحق ، وفي الحرب العالمية الثانية انطلت الخديعة مجدداً على العرب وغرهم الكلام البريطاني المعسول ووقفوا مع الحلفاء فماذا كانت النتيجة التي أعقبت هذه الحرب ؟ كانت النتيجة لهذا الجسيل العربي أن سلّم الانكليز فلسطين لليهود بعد أن أعدّتهم بريطانيا لذلك في فترة الانتداب ، وتعهدتهم بالتدريب والرعاية ، وسلّمتهم الأسلحة والعتاد والبلاد . نعم انها بريطانيا العظمى ذات المناقب والمثالب والتي يتهم العربي هنا واحد من مستعمريها بما هي به أجدر وأليق .

(المترجم)

المانيا ، ولكنه لم يكن واثقاً كذلك من النهاية المحتومة بالنسبة للأتراك ـ حلفاء المانيا ـ كما انه يعلم بأننا فيما مضى كنا على علاقة ودية وطيبة مع الأتراك ، ومن المحتمل أن نعود بعد الحرب الى سالف عهدنا والى ممارسة سياستنا المعروفة وقد نسمح لهم بالبقاء في اليمن ، وهذا يعني حتماً ان دبابيس واخزة مستديمة ستظل مشرعة في الأيدي التركية اذا تمادى الآن في معارضتهم ؛ ولقد قال لي : «تعاونوا معي ، وأروني سلامة نيتكم ، وصدق عزيمتكم عن طريق طرد العدو من اليمن ، وعندئذ سوف أعمل ضدهم باهتمام وعزم ، وانني اذا ما رفعت عَلَمي فوق الجزر قبل أن يتم هذا فان الأتراك لن يغفروا لي ذلك أبداً ، واذا رفعت عَلَمكم فانهم سوف يقولون انني قد بعت الجُزُر . » . والادريسي لم يستلم من ايطاليا عَلَماً ، ولهذا قال بأن ذلك السلوك قد خفف من غضب تركيا التي أسمته مجرد شخص متمرد فقط ، أو انه الشخص الذي ضلّ عن حظيرة الاسلام ولكن رجوعه أمر محتمل .

وكان الادريسي طبقاً لروح هذه المعاهدة ممنوعاً من استيراد الأسلحة والذخيرة من أية قوة أو دولة أخرى غيرنا ، وكان من غير المشروع عدم القيام بممارسة الرقابة على الاستيراد ، ولقد داس برجليه كل القيود ، وكانت لديه المقدرة على التزود دائماً بما يريده والحصول على رغباته من ميناء جيبوتي ومصوع[1] ، وكان يطلب السلاح باستمرار ، ولا شك ان ثلاث دول تستطيع تزويده بذلك أكثر بكثير مما تستطيع أن تزوده به دولة واحدة . ولقد أخبرته بأن من الخير له عدم التفكير في التوسّع ، وذكرت له المثل الدارج عندهم والذي يقول : « راكب الجملين مفسوخ » ومعناه ان الشخص الذي يركب بعيرين في وقت واحد يفلق فخذيه .

* * *

والادريسي ينتظر منا اليوم[2] معاملة ممتازة متحيزة وتحاملاً على جميع العرب الآخرين

(١) كانت مصوع حينئذ تحت الحماية الايطالية وهي احدى موانىء اريتريا الرئيسية ، أما جيبوتي فانها كانت تحت الحكم الفرنسي وهي ميناء هام في الصومال الذي كان يطلق عليه اسم الصومال الفرنسي وهي تقع الى الشمال الغربي من زيلع التي نشر اليمنيون فيها الاسلام وكانت ذات يوم تابعة لليمن ثم أصبحت تدعى بالصومال الانكليزي بعد أن استولى عليها البريطانيون عنوة وأصبحت اليوم بعد الاستقلال جزءاً من جمهورية الصومال مع ما كان يعرف بالصومال الايطالي قبل الحرب العالمية الثانية .

(المترجم)

(٢) عقب الحرب العالمية الأولى .

(المترجم)

وبالأخص الوقوف ضد الامام الذي قال عنه انه الشخص الذي جاهر بصداقته لتركيا علناً طوال مدة الحرب ؛ ومن التفاهة والعقم الإصغاء الى مثل ذلك ، كما انه لن يتوقع مساعدتنا المقصورة عليه أو الخاصة به دون سواه لا سيما وانه الرجل الذي استشهد كثيراً بالمثل الذي ينهى عن التصرفات المتحيزة والعطاء المغرض : « لا تُكحل عين وعين لا » أو لا تضع قطرات الدواء جميعها في عين واحدة !

* * *

لم تكن الحالة التي كان الادريسي موجوداً فيها كتلك الحالة التي كان يوجد فيها الامام ، فالادريسي يقيم على شاطىء البحر ، ومن السهل على ضباطنا وسفننا وموظفينا الوصول اليه ، أما الامام فانه يسكن داخل البلاد وعلى بعد مائة وخمسين ميلاً من الساحل ، وكان محاطا بسياج من الجنود الأتراك ، وبنطاق من الدعايات الالمانية والتركية ، وقد كان الفوز عليه مستحيلاً تقريباً نظراً لطبيعة البلاد الجغرافية . وفيما يتعلق بموقف الامام منا فان الروح كانت راغبة ولكن الجسد كان ضعيفاً ، وعلى المرء أن يلقي نظرة ولو سريعة على تاريخ الامام وعلاقاته السابقة مع الأتراك ليتأكد بأنه كان أكثر من أي حاكم عربي آخر يمكن وصفه بالخصم العنيد للأتراك ؛ ولقد انحاز اليهم في عام ١٩١١ لسبب خاص وعمله هذا يستحق الحمد والثناء من وجهة النظر الاسلامية ؛ فهل كل ذلك يجعله ميالا الينا اليوم ونحن الدولة الوحيدة المهتمة بانتشار السلام على ربوع اليمن بعد خروج الأتراك من البلاد في عام ١٩١٨ ؟ اذا كان الادريسي وهو الأقرب الينا والأسهل منالا وتحت حماية سفننا قد وجد انه ليس من الحكمة محاربة الأتراك بدون قيادتنا فانه بالأحرى ولأسباب قوية يكون من الصعب على الامام أن يتحرك بل انه قد بقي مشمراً ومنزوياً في تلاله وحصونه الواقعة في الجزء الداخلي من البلاد .

وكان الادريسي من بداية الحرب الى نهايتها حريصاً على منع الامام من أن يصبح صديقاً لنا ؛ وكل واحد من الحاكمين العربيين كان يطمح في أن يصير وارثاً لباقي التركة مع ذهاب الأتراك ، وأن ينال ما يريده من سلع ، فكان الادريسي الشخص الأول والأسبق في الحصول على حصته من الارث ، ولو أن الامام حذا حذوه لكانت مكاسب الادريسي من الغنيمة أصغر وفرصته أقل أو متناسبة ، ولهذا كان قلقه وانزعاجه ومن ثم كانت سياسته في ابعاد الامام وفي التنفير منه .

وكان غالبا ما ينكر على الامام مطالبته بالحديدة بالرغم من انه اعترف بانها المفتاح لصنعاء ؛ وفي احدى المرات طلب منا أن نضع أيدينا عليها ، وعندما رفضنا تكذيب سياستنا

المحددة والثابتة رغبة منا في انكار للذات وفي البقاء بعيداً عن الأضواء ، اقترح وجوب قيامه مع بالاستيلاء عليها ! ولبلوغ هدفه تودد الى رجال قبائل الامام الرئيسية من حاشد وبكيل، وطلب منا تزويده بالاعتمادات الضرورية من الأموال من أجل تجنيدهم للخدمة . وهؤلاء القوم توجد لديهم روح الاسترزاق ، ويتبعون الرجل الذي تكون ثروته أكبر وكيس نقوده أطول ؛ ولقد جنّد الادريسي عدداً قليلاً منهم فأخذوا نقوده وأطلقوا القليل من العيارات النارية ثم ارتحلوا فارين فجأة لأن قلوبهم كانت مع الامام سيدهم الحقيقي وزعيمهم الشرعي .

ولقد رفض الادريسي كل عروض الصداقة والتفاهم التي تقدم بها الامام ، وكان عليّ القيام بتأييد كلا الزعيمين لأنني أنا الشخص الذي كان المسؤول في المقام الأول عن تأمين التحامهما والتصاقهما في مدة الحرب . والامام ينحدر من بيت تاريخي عريق ؛ أما الادريسي فانه حديث العهد متطفل ونبت فجأة في هذه المنطقة . وعندما اندلعت الحرب كانت حدود الادريسي كما يدعي تمتد من الشمال الى الجنوب ما بين البرك وحبل على التوالي ، وكان من المحتمل أن يقوم بتهديد المناطق الواقعة خلف البرك وفوقها وهي التي يدعيها الحجازيون ويطالبون بها . وكان يُمنّي نفسه بالزحف على المناطق الواقعة تحت حبل وهي التي تعد من أملاك الامام أو بعضاً من تركته .

وكانت سياسة الادريسي تقوم على أساس استمرار العلاقات مع أولئك الذين على أطراف حدوده حيث كان نفوذه عليهم وهمياً ومبهماً وأن يمسك بيد من حديد بالنسبة لهؤلاء الذين بجواره والمحيطين به من حوله خوفاً من أن يصبحوا أقوياء عليه . وقد طلب الى جنوده المرتزقة أن يعملوا بعيداً هائمين على وجوههم لأنه من المفيد له أن يقوموا بتوسيع حدوده حتى اذا ما انقلبوا الى متمردين وضعوا أيديهم على ما استولوا عليه بعيداً عنه ، وهذا أفضل من أن يصبحوا كذلك وهم في مساكنهم القريبة منه ؛ وكانت اللحية والحديدة من مرابع الصيد المحددة لأولئك الجنود المرتزقة على أن يتوغلوا بعد ذلك بعيداً والى مناطق أخرى مثل باب المندب أو ما يسمى في اللغة الدارجة « بويب » أو البوابة الصغيرة . ولقد رغب في انتدابهم أيضاً الى داخل عسير حيث كانت مطامع ابن عايض أكبر ومصالحه تختلف وتتعارض مع مطامع الادريسي .

وكان الادريسي يسخر من مطالب الامام المتعلقة بالأراضي السهلية والساحلية من اليمن وهي التركة التي ورثها عن أسلافه من الأئمة . وقد ازداد جشع الادريسي عشرة

اضعاف عندما علم بأن القنفذه قد سُلِّمت مؤقتاً الى الملك حسين ، وان الأخير قد انتدب السيد يحيى بن عبد الرحمن (كان يُدعى في عدن « العباءة الخضراء » من باب رفع الكلفة) للقيام بتامين نقل الرسائل من قبائل حاشد وبكيل وهي التي تطالب بالتدخل الشريفي . والملك حسين وأولاده يملكون أفواهاً واسعة هائلة ، انهم يفيدون من كل شيء أو يحولون كل شيء لمصلحتهم[1] .

ولقد وجه الادريسي اللوم الى الامام لعدم نقضه معاهدته التي أبرمها مع الأتراك وأضاف بسذاجة قائلاً : « اذا رغب ابن حميد الدين في البحث عن طريق يسلكه فان الله سوف يساعده ! » ولقد كان انجذاب الادريسي الينا والتحامه معنا وتوددنا اليه من أجل حفظ التوازن بالنسبة الى الأتراك الذين كانوا مُجدِّين في طلب استدعاء اليمن الى الجهاد ؛ وقد استفاد الادريسي نفسه عن طريق القيام بايقاف القوات التركية وتعطيلها عن الحركة ومنع انضمامها أو اتحادها مع القوات الأخرى الواقفة ضدنا في عدن ، ومع ذلك فان الأتراك في هذه المنطقة كانوا متمتعين براحة تامة وفي ترف ، فلم يكن من المحتمل ذهابهم الى الجنوب ، كما ان علي سعيد باشا لم يكن راغباً في أن يكونوا هنالك بالفعل .

لقد شرحت سكون الامام وموقفه السلبي علاوة على انه كان يوجد هنالك سبب أعمق وهو عجزه عن المعرفة الصحيحة لما كنا قد تعهدنا به للادريسي ، وهي القصة القديمة لاسحق[2] Isaac والموقف المُرتَقَبْ لنجليه عيسو ويعقوب (Jacob and Esau)والاختلاف في هذه القصة ان الابن الأكبر لإسحق وهو عيسو (Esau) كان يعرف الأسوأ[3] وكانت لديه الفرصة لإدراك خططه المستقبلة وأهدافه المُقْبِلَة ؛ وأما الامام فانه استطاع الحدس والتخمين

---

(١) راجع كلام المؤلف عن الملك حسين ورأيه فيه في مكان آخر من كتابه وما أورده عن بعض مسلمي الهند وتعليق المترجم على ذلك .

(المترجم)

(٢) اسحاق هو ابن ابراهيم وسارة ولقد تزوج برفقا ورزق منها بولدين هما عيسو ويعقوب فباع عيسو البكر حقوقه من اخيه يعقوب مقابل وجبة طعام ؛ ويعقوب تزوج ليا وراحيل ورزق اثنا عشر ولداً أشهرهم يوسف الحسن وباسمهم سميت اسباط بني اسرائيل الاثنا عشر . وقد ذكره القرآن بين الأنبياء .

(المترجم)

(٣) ان عيسو هو الابن البكر لاسحق ولقد باع بكوريّته الى أخيه يعقوب مقابل خبز وصحن من عدس فاحتقر عيسو البكورية . راجع سفر التكوين الاصحاح الخامس والعشرين من الكتاب المقدس The Bible .

(المترجم)

فقط ، وقد أكبر المزايا التي كان يتمتع بها منافسه ، وبالغ من أمر وصاله معنا بسبب الغيرة.
وكان اليأس الكامل من مساعدتنا له ومن كسب وصالنا قد ترك عنده عزاء وسلوى عن معرفة الأسوأ أو عن عمل ترتيبات أخرى . وان حياده على الرغم من أنه كان بين فكي رحى الحكم العسكري التركي قد برهن على قوته وكشف عن ضعف الأتراك ، وكانت خدمته لنا كمتفرج سلبي لا تقل فائدة في تحقيق هدفنا عن أعمال الادريسي المتقاعسة والتي كانت تفتقر الى الحماسة اذ كان الأخير من حين الى حين وعندما يحصل على المساعدات من سفننا الحربية يقوم بجهود متقطعة في حقل نشاطه ضد العدو وفي مقدمة جيشه أو عند خطوطه الامامية ، ثم يلجأ بعدئذ الى الأساليب السياسية ؛ ولقد فرّ عدد كثير من الأتراك الى معسكره ، وسمح لهم بالبقاء بحرية في أسواق جيزان ومنحهم حق الإقامة ، ولم يرغب في تسليم هؤلاء الينا لاحتجازهم أو حبسهم ، فكان يخطو بحذر ويتطلع بأمل ، واضعاً رهانه على كلا الجانبين ، فاذا خسر أحدهما كان كسبه مرجواً .

ولعله من الممكن التعبير بايجاز عن المغزى الأدبي لهذه الحرب في اليمن بأنه كان يتم العمل لصالحنا على مثل هذا النمط ، فكان فشلنا في هزيمة الأتراك أمام عدن وعلى أبوابها أعظم سبب لضياع هيبتنا في هذه البلاد ، ومما لا ريب فيه ان الهيبة البريطانية واحدة أو كل لا يتجزأ ، كما ان ضياعها يكون باعثاً على الحزن والأسى على حد سواء ؛ فنحن في أي مكان نحل أو حيثما نكون نظل بريطانيين ؟

ولقد تكشفت الأمور عن أن غاليبولي كانت مسألة ثانوية ، كما ان وادي الرافدين كان أيضا حالة أخرى مشابهة كذلك حتى تبنّى الاضطلاع بادارة دفة الأمور هنالك الجنرال ماود Maude بتأييد من وزارة الحرب بعدما أصبحت هذه الجبهة الأمامية مساوية في الأهمية لتلك الجبهة الأخرى في فلسطين ، وفي كلتا هاتين الجبهتين تلقى الأتراك الضربة القاضية وتم وضع المسمار الأخير في نعشهم ، ولو اننا نجحنا في هزيمتهم في اليمن أو في تحطيم روحهم المعنوية هنالك لكان هذا كافياً في أن يجعل منّا اليوم حكاماً لا ينازعهم أحد في تقرير مصائر جميع الناس في جزيرة العرب ، ثم في توزيع التركة أو المخلفات .

أما عن الأدوار التي لعبها « الملوك العرب » في الحرب والخاصة بكل منهم على انفراد فمن الممكن اجمالها وتلخيصها كما يلي :

كان حسين صاحب الحجاز مكرهاً على العمل ضد الأتراك والفضل يعود الى لورانس ومن معه من ضباطه وموظفيه . وكما ان حسين كان مرغماً فانه كان مدفوعاً أيضاً بالنجاح الذي أحرزه اللورد اللنبي ؛ ومع ذلك فان واحداً من أبنائه كان منشغلاً بشكل فعال طوال الوقت

بمقاومة ابن سعود صاحب نجد لإعاقته عن النهوض ولمنعه من الارتقاء الى السلطة ، والأخير نفسه كان حليفاً لنا .

فلقد كان ابن سعود راغباً في العمل ضد الأتراك ، ولكن الأسلحة والذخيرة كانت تنقصه ، وكان من المعتقد بأنه ليس من الفطنة وحسن السياسة منحه أياً منها خوفاً من أن يقوم أتباعه الاخوان المتعصبون بالتغلب على صديقنا صاحب الحجاز ، وكان لابن سعود كل الحق في استنكار الاعتداءات التي قام بها الأمير عبد الله ؛ ولقد هزم ابن سعود القوات الحجازية هزيمة منكرة في احدى المعارك المشهورة . وبعدئذ برهن عن قوته وأظهر صداقته لنا بكبح جماح الاخوان الذين كانوا بطريقة أخرى يرغبون في أن يعيدوا التاريخ من جديد وأن يُكرروا سيرتهم عندما احتلوا مكة في عام ١٨٠٤ .

وكان الادريسي يقوم بهجمات هنا وهناك بفتور وبعزيمةٍ تعوزها الحماسة ثم يلوذ بعد ذلك الى الأساليب السياسية .

وأما الامام فانه أعلن حياده ومارسه قولاً وعملاً .

كل ذلك حدث انقضى وفات وانتهى رغم ما قيل ويقال وعلى أية حال فان للملوك العرب بعض العذر في تقاعسهم عن العمل وفي اللامبالاة .

ونحن نعرف قصة الثيران الثلاثة الأبيض والأسود والأحمر التي يحكى بأنها كانت ترعى في المروج الخضراء بهدوء وسلام حتى طلع عليها ذات يوم أسد وعندما شاهدها هنالك تأكل حشائش المرج وكل واحد يقف بجانب الآخر عرف بأنه عاجز تماماً عن ارهابها مجتمعة لأن قوتها تكمن في تضامنها . فاتجه الى الثورين الأسود والأحمر وخاطبهما قائلاً : « لقد التقينا ، وكل فريق يتدبر الأمر ويتفحصه لكن الثور الأبيض ذو لون مختلف وهو ما يمتاز به عنكما في حين ان لوني شبيه بلونيكما فاتركاني ألتهمه وبعد ذلك تبقى الغابة ملكا لكما الاثنين فقط » ، فقبلا بذلك ووافقاه عليه وبعد فترة توجه الأسد الى الثور الأحمر مخاطباً : « ان لوني كلونك تماماً فدعني وشأني مع الثور الأسود لافتراسه » . فكان الأمر كذلك ، ولما فرغ من التهام فريسته وثب على الثور الأحمر ورفع قوائمه وهو يرتل مزمجراً : « يتحتّم عليّ الآن افتراسك » .

وقُبَيْل موته صرخ الثور الأحمر قائلاً : « لقد أُكِلْتُ وحانت منيتي في ذلك اليوم الذي أُكِلَ فيه الثور الأبيض . » . وهكذا الحال مع الملوك العرب ؛ لقد خافوا جميعاً من نتيجة الحرب وآثارها ، ولعل الخوف الكامن في العقل الباطن لدى كل منهم والذي راود نفوسهم وترسب في أذهانهم قد عزز من جهودهم الشخصية الى حد ما وجعلها أكثر تصلباً . فجميع أولئك الثيران

العرب رغبوا في اختفاء الأتراك زملائهم في الاسلام واخوانهم في الدين والعقيدة - نعم انهم كانوا كذلك حتى الامام المحايد - ولكنهم شعروا جميعا بالأمر الذي يبيته لهم الأسد البريطاني أو بما يبطنه لهم من أهداف خفية ، ومقاصد خلفية .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها لم يقبل أي واحد من أولئك الملوك العرب بالإلحاق البريطاني أو الضم الممكن فلم يستطيبوا التبعية المحتملة أو حتى مجرد الانتداب البريطاني .

ولقد تغاضيت عن ذكر قصف مدينة جُدة بالمدافع وهو الذي حدث في شهر يونيو عام ١٩١٦ ، كما أهملت ذكر الكثير من حوادث الحرب الصغيرة في عدن . وقد جاء قصف مدينة جدة كصدمة بالنسبة الى الهند غير ان الهند ومصر نظرتا حينذاك الى الحركة العربية (النهضة العربية) بمنظار مختلف ؛ وأنا أعتقد بأن عملية القصف كانت غلطة ، وانها تمت بتحريض من عرب الحجاز ، ولقد تحدثت بعد ذلك بوقت قصير الى أحد مواطني مدينة جُدة وسألته كيف يوافق على اقامة الوكالة البريطانية والوكالات الأخرى هناك اقامة وقتية فأجاب بأنها حالة من حالات الاقامة الجبرية أو انها حالة اختيار قهري واضطراري ، A Case of «Hobson's choice» أو كما عبر بقوله « من شىل أمنا هو عمنا » أو من تزوج بأمي يصير عمي .

لقد هوجمت الكعبة في أيام عبد الملك الخليفة الأموي ، وقام الحَجَّاجُ في عام ٧٣ هجرية بمحاصرة ابن الزبير في مكة وأطلق من منجنيقه الحجارة على بيت الله فتلى ذلك هبوب عاصفة عارمة كانت مصحوبة برعد وبرق ومطر .

* * *

وبعد اعلان الهدنة سلمت القوات التركية نفسها الينا ، فاستسلم البعض منهم في عدن واستسلم البعض الآخر في كل من ميناءي الحديدة واللحية على البحر الأحمر ، وقد أخذ دخول علي سعيد باشا الى عدن الشكل الذي يكون عادة عند دخول الأشخاص المنتصرين فاستقبلته الجماهير بالهتاف والتحية . وكان علي سعيد باشا قد حارب بيد نظيفة وحافظ على مركزه عندما احتل لحج البلد العدو مدة تزيد على ثلاث سنوات . انه أولا وقبل كل شيء رجل عسكري ولكنه كان مع ذلك اداريا ممتازا ، ورجلا قديرا فذا للغاية . وفي خلال المدة التي قضاها في الجنوب بعد نزوله من مرتفعات الشمال أكسبته شخصيته الكثير من الأصدقاء .

* * *

لقد أوشك الوقت على الانقضاء ، اذ دنا ميعاد الرحيل وحان الأجل ؛ وبعد ٢٨٨ عاماً مشى الأتراك دفعة واحدة الى البحر وتركوا وراءهم شواطىء اليمن الخضراء ، وكم أنا حزين

لرؤيتهم راحلين ؛ ومع كل ما فيهم من عيوب فانهم كانوا بحق أناساً شرفاء ، وأبطالاً نبلاء ، متحلّين بالشهامة والفروسية ، وكانت معرفتهم بالعرب شيء فريد . ولقد ظن البعض بأنهم كانوا طغاة مستبدين ، كما يظن بعض الناعقين بأن حكمنا في الهند ظالم ومستبد . انّ سيدة سيراكيوس[1] العجوز كانت تبتهل الى آلهتها كما تتقدم اليها بالصلوات والأدعية والقرابين لتحفظ حياة الطاغية ديونيشيوس Dionysius وكانت تفعل ذلك خوفاً عليه من أن يموت فيخلفه طاغية أسوأ منه ! ولسوف نرى عما قريب ماذا سيحدث للورثة العرب ، وكيف سيكون مصيرهم ومسلكهم لأنهم الخَلَفُ الذين تقاسموا ارث « الاروام » وتركتهم .

* * *

﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ ، (قرآن كريم) .

* * *

ولعل إلقاء بعض الأضواء القليلة والجانبية على السيد الادريسي وذكر معلومات عرضية عنه لن يأتي في غير موضعه ، فالسيد محمد بن علي بن محمد بن أحمدبن ادريس - اذا ما منحناه اسمه الكامل - كان رجلاً جديراً بالملاحظة ، وانساناً غير عادي . انه مغربي الأصل ذو طلعة بهية وتقاطيع جميلة وجسم متناسق ، وهو يتهادى في مشيته كالملوك . وكانت ابتسامته ساحرة ، أو كما قيل في الرسول « ضحكه ابتسام » ، وكنت ملابسه بسيطة ولكنها على الدوام نظيفة ، ووجهه أسود ولكنه جميل ووسيم ، وقد منحه قومه اللقب الرفيع وهو « أمير المؤمنين ، وناشر دين الله رب العالمين » في حين ان الاسم الذي اختاره لنفسه في البداية أو في تاريخ مبكر كان هكذا : « حاكم صبيا في البلاد الادريسية الشريفة » . ولقد رفض أسلوب حديثنا معه أو طريقة مخاطبتنا له كـ « أمير لعسير » أو « حاكم عسير » لأنه اعتقد بأن هذا الاسم قد يُسخط العرب الآخرين المطالبين بهذا الاقليم ويلهب مشاعرهم ؛ ولكنه بعدئذ وعندما كان استياؤه مريراً على ضياع القُنفذة أحدث تغييراً كاملاً ومفاجئاً في الموقف والمبدأ . وقد اعتقد بأن الكلمات « حاكم صبيا وملحقاتها » شيء تافه يحط من القدر ، وسوف يعتقد الناس بأن ليس لديه طموح أسمى ، أو بأنه لا يملك أهدافاً أنبل بالمقارنة مع الأتراك ؛ فرجعت بعدئذ الى عبارة (مولى عسير) أو (سيد عسير) ، ولا ريب ان هذا الاسم قد حرك شهيته ، وأعطاه حافزاً للعمل !! ولقد انطلت الحيلة على السيد محمد بسهولة ، فابتلعها بسرور ، أو لم نكن

---

(1) سيراكيوس Syracuse أو سيراكوسه Siracusa مدينة ايطالية تقع في الشمال الشرقي من جزيرة صقلية على البحر الأبيض المتوسط ، ويبلغ عدد سكانها اليوم حوالى ٦٣,٣٠٠ من النفوس تقريباً .

(المترجم)

بذلك قد ورطنا أنفسنا في الاعتراف بحقوقه على القنفذه التي تقع على الحدود بين الحجاز وعسير ؟!

وقبل مقابلتي الأولى للادريسي طلبت من وزيره باساهي وصف المظهر الخارجي لسيده فسألته : « هل يشبه ابن عمه السيد مصطفى تماماً ؟ » فكان الجواب الصريح الساذج « انه أقبح قليلاً » وكان التعبير بلهجة عامية مصرية « أقبح شوية ! »، ومصطفى - الذي يعيش الآن في الأقصر بمصر - رفيق وسيم في الحالات المرحة المُبهجة وشخص ملائم كريم في العادات الفاتنة الساحرة ! ولقد ساهم مساهمة فعالة في محادثات المعاهدة الأولى التي أبرمت مع الادريسي في شهر ابريل عام ١٩١٥ واشترك فيها بصفة رئيسية .

وكان الادريسي في بداية الأمر يستقبل ضيوفه في الغَسَقِ فقط وبعد أن يرخي الليل سدوله، وقد سخرت من هذا الأسلوب عندما وصلنا الى جيزان ونزلنا الى البر ليلاً كاللصوص ويبرر موقفه قائلاً انه يتحتم عليه التزلّف لرجال قبائله تلبيةً لميولهم ومراعاةً لأهوائهم ، ولما سألته عن نفوذه عليهم اذا بالادريسي ينتفض ويُجْفِل ، وبعدئذ يؤكد لي بابتسامته الفريدة بأن كل شيء سوف يسير سَيْراً حسناً ويأتي على الوجه الصحيح إن شاء الله وفي الوقت المناسب عاجلاً أو آجلاً . وبعد ذلك أو منذ عهد قريب أصبح الزوار ينزلون الى البر بطريقة اعتيادية وينطلقون راكبين الى صبيا والى أماكن أخرى في وضح النهار . ولقد أخبرني أحد الأشخاص بأن الايطاليين لم ينزلوا الى الشواطىء الادريسية أبداً .

ولقد سخر ملك الحجاز من تلك المقابلات التي كانت تتم عند منتصف الليل ؛ ولكن حسين لم يكن من الناحية الأخرى يحب محمداً !!.

* * *

ان النغمة الختامية لصوت الادريسي الجهوري الرنّان أو عند المقاطع الأخيرة للكلمات قد تثير المرء . وعقل الانسان كما يقول العرب مختبىء تحت لسانه . ولقد كانت لغته العربية ممتازة أو من الطراز الأول وهي تليق بطالب حلّ بالأزهر ، فكان من حين الى آخر يصبح أكثر تحمساً وتهيجاً واثارة ويرفع صوته مثل ثور باشان[1] ، Raise his voice as a bull of Bashan وفي أثناء احدى الخطب الطويلة التي ندد فيها بجمودنا عن الحركة ألقيت بنفسي الى الخلف على الأريكة (الكنبة) ومكثت ساكنا ومتحملا ، وكان الوقت متأخراً حيث امتد الحديث الى ما بعد الميعاد المألوف ليلاً ، وكان لزاما عليّ العودة الى السفينة ، وعندما انتهى من

(١) باشان : اقليم في فلسطين القديمة يقع الى الشرق من الشمال الشرقي من بحيرة طبرية (أو بحر الجليل Sea of Galilee) .

(المترجم)

حديثه نهضت للذهاب فقال لي « امكث فما تزال عندي ثلاث ساعات لمناقشة الموضوع » فأجبته « وأنا عندي ثلاث ساعات أخرى ، ولكنني لم أتناول طعام العشاء بعد وسوف نستأنف الحديث غداً ان شاء الله ثم نسترسل فيه » .

وعندما تجرأت في ابداء الملاحظة على تصرف وزيره الذي سمح للسلع والمواد التموينية بالذهاب الى الأتراك في داخل البلاد قال ا ن الموضوع خارج عن حدود معرفته وليس له رأي فيه لأنه شخصياً رجل دين ، وقد ترك الشؤون التجارية لوزيره فاستشهدت بالحكمة المأثورة (المستشار مؤتمن) أو يجب على مستشارك بأن يكون أميناً ، فظهر عليه الارتياح حيث اعتبر نفسه شيئاً آخر مختلفاً عني ومغايراً لي لأنني عندهم رجل سياسي أو (صاحب السياسة) . وذات مرة كان منشغلاً بشؤون الدولة على الشاطىء فأقلعتُ الى البحر في رحلة قصيرة لمدة ساعة حيث زرت البريك (أم بريك) وكان باساهي موجوداً معي ، وبينما كانت السفينة تفلت من مراسيها وتتحرك نظر اليها الادريسي مذهولاً ، ولكنه استفاق وقال لكاتبي بهدوء « حسناً ! هذه ليست حكومة خائنة أو مخادعه ما دمت أتعامل معها » . وعندما كان واحد من رجال قبائل هذا الميناء يتناقش مع جمعٍ من الناس عن الحكومة البريطانية قال : « اذا ذهبت بريطانيا ـ لا سمح الله ـ فاعلموا أيها الاخوان بأن العدل قد ذهب ! » .

ولقد سألت السيد الادريسي ذات مرة لماذا لم يتخذ خطوات عملية وايجابية في اصلاح مينائه أو ترميم الرصيف الممتد الى البحر فقال : « أنظر أنت الى الناس التافهين والحقيرين الذين عاشوا في جيزان ستين سنة ، انهم لم يبنوا مسجداً فكيف تظنهم يبنون رصيفاً ؟ » .

ومما كان يُحكى عن النساء والفتيات في أبو عريش والمنطقة المجاورة أنهن من النساء الجميلات وبأنهن على درجة كبيرة من الفتنة والحُسْن والمثل يقول : « من راح أبو عريش رجع بلا ريش » ، وهو يكون كذلك لأنه ينفق كل ما لديه من مال ونقود أو قد يرهن حتى ثيابه لشراء الهدايا التي يقدمها لتلك العذارى الحسان !

وأخيراً حان الأجل فقد انتقل السيد محمد بن علي الادريسي الى رحمة الله ، وذهب الى جوار ربه بعد أن كان صديقاً حقيقياً وصادقاً وفياً ، ومؤمناً قوي الايمان بإخلاص الأمة البريطانية وبحسن نيتها . وقد تولى الحكم بدلا عنه ابنه علي .

* * *

﴿ان المُتقين في جَنَّات ونَهر ، في مَقْعَدِ صدقٍ عند مَلِيْكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ ، (قرآن كريم) • الآيتان ٥٤ ـ ٥٥ من السورة ٥٤ (القمر).

الفصل العاشر

[بعض الشخصيات التركية]

« أنا أصف الرجل وأروي عنه فقط ،وعلى الآخرين أن يتصوروه ثم يكوّنوا أفكارهم عنه » .

١ ـ الجنرال علي سعيد باشا :

اختلطت بهذا القائد التركي حين استسلامه الينا ، فعرفته عن كثب في كل من عدن في بداية الأمر ، ثم في القاهرة وحلوان بعد ذلك ، وأنا أرغب في أن أصف شخصية الرجل وجاذبيته المغناطيسية ، ولقد أشرت فيما سبق الى سبب مجيئه نحو المنحدرات السهلية ، ولماذا كان مكرها على احضار جنوده من الشمال الى الجنوب في اتجاه عدن . وفي عدن نفسها كان يوجد ارتباك واضطراب بين المدنيين العدنيين عندما تحرك هذا القائد زاحفاً نحو الجنوب، ولقد حكى واحد من ضباط الأركان الأتراك لصديق له بأن المواد التموينية أصبحت قليلة وبأنه تطلع الى الأمام متلهفاً الى جرعات باردة من الويسكي ليبل بها غليله بعد احتلال عدن ! وهذه الملاحظة في مضمونها وفحواها تشبه جسماً كروياً من كرات الثلج المتدحرجة ، والسريعة الذوبان ، أو لم يكن علي سعيد باشا قد عبر بكلمات أطلقها صراحة بأنه سوف يؤدي صلاة الجمعة المقبلة في جامع العيدروس بعدن !! ولقد حقق زحف الأتراك ونزولهم من الجبال غرضاً مفيداً وأسدى الينا خدمة غير مقصودة باحتلال المناطق الخاضعة لنا (التابعة للتاج) اذ برهن هذا الزحف التركي على ثبات المكان الذي نقف عليه ولا سيما في نظر حلفائنا العرب وفي اعتبارهم بالرغم من تقهقرنا المشؤوم في عام ١٩٠٧ . ولقد كانت الحاجة ملحة الى اختبار حلفائنا واكتشاف أعدائنا ، وبعض الأمور الضارة قد تكون محمودة العواقب ، ولهذا يمكن معرفة السبب الذي حدا بالمصريين الى تمجيد ذكرى حادثة دنشواي على لسان شاعرهم حافظ بك ابراهيم الذي برهن في شعره على وجود الأمور النافعة نتيجة للأشياء الضارة وبأن روحاً طيبة قد تتولد بسبب الأعمال الشريرة اذ يقول:

فليت كرومراً قد دام فينا ... يطوّق بالسلاسل كل جيد

ويتحف مصر آناً بعد آن ... بمجلود ومقتول شهيد

لننزع هذه الأكفان عنّا ... ونبعث في العوالم من جديد

والقرآن الكريم يقول : **﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾** .

ان الجنرال علي سعيد باشا كان قائداً شهماً وادارياً محنكاً حارب بطهارة وشرف وبنظافة يد لدرجة انه كسب عن جدارة وعدل هذا اللقب « بايارد تركي Tur Kish Bayard » أي التركي الرفيع أو الرجل الشريف ذا الجرأة العالية ؛ وكانت مروءته صفة بارزة في خدمته العسكرية وفي شهرته الحربية ، وعندما تحطمت احدى طائراتنا في لحج كتب الباشا مذكرة الى عدن مثنياً فيها على بطولة الطيارين ومؤبّناً أرواحهم ، وعارضاً ارسال جثثهم للدفن . ان شخصيته كانت مغنطيساً أصيلاً لا يجذب الابرة فقط ولكنه يضفي عليها قوة لاجتذاب غيرها ، فكان الجميع في كل أنحاء البلاد مفتونين تحت تأثير جاذبيته ومسحورين به . والصوماليون وصلوا أيضاً من بلادهم أو تسللوا من عدن للانخراط في عساكره والانضمام الى جنوده . والرجل الصومالي يحب القتال فهو مثل الرجل الايرلندي لا يكترث بالجانب الذي يميل اليه ، أو لا يهتم بأي من الجانبين ينحاز له ، ولو اننا رغبنا في خدماتهم لانضموا الينا أو لعلهم كانوا فاعلين . واخوان العميري الذين هم من أصل عولقي واستوطنوا لحج كانوا مفتونين بهذا الرجل الجذاب ومخلوبين به ، ثم أصبحوا شوكة دائمة ومستمرة في جنبنا . لقد نفخ فيهم جميعاً هذا الجندي الشركسي روح العقيدة التي هي عبارة عن نداء الاسلام للقتال ذوداً عن حياضه ، ودفاعاً عن النفس وكان الفيضان المستمر من بلاغاته يتحدث عن الاسلام وعن مناعته باعتباره الدين الذي لا يُغلب ، وكان سلوكه يجد في القرآن عزاء وسلوى ، أو ان مذهبه كان سلوكاً قرآنياً **﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين﴾** وكانت الاعلام الاسلامية ترسل الى الكثيرين من محبينا وقد استطعت الحصول على واحد من تلك الاعلام المصنوعة من الحرير ولكن تسليمه الى الكافر كان سبباً في القيام بغارة ليلية على بير أحمد وفي إلقاء القبض على الشيخ الذي تم احتجازه في لحج ولكنه عومل بلطف . ولقد كان الباشا شخصاً مفعماً بالنشاط والحيوية ومملوءاً بالثقة بنفسه وفي بواعثه وفي الايمان بغاياته وأهدافه فهو لم يكن مثل ايليجه[1] Elijah الذي جاء وجلس تحت شجرة العرعر ، والعربي يقول عن التركي « تعوذ من التركي لا[2] دبّر » أي احذر من التركي اذا ابتدأ يخطط .

---

(١) ايليجه Elijah أو إلياه بالعبرية اسم لأحد أنبياء اليهود في القرن التاسع قبل الميلاد .

(المترجم)

(٢) كلمة لا هنا تعني اذا وهي تظهر غالباً في شعرهم الشعبي وأدبهم العامي .

(المؤلف)

كانت هذه الحرب المتقلبة . والمتقطعة المقلقة أمام مدينة الشيخ عثمان وعند مشارفها عبارة عن سفك دم المسلم بيد أخيه المسلم ، وقد كتب واحد من جنرالاتنا مشفقاً ومستعيذاً من تلك الخسائر في الأحياء ومتأسفاً من ضياع الأرواح ، واقترح استسلام الجنرال علي سعيد ، فجاء الجواب صريحاً واضحاً لا مواربة فيه ولا تردد اذ قال علي سعيد في رده : « أنا رجل عسكري لا سياسي ، ودوري ينحصر في خوض غمار الحرب التي عليها ربيت وتحت تعليماتها وأوامرها خدمت وترعرعت ، والاستسلام أمر مستحيل ، ونحن هنا ضباطاً وجنوداً موجودون جميعاً من أجل القتال ، وعلى استعداد للعمل في كل الأوقات ، ولا شيء يثنينا عن بلوغ أهدافنا أو يستطيع ايقافنا . ونحن نفخر بالموت ونباهي به وان أباطيل هذه الدنيا قد تغرينا ولكن مفعولها ضئيل . ونحن لا نقبل غير أوامر سلطاننا الخليفة ولا نصغي الا الى تعليماته وسوف ندافع بأرواحنا عن بلادنا الطاهرة ، وأرضنا المقدسة ، وما الذي يستطيع أن يحدثه فينا تمرد شريف مكة ، أو الادريسي وهما لا يمثلان الا قسماً ضئيلاً من مجموع العالم الاسلامي ؟؟ وعليهما أن يتوقعا نتيجة عملهما المشين ويرتقبانه ، وأنا لا أولي قطع خطوط المواصلات والامدادات عني الا اهتماماً ضئيلاً ، وهذا الشيء كنت أعرفه منذ البداية ، ولكن عزمي كان قوياً وسيظل ثابتاً لا يتزعزع ، وباستطاعتي الاستمرار في القتال ثلاث سنوات أخرى لأنه ليس عندي نقص في السلاح ولا في التموين أو العتاد ولا في النقود ، وعندي من شجاعة رجالي وبأسهم ما يكفيني ، وعناية الله تحيط بي فلا تأسفوا على حياة المسلمين وأرواحهم ، ولا تحزنوا لأحوالهم فاننا سوف نسمع قريباً عن سقوط لندن وباريس » .

انه كان بحق رجلاً فذّاً ، وفي ذات مرة أبديت له ملاحظاتي على مهارته الادارية ولكنه ردّ عليّ بسرعة قائلاً : « الله يسامحك ! انما أنا جندي فقط » .

ولقد أنشأ هذا القائد الطرقات وبنى الجسور ، وشيّد مستشفى لرجاله في لحج ، وأصلح مشاريع الضرائب الجديدة المفروضة على الأرض ؛ ولقد سخر من فكرة مجرد انشاء خط حديدي بين الحديدة وصنعاء فقط وهو الذي كان بمفرده عبارة عن خط استراتيجي لم يقصد به غير السيطرة على البلاد ، ورسم لي أفكاره الخاصة حول انشاء شبكة من السكك الحديدة تنتشر وتتفرع في كل أنحاء تهامة ، وعن مشاريعه لإنشاء الطرقات التي سوف تكون فروعاً لتلك الخطوط وشرياناً لإنعاش موارد البلاد ، واستثمار ثرواتها ، وجمع المحاصيل وحسن توزيعها .

وكان هذا الضابط التركي يولي السياسيين الأوروبيين اهتمامه ، ولكنه تساءل باستغراب قائلاً : كيف تستطيع تركيا أن تبقي على علاقات طيبة معنا معشر الانكليز طالما

يوجد لدينا قادة وزعماء أمثال لويد جورج Loyd George وأسكويت Asquith وغري Grey ؟ واعترف بأن الصداقة الانكليزية القديمة هي التي كانت سائدة فيما مضى ، وبأن العلاقات الالمانية كانت محل نفور واشمئزاز ؛ ومع ذلك فاننا كنا مدفوعين بناء على طلب من فرنسا الى انشاء علاقات ودية مع روسيا وهذه هي الدولة التي كانت عبارة عن البعبع المخيف والضيف المزعج لتركيا التي لم يكن لها الخيار في غير الانضمام الى الالمان الذين هم أعداء روسيا التقليديين . وكان هذا الضابط التركي يحمل أفكاراً متنورة وواعية ، ومع انه تركي يتبنى آراء حزب « تركيا الفتاة » فانه لم يكن من جماعة أنور باشا ، ولقد أقنعته الخدمة في العراق بأن سياسة س . يو . ب C. U. P. كانت مؤذية اذ تسيء الى مصالح تركيا العليا أو الفضلى وبأن الزمان قد تغير ، وبأن عثمنة تركيا غلطة وخطيئة وبأن الامبراطورية تتألف من جنسيات متعددة ومختلفة ، فكان ارغام العرب على الطاعة كما اقترح أنور عملاً منافياً للعقل ، أولم يكونوا جميعاً اخوة في الاسلام ؟ كما وانه يوجد مكان يأوي اليه الجميع تحت رايتهم ومجال رحب وحيز واسع . وكان هذا التركي يرغب في العودة الى استانبول من أجل العمل على رد الاعتبار الى الأتراك الذين ما زالوا أمة يُعتد بها ويُحسب حسابها ، وعبر عن أمله في أن تقوم بريطانيا بتقديم العون والمساعدة الى تركيا ، وقد اعتقد بأننا اذا لم نفعل ذلك فاننا سوف نواجه صعوبات ونجابه متاعب في السنين المقبلة في سائر أنحاء الهند التي يكنّ سكانها من المسلمين الاحترام والتبجيل للخليفة التركي ، وكان رأيه في الملك حسين يوحي بأنه رجل طيب القلب وحسن النية وطاعن في السن ولكنه ليس مؤهلاً تماماً لزعامة العالم الاسلامي اذ لا يصلح لقيادته . وفي اليمن اعتبر الامام يحيى أفضل الجميع أو الصفوة المختارة في العنقود أو الرجل الوحيد في الاقليم على الرغم من تعصبه المذهبي ، ومع ذلك فانه (أي الباشا) لا يحبه لأن الامام قد فشل في فهم القيمة الفعلية للأتراك الذين أيدوه ودعّموا مركزه منذ معاهدة عام ١٩١١ .

ولقد كان علي سعيد ينظر من خلال المنظار التركي ، أو يشاهد الأمور بنظارات تركية فكان من الصعب عليه أن يدرك المشهد الامامي أو أن يتنبأ بتباشير مستقبل الامام .

ولقد أسدى الباشا الينا النصيحة بأن ندخل السكان الشوافع تحت جناحنا ، ولكنه استعاذ من دخولنا الى البلاد لأن مثل ذلك العمل سيكون وسيلة في يد الامام الزيدي للتشهير بنا وللإعلان عن احتلالنا للبلاد كما ان بواعث تعكير صفو العلاقات بين الزيود والشوافع ستبقى كما كانت من الماضي أو تزداد مرارة .

وفيما يتعلق بمستقبل علاقاتنا أيضا مع العرب الذين كانوا قد جعلوا من أنفسهم حلفاء للأتراك أثناء اقامتهم في لحج نصحنا علي سعيد كذلك كصديق بإعلان العفو العام عنهم جميعاً

قائلاً بأن هذا التصرف من جانبنا سوف يرفع من سمعتنا ويجعلنا نتصف بالحلم والصفح ، وعلى الأخص اذا ما قمنا بمثل هذا العمل بسرعة وبدون ابطاء وقبل انعقاد مؤتمر السلام .

وبعد عودة السلطان عبد الكريم الى عاصمته (لحج) أقنعنا من جانبنا هذا الحاكم بأن يتولى بنفسه القيام بإعلان العفو العام . ومن الممتع ذكره تدوين وجهة نظر امام صنعاء الذي بعث برسالة ودية الى عدن يدافع فيها عن سادة الوهط الذين جاهروا بالخصومة وبالأعمال العدائية ، وتخلوا عن سلطانهم صاحب لحج واتحدوا مع الباشا التركي ، وجعلوا من أنفسهم حلفاء له . ورسالة الامام هذه تقترح على البعض نموذجاً من التدخل غير المسموح به ولقد رأيت فيها غيرة الرجل المصلح أو صانع السلام الذي يرغب في دعوة العرب كافة الى السلم والى قطف ثمار حسناته ، والى قيام علاقات ودية بعد أن هدأت ضوضاء الحرب وخمدت نار الانشقاق والانقسام ، ولقد أظهرت رسالة الامام يحيى وجهة نظره الودية نحونا فهو لم يكن دسّاساً يدير المكائد من خلف ظهورنا ولكنه كان صريحاً معنا وواضحاً ، وكان يكافح جاهداً لاصلاح أحوال البلاد ، ويرغب في التجديد ، وشعار الامام هو (الأمن والتطوير) . فكيف اجبنا على الرجل الذي كان أسلافه حتى في زمن هينس يطلبون التحالف معنا وينشدون نصيحتنا ومشورتنا ؟

وفيما يتعلق بأولئك الزعماء الذين اعتادوا على استلام مرتباتنا بانتظام ثم قصدوا الباشا بحثاً عن تحالفه معهم فان علي سعيد قد أدلى برأيه عن كل واحد منهم ، فوصم الأمير نصر صاحب الضالع بأنه الشخص المعتوه الأحمق أو المتذبذب المتردد الذي لا يستطيع معرفة أفكاره الخاصة به أو التمييز بين تصرفاته . وأما سلطان الحواشب علي مانع فانه كان رجلاً جباناً واجف القلب ولكنه كان مفيداً للأتراك والباشا هو الذي انتزع تحالفه قسراً وأجبره على الولاء والسير في ركابه عندما كان علي سعيد يجتاز المسيمير ويعبر بقواته منطقة الحوشبي ، ولقد احتج علي مانع على ذلك بقوله انه شخص يتمتع بالحماية البريطانية .

وعند الحديث عن السلطان الفضلي حسين بن أحمد قال الباشا : « لقد استغرب الناس عندما أتيت الى لحج وتعجبوا حين حضرت كما عبروا عن دهشتهم . وأنا لم أكن غبياً فلقد عرفت سلفاً بانني لا أستطيع الاستيلاء على عدن لأنكم قد سيطرتم على البحر وأحكمتم الهيمنة عليه ، وحتى مدينة الشيخ عثمان فانني لم أكن أنوي الهجوم عليها أو أقصد اقتحامها » . ثم أخبرني عند ذلك بما سبق أن رويته في الفصل السابق عن مشاكل الامدادات وعن الصعوبات في المؤن والمواد التموينية داخل اليمن ، وعن اشمئزازه وعدم موافقته على

القبول بالقيام في مضايقة العرب على الجانب التركي من الحدود ثم قال لي : « لو ان قواتكم كانت أكثر قدرة على الحركة لكان في امكانكم الخروج بها من أماكنها والاستيلاء على مدافعي . ولقد استدعيت الفضلي وأرسلت في طلبه من أجل أن أصبح قادراً بعد ذلك على التزود بحاصلات بلاده وبمصادر ثروتها وبمواردها الأخرى ، ولقد حصلت فعلاً على معظم السلع التموينية والمواد الغذائية من ابين وشقرة (كلتاهما في بلاد الفضلي) ثم من احور في العوذلي السفلى ومن أماكن أخرى كذلك أكثر بعداً مثل المكلا » .

وجميع تلك السلع والمواد التموينية مُنبثقة أساساً من عدن ومستوردة في الأصل منها وكنا على علم تام ومعرفة جيّدة بذلك التسرّب فتحمّلناه على مضض وسمحنا به للأسباب التي شرحتها سابقاً[1] .

ولقد أعلن الباشا تأكيده بأنه لم يتلق في هذه الحرب مساعدة من الامام الذي عارض الهجوم التركي على لحج بشدة ، ولم ترق في عينيه الغارة التي أطاحت بالسلطان بسبب المعاهدة الموجودة بينه وبين هذا الحاكم ، ومع ذلك فان الامام قد أرسل بالفعل الامدادات والسلع والمؤن الى أولئك الأتراك والعرب معاً الذين كانوا يقومون بالعمليات الحربية على الجانب الآخر ضد منافسه الادريسي ، وشهادة الباشا هذه بالدور الذي لعبه الامام مهمة لأن مصدرها يحمل على الاقتناع والتصديق .

وفيما يتعلق بتركيا قال الجنرال ان المسلمين يريدون ملكاً مسلماً يكون جديراً بتلك الزعامة على كافة المسلمين ، ولذلك فان جميع المسلمين الهنود يتطلعون الى محمد الخامس ، أمّا الحسين بن علي صاحب الحجاز فانه لا يفي بالمراد كما لا يسد الفراغ أي حاكم مسلم آخر ، وأدرك الباشا بوضوح بأن بريطانيا قد انتصرت في العراق وفلسطين وسورية ولكنه عبر عن الأمل في أن تظل تلك الأقاليم تحت السيادة التركية وان تعود الصلات الودية بين تركيا وانكلترا من جديد ، وفي العمل الذي اتبعته ايطاليا في طرابلس والنهج الذي سارت عليه هنالك ما يعد جديراً بالاتباع فقد أعطتنا الدليل على سلامة الأسلوب اذ تصرفت تلك الدولة بعقل وبحكمة وسمحت بالإبقاء على حق السيادة الدينية للخليفة ولسوف تبقي على السلطة العليا الزمنية كذلك عن طريق هذا التسامح الحكيم والقبول الواعي للزعامة الروحية . ثم أردف الباشا قوله : « ان الاسلام لم يمت ، وان كل الشعوب الاسلامية أو التي توجد فيها فئات مسلمة

---

(١) راجع تلك الأسباب والعوامل المذكورة آنفاً في الفصل التاسع .

(المترجم)

تحترم الخليفة وتوقره وسوف تُسبّب المتاعب لحكامها النصارى (المسيحيين) وتثير في وجوههم المشاكل عن طريق المقاومة ، ان لم يكن في هذا الجيل الحاضر ففي الأجيال القادمة المقبلة والتي ستظهر بعد ذلك على وجه التأكيد ، وانه يتحتّم على كل من تركيا وانكلترا إلقاء السلاح ودفن البلطة والحسام والتعاون من أجل التقدم وفي سبيل الرخاء والازدهار » . ثم قال هذا الرجل العسكري ان الحرب قد أثبتت عدم جدواها وبرهنت على خلوها من أية فائدة ، وان العناية بالزراعة والري عن طريق استخدام الطرق والأساليب العلمية وفتح المدارس ، وانشاء الطرقات وقيام المبادلات التجارية والودية بين الشعوب لمن أفضل الأعمال وأنجع السبل . وكان هذا البرنامج هو الهدف الذي سوف يعيش الباشا من الآن فصاعداً من أجل تحقيقه والترويج له .

ولقد عبر الباشا عن الاعتقاد بأن مسلمي بخارى والخوارزم Bakhara and Khina قد يصبحون أصدقاء بريطانيا الأوفياء ، وبأن تلك الأقاليم الواقعة في أواسط آسيا تتطلع الى التحالف فيما بينها وتتشوق الى الاتحاد كما تتحفز للتخلص من نفوذ روسيا ومن سيطرتها الاستبدادية وتحاول الاقتراب من أفغانستان والالتقاء معها . « فاذا كان جميع أولئك أصدقاء لبريطانيا وكان معهم أتراك آسيا الوسطى فان سدّاً منيعاً سوف يقام في وجه العدوان البلشفي ويقف ضده » . واعتقد الباشا بأن بريطانيا العظمى اذا رفضت طلب الأتراك وقلبت لهم ظهر المجن أو خذلتهم فانهم سوف يكونون مضطرين الى أن يجربوا حظهم مع النظام البلشفي وينضموا اليه أو يدلوا بدلوهم فيه ، ومما لا شك فيه ان علي سعيد باشا كان رجل دولة كامل الادراك وكان سياسياً محنكاً بعيد النظر عندما يتنبأ بأحداث الغد عن بصيرة .

وفيما يتعلق بالأقاليم اليمنية والحجازية لم يكن الباشا يعتقد بأن جندياً واحداً من الأتراك كان يرغب في أن يخاطر بحياته هنالك ، وبأن تلك الأقاليم لم تقدم الى تركيا عوائد مالية بل كانت مصدراً دائماً للاضطراب المذهبي والنزاع الطائفي ، وسوف أشرح فيما بعد أسباب المحل والعقم والركود التي حلت باليمن تحت حكم الأتراك بالنسبة الى غيره من البلدان ، ويقع اللوم في ذلك على عاتق السياسة التركية وعلى أهدافها ومخاوفها ، ومثل ما قال الدكتور بتلر Dr. Boteler عن التوت ـ وأنا هنا أستبدل بلاد اليمن بالتوت ـ « لا ريب أن الله قد خلق أجمل بلد أو لا شك ان الله لم يخلق مثله أبداً !» ، ونفس الشيء قيل عن الرسول وقد يكون أكثر عنفاً وأكبر قوة :« لم يخلق الرحمن مثل محمد ، كلا ولا بشراً على الاطلاق ». أو لم يكن قد قيل مثل ذلك تحديداً وقصراً في حق النبي المقدس والمرسل الى بني اسرائيل ؟

وعند الحديث عن مسألة الخلافة سخر الباشا من ثرثرة العلماء الأتراك المتحذلقين ثم قال ان أولئك القوم سوف يندونه بالكافر اذا علموا بوجهة نظره وآرائه فهو يعتقد بأن زمناً طويلاً قد مضى على اختفاء الطريقة الروحية والصفة السماوية التي كان يتحلى بها الخلفاء. وهذا الرأي يتفق مع رأي الامام الشافعي الذي قال ان الخلفاء الراشدين الذين كانوا مستقيمين في الرأي والعقيدة أربعة : « أبو بكر وعمر وعثمان وعلي » وقد تلاهم خامس ، حيث انه أضاف اليهم اسم عمر بن عبد العزيز أحد خلفاء بني أمية .

ولقد اعتقد علي سعيد باشا بأن محمد الخامس خسر كثيراً باصراره على منصب الخلافة وكان واجبه الملح يحتم عليه أن يستقر بالأناضول وهنالك ستبرز الى الوجود تركيا جديدة اذا ما تم التحالف المتين مع بريطانيا العظمى ، وقامت هي أو أمريكا ان أمكن بتقديم المساعدات المالية ، وكان العمل البنّاء ضمن انتعاش تركيا وازدهارها هو موضوع الساعة وأول مطالب اليوم .

وقد وصف فلسطين وسورية عند الحديث عنهما بقوله « دامنوسا هيريديتاس Damnosa Hereditas » وقال ان التقدم والرخاء والرفاهية أمور قد حيل بينها وبين الأتراك بسبب امبراطوريتهم المثقلة بالأعباء والمشاكل المربكة ، ولذلك لم يستطع محمد الخامس أن يميل الى أية قوة مسيحية أو يعتمد على تأييدها ومساندتها وعلى العكس تماماً لو انه كان سلطان تركيا فقط ، ثم قال انه من المحتمل أن تؤول الخلافة الى سيد الحجاز أو تذهب الى أي طامح آخر يتربص بهذا الشرف الرفيع أو بمظاهر الحفاوة والتكريم ! ومن المؤكد بأن هذا الجنرال الشركسي كان قائداً حكيماً ورجلاً عاقلاً وحقاً انه لكذلك ! واليوم نرى الفصل في الوظيفة فالخليفة الجديد يملك ولا يحكم لأن سلطة الدولة قد انتقلت الى حكومة وطنية . ولقد أعاد مصطفى كمال الاسلام الى الوراء أو رجع به الى مرحلته الابتدائية ولكنني أعتقد بأن الكثيرين سوف يتفقون مع علي سعيد باشا بأن (الملك) سيكون نفوذه أعظم وسوف يذيب معظم الجليد مع المسلمين عموماً ونحن من جهة أخرى نرى بأن مصطفى كمال وجماعته قد امتثلوا للروح الديمقراطية التي تسود العصر .

ولقد أنحى الباشا باللوم على طلعت وأنور وجمال بسبب جمعيتهم المتداعية « تركيا الفتاة » فهي التي خربت البلاد وحطمتها على حد تعبيره وكانت تركيا تملك كل أسباب النجاح والنمو والحصول على المزايا وجني الثمار لو انها بقيت على الحياد ، كما كان من الممكن لتركيا أن تخطو خطوتها المرجوة بعد ثلاث سنوات من الحرب عندما دخلت فيها أمريكا وبعد أن أدرك العجز قوة المانيا فتنضم عندئذ بلاده بطاقتها البشرية الى جانب الحلفاء عن جدارة ، وتقوم بدورها في

تقديم التجهيزات واعداد المعدات اللازمة كما يفعل الرجل القوي بدلاً من أمريكا . ولعل الأخيرة قد قامت بدور المموِّل للحصول على المزايا المشتركة والموجودة عند كلا الفريقين . وقد اعتقد بأن تركيا كانت قوية الى درجة كبيرة وبحيث انها كانت كافية لتجعلها تقف على الحياد وقفة الرجل القوي أو الدولة المنيعة بطاقتها البشرية لو لم تدخل الحرب ولكنها دخلتها ولم تقف محايدة بسبب ذلك الكلب أنور الذي ابتهل الى الله بأن يأخذ روحه الى جهنم ! ثم قال عن سلطان تركيا بانه كان ألعوبة (أراجوز) في يدي أنور .

ولقد أراد الباشا أن يحصل على صور للضباط والجنرالات الذين وقفوا في وجهه عند مشارف عدن وحالوا بمقاومتهم بينه وبين اقتحامها كما طلب أيضا صورتي أنا لأنه كان يفكر في تدوين كتاب عن قصة الحرب في اليمن ، وانني أرجو بأن يقوم الباشا بكتابة مذكراته لأنها اذا ما نشرت فانها ستكون غنية بما هو هام ومفيد . ولقد عضب الباشا على اعتقاله وتألم من توقيفه في حلوان ثم من سجنه وسألني عما كنت أتصور حدوثه لو انه رفض الثقة بنا والاعتماد على أوامر استسلامه التي تلقاها عن طريق عدن أو لم يقبلها بهذه الواسطة ، فهل كنا نستطيع أن نتعقبه أو نقوم بملاحقته في داخل البلاد ؟ ثم قال ان البلاد كانت ستقف الى جانبه كما ان مصادر تموينه ووسائل تمويله كانت ستستمر عاماً آخر ولكنه اختار الثقة باعلاننا للهدنة وفضل تصديق ذلك الاعلان الذي لم يثق به توفيق باشا وزمرته في صنعاء بينما اعتقد هو بأن موقفه السليم سوف يجعله جديراً بالاستحقاق لمعاملة خاصة او لاعتباره أهلاً لذلك ، فلقد أشاع كل من توفيق باشا ومحمود نديم قصص التشهير عن استسلامه الى البريطانيين على أساس ان أموالاً لهذا الغرض قد دفعت اليه بالمقابل ولكن المحيطين به يعرفونه أفضل مما يعرفه أولئك البعيدون عنه ، ومهما كانت الشكوك والأوهام التي ساورت أولئك حوله فان عندهم معرفة سابقة بنزاهته وباستقامته ، ومن المؤكد بأن تلك الشكوك والأوهام سوف تتلاشى الآن وتتبدد عندما يعرفون ما حل به ويعلمون باهانته الكبيرة على أيدي البريطانيين !

وعن العراق تحدث صديقي الباشا حديث اليقين فقد كانت مصدر الضعف ، وحتى لو عادت اليها السيادة التركية أو سيطرة الأتراك فانهم سوف يحتاجون الى القروض ، ولهذا فان جميع الأغراض الفعلية أو الاصلاحات العملية التي تتطلب التحقيق هنالك ستجعل البلاد مرهونة تحت رحمة أولئك الدائنين الذين سوف يقدمون تلك القروض . وفي هذه الكلمات ما يبعث على تطمين قلق البعض منا أو من الملتصقين بنا الذين شموا رائحة الخطر على الملك فيصل من الجانب التركي فيما لو يجرّد من حماية البريطانيين فقد حسبوا بأن فيصل اذا ما ترك وشأنه وحيداً ـ كما يطالب هو بالفعل أن يكون كذلك ـ فانه سوف يعود الى الحظيرة التركية كما



الجنرال علي سعيد باشا ـ الجندي الشركسي الذي قاد الأتراك امام عدن .

سيادي بالسيادة المطلقة للخليفة التركي أو قد يستدعي الأتراك لمثل ذلك ، وانني لأرجوك أيها القارىء بأن تتذكر من فضلك كلمات هذا السياسي التركي المحنّك عندما أصل الى الفصل الثاني عشر .

* * *

وفي مقابلتي الأولى لعلي سعيد باشا استقبلني بحفاوة ودية واضحة وبترحيب حار خال من التكلف وجدير بالإشادة ، والتركي من ألطف الكائنات البشرية وأكثرها مجاملة وكياسة وهو جدير بأن يطلق عليه لقب أول رجل نبيل مهذب في الشرق الأوسط . «First gentleman in the Middle East. وهذا من الأمور النادرة المثيرة أو العجائب المدهشة القليلة ، وفي أثناء الحديث وُضع أمامي قدح من القهوة فتناولته بأناملي ووضعت حافته بين شفتيّ ورويت القصة التالية : [قبل أن يتحرك الأتراك من ماوية للهجوم على لحج كنت جالسا مع السلطان الواحدي صاحب بير أحمد ، وتحدثنا عن استعمال الالمان للغاز السام ، وقد سأل صديقي (الواحدي) لماذا لم نستعمل مثل ذلك . وعندما قلت له أن الانكليز سوف لا ينحدرون الى مثل هذه الأعمال الشيطانية ابتسم وقال « الحرب خداع » ثم حذرنا من الخروج من مواقعنا للوقوف ضد الأتراك لأن الجو كان شديد الحرارة ولا سيما اثناء النهار وليس من الحكمة والسداد التصرف على هذا النحو أيضا ، وكانت الخطة التي اقترحها عوضاً عن ذلك تقضي بإرسال رسول موثوق به ليضع السم في قهوة الباشا ، وأردف قائلاً بأنني اذا لم أفعل هذا الشيء فانه (أي الباشا) سيفعل معي مثل ذلك في وقت ما ! ولقد عاتبت السلطان الذي ضحك بإفراط وبغير اعتدال ثم قال : « جميع العرب كلاب ، وأنا نفسي شخص عربي »] .

والسمُّ يلعب دوراً بارزاً ورئيسياً في العلاقات العربية فأمير الضالع علي بن مقبل قاسى من آلام مرض الجدري في الضالع حيث توفي عام ١٨٨٦ ، وكيفما كان الحال فان العرب قد نسبوا نهايته الى السم المدسوس مع ورق القات الذي كان مدمناً عليه أو كان يتعاطاه بكثرة . وبينما كان ابنه الأمير شايف متجهاً في عام ١٩١١ الى دلهي دوربار Delhi Durbar مات في الطريق متأثراً بالتهاب الرئة ، وقد قال القوم بأنه مات مسموماً بفعلي أنا أو عن طريقي وبأن السم كان موضوعاً في كأس الشراب المقدم اليه ! أي مدسوساً في مشروبه ! وعلى هذا النمط قيل مثل ذلك بالنسبة الى سلطان يافع القعار (جعار) الذي كان رجلاً ناسكاً ورعاً ومؤمناً زاهداً بل ومقدساً أيضاً اذ يُقال بأنه قد سلم روحه بفعل السم لأن كراهيته للبريطانيين قد منعته من الحضور الى عدن لسحب الأرصدة المتراكمة من رواتبه ، ونتيجة لذلك خسر رجال

قبيلته عائداتهم ورواتبهم فوضعوا خطة لنهاية حاكمهم . والهنود يلجأون غالبا الى مثل هذه الحيلة « وسمّ الحسان العذارى » كان شائعاً ومستعملاً في الأزمنة القديمة والمثال على ذلك استخدامه ضد الملك شندراجوبتا Chandragupta ، كما ان الملكة الهندية بعثت مثل ذلك هدية الى الاسكندر الأكبر ولكن أرسطوطاليس أفسد المناورة .

وعندما انتهيت من هذه الحكاية افرغت قدحي بسرعة فابتسم الباشا بتجهم وعبوس وأكمل قصتي على النحو التالي : « عندما دخل جنودي الى الشيخ عثمان شعرت بالعطش وبوصولي الى أول بئر أمرت جندياً بأن يدلي بقدحه في البئر ليَغْتَرِف به جرعات من الماء ، ومع ذلك فقد طلب اليّ العدول عن ذلك والتمس مني ذلك الجندي الإمساك عن الشرب قائلاً ان الانكليز قد سمّموا المياه . فقلت له اذا اتبع الانكليز هذه الطريقة فانني سوف أكون أول من يموت فاعطني الماء لكي أشرب. فشربت وهأنذا اليوم موجود هنا ، وأعيش باذن الله » .

وعلى الرغم من ان الباشا كان قد أنزل في بيت مريح وحلّ في حي واسع ورحب من احياء كريتر في عدن فانه شعر بوطأة احتجازه وايقافه لأنه كان بطبيعته رجل عمل فهو بفطرته دائم الحركة ، والحبس حبس ولو في الجنة كما يقولون . ولقد حاولت الترويح عنه في خلوته ، وتسليته في وحدته ولكنه حاول عبثاً أن يستجمع قواه ، واستطاع بتكلف أن يستعيد نشاطه وحيويته فابتسم ابتسامة يتخللها الحزن والملل ، ولكنه عاد على الفور الى الجمود والوجوم ثم تحدث قائلاً : « لقد حاربتكم أكثر من ثلاث سنوات ولم أنهزم أو أقهر أبداً ثم سلّمت واستسلمت تحت شروط الهدنة وطبقاً لها فانظروا أنتم الى ما فعلتموه معي ، يا للفضيحة ! انا لله وانا اليه راجعون » . والجملة الأخيرة تُعد سلوى ومواساة قرآنية لأولئك الذين يرضون بمشيئة الله أو يسلمون أمورهم اليه في كل نعمة تحل بهم أو نقمة تصيبهم في حياتهم . وعند تطلعي الى ما في وجه الباشا من يأس تذكرت كلمات القرآن :

﴿واذا بشر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ .

* * *

وعند دخول جنودنا الى لحج مرة أخرى بعد الاستسلام التركي وعقيب رحيل الأتراك كانت توجد المقاطع التالية من الشعر مكتوبة ومنقوشة في أماكن بارزة والأول منها كلاسيكي :

ان آثارنا تدل علينا — فانظروا بعدنا الى الآثار

والأمر كذلك بالنسبة الى النشيد الدارج وهو الذي كان يعلو ويتصاعد في ساحة الموسيقى مشيراً الى اختفاء السلطان مع الانكليز عقيب الانسحاب الذي حدث بعد سقوط لحج في اليوم الخامس من شهر يوليو عام ١٩١٥ ولقد كان على هذا النحو :

اذا ذهب الحمار بأم عمرو
فلا رجعت ولا رجع الحمار !

لقد ذكرت قبلاً بأن الحرب في المنطقة الواقعة بين لحج والشيخ عثمان كانت عبارة عن حلقات متسلسلة من الاستطلاع والاستكشاف على كلا الجانبين . والعربي شخص يحب بيت الشعر ويجيده ارتجالاً ، وهو مولع بالنظم والنشيد وأبيات الشعر التالية من النوع الركيك الذي لا يراعي وزناً ولا قافية وهذا هو الأسلوب العامي ولقد غناها واحد من المشائخ بعد قتال العماد في اليوم السادس عشر من شهر مارس عام ١٩١٦ . وهذا الشويعر كان واحداً من محبينا وقصيدته من النوع التهكمي الخفيف :

اليوم يا رحمان يا واحد أحد كيف الحشود كانت كبيرة !
أنا أسألك أن تجعل النصر للذي صارت مراتبه عظيمة !
جيش البريطاني جاء الى بلاد العرب يزحف ويهجم ،
مثل السحاب لا شيء يشبه جمعه بل انه الموج المدمدم .
ورأيت أبطالاً مزودة بأسلحة ورشاش تحارب ،
والدم مسفوك كماء من أفواه هاتيك القرب جاري وساكب .
والموزر (٣٠٣) الفتاك والأسياف شاهرة تذود ،
آه يا جيش سلطاني ما هذه الليلة ! وما ذاك الشرود !
الخصم تقهقر ويمشي خطوة مكان أربع صواحب !
لا أحد في الكون يصمد قدام أصحاب الشوارب ،
يتقدمون وطريقهم وعر وليس لغيرهم تلك المضارب .

* * *

وبعد أن عاد علي سعيد باشا الى وطنه أصبح حاكماً عسكرياً لمدينة استانبول ومنها وجه اليّ دعوة دائمة للنزول ضيفاً عليه والاقامة في داره . ولقد قبض عليه الحلفاء واعتقلوه بسبب آرائه الوطنية التي كان يعبر عنها بعنف شديد وصراحة تامة وكانت معاهدة السلام المتأخرة طويلاً قد جعلته يائساً فاقداً للأمل . وأنا أعتقد بأنه قد أصبح فيما بعد حاكماً لاقليم سيليشيا[1] Cilicia .

---

(١) سيليشيا أو كليكيا بلد قديم واقليم عريق يقع في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى (تركيا) وقد أطلق عليه في وقت ما اسم أرمينيا الصغرى Lesser Armenia وهو ممتد على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط الى الجنوب من جبال طوروس .
(المترجم)

ويوجد لدى العرب رأي غريب حول اشتقاق كلمة « شركسي » اذ يقال بان الزعيم الأول لهؤلاء القوم كان يدعى « كسا » وكان هذا الرجل يمتهن اللصوصية ولقد هرب ليلاً خوفاً من الخليفة عمر الذي أراد قتله وعندما بحث عنه عمر وسأل القوم عن المكان الموجود فيه أخبروه بقولهم « ساركسا » أو « شردكسا » ومن ثمة جاءت التسمية (شراكسة !) وكلمة « أرناؤوط » أو الباني لها اشتقاق بارع مساوي لذلك ونفس الخليفة عمر شريك في القصة ، فمؤسس هذه الأمة كان مطلوباً للمثول بين يدي الخليفة عمر ولكنه هرب من البلاد أيضاً ، وعندما كتب اليه عمر بالعودة اجاب قائلاً « عار علينا أن نعود » ، ومن ثم جاءت التسمية (أرناؤوط) والله أعلم .

وسوف أختتم هذه الصورة الوصفية الموجزة بمقابلة مع اسماعيل أفندي وهو ضابط تركي من أصل نوبي ، وكان لدى هذا الرجل رأي حسن في الامام يحيى الذي قال عنه بأنه أقوى رجل في اليمن وأبرز شخصية فيها على الاطلاق ولكنه (أي الامام) بخيل وميّال الى الحرص وامساك اليدين ولذلك فانه ليس محبوباً أو انه غير شعبي . وبعد اعلان الهدنة قدم الامام الى اسماعيل وظيفة قائمقام في تعز ولكنه ـ بعد عشرين سنة من الجندية والخدمة العسكرية في اليمن ـ أبدى رغبته في مغادرة البلاد . وقد نسب ترك الهجوم التركي على عدن الى النقص في عدد الجنود . ووصف رجال قبيلة الصبيحة بقوله انهم مثل الكلاب التي تفهم القوة فقط ، وبأن الملاطفة والمعاملة الحسنة تبدو أمامهم وكأنها ضعف أو يفسرونها كذلك . وكان اسماعيل هذا كثير الثناء علينا ومفعما بالمدح والاطراء لمروءتنا البريطانية الذائعة الصيت في العالم . ومع ان الاستسلام التركي قد تمّ بناءً على الأوامر الصادرة من استانبول Stanboul فإن اسماعيل قد نظر الى الاستقامة الحسنة وقدّر المعاملة الطيبة والعادلة التي حصلت على أيدينا .

وقال اسماعيل عن قائده علي سعيد باشا بأنه أحسن رجل شريف وقائد شهم فهو تركي محترم قام بالخدمة في اليمن ولكن استسلامه الينا قد جعلهم جميعاً يقعون على الأرض ـ «هو فلّتنا كلنا (حسب تعبيره) » ـ وعندما قلت له ان الباشا رجل عسكري ، وبأن عليه بالطبع ان يطيع أوامر حكومته وافق على الفور ، ولكنه أردف قائلاً انه يبدو وكأن هذا الأمر لا يمكن تصديقه بعد أربع سنوات من القتال بدون انهزام . وهذا يبرهن كيف ان القوات التركية كانت كاملة التجهيز وجيدة التدريب ، وكيف ان روحهم المعنوية كانت عالية . وفضلاً عن ذلك يبرهن هذا على انه كان من الضرورة بمكان بالنسبة الينا وجوب العمل على هزيمة الأتراك في المنطقة عسكرياً إذا ما كنا جادين في العمل على استعادة هيبتنا الضائعة في داخل البلاد .

وفيما يتعلق بهذه النقطة كنت دائما عبارة عن صوت يتردد في قفر والشيء الذي كنت أتخوف منه قد ظهر الى الوجود فالأتراك قد تمت زحزحتهم من اليمن وحدث اخراجهم منها بالطرق الدبلوماسية والوسائل السياسية وحدها .

وكان اسماعيل هذا شخصاً نحيفاً في شكله الجسماني وباسلاً في مظهره العسكري ، وصارماً شجاعاً في سلوكه كجندي ، وكان معروفاً بين الناس باعتباره اسماعيل الأسود ، وكان اسمه مرعباً للأشرار والمجرمين كما انه كان يباهي برتبته العسكرية التي هي (**أميرالاي** تركي أو Turkish Colonel) ولقد قدمت نفسي اليه باعتباري يعقوب « الساحر » فوقف مُنتصباً على الفور وحياني مسلماً ، وقد مثل كلانا (اسماعيل وأنا) دوراً هزلياً عندما وقف كل واحد منّا مزهواً بنفسه وواضعاً سيجارة في فمه وعودان من ثقاب الكبريت مشتعلان في يدينا اليمين وكل واحد منهما يرتفع الى طرف سيجارة الآخر !

وعند المناقشة والحديث عن أهمية الزعماء الشوافع المختلفين والعديدين في اليمن اقر اسماعيل بالأفضلية لمحمد حسان زعيم الطائفة الشاذلية ثم قال عن البقية بأنهم أشخاص ليس لهم أتباع وبأنهم في **حالة** من الفوضى والارتباك ويسودهم عدم النظام وسوء الترتيب .

* * *

حينما كنت معتمداً سياسياً للمناطق الداخلية من البلاد كان لديّ الكثير من العمل مع الأتراك واما الآن وبعد ذهاب الأتراك فانه يكون من الصعب وجود أي شيء يملأ الفراغ هناك ولسوف تبدو اليمن وكأنها غير بهيجة لا تستحق التصوير ومن المؤكد بأن الاهتمام بها سيكون أقل . والأتراك ببساطتهم ودماثة أخلاقهم وبسلوكهم السار البهيج قد لطّفوا من حدة الاعتداد بالنفس ومن النفور والوقار والتعالي عند العرب .

والآن سوف أقدم اليك أيها القارىء حفلة العشاء التي أقمتها على شرف الأتراك في معسكري الذي كان منصوبا في سناع Sanah على الحدود . وسناع هذه ليست صنعاء Sana (تكتب أحياناً Sanaa) عاصمة اليمن ، فنحن الانكليز قد نهمل في نطقنا للأسماء العربية أو لا نكترث بـذلـك . ومن الخطأ الشائع **استعماله** عادة ان النطق باسمي هذين المكانين معاً قد يكون هكذا (Sâhna) على حد سواء. وينبغي للمرء بأن يكون مهتماً وشديد الحرص وقوي الانتباه حينما ينطق العربية أو يلفظها بأحرف انكليزية ولا سيما عند وجود الحرف S فهو قد يستعمل عوضاً عن حرفين مختلفين في تلك اللغة وهما س وص . وسوف أقدم مثالا على ذلك : قد تقول لشخص آخر صافحني Sâfihni فالحرف S هنا انما يكون صاداً لا سيناً

ويكون معنى هذه الجملة مطابقاً للجملة الانكليزية المماثلة عندنا وهي (Shake hands with me) . فلو انك كنت قليل الاهتمام واستعملت حرف السين بدلا من حرف الصاد فان الجملة تختلف عندئذ في مدلولها ويصبح المعنى شيئاً آخر لا أستطيع طرحه أو ترجمته على الورق!

وكذلك الحال بالنسبة الى الحرف K فان استعماله عند كتابة اللغة العربية أو حين النطق بها يتطلب حصافة وعناية فهو قد يستعمل عوضاً عن حرفين مختلفي الدلالة في تلك اللغة وهما ق وك . ولقد حدث أن أحد المبشرين كان ذات مرة يبتهل الى الله بالدعاء في اجتماع عام أقيم لأداء فريضة الصلاة فراح يتوسل الى الرب تعالى بأن يمنح أولئك الحضور « كلباً نظيفاً » بينما لم يكن يقصد ظاهر العبـارة وانما كان يقصد بوضوح وجلاء « قلباً نظيفاً » ! وهذا الخطأ يكون عند القوم عملاً فاحشاً لأنه بالنسبة الى العربي لا يوجد حتى اليوم كلب نظيف ولهذا فقد حيّرهم ذلك الدعاء الغريب بشدة[1] ، وأدهشهم هذا النوع من التوسل .

عندما كانت القوات التركية في عام ١٩٠٥ تزحف صعوداً في اتجاه العاصمة صنعاء من أجل التأثير على نجدتها والعمل على انقاذها من القوات الزيدية التي كانت محاصرة لها طلبت من الجنرال غالب باشا ومن ضباطه أن يتناولوا معي طعام العشاء (في سناع هذه) وكان

---

(١) لست أدري ماذا سيكون عليه موقف تلك القلة من الناس التي تنادي بين الفينة والأخرى الى احلال الحرف اللاتيني أو الأعجمي محل الحرف العربي وما هو رأيها في هذا الكلام الذي أورده الكاتب الانكليزي وأثبت فيه بالدليل عمق التباين بين الأبجدية في كلٍ منهما! ومما لا شك فيه ان تلك الأصوات الخافتة أحياناً والمرتفعة أحياناً أخرى انما هي أبواق مدسوسة وغريبة عن الأمة العربية بل انها تمثل جهاتٍ عميلة لا عالمة ، ومخرّبة لا ناقدة متجاهلة بأن لكل أمة مقوماتها ، وبأن من مقومات الأمة العربية لغتها العربية بأحرفها الأبجدية التي أثبتت على الدوام أصالتها وصمودها في وجه كل التيارات الغازية والمعادية ولن تغني عنها حتى اللهجات المحلية المتولدة منها حيث ان لغتنا العربية الفصحى قد أثبتت بأنها لغة حيّة توحّد الأمة ، وتحفظ لها تراثها وثقافتهـا وتنقل اليها تعاليم السماء كما جاءت من عند الله سليمة غير محرّفة ولا مشوّهة ولا ممسوخة بعكس اللغة اللاّتينية التي أصبحت لغة ميّتة اذ حلّت محلّها لغات متعددة الأجناس متباينة ولأمم متغايرة . فاللغة العربية هي لغة القرآن والقرآن هو الرسالة السماوية العظمى التي أيقظت العرب بعد طول سبات وجعلتهم أمة واحدة في وقت كانت فيه أوروبا تغط في نوم عميق وجهل مطبق كما ان رسالة القرآن هي التي هزمت رسالة الأعاجم من لاتين وفرس ، وتعاليمه هي التى بنت الدولة العربية الموحدة ، وفتوحات العرب واكتشافاتهم وعلومهم هي التي بنى عليها الغرب فتوحاته وحضارته وعلومه واقتبس منها في الأندلس وفي غيرها ولا سيما خلال فترة الغزو الصليبي قواعد معارفه وفنونه . واذا كان هنالك قصور أو تقصير فلا عيب في الدين ولا لوم على اللغة ولا على التراث لأنها جميعاً النذير اذ أصوات تنادي الأتباع على هذا النحو : ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله﴾ ، ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ ، ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ بل ان أول تلقين لرائد هذه الأمة صلوات الله عليه قد كان تلك السورة الخالدة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم﴾ فالعيب انما هو في الاتباع أي فينا نحن .

(المترجم)

الجنرال يتأهب للزحف من قعطبة في اليوم التالي في اتجاه صنعاء على نفس المنوال ، ولهذا فانه كان مشغولاً الى درجة لم يستطع معها تلبية الدعوة ولكنه انتدب ستة من ضباطه وأرسل خطاباً يعتذر فيه عن الحضور ، وقد وصل أولئك الضباط ومعهم حرس يتألف من مائتي رجل من الجنود الالبان . وكانت الساعة السادسة والنصف موعداً للعشاء ووصل هؤلاء الضيوف عند الوقت المحدد لأداء صلاة المغرب تماماً فطلبت اليهم القيام بتقديم صلاتهم وبعد ذلك نتحدث عن الأطعمة والمأكولات ، وكان قائد المجموعة الرائد أركان الحرب بدر الدين ضابطاً مرحاً وكانت له عينان زرقاوان ولقد قال مجيباً على التماسي « انا أعرف بأن الرسول قد حدد لنا الصلوات ورسمها وبأن لكل فريضة من فرائض الصلاة موعدها الثابت ووقتها المعين ولكنني شخصياً أفضّل الكونياك » ولذلك حصل على كونياكه فوراً وحذا حذوه شخص آخر بينما انسحب الباقون لأداء الصلاة . والأتراك يعتقدون مع هوريس(1) Horace بأن مداعبة ابنة العنب تبدد الغم وان الانغماس في شرب الخمر المعتّق يزيل الكدر المقلق ويشتّت الهم حتى عند أولئك العقلاء من الناس اذ يسهمون في الأمر بشكل فعّال الى درجة قد تجعلهم يتعاطون مثل هذه الوسائل أو يسيرون في تلك الدروب في كثير من الأوقات ،والدين ليس قضية أكل ولا مادة طعام وشراب ، والزيادات في عقيدة ما قد تذكر غالباً وكأنها تحتوي على نفس جوهر الدين ولبّه ؛ والرسول قد وجد الجزيرة العربية عاكفة على شرب الخمر فكان من الضروري وجود بعض الحظر الصارم على شرب الخمور من أجل ايقاف الرذيلة ومنع الفجور ، ومع ذلك فانه لم يستطع أن يجعل الجزيرة العربية مجدبة أو قاحلة عن طريق الأمر والنهي ولكن الوحي من عند الله وتبليغه أمر واجب ومحتم ، وما زال يوجد حتى اليوم عدد زهيد من الناس في شبه الجزيرة العربية يشربون المشروبات الروحية . وكما هو الحال في أمريكا اليوم حيث تحل بعض المشروبات المنعشة أو الضرورية محل الخمور والمشروبات الروحية أو قد يكون مثل هذا الشيء البديل موجوداً ومهيئاً بسرعة وحاضراً بسهولة فكذلك الحال تماماً في شبه الجزيرة العربية اذ يستنكرون شرب الخمر في حين انهم شياطين قهوة البن وأبالسة ورق القات الضار ، ولقد رأيت عرب تهامة قوماً مغلوباً على أمرهم تماماً عقيب مضغ هذا الورق الحاد . وبعض القبائل القاطنة على الساحل تصنع من ثمر الدوم (بلح تيبان) شراباً يجلب الشهية Apéritif . وفي الكتاب الذائع الصيت والمستفيض بحثاً والصادر أثناء الحرب والمكتوب بأقلام طائفة من

(1) هوريس Horace هو كوينتس هوراشيوس فلاكوس Quintus Horatius Flaccus شاعر وناقد روماني ٦٥ - ٨ ق . م .

(المترجم)

المبشرين تحدث بلاك والت «Black Walt» عن شغف العرب القاطنين على الشاطئ بالشراب وعن ولعهم بالسكر ، ثم قال عن أولئك الذين يكذبون كلامه أو يدحضون صدق قوله بأنهم لا يعرفون بلادهم العربية . وأخبرني واحد من مشائخ بني القحرة الذين يعيشون قريباً من البحر بأنه كان في وقت من الأوقات معتاداً على شرب الخمر .

اذاً لم نكن نحن معشر الانكليز قد جلبنا الشراب الحاد القوي ولا أحضرناه معنا الى شبه الجزيرة العربية . وفي الحجاز يوجد الكثير من الحجازيين الذين يشربون اليوم جرعات لاذعة وقوية . والقرامطة القدماء اعتقدوا في المشروب الروحي وقد قالوا عنه « الخمر ليس غير ماء السماء ، برره ديننا وأباحه لنا » . ومن المفيد الاشارة الى وجود عائلات تحمل اللقب القرمطي أو تدعى بالقرامطة وما نزال نجدها في يافع السفلى التي يذيلها الرسميون العدنيون خطأً باسم يافع العليا .

وانني لأعرف تركياً شغل منصباً رفيعاً في اليمن ولكنه رفض ذات مرة مشروباً قدمته اليه ولقد أخبرني عنه بعد ذلك شخص عربي كان قد سمعه وهو يرفض فقال متحدثا عنه : « انه يشرب منه بكثرة تناسب ذوقه وبعد ذلك يستحم فيه متى شاء . وقد يطلب المزيد بقوله اعطني ماءً أو احضر لي بعضاً مما ترغب في أن تسميه كذلك (جيب لي من هذاك) . عجباً ! ان الخمر يغني عن الماء ويسد مسده » .

والتركي اذا لم يشرب الخمر ذاته أو يتولى الأمر بنفسه فإن العربي سوف يكون مستعداً لتزويده بأشياء أخرى تصلح لأن تكون شرابا ، ففي أثناء الحرب العظمى(١٩١٤ - ١٩١٨)أوفد واحد من أفراد عائلة السلطان المنفية في عدن بعض العرب للقيام بتخدير الأتراك في لحج وذلك عن طريق مدّهم بزجاجات من شراب البيرة التي تباع في أسواق عدن ليساعد مثل ذلك على كشف أسرارهم أو على إفشائهم بها . وفي عام ١٩٠٥ كنت أقوم في الضالع بمحاكمة أحد الرجال بتهمة القتل العمد وكان المتهم محجوزاً في السجن المشمول بحراسة فوج مدراس وكانت القضية تسير ضدّ مصلحة المتهم السجين والأدلة التي تكشفت تحتوي على تفاصيل مرعبة وكان من المتوقع ان اعلان مثل تلك الحوادث سوف يفضي بالفعل الى احراج الأمير شايف نفسه والى ارباكه ولذلك بعثت امارته هدية من البيرة ـ بمناسبة عيد الميلاد Christmas ـ الى الحراس المسيحيين الذين شربوا جميعا جرعات غزيرة منها وبهذه الوسيلة تمكن السجين من التخلص من حراستهم ولاذ بالفرار ورغم انه كان موثقاً بالأغلال ، فقد استطاع عبور الحدود التي تبعد مسافة اثني عشر ميلاً ولم يسمع عنه مرة ثانية بعد ذلك اذ لم يعثر عليه أبداً . وعندما وصل

الأتراك الى لحج اذا بعربي آخر كريم الأصل يجد في الويسكي سلوى وتعزية فكان يتعاطاه ويتناوله لكي يحصل على الشجاعة كما أخبرني بذلك واحد من العرب أو كما عبر عن ذلك قائلاً « بأنه كان يَتَجَلَّد به » .

* * *

ويحكى بأن الخليفة الوليد بن يزيد بنى حوضاً للخمر وانه كان يلقي بنفسه في هذا الحوض ثم يشرب منه حتى يظهر نقصان السائل على جوانبه . ولم يكن هو الشخص الوحيد من الخلفاء « الأمويين » الذي احتفظ لنفسه بحوض من الخمر أو بقبو منه .

* * *

وكانت الكلمة الكلاسيكية أو التقليدية التي تطلق على الخمر (قهوة . Kihwa) بكسر القاف . وعندما جُلِبَ البُنّ من ايران وأُدخل الى البلاد بواسطة جمال الدين بن محمد الذبحاني أُطلق عليه اسم (قهوة Kahwa) بفتح القاف وقبل ذلك كان ورق نبات القات المنقوع بالماء هو المنعش الرئيسي والمنبه الوحيد .

والعربي في اليمن ليس متعصباً في مسألة الخمرة عندما يشربها شخص ينتمي الى عقيدة أخرى ، والمثل الدارج يقول (الخمر مباح عندكُم وليس عندنا) وهناك عبارة أخرى دارجة تقول (كل خمر علينا محرم غير خمر العقيق اليماني) والعقيق نوع من الأحجار الكريمة التي تتوفر بكثرة في ذمار ، ومع ذلك فانه من المعتقد بأن هذا التعبير يستعمل في تشبيه شفاه الحسان وثغور العذارى الخمرية أو الوردية اللون ، وهذا الشيء يُعد بحق فتنة لكل الرجال ! فهو يسلبهم بعدل ! وقديما كان شعراء العصر الجاهلي أو شعراء ما قبل الاسلام يعبّون الخمرة ويشربونها بكثرة ولا يظهر تدخل من الاستنكار أو الاستهجان في عاداتهم ممن قد يستنكرون مثل ذلك عادة أو يستقبحونه . أو لم يكن طرفة هو الذي غنّى قائلاً :

وما زال تشرابي الخمـور ولذّتي ... وبيعي وانفاقي طريفي ومتلدي
فان كنت لا تستطيع دفع منيّتي ... فدعني أبادرها بما مَلَكَت يـدي

ولقد أخبرني شخص مسلم من الهند وهو أحد الذين يلتزمون بجمع عائدات الأرض Zamindar بأنه لم يعد يشرب الخمر منذ عشر سنين خلت ، ولكن لا يوجد شيء لم يتذوقه قبل ذلك . ثم قال ان الكهنة ورجال الدين مسؤولون عن استيراد الكثير من الكماليات غير الضرورية وعن ادخال السلع الضارة وغير الجوهرية أو عن جلبها الى البلاد ، ولكن الشراب الصافي جوهره والمباح عُنصره في الاسلام هو الذي تضمنه القرآن ، وآيات الكتاب واضحة وصريحة في المسألة حيث تعد المؤمنين بأنهم سوف يشربون الخمر في الجنة ولكنه من كأس كان

مزاجها كافوراً ﴿يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيم﴾ .

وللعودة بالقارىء الى حفل عشائي الذي كان قصيراً ومفرحاً حيث شربنا الشمبانيا من الأقداح وجدت أصدقائي الضيوف مفعمين بالطرب الجميل وبالنشاط اذ كانوا كالصراصير الصدّاحة . وعندما حان وقت افتراقنا اندفع بدر الدين من الخيمة الى العراء وكان القمر يختال عالياً في عنان السماء بعد أن اكتمل وصار بدراً في تلك الأمسية ثم صاح بدر الدين بصوت صارخ صاخب قائلاً : « أنظر عالياً ، انني هناك » قال ذلك وهو يثب الى صهوة جواده بدون مساعدة أحد وبعد أن استوى على سرجه أو بردعته اندفع فرسه الأبيض كالشهاب الى مسافة بعيدة بينما تبعه بقية الرفاق حيث امتطى الجميع خيولهم على نفس المنوال وجاء ترتيب الحرس المؤلف من مائتي الباني في المؤخرة . وفي خارج الخيمة سألت أحد الرماة كيف وجد أولئك الزملاء وكيف فهمهم ؟ وهذا الجندي انما يعرف اللغة الانكليزية فقط فقال : « حسناً يا سيدي ، انك ترى بأنهم قد تكلّموا اللغة العربية الفصحى ، وتحدثوا بها على نحو جميل ولائق تماماً ! ولعلّ مضيفهم الداهية قد ثابر على تزويدهم بإلحاح من شرابي البراندي وعلى إروائهم بكونياكي النقي !!! » .

ان الأبوكريفا[1] Apocrypha تقول : « الخمر طيب للرجال كالحياة طالما شربوا منه بمقدار » . وانني على ثقة بأن هذا الجندي من جنود الرماة كان قد أصبح سكران جداً بل وحتى الثمالة لأنني أعرف عنه بأنه كان مدرباً تدريباً صارماً وبأنه جندي نظامي وشديد الانضباط .

كان القائمقام التركي المتاخم لي والذي يُمارس عمله في الجوار يزورني زيارات متكررة وعديدة ، وفي احدى الليالي تناول معي طعام العشاء على المادة المخصصة لكتيبة الرماة فكان بحق رفيقاً طيباً للغاية . وفي اليوم التالي عانى ألماً حاداً نتيجة لصداع شديد ألمّ به فرفض أن يتناول طعام الفطور . وعندما حان الوقت لتناول طعام الغداء كان قد بدأ يشعر بتحسن في صحته وأصبح مستعداً للأكل فأخذته معي الى المائدة البنجابية ورأسه ما زال يخفق بالألم فقام المزمرون أو عازفو المزامير والقرب بالعزف من مزاميرهم والضرب على آلاتهم الصدّاحة خلف كرسيه حيث كان القائمقام عبارة عن ضيف الشرف ،فزمجر بصوت غيرمفهوم واضعاً أنامله في

---

(١) لـ أبوكريفا Apocrypha معنيان : ١ ـ هي أربعة عشر سفراً تُلحق أحياناً بالعهد القديم من الكتاب المقدس ولكن البروتستانت لا يعترفون بصحتها . ٢ ـ كتابات مشكوك في صحتها أو في صحة نسبتها الى من تعزى اليهم من المؤلفين .

(المترجم)

اذنيه فهمست اليه بأن هذا التصرف منه قد يحدث اساءة للآخرين وعندئذ تذكر فجأة بأن لديه عملاً من الأعمال المطلوب انجازها في مركز قيادته فرحل على الفور وبأقصى سرعة .

كان الأتراك بالمثل مضيفين طيبين وكراماً فيما يقدمونه . وفي دار الجمارك التركي بماوية الواقعة الى الشرق من تعز كنت أرغب في القيام بزيارات لهم . وفي مناسبات رسمية كهذه كان يتألف الشراب المقدم عادة من القهوة الممتازة ومن المشروبات الطازجة اللطيفة والمنعشة ذات الألوان المتعددة . والتركي شخص يحب الحفلات ويميل الى ارتياد المجتمعات ، واذا ما كان بعيداً عن العمل أو متخلصاً من عبء الوظيفة فانه مهما كان الأمر يكون زميلاً لطيفاً وشخصاً رفيقاً مسلياً وتتمثّل فيه روح الضيافة والمروءة . وشكسبير يتحدث قائلاً : « التركي المؤذي الحقود يرتدي العمامة » وأنا لم أشاهد أبداً واحداً من هذا النوع من الأتراك أصحاب العمائم في اليمن ، بل ان كل واحد من معارفي الأتراك في اليمن كان رفيقاً طيباً وكريماً لطيفاً وسليم العاقبة حميداً .

اني لا أنوي هنا نقل الانطباع عن التركي بأنه شخص يشرب لمجرد الافراط أو للانشراح أو للانغماس في الشراب وبأنه شخص لا يفعل شيئاً من الأشياء الأخرى ، وانما لكل شيء زمانه ومكانه وموسمه وأوانه . وان كان لا يوجد شيء أفضل للمرء من أن يأكل وأن يشرب ، ومن أن يجعل نفسه تشعر بالمتعة وتحس بالراحة وتنعم بالطمأنينةوهو يقوم مع ذلك بمزاولة عمله . وهذا يكون أيضاً من عند الله فيما أرى .

الفصل الحادي عشر
[انتدابي الى بلاط امام صنعاء]

وصلت الى الحديدة في اليوم الثامن عشر من شهر أغسطس عام ١٩١٩ لمواصلة السفر منها الى صنعاء الواقعة الى الشمال الشرقي والتي تبعد عن الساحل بحوالى مائة وخمسين ميلاً . وكان هدفي مناقشة مستقبل البلاد مع الامام بعد الاستسلام التركي ، ولم يكن يوجد مطلب أو اقتراح بصدد عقد معاهدة مع الامام يحيى وانما كنا نرغب في الاطلاع على وجهات نظره ومعرفة آرائه . وقبل مغادرة القاهرة كنت قد علمت بأن كلا الطائفتين المتعاطفتين والمناصرتين في اليمن وهما الطائفة الشافعية والطائفة الاسماعيلية سوف لا تقبلان الانصياع والرضوخ تحت الحكم الزيدي ولا الانقياد له بهدوء ما لم يتوفر شيئان : ١ ـ أن تضمنا بأن تكون حكومة صاحب الجلالة هي الحكومة الوحيدة التي تتعامل مع الإمام وأن يتم اعلان بذلك . ٢ ـ وأن تتأكدا بأن الإمام قد عمل على توطيد حكمه وعلى تقويته وتعزيزه بطريقة سليمة ومرضية .

وقبل وصولي الى البلاد كان الإمام قد قام ببادرة طيبة وخطا خطوة موفقة اذ كانت القبائل التي تسكن في المنطقة الواقعة بين الحجيلة والبحر وعلى الأخص معظم قبيلة بني القحرا القوية قد دخلت مع الامام في مفاوضات قبلت على الفور بموجبها معظم الشروط التي فرضها عليهم الأخير ، وكانت مسألة حرية مرور القوات الزيدية في الطريق المؤدية الى البحر عبر ذلك الاقليم مشكلة رئيسية بالنسبة الى السيطرة الزيدية أو حجر عثرة في طريق الحكم الزيدي . ولقد كان الامام ناجحاً في ضمان وجود حاكمه في باجل التي كانت من قبل موقعاً تركياً ومحطة هامة والتي تقع في داخل البلاد على بعد خمسة وثلاثين ميلاً من الحديدة ، وهذا الحاكم أو الموظف الامامي هو أبو هادي الشيخ الرئيسي في بني القحرا ، وكانت عادة الإمام دوماً وما زالت هي تعيين الحكام على الأقاليم الشافعية من الأشخاص الشوافع تحاشياً من احراج الأحاسيس الدينية والمشاعر المذهبية عند أبناء هذه الطائفة .

ولقد كان وصولي الى باجل تصرفاً مبكراً أو سابقاً لأوانه كما حصل التكهن بذلك والتنبؤ به سلفاً وأنا في القاهرة ، ولكن الامتناع أو الاعتراض لم يكن مفترضاً أو متوقعاً ، ولا ريب ان



فرسان زيود أرسلوا لحراستي الى صنعاء

العبور الى داخل البلاد قبل أن يكون انتدابنا جازماً أو السماح بحضورنا باتاً ومؤكداً عمل غير حكيم و ان كان امام صنعاء قد وعد بحراستي وبانتداب مرافقين لحمايتي من الحديدة الى المرتفعات كما رحب بالرحلة المرتقبة للبعثة ومن ثمة بوصولها الى عاصمته . ولا ريب انّ حُبّ الرفعة الذي تتسم به أسرته منذ عام ١٨٤٠ أمر معلوم ولقد أصبح اليوم طموحه العائلي وشيك الادراك وقريب المنال والتحقيق .

كانت البعثة تتألف مني أنا كمبعوث عن صاحب الجلالة الملك ، ومن ضابطين آخرين - وهما طبيبان من الـ ر . ا . م . س . R. A. M. C. ، - ومن مساعد سياسي ثم من الرائد ر . Major R من حامية عدن بالاضافة الى سكرتيري الهندي والنقيب ن . Captain N ، وواحد من أعضاء حزب الرابطة العربية من القاهرة .

وفي الحديدة قُدّمت اليّ التأكيدات والتعهدات الكاملة اذ وصل هناك اثنان من أبرز مشائخ القحرا المرافقة جماعتي ولحراستهم وكان واحد منهما حاكم الامام في باجل وهو الشيخ أبو هادي نفسه. ومن جنود عدن أحضرت معي خمسة وعشرين رجلاً تحت قيادة ضابط برتبة رائد A Risaldar Major وكان القصد من هؤلاء حماية البغال وحراسة الهدايا الثمينة التي حملتها معي وأما ما يتعلق بأمن وسلامة البعثة فانني كنت معتمداً على الحراسة العربية وهي التي وعد الامام بها ، ومع هذا فان أولئك الحراس الذين كلفوا بمهمة الحراسة قد توقفوا في باجل وهم يتألفون من ثلاثة عشر رجلاً من الفرسان الزيود الذين يمتطون صهوات الجياد ومن مائة من الجنود المشاة المترجلين كما وصل الى باجل أيضاً نائب الامام وممثله من أجل الترحيب بي ولكن وصولي المبكر الى البلاد أو الذي حدث قبل أن يحين وقته قد أقلق الامام أو أحدث عنده البلبلة اذ كان كما ذكرت سابقاً ما زال يعمل على استرضاء هذه المنطقة الشافعية وعلى مصالحتها ولعلّ وصولي في وقت مبكر قد قطع تلك المفاوضات التي كانت جارية أو جعلها تقف دون بلوغ الهدف . ولما كان الامام قد وعد من قبل بالترحيب بي فانه كان عليه بعد ذلك أن يقوم من جانبه بعمل أحسن الترتيبات الممكنة لأنه لو فشل في ارسال مندوبين عنه أو في الاحتفاء بنا لأصبح فشله كحاكم مرتقب لهذه المنطقة أمراً مطروحاً أمامنا ومكشوفاً للعيان .

ولقد نصحت باستخدام هذه الطريق وأوصيت باجتيازها لكي نقيس نفوذ الامام مع انه كان من السهل علينا أن نصعد الى صنعاء عن طريق عدن حيث اننا نعرف الموظفين الرسميين والزعماء على طول تلك الطريق كما ان الطريق ذاتها معروفة لنا جيّداً بخلاف طريق باجل التي كانت المعرفة بها قليلة بالاضافة الى أن قبيلة بني القحرا جماعة متوحشة وكانت كثيراً ما تقوم

بتقديم المتاعب الى الأتراك كما تسبب لهم الانزعاج رغم انها كانت تمدّ القوات التركية بالمؤن وبالتجهيزات العسكرية وبالحراس المرافقين وبالابل ، ورغم ان القبائل التي تعيش في هذه المنطقة كانت موالية للأتراك بحرارة الا أن بني القحرا كانوا بصورة خاصة مسلمين متعصبين .

كانت هذه هي المرة الأولى التي يكون فيها من السهل على الأوروبيين الذهاب الى صنعاء تحت ظلّ حكم عربي صرف منذ عام ١٨٧٢ أي منذ أن استعاد الأتراك في ذلك التاريخ بناء حكمهم في هذه البلاد وقد ظلوا فيها حتى اليوم مجهزين بحراسة مسلحة .

وكنت منذ وصولي مهتماً كثيراً باكتشاف وجهة النظر الصحيحة والحقيقية لدى رجال القبائل نحو كل من الإمام والحكومة البريطانية . وكلا الهدفين كانا مكفولين بفضل احتجازي مدة أربعة أشهر في باجل . وعندما قال لي موظف تابع لوزارة الخارجية (البريطانية) بأن رئيسه قد اعتبرني خبيراً لم يسبّب لي حديثه قليلاً من اللهو والضحك والتسلية الا عندما حَطَّمَ ثقته بي وقوعي أسيراً في أيدي العرب ! ويبدو ان حصاد الخبراء الناتج عن الحرب يكون وفيراً ، وهذا من نسيج خيال مرؤوسيهم في المراكز العليا أو من وميضه الذي يكون خاطفاً كالشهاب وعابراً كالسحاب. وقليل أولئك الذين يستطيعون القول بأن لا شيء يوجد كاملاً ! Non omnis moriar .

يقول باكون[١] ان معظم المهارات يكون الحكم عليها عن طريق القيام بتأدية الأفعال طبقاً للقوانين المرعية والنواميس المتبعة وليس بالنتائج والأعمال الناجحة في آخر الأمر ويضرب على ذلك مثلاً بالمحامي الذي يكون الحكم عليه بمقتضى مهارته وقوته في تقديم مرافعته لا بنتيجة القضية ، وبربان السفينة الذي يكون الحكم عليه عن طريق أسلوبه ونهجه في توجيه السفينة وفي ادارة دفتها بطريقة محكمة وصحيحة لا عن طريق الحظ الذي تصادفه الرحلة . ولكن الطبيب وربما السياسي كذلك يكون الحكم عليه في أغلب الأحيان عن طريق النتائج لأن الطبيب يستطيع أن يخبر سلفاً عمّا اذا كان المريض سيموت أو انه سيستعيدُ صحته . والسياسي يستطيع أن يدرك ما اذا كانت الدولة منيعة تحافظ على أمنها وسلامتها أو انها تكون عرضة للخراب والدمار وما اذا كان ذلك يرجع الى المهارة والمهنة أم الى مجرد الصدفة ؟!

---

(١) باكون Bacon فيلسوف ومؤلف انكليزي . (المترجم)

ولم تكن سياستي خلال الحبس في باجل بأن أعمل الكثير من أجل التأثير على الافراج السريع بقدر ما كانت في العمل على دراسة الناس وربما اتفاقاً وصدفة على منع العدوان والتلصص على حدود الغير من قبل السيد الادريسي الذي كان يحاول مع رحيل القوات التركية في أن يسرق من البلاد قدر ما يستطيع. وكم كان الادريسي فرحاً مسروراً بتقديم الاعتذار عن التحرك نحو الجنوب على الرغم من الوعد الذي كان قد قدمه الينا وقطعه على نفسه بعدم العبور الى ما وراء الزيدية . والزيدية هذه تقع في بلاد بني صليل الى الشرق من جزيرة كمران ، وعلى نفس ذلك الخط من خطوط الطول ، وهي مكان أو موقع آخر جديد لبيت الفقيه الكبير حيث كانت تدعى كذلك تمييزاً لها عن البلدة التاريخية والمعروفة جيداً وهي بيت الفقيه الشهيرة الواقعة الى أقصى الجنوب .

ولقد قيل بأن الجنود الذين أخذتهم معي كان عددهم قليلاً جداً وهذه الحقيقة قد تغري بالهجوم علينا. ولقد تذكرت كلمات فوسيون[1] Phocion الاغريقي حين قال لمجلس الشيوخ الذي انتدبه الى الجُزُر من أجل طلب العائدات وجمع الضرائب بعد أن قدم اليه اسطولاً مكوناً من عشرين سفينة شراعية : « اذا أرسلتموني ضد أعداء فان أسطولاً كهذا يكون صغيراً ، واذا أرسلتموني الى أصدقاء فان سفينة واحدة تكون كافية » . وانه لمن الأفضل للمرء أن يتظاهر بأنه يتعامل مع أصدقاء لكي تزول الشبهة وتتكسر حدة الشر . وقبل تركي للحديدة أُسديت اليّ نصيحة بطلب رهائن ولكنني لم أفعل ذلك على الاطلاق على الرغم من انها عادة عربية مألوفة . وفي عدن كان قد أعطاني الكاهن الأكبر للاسماعيليين توصية للتعريف بنا ومن ثمة لنتقدم بها الى رئيس مشائخ تلك الطائفة التي كان لزاماً علينا اجتياز بلادهم والمرور عبر حدودهم في جبال حراز . ولقد نصحني هذا السيد المسنّ بلطف كما نصح جماعتي أيضا بحلق شواربنا على الطريقة المتبعة عادة وعرفاً عند تلك الطائفة وكان اقتراحه هذا لطيفاً ولكنني كنت معتاداً على اجتياز كل مكان احلُّ فيه كما أنا من أجل أن أبدو على حقيقتي ، كما وانني قد درجت على أن لا أكون محامياً عن المثل الدارج أو القول المأثور « خارج بلادي وخارج نفسي أنا ذاهب » .

وقبل أن أصل الى الحديدة كان رجال قبيلة بني القحرا قد أعطوا ممثل الامام في باجل تعهداً مكتوباً واعدين فيه بعبور بعثتي بسلام على طول الطريق الى الحجيلة حيث يبتدىء النفوذ الزيدي ، وهذا التعهد هو الذي نقضوه فيما بعد . وليس من عادة العرب في أغلب الحالات أن

---

(١) فوسيون Phocion قائد وسياسي اثيني (٤٠٢ - ٣١٧ ق . م .)

(المترجم)

يقدموا تعهداً خطياً لأن كلمتهم التي يقولونها تكون كافية . ولا يبعد أن تكون ممارسة مثل هذه التعهدات المكتوبة في هذا الجزء من البلاد ناجم عن تآلف سكانه من العرب مع العادة التركية أو لتأثرهم بالأتراك . ولم يكن الشيخ أبو هادي حاكم باجل موقعاً على هذا التعهد المكتوب عن قبيلة بني القحرا ، فلقد امتنع عن ذلك بسبب مركزه في الوظيفة كحاكم كما احتقر زملاءه المشائخ الذين وصفهم لي بقوله انهم كالكلاب . والشيخ أبو هادي واحد من أتقى الرجال المهذبين والأشخاص النبلاء الذين قابلتهم في تجربتي السياسية ، وكان أبو هادي ووالده الكبير علي حميدة يدافعان دائماً عن دوافع انكلترا وعن بواعثها وكانت عائلته في الماضي البعيد كما في عام ١٨٤٠ على وفاق وتحالف مع امام صنعاء وذلك في معارضتهم جميعاً لأشراف «أبو عريش» الذين سبق أن كتبت عنهم في الفصل الثالث . وكان اسلاف أبي هادي في ذلك التاريخ قد أخذوا مدافع من حكومة عدن . ولقد أطلعني على تلك الترتيبات والتنظيمات الدفاعية المتخذة في قلعة باجل ثم أشار بيده محدداً نحو الهضبة التي تقع في الجوار القريب أو الجبل الشريف كما كانت تُدعى بذلك تيمناً بسبب مناعتها من الهجمات العنيفة والغارات التي كانت تتوالى من تلك الجهة دون أن تفوز بنجاح ضد أسرته المنيعة والمحصنة في باجل .

* * *

وصلت بعثتي الى باجل في اليوم العشرين من شهر أغسطس ، فكان الحرّ شديداً . ولقد أخبرنا الأتراك بأن جماعتي حضرت متأخرة ولو انها وصلت مبكرة أي قبل ذلك بشهر لاستسلمنا لحرّ أشد ولكان علينا أن نرزح تحت وطأته وأن نقاسي من عذابه ، ولم يكن التركي يمكث عادة في تلك المدة من السنة هنالك ولكنه كان يرتحل الى الشرق نحو التلال الشاهقة والجبال العالية . وعند وصولنا الى باجل في الساعة الثامنة مساءً أوينا بارتياح الى البناء الذي كان مركزاً للادارة التركية حيث أنزلونا هنالك على الرحب والسعة وقدمونا الى الزعماء الوطنيين والى ممثلي الامام . وفي اليوم التالي حدثت مناوشات وحصلت محاولات عن طريق السيد عبد القادر صاحب المراوعة الذي كان قد وصل الى باجل قبل ذلك ببعض الوقت من أجل حشد مشائخ بني القحرا المسؤولين عن الرحلة المرتقبة ، ولكن هؤلاء بدأوا يقدمون اليه اعتذاراتهم على غفلتهم . وهذا الزعيم السيد ذو النفوذ والسلطة يحتل أعلى مرتبة من الاحترام والتقدير بين رجال القبيلة المحليين ، ولمحته الحقّة عندهم أو الاشارة منه قانون ، وها هو الآن يرتفع بالغضب ويتعالى حنقاً وغيظاً على الاعتذارات المقدمة اليه . ولقد أرسل قصاصات مقطوعة من عمامته الى مشائخ القحرا لضمان حضورهم . وبعد مرور اسبوع على وصولنا اجتمع ثلاثة من المشائخ وانضم اليهم أبو هادي . وفي غرفة تقع في أعلى سطح المنزل الذي كنا نقيم فيه

قابلتهم وجلس أبو هادي في أحد الجوانب بأسلوب تهكمي وعليه ملامح ساخرة وعيناه تلمعان تعبيراً عن ازدرائه واستخفافه بالثرثرة الفظة والعبارات الكثيرة التي استعملها الأعيان الثلاثة ، فلقد سألوني لماذا أتيت ؟ وأين هي بعثات القوى الحليفة ؟ وأعلن واحد منهم وكان أكثر حدة وعنفاً من زميليه بأنني الشخص الخائن ، والرجل الغدار المكار الذي وصل من أجل تسليم البلاد الى الامام ، ثم صرخ قائلاً : « بالله ! من يكون هذا الامام ؟ نحن بني القحرا ، ونحن رجال القبيلة والله قد أنعم علينا بسخاء . ووهبنا السلاح . وعندنا أسراب وافرة من القطيع ، وأفواج غفيرة من الرعية ، ومحاصيلنا أكثر مما نحتاج وبيوتنا مؤمنة ومأمونة . ونحن نحصل على قاتنا من جبل ريمة بانتظام ولا نريد أكثر من ذلك . وأنتم معشر الانكليز لستم مُقاتلين أو لا تصلحون للقتال بل انكم تستأجرون الغرباء والأجانب للقتال في معارككم » . ثم توقف هنا منيهة وأطلق بعيداً صرخة مدوية مزمجرة : بوه ! وهذه الكلمة « بوه » هتاف عزيز في أفواه أولئك المشائخ وهي جلية جداً وشاملة لكل المعنى المقصود اذ تخرج مندفعة بعيداً في حلقات كالزوبعة وتكون معانيها متنوعة لتناسب المقام وسياق الكلام ، ولإيضاح ذلك ووصف المنظر الذي يبدو على وجه ذلك الشخص الناطق بهذا المقطع الوحيد الموجز فانه يتحتم على المرء الاستعانة ببعض الكلام المحشود أو اللغو في الحديث مثل : « اذهب الى . . . الجحيم ، انك كافر ، ولذلك فأنا لا أهتم بـ . . . كلب . . . لا بك ولا بالذي جاء بك . واذا عندك أي شيء للإجابة وهو أمر بعيد الاحتمال قله لنا وكن كـ . . . وكـ . . . لك » .

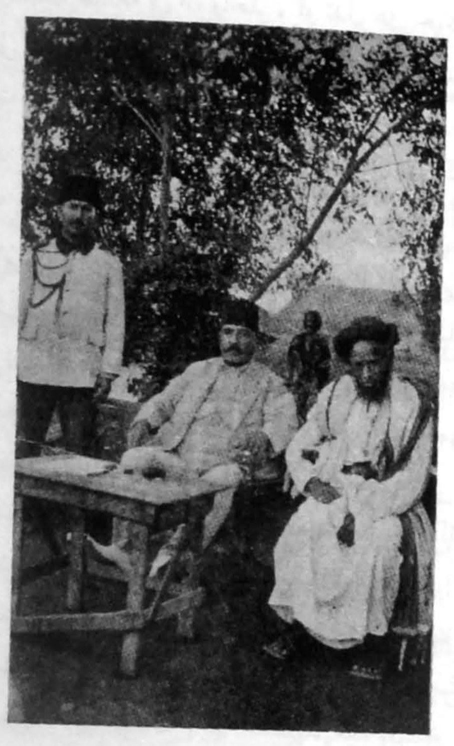
انها كلمات مرعبة بحق ومخيفة . واللغة العربية وجيزة العبارة جدا وكبيرة الدلالة . والقليل فيها فقط يكون بالأسلوب المطوّل ، وجميع اللغات الشرقية تفوق اللغات الغربية بحسن السبك في الأسلوب وجودة التعبير الوجيز . ونحن نعرف قصة الجنرال الذي أبدى ملاحظاته الطويلة الانتقادية على المناورة التي شاهدها عند قيامه بالتفتيش على فرقة عسكرية هندية من الجنود الخيالة والفرسان وبعدئذ استدار الى الضابط الهندي وطلب منه أن يترجم للرجال ملاحظاته المسهبة ففتح ذلك الضابط كتابه المحتوي على الأمثال أو على تعاليم الحكمة ثم قال : (ان الجنرال الصاحب مسرور جداً ! الى الخيام أيها الخنازير !) .

«General Sahib bahut fahush hai; tambu ko jao , **Suar** Log! »

فالكلمة Suar تعني خنزير ولكن وضعها في هذا الموضع انما هو من صنع اللغويين عندنا حيث تشبه بعض الشيء في رنين الصوت كلمة Sowar التي تعني جندي ، ولقد ارتجف الجنرال وعلق على ذلك قائلاً : « انها لغة فائقة موجزة ، وهي جديرة بالاعتبار والملاحظة أيها



مشايخ بني القهرة بعد اجتماعهم الذي قرروا فيه اعتقالي



محمود نديم والي اليمن السابق جالساً مع الإمام العريشي قرب نافورة بأجل .

السيد ، انها بلا ريب هندوستانية ! » . مع ان الكلمة Sowars لا تترك لدى الجنود ذرة من الألم ولا تسبب شعوراً بالانزعاج والتكدير ولكنهم قد أدركوا الصعوبات التي أحدثتها اللغة المترجمة لصاحبهم الضابط الكولونيل !

لقد قلت ان اللغة العربية موجزة العبارة ، عميقة الدلالة ، وغنية بما قلّ ودلّ . ولقد قال ناقد عنها انها اللغة التي تحتوي على كلمات تكون كل واحدة منها من النوع الذي يتضمن معنيين احدهما سالب والآخر موجب ، أو تحتوي كذلك على بعض كلمات تشير الى البعير فتصف أعضاءه ، وتصف طبائعه في آن واحد ، أو تدل على حركاته سواء كان قائماً أم قاعداً . والعرب يطلقون على الخطيب المصقع الذي يكون أسلوبه عاصفاً كالريح وصف (شقشقة) وهم يقصدون بذلك هدير جلة البعير التي يزجر بها حلقومه . ولقد خرخرت هذه الشقشقة العاصفة أمامي ثم خمدت مؤقتاً والى حين ، وكانت كل العيون شاخصة نحوي (أنا المندوب) . ونظرت الى المتحدث ولكن دون أن أنطق بحرف أو أنبس بكلمة .

لقد أسدى الاسكندر دوماس نصيحة قيمة للمسافر الى الشرق اذ يقول بأن عليه أن يظل سراً غامضاً ، فهو كلما لعب هذا الدور أكثر كلما زاد احترامه وصار أكبر ! وعندما لاحظ يحيى علي ـ وهو الرجل الثرثار ـ صمتي عن الكلام زأر مزمجراً « تكلم ! هل أنا عاجز أو غير قادر على حبسك ثم الاستيلاء على ما عندك من سلاح ؟ كلاّ ثم كلاّ سلمها اليّ حالاً » فتجاهلت من جانبي الأمر الذي عناه ولكني شرحت لهم مهمتي ومهمة بعثتي التي هي عبارة عن المعرفة بوجهات النظر المتعددة لدى الطوائف والمذاهب المختلفة بما في ذلك وجهة نظرهم الخاصة . وقلت لهم انني مبعوث الى الامام وعازم على السفر إن شاء الله! فأردف متحدث آخر وهو البغاوي قائلاً : « سلموا أسلحتكم ، فأنتم صرتم سجناء لدينا وأصبحتم أسراء بأيدينا ! والرب هو الذي أحضركم الى المصيدة وساقكم الى الشبكة » فاستعدت حينئذ عبارة المزامير للنبي داوود [أنت أحضرتنا الى الشبكة] ثم استشهد هذا الشيخ بعد ذلك بالحكمة العربية القائلة : « ان دخول الشخص الى الشبكة هيّن جداً وبسيط ولكن يجب أن يكون خروجه منها مسبوقاً بمحاولات كثيرة وشديدة بل عويصة » ، ثم أتبعها بسرعة بمثل آخر : [رأس الكبش ولا غرارة الجراد] وهنا جار يحيى علي هادراً ساخراً : « الوقت يمر ، أخبرني أيها المندوب هل أنتم عازمون على التسليم والاستسلام الينا ؟ » وعند هذه النقطة أعطاني الصديق أبو هادي اشارة معبرة بغمزة عين وتمتم همساً بأنه سوف يضطلع بالأمر ويتولّى مهمة احتجازنا وحيازة ممتلكاتنا في مكتبه باعتباره حاكم باجل ، وعند ذلك اتخذ يحيى موقفاً عكسياً أو لعله تصور غضب الامام حيث قال متلطفاً ومستعطفاً : « المندوب أصبح مندوبنا ! أنتم لستم سجناء ولا

أسراء ولكم الحرية في باجل ، فاعتبروا أنفسكم هنا في بلادكم ، ولن يؤذيكم أحد أو ينالكم بمكروه أو سوء ، والامام سيدنا ومولانا ، وانما أنت نفسك شخص مزعج للبلاد وعدو للإسلام » . وبعد ذلك قطعت الصمت الذي خيّم قليلاً واستشهدت بالمثل الذي يعبر عن أن اللعبة قد ظهرت والصيد برز : [ماتت الحمارة وانقضت الزيارة] فضحك المشائخ ضحكة عالية مقهقهة ثم قال محمد زيد : « هذا شيء جميل فقد انهار حمارك فعلاً ولذلك يجب أن تمكثوا هنا جميعاً » وعند ذلك نهضت هذه الجماعة من جلوسها ومشت الى خارج الحجرة حيث وقف الجميع صفاً مبتسمين ، وحين أحاط بعضهم ببعض قام واحد من جماعتي بتصويرهم خطفاً .

كانت بغالي البالغ عددها تسعة وتسعين مربوطة بشدة ومعقولة بحبال طويلة تحت حراسة رجالي ، ولقد قام أبو هادي بتكليف العبيد في نقل صناديقي الثمينة الى مسكنه وأودعت أسلحتنا في حجرة بالطابق الأرضي وأشرف أبو هادي على غلق الباب ثم أقفل المغلاق بمفتاحه وقال لي مخاطباً : « أنظر ، انها هناك تحت تصرفكم في أي وقت تريدون ، وسوف أفعل لكم كل شيء أقدر عليه وأستطيعه كما ان حرسي وحدهم سوف يسهرون على حراستكم . انني أحبكم معشر الانكليز ، ويا ليتني أستطيع الذهاب معكم الى انكلترا ! تذكروا بأنني في خدمتكم » . وبعد ذلك تم الفحص والاستقصاء في صناديقنا فلم يُفتح صندوقي الخاص وهو الذي أضع فيه ثيابي وأدوات الاستعمال الشخصي ولا صندوق أمتعة الرائد ر . الذي شاركني في غرفتي . وكنت أملك نسخة من القرآن تم وضعها في واحد من الصناديق وأخبرتهم أنا وزميلي الدائم بذلك الأمر ومن المتعارف عليه بين القوم بأن وجود نسخة من القرآن في الغنيمة يكسبها حرمة اذ يعد حتى اليوم تدنيساً لحرمة الأشياء المقدسة أو انتهاكاً لها القيام بممارسة السرقة أو بأعمال السلب والنهب في هذه الحالة . ولقد حدث ذات مرة بأن واحداً من معارفي وهو من المشائخ قد قام بنهب قافلة وسطا عليها ، وانتقلت البضائع والسلع المنهوبة على الفور الى قريته وهنالك تم فحصها وعثر الشيخ في جملة ما عثر من متاع على نسخة من القرآن فغير ذلك الحادث من هذا الشخص الذي غير بدوره مهنته وكل أسلوب حياته فأصبح الرجل ـ الذي كان ذات مرة قاطع طريق مشهور ـ انساناً متديناً وقارئاً مؤمناً وورعاً ، ومرشداً بليغاً ومستشهداً بالأوامر والنواهي القرآنية ، بل طلق اللسان بتعاليم الكتاب . ومن المُحْتمل كذلك بأن يكون انقاذي من الإهانة قد تم عن طريق المشاعر الودية التي أظهرها نحوي الشيخ أبو هادي أو نتيجة لذلك التصرف الصادر عنه . ولقد كان المشائخ لجوجين ومكثرين من الأسئلة العديدة كما كانوا يلحّون في طلب مبلغ مائة وأربعين ألفاً من الجنيهات الاسترلينية وهي التي كانت الشائعات المنتشرة قد روجت لها وكانت تلك الشائعات

منطلقة من عدن حيث أذاعت عني بأنني حملت معي ذلك المبلغ لوضعه في خزائن الامام . وربما انهم كانوا متشددين في هذه النقطة بالذات ومصرين عليها فانني قد شجعت تفتيشهم الدقيق!

هكذا ابتدأ أسرنا ولكن كنّا أحراراً بالطواف والتجول ضمن حدود مدينة باجل[1]. وكان حرس أبي هادي يمشون دائماً في مؤخرتنا . وهؤلاء الرجال كانوا مرحين ومفعمين بالبشاش وبالمزاح وبالخلق الحسن السار والفكاهة اللطيفة . وكان واحد من طبيبيّ وهو الدكتور جوك Jock مصارعاً نفيساً وعداء ظريفاً في كل مكان يحل فيه . وقد لاحظ واحد من الحراس نشاطه وخفته فدعاه الى المباراة ضد شخص آخر كان يفاخر هو ببسالته ويتبجح بجرأته ،

---

(١) تحدث الأديب أمين الريحاني في كتابه (ملوك العرب) عن هذه البعثة وعن قصة احتجازها في باجل ، وقد ذكر في سياق حديثه عنها ما يلي : [لم تنقطع المفاوضات أثناء تلك الحوادث بين عدن وصنعاء وقد أثمرت ثمرة استحالت بعدئذ حنظلاً . ذلك ان الكرنل جاكوب ، وكان لا يزال المعاون الأول في دار الاعتماد ، سعى لدى حكومته أن تبعث ببعثة سياسية الى الإمام يحيى وزيّن الأمر لحضرته فقبل به . وكان الكرنل رئيس تلك البعثة التي دعيت باسمه ، وسافرت من الحديدة في ١٩ آب سنة ١٩١٩ تقصد الى صنعاء ، بعثة انكليزية سياسية مؤلفة من مندوبين وطبيبين وتراجمين وكاتب يصحبها خمسة وعشرون من الجنود وعدد من الخدم والمكارين تسير من الحديدة كأنها قافلة تجارية دون أن تستعلم وتتثبت أحوال البلاد التي ستمر بها . وقد تكون استعلمت ولكنها خُدعت . ان في تهامة بين الحديدة وعُبال قبيلة من قبائل العرب المشهورة هناك ببأسها وسطوتها وعزة جانبها هي قبيلة القحراء التي تحكم فعلاً في تلك الناحية . عربها من السنين الشوائع لا يميلون الى الامام ولا يحبون الانكليز بل كانوا يكرهونهم يومئذ لأنهم ضربوا الحديدة ودمروها وقتلوا مئات من أهلها وقطعوا فوق ذلك موارد المعيشة مدة عنهم وكان القنصل الانكليزي في الحديدة يدرك ذلك ، ولكنه بشهادة العرب والانكليز أنفسهم رجل أحمق متصلّف عنيد ظن انه يستطيع تأديب القحراء اذا تعرضوا للبعثة بما يستعين به من العساكر الادريسية فشجعها على السير وطمأنها . خرجت البعثة من الحديدة تجر أذيالها وهي تحمل كما قيل كتاباً خاصاً من جلالة الملك جورج الخامس الى حضرة الامام ، وكانت الحملة ومعها الهدايا الثمينة تقدمتها لتجس الأرض حتى اذا عبرت الحدود آمنة يتبعها أعضاء البعثة مطمئنين آمنين ، فمرت بباجل دون أن يعترضها أحد واجتازت عشرين ميلاً منها الى عُبال فباتت تلك الليلة هناك فتقدمت البعثة تتبعها ودخلت في الشرك الذي نصب لها . وصل الكرنل جاكوب ورجاله الى باجل فرحب عرب القحراء بهم وأنزلوهم ضيوفاً عليهم في بيت كان الأمر فيه بعدئذ فيما يتعلق بالسفر لا للانكليز ولا للامام ولا للسيد الادريسي بل لسادات القحراء ومشائخها . وقد روى الكرنل في كتابه خبر ذاك الأسر بما يجدر بشهم انكليزي من الصراحة والصدق الا انه وقف في بعض الأحايين عند حد توجبه السياسة . وقد يكون أحسن الظن في غير محل الاحسان وأساء نهم أمور قد تغمض على أثقب الناس فكراً من العرب أنفسهم . كان الشيخ أبو هادي مثلاً وهو شيخ مشائخ القحراء عامل الامام يحيى يومئذ في باجل على انه لم يكن له في قبيلته تلك السيادة التي توهمها الكرنل وتوهمها الامام او ان أبا هادي خدع الخصمين الزيود والانكليز ومكن عشائره من الفوز عليهما » .]

انتهى بعض ما أورده الريحاني في كتابه (ملوك العرب) في الفصل الثاني عشر من القسم الثاني الخاص بالامام يحيى حول بعثة اللفتانت ـ كولونيل يعقوب هذه الى بلاط ذلك الإمام .

(المترجم)

وهكذا جرى سباق بين الرجلين . وكانت المسافة عبارة عن مائتي ياردة تنتهي عند شجرة تقع امامها . وبينما كان جوك يعدو راكضاً ضاع منه أحد نعليه ولكن الهزيمة كانت مستبعدة حيث جاء ترتيب ذلك الاسكتلندي في المقدمة وفاز في السباق ببعض ياردات ، وكان المتفرجون على سطوح المنازل ينادون ويصرخون : « انظروا راعي البغال ، ها هو يعدو هارباً ويجري شارداً ، ولكن شخصاً آخر يتبعه ويلحق وراءه . كتب الله له النجاح ! » وعلى الرغم من أن جوك كان طبيباً فانه كان مع ذلك ضابطي الطروب فكان أيضاً يدير الحاكي (الفونغراف Gramophone) وكان يدعى « أبو الصندوق » . كما انه كان حلاقاً بارعاً ولقد أحنينا له رؤوسنا في أوقات معلومة ودورية ، وكانت آلته الوحيدة حادة وقاطعة اذ كان يديرها بمهارة وخفة .

كان طبيباي فائقي القيمة ، وكانت أعمالها لا تقدر بثمن اذ لا يوجد شيء أعظم من النجدة أو يكون بديلاً عن المساعدة حيث لا عوض عنها . والطبيب الآخر هو النقيب ب (Captain Brok) الذي كان يتمتع بقامة مديدة ، ومحيا طلق ، وملامح سارّة بهيجة ووجه مورّد دائم الابتسام ، كما كان دؤوباً لا يعرف الكلل أو الملل ولا يقعده التعب أبداً فكان يعمل ليلاً ونهاراً في كل من المستوصف الذي أعده وجهّزه في الطابق الأرضي ثم في القرية أيضاً ، وكان يدعى في أية ساعة ، فأحياناً يكون مطلوباً لاستخراج الرصاص من جسد مصاب بسبب انتشار الأخذ بالثأر بين القوم بكثرة ، وأحياناً لإعطاء حبوب الكنين لمكافحة الحُمّى والملاريا ، وأحياناً لإيقاف الاستشارة الشعبية عن مريض طريح في حجرة قد أحاط به الأقارب وكل واحد منهم يقدم اليه النصيحة ويمده بالقراطيس أو يزوده بالإرشادات مجاناً ومن غير حساب .

وكانت تجربة ب . عظيمة وغير محدودة فلقد استفاد منها وتعلّم الكثير . وذات مرة ترك مريضاً عند الساعة السادسة صباحاً بعد ليلة أمضاها بكاملها في تشخيص المرض وهو واقف في برميل من الماء الساخن ، ولقد نسيت تلك العلة ونوع المرض . كما ان مرح ب . وطلعته وجذله ووسامته قد أكسبته لقب « ابن أخت الملك » فكانت شخصيته مَحَل تقدير كبير جداً وأصبح في حصانة من الأذى . وحينما كان ذات مرة يدخل منزلاً وقف واحد من المتعصبين الموجودين في الداخل وبصق على الأرض أمامه ثم استعمل كلمات رديئة ونَطَقَ بعبارات مهينة فارتعب الآخرون لجسارته وقال واحد من المشائخ كما لو كان مدافعاً عن ب . : « ان حكومته لا تهتم قيد أنملة بيعقوب ولا تعيره أية قيمة ولا حتى بمثقال ذرة » ، ثم تكلم هذا الشيخ بحرص ، كلام من يعرف بواطن الأمور أو من يرى الأشياء البعيدة والخفية أو الأمور غير المرئية . . . « ولكن دعنا نتعامل بلطف مع ابن أخت الملك » وقال شخص آخر : « تعال

واقعد معنا ولسوف نعطيك بنتاً من بناتنا لتقترن بها ، ابق معنا ولا تتركنا » . ثم لفّ هذا الشيخ ذراعيه حول عنق ب . . . وكان هذا الرجل هو البغاوي الذي كنا ندعوه (بُغْ) للاختصار ، وكان مرافقي عضو الرابطة يُدعى المغيرة فكنا نسميه هو الآخر (مُغْ) .

كتب الامام رسائل عتاب واحتجاج بالاضافة الى البرقيات اليومية التي كانت تصل الى مشائخ القحرا والى السيد كما هددهم بالاعدام وتوعدهم بالدمار اذا لم ترسل البعثة في الحال الى جهة الوصول التي تقصدها ووصم عملهم بالعار وفعلهم بالاعتداء وانتهاك الحرمات لأن عملاً كهذا لا يترك الانتقاد واللوم المستمر عليهم وحدهم فحسب وانما على الاسلام أيضاً .

وقد كتبت الى الامام مطالباً بالكف عن انقاذ مسلح أو تخليص لنا يتم بالقوة والاكراه لأن سفك الدماء سيتلو ذلك ويعقبه حتماً ولسوف تكون تلك الفرصة مناسبة ينتهزها منافسه الادريسي للحضور الى هذا الاقليم ووضع اليد عليه والاضطلاع بادارة شؤونه . وكتب الامام بدوره يشكرني على نصيحتي الودّية . وكان موظف البرق تركياً منحناه لقب (فريدي Freddy) وهو الذي كان يمدني بالنص الكامل لكل رسالة ترسل من صنعاء واليها سواء كانت من المشائخ أو من السيد أو من الامام نفسه وذلك في مقابل هدايا من الدولارات ومن علب السجائر القليلة أو زجاجة من الخمر المعتق حيناً بعد حين ومن وقت الى آخر ، وكانت هذه الهدايا تقدم اليه في مناسبات خاصة أو توضع خلسة في مكتبه بواسطة الصبي العربي الأمين أحمد . وهكذا كنت على علم بما يجري وملمّاً بالوقائع وبكل ما يدور هناك ، كما كان يعمل أيضاً لحسابي جواسيس آخرون على مقربة من منزل السيد حيث كانت المداولات والمحادثات تدور في الاجتماعات التي تُعقد كل ليلة كالعادة واما في النهار فان المشائخ والسادة وكل من في القرية ينصرفون الى مضغ ورق القات الحاد . وتكون الكآبة عظيمة عندما تفشل قوافل القات ـ كما يحدث أحياناً ـ في احضار هذه البضاعة المربحة أو الباهظة التكاليف .

وكانت المفاوضات مع المشائخ يومية الحدوث ، وتبدأ عادة في الساعة الحادية عشرة صباحاً فكان يقال الكثير ثم يعاد تكراره وترديده ويكون القرار واحداً لا يتغير أبداً : « يجب أن تبقوا هنا وأن تمكثوا حتى يفتح الله الطريق ويسهّل السبيل من أجل عودتكم » . وكان بريدنا من الشاطىء واليه منتظماً ، وكنّا نتصفح المجلات المصورة والصحف القادمة من انكلترا ونطالعها كثيراً ونقرأها بامعان وكانت الانتقادات تمر بحرية وتعبر بسهولة . وعندما نظر واحد منهم الى صورة القنصل الهولندي المنشورة في سفير Sphere قال مشيراً نحوها بيده « ما بال هذا يكون أنت ! » وصورة أمير ويلز التي سمّرها واحد من جماعتي في حائط غرفته تسبّبت في

وكانت عدة الرحلة وأمتعة مخيمنا مصدراً لا ينضب للاهتمام وحب الأسئلة الفضولية . وكان القوم مولعين بفك وتركيب الأسرّة والمقاعد المتنقلة التي تعتبر نماذج للحرف X وكذلك الأمر بالنسبة الى المغاسل . والآلة القاطعة التي تستعمل في فتح علب الصفائح أو الملبّية للحاجة والرغبة عند اللزوم والمسمّاة بالقاطع البحري أو «Navy Cut» كانت تثير فيهم عبارات الدهشة للبراعة في اختراع الكافر . وكانت اسفنجة الحمام المنفوخة لغزاً غامضاً فكانت تُعصر بأناملهم المصبوغة بالنيلة ويحدث لها من الضغط والكبس والعصر ما لم يحدث مثله من قبل . ومرآتي التي أحملها معي عند السفر قادت الى باطل القول بأنها تجعل خديّ أية فتاة حسناء يحمرّان خجلاً ، وأما ظهرها أو الجانب الآخر منها والذي يكون مُكبّراً فانه كان يقذف بهم الى الرعب ويترك الفزع في نفوسهم ، ولا ريب أن ابليس يوجد على هذا الجانب أو يسكن فيه ! وأحياناً كان (بغ) يستلقي على سرير من الأسرة التي ننام عليها في المخيم عندما يرغب في قياس طوله . انهم كانوا بحق قوماً أليفين وأناساً اجتماعيين أنيسين ، ولم نجد واحداً بينهم يحب العزلة أو الوحدة . وفي بادىء الأمر احتقروا الحاكي The Gramophone أو ادعوا ازدراءه ، اذ قالوا عنه بأنه من اختراع واحد شيطان ، ومع ذلك فقد افتتن به المشائخ المعروفين بالصرامة والعناد ، وخلبهم الجذل والطرب عندما تحولنا الى النغم العربي وأسمعناهم ألحاناً مرتفعة حادة ومصحوبة بصوت مغنية مصرية مغرّدة ، وتعلموا بدورهم الصياغة بسرعة فأتقنوا الأسلوب وأصبحت تحدوهم الرغبة الى طلب الاستعادة والى الاستزادة ثم الى القيام بمهمة « أبو الصندوق » وبذلك أعفي هذا الأخير من خدماته على الفور . وكان جوك مصوراً هزلياً مبدعاً يجيد رسم الصور الهزلية بكيفية عجيبة ، وبينما كان المشائخ يتباحثون معي ويجادلونني حول الصندوق وحول الخ . . كان جوك من مقعده في الركن يضع انفعالاته وتأثره على الورق ، ولم يكن يوجد غير القليل الذي لا يقدر جوكنا على فعله .

وكان حب الاستطلاع يتحرك عند المشائخ وهم ينظرون الى صور الطائرات المنشورة في صحفنا ، وكانوا قد سمعوا عن تلك الاختراعات ولكن لم يسبق لهم مشاهدة أية واحدة منها ، وقد أخبرتهم مازحاً ومنكتاً بأن لدينا قليلاً منها وبأنها موجودة داخل أمتعتنا وبأنهم قد فشلوا في العثور عليها عندما قاموا بتفتيش الأمتعة والصناديق ، ولهذا حصل تفتيش آخر قاموا به من جديد ، وفي احدى الليالي أقبل علينا يحيى علي بعد أن كانت أسرّتنا التي ننام عليها قد صُفّت منصوبة على السطح حيث أثارت فيه حب الاستطلاع العنيف والفضول الزائد تلك الناموسيات المقامة فوقها ، والمعدة للاستعمال من أجل صد ذباب الصباح المبكر ، فاستفهم

منا عن تلك الأشياء وسأل ماذا تكون ؟ ولقد أخبرته على الفور بأنه قد عثر أخيراً على
الطائرات ، وبأن الأشرعة قد ركبت ولسوف نطير بعيداً قبل أن يأتي الصباح ! فلم ينطق بكلمة
ولكنه انسلّ منسحباً بعيداً عنا ثم توارى في الخفاء ملقياً نظرة أخيرة الى الخلف بطريقة أشبه ما
تكون بنظرة زوجة لوط أثناء الفرار من سدوم وذلك قبل أن يهبط الى السلالم اللولبية ، ولقد
ظهر عنيه بأنه كان يبدو مرعوباً قليلاً ولكن كان يوجد لديه بصيص من نور عن أن تلك مجرد
خدعة بقصد المداعبة ولهذا فانه شعر بالخجل .

وعندما تباريت في المصارعة مع الشيخ (بُغ) - وأقوى ما فيه يداه الشبيهتان بأطراف
الأخطبوط - وضعته في الأخير على البساط ثم جلست بعدئذ فوق جسمه المنبطح ، وكان يحيى
علي شخصاً يتمتع بروح المزاح وتحضره النكتة ولهذا صاح قائلاً : « يا مندوب ، والله ! انت
حصان ! » وحينما يُقال للشخص عندهم بأنه فحل الخيل يكون ذلك مدحاً لا قدحاً ! ولقد
اعتبروا لعبة الشطرنج حراماً ، وممارستنا لها اثماً حتى جلس سكرتيري الهندي ذات يوم يلعب
القطع السوداء والرائد The Major يلعب البيضاء وكان الأول فائزاً على خصمه ومتفوقاً بينما
كان يحيى علي يتفرج قابعاً وهو يعبر بصوت شبيه بصوت الخنزير عن استهجانه وعدم موافقته ،
ثم طلب شرحاً لذلك ،وعندما أحيط علماً بهزيمة الرائد قال :« هذا حسن فقد انتصرت الملكة
المسلمة على الملك الكافر ! » .

ان ألعاب الحظ والقمار تعد رجساً عند المسلم ، والشطرنج يعتبر كذلك مكروهاً ، وأي
لعبة من الألعاب التي تفتن الشخص أو تصرفه عن الصلاة تكون مكروهة وتقاوم .

وفي تلك الظروف التي كانت تمر بنا حضر من صنعاء متجهاً نحو المنخفضات السهلية
الوالي السابق على اليمن محمود نديم بك بعد أن أصبح أخيراً موفداً من قبل الامام لإجراء
مباحثات تتعلق باطلاق سراحنا من الأسر ثم بالإفراج عنا . وهـذا البك هـو الذي
كـان ينشر عنـا الدعـايات الكثيـرة المغرضـة وغير المقبـولة في أثنـاء الحرب (١٩١٤-
١٩١٨) وها هو اليوم يبدو شخصاًمجرداً من كل قوته ويصبح مستخدماً من طرف الامام الذي
اكتشف بأن خدماته في أثناء الحكم التركي كانت فائقة القيمة . وفي باجل تعرض محمود نديم
لإهانات جسيمة على أيدي مشائخ القحرا ، وكان مركزه حرجاً جداً اذ مكث في باجل مدة
تزيد على شهرين ، وقدم الى الشيخ أبي هادي مبلغ أربعة عشرة ألفاً من الجنيهات الاسترلينية
ليستعين بها على تدبير فك أسرنا واطلاق سراحنا ، ولكن أبا هادي لم يكن وحده الحكم
والفيصل في مصيرنا ، كما رفضت من جانبي الفكرة القائلة بتهريبي بعيداً تاركاً خلفي

جامعي . وكانت اقامة محمود نديم الطويلة في باجل مغضبة للامام يحيى الذي توهم بأن مبعوثه كان يلعب لعبة مزدوجة . ومن ناحية أخرى كان مشائخ القحرا شاكّين فيه باعتباره مبعوث امامي . وكان البك معتاداً على تناول طعام العشاء معنا على السطح فكان زميلاً طيباً جداً حسن المعشر ، وكذلك الأمر بالنسبة لمرافقه الشاب التركي الأنيق أ. د. س. A. D. C. وكان محمود نديم عرضة للنقد من عدة جهات على اعتبار انه شخص مخادع وكبير المكر . ولا ريب بأنه كان مؤيداً لوجهة النظر التركية ، وهذا أمر مرتبط باعتقاده وجدير بأن يكون موضع فخر . ولقد عمل بغيرة وحماس من أجل اطلاقنا من الأسر ، كما حضر أيضاً الى باجل ضباط أتراك آخرون ، وكانوا جميعاً مفيدين لنا . ولعلّ موقفهم كان على العكس من ذلك تماماً لو انهم وجدوا بأننا قد دخلنا الى أرض تركية أو تابعة لتركيا ورأونا نمرح فيها قبل أن يتم اتفاق على ذلك أو تفاهم بهذا الخصوص ، كما ان تعاملنا المباشر قد أصبح الآن مع الامام واتصالنا به قد حدث بصرف النظر عن حضورهم الى الاقليم ، والأغلبية من الجنود كانوا قد ذهبوا ولكن الحكومة لم تكن قد توقفت عن العمل نتيجة لذلك أو انقطعت عنه .

ومهرجاناتنا اليومية كان محمود نديم يحضرها دائماً . وقبيلة القحرا هي التي كانت تعد لها كل الترتيبات وتقيمها على ذلك النحو . وكنت أتقبلها عن طيب خاطر كما كنت ارتضيها واحضرها بسهولة . وفي هذه المناسبات كنت أطوف بالحضور حول الحلقة ، وأساعد في تقديم السجائر اليهم ، وهذا التصرف من جانبي قد ضايق التركي الفاضل وحمله على هذا الحديث : « ان هذا السلوك يا حضرة المندوب يحط من قدر الشخص ، فأنت تنهض من مكانك وتتولّى بنفسك خدمة هؤلاء الكلاب من العرب ووالله لو كنت في كرسي الحكم لربطتهم ولعاقبتهم مثل ما كان يحدث في الأيام الخالية » . ثم شرح لي على جهة المثال كيف عامل ذات مرة الرجل العنيف يحيى علي الذي يعامل البك اليوم بقدر ضئيل من اللطف والمجاملة .

أما عن موكب الجمعة الى المسجد والذي كان يبدو جاداً تقريباً وصارماً فانه كان مشهداً من أعظم المشاهد الهامة بالنسبة الينا ، وكنّا نتعقبه من نوافذنا العالية ، ويعتبر موكب البك نخماً وجليلاً اذ كان يمشي متشامخاً الى الصلاة ببطء مع أتباعه من المحاربين الزيود ، والمظلة السرادقية الكبيرة مرفوعة فوق رأسه وهو يبعثر الهبات مع مرافقه أ. د. س. وكذلك المنح والهدايا على الشحاذين والمتسولين المحليين الذين كانوا يحتشدون في طريقه . وكذلك كنّا نشاهد اقتراب الموكب المنافس للسيد عبد القادر ثم الحشود التي كانت تعرقل طريقه بينما كان

يتوقف لمنحهم البركة ، وكان رجال القبيلة ينحنون لتقبيل قدميه . أما التجار فانهم كانوا يتريثون في الحضور ، اذ ينتظرون حتى ينتهي المؤذن من ندائه تقريباً ، وكان البعض من هؤلاء أقل صبغة بالتقوى ولو انهم يأتون الى الصلاة مسرعين وعلى عجل ولكنهم كانوا يصلون الى المسجد قبيل خروج المصلين أو اندفاعهم منه بلحظات ويكون ذلك كافيا عندهم لأنهم قد دخلوا الى التخوم المقدسة مهما كان ذلك الدخول متأخراً . وسكرتيري الذي سميناه « جورج George » كان مسلما تقياً ورعاً . وكان يحضر تلك العبادات بانتظام ، ولقد تعلمنا منه الكثير عن الطبائع الخفية والنيات الداخلية لدى معتقلينا .

وكان يوجد في باجل سيد شاب متعصب يخطب في المصلين ويخاطبهم في مناسبات عديدة ، ويحرضهم على الجهاد ضد الكفار المقيمين في المنزل الكبير ، ويدافع عن دعوته هذه بالشواهد والأدلة . ولقد احتججت عند أبي هادي على طيش ذلك الشاب وتهوره ، ولكن الشيخ أجاب بعدم وجود سبب مبرر للقلق والانزعاج ، أو لم يكن حرسه الخاص ساهرين على مرافقتنا وحراستنا ؟ ومع ذلك فان المشائخ الآخرين قد أكبروا تلك المضايقة التي كان يتزعمها ذلك السيد المتهور والحاد الطبع لأنه قد يغري الناس ويفتنهم بتحريضه ومن ثم سوف يتحمل المشائخ تبعة ذلك ويكونون مسؤولين عنه تجاه حكومتنا على اعتبار انهم الأشخاص الآسرون لنا المعتقلون للبعثة ، وبما ان الضمائر عند هؤلاء المشائخ كانت فاسدة والنوايا سيّئة واعتقالهم للبعثة كان يضاعف أيضاً من غضب الامام يومياً فان الاعتقاد قد ساد فيما بينهم بأنهم اذا ما أخلوا سبيلنا فان حملة تأديبية سوف ترسل الى باجل ، واذا حدث مثل ذلك فان الانتقام عندئذ لا مفر منه ، ويصبح هؤلاء المشائخ مشلولين عن الحركة ولهذا فانه يتحتم على السيد الشاب أن يصمت وأن يكمّم فاه وهكذا كان الأمر ففي أحد أيام الجمعة وعقيب الصلاة مباشرة كان السيد الشاب يجر الى مكان يقع على مرأى تام من مرابعنا وهناك قام يحيى علي بمهمة ضربه ثم سِيق الى السجن المقام بيننا وبين المسجد حيث عانى قليلاً من ساعات التعذيب والاهانة ثم تم الافراج عنه بعد ذلك فلم يقم هذا الرجل مرة أخرى بعدئذ بالقاء أية خطبة أو موعظة على الاطلاق .

وكان الضابط السياسي الذي وصل الى الحديدة من أجل العمل على اطلاقنا من الحبس ، أو للتأثير على تحريرنا من الأسر قد أنفق الكثير من الأموال في سبيل محاولاته تلك لجذب المشائخ المجاورين والعقلاء الآخرين وكسبهم الى جانب القضية البريطانية ، وكانت



ابو هادي

حاكم باجل من قِبَل الامام .

علي حميدة

والد أبو هادي

السياسة التي رسمت لذلك تقضي بابعاد جيران القحرا عنهم بقصد عزل هؤلاء الأشخاص المعتقلين لنا وابعاد أو صرف الآخرين عن تأييدهم ، وعلى الرغم من أن هذا المنهاج كان جميلاً في ماعناه فانه قد أحبط وحكم عليه بالفشل ، فقد وصل الى باجل على ظهور البغال الحكومية عدد من العقلاء والمشائخ المؤيدين لوجهة النظر البريطانية بغرض الضغط وقصد التأثير على اخلاء سبيلنا ثم ثرثروا في أحاديثهم عن الهبات التي استلموها فاستقبلهم مشائخ القحرا وقبلوا اجراء المحادثات معهم ، كما استمعوا منهم الى وجهة نظرهم ، وبعدئذ أجاب عليهم بحزم كل من يحيى علي المتحدث عن رجال القحرا ، والناطق بلسانهم ، وزميله الشيخ محمد بن زيد وقالا لهم ما يلي : « ان هذا الموضوع يتعلق بنا قبيلة القحرا ، فنحن الذين احتجزنا البعثة واعتقلناها ، وعندما يأذن الله ويسمح سوف نطلقها من الحبس ونحررها من الأسر ، ولا يهمنا أمر المبالغ الكبيرة من النقود التي قدمتها اليكم الحكومة البريطانية » . وكانت الحكومة قد عرضت تقديم مبلغ كبير من المال كفدية يبلغ مقدارها خمسين ألفاً من الجنيهات الاسترلينية ، وأنا الذي أبلغت المشائخ بأنهم سوف يصبحون رجالاً أغنياء بعد الآن ، ولكنهم غضبوا لذلك ورفضوا الرد على الرسالة ، ونفضوا أيديهم من استلام الرشوة قائلين : « نحن لا نريد شيئاً من نقودكم القذرة ، وأموالكم المحرّمة . We want none of your fifthy lucre » ، وما عليك أيها القارىء الا أن تتصور كيف يكون رفض قاطع الطريق المكسيكي للذهب الجيد ![1] وأنا لا ألوم رجال قبيلة القحرا على اعتقالنا لأنهم كانوا يعتقدون بأنني كنت ذاهباً الى صنعاء من أجل التوقيع على تسليم البلاد الى الامام . وكان العنصر الثالث في القضية ـ ان لم يكن هو العامل المحرك ـ صديقي السيد الادريسي صاحب صبيا اذ كان يعمل لحسابه في باجل شخص

---

(١) راجع الفصل التاسع لتجد ان أسلوب العرب النزيه هنا وترفعهم عن الخضوع والخنوع للاغراء المادي والعرض المادي يناقض رأي المؤلف فيهم هناك ويبرهن هذا على أن مطاعنه تلك كانت مغرضة ، وسوف يجد القارىء في هذا الفصل الحادي عشر مدى نزاهة القبائل العربية والانسان العربي في اليمن ، ويلمس العفة وعزة النفس ثم الحرص على الأمانة وحفظ الوديعة عندما يقرأ قصة اعادة الودائع الثمينة والمحمولات النفيسة الى صاحبها يعقوب وبعثته ثم استلامهم لها كاملة غير منقوصة . فالمؤلف يتناقض أحياناً مع نفسه بين ما يقوله وبين ما يرويه .

(المترجم)

او وكيل وهذا الشخص هو واحد من مشائخ القحرا أنفسهم . وبالاضافة الى ذلك سافر هذا الشيخ العميل الى منطقة الادريسي ولم يبذل جهوداً لإخفاء ميوله ، ولقد نصحني الشيخ أحمد خزام بالكتابة الى الادريسي الذي قال عنه بأن لديه المقدرة على اطلاق البعثة ولكنني رفضت بحزم قبول مثل ذلك لأن الادريسي شخص اذا ما طلب منه فعل أي شيء فانه يتوقع المكافأة بطبيعة الحال ، اذ ينتظر التعويض مقابلا لذلك ، وأنا به عليم فلقد عرفت كيف كان طمعه بالحديدة ثم تطلعه الى الهبات المنتظرة والمنح المقبلة من امام صنعاء . وانني مقتنع بأن الادريسي قد اشار على السيد عبد القادر بالعمل على اعاقة البعثة وبأن السيد نفسه كان خائفاً من مجيء الامام الى تلك الجهة بعد أن ساد فيها نفوذه ، وعظم مركزه بين سكانها المحليين مدة طويلة ولكن نقمة الاله أو لعنة الآلهة كما يقول الاغريق قد لحقت بدلاله مع الحاكم الادريسي أو تلت عبثها فأصبح اليوم ذلك الرجل الطيب شديد الندم اذ يتأسف بمرارة على ما فعله بعد أن بات خصماً معادياً لحضور الادريسي الى الحديدة الذي يعد وجوده فيها لطمة موجهة الى التجارة الحرة .

* * *

وبعكس السياسة التي ذهبت اليها أو الى ما هو ابعد منها فان الادريسي قد تحرك بعدئذ للعمل من أجل تخليصنا ، وكان مدفوعاً الى ذلك من الخارج عندما طُلب منه بإلحاح القيام بذلك ، ولقد انتدب لهذه المهمة منصب المنيرة الذي حضر الى باجل ، وكان هذا الوجيه المندوب رجلاً صريحاً فأشار عليّ بعدم منح أية امتيازات لرجال القبيلة أو لمشائخ القحرا الذين قال عنهم بأنهم سوف يكونون مقتنعين عن طواعية بحماية سيده لهم اذا ما امتثلوا للرغبات الادريسية . واذا ما تركوا البعثة تذهب بسلام ، ومع هذا فان رجال القحرا لم يكن عندهم شيء من الميل أو الرغبة في الادريسي ولم يأخذوا برأيه ورفضوا وساطة هذا المنصب كما رفضتها أنا أيضا بدوري . ولقد حصلت فيما بعد على النص الأصلي للخطاب الذي كتبه الادريسي الى السيد عبد القادر . وفي هذا الخطاب استحلف الادريسي المرسل اليه بالله وبالنبي باطلاق سراح البعثة بكاملها على الفور ، والقيام بترحيلنا الى الشاطىء ! ثم قال الكاتب : « استمع الى نصيحتي التي هي لخير البلاد المسلمة ومن أجل صيانتها ، ولا تخف من أي شيء لأن جيوشي المحتشدة في اقليم بني الجرابحة سوف تتقدم الى بيت الفقيه بعد احتلال جبل ملحان ، وسوف يصل جزء منها الى باجل ، ولا تُصغ الى أي من الدساسين، ولا تصدق أولئك الذين يقولون عني بأن عندي مآرب دنيوية من وراء كل هذا » . ولا جرم ان هذه حيلة عربية لا تصلح للاستهلاك لعدم وجود مبرر لها.ثم يستمر في كلامه قائلاً : « ولا شيء يبقى بعد نصيحتي غير النار الحمراء والندم بلا جدوى ، ولقد نصحك منصب المنيرة قبل الآن بما تفعل ، وان الزمن يمر ، والتأخير للبعثة مضر » . ثم أقبل على المضغة الطيبة أو اللقمة الشهية اذ وصل الى بيت القصيد عندما قال : « واعلم بأن يعقوب ومساعديه ليسوا في الواقع من الأهمية بمكان بالنسبة لانكلترا » . وهذه هي تفرقة تنيصن[1] Tennyson بين الحياة التي يحياها الفرد والحياة التي تحياها الجماعة أو بين العزوبة والتزاوج ، والسيد محمد لم يقرأ عن الشاعر تنيصن ولكن الحقيقة واحدة لا تتوقف على أية وسيلة من وسائل الاتصال أو على طريق للعبور والانتقال . ثم استرسل الكاتب قائلاً : « والحقيقة ان الحكومة سوف تكون راغبة في أن يطول بهم الأسر لانتحال مبرر لها من أجل نقض تعهداتها مع العرب ونفض يدها منهم على أساس ان الأخيرين قد نكثوا وعودهم باعتقال البعثة ، وبذلك يتقدم الانكليز الى منطقتكم ويحتلون بلادكم ومن ثم يزحفون على صنعاء ويضعون أيديهم عليها ويتملّكونها كما فعلوا في

---

(١) تنيصن Tennyson هو الفرد والبارون الأول ، شاعر انكلترا (١٨٠٩ ـ ١٨٩٢) ومنذ عام ١٨٥٠ وحتى عام ١٨٩٢ صار شاعر الملك أو شاعر الدولة .

(المترجم)

القسطنطينية (استانبول) وفي بغداد وفي سائر أنحاء العراق وكما فعلوا أيضاً في دمشق وفي بيت المقدس ، وعند ذلك يخضعونكم ويحكمونكم كما يريدون . والقبائل في منطقتكم قوم جاهلون . وأما عن أولئك الذين يتظاهرون في باجل بأنهم سياسيون محنكون (ضربة للبك التركي) وبأنهم يجيدون المراسلات ويحسنون تنسيق العلاقات فانهم على غير علم بفنون السياسة الحديثة ، ولا يدرون شيئاً عن غيرهم من السياسيين في هذه الأيام . . . والله اسأل بأن يهدي كل واحد الى صراط مستقيم » . وهذا الصراط المستقيم الذي عناه في كلامه ينفذ من خلال البوابة الضيقة عبر ممر محصور يقود الى رحاب السيد الادريسي و من ثمة الى توسيع نفوذه !! ومع ان رجال القبائل قوم بسطاء فانهم ليسوا أغبياء كما تخيّل الادريسي أو مثلما توهم ففي الليلة التي سبقت اليوم الذي تم فيه الافراج عن بعثتي وأعني بذلك اليوم الحادي عشر من شهر ديسمبر بعد الاتفاق المبرم مع السادة والمشائخ اجتمع حشد كبير من هؤلاء المشائخ والعقال مع محمود نديم بك في سطح المنزل ، وعند الاشارة الى قوات الادريسي الموجودة في الجوار على مقربة من ديارهم سألوا عما اذا كنت بالفعل متآمراً على دخول الادريسي الى باجل ثم استغرق الحديث مني ومن البك أكثر من ساعة أكد لهم فيه كل منّا عكس ذلك . وكتبت بالفعل الى القائد العام الادريسي طالباً منه الابتعاد عن المنطقة ، وعن كل مساحة ليس للادريسي أي حق شرعي وعادل في المطالبة بها أو في ادعاء مثل ذلك ، وعندئذ أعطى كل من الشيخ يحيى علي والشيخ (بغ) الاشارة بالانصراف ثم قالا: « يا حضرة المندوب نحن نعتمد بثقة تامة لا يخالجها أدنى ريب على وعدكم لنا بطرد الادريسي من بلادنا » . ولولا ذلك التأكيد من جانبي لظل المشائخ باقين على عنادهم ومتحجرين في رأيهم ولم يحدث اطلاقنا وترحيلنا أبداً ما لم يتم مثل ذلك بالقوة والقسر .

كانت الاتفاقية التي أبرمتها معهم قد دونت حرفياً وضُبط نصها المكتوب أصلاً من قبل الضابط السياسي الموجود في الحديدة فأصبحت صيغتها بذلك جازمة ونهائية شكلاً ومحتوى في حين أن المشائخ لا يوافقون على أي توقيع تحمله الاتفاقية ، بل لا بد من توقيعي الخاص عليها وامضائي حضورياً فالعرب انما يصبحون عادة مرتبطين بالرجل الذي يكون موجوداً بينهم أو يتعامل معهم مباشرة ولا يتبعون الصوت الذي ينادي به من بعيد شخص غريب . وعندما وصل الضابط السياسي أطلقت على نفسي لقب الرجل المقدَّم أو البعير المكمّم ولكن المشائخ رفضوا قبول أية وساطة لشخص آخر وبناءً على ذلك نقلت الاتفاقية من حيز الجدل الى حيز العمل والتطبيق ، وبعد ذلك أو بسبب ذلك تركنا باجل وسافرنا الى الحديدة يرافقنا ألفان من المحاربين للحراسة وكان الكثير من هؤلاء قد وصلوا قبلاً الى الحديدة ووعدونا بالتوديع تكريماً



ستة عشر صورة (كاريكاتورية) عن إحتجاز البعثة في باجل .

بريشة د . ت . ر. By : D.T R.



يحيى علي

احد مشايخ القمرة

علي سلامة

وكيل الأمام في باجل

للرحيل وها نحن الآن ندخلها بين دقات الطبول، وقد ألهتنا ألعاب الخيّالة والفرسان ومواكب رجال الابل وراكبي الحمير عن مشقة السفر اذ خفّفت عنا من ضجر الطريق ومللها ، وأنستنا تعب المسير الى البحر .

لقد حذفت بقدر الامكان الشيء الكثير عن الحالة السياسية مسجلا فقط القدر الكافي لجعل الرؤية واضحة والحديث مفهوماً واما عن تقريري الرسمي والكامل فانه قد أرسل الى رئيسي في القاهرة فسكونت اللنبي Viscount Allenby . وأنا في هذا الفصل مهتم كثيراً باكتشاف الطبائع والأمزجة العربية .

عندما عرف المشائخ بأنني أقرأ كتابهم فوجئوا بذلك وأخذتهم الدهشة وخصوصاً الشيخ يحيى علي . وأنا لم أسافر قط ضمن حدود شبه الجزيرة العربية دون أن أستصحب معي نسخة من القرآن . وكانت نسختي التي حملتها الى باجل مدققة تقريباً بعد امعان النظر فيها طويلاً فكانت الاسئلة الكثيرة توجه اليَّ عن الحواشي المكتوبة على الهامش بالقلم الرصاص . وفي احد المهرجانات التي حضرها حشد من مشايخ قبيلة أخرى - لأن الناس اعتادوا زيارتي من سائر أنحاء الاقليم لتبادل التعليقات ، والمباراة في التعابير ، وابداء الملاحظات والانتقادات - هاج يحيى علي مثل ثور باشان ، وأعلن بأنني قد أهنته وأهنت كل المسلمين الحاضرين ، ولكن لم يكتشف أي واحد منّا جريمتي ، فنهضت متجهاً نحوه لبحث السبب معه ولكن ذلك كان عبثاً ، وبعدئذ رجعت الى مقعدي ، واخترت شكل جلستي السابقة حيث كانت فيها احدى رجلي موضوعة فوق الأخرى بشكل عبور ومرفوعة عن الأرض ، فاتجه (بغ) المكار نحو الكرسي الذي أجلس عليه ، وكان هذا الرجل الداهية يتمتع بمقدرة عقلية فائقة وببادرة سريعة ثم نقر بيده مربتاً على الرجل اليسرى المسيئة والمزعجة ، فأزحتها من مكانها ووضعتها على الأرض بجانب زميلتها الرجل الأخرى غير المرفوعة ، وعند ذلك انحسرت جلة البعير الهادرة على الفور ، ورجعت الى مكانها بعد أن ابتلعها الحلقوم وخمدت الشقشقة ! والجلوس على الكرسي بالنسبة الى العربي (في باجل) أمر غير اعتيادي فهو يفضل الجلوس على الأرض وترك نعليه خارج الغرفة أو الحلقة ، واذا استعمل العربي عادتنا وجلس على الكرسي كما نجلس فانه يتمسك بحذائيه ولكن يجب عدم رفعهما عن الأرض ، فالحذاء له قرينة مشؤومة وعلينا أن نقارن هذا معماجـاء ، في مزامير داوود « على ايدوم Edom سوف أرمي حذائي » . وأرض الحجرة أو الباحة من الأماكن المحتملة لتأدية الصلاة عليها وفي هذه الحالـة يكون جبين المؤمن ساجداً على الأرض حتى ولو أقيم هناك حفل مسيحي ، والنعل

يكون مستحيلاً حيث يلتقي نعل النصراني وجبين المسلم !! ولا ريب انها فكرة شنيعة ، المرفوع يوحي للمرء وكأن الجبين واقعا تحته وحقا ان هذا توفيق غير ممكن بل انه اتحاد يكاد أن وصورة ذهنية قبيحة ولا غرابة في أن يثور الشيخ من أجلها ويهيج !

وفي مناسبة أخرى حدثت مناقشة جريئة حول موضوع عدم ايماننا ، وكان (بغ) يعيرني في أغلب الأوقات بالكفر كما يصفني بالرجل الكافر وكنت أفنّد الاتهام على الفور وأدحضه وفي هذه المناسبة احتدم الجدل وأصبح الوقت ملائماً لتبلغ القضية الى الذروة ويوضع الأمر في نصابه فأجلست محمود نديم على الكرسي ومن حوله المشائخ والسادة وتجار باجل، وجلست أنا في الجانب المقابل على سرير صغير أشبه بالمقعد وهو من النوع الذي ينطوي ويستخدم في الأسفار .وجلس بجواري سكرتيري الهندي المسلم ولدى كل واحد منا قرآنه فافتتح رئيس الجلسة المناقشة بقراءة من القرآن مستشهداً بالآية ٨٢ من السورة الخامسة : **﴿ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**[1] . واستشهد آخر - وكان شخصاً محباً لنا وودوداً معنا وأظنه واحداً من المتصرفين الأتراك - بالآية ٦٢ : **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء﴾**[2] . ثم شرح ذلك قائلاً بأن هذا قد يكون ضربة للنصارى ، ولكنه شخصياً يعتقد بأن النص انما ينطبق على فريق منهم وهم الذين يسخرون بالاسلام فقط . وأنكر بشدة أن يكون أي واحد منّا قد فعل في باجل مثل ذلك أبداً ، ثم ذكر بأن الكفار الموجودين في باجل خارجون عن فئة النصارى ، ولا يبعد أن يكونوا طائفة أخرى من غيرهم . ثم تلاه في الحديث إثنان من المشائخ حيث ناقشا وجهة النظر تجاه الكافر ولكن واحداً من السادة قاطعهما بقراءة من السورة التاسعة وتلا قوله تعالى : **﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾** وهذا بالطبع استشهاد لا يبرهن على شيء ويأتي في غير موضعه ، ولقد نبّه الرئيس الحاضرين الى انني أقرأ الكتاب المقدس (أي القرآن) وان الله هو الذي يهدي الى الحق من يشاء ثم نظر البك نحوي كما لو كان يقول : « قضيتك مضمونة في أيدينا » ، واستشهدت بالفقرة المألوفة والآية المشهورة من السورة الخامسة وهي : **﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انّا نصارى﴾** ، ومن المؤكد أن المقطع الأخير

---

(١) الرقم الصحيح لهذه الآية ٦٩ وليس ٨٢ (المترجم)
(٢) الرقم الصحيح لهذه الآية ٥٧ وليس ٦٢ (المترجم)

برهان آخر على ان استثناءنا قد جاء من عند الله ، وان الله قد أعفى النصارى من لقب المشركين ، ودعّمت بهذا رأي محمود نديم القائل بأنه ليس في الاستطاعة عدلاً تسمية من يقرأ القرآن من أهل الكتاب بالكافر ، وبعد ذلك استطردت في الكلام واسترسلت فيه وذكرت لهم بأن المساجد موجودة في انكلترا النصرانية ، ونبّهتهم الى أن الكثيرين من الرجال الانكليز قد أصبحوا مسلمين فأذهلت هذه الحقيقة يحيى علي وجعلته يصرخ متهادياً « ما هذا !! مساجد في انكلترا ! بوه ! بوه ! » ومن الواضح انه قد رفض تصايقي . ثم جاء دور أبي هادي في الحديث وقد أحرز نجاحاً بدون الحاجة الى الاستشهاد بالقرآن اذ سرد بدلا من ذلك الحياة اليومية التي يمارسها النصارى امامهم فقال : « انظروا أيها المشائخ انه ينبغي لكم جميعاً أن تناقشوا الأسباب بالعقل والمنطق ، وأنتم لا شك تعرفون الرائد ر . Major R وهو واحد من هذه الجماعة فلقد أصيب خادمه العربي بمرض الحُمّى الشديدة ، وعندما كنت هذا الصباح متجولاً عرّجت عليه وزرته في غرفته فرأيته يندفع على سريره وقد استعاد كامل صحته ثم رفع رأسه نحوي بحركة مفاجئة قائلاً الله يجازيه بالحسنى ذلك الشخص الماهر والعالم بكل شيء » . وهنا هتف يحيى علي فجأة وبقوة قائلاً : « ألم أقل لكم بانه عار على المسلم أن يخدم النصراني ؟ لا ريب ان الله قد ابتلى هذا الصبي بالعقوبة التي يستحقها ! » ونظر أبو هادي الى المتحدث ولكنه لم يتنازل بالتعليق عليه وانما واصل حديثه بقوله: « لقد قام الرائد بنفسه في نصب ناموسيته الخاصة به على سرير الصبي منذ أن تكاثر الذباب لعنة الله عليه ! كما ان الرائد كان أيضاً يتولّى بنفسه غسل أطراف الصبي باسفنجته الخاصة والمغمورة بالمياه . فهل تسمون شخصاً كهذا كافراً ؟ وهل توجد لدى أي واحد منكم عناية بخادمه كهذه العناية ؟ » وهذا النقاش الأخير قد بلور القضية وحسم النزاع بالنسبة الى معظمهم ، ولم يفتح (بغ) فمه مع انه كان مستشهداً كفؤاً بالقرآن وبفقرات شعرية . بل انه الشخص الذي دشّن الهجوم وكان متأكداً من بواعثه ، فماذا يعوزه بعد ذلك من حُجج حتى يوردها دليلاً ؟ غير انه صرح بهذه العبارة : « لقد ضاع منا اليوم وانقضى ، فاتركونا ننهض ثم نذهب ووفروا عليكم قاتكم ! » فأضفت الى كلامه هذه العبارة : « المخزّن موفّر ! » فنقلت اليّ نظرة (بغ) معرفته بعبارتي الدقيقة وبمقياسي الصحيح لما قصده وعناه ومن ثم بالسبب الذي حدا به الى الانسحاب السريع ثم قال : « حسناً أيها المندوب ، قد تكون غير كافر ، ولكن . . . . . . » ولم يكمل الجملة . وبقدر ما كان هذا الرجل متلهفاً قلقاً شديد الاهتمام فان الحوار قد تركه شخصاً بارداً وأضعف حماسه ولكنه لم يكن بالطبع مقتنعاً ، وعلى أية حال فانه قد تخلّى عن اللقب السابق وهو « كافر » وكان اللقب الدائم بعد ذلك « يا حضرة المندوب » . فتلك المناقشة قد نقّت الجو بعدئذ ولطّفه هذا الحوار

اذ برزت الى الوجود روح الصداقة الحميمة . وقبل أن أترك باجل قال لي المشائخ انهم كانوا يكرهونني عند الوصول اليها ، ولكننا الآن أصبحنا أصدقاء واذا عدت في أي وقت من هذه الطريق فان البلاد ستكون مفتوحة لي للذهاب أينما شئت والطواف حيثما أريد . ان الصبر وحده أو سياسة التذويب والتفتيت دون سواها هي التي تتغلّب وتنجح في شبه الجزيرة العربية (ولقد ثبت هذا بالتجربة والمشاهدة وأقنعنا به حضورنا اليها) وانني أنظر الى الخلف وأتلفت متطلعاً الى اقامتنا الاجبارية هناك بشوق وحنين وانني الى عودتها لتوّاق مريد ، وما الحياة الا المخالطة للبيئة ، والاحتكاك بالناس ، والانسجام مع المحيط .

لقد أخبرني المرحوم السيد سونتون يعقوب Sir Swinton Jacob بقصة مسلية تعود في ذكراها الى الأيام السالفة والعهود الخوالي عن عدن فقال انه كان موجوداً مع أشخاص آخرين في لحج فقدم للسلطان بعضاً من قطع الثلج التي نالت الكثير من استحسانه ، وقدرها حق قدرها ثم سأل عن كيفية صُنعها وكان الشرح يتضمن الايضاح عن الدور الذي تلعبه النار في تركيبها وكيف ان الحرارة تحظى بنصيب وافر في تكوين الثلج وصناعته ، فوقف واحد من العرب على الفور وعلّق على ذلك ملاحظاً بقوله : « ان ارسال الكفار الى جهنم ودخولهم النار أمر لا معنى له وليس بمجدي لأنهم بسحرهم سوف يحوّلون النيران الى مياه جامدة » .

* * *

في شهر أغسطس (آب) يكون الجو في باجل حاراً ومكرباً ولكنه يكون متبوعاً بعواصف استوائية ممطرة ومصحوبة بالرعد والبرق يومياً تقريباً ، فتمتلىء الغرف و الحجرات بالمياه المتدفقة ، وقد استنبطنا على الفور الرياضات المائية من أجل اللهو والتسلية على السطح المكشوف مرتدين الملابس القصيرة ، وكانت الفواكه المزروعة تتألف من أنواع مختلفة كالبطيخ ، والشمام ، والخوخ ، والتين والعنب الأبيض والأرجواني ، والبطاطس الممتاز أو السهل التفتيت . ولقد زودني بالأخير البك في مقابل امداده بأعداد من السجائر أو ما كان يسميه « ضولة » وكان البك يرغب في الجلوس ليلا على مقربة من النافورة (أو الفسقية) الموجودة تحت دارنا وهنالك كان يحتشد جميع المشائخ . وكنت أرغب في مغادرة المنزل ، والذهاب الى خارجه ثم الجلوس معهم حيث يجلسون مستصحباً معي صندوقي من السيجار أو الضولة . وكانت فناجين القهوة المستمرة أو المتوالية تقدم الى الباشا بدون انقطاع ولم يكن يهتم بمدى استعدادنا رغم انه قد يكون أيضاً شخصاً مهذباً جداً كذلك لو انه حاول مثل ذلك ، ولكنه كان قد اعتاد أن يستصحب معه رجله الخاص بإعداد القهوة عندما كان يقوم بزياراته الصباحية

لي . والتركي شخص يعرف كيف يعد القهوة فهو يجيد تحضيرها بمهارة .

* * *

وفي أثناء اقامتنا نحن المبعوثون الى تلك الديار كنّا غالباً ما نتصور الكثير عن وجبات الطعام التي تقدم الينا أو نتخيلها ثم نطلبها فكان كل واحد منّا يتناول الأكل الذي يريده أو يختاره ثم يستعيده ان استطابه متى شاء . وكانت الأطباق المختلفة التي نذكرها أو نسميها متعددة وطيبة الطعم وشهية المذاق ، وكان يقع اختياري منها على السلمون (أو سمك سليمان) الطازج وربما أحياناً على الطيور ، وكنت أنتقي من الفاكهة الخوخ .

وعند وصولي الى لندن في يوم الأحد بعد الظهر اتجهت مباشرة الى شارع جولس جرمين Jules of Jermyn St. وفي المطعم سألت رئيس الخدم عماذا يقترحه لي من الأكل ، اذ كانت قائمته جيدة عادة وألوان الطعام الذي تحتويه لذيذة دائماً فرفع القائمة ثم قال : « لو كنت في مكانك لطلبت السلمون أولاً وبعدئذ أتناول قطعة من هذا الطائر . واذا كنت ترغب في ان تأخذ شيئاً من الفاكهة فان الخوخ يوجد هنا وأظن بأنك سوف تستطيبه » .

ومع ذلك فان البعض قد يزدرون بالقول في رؤية الأشياء الخفية ، أو بادراك الحوادث الغيبية وغير المنظورة ! اذ يستهينون بالقدرة على الاستبصار وحدة النظر !

كان الحراس المؤلفون من الجنود الزيود زملاء طيبين ورفاقاً أذكياء يغمرهم الطرب والمرح . وكانوا بعد عودة البك من المسجد ينقسمون الى صفين يقف كل منهما مواجهاً للصف الآخر ثم ينشدون أغانيهم الزيدية . ويعاد ترديد هذه الأناشيد عند غروب الشمس كل مساء . وهذا اللون من الغناء مؤثر جداً وكان يتردد صوت طويل يرسله واحد منهم بعد أن تكون الأنشودة قد انتهت . وهؤلاء الرجال يتمتعون بتناسق بدني ممتاز ، وبتماثل في الشكل فريد ونادر في جودته ، والبناء الجسماني عندهم يكون أكثر رشاقة منه عند غيرهم من رجال القبائل الشافعية . ولقد استطعت أن أفهم بسرعة القول الفصل الوارد في القرآن : **﴿ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم﴾** ، وفي نجران يوجد أيضاً قليلون من محاربي قبيلة بني يام الذين يتحلّون بمثل تلك الصفات . فهؤلاء قوم معروفون بالدماثة ، ويغمرهم السرور والمرح ، ويتمتعون بفهم وادراك أيضاً ويجيدون الدعابة ، وتعمّهم بهجة الحياة . ورداً على سؤالي الذي وجّهته أجاب واحد منهم : « هل تعرف شيئاً عن نهرنا الخارد ؟ ايه والله ! سوف نرحب بكم هناك » .

ان جوك Jock المتعدد البراعات قد أدخل الى باجل لعبة كرة القدم . وفي كل ليلة

تقريباً كانت تجري مباراة بين الجنود الخيالة من حرسي مع أصحاب البغال . وكان المتفرجون يأتون من كل أنحاء المدينة ويقفون صفاً وهم يهتفون للاّعبين . وهنا ينسى المشائخ مشيختهم ، والسادة زهدهم وورعهم ، ويكون الحشد طافحاً بالبشر والبهجة وعلى الأخص اذا ما انبطح لاعب على الرمال أو صرعه لاعب آخر ، وكذلك الحال اذا ما اندفعت الكرة بقوة بينهم قسراً وعن غير عمد بينما يتدافعون في الصف كبساً وضغطاً بفرح فطري . وهكذا لم يكن يشاهد في باجل أي شيء لا يؤبه له أو يعد طفيفاً أبداً . وكان الشاب التركي الصغير أ. د. س. لاعباً في بعض الأحيان . وكانت تسره خشونة اللعبة وتبهجه . وكان يرغب في أن يلعب بحذاء طويل عالي الساق ثم يعود الى مائدة طعامنا وهو مغطى بالتراب والأوساخ ولكنه يكون على أتم الاستعداد لشرابه من الكونياك والصودا . وأدخلت على باجل أيضاً ألعاب التسلية وكان أبطالها فتيان الساحة من مقلدينا المتحمسين . وجوك أو (ابن أخت الملك) ساعد كثيراً بهذه الطريقة على شعبية البعثة وعلى محبتها . والرائد ريزلدار مالك دادخان - Risaldar Major Malikdad Khan والدافدار محمد شاه Dafedar Muhammad Shah أحرزا مكان الاستحقاق والجدارة وكسبا الكثير من الحب والميل بأسلوبيهما . وحققا مزيداً من التعاطف والتآلف مع رجال المدينة عن طريق قيامهما بأدوار التسلية بين صفوف القوم.

ولقد تصورت عدن غير ذلك معتقدة بأننا كنا مأسورين ومعتقلين في السجون ، ومحاطين بالحراس تقريباً . ولم تكن قادرة على تقدير الموقف أو على معرفة حقيقته . وكيف تستطيع عدن الصغيرة أن تعرف ! ولو أنهم شاهدونا ونحن نلعب أو حضروا اجتماعاتنا السياسية لعرفوا باننا كنا ممثلين نشيطين وبارعين في اخراج الرواية الهزلية والمضحكة التي كانت تدور فصولها في باجل ، وبأن جميع المشاريع والخطط الدائرة بعيداً عن باجل كانت مجرد تخرّصات ، وأعمالاً تخمينية عديمة القيمة لأنها خارجة عن نطاق مُعتقلينا وعن معرفتهم وبعيدة عن مدى أبصارهم . ولو ان الحكومة تبنّت اقتراحي لما دُعي المساعد السياسي من الحديدة ولا طُلب منه العمل ، فكل ذلك كان مضيعة للوقت والمال معاً كما اتضح تماماً وبرمته حين الانتهاء من تمثيل الرواية . ان الرجل الموجود في ذات المكان يكون الشخص الأقدر على تصريف الأمور . ولقد كنت في النهاية مضطراً الى تصريفها بنفسي ومكرهاً على نقل الزمام الى يدي ،إذلا يمكن لأية سيارة أن تسير بسهولة ويسر أو تدار برفق اذا ماكانت الأيدي القابضة على عجلة القيادة أربعاً .

ان اللعنة الكامنة في اليمن تتمثل في الاستعمال المفرط لورق القات . ولقد جُلبَ هذا



رسم كاريكاتوري يمثل محمود نديم وكأنه سجّان لباجل



المجموعة التي أخذت الى باجل وهم جلوساً من اليسار الى اليمين : المؤلف ، محمود نديم وزميله التركي أ.د.س. أما الوقوف فهم : الميجور ريلي الكابتن ريتشارد سون ، الكابتن بروك .

النبات أصلاً من الحبشة . وآداب القات واسعة ومنتشرة ، ولكنها بالأحرى آداب شعبية أو
دراسة فولكلورية وسوف يكون التعرض لها بالتحليل والكلمة مشتقة من المعنى الأصلي

---

(١) تعرض الأديب امين الريحاني في كتابه (ملوك العرب) لأدب القات فذكر بأنه اشتهى أن يسمع رفيقه قسطنطين ماجياً ، ولم يدر اذ ذاك ما يستحق في تلك البلاد التخصيص والتفضيل فسمع صوتاً في الجوزة يقول : لينظم قصيدة يهجو بها القات . يقول الريحاني : « فنهض الزعيم الشاعر في الحال ، وبادر الى القلم والسيكارة وجلس في البستان ، ثم قام يمشي حول الشاذروان ، ومنه وثباً الى الديوان ، وبعد ساعة في الزاوية والعرق يتصبب من جبينه الملتهب ، قام والقصيدة بيده يكرمني ، يجربها فيّ على عادته :

القات فيه عجاب ‏ ‏ ‏ كما يقول الصحاب
دَرّت به الشاة لما ‏ ‏ ‏ ان طاردتها الذئاب
ذاقته فاستعذبته ‏ ‏ ‏ وسال منها اللعاب

الى أن قصّ القصة التي يروونها في اليمن : أضاع الراعي شاة من غنمه فراح يبحث عنها فرآها نائمة في فيء صخرة وورق القات في فمها . فجربه مثلها فاستعذبه .

امسى يجمّع منه ‏ ‏ ‏ حتى تملّى الجراب
مشى يحدث عنه ‏ ‏ ‏ وفي الحديث الصواب
فصدقوه وذاقو ‏ ‏ ‏ ه مثله واستطابوا

وبعد أن يصف كيفية استعماله في اليمن ، ويعدد الفضائل التي يروونها فيه يضع القيثارة جانباً ويرفع المطرقة فوق السندان :

ما نفعه أنبئوني ‏ ‏ ‏ هل عند شخص جواب ؟
جرّبته واختباري ‏ ‏ ‏ يجدي به الاسهاب
تنتاب جسم الفتى ‏ ‏ ‏ وفيه يفعل قشعريرة والتهاب
وفيه يفعل ما لا ‏ ‏ ‏ يقوى عليه الشراب
والصدر فيه من ‏ ‏ ‏ الوخز والعذاب حراب
والنسل يضعف منه ‏ ‏ ‏ ما في كلامي ارتياب
لا نفع في القات لكن ‏ ‏ ‏ فيه الشقا والعذاب
وتزهق النفس منه ‏ ‏ ‏ والقلب والأعصاب
والجفن يذبل حتى ‏ ‏ ‏ يغشى العيون سحاب
وسوء هضم وقبض ‏ ‏ ‏ منه يغيب الصواب
والرأس يثقل وطئا ‏ ‏ ‏ وبالدوار يصاب
ويعتري بعد هذا ‏ ‏ ‏ المفاصل الاضطراب

ثم التاريخ ولا بد منه في قصائد القسطنطين لأنه أشد من عرفت من الشعراء شغفاً به ، واسرع في نظمه ، وقد اقترن المعنى بالصناعة في تاريخ هذه القصيدة اقتراناً طبيعياً ، وفيه الضربة القاضية :

لم يبق ارخت ريباً ‏ ‏ ‏ القات للقتل باب
٣ رمضان سنة ١٣٤٠ هـ

لكلمة « قوت » . والقات يحل عند العرب اعرب محل المسكرات . وله تأثير مضاعف او مزدوج على « المُخزّنين » فهو منعش للبعض منهم ، ومخدر غالباً للبعض الآخر ولكن بنسبة ضئيلة . ولقد رأيت (بغ) بعد ابتلاع كمية كبيرة منه وهو ثمل تماماً . وكان يبدو في تلك

أما النفحة الثانية من جنان الوحي فهي اننا رفعنا القصيدة الى حضرة الامام مشفوعة بكتاب نقول فيه اذا كان أحد من شعراء صنعاء يبغي المعارضة والدفاع فليسرع قبل أن يرحل الشاعر . وكان أسبوع في عاصمة حِمْيَر والاذواء أضرمت فيه نار القوافي فوردت علينا المحرقات منها المهلكات . أجل ، قد جاء أحد الشعراء وقصيدته في خنجره يشتهي دم الشاعر الكافر الذي تجاسر أن يذم القات وما ذمه ، وهو ذا ذنبه الأكبر ، بغير المبتذلات الشعرية والركاكات . فأوقفه لحسن الحظ الحارس ولم يأذن له بالدخول . وبعد بضعة أيام جاءنا من المخيم المنصور ، من الامام نفسه ، كتاب في غلاف مختوم على غير العادة اليمانية ، ففضضناه فاذا فيه قصيدة من نظمه وبخطه الشريف وفي القصيدة خلال الدفاع عن التمات من الغزل والدماثة والاتضاع - تلك روح الشاعر الحقيقي - ما يزيد الناظم رفعة ومجداً ، ويزيد المعجبين به حباً واعجاباً . وما أجمل العذر والتواضع في الكلمة التي ذيّل القصيدة بها :

الزعيم قسطنطين .

صدر ما يشبه الجواب ، ومهما رأيتم قصوراً فلا عتاب ، مع كثرة الأشغال وتبلبل البالْ .

قال في مطلع القصيدة نفعنا الله بمزاياه الحميدة ان للقات مزايا لا يحصيها الاسهاب ، فيذكر عشراً منها فقط :

فللعيون جلاء	للضعف منه ذهاب
وللثغور صباغ	زمردي يذاب
أحسن بثغر مليح	له المذاب رضاب
يا ما أحيلاه ظلما	تشفى به الأحباب
وللنفوس مريح	وللنشاط انجذاب
ويشحذ الفكر حتى	يخاف منه التهاب
ويطرد النوم عن من	له الجليس كتاب

في البيت هذا يظهر حضرة الأديب العالم في الامام فيقر به من كل من آثر الكتاب جليساً الى أن قال :

أما الذي قاله	قسطنطين فهو سراب
أليس من جاوز الحد	ويعتريه اكتئاب
يكون عرضة خسر	ويعتريه اكتئاب
والأكل والشرب ما لا	به الكرام تعاب
وانما العيب اسراف	منه يبدو العجاب
هذا الملفق يا	قسطنطين منا جواب
يُهدي اليك عليه	من الحياء نقاب
لأنه ليس كفوءاً	للدر وهو تراب
فاستر ملفق يحيى	فالستر فيه ثواب

الحالة شخصاً أليفاً ومستعداً لإفشاء الأسرار الداخلية التي يبطنها في صدره أو يطويها في قلبه . وكان الشيخ أحمد خزام يرغب كثيراً في أكل القات « وكان يـزدرد منه فـوق كل مقدار ، أو يبتلع منه بشَرَه ونهم قدراً يتخطى كل قياس » كما يعبر عن ذلك بورتون السابق أو القديم[1] Old Burton . وفي هذه الحالة قد يصبح شخصاً تواقاً الى القتل . وللقات أصنافه الجيدة ، فهو مثل الخمر قد يوجد ليجعل الانسان مسروراً . ولقـد قال كـاتب فرنسي : « القضاء المحتوم أو القَدَرُ المكتوب على الأمم قد يتوقف على أسلوب حياتها وعلى النمط الذي به تحصل على غذائها » . والعرب الذين يعكفون على هذه العادة يتعاطون القات بافراط ويكون المنظر الذي يبدو عليهم أبله ومتبلداً . انهم يتقدمون نحو الانحدار والانحطاط وقد يدركهم الهبوط الشديد بسرعة . والقات مذاق اكتسابي مثل عادة شرب الويسكي ولم يستهويني هذا الورق أبداً كما لم أعجب به .

ان في هذه الأبيات الأخيرة من الدماثة والخفة والتواضع ما يستحب في أصغر الشعراء وأكبرهم فكيف به في أحد كبار الحكام والأمراء ؟ » . انتهى ما جاء في كتاب الريحاني عن دور القصيد والشعر في مضغ القات ذماً ومدحاً .

(المترجم)

(١) بورتون Burton هو روبرت Robert (١٥٧٧ - ١٦٤٠) المؤلف والقس الانكليزي .

(المترجم)

وعندما كان العرب يلومونني على شرب الكحول كنت أعيّرهم بانغماسهم في القات[1] وعندما قلت لهم بأن هذه العادة قد تكون محرمة عليهم عن طريق نبيهم وبأنه سوف يلومهم عليها أجابوا بأن هذه المسألة فيها نظر لأن ورق القات لم يكن معروفاً في زمنه . وكان العرب في هذه البقعة مشغولي البال بالخوف من الطائرة . وفي صباح ذات يوم أنزلنا من أعلى السطح بعض السرائر الوطنية التي رافقتنا اذ كانت أحجامها كبيرة جدا الى درجة لا تسمح لنا بتمريرها عبر

---

(١) ويقول أمين الريحاني في كتابه « ملوك العرب » عن القات ما يأتي : « ساعة القات عند أهل اليمن مثل ساعة الشاي عند الانكليز ولكن القات غير الشاي . القات حشيشهم وأفيونهم والمسكر عندهم وهم يدمنونه ادمان الأوروبيين الخمور . قال شاعرهم العامي :

زمرداً يقطف الأصحاب أوقاتا ... يصفو به العيش أحياناً وأوقاتاً
يا عاذلي عن حصول القات مت كمداً ... لا نترك القات أحياء وأمواتا

وقال في مدحه الشاعر المتصوف :

براكَ معراج قلبي حين يصعده ... جبريل روحي الى أعلى سماواتي

ان في القات على ما يظهر خاصة الحشيش الأولى أي الكيف وشيئاً من خاصة الأفيون المخدرة وبعض ما في المسكرات مما ينبه الفكر ، وبكلمة أخرى هو يطرب النفس ، ويخدر الحواس ، ويشحذ الذهن بل يبعث على اعتقاد أهل اليمن في صاحبه النشاط فيقويه على السهر والعمل في الليل .وقد تحققت بنفسي انه يؤرق ، ويحدث في المعدة يبوسة وانقباضاً ، وفي الفم جفافاً وعفوصة مثل البلوط فيطلب صاحبه الماء كثيراً . ولكني لم أحس بشيء من الكيف أي خفة النفس . ولم يتنبه الفكر الى غير الأوهام التي تستحوذ على الناس فتفعل بحكم التأثير الطويل المتوارث فعل الحقائق المحسوسة . قد يكون هذا وهماً مني لأن تأثيره في من يستعمله مرة غير تأثيره في من يستعملونه دائماً ، ويفضلونه على خبز يومهم . كل الناس في اليمن ، من رجال ونساء وأولاد ومن أغنياء وفقراء ، يأكلون القات ـ يخزنون . والتخزين هو أن تمضغ الأوراق مضغاً بطيئاً طويلاً كما يمضغ بعض الأميركيين التبغ ، ويحفظونها تخزينة « أي كتلة » في الفم يجترّونها . ولكنهم لا يبصقون مثل الأميركيين الا عندما تذوب التخزينة فيبصقون اذ ذاك في اناء من النحاس ما تبقى منها ويخزنون غيرها . ان مجلس القات لا يتم بغير أباريق الماء وكؤوس النحاس الجميلة الشكل الشبيهة بالكؤوس الذهبية التي تستعمل في الكنائس وقت القداس . أما الأغرب من ذلك فان أهل اليمن لا يشربون قهوة البن بل يكثرون من قهوة قشر البن الذي يغلونه كالشاي ، فتظنه البابونج لطعمه بدون سكر وهو على ما أظن مفيد لأنه يقاوم بعض المقاومة مفعول القات ويخفف من أضراره . لا ريب في أن القات مضر بالصحة والنسل فهو يفقد المرء شهية الأكل ، ويفسد أسباب الهضم ، ويحدث مثل الافيون شللاً في مجاري البول ، ولا يقوي الباه بل يضعفه .

ان اسمه العلمي (Catha edulis) وهو نبت شبيه بالبطم الا أن شجرته صغيرة ، وورقه مثل ورقة العفص ، يزرعه أهل اليمن في البساتين ،مثل أشجار الثمار ويبيعونه بأسعار غالية اذا كان من النوع الجيد أي الرخص الصغير الأوراق . هم يقطفونه أغصاناً ويرسلونه الى المدن رزماً ملفوفة بالحشيش الأخضر ومربوطة بقشر الشجر ، ثم يجيئون بالرزم الى المجالس ، مجالس القات ، فيفكونها ويرمون بالقشر والحشيش والقضبان على الأرض ، ثم يبدأون بالتخزين بعد أن يقفلوا الشبابيك ويشعلوا المداعات (النراجيل) فتمسي الغرفة في تلك الساعة كقهوة الحشاشين في دخانها وكربونها ، وكالاصطبل في فرشها » . انتهى كلام الريحاني عن القات .

(المترجم)

السلالم اللولبية ، وقد استعملنا لهذا الغرض بعض الحبال الفائضة عن الحاجة لربط البغال . وفي وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم كنت جالساً على السطح أدخن سيجاراً عندما رأيت وجه (بغ) يطل من أعلى درج في السلالم وهو يختلس النظرات نحوي بحذر ومكر ، لذلك دعوته وتحدثت اليه ، فاذا به غاضب وكان يتكلم بحدّة ويتحدث بعنف ثم أمرني بتسليم حبال البغال ، وعندما سألته عن السبب وماذا يريده منها تجاهل سؤالي وأعاد أمره الأول الذي رفضته بدوري رفضاً باتاً فقالي لي : « اذا لم تسلمها اليّ فانك سوف تمكث في باجل الى الأبد » . فأجبته بأنني سعيد هنا تماماً وان الله الذي جاء بنا سوف يعيدنا الى وطننا عندما يشاء واذ ذاك انسلَّ بعيداً وهو يتمتم ، ثم رجع على الفور مع الشيخ الودود أبي هادي الذي أخبرني ضاحكاً عن الأمر الذي أخاف (بغ) فعلاً . أما (بغ) نفسه فانه وقف عند المدخل ولم يتقدم نحوي . والشيء الذي خاف منه (بغ) هو الطائرة فلقد شاهدنا ونحن نقوم بانزال الأسرة من السطح وعند ذلك ارتاب من أمر الحبال اذ توهم بأن الطائرة اذا ما وصلت وحلقت فوق الرؤوس فاننا سوف نلقي بالحبال عالياً في اتجاه الطائرة . وقد تصوّر بأن الشخص القائم بأعمال المراقبة سوف يتلقفها ويمسك بها وبأن أفراد البعثة سيتسلقون هذا السلم المصنوع من الحبال ثم يُنقلون بعيداً الى حظائر الطائرات في كمران . فأخبرته بأن هذه الفكرة نيّرة حقاً وممتازة . ولكي أريح تفكيره رميت اليه بتلك الحبال ، فذهب منتصراً . ثم وصلت بالفعل طائرة في اليوم السادس والعشرين من شهر نوفمبر للقيام بالاستكشاف والاستطلاع ثم التعرف على مكاننا . ولم تلق تلك الطائرة أية قنابل كما نشر عن ذلك بشكل يدعو الى الاستغراب ويثير الدهشة في عدد مايو من مجلة الصحافة المتحدة[1] (١٩٢٢) . ولم تكن هذه الطائرة أيضاً سبباً في اطلاقنا من الأسر كما ذُكر هنالك ، ولو انه كان لها بعض القيمة كعامل مساعد وثانوي ، فالافراج عنا انما تم بموجب شروط الاتفاقية المرسلة من الحديدة . وكانت المؤامرة التي دبرها عقلاء القحرا وزعماؤها أو الخطة التي رسموها العامل الرئيسي والسبب المساعد في احداث النتيجة . وكان هؤلاء الرجال من الزعماء والأعيان والعقلاء غاضبين من مشائخهم لاعتقالنا ، اذ خافوا من الانتقام البريطاني . وقد ظلّ أبو هادي مدة شهرين قبل الافراج عنا مشغولاً بعمل الترتيبات ، واعداد الخطط لثورة هؤلاء الزعماء والعقّال وانتفاضتهم ، ولقد نجحت الخطة وحققت هدفها فأنضجت أولئك المشائخ الذين انزعجوا تماماً منها عندما علموا بها أو حين اطلعوا على أخبارها فوجدوا بأنه من اللباقة وحسن السياسة أن يستبقوا الحوادث بالدخول في مفاوضات مع الضابط السياسي في الحديدة . وقد قمت أنا وكذلك

(1) United Service Magazine.

(المؤلف)

محمود نديم بك على الأخص باقناع المشائخ في ارسال وفد منتدب عنهم الى الشاطىء . وبينما كانت تلك المفاوضات جارية فعلاً زارتنا تلك الطائرة بالرغم من انني تشاءمت من وصولها واستعذت من ذلك . ففي صباح ذات يوم وصلت هذه الطائرة وحلقت فوق باجل ، وتعطل منها محرك في حين ان الهبوط الاضطراري صعب وممنوع . وكان ذلك اليوم في باجل يوم سوق ، والمدينة مزدحمة برجال القبائل المسلحين الذين أرعبهم المنظر فأخذوا يطلقون النار على الشبح الغريب بدون ترو بينما كانت الطائرة تحلق فوق الرؤوس . وبعد أن ذهبت الطائرة حوّل الشعب الهائج انتباهه الينا ، وانهمر اطلاق الرصاص الكثيف على بنايتنا مدة تقرب من حوالى خمس عشرة دقيقة ، ونحن ننتظر النهاية جلوساً على الأرض في داخل الغرفة ومسدساتنا في الأيدي معدة للاطلاق . ولقد تصرف حرس أبي هادي بشجاعة ورباطة جأس واعدوا التحصينات وقاموا بعمل التجهيزات ، وكان الرصاص يخترق النوافذ ويتناثر علينا الحطام المتساقط من السقف ، وكان القلق يساورنا على مصير بغالنا التي اعتراها الهلع والجفول نتيجة للحادث . وفي الطابق الأرضي صوّب النار واحد من المرافقين على « ابن أخت الملك » ولكن عربياً محباً صرعه على الأرض . ثم اندفع الى السلالم شخص آخر متعصب شاهراً خنجره بيده (جنبيته) وهو يتعهد ويتوعد بالانتقام من يعقوب ولكنه صُدّ وحِيل بينه وبين ما يريد . ولقد أصبح المكان بكامله في حالة اضطراب وهيجان ، واندفعت شخصيات المنطقة من السادة والمشائخ الى وسط هذه المعمعة الصاخبة وهم متعرّون من الثياب الى منتصف أبدانهم وبذلوا جهوداً كبيرة من أجل تهدئة الغوغاء وتسكينهم . وأخيراً نجحوا ووصل البك الى الطابق الأعلى لاهثاً ممتقع اللون منفعلاً بالغضب ، وقدمت اليه كرسياً ليجلس عليه ولكنه ظل واجماً عدة دقائق ولم يستطع أن يتكلم . واندفع المشائخ الى أعلى في لهفة وسألوا عما اذا كنا قد أُصبنا بأذى . وقد وجد البك بعضاً منّا يدخنون السيجار فأحجم عن الكلام وظل صامتاً في حيرة ومعقود اللسان . ثم قال مديراً وجهه نحوي: « أنا لا أستطيع أن أفهمكم معشر البريطانيين ، ويا ليتني أكون قادراً على أن أسكب بعضاً من الدم التركي الحار في أوردتكم لقاحاً . ولكن المشيئة لله وحده ! انظروا فيما بينكم الآن ، انكم هنا لستم في خطر داهم وعظيم كما يبدو ذلك واضحاً عليكم ، بينما صاحبكم الآخر في الحديدة يشرب الويسكي والصودا على الشاطىء الرملي » . وعندئذ استثار هجومي المقصود أو المتعمد ، ورجوته بأن لا يفكر كثيراً في مثل ذلك أو يعيد ذكره لأن الانسان منزعج من بقية الأشياء الأخرى بما فيه الكفاية . وبعد ذلك توقف البك عن الاسترسال وجلس منكمشاً . وبعد برهة قصيرة استعاد ذكرى مجده الغابر وتخيّل أيام حكمه الجميلة فقال : « تذكر من فضلك بأنني أنا الشخص المسؤول هنا وبيدي السلطة وليس أنت ! » ثم استفاق بسرعة وأصبح مرة أخرى نفس الرجل

الرفيق مدركا مركزه الحالي على حقيقته ، وشاعراً بمكانته الحاضرة اذ بات شخصاً متفرجاً عاجزاً لا امل له ، وهو يعرف بأن أيام حكمه المزدهرة قد انتهت . وفي اليوم التالي ألقي القبض على الرجل المسيء وتمّ جلده وضربه علناً بيدي أبي هادي الحاكم العربي .

ان تغيير المبدأ عند المشائخ قد جعل من إلغاء الثورة المدبرة عليهم أمراً ضرورياً بعد أن كان قد سبق التخطيط والاعداد لها مع بقية الزعماء والعقلاء الآخرين والذين لا يقتنعون عادة بالتخلي عن برنامجهم المرسوم بسهولة . فكان الافراج عن البعثة في اليوم الثاني عشر من شهر ديسمبر عام ١٩١٩ بعد صلاة الجمعة . ولو لم يذعن المشائخ حتى اللحظة الأخيرة لتم تنفيذ اقتراح العقلاء في يوم الاثنين اللاحق . وكان الاقتراح أو المشروع المُبيّت يقضي بوجوب اطلاق النار على المشائخ أو اعتقالهم بعد القبض عليهم ثم ترحيل البعثة الى الشاطىء .

وعند منتصف النهار وقبيل حضورهم لصلاة الظهيرة والذهاب الى المسجد لتأدية الفريضة سلموا الينا جميع الممتلكات المصادرة ، ولم يكن أي شيء منها ناقصاً أو مفقوداً ! ولقد قالوا لي : « اعطنا وصلا بالجميع لأننا لا نستطيع أن نصلي قبل ارجاع كل شيء الى أصله ، وتتم المصادقة على كل ذلك » . فأعطيتهم اقراراً على الفور . وقد ردّوا عليّ قائلين : « ولكنكم لم تقوموا باستقصاء محتويات الصناديق أو احصاء ما فيها » . فأجبتهم : « ولا أنتم أيضاً عندما أخذتموها ، والحكومة العظيمة لا تُولي اهتماماً لمثل هذه الأمور الزهيدة » .

ان الله هو « مسبّب الأسباب » وصانعها ، فهو الذي هيّأ لنا السبيل ، فكان اطلاقنا من الحبس بفضله ، وترحيلنا بعيداً بعد الأسر بتأثيره وفعله ، وان سرد الأسباب غير المباشرة أمر باطل وعقيم . والالياذة تشخص الأمر بشكل منقطع النظير : [اذا كانت لديك قوة فان السماء هي التي وهبتك تلك القوة . ولهذا فان عليك أيها الانسان المغرور أن تعلم بأن شجاعتك من عند الله] .

والقرآن فيه مواساة وسلوى وتعزية ، فلقد ملأ تفكيري وأشبع أفكاري في أغلب الأوقات وفي معظم الأمور : **﴿قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾** . ومع ذلك فان آية أخرى نغمتها عظيمة ، ورنينها جهير ، وحكمتها عالية : **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾** .

الفصل الثاني عشر

« ملوك العرب »

لقد ذهب الأتراك والفوضى تسود في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ، وكل عاهل عربي يلعب في الساحة وحيداً ويقف بمضربه الخاص أو من أجله منعزلاً . أما الالتحام والتعاون والتماسك فكلها أمور قد ذهبت أدراج الرياح اذ لا يوجد بالفعل لا فريق ، ولا قائد .

ولقد دعّمت القاهرة[1] ـ وكذلك وزارة الخارجية ـ الملك حسين وأسندت ظهره من بداية الحرب الى نهايتها قائلة بحق بأن جميع الزعماء الآخرين غير معروفين . ولكن القاهرة ناضلت بعد ذلك من أجل الاحتفاظ بكل الآخرين في الجانب الخلفي . ثم كان تشجيع ابن سعود صاحب نجد على معاقبة ابن رشيد والاستيلاء على حايل ، ولكن كان من المعتقد بأنه ليس من الحكمة وحسن السياسة امداده بالكثير من الوسائل الوحيدة التي كانت تقدم اليه وهي الأسلحة والذخائر ولو من أجل تلك الغاية خشية من أن يستعمل هذه الوسائل لمضايقة منافسه الحسين ، أو أن يستخدمها من وراء ظهره اذ كان يوجد اعتقاد بتفوق حسين وسمو مكانته . وكنا نتوقع بأن يعترف الملوك الآخرون « بسلطته الاسمية» أو بقيادته الرمزية كما أمّلنا بحرص ولهفة بأن أولئك الزعماء الآخرين سوف يأخذون بمشورتنا ويرحبون بسيطرة الحسين الاسمية أو ببسط نفوذه الرمزي حتى على رعاياهم العديدين شريطة أن يعمل الحسين عن طريق أولئك الزعماء المعترف بهم فقط . كان هذا أملاً عظيماً ولكن الأساس الذي كان ينقصه قد جعل مآله حتماً الى الفشل المرير والخيبة . وأنا لا أعرف ماذا تعنيه تلك النظريات الوهمية القائلة بالسيادة الاسمية أو السلطة الرمزية لأنها اذا

---

(١) يقصد المؤلف بالقاهرة هنا السلطة البريطانية التي كانت تسيطر على أرض الكنانة حينئذٍ بعد أن أعلنت بريطانيا الحماية على مصر خلال الحرب العالمية الأولى . أما وزارة الخارجية فلا لبس بأنها وزارة خارجية بريطانيا ، وأما الملك حسين الوارد ذكره هنا أو في أي موضع آخر فهو ليس الشريف حسين صاحب ابي عريش الذي تحدث عنه في الفصل الثالث وانما هو شريف مكة المرحوم الحسين بن علي أي صاحب الحجاز الذي خدعته وعود بريطانيا الزائفة فأعلن ميلاد النهضة العربية ودشّن الثورة ضد الأتراك ، فكان جزاؤه من بريطانيا الإبعاد والتشريد والموت في المنفى بعد انتصار الحلفاء وهزيمة تركيا وبعد احتلال كل من بريطانيا وفرنسا للبلاد العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية .

(المترجم)

كانت مجرد اسمية فقط فان الأشياء ستبقى كما هي عليه تماماً دون تبديل ، وسوف لا يبدو حسين على الاطلاق شيئاً آخر أكثر من كونه ملكاً بسيطاً على الحجاز ، ولن يستطيع أن يمارس حق السيادة كما هو مقترح لا على رعايا ابن سعود ، ولا على رعايا الامام ، ولا على رعايا الادريسي لا بطريقة مباشرة ، ولا غير مباشرة . والأنصار المتعصبون لتلك العقيدة السياسية قد أساؤوا فهم الزعامة العربية . والشيء الوحيد الذي كان من الممكن حدوثه أو احداثه هو تشكيل دويلات متساوية حتى لا تكون هنالك دولة واحدة راجحة أو متغلبة . وأنا مقتنع بأن حسين لم يكن يحتل مكان الصدارة في شبه الجزيرة العربية وبأنه ليس الزعيم المفرد ، ولا المقدّم بين الأكفاء .

صحيح ان بعضاً من الشوافع « السنة » الذين تحت حمايتنا أو المحميّين بنا قد كتبوا رسائل التهاني الى الملك حسين بعد قراءة بلاغات ذلك الملك العربي في فترة الحرب ، وفي تلك الرسائل نادوه بهذه الألقاب : « مولانا وسيدنا ، أمير المؤمنين ، وحامي الحرمين الشريفين » . ولعلّ الهجوم التركي على الكعبة كان حافزاً على هذا التصرف الذي يعتبر ثورة ضد الجيوش التركية ، وتعبيراً عن السخط والاستياء ، وعلى الرغم مما في هذا السلوك من تبجيل رفيع ، وتكريم سام للحسين فانه ليس اعلاناً للجهاد ضد السيادة أو المكانة التي كان يتمتع بها الخليفة التركي الذي لم يكونوا في خصام معه شخصياً بل إن هذا من ناحية ثانية يُميط اللثام عن انجذابهم الى الجانب البريطاني أو بالأحرى يُعد ادانة لتركيا التي مثلت دوراً ليس اسلامياً بعد أن عرفوا بأن الحسين كان حصاننا ، وبأنه على الأرجح سيكون فائزاً .

لقد انتهت الحرب مع تركيا ، وذهب الحكم التركي من شبه الجزيرة العربية الى غير رجعة ، ولكن مشاعر العداوة الشديدة والأحقاد المريرة قد ظلت منتشرة بعنف بين الحكام العرب المختلفين وباتوا يتقاتلون على الجثة ويتناحرون على الحطام .

فالحسين يتحرك ضد كل من ابن سعود والادريسي ، والامام يعارض قيام الادريسي الذي يتحدّاه للنزال ، وابن سعود يرغب في سلخ بعض الأقاليم من عسير حيث كان الشعور هنالك موالياً للوهابيين وحاداً ضد الادريسي . واذا كان قيام أي اتحاد بين العرب ممكناً فانه سوف يتخذ على أية حال شكل حلف بين الحسين والامام ضد أمير نجد أو ضد مطالبه المزدوجة والمتعارضة مع مطالب الادريسي الذي يحس بأنه من اللباقة وحسن السياسة الاتفاق مع جاره القوي ، أو السير معه أحياناً في طريق واحدة . وهذه الأحلاف أو الاتحادات سوف تعيش مدة قصيرة فقط لأن الحكام العرب لن يوحّدوا جهودهم أبداً ، كما لن يربطوا سهامهم في قوس واحد مشترك لأنه لم يكن كل واحد منهم سعيداً بقبعته ، بل كل واحد يريد تاجاً . .

Nul n'est content de son chapeau, Chacun voudrait une couronne.

ولقد تعارضت معاهدة سيكس - بيكو The Sykes - Picot Treaty مع وعودنا للملك حسين فكان الموقف يبدو بعدئذ أكثر صعوبة وعلى نحو لا يمكن انكاره أو تجاهله ، وكان على فريق واحد أن يصاب بالقنوط وخيبة الأمل ولذلك أو من أجل تهدئة أضعف الأطراف ومحاباته وهو الملك حسين أنشأنا لأبنائه مملكتين فلقد أعطينا العراق لفيصل وأما ما وراء نهر الأردن فقد عاد الى أخيه عبد الله وكنا في موضع الشخص الذي يقوم بمراهنة خاسرة ثم يشعر بأن عليه أن يقي نفسه من الخسارة بعقد صفقة تعويضية . وفي زمن فرانسيس الأول Francis I دفع الكاتب الفرنسي باسكان Pasquin مكافأة سامية للبريطانيين عندما كتب يقول بأن الفرنسيين قد نادوا دائنيهم من الانكليز ووجهوا الدعوة اليهم بسبب السهولة التي يقدم بها الانكليز القروض والاعتمادات فيمنحونها اياهم في كل المعاهدات بالرغم من انهم قد نقضوا بأنفسهم الكثير منها ! وليس عند الفرنسيين اليوم سبب لتغيير رأيهم . وفيما يتعلق بمعاملتنا للفريق الآخر سوف استشهد بالملاحظات التي أبداها حاكم سيرينايكا السيناتور دو مارتينو لرحالة بريطاني شهير : « ان تلك السياسة خاطئة حيث يكون هناك تعهد بدون صك ، وهذه هي الغلطة التي فعلتها انكلترا . أما هنا فإنهم يضعون ثقتهم بي لأنهم يعرفون بأنني أفي بوعدي » . وهذا البيان التقريري يُذكّر بالغبطة الصينية القائلة : « ان الرجل السعيد المسرور هو الذي ينفخ بوقه الخاص الذي يملكه لأن كل من لا ينفخ ببوقه الخاص به بل يستعمل بوق غيره يكون صوت ذلك البوق ذاته غير منفوخ بطريقة حكيمة أو متقنة ! » .

ونظراً الى ظروف معضلتنا فانني أعتقد بأننا قد تسلقنا من الحفرة بطريقة جميلة وعادلة طالما ان حسين الأب وكذلك البنين كانوا جميعاً أشخاصاً مهمين ولهم في الأمر دخل أو شأن ولكنني سوف أعود الى هذا الموضوع فيما بعد اذ توجد في كل الحالات وفي جميع المعاملات وكما في محاضر الجلسات أمور أخرى فرعية وجانبية علاوة على الأمور الرئيسية أو القواعد الأساسية ، وهذه سوف يكون لها كلمتها ومن ثم فرصتها في التعبير .

دعونا نفحص الموقف باختصار ، ثم نستعرض الحالة والآراء العرضية وغير الملزمة للملوك العرب المختلفين أو المتعددين والموجودين اليوم[١] .

كانت سياسة الحسين أثناء مدة الحرب عبارة عن تقوية مركزه كأمير مستقل على مكة

---

(١) أي عام ١٩٢٣ . (المترجم)

وكحاكم للحجاز ، ولكن كانت له بالأحرى مطالب في جزء من عسير الذي يُعد في حد ذاته قسماً متمماً لليمن ، ولذلك اعترض على تصرف بحريتنا التي احتلت القنفدة ثم سلمتها الى الادريسي . وأخبرني ذات مرة في جدة بأن الادريسي شخص حقير ومتطفل . وفي وقت آخر تحدث عنه بازدراء شديد وبغرور فلقد عَبّرَ قائلاً : « ان الادريسي رجل لم يعترف أحد في أن يكون أي شيء على الاطلاق ، فهو الذي قد جعل من نفسه شيخاً بعد أن هبط الى بعض الأماكن التي لم تكن محكومة بأحد » . ولكنه اعترف بأن اليمن قد لعب دوراً قيادياً في التاريخ العربي ، وضرب امثلة على ذكر اليمن المتكرر في القرآن ، وكان الحسين يحب الامام ويمتدحه ولكنه قد عدّل ثناءه عليه بالملاحظة على ان حكمه انما يمتد على المنطقة الزيدية أو لا يشمل الا الزيود فقط ، وقد صبّ جام غضبه على ابن سعود ثم قال انه قد قدّم اليه (أي لابن سعود) خمسمائة من الابل من أجل الاستيلاء على حايل ، ولكنه أضاف بأن الأخير اذا لم يستطع أن يعمل عملاً حسناً ، وأن يتصرف تصرفاً مرضياً في خلال ثلاثة شهور فانه سوف يقوم بنفسه بفعل ما هو لازم وضروري . ولقد حاول عقد معاهدة مع ابن رشيد سيد حايل رغما عن ان هذا الحاكم كان في الحقيقة عميلاً تركياً بل ومؤيداً لوجهة النظر التركية ، وكان الحسين يقاتل حليفنا ابن سعود صاحب الرياض (وحليفه أيضاً) ، وكان الغرض المرجو والهدف المرتقب من كل ذلك نفس الشيء وأعني به انهاء الحكم التركي فقد اعتقد حسين بأن السياسة (الدبلوماسية) قد تنجح حيث تفشل القوة . وقد سخر من قدرة منافسه على الاستيلاء على حائل وأبدى بسذاجة ملاحظاته على نجاح ابن سعود فقال انه اذا ما حالفه الحظ وتم السماح له بالكسب والفوز فان القتال الدائم سوف يعقب ذلك وينشأ عنه الشقاق المتلاحق والفرقة المتوالية داخل الأمة العربية . ولقد كان حسين غيوراً من نجاح أي حاكم عربي آخر ، فطلب بالأحرى من ابن سعود ارسال بعض المحاربين من رجاله للالتحاق بحسين نفسه ، والانضمام معه ضد الأتراك . أو لم يكن حسين زعيم النهضة العربية ؟! وكانت نجد عبارة عن القلق الدائم المستبد بحسين ، والطيف المزعج له ؟!. وكان الإخوان يثيرون الرعب في كل مكان ، ولكن قبضة ابن سعود على أولئك المتعصبين كانت فعلية كما رأينا ذلك في فصل سابق ، ولم يكن السيد فلبي Mr. Philby ـ وهو مرجعنا وسندنا في الشؤون النجدية ـ قلقاً أبداً على حدوث نكسة أو حلول خطر نتيجة لانتشار النشاط الوهابي من جديد . ومن ناحية أخرى لم يكن الحال كذلك عند الأمير فيصل (ابن الحسين) الذي كان يلتهب غضباً عندما يأتي ذكر ابن سعود والاخوان . وقد اعتقد بأن تلك الطائفة المنتخبة من المبشرين والدعاة سوف تتسع وتنتشر حتى يعتنق أفكارها رجال القبائل قاطبة ولذلك كان فيصل مسروراً برؤية أخيه عبد الله وهو يمارس نشاطاً جانبياً ضد ابن سعود . وكان فيصل يهدف الى توحيد السكان في شبه

الجزيرة العربية تحت راية والده ، وكان يعمل كذلك على خنق البدعة الدينية (الهرطقة) في الصحراء . ولقد قال : « اذا فشلنا فان جميع انتصاراتنا الأخرى على الأتراك سوف تذهب أدراج الرياح وستخفق اخفاقاً كاملاً » . وقد ذهب أخوه الأمير عبد الله بقدر ما كذلك الى الشك والى الارتياب في موقف السيد الادريسي فاعتقد بأن بين السيد محمد وبين الأتراك اتفاقاًسرياً وتفاهماً خفياً . ولعل الأمر مجرد حسد فقط وقد تكون هذه الشكوك عبارة عن غيرة الملك حسين من محاولة الادريسي للحصول على السلطة .

ان رأيك السيّء عن شخص آخر ربما يكون في أغلب الأحوال مرآة لك وانعكاساً واضحاً لحالتك الذهنية والنفسية ، وهذا هو حال عبد الله نفسه الذي كان يحدو به الأمل الى تقويض نفوذ الإدريسي، والرغبة في عودة عائلة ابن عايض في جبل عسير الى تبوّء مركزها ، ومن ثمة الى ممارسة نفوذها وجعلها تحتل مكان الصدارة في السيادة على بني مقشيد ، وبني مالك ، وبني الكوم . وكان لا يرى اعتراضاً على توسّع الادريسي نحو القنفذة ونحو منطقة التلال الواقعة الى شرقها على شرط أن تقبل به القبائل ، ولكن هذا الأمر كان عبارة عن سياسة البيت الحجازي الممنوعة . ولقد وافق عبد الله على حركة الادريسي الموجهة ضد الحديدة . عجباً لعبد الله الصريح الساذج ! فقد كان هذا الأمير مُرتاباً جداً في نوايا الامام يحيى وكان ينظر شزراً وبحسد نحو اليمن واعتقد بأننا ـ حيث لا توجد هناك معاهدة تربطنا مع ذلك الحاكم ـ سوف لا نبدي اعتراضاً على والده الحسين اذا جرّب جموحه ، واختبر طموحه ! ولا ريب ان القوم في الحجاز لديهم أفواه واسعة شرهة ، وأفمام عملاقة كبيرة الحجم ! ولقد وضعنا أموالاً كثيرة جداً رهاناً على حصان الحجاز المطهّم . والأوفر في الأمور السياسية كما في سباق الخيل ان تضع نقودك على كلا الجانبين وأن تستعملها في ممرين مختلفين ، فالعمل على ارتفاع حسين وصعوده ثم على ارتقاء بقيّة الشركاء الآخرين وسموّ مكانتهم من أنجع الوسائل وأبرع السبل لسحق الاسلام وتحطيمه في شبه الجزيرة العربية ، وهذا كلام صعب ولكنه حقيقي .

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر يونيو عام ١٩٢٣ ناقشت جريدة التايمز The Times في مقال افتتاحي مشروع الاتحاد العربي ، ولكنها قالت ان المبادرة يجب أن تتقدم بها أية دولة عربية أو كل الدول العربية التي أسمتها الجريدة وأتت على ذكرها وتنتمي الى مجموعة دول الشرق الأدنى . وقالت ان على كل واحدة منها أو أكثر أن تعبر صراحة عن الرغبة في الدخول مع دولة أخرى أو مع الجميع في اتحاد من أجل الرسوم الجمركية أو من أجل أغراض أخرى طبقا للعادات والأعراف، وينبغي أن يكون هذا الاتحاد أو الاقتران « صورة أو مظهرا بقصد قيام اتحاد

... في أخير ونهائي » .

ان الفكرة برمّتها خيالية جداً ومثالية الى حد يتعذر معه تطبيقها Too Utopian لاعتبار هام وهو انها حالة من حالات الرغبة التي تكون رهن الارادة وهذه لن تتحقق عملاً .

وكانت مصر(١) متأثرة كذلك بزعامة حسين للعرب وبضرورة احتضان مركزه الوهمي او المصطنع الى درجة انها خافت من اعلان براهين الامام وأدلته من أجل الاستقلال خوفاً من ان يصبح حسين كئيباً خائر النفس ، ولكن - وهذا كلام صحيح حقاً - ما كان للنهضة الحجازية الا أن تكون عقيمة في حالة ما لو كان لورانس وضباطه غائبين عنها . ولم يفعل أي حاكم عربي شيئاً له أهمية أو ذات قيمة في أثناء الحرب . وأنا لا أطعن في القيمة الناتجة عن خدماتهم كمتفرجين ايجابيين على وجه الاجمال فقد كان لهذا الموقف أثره الأدبي حتماً على التحالف التركي الالماني ، او على الائتلاف القائم بين الأتراك والالمان ثم بالأحرى على إيقاف أضحوكة تمثيليتهم الهزلية عن شنّ حرب مقدسة اذ كان الاسلام في الحقيقة الى جانب الحلفاء ، وأما عن المنشور الاستفزازي الطويل والممل الذي وجّهه الى العالم الاسلامي مفتي تركيا وعمدتها الديني المدعو حيدر علي فانه كان بكل وضوح من وحي الالمان بقصد اثارة المسلم وتوجيه انتباهه العدائي نحو غاياتنا ومرامينا .

لقد تحدثت عن موقف حسين نحو امام صنعاء والذي كان يبدو وكأنه تصرف ينم عن اللباقة والذكاء وان كان يوحي بالتفوق . وأما عن دور الامام وشعوره المقابل فانه لم يجعل من

---

(١) يراد بمصر هنا مرة أخرى السلطة البريطانية التي كانت تتحكم في أرض الكنانة حينذاك ، والتي كانت تدبر المكائد والدسائس والمؤامرات ضد البلاد العربية عموماً وما زالت آثارها تلك مشاهدة وحتى اليوم . فلقد تمزقت البلاد العربية شر ممزق . وقامت دولة احتلال يهودية على أرض فلسطين بدعم بريطاني في بداية الأمر ثم أضيف اليه الدعم الأمريكي والاوروبي على الصعيدين المادي والأدبي مما جعل هذه الدولة اليهودية التي سميت بعد ذلك بدولة اسرائيل قوة احتياطية يحتمي خلفها الاستعماران الأوروبي والأمريكي ولكي يحركانها عند المشيئة لتحقيق المآرب والأطماع القديمة والتي اتخذت في أول الأمر شكل الحروب الصليبية . ولم تكن أقوال ساسة الغرب تقل عن أفعالهم في اظهار نواياهم العدائية ، ومراميهم البعيدة . فلقد قال الجنرال اللنبي الذي قاد الاحتلال البريطاني الى فلسطين عندما دخل بيت المقدس « الآن انتهت الحروب الصليبية » . وقال القائد الفرنسي بعد دخول دمشق وهو يقف عند قبر صلاح الدين الأيوبي : « نحن هنا صلاح الدين ! » . فهل آن للأمة العربية أن تصحو من نومها العميق ؟ وأن تعرف عدوها الحقيقي خارجيا وهو المتمثل في الاستعمار بكل صوره وتعدد أشكاله ..! وداخليا وهو المتمثل في الانقسامات ، والمنازعات ، والمهاترات ، والتخلف ، والجهل والفرقة والمكائد ؟!
(المترجم)

حسين بطلاً ، ففي احدى المناسبات التي كتب فيها الامام الى الملك حسين عبّر عن ملاحظاته على الادعاءات الكثيرة حول لقب « أمير المؤمنين » ، وهكذا لّمح الامام بأنه ـ وهو الشخص الذي اتخذ لنفسه هذا المنصب ـ لا يتحمل وجود منافس آخر له !

وعدا حسد الملوك العديدين والغيرة فيما بينهم فان البعض من أولئك كانوا خائفين فعلاً من أهدافنا الخفية ، ومن نوايانا المبيتة والخلفية . ولقد سعى كلّ من فيصل وعبد الله الى الحصول منّا على افادة محددة أو على بيان بات ونهائي بأن الحلفاء متبرّئين من ضم البلاد العربية بعد الحرب . وورد ذكر خاص للعراق ، وفلسطين ، وسورية . وكان فيصل متخوفاً ومتوقعاً شرّاً من السماح للأوروبيين بعبور شبه الجزيرة العربية أو من اجتياحها خشية من أن يقول العالم بأن والده قد باع الحجاز الى البريطانيين . وهذا الخوف والتهيّب والتوقع لما يأتي به الغد هو الذي جعل الادريسي حذراً كذلك من السماح لضباطنا بالنزول الى الشاطىء في جيزان قبيل الغروب ولم يكن يسمح بذلك الا بعد أن يرخي الليل سدوله ، ولم يغير من قاعدته تلك ويطلق العنان الا بعد احتجاجاتي المقرونة بالتنكيت والمباسطة فقط . ولقد أخبرني بأن الايطاليين كانوا خلال الحرب مع تركيا يزورون ميناءي ميدي وجيزان في أغلب الأوقات ، ولكن لم ينزل ضباطهم الى الشاطىء أبداً . والعربي شخص بارع كفؤ في اقتفاء الأثر ، وهو مستعد دائماً للاحساس بوجود الأهداف الخفية وشم النوايا المبيتة والخلفية . وانني لأتذكر ما لاحظته عندما كنت في جدة عام ١٩١٧ فلقد هطلت هنالك أمطار غزيرة ونتيجة لذلك تكونت في كل مكان أحواض وبرك من المياه الآسنة الراكدة ذات الروائح المؤذية والوخيمة ، فتلوث الهواء وتولّد البعوض وتكاثرت الحشرات ، وعندما عبّرت عن الدهشة من عدم القيام بفتح مجاري لتصريف المياه من تلك الأحواض أو لتجفيفها أخبرني وكيلنا البريطاني الزعيم ولسن Colonel Wilson بأنه قد أصبح من المأخوذ به في الاعتبار بأن يكون الاهتمام شديداً والحرص دقيقاً في تحاشي ما يمكن تفسيره وكأنه تدخل فضولي في شؤون الغير ولا سيما في الشؤون البلدية أو المحلية لأن مثل ذلك سوف يعطي فرصة للعدو وللذين ينشرون دعاياته لاتهامنا بوجود أهداف توسعية . ومن ناحية أخرى كانت البعثة الفرنسية في جدة تعيش في نعيم عند المقارنة النسبية ، لأن الفرنسيين لم يشتركوا في الاستيلاء على جدة ، ولهذا لم يستطع حضورهم أو مجيئهم الى الأرض المقدسة أن يسبب قلقاً أو انزعاجاً للشعور العربي .

* * *

كان الملك حسين رجلاً لطيفاً ، ونبيلاً ومهذباً ، وكان شيخاً مسنّاً وقوراً وكان حسن المعشر ، بهيج الطلعة ، رقيق المحيا ، وآدابه في السلوك رفيعة وعاداته نفيسة ، وخلال مدة الحرب ضد الأتراك قاومهم باخلاص وبدون تصنّع ، ولكن من الحكمة وصدق الحديث ان أذكر

بأنه كان مع جميع اخوانه الحكام العرب تواقين الى الاستقلال العربي ، ولقد تمنّوه وتغنّوا به وكانوا سريعي الفهم جداً لما يُبَيَّتُ لهم ومتنبئين بالسقوط من سيلّة[1] Seylla الى كاريبديس Charybdis أي السقوط بين نارين أو بين بديلين أحلاهما مر وكلاهما خطران . وأنا أشعر متأكداً بأنه لو كان هنالك اختيار بين الأتراك وبيننا كسادة وكحكام لوتمّ اختيار الملوك العرب بدون استثناء على الأتراك . انه رجوع الى الأصل ، وعودة الى النمط ، واحتفاظ بالصورة أو انه بالأحرى نداء الاسلام وداعي العقيدة . والحقيقة انه كان لنا أصدقاء آخرون بين العرب غير حسين نفسه وهذه الحقيقة هي التي أثارت نفوره نحوهم . ان الخبر في شبه الجزيرة العربية يطير بعجل وينتشر بسرعة كبيرة فلقد سمع حسين عن المناورات والمؤامرات التي كانت تحاك عن طريق السيد الادريسي وبتدبير منه لإزاحة الامام يحيى في سبيل مصلحة قيام اتحاد عربي ينضم اليه مرشح آخر من البيت الامامي . وكان هذا المرشح شخصاً واحداً هو السيد محمد بن محسن صاحب حوث على الرغم من وجود رجلين آخرين ورد ذكرهما بالتناوب من باب الاختيار والاختبار وأعني بذلك محمد ابن المتوكل صاحب السودة ويحيى بن محمد بن الهادي . وكانت الفكرة تقضي بتدشين إمامة عربية مستقلة عن الملك حسين . وهذا المخطط قد قوبل بالطبع بالاستنكار والاستياء من الملك حسين . وكان على هذا المرشح الاتحادي أن يدلي بدلوه وأن يسحب القرعة مع الادريسي الذي يصبح بهذا الأسلوب حراً في أن يتقاسم معه ودياً الغنائم والأسلاب التي خلفها الأتراك . وفي كلمات أطلقها الشوَف ـ وهم بطن من بكيل في جبل برط عندما كانوا يتحدثون في عدن نيابة عن الادريسي ـ بأن المرشح المنتخب سوف يكسب احترام الجميع سواء في ذلك الشوافع والزيود أو الاسماعيلية . ثم أضافوا هذه الكلمات المفعمة جميعها بالحقيقة : « لا يوجد اختلاف ديني كبير بين الطوائف العديدة المتدينة والمؤمنة ، وانما يوجد دين واحد فقط ، وكتاب واحد ، وفرائض واحدة واجبة على جميع المسلمين » . ولقد بشّرت بهذه القاعدة في جميع الأوقات ، وكنت قادراً على ايقاف ذلك المشروع الجديد اذ كان من سوء التدبير وعدم الفطنة الى حد كبير تقوية نفوذ الادريسي الذي كان سائداً قبل الآن في اليمن .

ومن الواضح أن الملك حسين كان يفكر تفكيراً امبراطورياً ، ولقد حان يومه ليحتل المنصب الرفيع ويحوز الأولوية بفضل الله المحسن المفيد ، وان صلواته ودعواته

---

(١) سيلّة صخرة في الجانب الايطالي من مضيق مسّينا تصورها القدماء وحشاً مؤنثاً وكاريبديس دوّامة مائية تندفع بقوة التيار البحري وتنطلق من شاطىء صقلية . ولقد تخيّلها القدماء أيضاً حيواناً متوحشاً مخيفاً ، وجنسه مؤنث أيضاً .
(المترجم)

أشبه ما يكون بصلوات ودعوات النبي موسى حينما ساعد ابنتي شعيب عند البئر على سقي ماشيتهما ثم رغب في أخذ إحداهما لتكون له زوجة : ﴿فسقى لهما ثم تولّى الى الظل فقال رب اني لما انزلت اليّ من خير فقير﴾ وحسين بحاجة الى بلد غني ، ولقد طلب الحصول على بلد أغنى من الحجاز لأن ايرادات الحجاز لا تكفيه ودخله لا يغنيه فكان يتطلّع الى أقاليم أكثر خصوبة مثل دمشق والعراق ، حيث جلس كذلك على كرسي الخلافة من قبل وفي دمشق وبغداد كل من الخلفاء الأمويين، والعباسيين على التوالي . وحتى لو لم يكن حسين باحثاً عن منصب الخلافة فإن رجاله كانوا ينظرون اليه كذلك . والحكمة العربية تقول « ما لا يشبعك يجوّعك » أي ان الشيء الذي يفشل في أن يجعلك شبعان يفتح شهيّتك للأكل . وشهيّة الملك المشحوذة مملوءة بالاثارة ومفعمة بالقابلية ، وعَلَمه يعبر عن أهدافه بدون شرح أو تفسير مهما كان المخترع والمبدع . فالألوان موضوعة أفقياً وهي من أعلى الى أسفل الأسود والأخضر والأبيض بينما علم البطولة المثلث ذو اللون الأحمر مرسوم بالعرض ، عبر تلك الألوان الثلاثة التي تمثل عدة أمور ، فهي تشير الى الأسر العباسية والعلوية والفاطمية . أما العلم الأحمر فانه علم النبي الهاشمي الذي يشملهم جميعاً ويستظلون بظلّه . والمعنى الذي ينقله ويحتويه واضح وجلي . فالعلم شعار جميل ورمز بديع وهو ملفت للأنظار . وتلك الألوان الأخّاذة هي ألوان وشاح « النهضة » الذي كان ابتكاره تخليداً لذكرى « النهضة العربية » أو احياءً لها وتمجيداً .

وانني أعتقد بأن الملك فؤاد صاحب مصر[1] قد غيّر حديثاً من لون علمه تمييزاً لاستقلاله عن تركيا ولو أن الهلال والنجوم قد ظلت باقية هنا . ومريات Maryatt في كتابه (خاصة الملك King's Own) يبدي ملاحظة كثيرة الخطأ حيث يقول بغرابة عجيبة : « أنا أعتقد بأن عَلَم المسلمين ينبغي أن يحمل الكلب بدلاً من الهلال كرمز للولاء الأعمى والانقياد الصامت »[2] .

ولقد كُتِبَ الكثير عن طريق حسين حول اتخاذ لقب ملك . وأنا أعتقد بأن مصر لم تفهم عمل حسين ونشاطه أو كان المقصود بذلك تفنيد الدعايات التي كان مروجوها قد ذكروا بأن بريطانيا العظمى تهدف الى ضمّ الأقاليم والمقاطعات العربية اليها . وكان حسين يرغب في

---

(١) عام ١٩٢٣ .

(المترجم)

(٢) كلام باطل وتعصب أعمى ضد الدين الحنيف القائم على الحق والعدل والمنطق والعقل اذ ﴿لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ ، ﴿من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ والمواطنون جميعهم متساوون في الحقوق والواجبات ، لا فضل لعجمي على عربي الا بالتقوى ، والناس كأسنان المشط ، وكل المؤمنين اخوة ، والناس عيال الله وخير الناس عنده أنفعهم لعيالهم .

(المترجم)

اثبات استقلاله ثم في اعلانه واظهاره . والعَلَمُ يكون أيضاً رمزاً للسيادة . ويقول السيد فلبي في كتابه « قلب الجزيرة العربية Heart of Arabia » : [« لقد خلعت الحكومة البريطانية على الحسين لقب « ملك الحجاز » ولكن ولعدم الأخذ بعين الاعتبار على ان هذا الوصف يكون كافياً للدور الذي كان يطمح حسين الى أن يلعبه في شؤون الجزيرة العربية فانه قد انتحل لنفسه لقباً أكثر شمولاً وهو « ملك العرب » أو « ملك الديار العربية » وكانت جميع المحاولات التي بذلت لمناقشته في الوضع الصحيح الملائم تُقابَل بالردّ السريع الكامل والوافي ، وهو انه سوف يصبح ملكا على العرب بواسطة مخاطبته بهذا اللقب وبأن ذلك يكون أسهل كثيراً من أن يكسب الحق في مناداته به أو مخاطبته كذلك بنفس اللقب بعد أن يصبح بالفعل ملكاً على العرب »] وهذه لقمة حقيرة . ثم يقول مسترسلاً : [« ولقد درّب الملك رجال بلاطه على أن يخاطبوه علناً باللقب الرهيب « جلالتكم . »]. ومع ذلك فان هذا اللقب قانوني ومُنتَظَم ، ومسموح به تماماً ، وهو فقط مثل قولنا يا صاحب الجلالة أو Your Majesty . واللقب الكهنوي الأكثر تمييزاً أو المناسب لمنصبه يكون « سيادتكم » ، ومع ذلك فان هذا يعد لقباً آخر للحسين .

وبخصوص كلمتي « ملك العرب » فانني لا أرى فيهما شيئاً متناقضاً أو غير مناسب . وهذا اللقب « ملك العرب » من الممكن أن يحمله كل ملك من ملوك شبه الجزيرة العربية انفرادياً أو على وجه الاجمال بدون أن يتضمن الإساءة الى أي واحد من الملوك الآخرين . ولعلّ حسين قد حاول أن يستعمل اللقب الأكثر تكلفاً وتعقيداً وهو « ملك ملوك العرب » . غير أن العبارة التي وقع عليها اختياره تغني عن ذلك تماماً . وليس من الضروري تفسيرها أو الإضافة اليها حتى تصبح الكلمات هكذا « ملك العرب الوحيد » أو « ملك عربي مفرد » بدون أداة للتعريف على الرغم من ان اللغة العربية تحتوي على كل من أداة التعريف وأداة التنكير The و A. ومهما كان الحال فانه يتحتم علينا أن نتركه ليحمل هذا اللقب « ملك العرب » فالتعبير سيكون كذلك حاملاً ذات المعنى بالفعل بدون ما تأكيد على أداة التعريف المستخدمة أو تشدّد في لفظ الكلمة لمعرفة المقصود منها . وهناك سابقة على لقبه جديرة بالاعتبار وتستحق الملاحظة ، ذلك أن الداعي عمران بن محمد بن سبا أحد ملوك الأسرة المالكة الزريعية[1] في

---

(١) بنو زُرَيْع اليمانيون كانوا ولاة على عدن وما يحيط بها من مناطق . وكانوا تابعين للصليحيين حيث حكموا البلاد خسابهم وباسمهم ، وعندما ضعف الصليحيون في حكم اليمن انفردوا عنهم بالسلطة وأول حاكم منهم هو العباس بن المكرّم (٤٧٠ هـ) وآخرهم عمران هذا الذي أورد المؤلف ذكره ويقال انه كان يحمل لقب المكرّم أيضاً لأن مكارمه أكثر من =

اليمن ، وهو الذي حكم في الفترة ما بين عام ٥٤٨ وعام ٥٦٠ هجرية قد اتخذ لنفسه اللقب الذي لم يكن له مثيل بين ملوك عصره وهو « ملك العرب واليمن » . والملك حسين استطاع أن يصف نفسه كذلك بصورة قانونية ومشروعة مع تبديل للكلمة الأخيرة كما كان يفعل عندما يطلق على نفسه « ملك الحجاز » . وأنا أفضل شرح حسين وتفسيره على شرح السيد فلبي . ولقد تَبَنَّيْتُ عنوان كتابي باختيار الاسم الوارد استعماله في ترجمة التوراة السبعينية ، وهي الترجمة اليونانية للعهد القديم التي قام بها ٧٢ عالماً يهودياً في ٧٢ يوماً . فالكلمات الواردة في المزمور الثاني والسبعين من سفر المزامير تقول : « ان ملوك العرب وسبأ سوف يأتون بالهدايا[1] Kings of the Arabs and of Saba shall bring gifts » وأنا أفضل الصيغة التي تتألف منها الكلمات الموزونة ، والتي وقع عليها اختياري لتصبح عنوان كتابي أو اسمه تجنباً لانتقاد منتقد أو متحامل ! غير أن المعنى يبقى واحداً أو يظل نفس الشيء .

لقد أشرت الى وظيفتنا كصانعي ملوك ، ولا ريب ان كلاً من فيصل وعبد الله كان بعيداً عن مكانه المناسب أو خارج مركزه الموافق . انهما رجلان مربعان في حفرتين أسطوانيّتين . وأنا أعتقد بأن الأمر لم يكن مجرد خلاف يتعلق بموضوع ترضية الملك حسين من أجل خيبة أمله في سورية فحسب وانما أعتقد بأن الشعب البريطاني قد رغب في أن يعرف بالأحرى ما يجول في أذهان القوم أو ماذا يفكر به الناس هناك حول الاختيار ، هل الناس يريدون فعلاً هؤلاء الحكام ؟ وهل ينتخبهم حقاً استفتاء عام ؟ اذا كان الحال كذلك فلا حاجة بنا أيضاً الى اثارة الاعتراضات التافهة الى حد بعيد . وتقول صحيفة الشرق الأدنى في عدد حديث ان العراقيين ليس لهم حظ في الوقوف وحدهم ضد العدوة تركيا بدون مساعد أو معين ، ومن أجل الخلاص فانه يتحتم عليهم إما الاعتماد على الحماية البريطانية أو المحافظة على علاقة الصداقة والمودة مع

= أن تحصى . ومن آثاره الباقية المنبر بجامع عدن واسمه مكتوب عليه . وقد توفي عن أولاد صغار كفلهم مولاه جوهر المعظمي الذي تولى الأمر بعد وفاته (٥٦٠ ـ ٥٦٩ هجرية) حتى خروج الأيوبيين الى اليمن في عام ٥٦٩ هجرية (١١٧٤ م) وقد تحدث عنهم أحمد حسين شرف الدين في كتابه « اليمن عبر التاريخ » ثم حسين الويسي في كتابه « اليمن الكبرى » . (المترجم)

(١) المزمور هو أحد الأناشيد والترانيم والصلوات المائة والخمسين التي يتألف منها سفر المزامير وهو مجموعة من الترجمات الشعرية لمزامير التوراة معدة لكي ينشدها المصلون في الكنائس . وما ترجمته حرفياً عن النص الوارد باللغة الانكليزية يختلف عن النص العربي للعهد القديم من الكتاب المقدس اذ ورد فيه بالفقرة العاشرة من المزمور ٧٢ ما نصه بالحرف : « وملوك ترشيش والجزائر يرسلون تقدمة ، ملوك شبا وسبا يقدمون هدية » . (المترجم)

الأتراك ؟ ولقد كان الأمر كذلك تماماً ولكن لماذا انتحال عداوة تركيا ؟ وفي الفصل العاشر استشهدت بما أكده سعيد باشا من أن الأتراك لم يستطيعوا احتمال النفقات وأعباء التكاليف الباهظة ، فلقد أرهقتهم مشكلة الملحقات البعيدة ، والولايات والبلدان التابعة المنعزلة . وقد كرر كثير من الأتراك رأيه هذا أو رددوا صداه . وأنا أعتقد بأن القادة الوطنيين في تركيا يميلون اليوم الى الادعاء بأن الموصل ـ لأكثر من سبب ـ من جملة المناطق الخاضعة أو التابعة لهم وبأن حقوقهم في السيادة عليها يقتصر على الشؤون الخارجية ، وميلهم من هذه الناحية يكون أكثر من أي ميل أو نزعة أخرى الى سلب الملكية العربية أو الى جرح الشعور العربي . ولو اننا أصبحنا أصدقاء ثابتين لتركيا كما كان من المحتمل أن نكون كذلك بل وأصدقاء طيبين لما كانت هنالك مشكلة حول التوسع التركي في تلك الربوع . ولو أُديرت ظهورنا وتُرك فيصل بصرامة وحيداً لرغب هذا الملك على العراق في التحول بسرعة الى أصدقائه السابقين وأشقائه في الاسلام ، ولعاش الفريقان بعد ذلك في ألفة دائمة ، واتفاق مستمر ، وسعادة أبدية . ولن يقف الأمر كذلك عند هذا الحد فقط بل ان الرباط الثلاثي المكوّن من انكلترا وتركيا والدولة العراقية يستطيع أن يصد أي هجوم عدائي محتمل أو متوقع . ويبدو أن عقد معاهدة صداقة ومودة مع تركيا من أول الأمور الهامة والجوهرية وعندئذ ، أو بعد ذلك تأتي الموافقة الوطنية الكاملة على اختيار خليفة جديد . وأنا أعتقد بأن الخطوة الأولى تقع على عاتقنا ، وبعد ذلك يكون كل شيء بلون الورد . ولسوف يدرك فيصل على الفور بأن مصالحه ستكون مصانة على أحسن وجه ومحفوظة عن طريق اتحاد أو تحالف مع صديقنا التركي .

ان السيد أرنولد ولسن Sir Arnold Wilson الذي ضمنت له أعماله في العراق سمعة طيبة وأكسبته شهرة عظيمة قد استشهد ذات مرة بمقال لباكون Bacon عن المستعمرات تأييداً لدعوى فيصل ومطالبته بالبلاد . وكان يقاوم بعنف شعار السياسة القائلة « كل شيء برمته ، وبقضّه وقضيضه » : [ان أجرم شيء في العالم هو التخلّي عن مستعمرة أو هجرها بعد أن كانت ذات مرة تقف في الطليعة وتحتل الصدارة ، لأنه علاوة على ما في ذلك من العار فانه يوجد هنالك أيضاً جرم هدر حياة الكثيرين من الأشخاص الجديرين بالرثاء والمواساة] . تلك هي الكلمات الختامية لذلك المقال وهي مشحونة بالحكمة السياسية . وسوف أقتبس الكلمات الأولى من ذلك المقال كتثبيت للحقيقة في حواره وبعبارة اكثر رونقاً ودلالة تاركاً للآخرين اتخاذ القرار في المسألة : [انني أريد مستعمرة في أرض خالية ، وتربة نقية ، وذلك حيث لا يكون الناس قد اقتلعوا النبات بانتظام ليزرعوا نباتات أخرى ، والا كان ذلك بالأحرى استئصالاً لا استعماراً ، واستيلاءً لا استصلاحاً] . وهذه أيضاً كلمات تستحق الإشادة وجديرة بالذكر .

ان الطريق الى النجاح في شؤون العرب محفوف بالصعوبات . وليس وجود معسكرات متعارضة بأقل صعوبة من تلك . فالحكومة الهندية[1] كانت تقف ضد حسين ، وكانت تتمنى بشغف وسرور أن تشاهد انهياره السريع وذلك لوجود أسباب دينية ، كما كان الأمر بالنسبة اليها مرغوباً ومطلوباً كذلك لإزالة أسباب النفور والتباعد والبغضاء القائمة بين المسلمين الهنود وبين الحكومة . أما مصر فانها كانت تؤيد حسين وتتجاهل جميع المرشحين الآخرين . وكان حزب الرابطة العربية The Pan - Arab Party ـ الذي اكتمل نموه واستوى في القاهرة ـ يدافع بنشاط ويؤيد بهمة واجتهاد دعوى حسين في السيادة والتفوق . ولقد وصل اثنان من رجال الحزب الى عدن ورغبا في الذهاب الى الإمام ، ولكن الإمام لم يكن مهتماً في التمسك بأي منهاج كهذا أو انه لم يكن يريد الالتصاق به ، وانما كان يفضل الانتظار ومراقبة سير الأحداث وملاحظة اتجاهها . وكان واحد من هذين المبعوثين العربيين من عائلة « المراوعة » ـ وهذا هو اسم للعائلة أو للقرية الكهنوتيّة الواقعة بالقرب من الحديدة ـ ولكنه كان مقيماً في مصر ، وعضواً من أعضاء « عشيرة العرب » أو « العشيرة العربية » الموجودة هناك . وكانت آراؤه ووجهات نظره مصبوغة بمحيطه أو ممثلة لبيئته ، فلقد قدّم اقتراحاً مفاده أن سلطان مصر سوف يكون مرشحاً مناسباً لمنصب الخلافة ! وقال ان اليمن قد كرهت الأتراك الذين لم يسمحوا للناس بأن يأخذوا منها أي شيء حتى عود ثقاب (عود كبريت) . وأنا لم أجد نتيجة ذات قيمة من تدخل كهذا في شؤون الغير ، ولذلك أرسلت هذا المبعوث النبيل المحتد Gentleman الى القاهرة حيث المقر الرئيسي . أما زميله الآخر فانه قد رغب في تمليك الحديدة الى الملك حسين اذ حبّذ وضع يده عليها ! وهكذا أوجدت الحرب حشداً من الخبراء العرب . انهم مثل «اليعسوب» الغزير أو يرقانات الفراشات التي لا تعد ولا تحصى ، ولكنهم كانوا خالين من المسؤولية . وفي مكان آخر تحدثت عن المرميدونيين[2] «L. G. S Myrmidons» وهذا اللقب المميّز أعطاه لي واحد من أركان موظفي وزارة الخارجية الذي كان مزعوجاً الى حد كبير من التقلبات السريعة والبهلوانية والمثيرة عند أولئك السادة سواء في الفتوى أم في تبديل اللباس . وثمة شخص آخر فضولي من أولئك الذين يتدخلون في شؤون الغير وهو يشغل الآن منصباً

---

(١) الحكومة الهندية مقصود بها السلطة البريطانية هناك . والمراد بمصر الحكام البريطانيون فيها ، والبلدان كانا يرزحان تحت كابوس السيطرة الاستعمارية البريطانية حينئذ . وكان فيهما أكبر قاعدتين بريطانيتين محدقتين بالشرقين الأدنى والأوسط لحبك المؤامرات ، وللتخطيط والتخريب . (المترجم)

(٢) راجع الجزء الأول

رفيعاً في الشرق وكان يطلق عليه لقب واحد من « مهاجري منتاجيو »[1] Montague's Migrants. وهكذا توجد طرق أخرى من طرق كسب الحرب غير القتال .

ان موضوع الخلافة الاسلامية أمر بالغ الدقة وفي غاية الحساسية بالنسبة الى تدخل النصارى فيها سواء كان التدخل بالأيدي أو بالأفكار . وعلى أية حال وطالما ان لنا في هذا الأمر مصلحة ، ونحن الذين نوليه الاهتمام فان محور العالم الاسلامي يقع اليوم في الهند ، والهند سوف لن تتحمل قيام خليفة عربي ، فالمسلم الهندي يحاور قائلاً : « اذا كان الأتراك قد أطلقوا النار بالفعل على الكعبة فان ثورة حسين وتمرده هما اللذان دفعا بهم الى اطلاق النار ولذلك فانه يعتبر المسؤول عن ذلك » . وفيما يتعلق بمركز حسين في الجزيرة العربية فانني سوف أترك الكلام لوجيه من مواطني عدن ، وهو الذي ظل طيلة سنين كثيرة صديقي الحميم . وكانت نظرته الثاقبة الى السياسيين اليمنيين ، ومعرفته الفذّة بشبه الجزيرة العربية وبعد نظرته الى الأمور موضوعة تحت تصرفي . وهذا الرجل من الطائفة الاسماعيلية ولكن نفوذه في اليمن كان معترفاً به في جميع المدارس المتدينة والمعجبة بشخصه ، ولقد كسب احترام الجميع بسبب شيخوخته وتقواه . وهو الآن في عداد الموتى بعد أن انتقل الى رحمة الله ، فهذا الرجل كان يُطنب في الحديث حول نفور الحكام الآخرين من الملك حسين وعدم قبولهم له ، وقال ان السبب في ذلك يرجع الى ولائه الطويل للحكم التركي في مكة ، وتحالفه على الخصوص مع الأتراك في الجهاد ضد السيد الادريسي اذ كان عليه بعد ذلك أن ينسحب مدحوراً ، وأن يتقهقر الى الطائف . ثم ابتدأ بعدئذ يقاتل ابن سعود ولكنه كان بالمثل غير ناجح، ولقد عمل كل هذه الأمور مُداجاةً لأسياده الأتراك أو في سبيل محاباتهم ، ولكن الانسان الذي يلطم (يضرب) شخصاً آخر على خده قد ينسى ذلك أما الشخص الآخر فانه لن ينسى بل يتذكر دائماً (اللاطم ينسى ، وأما الملطوم فلا) وعندما أحس حسين باستقلاله المحتمل غيّر من مبدئه السابق، وهذا العمل من جانبه قد حفّز الأتراك على اعلان بديل له ـ طبقاً للعادة القديمة ـ في شخص حيدر علي . وكان هذا العمدة العدني الاسماعيلي يعتقد بأنه لو قام الملك حسين قبل الحرب بالطواف بين الحكام العرب الآخرين ، وسعى لاسترضائهم ثم عمل على استرضاء بقية الأشراف والسادة العديدين ، ورجال القبائل ، أو ربط نفسه معهم بمعاهدة من أجل طرد الأتراك من شبه الجزيرة لاعترف له اليوم كل أولئك بالسيادة الروحية على الحجاز .

---

(١) منتاجيو Montague عائلة روميو في رواية روميو وجوليت لشكسبير .

(المترجم)

وقد يكون من المحتمل بأن تنجح اليوم جهود وزارة المستعمرات في جعل ملوك شبه الجزيرة العربية المختلفين يركّزون اهتمامهم على نقط اتفاقهم وتفاهمهم أكثر من التركيز على نقط اختلافهم وتباعدهم وعند ذلك سوف ينظرون الى الأشياء بمنظارها الصحيح ، والنتيجة لذلك سوف تكون موصلة الى ما هو أجدى وأبعد مدى ، وستكون درساً عملياً يقدم لأولئك الذين كانوا يرددون القول بأن في المعارضة العربية لتركيا هجوماً وخيم العواقب على الوحدة الاسلامية ، ووبالاً لا يمكن تصوره . ومثل هذه الأمنية انما تتحقق بصورة أفضل اذا ما وقفنا نحن أنفسنا في المؤخرة ، فالاصلاحات تأتي من الداخل ، وكل المناورات والتدخلات من الخارج سوف تفسد النهاية من المشهد ، وتهزم النتيجة المنتظرة والمتوقعة . ويجب علينا قبل كل شيء ممارسة الصبر ، وأن لا نتوقع رؤية الاصلاحات ناضجة بسرعة .

أيها الزمن ، أنت الذي تعقّد هذا وليس أنا .
انه من الصعب عليّ جداً أن أحلّ عقدةً .

هذان السطران من نصائح لوتسو ، وهما يدعوان الى ترك الأشياء جميعها تأخذ مجراها الطبيعي بدون تدخل .

وكيفما كان الحال دعونا نترك خداع أنفسنا وتضليلها فالوحدة سوف لن تكون أبداً ، وكل ما نستطيع أن نرجوه وأن نأمله هو قيام اتحاد في نطاق التنوع . ولقد قال الرسول : « لا ريب ان هلاك أمتي سيكون بالسيف ، لقد خطّ القلم ما سيحدث »[1] ؛ ولا زال يوجد متسع من الوقت لإبطال العمل العدائي الذي خلفته الحرب ، ولإصلاح ما أفسدته . ومع ذلك فانه يوجد حديث آخر مأثور عن الرسول ، ولكنني لا أتبع معناه الخفي المستور : « سيعتصم الدين في المدينة كحية في حفرة ، ثم يرتحل بنفسه من الحجاز فيجد له ملاذاً آخر كالماعز يبحث عن الاحتماء في رأس الجبل »[2] . وانه ليتحتم علينا أن نترك أنفسنا بعيداً عن التدخل وأن لا نعمل شيئاً في سبيل إحداث ثغرة في الاسلام لأن مثل ذلك سوف يؤدي الى تمزيق الأمة العربية ، أو

---

(١) عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اني أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، [واذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها الى يوم القيامة] ولا تقوم الساعة حتى تلتحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان . وانه سيكون في أمتي ثلاثون كذاباً كلهم يدعي انه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي ، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » . أخرجه مسلم وأبو داوود والترمذي مفرقاً .

(المترجم)

(٢) قال رسول الله ﷺ : « ان الإيمان ليأزر الى المدينة كما تأزر الحية الى جحرها » . رواه أحمد والشيخان وابن ماجة ، والحديث عن أبي هريرة .

(المترجم)

الى فنائها وموتها ، وهي التي أخذناها تحت جناحنا وفي حمايتنا وكنفنا وأصبحنا مسؤولين عنها لحداثتها في الحياة .

اني لست مؤمناً بالتكهن المتشائم للرحالة الدانمركي المرحوم باركلي راونكر Barclay Raunkiaer وسوف أورد عبارات مقتبسة من كلامه مع بعض التطويل وباسهاب قليل اذ من الحكمة فهم المنهاج الخبيث والضار الذي قد قبل به بعض النقاقين والمتشائمين . ففي كتابه « عبر الأرض الوهابية على ظهر البعير Through Wahhabiland on Camel back » كتب يقول : « تلعب بثبات البلدان الواقعة بين أوروبا والهند دوراً متزايداً في السياسة العالمية ، والحقيقة تكمن في الأهمية الحيوية التي تتمتع بها حتى بالنسبة الى مناطقها الداخلية المنزوية ، والنائية القصيّة الأكثر انعزالاً . وكما في سالف الدهر لا تزال المدن والولايات الصغيرة ، والبدو الرحل من الكويت الى عدن ، ومن مسقط الى سيناء تتحارب فيما بينها بوحشية ، وبطريقة دموية ، وبعقيدة بارعة ذكية وهي انهم انما يمثلون ارادتهم الحرة الخاصة بهم في الانتقام الحقيقي ، وفي أخذ الثأر الفعلي وغسل الاهانة الموهومة ، والحصول على الثروة من مال بعضهم البعض . والقليل منهم فقط يعرفون بأنهم في كل ما يمارسونه من أعمال - تبدو وكأنها تدريب على ممارسة الحرية - انما يخدمون بذلك فعلاً لعبة سياسية خطيرة ، انهم مثل أحجار الشطرنج يتحركون جبراً لا ارادياً طبقاً لقاعدة « فرّق واحكم » divide et impera التي لا ترحم طالما ظلوا محتفظين بعاداتهم وبتقاليدهم القديمة وبحريتهم وبملابسهم الزاهية وبجميع التراث والمخلفات الباقية التي تملأ حياتهم بمناظر تلك الرواية المتعاقبة التشخيص ، والمفعمة بأشعة الشمس التي تعمي الناس عن الحقيقة المرة وهي أن أيامهم معدودة ، فالدويلات الوطنية تنحدر بهدوء وبطء ، وبطريقة غير محسوسة نحو الشكل الأخير الذي هو عبارة عن امتصاصها النهائي بينما هي لاهية فخورة بشعور العزة في انها كاملة القوة ، شديدة الشكيمة متمتعة بحريتها الثمينة التي تمارسها يومياً ، بينما هي تتعهد بالرعاية وتثبيت وتوطيد العلاقات الودية مع قوة أخرى عظمى خلف البحر . . . ان ذلك الامتصاص لهذا المجتمع وهو في حد ذاته على هذه الدرجة من الانحطاط سوف يحقق بطريقة غير مباشرة وعفوية مهمة الحضارة ، كالفراشة التي تطير الى النور فانها تجعل الشمعة المحترقة تُنير بصورة أكثر بريقاً ولمعاناً لفنائها في ذلك النور وتلاشيها بالاحتراق » .

وبعد ذلك وصل الى مغزاه الختامي والأخير ، والذي يسميه الارلندي « النزهة من أجل الشارع » أو الهرولة من أجل الطريق : « حقاً ان السياسة المفيدة التي تستطيع اخضاع أكثر الناس تعصباً على الأرض قاطبة وبرغم ما عندهم من تكبر وعجرفة ، والتي تعمل على قمعهم

حتى النهاية وحتى لا تقوم لهم قائمة مع وجود قدر ضئيل من الاحتكاك كهذا أو التغلغل بمهارة متقنة ودراية فائقة كتلك يجب أن تملأ (أي هذه السياسة) كل مراقب من السياسيين المعاصرين نحو الشرق أو عنه بأعمق الإعجاب ! » .

وان كل ما أستطيع أن أقوله هنا هو الشكر لله على جعل مستقبل الأمة العربية وديعة في الأيدي البريطانية . وانه لمن المؤكد بأن سياستنا وأهدافنا سوف تؤدي الى الصيانة والحفظ ، لا الى الفناء ، والابادة أو الامتصاص لهذا الجنس من البشر . ان العرب سوف لن يختفوا ، ولن يزولوا . وأن أمجادهم القديمة يجب أن تبقى وتنتعش وتزدهر وتحيا . ومع ذلك فما هو الخوف المزعج الذي ينتاب الأفكار وسوف لن يهدأ ؟ لنستمع الى بعض الأبيات الحزينة ، أو الحدادية النادبة من قصيدة لبورتن: Burton's Kasida

أين تاج كسرى وصولجا انو شروان ؟

أين الكأس المقدس لجامشيد العظيم وأين

عرش أفرا سياب ؟

هل يستطيع شخص ما أن يخبرني ؟

ذهبوا ، ذهبوا ، حيث يجب أن أذهب أنا

وحيث تذهب أنت محمولين على أجنحة الموت الطائرة .

ان الرعب يخيّم على الحياة ، وان حضوره أكثر قرباً مع كل لحظة ومع ترديد الانفاس .

أين أولئك ؟

لقد ملأت شهرتهم الآفاق والسماوات السبع .

لقد نهضوا ، وارتقوا ، فارتفعوا وسادوا ،

وحاربوا وسقطوا

كالغرور والنشوة عبر البيداء ،

وكرنين أجراس الابل في أرض جرداء .

الفصل الثالث عشر

[مستقبل اليمن]

الحدود الدقيقة لليمن غير واضحة بسهولة ، والخبراء مختلفون . وتقرر احدى المراجع الموثوقة بأن هذه البلاد عبارة عن المنطقة المعروفة في جنوب شبه الجزيرة العربية والتي تقع الى الجنوب من جبل تثليث الموجود عند خط العرض عشرين شمالاً (20° N.) وخط الطول اربعة وأربعين شرقاً (44°E.) . وتشتمل على الأقاليم الواقعة بين البحر الأحمر والخليج الفارسي بما في ذلك اقليم عمان . ويذكر مرجع آخر بأن اليمن عبارة عن المنطقة الواقعة في الجنوب من جبل تثليث كذلك ولكن على امتداد مسافة مائتي ميل نحو الشرق تقريباً ابتداءً من الشاطىء الشرقي للبحر الأحمر ، بينما يفصل ثالث الشروح اقليماً يمتد الى الجنوب من صنعاء والى الغرب من السلسلة الجبلية العظيمة الواقعة في الشرق من هذه المدينة . وبهذا التحديد الأخير سوف لا تكون اليمن أكثر من نصف المسافة التي تربط بين تلك السلسلة الجبلية ، وبين البحر الأحمر غرباً ، كما لا تكون أكثر من نصف المسافة الممتدة ما بين صنعاء وعدن جنوباً .

ويقول الجغرافيون العربِ ورسامو الخرائط منهم - ان اليمن تشتمل على أقاليم حضرموت والمهرة ، وعمان ونجران أيضا . ولقد سُميت هذه البلاد باليمن لأنها تقع على يمين الكعبة عندما كان عبدة النجوم القدماء يتوجهون نحو الشرق . كما ان الشام أو سورية سُميت بلاد اليد الشمال التي وهبت اسمها كذلك لتلك الجهة الشمالية . أما تهامة فانها عبارة عن الأرض السهلية المنخفضة ، والمحروقة بأشعة الشمس ، والواقعة ما بين اليمن والحجاز . والحجاز بدوره عبارة عن حد فاصل بين تهامة ونجد . ونجد عبارة عن النجود المرتفعة من الأرض والتي تحاذي من الشمال سورية ، ومن الشرق العراق ، ومن الغرب الحجاز ، وتقع اليمامة الى الجنوب منها . واليمامة الواقعة ما بين نجد وما بين اليمن تسمّى العروض لأنها تحصر نفسها بين أقاليم أخرى أو بين اقليمين آخرين . هكذا يقول الخبراء كما تقول المستندات

والمراجع الموثوقة[1] ويكفي بناءً على هذا الوصف الاجمالي ان تضع اليمن تقريباً في جنوب الجزيرة العربية ثم في الجنوب الغربي منها . . .

ولقد وصل الى اليمن الغزاة العديدون . ولكنهم لم يمكثوا فيها طويلاً ، اذ لم يحالفهم النجاح ، فالرومان ، والأحباش ، والفرس ، والمصريون ، والأتراك - والأخيرون أكثر ثباتاً - كانوا جميعاً هناك . ولقد ترك الأحباش أثراً لهم في شخص الخادم (والجمع أخدام) . والخادم هو الشخص الذي يعمل اليوم كنّاساً أو يمتهن تنظيف الطرقات . وهو يعتقد بأنه منحدر من عرق حبشي وعربي معاً . فهو همزة الوصل بين الاصلين لأنه يكون متفرعاً من ذريتهما . ولقد عاش الأحباش فعلاً في الجنوب من شبه الجزيرة العربية في مرحلة معينة من التاريخ القديم . ثم ارتحلوا بعيداً نحو الغرب جماعات ووحداناً مذعنين لضغط السلالات العربية الحاكمة التي ظهرت من بين صفوف الأجيال الجديدة وتغلبت عليهم مرة أخرى ثم أجلتهم عن البلاد . واليوم تمثل اليمن الصورة التي رسمها لها الشاعر اللاتيني بروبرشيوص Propertius الذي سماها « اليمن البكر » أو العربية العذراء «Arabia Intacta» عندما نظم قصيدته الشعرية مادحاً بها القيصر أغسطس Caesar Augustus ومتنبّئاً فيها بالنجاح لقائده الروماني ايليوس جالوس Aelius Gallus وذلك في عام ٢٤ قبل الميلاد ، ولكن هذا القائد فشل على الرغم من ذلك أمام مريَبة ، واليوم هو يوم السيادة العربية اذا ما تركنا العرب - بألم وحسرة - وحيدين يديرون أمورهم بأنفسهم . لأنهم يتطلعون الى انكلترا لتأمين استقلالهم وضمانه .

* * *

ان امام صنعاء هو الوارث لما بقي من تركة الأتراك في اليمن[2] . ولن يستطيع واحد آخر غيره أن يدير سياسة هذه البلاد أو أن يضطلع بشؤونها ، ولا حتى نحن بكل تأكيد . ولقد رفضنا بقوة وعزيمة التوسع والتمدد من عدن - (باستثناء الادريسي حديث النعمة الذي كان له وجود ضئيل) - ونظراً الى الميل التركي نحو الامام ، والى ارتباطه التاريخي الطويل باليمن فان ترك الادريسي ليدخل الحديدة وهي ميناء صنعاء يعد عملاً اجرامياً من جانبنا وغير مشروع .

---

(١) يقول امين الريحاني في كتابه « ملوك العرب » عن اليمن ما يلي : « كان اليمن في عهد الأئمة الأولين قطراً كبيراً يشتمل على عمان، وحضرموت ، ويمتد الى الحجاز ، فيدخل فيه عسير وقسم من تهامة . فالامام شرف الدين بن شمس الدين (٩٣٠ هـ) الذي مدحه موسى بن يحيى بهران شاعر صنعاء كان من الفاتحين الكبار والامام المهدي أحمد بن حسن استولى على اليمن كله بما فيه عمان وحضرموت . والامام المهدي لدين الله هو الذي اذن للفرنسيس أن يدخلوا عدن والمخا ، وان يزوروه كذلك في مقره بمواهب وعقد معهم معاهدة تجارة وولاء سنة ١٧٠٩ » . انتهى كلام الريحاني . (المترجم)

(٢) أي في عام ١٩٢٣ .

ونحن نناقض أنفسنا بعمل كهذا نظراً الى اننا نتدخل في تحديد التخوم ، ووضع الحدود بالنسبة الى هذين الحاكمين المتنافسين، فالادريسي زعيمنا الذي نهادنه قد تحرك الى داخل المنطقة التي يطالب بها الامام ، وهذا التصرف قد حمل الأخير على تفسير ذلك وكأنه نقض من جانبنا للتعهد الجازم الذي قطعناه على أنفسنا بالابتعاد عن الاقليم ، والتَرَفّع عن كل تدخل في شؤونه . وهذه هي النتيجة للتوسع الادريسي .

ولم تكن الحديدة ملكاً لنا حتى نمنحها على الدوام الى أي واحد نريده ، ولم يكسب الادريسي هذه المنطقة من الأتراك عن طريق الحرب . وعندما يتم التوقيع على معاهدة السلام مع تركيا ثم التصديق عليها سيكون أول واجباتنا طرد الادريسي ، وابعاده عن المناطق التي يكون للامام وحده حق مقرر فيها وثابت ، لأن لديه الحجة ووثيقة الامتلاك بالتقادم ، فالحديدة عبارة عن الميناء الرئيسي لصنعاء .

لقد انتهت الحرب ، ويجب سحب قدر كبير مما كتب حول مستقبل اليمن والرجوع عنه الآن . ونحن اليوم ننظر الى الغابة بوضوح أكثر بعد ازالة بعض الأشجار منها . ولو اننا أدخلنا بعض الجنود الى الحديدة لكان ذلك أفضل بكثير بالنسبة الى السلام والطمأنينة في اليمن ما دمنا نحاول أن نتوصل الى تفاهم مع الامام . ولقد تحدثت في الفصل الحادي عشر عن الهدف من ارسال البعثة الى الإمام في عام ١٩١٩ ، فكان التشويش الكامل أو الاختلاط منذ بداية نشوئه من صُنعنا نحن ، ثم من فعل أيدينا . والمرء لا يستطيع الحصول على ملكين في اليمن وكلاهما يبتسمان لباقة واحدة وصغيرة من الزهور » .

ولقد ذهب خط حدودنا وارتحل مع رحيل الأتراك ، وكنّا قد أبرمنا معاهداتنا داخل البلاد في مواجهة التوسع التركي ، ثم من أجل المحافظة على حقوق العرب الذين جعلنا أنفسنا في عام ١٨٣٩ مسؤولين عنهم في مقابل القيام بدفع مرتباتهم بعد أن أخذنا على عاتقنا القيام بحمل تبعات سلطان لحج وأعبائه . ولقد كانت تلك المرتبات الممنوحة نوعاً من ابتزاز الأموال ، واما المعاهدات فانه كان لها نفس النهاية المنتظرة نظراً الى « انقاذ العرب من التوسع التركي » . والسبب المبرر لجميع تلك الارتباطات لم يبق له وجود اليوم ، فلقد طلع على الملأ ملك عربي يطالب بهؤلاء العرب كما يطالب بتركته من تراث الأجداد ، وبميراثه عن الاسلاف . ولقد كتب الينا الامام يقول انه لن يعترف أبداً بالاحتلال التركي لليمن ، ولا بتَغاضي الأتراك عن المعاهدات التي أبرمناها. ثم قال انها لا تلزمه كذلك وليس مرتبطاً بها على الاطلاق لا من قريب ولا من بعيد ، ثم أثبت بالدليل والحجة بأن أسلافه قد حكموا هذه

البلاد والمقاطعات قبل دخولنا اليها ، وقبل أن نضمها الينا ، وقال مؤكداً أن حقه سابق وموغل في القدم منذ عهد طويل ، وعلى الرغم من انه كان مستعداً وقتياً والى حين للمهادنة ولترك المطالبة بمحمياتنا ، وبالعرب الذين تحت حمايتنا فانه يعيد النظر في المسألة بعد الحرب . ولا ريب ان امامته التي ورثها كانت سائدة في كل مكان من جنوب شبه الجزيرة العربية ، وقائمة فوق كل شبر عليها في الأزمنة الماضية ، وكان الحب لأسرته راسخاً بعمق في نفوس جميع العرب هناك كالروح في الجسد . ولقد تكلم بالحقيقة عندما أكّد بأن أولئك القوم الذين تحت حمايتنا قد مالوا الى الأجانب في سبيل المال طمعاً وشراهةً ، ولكن ينبغي أن لا تعوق هذه الحقيقة عودتهم الى الحظيرة بعد أن تغير الزمن ، واستيقظ العرب من جديد، وبعد أن عادت السيادة العربية مرة أخرى .

ولا جدال في أن الإعجاز يهزم التحدي حين القول بأن الوقت قد تغير ، وان الأزمنة الجديدة والأحداث المتغيرة تحتاج الى اجراءات جديدة ، ومجابهة ضرورية ، والى رجال جدد ، والقول بأن ماءً كثيراً قد تدفقت من تحت الجسر ، وان مَجْرى التيار غير قابل للانعكاس دفاع لا يقبل المناقشة . ان محرراً وحدوياً لمقاطعات مُغتصبة قد ظهر وهو ينشد استعادة ملكه حتى ولو اقتضى الحال قسراً ناعماً من كلب الراعي لعودة القوم الى مأواهم القديم ومسكنهم المهجور ما دامت نهايتهم الأخيرة ستكون أكثر سعادة من وضعهم الحاضر تحت اشراف قوة أجنبية ، أو في ظل سيطرة خارجية حتى ولو كانت تلك القوة الأجنبية هي انكلترا . وللاستشهاد اقتبس مثلي المحبوب : « ان يد المرء تظل يده حتى ولو كانت مجذومة » .

انه نداء العربي للعربي. والشوافع - باعترافهم - لا يستطيعون أن يتحدوا ، وليس لهم قائد واحد . ومحميونا الذين هم تحت حمايتنا انما يكونون كذلك اسمياً فقط ، أو انه مجرد لقب مجاملة محض وليس بحكم الحق الرسمي اذ لم نحمهم في الحرب العظمى ، ونحن ننفق عليهم آلافاً من الروبيات سنوياً كمرتبات ، وهدايا ، ولا نحصل منهم على تعويض مناسب لهذه النفقات . انهم يأخذون هدايانا بكلتا اليدين ولا يكون في ملاحظاتهم مدح أو ثناء عندما يدافعون أحياناً عن موقفهم بقوة مبررين ذلك بقولهم : « ان قطعة من لحم الخنزير قد تكون نافعة أحياناً بل ومفيدة كذلك » .

وان محبينا وأصدقاءنا لا يريدوننا أن نكون موجودين في مناطقهم الداخلية أو النائية من البلاد . انهم يحضرون الى عدن بحريّة وسهولة ، ولكن لا توجد مبادلات في هذه الزيارات . ولقد شاهدت بأن هباتنا وحدها دون غيرها هي التي جذبتهم نحونا . يقول الرسول : « لكل

امة عجلها ، وعجل أمتي (الذهبي) الدرهم والدينار » .

وانني أعتقد بأنه ليس في استطاعة أي واحد أن يتهمنا عدلاً بخيانة الأمانة اذا ما تركنا أولئك القوم الذين تحت حمايتنا ليذهبوا عائدين الى الامام مرة أخرى . ولقد كُتب الكثير جداً حول الكراهية والحقد بين المذهبين (الشافعي والزيدي) ولكن الجميع سوف يتقاطرون الى العربي القوي والحامي الأمين الذي يرغب في استعادة مملكته السابقة وتقويتها ، وهو الذي يسعى للعودة الى مركزه السالف حيث حكم ذات مرة كلا من الشوافع والزيود ، وساسهم بعدل وانصاف .

وان مصالحنا في البلاد سوف تصان ، وسيكون من المستطاع المحافظة عليها بوسيلة أفضل ، وذلك عن طريق تقوية مركزنا في عدن والتخلي عن المناطق الداخلية من البلاد ، وترك أهلها ليتحولوا عنا الى الصفوف العربية . ونحن نستطيع كذلك أن نحصل على النجاح الذي نريده عن طريق التجارة ، ولو اننا لا نبلغ مكانتنا الكاملة من التجارة وحدها . انه ينبغي أن يكون هدفنا الربح بدون سيطرة ، والعمل بدون غطرسة أو اعتداد بالنفس أو حب للظهور ، وأن نجني الثمار ونحصل على الاستثمار بدون استيلاء فالزمن الذي كنا نتدخل فيه قد انقضى . وسياسة « فرّق تسد » لا معنى لها بالنسبة الينا اليوم . ونحن اذا ما أعوزَتنا الحاجة الى دولة محايدة وعازلة لابراز فضائل الحكم البريطاني كما في الهندفما علينا الا أن نرسم حداً على بعد مسافة قصيرة خلف لحج لنعزل بذلك بقية المناطق الأخرى ، وللامام اهتمام وراثي بالسلطان العبدلي فهو سوف يحافظ على الحرية السياسية لدولته ، ويكون شخصياً مرحباً بالحياد بين أقاليمه وبين أقاليمنا ، وسوف يقوم بتعيين ممثليه - كما في السابق - في جميع المقاطعات الأخرى ، ويترك المناطق الشافعية تحت ادارة واشراف حكام شوافع . والإمام يحيى سياسي بالفطرة ، وبارع في السعي الى السيطرة بدون تدريب .

تلك هي سياستنا الصائبة ، والتي ينبغي أن تكون سائدة . فكيف والى أي مدى تختلف عن الصورة التي رسمها السيد هفيلوك اليس Mr. Havelock Ellis في كتاب « الروح الجديدة The New Spirit » اذ تحدث عن الطرق والأساليب البريطانية قائلاً : « ليس من السهل بالنسبة للانكليز وجود تعايش أو تسوية مؤقتة مع الأجناس الدنيا أو الأقل في المرتبة . ان تلك الخصائص نفسها هي التي تمنحنا استقلالا انفرادياً ، وتهبنا صلابة في النسيج والألياف الى درجة لا تجعلنا معها صالحين لعمل آخر » ثم يكشف عن أوجه الاختلاف الصارخة بين أسالينا وبين الاصلاح الروسي أو السياسة الروسية التي « تكون متكيفة بطريقة عجيبة من

أجل مزج المشاعر والأعمال أو لجعلها تتآلف بانسجام حتى مع الأجناس الصفراء الأشد شراسة ، مجتذبة تلك الفئات الى علاقة أفضل مع أحسن العوامل والمؤثرات الأوروبية » .

ولنصغ الى الفيض المتدفق التالي ، والمنساب من يراعه : « اذا كنّا معشر الانكليز نريد بكل تأكيد أن نحقق نجاحاً ـ ولو يسيراً ـ وان نحرزه في مكان ما ـ كما في آسيا ـ فان أعظم عمل نقوم به هو المصالحة والاسترضاء عندما تكون المسألة متعلقة بالقمع ومرتبطة باستئصال جنس ما وبعدئذ يأتي دورنا ، اذ يكون زماننا قد حان وحل ميعاده !! . . . . فنبيدهم اجمالاً بالرفق والرحمة بقدر الامكان وطالما كان ذلك أمراً مستطاعاً تم نمد ضحايانا بالعديد من المبشرين ونزودهم بالبطانيات والأغطية بسخاء » . ان كل هذا يكون غريباً ، بل انه غير صحيح .

إن الاحتفاظ بعربنا ذوي المعاشات والمرتبات رغماً عن الحاكم العربي الآخذ نفوذه في الازدياد والنمو يكون عبارة عن ايجاد ثغرة لتفريق المسلمين ، ولانقسام الاسلام على نفسه . والحالة في الهند قد تكون أحياناً مطابقة عند الاستشهاد والاقتباس أو على سبيل المثال ، ولكن هذه المطابقة المتوازية مغلوطة ، فالهند البريطانية تكون فيها حدود الولايات الوطنية متشابكة ، وتخوم الدويلات المتعددة ذات المصالح المشتركة مختلطة ، ونحن أيضاً مسؤولون عن الهند أو من أجلها ككل متكامل . وأما في اليمن فان الأمر يكون على العكس من ذلك لأن عدن وحدها أرض بريطانية[1] Aden alone is British Soil وهي معزولة في ركن واحد ، وهكذا نجدها على هذه الحالة من التوزيع جزءاً بعيداً خارجاً عن المناطق الأخرى الداخلية من البلاد والتي لا تهمنا أو لا شأن لنا معها ، كما واننا لم نهزم اليمن في تلك الحرب .

ان مذكراتي مملوءة بالمجادلات والحجج البراقة من المتشيّعين المختلفين الذين يقترحون العديد من مشروعاتهم من أجل مستقبل اليمن . ولقد تحدثت سابقاً عن الاتحاد الادريسي

---

(١) لقد حرصتُ على كتابة هذه العبارة بنصها الانكليزي علاوة على تعريبها ليرى القارىء الكريم منطق الاستعمار غير المنطقي ، وتلاعبه بالحقيقة وعبثه بالحق . فالمؤلف يقول هنا عن عدن اليمنية بل والعربية بأنها أرض بريطانية وفي الفصل الرابع عشر الذي يلي هذا الفصل مباشرة يقول عن عدن بأنها « عين اليمن » ، وفي الفصل الثاني يقول : « اتصالنا المبكر باليمن بلغ الدرجة القصوى بالاستيلاء على عدن عام ١٨٣٩ » . نعم انها بريطانيا المتنكرة للعرب والمغتصبة لأرض العرب والعابثة بديارهم وصاحبة وعد بلفور وصانعة اسرائيل والوفية معها بكل الوعود والعهود ، ولكنها من الناحية الأخرى بريطانيا الناكثة للعهد والوعد مع العرب ، فبعد أن وعدتهم بالاستقلال ليقاتلوا معها في الحرب العالمية الأولى وبعد أن أغرتهم بالوحدة للاستعانة بهم على هزيمة تركيا خذلتهم بعد كل ذلك بل وخانتهم . فاحتلت ديارهم وحققت أطماعها من النصر في تلك الحرب . وهذا هو واحد من ساساتها يتابع هنا رسالة قومه .

(المترجم)

المقترح ، ولم يكن المقصود به غير توسيع النفوذ الادريسي فقط في مناطق أخرى جديدة ، ولكن ليس من المناسب الى حد كبير تشجيع الشخص الذي تكون له ميول منجذبة نحو المذهب السنوسي . ولقد دافع سيد ذو نفوذ يقيم عبر الحدود عن قيام اتحاد أو تحالف متين مع الامام الذي قال عنه بأنه سوف ينهض بعد الحرب كأقوى رجل في اليمن ، اذ تصور هذا السيد بأن أي شخص آخر لن يتطاول على السلطة أو يدعي مثل تلك القوة . وصرح نبيل عدني بأنه لا يوجد بعد ذهاب الأتراك أي حاكم عربي واحد يكون قادراً على حكم البلاد بسبب الآراء المنقسمة . ثم قال انه من الممكن للبريطانيين دخول اليمن اذا ما وُجدت سياسة حكيمة « وبأن شخصاً يظهر بقوة كافية ، أو يطل بمواهب الهية سوف ينحني له الجميع عند ذلك مذعنين » . ومستشاري هذا كان من أتباع المذهب الاسماعيلي ، وكانت له وجهة نظر خاصة عن مرشح خاص به كان يضمره في قرارة نفسه ، ولقد كتب كلمات مبهمة المعنى والمغزى عن ذلك المرشح وهي « امام الحق يا دهور » ثم شرح فيما بعد ذلك اللغز الذي ترمز اليه هذه الحروف ، وفسّر ما تنطوي عليه من قيمة عددية متضمنة للعام الهجري المحتمل لظهور بطله المرتقب فيه . انه عام ١٣٣٦ هجرية[1] أي حينما يظهر شخص واحد يثبت بالدليل ادعاءاته الشخصية وهكذا . . . وكان الرجل حريصاً على إبعاد الادريسي الذي قال عنه بأنه سوف يختفي ويتوارى بعيداً ، أو قد يسقط في وقت قريب جداً قبل أن تتحقق تلك العلامة ! وأما ذلك البطل الأسطوري فانه سيكون على وشك الظهور فيما بعد !!

ولقد ظهر القاضي عبد الرحمن بن علي الحرازي كبطل للمطالب التي ينادي بها سيف الاسلام السيد أحمد بن قاسم ابن عم الامام الحالي وهو الشخص الذي يحتل المرتبة الثانية بعده في مجالس الدولة وفي تصريف أمورها . وهذا القاضي الشافعي يريد خلع الامام يحيى ووضع أحمد بن قاسم في مكانه ، وعند ذلك يكون هذا الأخير سيد اليمن وسيسمح للزعماء الشوافع بادارة شؤونهم بأنفسهم . وهذا المنهاج له أهمية خاصة كدليل على اظهار العقيدة الموجودة عند الشوافع في التفوق الزيدي ، وكإظهار لحقيقة الركض الناعم والخفي والمتستر والسعي بهدوء من قبل بعض الأشخاص المرؤوسين من الشوافع للانزلاق أو الانخراط تحت قيادة أخرى . وهذا الموضوع هو الهدف الذي يدور حوله الجميع ، والسياسة القائمة من الأمور الراسخة عند امام صنعاء الحالي[2] . ومن الممكن توضيحها بأمثلة كثيرة يُستدل بها الآن بما هو موجود في

(١) ونحن الآن في العام الهجري ١٣٤٢ . (المؤلف)

(٢) حين صدور الكتاب عام ١٩٢٣ .

اليمن التي أفاقت من جديد ، أو استيقظت مرة أخرى .

كان الإمام يحيى في وضع حرج ومحصوراً من البحر بسبب مركز الادريسي في الحديدة منذ أن أصبح هذا الأخير موجوداً فيها . ولقد كتب الكثير حول معاهدة الفرسان[١] المبرمة في شهر يناير عام ١٩١٧ وعن تعهداتنا للادريسي ، والتزاماتنا بعد الحرب بمقتضى تلك المعاهدة . وبما انني قد ساهمت في اعداد هذه الاتفاقية في جيزان فلعله من المسموح به لي تفسير معناها اذ ليس صحيحاً على الاطلاق ما يتم ترديده حتى الغثيان عن التزامنا بتسليح الادريسي ضد الإمام . ومما لا ريب فيه ان الادريسي كان يرغب - بنوع خاص - في إدراج اسم كل من الامام والملك حسين في قائمة أولئك الذين يجب ابعادهم عن أملاكه بعد الحرب بمساعدتنا الفعّالة، ولكن السيد محمد كان يعرف جيداً بأن الاتفاقية على تلك الصورة وفي مثل هذه الحالة لن ترى نور النهار ، كما عرف تماماً بمغزى المعنى المقصود من المادة الرابعة : « تتعهد حكومة صاحب الجلالة بحماية تلك الجزر ، وحماية الشاطىء الادريسي من كل الأعمال العدائية والتعديات الخارجية، بدون أي تدخل من جانبها (لاحظ هذا الشرط) في شؤونه أو في استقلاله » ، انه يعرف ونحن نعرف وهو يعرف بأننا نعرف بأن التركي هو عدوه المنتظر ، وخصمه المأمول بعد الحرب ، ولذلك كان على الدوام كثير الاهتمام ، وشديد الحرص والقلق على عدم ازعاج الأتراك أو مضايقتهم بصورة جدية لأنه - بفضل انحيازنا فيما مضى الى جانبهم - قد تصور بأنه قد يكون من المحتمل أن نتركهم بكل سهولة ليحلوا محله في حكم اقليم عسير ، وبما انه الشخص الذي كان قد تزلّف الى القوة المسيحية ، وتذلّل للأمة النصرانية فانه سيكون على الدوام معرّضاً لوخز دبابيسهم . وكل من هذه المعاهدة ومن مذكرتها الايضاحية - ويجب قراءة الوثيقتين معاً - تشيران (تلميحاً ان لم يكن تصريحاً) الى عدوان تركي محتمل . ولأسباب واضحة وخصوصاً من أجل حماية الادريسي ووقايته لم يُذكر بالنص اسم معتد بعينه ، والادريسي يعرف بأن الملك العربي حسين كان حليفنا ، وبأننا كنا راغبين بالمثل في استدراج الامام الى شركنا ، وادخاله في شبكة صداقتنا . ولقد منعنا الادريسي من القيام بالهجوم على الامام ما لم يعلن الأخير تأييده للأتراك وهذا ما لم يفعله الإمام . ومن الممتع معرفته هنا ذكر النبوءة الادريسية عن مستقبل اليمن وعن عقيدة الادريسي في مجيء الدول الأوروبية الى شبه الجزيرة العربية ، وكيف انه كان من الواضح بأن حالة قيام الحكم العربي

---

(١) الفرسان مجموعة الجزر الواقعة في شرق البحر الأحمر بالقرب من ساحل عسير واسمها « جزر الفرسان » . (المترجم)

ليست هي التي كانت تقتضي مساعدتنا على الدوام ، فلقد تنبأ آنذاك بأن الأتراك - طيفه الزعج - سوف يتركون اليمن ، وبأن البريطانيين سوف يزحفون على صنعاء ويستولون عليها ويحتلون المناطق الواقعة خلفها ، وبأن الفرنسيين سوف يحتلون الحديدة مدة قصيرة ثم يسلمون بعد ذلك جميع المدن الساحلية والموانىء والمناطق المطلة على البحر الى هولندا (كذا) . ومع ذلك فانه سيكون الاحتفاظ بالحكم في جدة لشخص مسلم يكون مؤيداً للبريطانيين بينما تبقى مكة سليمة ومُصانة لا تُمس ومتمتعة بالحصانة الكاملة مثل ما كانت في الماضي .

فمن الواضح اذن عدم وجود أية ذريعة لنا من أجل اغراء الادريسي أو قيام حجة على تحريضه ضد الامام ولا حتى العمل على تأييده معنوياً أو مؤازرته أدبياً على مثل ذلك .

والإمام ينفرد من بين سائر الملوك العرب الآخرين وعبر تاريخ أسرته وماضي أسلافه بأنه كان العدو الوحيد التقليدي للأتراك . ونحن نرى ذلك ونشاهده منذ أيام هينس ثم ما تلاها والى حين ابرام معاهدة عام ١٩١١ مع تركيا التي كان المقصود منها الوقوف ضد ايطاليا الكافرة .

وفي عام ١٩١٥ اقترح الإمام على القيادة التركية في صنعاء التحرك منها بعيداً نحو الشاطىء طالما ان اقامتهم هنالك لم تعد مفيدة لهم . ويقول مُخبرنا التركي الياس بك بأن الامام أظهر استعداده لحمايتهم وللمحافظة على أسلحتهم وذخيرتهم مقابل انهاء العمليات الحربية . وهذا يعبر بوضوح عن كراهية الامام لاقامتهم ومقته لمُقامهم .

وفي أثناء الحرب كان الإمام يعمل بعزم على اعادة الأقاليم المنفصلة الى حكمه لا سيما وان عمل نوابه الذي مارسوه على حدودنا الشمالية الشرقية كان يؤدي الى ذلك . وكان شعاره كما تعبر عنه كلماته تطهير الأرض المقدسة من الكَفَرَة . وكلمة كَفَرَة لم تكن كما في أيام الرسول تشير فقط الى الخميرة النصرانية ولكنها تشتمل على معتقدات البعض القليل من الناس الشوافع العصاة والمتمردين . وكانت سياسته « تقريب أولئك البعيدين ، وتلطيف الأماكن الوعرة ، وتهدئة المناطق المضطربة » وللوصول الى منبع طبيعة الامام وأصلها يجب علينا أن نلقي نظرة شاملة على الحقائق الرئيسية والبارزة في حياته اذ كثيراً ما كانت توجد صورة خاطئة جداً عنه . يقول أميرسون Emerson « لا يكون الرجل قابلاً للشرح والتفسير بشيء أقل من تاريخه الكامل » . ولقد كنت أوصف بالشخص المؤيد لوجهة نظر الامام ، بينما كان لورانس يوصف بالمؤيد للحجاز ، وفلبي بالمؤيد لنجد . وهذان الرجلان لديهما القدرة للدفاع عن نفسيهما . وأما فيما يتعلق بي - أنا الشخص المتبنّي لعقد معاهدتين مع الادريسي - فانني أحب الرجل

ولكنني أعرف حدوده ، وأعرف بأن أهميته تقل ، وقيمته تتناقص كما هو الحال بالنسبة الى فيصل وعبد الله عندما تخطّيا معاً حدودهما الأصلية . وأنا في مثل هذه الحالة مع الامام يحيى أو في مثل موقفي معه متهم « بالتبشير لمصلحة قدّيسي » وبأن « ليست مرآته قادرة على أن تعكس الصورة كما هي ، وانما أنا الشخص الذي يجامله ويشبع غروره » وهلم جرّا . والواقع أن شخصية الإمام ليست هي التي أدافع عنها على الرغم من أن أي حاكم آخر من أسرته لم يُظهر خلال السنين الطويلة التي تعاقبت مقدرة كبيرة مثل مقدرته من أجل ادارة عادلة وقوية ، ولكنني أدافع عن منصبه ، وعن حقوقه في هذا المنصب ، وعن سلسلة نسبه الطويل .

وبكلمات أخرى هذا هو الثوب الذي تؤدى له التحية ويقدم اليه الاحترام . C'est la robe qu'on Salue والامام حريّ بالمثل الواضح والمفسر الذي تحكيه الحكمة السنسكريتية Sanskrit أو القول المأثور : «gajendra iva darpane» حيث ان سيد الأفيال الذي يبدو في الصورة قد يكون إمّا كبيراً أوصغيراً طبْقاً لحجم المرآة التي تعكسه ، فهو لذلك يكون متناسباً تماماً معها .وكل ذلك يعتمد على وجهة النظر ، وأنا أعرف بأنه من الأسهل للمرء أن يعمل على طول الخط الأقل مقاومة وثباتاً ليقول مثل ما قاله لي موظف في وزارة المستعمرات بأن الامام لم يساعدنا في الحرب ، وأما الادريسي فانه قد ساعدنا فيها ، وهكذا يكون واحد صديقنا ويكون الآخر عدونا . والمرآة الحقيقية قد يكون تصميمها كذلك وتركيبها بطريقة يمكن معها أن يبدو فيها حتى أبولو Apollo وكأنه عبارة عن صورة هزلية مضحكة . والمرء قد يخاطر ويسأل : هل يستطيع أي شيء جميل أن يبرز للعيان من داوننق استريت ؟

Can any good thing come out of Dawning Street?

ولا يزال الإمام يتطلع الى عقد معاهدة مع بريطانيا . والمعاهدة من وجهة نظرنا غير ضرورية مطلقاً كما انها باهظة التكاليف . وأما فيما يتعلق بمصالح الامام فان المعاهدة سوف تُغلّ يديه وتكبله عن العمل ، أو تضعف هدفه من الاستقلال . « ثلاث وأربع مرات هن ذوات السعادة والحظ وتلك هي التي تزرع الكرنب وتنبت الرخاء . Three and four times happy are those that plant cabbages» . والإمام يتوق الى السلام لاستعادة الرخاء والرفاهية في (اليمن السعيدة) كما يرغب في قيام علاقات تجارية . ولو لم يكن الادريسي موجوداً في مينائه الحديدة لكان حرّاً في جعل هذا الميناء التجاري مفتوحاً لجميع

المعاملات التجارية . والامام يطلب عقد المعاهدة معنا لأنه يريد زحزحة الدخيل ولأن معاهدتنا مع الادريسي قد أعطت هذا الأخير - كما يظن الإمام - الأفضلية عليه في المعاملة . ونحن نتحدث عن حاجتنا الى الانتداب على اليمن بعد الحرب . ونحن لا نتطلّب مثل هذا الانتداب وليست بنا حاجة اليه على الاطلاق وانما المطلوب ترك اليمن مفتوحة للتجارة . ولا ريب ان وجود مؤسسة تجارية خاصة للقيام بمهمة التسلل أو الدخول الى هذه البلاد سيكون أجدى وأجدر اذا ما كانت متحررة من الأغلال الرسمية ، وغير مقيدة « بالسلطة العليا » (وأنا أعود هنا الى عبارة هينس) ، وأن مشروعاً كهذا سوف يقدم الينا معشر البريطانيين كل شيء ، وسيمنحنا أكثر بكثير من أي شيء آخر تستطيع طبقة الموظفين الرسميين ان تؤمنه لنا ، أو تقوم بتحقيقه معاهدة من المعاهدات. والسيد أليس Mr. Ellis يكون على حق عندما يقول بأن التجارة حينما تصبح وظيفة اجتماعية فانها ستكف عن امتصاص أجود النشاط العالمي او حب المغامرة في العالم وسوف تصبح مجرد حركة ذاتية ميكانيكية فحسب .

وفي عدن مكث مبعوث الامام أكثر من عامين محاولاً عبثاً ابرام معاهدة ، ولقد فشل تماماً وبكل بساطة لأن الامام كان يريد الحديدة . ونحن لم نكن ندري ولا نعرف كيف نبدأ من أجل الحصول عليها أو استرجاعها من الحيازة الادريسية غير الشرعية اذ كان الادريسي قد استولى على هذا الميناء بطريقة غير قانونية .

وكتب الإمام الى مندوبه كما يلي : « اذا تمكنت من العمل على اعادة فتح الطرق التجارية، وعلى التخلص من الادريسي (والأمران ملتحمان لا انفصام بينهما) فهذا شيء جميل ، وعمل جليل ، وان لم تتمكن فلتعد الى صنعاء » .

وكانت تلك هي المشكلة المحيرة ، والنقطة الأساسية في الموضوع وقد وضعت بايجاز كلي . لماذا كل تلك المناقشة الطويلة غير المفيدة والمحاورة غير المجدية ، وضياع الوقت ، وارهاق الصبر العربي ، وانهاك التأني ؟ ونحن ما نزال حتى الوقت الحاضر في طليعة القوم المُفَضّلين، ومع ذلك فان الامام يشترط شرطاً أساسياً عند اقتراحه بعقد معاهدة من المعاهدات كما هو الحال في عام ١٩١٧ وحتى الآن اذ توجد جملة شرطية تقضي بمنع جميع الحكومات الأجنبية من دخول اليمن أو الاقتراب منها . ويطالب هذا الشرط كذلك بعدم دخول أي تاجر أجنبي ولو لمجرّد الرغبة في الزيارة ما لم يتم الحصول على موافقة خاصة من الامام بل ومسبقة .

ولم يستطع الامام يحيى أن يفهم الفتور في شعورنا نحوه أو أن يدرك عدم مبالاتنا التي تبدو وكأنها استياء مستور وحنق خفي والا لماذا سأل هذا السؤال بعد أن رجعت البعثة الى الحديدة في شهر نوفمبر عام ١٩١٩ : لماذا لم تستأنف المحادثات كما كان الوعد بذلك سابقاً ؟ ولقد كتب رسالة الى عدن فيها احتجاج رقيق ، وعتاب معتدل ، واستشهد بهذين المقطعين التاليين من الشعر للدلالة على ألاعيب الادريسي وحيله المدعّمة بنا أو المؤَيَّدة بوجهة نظرنا :

ومن يربط الكلب العضوض ببابه يُلامُ اذا ما القوم أدمت بنابه

ومعناه ان الشخص الذي يربط عند بابه كلباً مسعوراً أو مجنوناً يقع اللوم عليه اذا ما نهش ذلك الكلب قوماً أو عضهم بأنيابه . وللحكم على الادريسي من هذه الزاوية بعد إلقاء نظرة على وضعه وعلى حالته منذ أن استولى على الحديدة نجد بأن القوم هنالك قد لدغوا به فعلاً وبعنف ، وقد لحق بهم العض بقسوة حتى الآن ! ولم يكن الادريسي هو الذي تصرف كذلك بنفسه وانما موظفوه وحدهم هم الذين هدّدوا السكان ، واستبدوا بهم ، وأصبحت الضرائب المفروضة على الواردات مجحفة الى درجة ان الكثيرين من التجار قد هجروا الحديدة ، ورحلوا عنها الى عدن . وألقي القبض على بعض التجار وعلى زعمائهم وأودعوا السجن في ميدي ، وهكذا يعيد التاريخ من جديد أيام الشريف حسين صاحب أبي عريش كما هو مفصل في الفصل الثالث[1] وأما عن السيد عبد القادر الأهدل زعيم طائفة سادة المراوعة فقد جرده الادريسي من زعامته الاسمية على الحديدة وكذلك على المناطق المجاورة ، وهذه الزعامة هي التي كانت قد مُنِحَت له طبقاً لشروط التسوية الوقتية المنصوص عليها في الاتفاقية التي أبرمتها قبل ترك باجل ، ولذلك حرّض هذا السيد رجال قبيلة الزرانيق المتذمرين والذين كانوا يترصدون للبضائع الادريسية وللأسلحة التي كانت تأتي من عدن الى جيزان . ولقد أخبرني التجار العدنيون فيما بعد ـ وهم الذين تتفق عقيدتهم الدينية (من حيث المذهب) مع العقيدة عند الادريسي ـ بأنهم يفضلون مجيء الامام الزيدي لأن حكمه عادل ، والتجارة في ظله سوف تنمو وتزدهر ، ولأن الطرق التجارية قد باتت مأمونة الآن في عهده بعد أن تبوأ مكانه .

---

(١) راجع الجزء الأول (المترجم)

يقول الرحالة بروس Bruce الذي زار اليمن في عام ١٧٦٩ ميلادية عن عهد ذلك الامام الذي كان موجوداً آنئذٍ بأن حكومته كانت مستقيمة وكانت أكثر عدلاً وأمناً واعتدالاً من أية حكومة اسلامية أخرى سواء في شبه الجزيرة العربية أو في افريقيا . ثم يعطي بروس صورة مشرقة بهيجة وسارة عن الناس الذين يعد سلوكهم من أنبل السلوك ، وعاداتهم وطريقة حياتهم من ألطف الطرق وأجمل العادات ، وقال ان الرجال هناك يمارسون التجارة من أقدم العصور ؛ ونساء اللُّحيّة مهمومات ، وشديدات التدقيق في الحب وفي الاسترضاء ، وفي ادخال السرور على الرجال مثل بقية النسوة في الأمم الأوروبية الأكثر تثقيفاً وتهذيباً ، وحضارة ، وسواء كنّ متزوجات أم غير متزوجات - وحتى لو كنّ متقاعدات أو طاعنات في السنّ - كما انهن «لسن أقل اهتماماً بملابسهنّ، وبخصائصهنّ ، أو مظهرهنّ ، ولا أقل عناية بأزواجهنّ » .

ولقد استشهد أحد العدنيين عن الحكم الادريسي بالبيتين التاليين :

وابتلينا بأمير ظلم الناس وكبّر
فهو كالجزار فينا يذكر الله وينحر

لكن شطرين آخرين من الشعر قابلان للاستشهاد من قِبَل الامام ، والحكومة البريطانية تكون في موقف الشخص المتكلم لأن البريطانيين هم الأشخاص الذين يداعبون عشيقتهم «ليلى الادريسية » ، ويتغازلون معها :

جُنَّنا بليلى وهي جُنّت بغيرنا وأخرى (الامام) بنا مجنونة لا نريدها

وكتب الطبيب الهندي الذي كان مرتبطاً بالادريسي ويقوم بوظيفة ضابط اتصال سياسي وممثل لبريطانيا لدى هذا الحاكم عن التوسع الادريسي في المنطقة الممتدة من تهامة الى جبل ريمة ، وهذا يكذب اقرار الأخير وتصريحه في المحافظة على البقاء في منطقته الطبيعية على نحو تام ودقيق . ويجدر بي تذكير هذا الموظف الهندي بأن الادريسي قد اعتدى على حرمة أراضي غيره في تهامة اليمن بكل ما في هذه الكلمة من معنى وبأن موطنه الحقيقي يقع في البلاد

المنخفضة من عسير وهي التي تكون الى جهة الشمال . ولقد قال السيد مصطفى قريب الادريسي والمستخدم الذي يؤدي له مختلف المهام وهو يشير الى طموح سيده بأن الادريسي سوف لا يتجاوز اللحية ، ولن يصل الى ما هو أبعد من جنوب هذا الميناء ، الذي استولت عليه بحريتنا من أيدي الأتراك ثم أعطته للادريسي ولكن القوات الادريسية فقدته بعد ذلك بسرعة ولم تعد الى احتلاله الا بعد استسلام الأتراك في عام ١٩١٨ فقط .

وبعد اعلان الهدنة عملنا ضجة كبيرة لأن الامام كتب الى قناصل الحلفاء المختلفين والموجودين في عدن ملفتاً انتباههم الى مطالبه . وأنا لم أجد شيئاً وخيماً أو مشؤوماً في ذلك على الرغم من ان اتهاماً كهذا أو بهذه الطريقة لم يكن ضرورياً من وجهة نظرنا لأننا لم نكن جميعاً شيئاً واحداً ولم نرحب بالاستسلام التركي بالنيابة عن حلفائنا ! ولم يحمل اليّ عمل الامام أية شبهة عن وجود مكيدة لأننا نعرف مشاعره نحونا. ولقد ذكرت سابقاً اقتراحاته في عام ١٩١٧ من أجل عقد معاهدة .وعندما نـاشدنا الامام بعد الهدنة في أن يؤكد على ضرورة تسليم الأتراك الموجودين في صنعاء الينا أجاب بأنه لم يجد في برقيتنا شيئاً مما كان يتوقعه . وكنا قد تحدثنا عن استسلام الأتراك وقلنا له بأن موضوع مستقبل اليمن سوف تكون مناقشته بعد ذلك ، ولكنه رغب في أن يعرف أولاً وقبل كل شيء قرار الحكومات الحليفة ، وتأكيد الحكومة العثمانية على وجوب عودة السيادة في اليمن الى يديه مثلما كانت عليه في الماضي . وموقف الامام يحيى هذا يُظهر ايمانه في اتحاد الحلفاء . والأشخاص الذين يكونون مبعوثين أو يمثلون دولة لدى دولة أخرى يكونون محل تقدير كبير ، ويتمتعون بالحصانة والاحترام الى أبعد الحدود وحتى في شبه الجزيرة العربية . والمثل يقول : « الرسول كمرسله » ، أي أن الوكيل ينال تكريماً مساوياً للأصيل .

ولقد اعتلى الآن[1] عرش صبيا ادريسي جديد . وهو ما زال شاباً صغيراً ، واذا ما دنا من الامام وتودد اليه ـ بقطع النظر عن جميع الأشخاص الآخرين ـ فان نوعاً من التقارب ممكن الحدوث . ومع ذلك فاننا لم نبن آمالاً على قيام اتحاد كهذا في أثناء الحرب . وكل الذي أمّلناه

---

(١) أي في عام ١٩٢٣ (المترجم)

هو عبارة عن استمالة كل واحد في منطقته ، واقناعه على العمل ضمن دائرة محيطه . وسياستنا اليوم تبدو وكأنها متجهة الى الاحتفاظ بهم منفصلين ، والإبقاء عليهم منقسمين ! والادريسي له الآن مطالب في شمال البلاد متعارضة مع مطالب الملك حسين . وليس من الضروري ان تزيد علاقاته مع الامام مرارة صوب الجنوب. ولا ريب ان المعرفة بتاريخ اليمن لم تكن هي التي تفرض سياستنا الحاضرة .

ولسوف يقال بأن الامام نفسه قد أثبت العداوة ، وبرهن عليها بالعمل العدائي عندما عبر نوابه حدودنا القديمة ، ووصلوا الى الضالع . والحال انه انما فعل مثل ذلك بعدما لمَح تغيراً في سياستنا نحوه عندما كانت بعثتي في باجل ، ورأى رأي العين التعدي اليومي من جانب الادريسي على حدوده . فكان الألم يحز في نفسه ، وكان في حيرة حول اكتشاف مرامينا ، ومرتبكا في التكهن بما عندنا . وأنا لا أدافع عن عمله في الضالع ، ولكن من السهل معرفة البواعث المحركة التي دفعته الى ذلك . ولا شك ان اهمالنا للمناطق الداخلية من البلاد منذ عام ١٩٠٧ ، وكذلك الدسائس المستمرة من قبل الأمير نصر مع الأتراك أولاً ثم مع الامام بعد ذلك قد أيدت عقيدة الأخير بأننا قد تعبنا من التزاماتنا بالحدود ومن ارتباطنا بها فكانت الطريق بالنسبة اليه مفتوحة للهجوم والانقضاض على المناطق المنسلخة التي كانت تتصل تاريخيا ببلاده وتكوّن معها وحدة سياسية في هذه المنطقة من الأرض . وتلك العوامل قد حفّزت سياسته التوسعية وشجعته على الزحف الى تلك الربوع ، ولذلك فانني أقول بأنه اذا كانت لنا رغبة في المصادقة الكاملة على رسالتنا المبشرة بعدم التدخل في شؤون المناطق النائية والداخلية (ولاوتسو يسمي هذا بعدم التدخل الذكي) فانه يتحتم علينا ترك تلك المناطق المزعجة لتدخل بهدوء وسلام وسكينة تحت حكم الامام ، ويكون الفضل للأمير نصر الذي مدّنا بالحجة وزودنا بالعذر المبرر لنقض معاهدتنا معه ، وهذا رد يتناسب مع أساليب الأمير نصر ، كما انه على المدى البعيد يُعد أحسن عمل يُتخذ نحوه لتركه ينزلق بعيداً عن اشرافنا ، ويتحول تدريجياً عن سيطرتنا . ولو اننا رجعنا الى الوراء لشاهدنا تلك الأيام الماضية ، والعهود المزدهرة التي كان فيها حكم الامام في القديم سائداً ومسيطراً على كل المناطق بعد أن انفرد بأموره في عام ١٦٣٠ وبات مستقلاً وغير مكبل بالأتراك ، ولهذا فان اليمن سوف ينجح ويزدهر مرة أخرى تحت حكم رجل واحد قوي . كما ان يمناً يكون موحداً على هذا المنوال سوف ينظر الينا نظرة مملوءة

بالثقة ، ونحن لا نستطيع التعامل مع حشد من الطوائف المتنافرة على حدودنا بينما ينظر الينا الامام شزراً ونحن في هذا المكان الضيّق عبر خط محرج حتى ولو افترضنا بأنه ليس من المحتمل بالنسبة اليه أن يردد صدى كلمات الشاعر :

أضاعوني وأيّ فتىً أضاعوا !
ليوم كريهة وسداد ثغر .

* * *

والآن نستعرض بكلمات قليلة سياستنا في اليمن منذ عام ١٨٣٩ . لم تكن توجد هنالك سياسة ثابتة ومحددة . وكل المندوبين الساميين والمقيمين السياسيين المتعددين كانت توجد لديهم وجهات نظر متشعبة ومتعددة عن طرق وأساليب معاملة عرب المناطق الداخلية من البلاد . ولعل المبدأ الرئيسي العام كان عبارة عن الحد الأدنى من التدخل . وهذه هي السياسة الصحيحة التي ينبغي السير عليها اليوم بعد رحيل الأتراك . ويجب علينا الابتعاد عن مهمة انكلزة اليمن ، أي عن حمله على أن يكون انكليزي الشكل والصفة ، وحتى اشرافنا فانه يكون ثقيل الوطأة ، ويتعارض مع المطلب العربي بالاستقلال ، اذ يكون تدخلنا « شبيهاً بالمزيج المعدني الذي يكون مخلوطاً بالذهب والفضة فهو قد يجعل المعدن غير الجيّد الممزوج بالمعدن الثمين يعمل بصورة أفضل ولكنه يفسده ويربكه » .

ان هينس كانت لديه آراؤه الخاصة . ولقد أشرت في الفصل الخامس الى ما يسمى كذلك بنظام القضاء حيث يكون الكثيرون محكومين بالقليلين . وكان هينس قد نُقل من عدن في شهر مارس عام ١٨٥٤ (راجع الفصل الثالث) ومن سجنه في بومباي كتب يقول بأن نقله الفجائي قد « منعه من حث القبائل على الوئام ، ومن استمالتهم الى سلام دائم » وكانت سياسته تقضي بالعمل على اقناع صغار المشائخ بالعودة الى ولائهم الوراثي لسلطان لحج لأن ذلك الدلال ، أو تلك المجاملات نحو أولئك الأشخاص الآخرين قد أثارت سيدهم المتمتع بحق الولاء الاقطاعي وأغضبته ، كما كانت ضارة بالتجارة كذلك ومؤذية لها . وليس هنالك أحد تمكن أن يكون في إيمانه أقوى من هينس بالدور الذي تلعبه عين اليمن نحو التجارة !

ومن اللباقة والمجاملة ترك ذلك الرجل المتوفى ليتحدث وكأنه ما زال يردد كلماته الآن : « في رأيي ان كثرة المراسلات المتبادلة مع العربي تكون غير ملائمة لمصالح المرء بل ومنتقصة من

البلاد . انها تثير المناقشات ، وتطيل المجادلات ، وسوف تبرهن في النهاية على انها غير مفيدة ». ولقد فضّل هينس أن تكون جميع الاتصالات في الأغلب مع المناطق الداخلية من البلاد مرتبطة باللسان ، أو بالمحادثات الشفهية ولو انه قد ترك قدراً قليلاً من المذكرات لخلفائه من بعده . وتلك من حيث القيمة تكون مساوية لتجربة العقيد هونتر Colonel Hunter الذي كانت نصائحه معي عند بداية أول مغامرة لي في عدن عام ١٨٩٧ تقضي بأن يكون العمل نصف المذكرات الرسمية قدر الامكان أو عند أقصى حدود الاستطاعة على الرغم من أنّ المقالات الطويلة والمذكرات الرسمية المرفوعة الى الحكومة سوف تجلب أكبر مجد وأعظم شهرة! ولقد وجد هينس بالتجربة أن رسائله وخطاباته كانت تُحرّف وتتعرض للتأويل ، ويساء تفسيرها عن طريق أولئك الذين كانت لهم أهداف شخصية يريدون تحقيقها . وفي أيامي كانت رسائل الامام يحيى تتعرض للعبث كذلك وتُفسَّر تفسيراً مشوهاً وسيئاً عن طريق العرب الذين كانت لهم مصلحة في تأييد أهدافهم الخاصة ، ومآربهم الخفية . وهينس يستمر في حديثه قائلاً « ان الكثير سوف يتم فعله ويتحقق حدوثه بالمداولات الشخصية والمحادثات المباشرة التي تحصل في قليل من الساعات (ولو ان العربي يحتاج الى ساعات كثيرة) وهذا يكون أفضل من مراسلة شهر ، كما ان الاحترام والتقدير ، والتودد ، والملاطفة في الجزيرة العربية هي الأمور التي تحقق أيضاً ما هو أكثر من ذلك بكثير ،وتفعل أكثر مما تفعله حتى حراب البنادق » . وشيشرون[1] Cicero هو الذي كتب قائلاً « لا شيء يكون محبوباً بين الناس كالطيبة ، ولا شيء يرتاحون اليه كالأخلاق الحميدة والمعاملة الحسنة bontias » ولقد أشار هينس الى أن خلفه قد قام بمباشرة تطبيق نظام مختلف تماماً ومغاير ، وانه بذلك قد خالفه وهو الشخص الذي كان قد ألقى على عاتقه مسؤولية كبرى وأساسية في تأمين الطرق التجارية ، والمحافظة على سلامتها . ولقد عبر الشخص الآخر عن مشاعره كرجل انكليزي بقوله ان العـدل ، والمساواة ، والوئام ، وشعور الود ينبغي أن تكون سائدة ومرئية للجميع .

« انني أتفق مع العميد س . Brigadier C. لو كان لديه أوروبيون يتعامل معهم . ولكن لديه العرب وهم الذين يكون حكمهم والسيطرة عليهم أكثر صعوبة وقد أُضيف الى ذلك القول بأن الأمر يبدو كأنه مستحيل تقريباً كما اكتشف الأتراك ذلك في كل من الحجاز واليمن بعد حوالى خمسين سنة من التجربة والتكاليف الباهظة . وان تنفيذ آرائه القائلة بأن

---

(١) سيسرو Cicero أو شيشرون هو ماركوس طوليوس Marcus Tullius (١٠٦ ـ ٤٣ ق . م) . كان أعظم الخطباء والفلاسفة الرومان ، وكان من أكبر كتابهم ومشاهير سياسييهم .

(المترجم)

مهمة الوكيل السياسي قد ابتدأت بتبادل المراسلات [« غير صحيح » . ا . س] وبالعمل على تنفيذ مثل ذلك التغيير ـ الذي سيختبره الوقت ويقول فيه كلمته ـ سوف يثبت بعد الاختبار بأنه مضر ، وسوف يفضي فقط الى توريط الانكليز مع القبائل . ونظراً الى محاولة الدخول في اتفاقيات مع الفضلي مباشرة فان نار السخط والغيرة سوف تشتعل في صدر لحج وهكذا نضع أنفسنا بين نارين . وان تبنّي السلوك المؤدي الى اخماد واحد سوف يشعل اللهب ويثير سخط الرجل الآخر تاركاً وراءه أسباب النزاع ، ودوافعه كما كانت في السابق بدون أية فرصة ملائمة للحصول على سلام دائم ، وأفكارنا الأوروبية عن العدالة ، وعن الأساليب السياسية سوف لا تكون مفهومة لدى العرب » .

« لقد علمتني التجربة مع العرب (أكثر من ثلاثين عاماً) بأنه يجب هزيمتهم بأسلحتهم الخاصة . والعمل بهدوء على جعلهم يدركون بأنكم قوم تفهمون نواياهم قبل أن يكونوا مستعدين لتنفيذها ، وعلى تركهم يشعرون بأنكم متفوقون عليهم ، أو أكثر منهم في البراعة ، والذكاء ، وفي ملكة التمييز وتقدير الأمور ، وسلامة القصد ، والاستقامة في الهدف ، وبأن أفكارهم المبهمة ، وأسرارهم الخفية معروفة لكم ، وبأن معرفتكم بها ثابتة ومؤكدة ، ومكتومة وصحيحة ، وبأنكم مستعدون لإحباط خططهم وانكم قد أعددتم العدة لكبح نواياهم ، وصد أغراضهم ، فان وجود هذه الأمور مجتمعة مع الصراحة والوضوح ، والتصميم والثبات سوف تؤمن للرجل الانكليزي هدفه ، وتجعله يتمتع بقوة أدبية عليهم ، ويكون بينهم رجلاً محترماً ومهاباً ، وبعد ذلك سوف لا يهبونه الا القليل من العناء اذ يكون ازعاجهم له زهيداً » .

ومهما قد يكون اختلاف البعض مع هينس كبيراً فانه من الواضح بأن بوقه يعطي صوتاً لا لبس فيه ولا غموض :

« لو مكثت في الحكم شهراً آخر لاستطعت من خلال نفوذ السلطان علي صاحب لحج ، وعن طريق سلطته ثم بواسطة المال كما أعتقد أن أقوم بتأمين وجود سلام دائم . وأما عن التعامل مع الزعيم الفضلي مباشرة فان هذا السلوك سوف يجعل ذلك الزعيم يعتقد بغباوة بانه قادر على املاء شروطه ، لأن الكبرياء وروح الاستقلال ، والاعتداد بالنفس أمور مفرطة عنده وتتجاوز الحدود لديه كما اعلم ذلك عنه لمعرفتي بغروره وباعتزازه بنفسه . ولم أكن مندهشاً من قبل حيث ظل يكتب طويلاً وبغطرسة ووقاحة ، وبطريقة مهينة طالباً مبلغاً من المال أو راتباً يكون كبيراً ومجزياً . ان الفضلي ثعبان في العشب ، وسوف يلدغ كلما سنحت له الفرصة .

ولكن معرفته على أية حال مرغوبة ، وهو كأقليمه غير متصل مباشرة بحدودنا . ومن الأفضل أن يكون التعامل معه عن طريق جماعة لحج الذين يستطيعون أن يراقبوا كل خطوة من خطواته لأنهم عرب مثله ، وجيران له ، وقد عرفوا خلقه ، وخبروا شخصيته وسجاياه منذ الطفولة » .

ان هذا هو نظام القضاء مجسداً ، ومشخصاً . وكان المجلس الحاكم أو مجلس المديرين The Court of Directors الذي بعث الى عدن في عام ١٨٥٤ بالعسكري الهندي الممتاز ، والضابط المعروف العقيد جيمس أوترام Colonel James Outram يعبر عن ملاحظاته كما يلي : « اننا لا نرغب في توحيد السلطتين المدنية والعسكرية في شخص الكولونيل أوترام اذا ما افضى الأمر بأية وسيلة الى تغيير السياسة في علاقاتنا مع الزعماء العرب . ونحن نعتقد بأن حسن الفهم المتبادل قد يكون أفضل دليل يمكن اثباته عن طريق المجاملات الودية ، والامتناع بدقة عن كل تدخل في منازعاتهم ، والرفض بحزم لمنصب الحَكم ما عدا الظروف النادرة جداً أو تحت اعتبارات خاصة . ان أية سياسة أخرى قد تؤدي الى سوء فهم حول أهدافنا البعيدة ، وتسبب ارتباكاً كبيراً ، وتشويشاً كثيراً » .

* * *

ان الأزمنة الجديدة والظروف المتجددة قد تحتاج الى تدابير واجراءات جديدة ، أو تتطلب مزيداً من الخطط المستحدثة . وعندما تحركنا الى داخل البلاد ، وسرنا في اتجاه المرتفعات خلال عهدي كمعتمد سياسي في المناطق الداخلية من البلاد ؛ أو النائية عن الساحل من عام ١٩٠٤ ـ ١٩٠٧ وجدنا بأن ذلك المنهاج قد بات قديماً وبأنه قد فات أوانه وبطل استعماله . ولقد صعدنا الى تلك الربوع لكي نقدم النصائح الى العرب ، ولنشير عليهم في اتخاذ الطرق اللائقة والحسنة في علاقاتهم مع جيرانهم الأتراك . وكان هذا عبارة عن خميرة الفكر البريطاني لتخمير الأمزجة والطبائع العربية . ولقد تصرفنا بدقة متناهية ، وعلى صورة كاملة عن طريق العرب وبواسطتهم بدون استثناء . كما نبذنا نظام القضاء لأنه كان يبدو مغايراً للسجية العربية ، ومخالفاً للنص القرآني (السورة ٤٩ آية ١٣) ولقد شغلنا دور الحكم والوسيط ، وفي النهاية نجحنا عن طريق الأخذ بذلك عندما نشبت الحرب الكبرى . ولقد أصبح العرب ـ على الرغم من تركنا لهم ومن النزوح عنهم ـ متشبعين بالمبادىء البريطانية التي نمقوها ووشوها بأسلوب عربي تنكري .

لكن يتحتّم أن تكون للعميد س .Brigadier C أفكاره في العمل لإظهار البراعة .

ولقد كان تعيينه في عدن مؤقتاً لسد الفراغ وشغل الكرسي الشاغر في الفترة ما بين رحيل هينس ومجيء أوترام . ولقد كتب الى الحكومة طالبا أن يسمح له في القيام بالأمر بعنف وفي تنفيذه بصرامة « وبدون تحيّز لقاعدة عدم التدخل في سياسة الأمم الأخرى سواء في البحر أم في البر » ، « وأنا أفضّل » هكذا كتب يقول « بأن تترك جميع القبائل في عراك مع نفسها لحسم منازعاتها الخاصة بها ، ولمقاتلة الخصوم من جماعاتها ، وترك الأسواق مفتوحة للمنافسة الحرة ، وتكون جميع السلع والمنتجات ، مطروحة في الأسواق طبقاً لقانون العرض والطلب ، وان كانت الثروة والاجتهاد والمثابرة عند العبادلة سوف تكسبهم بروزاً وشهرة على الكثيرين من جيرانهم الذين يشبهونهم في العراك والخصام ، ولكنهم أقل منهم كدّاً ونشاطاً ومثابرة ، وبالتالي فان الأولين سوف يتعرضون لخسائر طفيفة أو قد لا يتعرضون لشيء من ذلك في مضمار سبات المنافسة بينما سيجد الأخيرون انفسهم وقد استفادوا الى درجة كبيرة من نظام عدم التدخل في شؤون الأمم الأخرى ، وبذلك يبتعدون بالتدريج من عادات السلب والنهب ثم ينفصمون عنها ويتحولون الى عادات أكثر نفعاً في الحياة وأمناً وسلاماً وفائدةً . ونحن بعد خمس عشرة سنة من الاحتلال البريطاني ما نزال نجد أنفسنا في حالة من الحيرة المستمرة وعدم اليقين كما هو الحال بالنسبة الى تجهيزاتنا والى موادنا السلعية » .

كثير من الرجال وكثير من الأفكار ، ورجال عظام وأفكار عظيمة Qt ot homines ot sententiae وأنا أفضل سياسة هينس في ذلك الوقت لأنني أعرف أي نوع من الأطفال يكون العرب . انهم يحتاجون الى قيادة قوية قبل أن يتمكنوا من النمو والتطور بأساليبهم الخاصة . ولقد كان منصب الحكم أو الوسيط في تلك الأيام المبكرة من احتلالنا لعدن أمراً ضرورياً وحاجة ملحة . واذا ما استطاعت سياسة الآخرين أن تنجح دائماً فانها كانت نتيجة لتدريب هينس ولتوجيهاته فقط ، فهي التي جعلتهم يعتمدون على أنفسهم ويقفون على أرجلهم . ومع ذلك فانني لا أدافع هنا عن نظام القضاء من حيث الأفضلية ومن أجل رجل واحد وانما أريد اسداء الجميل الى الجميع وتقديمه اليهم بالتساوي واعطاء كل ذي فضل فضله .

واليوم هو يوم الحَكَم المفقود ، والوسيط المتغيّب . كما ان منصب جاليو Gallio أو دوره غير مفهوم لدى الناس العرب .

ومن المفيد تدوينه ، والممتع ذكره والتعريف به هو أنَّ احداث منصب المندوب السامي أو المقيم السياسي قد حصل بقدوم أوترام الى عدن ليقوم بالاضطلاع في ادارة أمرين مزدوجين ،

وليسوس الوظائف المدنية والعسكرية في آن واحد . وفي الفترة ما بين عام ١٨٦٤ وعام ١٨٦٧ كانت الوظائف منفصلة مرة أخرى ولكنه أعيد توحيدها بعد ذلك بوقت قصير بناءً على أساس اقتصادي .

وفي أثناء الفصل بين السلطتين (المدنية والعسكرية) حدثت الحادثة التالية :

بات القائد العسكري ذات ليلة ساهراً ومؤرقاً ومحروماً من متعة النوم . وكان السبب في هذه المأساة ان حماراً كئيباً بات ينهق نهيقاً عالياً ومتواصلاً طوال الليل . وعند طلوع النهار وفي عنفوان الغضب كتب القائد المكلوم ، والضابط الحزين رسالة احتجاج الى المقيم السياسي طالباً منه ازاحة الحمار المذنب عن المخيم العسكري . ولقد جاء الرد على الرسالة بسرعة ولكنه لم يكن رداً مهدّئاً ولا ملطّفاً اذ ورد فيه : « لقد قمت بتحريات دقيقة ، وأجريت التحقيق اللازم ، حول الألم الذي قاسيتموه ، والكرب الذي حلّ بكم ، وأنا أتعاطف تماماً مع محنتكم ، واعطف بكل ما في هذه الكلمة من معنى على أرقكم وسهركم وانزعاجكم . ولكن لاحظوا بعناية ورفق الى انه قد ثبت بأن المتهم حمار عسكري ! » ومن حق المرء أن يرثي ويأسى لأنصار المذهب الحربي ، ويشفق على الروح العسكرية بل ويعطف على الرجل العسكري لأن ﴿أنكر الأصوات صوت الحمير﴾ (قرآن كريم الآية ١٨ من السورة ٣١) .

ولقد كان جواب الموظف المدني رداً لطيفاً وحاسماً . وللمقارنة سوف أقابل بين هذه الحادثة وبين حادثة أخرى . وبعد سرد هذه القصة أختتم الموضوع وأُنهيه :

عندما كنت سجيناً سياسياً في باجل عام **١٩١٩** جاء الى هنالك الباشا التركي الذي كان يُمنّي نفسه ويعلّلها باطلاق سراحي . وكان الرجل قد أصبح عندئذ مجرداً ومعزولاً عن مرافقيه العسكريين المتعارف عليهم عادة . ولم يعد هو الحاكم العام الفعلي على اليمن . ومما هو جدير بالذكر والتنويه انه من الأفضل للمرء الذي يتعامل مع العرب أن يجعل تحليه بالسلطة قليلاً ، والسبب في ذلك أن العربي يكون في قرارة نفسه ، وفي أعماقه وداخلية قلبه رجلاً ديمقراطياً بالفعل أو ان شئت فقل انه رجل اشتراكي ! وكانت تنقص الباشا ملابسه الرسمية فقط اذ كان يرتدي ما هو شبيه بملابس الفيلسوف أو ثياب الفلسفة . قال كارليل Carlyle « المجتمع قائم على الثياب ومشيداً باللباس » .

ففي احدى الليالي آوى الباشا الى فراشه مستلقياً لنوم غير مريح حيث كانت تلك الليلة

طويلة وممّلة والسبب في ذلك ان المكان الذي وقع الاختيار عليه ليكون مضجعاً للحمار كان قريباً من الطبل العربي فبات ذلك الحمار مأخوذاً به أو مطروباً بدقاته اذ صار يلعب لعبة جميلة ، فبالاضافة الى دقات الطبل كان نهيق الحمار يعقبه فوراً بالتتابع ثم تتكرر العملية المدوية على التوالي ، ولقد حذا ذلك بالباشا الى أن يبعث برسالة الى سُمّار الليل المطروبين يطلب فيها منهم ايقاف الغناء ، ولكن الموسيقى استمرّت رغم ذلك . وبعدئذ أرسل الباشا مرافقه أ. د. س. ممنّياً نفسه بقوله « انه من المؤكد بأنهم سوف يحترمون مبعوثي ويذعنون » . ولكن السيدة العجوز صاحبة الاحتفال ضحكت ضحكة خافتة فيما بينها وبين نفسها وهي تبعث بردّها المتضمّن جوابها التالي « أخبر سموّه بأن السمر سيظل ، والطرب سيبقى ، ونحن لا نستطيع الا أن نستمر في حفلتنا لأن المناسبة هامة وملحة ، والليل بعد الآن قد بات قصيراً ، ولكنني أبتهل الى الله العلي القدير والرحمن الرحيم بأن يمنح عبده سنة من النوم ، وموهبة من السلوان ! »

ولقد قال واحد من الناس ـ وهو شخص متعلّم ـ انه ينبغي للمرء أن يخاف من النساء أكثر مما يخاف من الشيطان لأن الله تعالى قال عن الشيطان ﴿ان كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ (السورة ٤ ، آية ٧٦) . بينما قال عن النساء ﴿ان كيدكنّ عظيم﴾ (السورة ١٢ ، آية ٢٨) .

الفصل الرابع عشر

[« عين اليمن » في عام ١٩٢٣[1]]

ان عدن تستلزم كتاباً منفصلاً ليكون مستقلاً بذاته ، ولكنني لا أستطيع الا أن أمنحها فصلاً واحداً ! ولقد نالت مؤلفة كتاب « المنفيّ The Exile » امتيازاً خاصاً من بين مؤلفي كتب الروايات ، اذ بزّت جميع الكتاب الروائيين حيث رسمت تلك الكاتبة صورة خيالية ومثيرة للحياة في هذه المستعمرة التي وصفها السيد فردريك تريفيس Sir Frederick Treves وكأنها « مستعمرة معزولة ، ومقاطعة مغمورة ، وبقعة مسفوعة أو محروقة بأشعة الشمس » .

وللسيد لويس جاكوليوت Louis Jacolliot رأيه الخاص - حينما كتب عن ذلك للفيغارو Figaro في عام ١٨٨٦ - عن السبب الذي حَفَّزَ تلك السيطرة الانكليزية الماكرة وشجعها على أن تضع يدها على هذه المنطقة الاستراتيجية التي تتحكم في مضائق باب المندب ، فهو يكتب عن « الغدار المخادع الذي يملك الحجة القائلة بأن هذا المكان مستودع للفحم ، ولكنه في الحقيقة قد أقام نفسه بقوة على الجانب العربي بغرض السيطرة ، وإبعاد بقية الشعوب والأمم الأخرى من أجل التحكم في الخروج والدخول من البحر الهندي واليه فارضاً أوامره بحجة هذا الاشراف الذي تمكن منه ، واستقلّ به » ويستمر في حديثه قائلاً بأن مَعْرِفة المرء بهذا الشعب المغامر المقدام ، والداهية الذكي ، والماهر الموهوب (يقصد بذلك نحن أنفسنا معشر الانكليز) تجعله يدرك بأنه شعب لم يُضع وقته سدى ، فالانكليز أساتذة لمنظمة استعمارية عجيبة وممتازة « ولقد فهموا تماماً بعدم وجود الحاجة الى التفكير في قهر أولئك الناس

---

(١) يقصد المؤلف بعين اليمن (عدن) وهي ليست العين الوحيدة التي تنظر اليمن من خلالها أوتطل منها على العالم الخارجي ، فهناك عيون أخرى تجيد الرؤية غير أن احتلال البريطانيين لهذه « العين » قد مكنهم من ذر الرماد في بقية العيون اليمنية وباعتبارها عين عربية فانها لم تجد من البريطانيين خلال ١٢٨ عاماً غير الاهمال واللاّمبالاة اذ لم يكن حظها من التصنيع والعمران والازدهار كحظ هونغ كونـغ مثلاً ولا كحظ جبل طارق ولا كحظ أية مستعمرة أخرى ، لأن تلك عيون غير عربية ، وأما العرب فانهم في نظر البريطانيين جديرون بالعماء وبالتخلف عن ركب الحضارة ، بل ان البريطانيين يغذون العيون العربية بالقذى والصفوف العربية بروح الانقسام ثم الفرقة والتجهيل .

(المترجم)

المتوحشين أو الى هزيمتهم لأن مثل ذلك سوف يستلزم المحافظة على وجود حامية عسكرية كبيرة جداً ، وهذا يكاد أن يكون أمراً مستحيلاً بسبب الجو الرديء ، والمناخ اللعين ، ومن أجل ذلك أظهروا براعتهم عن طريق تطمين الفكر الوطني وتهدئة خواطر أبناء البلاد . كما عكفوا على العمل لرفع هيبتهم فقط ، وعقدوا العزم على المغالاة في نشر الوهم المتسلط على الأفكار بعلوّ مقام القوم الانكليز وسموّ مكانتكم تاركين البقية للزمن ليتولّى أمرها . ولقد تعلمت انكلترا كيف أن الحاجة الى الصبر والانتظار تكون ضرورية ، وهكذا استطاعت أن تقدم في الوقت المناسب درساً عملياً لنفاد صبر ايطاليا التي كان عليها أن تحذو جيداً حذو جارتها ، وأن تلتفت الى تحسين خططها الاستعمارية مستفيدة بذلك في مشاريعها الخاصة بتعمير المستعمرات » . وهذا الكاتب يوجه صفعة مسلية الى جماعة النبلاء ، والسادة الأشراف من البريطانيين British Lords and Dukes اذ يقول عنهم « انهم القوم الذين يريدون مراعاة تيجانهم ، ويسعون الى أن تكون أكاليلهم الكونتية والدوقية محل اعتبار، ثم يعملون على تقديم الثروات ولو بالقسر للبرجوازية الاقتصادية أو للطبقة المتوسطة من التجار ولرجال المال والأعمال مهيئين أنفسهم بدون انقطاع لضم الملحقات في المستقبل» . وهكذا عندما وجد الزعماء المحليون بأن انكلترا لا تبحث عن التوسع الذاتي ، أو التمدد الى ما هو أبعد من عدن . تلاشت منهم الريبة رويداً رويداً ، وشيئاً فشيئاً ، ثم تقدموا الى عدن واحداً اثر آخر من أجل زيارة الحاكم العام الذي كان عليه أن يستقبلهم بحفاوة بالغة ، وترحاب ملوكي جليل . ولقد احتفظت انكلترا هناك منذ ذلك العهد بمعتمد أو وكيل سياسي ، وهذا الشخص هو الذي تكون قيمته بالنسبة اليها كبيرة اذ انّ فائدته في هذه البلاد لا تقدر بثمن ، وهلم جرّا . . .

ولا ريب ان غلطتنا الوحيدة التي تقع في كل هذا هي اننا قد سبقنا زيارة أصدقائنا الفرنسيين الى هذا المكان ! ولقد قال واحد من مقيمينا السياسيين الأقدمين أو المبكّرين ـ اذ كتب ذلك في عام ١٨٥٥ ـ ما يلي: ان الفرنسيين ينكرون كل النوايا المبيّتة عن تثبيت أنفسهم في هذه المياه ، ومع ذلك فان سفنهم الحربية قد قامت فعلاً بالبحث عن وجود أماكن لها في البحر الأحمر ، ومارست التفتيش بكل اهتمام يلفت النظر ، ويثير الانتباه ، ويكون جديراً بالملاحظة والمراقبة. كما ان زيارتهم المتكررة لجزيرة كمران ، وإلقاء نظرة شاملة عليها ثم القيام بمساحتها يعد من الأمور التي يجب أن لا تُنسى . وفي حالة ما اذا قامت حرب بين انكلترا وفرنسا فاننا سوف نشعر بأهمية السؤال الذي يثار أو يكون مطروحاً « في التقرير المفترض والذي سيرفع عن حالة الأسطول الفرنسي » ، حيث قد يستفسر قائد للأسطول متسائلا : « ماذا ستكون العاقبة اذا ما هوجمت عدن بقوة ساحقة ؟ » ولقد أتيت هنا على ذكر رأي كاتب في

مقابل رأي كاتب آخر ، وان كان الزمن قد تغير وتبدّل ، كما ان كل واحدة من الأمّتين قد تغيّرت أيضا وتبدّلت كذلك . والماضي قد فات وعفا الله عما سلف ! Let bygones be bygones! وتوجد اليوم حجرة واسعة ، ومكان فسيح لكل من الأمّتين .

وعلى الرغم من التصاقنا « بعين اليمن » وانجاذبنا اليها فانه قد جرى جهاراً نقاش صريح وعلني في مختلف الصحف الانكليزية عند مطلع الثمانينات (من القرن التاسع عشر) حول وجوب التخلي عن عدن بسبب رداءتها الصحية . وأما عن قيمتها السياسية ، وأهميتها الاستراتيجية والتجارية فلقد كانت مع ذلك محل اتفاق اذ لا اختلاف في أنها ممتازة وعظيمة . وحتى أولئك الذين وافقوا على سياسة الانسحاب والتراجع فانهم كانوا مرغمين على الاعتراف بأن التراجع سوف ينمّ عن « الضعف والتخنّث البريطانيين British Weakness and effeminacy » ولذلك كان البحث عن وجود مكان لانشاء مصحة . وفي عام ١٨٨١ تم وضع اليد على جبل الضبيات في الهضبة التي يبلغ ارتفاعها ستة آلاف قدم للاجابة على كل مأرب وغاية ولتلبية الحاجة . وقمة هذا الجبل المرتفع في هذه الهضبة مُسَطّحة الشكل ما عدا الجانب الشرقي منها حيث يرتفع عليه قبر الولي حسن ، وفي الاستطاعة مشاهدة هذا القبر الواضح المعالم فوق سطح الأرض من مشارف عدن ، وذلك في يوم مشرق وصاف من أيام شهر نوفمبر الساطعة والواضحة الرؤية اذا ما وضع المرء على عينيه منظاراً أو مُقرّباً (تلسكوباً) ونظر من خلاله صوب الضريح أو تفحصه الرائي من مكانه بعدن . وتبلغ مساحة أرض المخيّم حوالى ميلين مربعين والنصف منها ما زال تحت الحراثة . والمسافة من عدن الى هذا المكان تبلغ خمسة وستين ميلاً . وهذه الهضبة تخص فئة من السادة . وكانت المزايا السياسية المتوفرة في تلك المناطق الداخلية من البلاد ، والناتجة عن التوغل بالهدوء والسكينة ذات وزن اذ تعتبر عظيمة الشأن ولكن السياسة الوقتية الهيّابة واليومية المترددة أُعيدت من جديد في عام ١٩٠٧، وذلك عندما انسحبنا من الضالع فأعاقت تلك السياسة تقدمنا واعترضت طريقنا ، وبات مقدراً للجندي البريطاني بالعودة ، ومن ثم محكوماً عليه بالاقامة في « شواطىء عدن الحزينة » . ولقد ذكرت في فصل سابق كيف ان هينس كانت تواجهه المعارضة والتثبيط ، وتقف في وجهه العراقيل عند كل تخطيط لإنشاء مصحة على أرض المنطقة البخارية بالرغم من التصاريح والتوصيات القوية المقدمة من السيد تشارلس نابير ، Charles Napier كما كتب هينس بعدئذ إلى العميد اسبيلر Brigadier Spiller والى قيادة الجيش بطلب من الجنود ثم قيل انه لا يوجد « اعتراض على ذهاب الضباط الى الشاطىء الصومالي من أجل التغيير والاستجمام » .

ان عدن هي حسناء الشرق غير المعترف بها[1] Cinderella of the East . وان أيام تخليصها وازدهارها ستكون قريبة المنال اذا ما استطاعت السلطة الحاكمة والموجهة أن تتبدّل وتتغيّر . وأنا لا أعتقد بأن وزارة المستعمرات تفهم عدن جيداً طالما أن الحكومة الهندية والتجار الهنود ثـابتـون وأقدامهم راسخة الى درجة انهم ينظرون بارتياب الى الاقتراح القائل بتطوير عدن وتحويلها عما هي عليه الى وظيفة أخرى وهذا هو الأمر الذي ما زال محَل نقاش . وأنا أعتقد بأن شكوكهم قائمة على أسس سيّئة وغير حكيمة . ومع ذلك ـ وبالرغم من ارتباط الهند الطويل ومن المعرفة الفائقة ـ فان الأمر يبدو غير مستحيل . ولكن مكنسة جديدة سوف تنظف وستكون جارفة ومكتسحة وسوف تزيل بيوت العنكبوت السياسية وأنسجتها المعوقة التي تعترض تقدم عدن وازدهارها ، أو تحول دون نجاحها التجاري . ان افتتاح قناة السويس قد منح عدن أهمية قصوى تتخطى جميع الحدود ولا يستطيع غيرها أن يكون متفوقاً . وتوجد في قلاع عدن وفي مرفئها وفي البر المرتبط بها كذلك امكانيات كبيرة ، ومع ذلك فإن كاتباً قد عبّر عن ملاحظاته بالقول بأن مجرى التجارة وتدفقها بين آسيا وغرب أوروبا لن يستطيع على الاطلاق أن يجعل من عدن مرة أخرى مركزاً للتجارة، أو مستودعاً لتوزيع السلع والبضائع كما كانت عليه منذ أيام الفراعنة أو حتى عهود الدولة الرسولية[2] . والأخيرة هي الدولة التي استمر حكمها من عام ١٢٣٢ حتى عام ١٤٤١ ميلادية . ولا ريب أن الجلوس على الأرض ، والتعلل بالأماني ثم القعود الحالم من الأمور التي لا تترك أثراً فعالاً ، اذ لا تحدث على الاطلاق وبكل تأكيد أية تبديلات .

هل كان اكتشاف عدن قد تم صدفة أو عن طريق سائحين متجولين أمضوا قليلا من الساعات على الشاطىء لقتل الوقت ، أو للترويح عن النفس ، أو لتبديد الملل والضجر ؟ وكم أنا راغب في أن أرى واحداً من أولئك الذين يجلسون بارتياح على الكراسي في داوننق استريت

---

(١) السندرلا Cinderella بطلة قصة من قصص الجان وهي كما قيل فتاة حسناء فائقة الرقة والجمال كانت تقوم بغسل الأطباق والآنية وتعاملها زوجة أبيها معاملة سيئة ، ثم تزوجت أميراً وعاشت عيشة سعيدة بسبب تدخل العرابة أو أم العماد كما تقول احدى الحكايات الملفقة . والسندرلا أيضا الشخص الذي تكون له حسنات ومواهب غير معترف بها . والسندرلا كذلك رقصة تنتهي عند منتصف الليل .

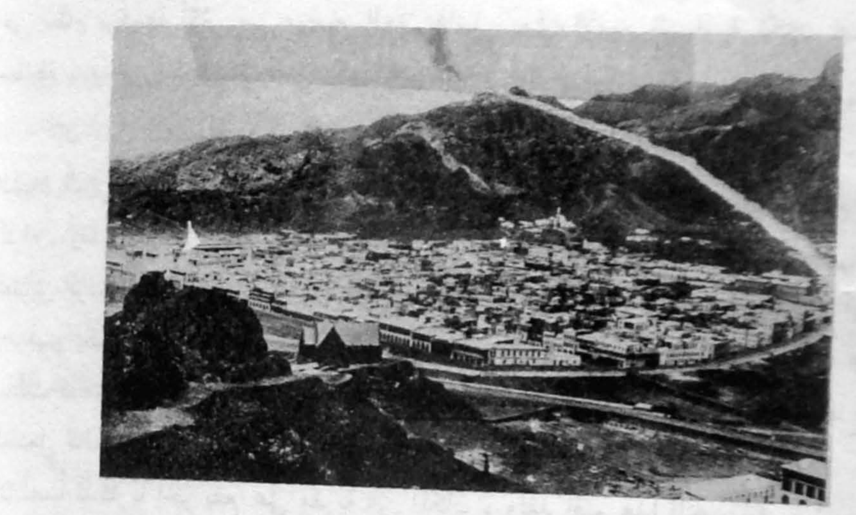
(المترجم)

(٢) الدولة الرسولية نسبة الى بني رسول . وبنو رسول هؤلاء كانوا في الأصل رسلاً لبني أيوب الذين حكموا مصر وامتد حكمهم الى اليمن ، ولكن الرسوليين استبدوا في الحكم وانفردوا به في بعض أجزاء من اليمن بعد أن ضعف الأيوبيو ن

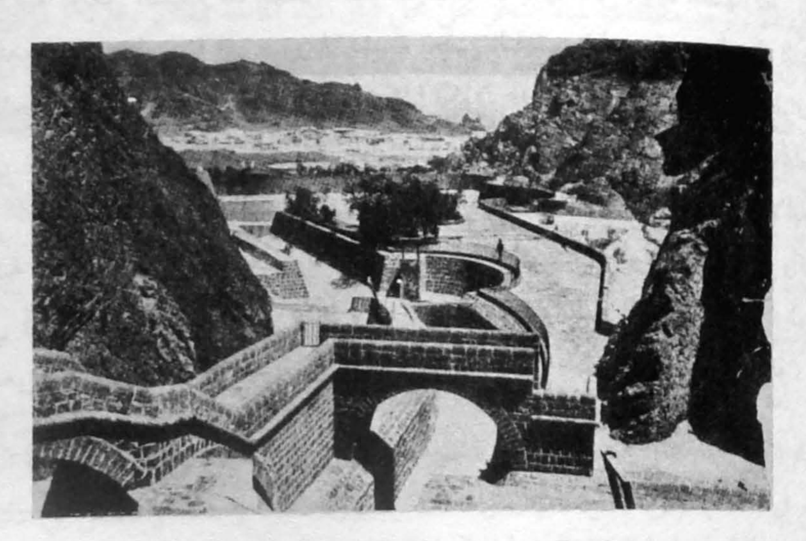
(المترجم)

موجوداً هنا ليتولى القيام بوظيفة مساعد سياسي في عدن وعندئذ فقط ستكون رؤيته للأمور صحيحة ، ونظرته فاحصة ومضبوطة اذ سوف يشاهد الأشياء كما هي وليس كما تقول عنها التقارير ، ولعلّي متفائل جداً في القول بأنه لن يصبح عند عودته واحداً من فئة الأشخاص النظريين أو غير العمليين ، ولا من الحالمين المحليين والمتخيلين ، وانما سيكون عبارة عن الشخص الذي حصل على الرؤية الواضحة جداً ، والمعرفة الصحيحة الكاملة والملمة وبالحقائق من موطنها . ثم من ذا الذي تكون غيرته أو حماسته قد حجبت عنه المشهد العجيب والنظرة الشاملة الرائعة « للأمبراطورية البريطانية ككل ؟ » ان الاخصائي في العين مثلا قد يكون مضطراً الى أن يفهم عن بعض أجزاء الجسم البعيدة عن العين التي تخصص فيها أو أن يعرف عن نظام تركيبها أكثر من موضع العين ذاتها . وفي الأمور السياسية تكون نفس الحجة مطابقة ، والخبير المحلي شخص يكون هو مُنتَخَباً خارج مركزه .

ان عدن كتاب مختوم للسائح ، وفيها مخلفات أثرية وبقايا مدفونة للكثيرين من الضباط الشبان الذين خطّوا بدمائهم تاريخ عدن المبكر . انهم يضطجعون اليوم في قبورهم متوسدين الثراء ، وما عليك الا أن تزور أقدم مقبرة في كريتر ، وهذه المقبرة هي التي تقع على مقربة من الطريق الرئيسية التي تعبرها سيارات الأجرة جيئة وذهاباً وهي مزدحمة بالسائحين أو الوافدين ، وجميعهم يكونون غير مكترثين بالأبطال الذين وهبوا حياتهم من أجل الاستيلاء على عدن وبذلك ضمنوا ضمها الى التاج(البريطاني) انهم الرواد الأوائل الذين فعلوا المستطاع وحققوا المحتمل كالسلام والأمن والرخاء والازدهار الاقتصادي كما نشاهد بعضاً منه اليوم . ومع هذا فان نصباً تذكارياً آخر يقع على مقربة من المكان ، ولقد أُقيم هذا النصب في مواجهة القسم الرابع من حرس الفوج البريطاني تخليداً واحياءً لذكرى أولئك الذين استولوا على عدن ، أو بعبارة أخرى لأولئك الذين أسروا عدن . وكل تلك المساحة من أرض الموتى تبدو مختبئة يتحاشاها الناس أو يبتعدون عنها على حد سواء كالقصص الأسطورية المروية أو المنقولة عن القدماء وهي التي يقال عنها بأن من يقرأها ينزلق أو يقضي نحبه ، والمسافرون السائحون أو « اللعونون ـ المهرجون damn - fool » ـ وهذا هو الاسم الذي يطلقه السائقون الصوماليون على البريطانيين الناطقين بمثل هذه الألفاظ ـ يدخلون الى العربات الواقفة على رصيف أمير ويلز حيث تفرغ القوارب عنده حمولتها البشرية ، ثم يأمرون سائقي المركبات بالتحرك الى الصهاريج ، وعندما يصلون الى قمة الممر الرئيسي توجه اليهم الدعوة أحيانا للتحديق الى أعلى ثم النظر الى حيث توجد صخرة ناتئة يتعذر بلوغها فوق ممر الخيل القديم ، أو الطريق الخاص بجياد الركوب والمؤدي الى كريتر وهو المسمى درب الحوش . وفي فجوة هذه الصخرة ترقد



مدينة عدن



خزانات المياه في عدن

بقايا رفات من يظنونه قائين Cain المتشرّد أو قاتل أخيه ، والمسلمون يقولون قابيل للتطابق سجعاً وقافيةً مع أخيه هابيل أو Abel . والسائح عندما ينظر متطلعاً الى أعلى يكون شاكاً ومرتاباً فهو اذن من الذين يميلون الى الشك أي انه من أصحاب مذهب الشكوكية . ويا له من أمر مهيل لو أن الأمر كان على العكس وكان هذا السائح مقيماً هنا ومع ذلك يعبر الغرباء قبور أجداده أو أجداث أسلافه من البريطانيين دون أن ينظروا اليها أو يتطلعوا فيها !! وبعد ذلك يصل أولئك السائحون مسرعين الى الصهاريج نتيجة للسير السريع . وهذه الصهاريج أو السدود هي التي تستوعب اذا ما امتلأت ـ وذلك نادر الحدوث ـ تسعة ملايين غالوناً[1] ونصف المليون من مياه الأمطار . وهذه الصهاريج تُنسب أو تُعزى الى الاحتلال الايراني في حوالى عام ٥٧٥ ميلادية .ولعل السياح قد أكملوا الطواف فبعد أن ينتهوا من زيارة الصهاريج[2] ينصرفون عنها مندفعين بنفس السرعة الى صوريلا لشراء بعض النفائس الحريرية من السوق الذي تفوح منه الروائح كما يبدو الناس فيه قذرين ، وهكذا تكون عدن قد انتهت اذ يكون الطواف بها قد وصل الى نهايته . وبذات السرعة وعلى نفس المنوال تكون العودة الى الخلف في اتجاه اللسان الأرضي الممتد في البحر حيث يتحولون عندئذ الى الحانة أو البار على شرفة نادي الاتحاد وهناك تبدأ كوكبة نجمية متألقة من الخمور المعتقة والمتلألئة (كوكتيل) أو تدار الكؤوس وأكواب من الويسكي في طمس ذكرى ماضي عدن وفي محو الأوساخ والغبار الفحمي الطائر ؛ ثم يكتمل العلاج بعودة السائحين الى السفينة بينما تكون عدن متروكة خلفهم والقمم الشاهقة ، والجبال الشم تُلوّح لهم توديعاً .

---

(١) الغالون مقياس للسوائل وهو يساوي ٢٣١ إنشا مكعبا أو ٣,٧٨٥٣ ليترا في الولايات المتحدة ، و٢٧٧,٢٧٤ إنشا مكعبا أو ٤,٥٤٦ ليترا في انكلترا .

(المترجم)

(٢) تحدث أمين الريحاني في كتابه ملوك العرب عن هذه الصهاريج عند الكلام عن عدن فقال : [أما اشهر ما فيها من الآثار ما تبقى من ظل مجدها الغابر فهي أسداد الماء تلك الأسداد المبنية في مضيق متحدر بين جبلين بناءً متيناً محكماً محفوراً بعضها في الصخور . سد فوق سد ،يصب الواحد مياهه حين يمتلىء في السد تحته حتى تفضي بعد امتلاء عدة أسداد الى الخزان الأخير القائم عند سفح الجبلين . ولكن هذه الأسداد وهي من أجمل الأعمال الهندسية في العالم لا تمتلىء لقلة الأمطار الا مرة أو مرتين في كل بضع سنين] . ثم يقول عنها : [تاريخ هذه الأسداد مجهول ، فمن المؤرخين من يقول انما بنيت في القرن الخامس للمسيح ومنهم من يعود بها الى ألف وخمسمائة سنة قبل المسيح . ومما لا يختلف في أمرها أنها كانت مردومة عند الاحتلال الانكليزي فحفرت ورممت سنة ١٨٥٦ ثمانين مليون جالون من الماء] . انتهى كلام الريحاني، غير أن الفارق كبير جدا بين تقديراته وتقديرات المؤلف لما تستوعبه تلك السدود من المياه .

(المترجم)

ان أولئك السائحين لم يشاهدوا عدن على حقيقتها، ولم يستشفّوا روحها وانما الشيء الذي رأوه مظهر خادع مثل كزبرة الثعلب[1] ولسوف يجيب هذا المظهر السطحي على سؤال المغرم الولهان والسائح المشتاق (الى « عين اليمن » هذه) بخفر واستحياء . فهل تكمن هنا لعنة قابيل ، وهل تكون هي السبب ؟ . ولطرد الشبح الخبيث أودّ لو أمكن القيام بجلب بقايا رفات جسد القائد هينس ، واحضارها من تلك الزاوية المهجورة في مقبرة كولابا الموحشة الحزينة (بالهند) ووضعها في الأرض التي أتى اليها وشاهدها ، واختبرها وعاش فيها ، وانتصر عليها . ولو ان طيف هينس زار من جديد مساكنه الأولى أو طاف بين تلك الأحياء القديمة التي كانت قائمة في زمنه لشاهد اليوم مبانٍ أكثر ، وسيارات للأجرة تسير بأعداد كبيرة بل ومتزايدة ، ولوجد مكثفات لمياه البحر تحل محل آبار المياه المالحة بمقادير وفيرة ؛ لرأى أرضا ممهدة لِلُعبة الغولف ذات اثنتي عشرة حفرة تجتذب المعجبين بهذه اللعبة الى رمال خور مكسر الصلبة حيث تبعد حوالى سبعة أميال عن اللسان الأرضي الممتد داخل مياه البحر ، ولشاهد كذلك نصب الحرب التذكاري المقام على منصة أرضية عند رصيف الميناء وهو الذي يرشد الى تقاطع الطريق بين الكنيسة المنشقة ومستودع الموتى كما يشوّه المدخل ، ويقف معترضا للتحديق نحو البحر ، اذ يكون عائقاً لرؤيته أو للتطلع اليه من قبل الولي صائد السمك الذي ينام مضطجعاً في مرقده عند أسفل الهضبة فوق الطريق .

أما عن الشيخ عثمان فانها قد نمت أيضاً وكبرت كذلك . وفي الاحصاء الذي تم مؤخراً في عام ١٩٢١ بلغ عدد السكان ثلاثة عشر ألف نفس . فلقد اتسعت هذه القرية التي تبعد عن الموقع في عدن بحوالى عشرة أميال وامتدت بصورة كبيرة وهائلة والفضل في ذلك يعود الى الحرب العظمى . وأما القرية القديمة أو « الشيخ الطويل » وهي التي كانت فيما مضى عبارة عن القرية الأصلية الصغرى حيث يرقد الشيخ الولي مضطجعاً في قبره فانها تنظر ـ بحسد وغيرة عبر الجانب الآخر المقابل ـ الى المدينة الحديثة ذات النشاط التجاري . وتلك ثمرة من ثمار العقيد ف . م . هونتر ، وكان المهندس المعماري الذي قام بتنفيذ المشروع وتولّى التخطيط له هو مسجّل العقود السيد منشرجي ، س . آي . اي . Mr. Muncharji. C. I. E. وهو بارسي الأصل أي زرادشتي منحدر من أصلاب اللاجئين الفرس الذين أقاموا في مدينة بومباي . وتلك القرية التي كانت في بداية الأمر عبارة عن مكان نائي لنفي المتشردين أو

---

(١) كزبرة الثعلب نبات عشبي ذو أزهار قرمزية أو أرجوانية أو بيضاء وهي تنطبق حين تسوء الأحوال الجوية . (المترجم)

المطرودين من عدن هي الآن بستان نامي وحديقة ناشئة ذات براعم . وفيها مساحات من الأرض المستصلحة والمنسقة ، والمزروعة بالخضروات والنباتات ، والمفعمة بالأشجار الغنّاء الوارفة ، والتي صارت مقراً للطيور المختلفة . لقد ازدهرت الصحراء فعلاً وأزهرت كما تزهر الورود وتتفتح كمائمها . والعرب الذين يعانون من الإجهاد والإرهاق في عدن وكذلك التجار الآخرون يملكون بيوتهم الخاصة ذات الحدائق الوارفة هنا ـ في البلدة الجديدة ـ والتي فيها يبحثون عن الراحة ، أو ينشدون الترويح عن النفس ، أو يفرون اليها من عناء الأرصفة ومن أحابيل المخازن التجارية وارهاق مستودعات البضائع . وتوجد هنا كذلك دار بعثة كيث فالكونر Keith - Falconer Mission بينما يضطجع المؤسس الباني في المكان المنعزل من المقبرة الموجودة في خليج حقات وهي التي يشاهدها المرء عندما يعبر البوابة الجنوبية وهو في طريقه الى هضبة مرشق في كريتر . ان الشيخ عثمان مدينة نظيفة تقريباً وخالية من التصعّدات الأجمية ومن الأبخرة الوبية التي تولد البعوض وتسبب الملاريا ، والفضل في ذلك يعود الى الجهود المضنية التي لا تكل ولا تمل والتي تولّى القيام بها كلا الرائدين ويتويك ورايلي Majors Wightwick and Reilly وهما ضابطان سياسيان ، وما زال كلاهما يعملان في عدن[1] .

لا ريب انّ كل هذا التطور سوف يدهش هينس ، ولكن عدن مع ذلك ما زالت متأخرة خمسين سنة الى الوراء ، وان فقدان شعور الحكومة أمر محسوس ومن الممكن رؤيته ومشاهدته في هذه المستعمرة بكل وضوح اذ لا يوجد فيها كذلك فندق واحد من فنادق الدرجة الأولى . والفندقان الرئيسيان فيها قذران . وأما فندق « فكتوريا » القديم الذي تم بناؤه تكريماً لملكتنا أو من أجلها فإن انتعاشه وازدهاره من جديد أمر محتمل . وهذا الفندق عبارة عن منحة أو تقدمة « بقشيش » من السيد صوربجي قواسجي Mr. Sorabji Cowasjee الذي شيّده وبناه في عام ١٨٤٧ بتكاليف تزيد عن عشرين ألف روبية ، وهذا البارسي[2] Parace الشجاع أو الفارسي الأصل هو الرجل المقدام صاحب المشاريع العظيمة الذي قدّم خمسة آلاف روبية من أجل اقامة بناء خاص لراحة الأشخاص المتزوجين ولسيدات الرئاسة اللاتي يتحتم عليهن الإقامة في عدن أو البقاء فيها يوماً أو يومين. ولقد تكفّل « بتزويد كل غرفة بحمام خاص وبمرشة

---

(١) أي في عام ١٩٢٣ . (المترجم)

(٢) البارسي زرادشتي متحدّر من أصلاب اللاجئين الفرس المقيمين في مدينة بومباي وغيرها . والبارْسية اللهجة الإيرانية الخاصة بالأدب البارْسي الديني .

(المترجم)

اغتسال، وبوسائل أخرى مريحة وملائمة وجوهرية من أجل الانتفاع والتسلية »، كما رغب في بناء ثلاث حجرات أو قاعات مشيدة بالآجر أو الحجارة ـ ذات حوائط أو جدران صخرية ـ على أن تكون مساحة كل واحدة منها ١٥ × ٢٠ قدماً والارتفاع يكون ١٣قدماً الخ. .الخ. . وعدن تفتقر الى صالة للشاي أو الى قاعة فسيحة في مقهى من أجل راحة المسافرين الهابطين من ظهور السفن . وليس في عدن مكتبة عامة . وان القيام حديثاً بإنشاء مباني للصيادلة الانكليز ومخازن للكيمائيين منهم في كل من التواهي وكريتر يعد تجديداً ساراً وبدعة مقبولة . وأما عن الأشجار في عدن فانها تكاد أن تكون منقرضة تقريباً بالرغم من أن شجرة أو شجيرات قد تشاهد أحيانا وتحظى ببعض الرعاية والصيانة وتجد قليلا من الحرص والاجتهاد في المثابرة على السقي من مياه النبع حيث توجد على أقنية « منتزه جوب Jopp Promenade » أو عند أطرافه ، وهذا المنتزه هو الذي اقترن افتتاحه ببهاء عظيم وشهرة باهرة في عام ١٨٩٩ من قبل المندوب السامي الجنرال السير أومور كريف General Sir O'Moor e Greagh الذي وافاه الأجل منذ عهد قريب . وهنا في هذا المنتزه يحتشد اليهود بغزارة أو يتجمهرون بكثرة بعد غروب الشمس من كل يوم سبت « والجميع يتألقون بملابسهم الزاهية ، وبحليهم المبهرجة في يوم العطلة هذا » والبنون منهم والبنات يلعبون . وأما المُسلمون فانهم يؤدون فيه صلاة المغرب . وتوجد في المنتزه أيضا منصة تتسع لفرقة موسيقية كاملة من أجل القيام بالعزف والنشيد في الهواء الطلق . ولكن لا توجد هنالك أية فرقة لا لعزف الموسيقى ولا لترديد الألحان ، فالفرق الموسيقية انما تكون محجوزة أو مدخرة من أجل الترفيه عن أعضاء النادي الاتحادي الذي يجاور المنتزه، ولكن الألحان المعزوفة في هذا النادي قد تبهج الأشخاص الغرباء عنه أحيانا فالأجانب المحتشدون الذين يقصدون المنتزه تكون عيونهم شاخصة بلهفة ومحدقة بحنين نحو الشرفة التي تحرمهم منها جنسيتهم .

والشؤون الصحية في عدن بدائية . والكثير من مياه الشرب التي ما زال الناس يشربونها مالحة وتنقل بواسطة عربات بدائية كذلك وعتيقة وتُذَكِّر بعهود ما قبل الطوفان وهي ذات دواليب تجرها الابل . والبعض من تلك المياه يتم نقله أيضا بواسطة أنابيب يغذيها بئر في الشيخ عثمان . والإنارة ترجع الى ما قبل التاريخ مع ان الكهرباء موجودة ولكنها تدخل ببطء شديد وتحتل مكانها على مهل . والطرقات من النوع الوسط فقط وهي في حالة من الإصلاح الدائم والترميم المستمر ، والنقص في رأس المال هو المبرر والحاجة الى الايرادات المالية هي الحجة التي تثار أو يكون التعلّل بها ، ولكن الإيرادات قد تُصبح متزايدة بكثرة ، أو قد تكون

متوفرة بوفرة لو أن الدوائر المختلفة في عدن كانت تحت هيمنة مجلس أعلى يحكمها ويشرف عليها بدلا من بقائها كما في الوقت الحاضر في أيدي موظفين شبه مستقلين . وكذلك الحال إذا ما حظيت الإيرادات بالإصلاح ، وعادت الى وضع سوي وكرّست برمّتها لحاجات المستعمرة ولم تصادر جزئياً للمطالب التي تقتضيها الحاجات الامبراطورية أو الامبرالية في أماكن أخرى .

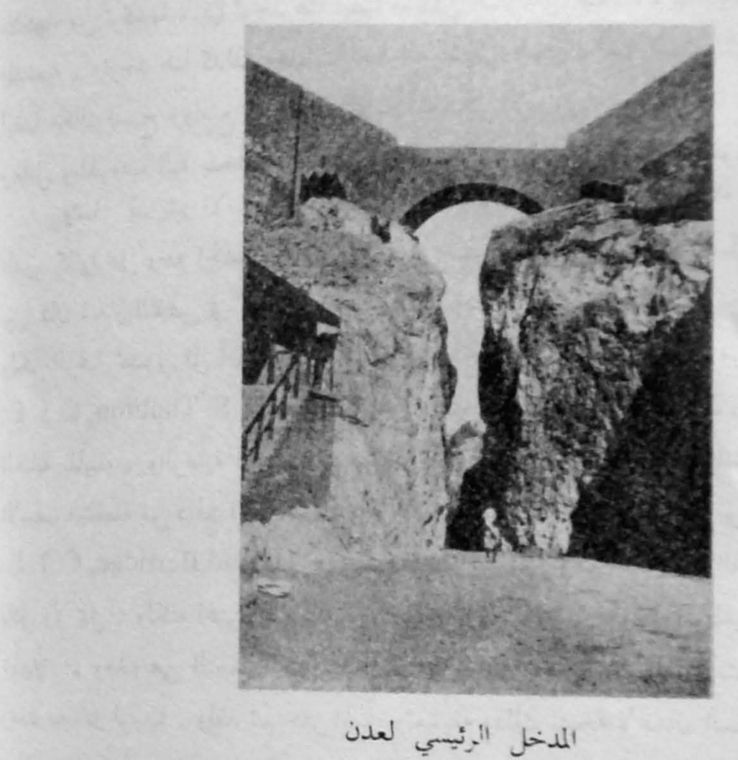
وأما ملاعب عدن وميادينها الرياضية فانها مصانة ومحفوظة ، وهي بحالة سليمة وجيّدة ، والفضل في ذلك يعود الى الخطاب الذي ألقاه صاحب الجلالة الملك عندما زار عدن في عام ١٩١١ . ومن ناحية أخرى نجد بأن جميع الأماكن النافعة والمفيدة والتي توجد بجوار تمثال الملكة قد بيعت من أجل اقامة مبانٍ عليها . والجندي البريطاني يملك ملاعبه الخاصة به وهذه توجد في كل من المنطقة البخارية وفي كريتر ولكنه كان من الضروري العمل على صيانة مصالح السكان الوطنيين وهذا هو الشيء الذي أحدثه صاحب الجلالة الملك وترك أثره . وهناك الكثير ممن يعتقدون بأن نفقات استصلاح تلك الأراضي واستعادتها من طغيان مياه البحر يجب استرجاعها أو الحصول عليها بتحويلها أماكن معدة للبناء . وهؤلاء ليسوا بقادرين على الرؤية ، ولا مدركين بأن أحسن تعويض عن الأموال المصروفة انما يكون في حيازة تلك المساحات المفتوحة للهواء الطلق وفي اقتنائها للرياضة والمتعة واللياقة البدنية ثم للابتهاج اللاحق والسرور المتتابع بالإضافة الى مراعاة الحالة الصحية نحو أولئك الناس من السكان ، وتلك الأمور في مجموعها أكبر نعمة تفوق على المدى البعيد كل تعويض مالي أو أي مقابل نقدي يكون ممكناً أو محتملاً ، نتيجة لإقامة مبان عليها .

وفي نطاق العمران يوجد نظام بسيط معد لتشييد المباني وخطة زهيدة لإقامة العمارات ، ولكن هذا الشيء قليل وضئيل ومن النادر أن يجد المرء في عدن بناية واحدة من البنايات ذات الجمال المعماري . ولقد حضر ذات مرة واحد من الخبراء وقدّم الينا الارشادات ، وأعطانا التوجيهات ولكن تلك النصائح لم تُنفَّذ . وسهل المعلا الواقع بين بوابة حجوف وبين كريتر يعتبر أصلح مكان لانتشار البناء ، وأحسن بقعة للتوسّع العمراني بدون شك ولا ريب . والعهد الحاضر يقوم بحكمة في توسيع المدينة الوطنية من هذا الجانب . والرأي القديم القائل « بأن عدن قلعة حصينة » قد أعاق حتى الآن كل أحلام النجاح التجاري والتقدم الاقتصادي . والشعب في عدن يزيد تعداده عن الخمسين ألفاً من الأنفس . والاتساع حتمي في كل من سهل المعلا والشيخ عثمان . والمندوب السامي الحالي الجنرال سكوت General Scott يتطلع الى خور مكسر كموقع مناسب لإقامة معسكر جديد عوضاً عن القديم الذي يضمن نقله من موقعه السابق الابتعاد عن جو كريتر المخيف الخانق والمتجهم . وهينس كتب

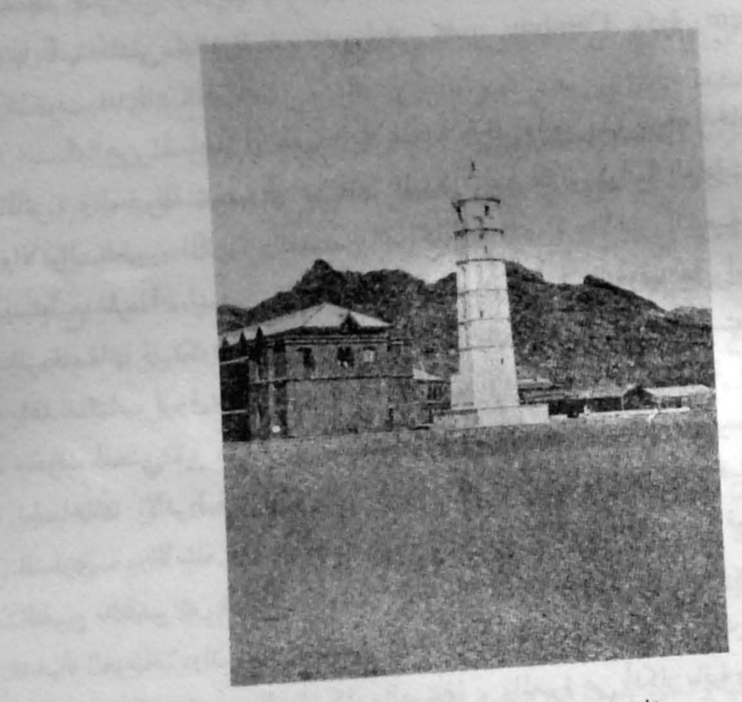
في عام ١٨٤٠ يقول بأنه يميل الى بناء برج ساحلي كبير على هذا السهل بحيث يكون دائرياً وضخماً « طابية ساحلية Martello Tower » كما انه قام بمباشرة التخطيط هنا لإنشاء مساكن لضباط الجيش . لأن وجود مدفع طويل يتسلق أعلى منصة فوق قمة البرج سوف يشكل الدفاع الشمالي لتأمين سلامة السهل بكامله . وهينس هو الذي أضاف متنبئاً عنه بقوله : « ان ذلك قد يبرهن في السنين المقبلة عن وجود قطعة من الأرض مفيدة » . ويوجد هنا اليوم مركز قيادة جنود عدن . وهؤلاء هم الخلف للأسلاف من الخيالة والفرسان غير النظاميين الذين كانت بدايتهم قد جاءت عن طريق هينس . وترتفع اليوم هنا أيضاً محطة الإرسال اللاسلكية التي تم الانتهاء من تركيبها ، كما توجد هنا أيضاً مساكن الـ ر. أ. ف. .R. A. F وسرية من سلاح المدفعية ، وتوجد هنا كذلك حلبات لعبة الغولف ، وميدان لعبة البولو . ولكن ما زال يوجد أيضاً مكان فسيح وواسع من أجل إقامة المعسكر الأوروبي . والجو هنا في هذه البقعة نقي وعليل وبالهروب اليه يتخلص المرء من انكسار الأشعة المنبثقة من صخور عدن الحارقة .

ومما قد يثير الاستياء والسخط أو قد يكون بغيضاً القيام بانتقاء بعض أسماء أولئك الذين كانوا على وجه الخصوص أداة فعالة في السنين الأخيرة ، والذين ساهموا في تحسين عدن بينما كان شعار النقص في رؤوس الأموال المرصودة وفي الإيرادات الموجودة قد أعاق الجميع . ولكن الرغبة تحدوني الى أن أسجّل أعمال السيد ج. ب. اس. توبروان س. آي. اي. .Mr J. B. S. Thubron, C. I. E. وهو الرجل المتحمّس الغيور والذي كان رئيسا لكل من لجنتي العناية بالميناء ، والرعاية لعدن المستعمرة ومنذ ذلك الحين نُقل الى كراتشي وسط صيحات الأسف الشاملة من دافع الضرائب العدني ، ثم السيد هارولد بريدج ، س. آي. اي. .Mr Harold Berridge, C. I. E. مهندس الميناء الرئيسي وهو الشخص الدؤوب الذي كان لا يكل ولا يمل . ولكنه اعتزل العمل تماماً . وخلال فترة عمل هذين الموظفين تم تشييد أرصفة المُعلّا ، وهذه هي النعمة الكبرى التي كان منحها لتجارة عدن اذ زادت موارد المستعمرة ، ونمت مصادر ثروتها . ولقد تمّ حفر الميناء وتعميقه وذلك نتيجة لأعمال السيد بريدج ليكون في عمقه متناسباً مع عمق قناة السويس .

ولقد كانت عدن في الأزمنة الماضية والقديمة تحتوي على أبنية معمارية في حي كريتر ذات أبهة وجلال . والرحالة الفرنسي لاروك La Roque الذي زارها في عام ١٧٠٨ - ١٧١٠ يتحدث عن حماماتها الجميلة التي كانت محاطة بكاملها بصفوف من الرخام أو المرمر وبحجر الدم أو الحجر الكريم ، ومغطاة بقباب بديعة ذات فتحات ونوافذ تعلو فوق قممها وتتصدر أبراجها من أجل دخول النور ، وكانت محلاّة من الداخل بـأروقة ومُحاطة بقاعات ومسنودة



المدخل الرئيسي لعدن



المنارة- بقايا أقدم جامع في عدن

بأعمدة رائعة ونفيسة (البهو المسنود) . وكان البناء برمته مقسماً بطريقة متناسقة الى قاعات مناسبة والى غرف مجوّفة والى مخادع أو حجرات صغيرة يخلو فيها المرء الى نفسه . وكانت جميع الحجرات والسراديب الأخرى مقنطرة ومتصلة بالقاعة الرئيسية . ومع ذلك فان ابن بطوطة الذي يسمي عدن المرسى أو ميناء اليمن يتحدث في القرن الرابع عشر عن هذا الميناء كمكان لا وجود للأشجار فيه وبأنه خال من الزراعة ، وبأنه عديم المياه ما عدا مياه الأمطار المتراكمة في صهاريجه ، وهو يذكر عن وجود أنبوب أو قناة احتياطية تقوم بإيصال المياه الى هذا الميناء من خارجه ولكنه يقول ان البدو يعترضون هذه المياه ، ويتدخلون مطالبين بمبالغ باهظة مقابل عملهم كحرّاس أو لوظيفتهم كأولياء أمور . ثم يتكلم عن جو عدن الشديد الحرارة ، ويقول عنها بأنها مُلتقى تجارة السفن الهندية من كامبي Cambay وكولم Coilem وتانا Thana وكلكوت Calicut .

أما عن المساجد في عدن فانها عديدة ولكل واحد منها تاريخه الخاص به وذكراه الماضية المأثورة والمحفوظة شفهيا أو عن ظهر قلب . وعن طريق دراسة العادات والتقاليد والحكايات والأقوال العربية المأثورة والقصص الفولكلورية المنقولة والأغاني الشعبية Arab folk - lore يستطيع المرء أن يتوصل الى معرفة الشعب أو يبدأ في التعرف على أبناء البلاد وأما الكتب الزرقاء فانها قد تكون نثراً ركيكاً عادياً غير ذي بال عند المقارنة ، وبينما يستطيع أي واحد أن يقوم بإعداد كتاب أزرق فإن أغلبية تلك المنتجات الأدبية والجمل الإنشائية قد تكون غير مقروءة . وسوف أستثني من هذه القاعدة بعض الكتب الأدبية التي تختص بالسودان أو تنبثق عن تلك الجماعات الافريقية . وأما في الجزيرة العربية حيث العادات القبلية السائدة ، والعرف الساري ، والأمثلة والحكم القبلية الدارجة والمتناقلة ، والتنوّع في قوانين الأخذ بالثأر وقتل النفس بالنفس بين القبائل المختلفة فإن تلك الأمور هي الأريج العطري الذي تفوح رائحته في الحياة العربية . وان عدن والمناطق الداخلية من البلاد تزخر بمثل ذلك من الآثار الأدبية النثرية والشعرية المتميزة بجمال الشكل والصياغة ، والمعبرة عن أفكار باقية ذات قيمة . ولقد جمعت حوالى ألفين من الأمثال والحكم المحلية ، وكتاباً من الأغاني الشعبية الفولكلورية التي تشرح الطبع العربي ، والمزاج العربي ، وتصف الأخلاق العربية . وأنت قد تفوز بمحدثك العربي وتظفر به اذا ما استطعت أن تستدرجه الى الحوار والمناقشة عن طريق الاقتباس من أساطيره ، والاستشهاد بقصصه المروية أو المنقولة عن القدماء . وانه لمن المحتم اعداد جميع الضباط السياسيين الذين يرسلون الى عدن لاجتياز امتحان في العلوم والقصص والحكايات السائدة لدى رجال القبائل . ويجب على الضابط السياسي أيضاً أن يكون حسن الاطلاع وعلى علم

بآيات القرآن اذ ينبغي أن تكون معرفته بسوره وبفقراته جيدة ، ويتحتم أن تكون عنده بعض المعرفة بالأحاديث الشريفة ، كما يجب أن يكون لديه إلمام بالعادات والتقاليد . وأما استعمال اللغة الهندوستانية في عدن كما يفعل الكثيرون فإنه عمل مؤذ وعادة مضرة ، وتجربة مخربة . ولقد أصبحت عدن مصبوغة بالصبغة الهندية بسرعة . ومكاتب البريد المقامة في عدن تحمل الإعلانات والإرشادات المكتوبة على اللوحات والأعمدة باللغتين الهندوستانية والغوجريتية[1] Hindustani and Gujarati مما يثير الانتباه ، ولذلك تبدو اللغة العربية وكأنها لغة أجنبية . والكثير من أساتذة المدارس أو المعلمين فيها هم من الهنود، وان رنين بومباي Bombay هو الذي يسحر عدن ويفتنها وينومها تنويماً مغناطيسياً . والتاريخ العربي لا يُدرّس في المدارس الحكومية ، فهل نحن خائفون من تعليمهم تاريخهم القومي ، ومن معرفتهم بأبطالهم الوطنيين كما حدث في الهند عندما حرّمنا في احدى الفترات عبادة شيفاجي Shivaji ، في حين انه اذا ما قامت المدارس الحكومية في الهند بتعليم الشيبية احترام شيفاجي فانه ليس ضرورياً بالنسبة الى المعاهد والمؤسسات الخاصة أن تقوم من جانبها بتأسيس مدارس ذات نزعة قومية وتكون متأثرة بالطرق والأساليب الهندية في نفس الوقت . وهينس وهو يتحدث عن عدن عندما استولى عليها يذكر عن وجود مساجد كثيرة كانت مخرّبة ومبعثرة فوق سهول كريتر ، وأما المساجد الرئيسية فإنها عبارة عن جامع الهيدروس Hydroose (العيدروس) وجامع العلوي ، ثم مسجد الجمال، ومسجد السوق والأول والأخير منها فقط كانا في حالة استعمال فعلي . ولقد اقترح هينس على الحكومة القيام ببناء مسجد كبير تكون تكاليفه على نفقتها ، ولكن هذه الخطة لم تنجح . وما زال كل من مسجدي العيدروس والعلوي قيد الاستعمال الى الآن بصورة عامة ، وأما المسجدان الآخران فإنه لا أثر لهما اليوم . وقد أكّد لي واحد من أقدم سكان عدن وأكبرهم سناً وهو السيد علي باطير زعيم جماعة الصيادين بأنه عندما حصل الاستيلاء على عدن كان يرتفع فيها مسجد كبير وعظيم وبأن ذلك المسجد كان مواجها للبحر . وأنا أعتقد بأن هذا هو المسجد المتهدم حالياً والذي بقيت منه مئذنته فقط وما زالت معالمه واضحة بالقرب من بيت مال الدولة أو الخزينة ، وكان هذا المكان يومئذ عبارة عن حافة البحر التي يصل اليها مده ويتوقف عندها تدفقه لأن الشاطىء الامامي في هذه البقعة قد تم استصلاحه بأجمعه بعد ذلك

---

(1) الغوجريتية Gujarati هي لغة الغوجرات والبارودة والأقاليم المجاورة لها في شمال الهند ، كما تطلق أيضا هذه الكلمة Gujarati على الشخص من تلك الجماعات التي تتكلم هذه اللغة الغوجريتية وعلى الأخص العضو من جماعة الغوجرات Gujarat.
(المترجم)

ومن ثم تم استرجاعه من مياه البحر التي كانت تطغى عليه ثم بنيت عليه الثكنات العسكرية كما نراها اليوم . ويذكر أبو الفداء بأن جامعاً أو مسجداً كبيراً قد تم بناؤه في وقت ما قبل عام ٧١٨ ميلادية وفي عهد أحد خلفاء بني أمية وبأن ذلك الجامع كان يرتفع عالياً على شاطىء البحر . ولا بد أن يكون هذا هو المسجد الذي سبق ذكره وورد الحديث عنه على لسان الرجل المسنّ علي باطير . ويوجد في عدن أيضا مسجد آخر قديم ، وهذا هو المسجد الذي يدعى ابان ويقع على مقربة من السجن . والبناء المقام حالياً حديث التشييد ولكن البناء الأصلي قد ذكره الخزرجي بالحالة التي كان موجوداً فيها أو الصورة التي كان قائماً عليها عام ١٢٨٦ ميلادية .

ومن الطريف أن يرى المرء ثلاثة معابد هندية في كريتر ومكاناً واحداً خاصاً بعبادة الطائفة اليانية أو الدين الياني[١] Jain ، والكل عبارة عن ضريبة الحكم البريطاني النزيه وغير المتحيز . وأكثر تلك المعابد وضوحاً وشهرة المعبد الذي كان رصده وتخصيصه للمعبودة امبا ـ بهافني Godess Amba Bhavni وهذا المعبد مقام تحت الربوة بطريقة بهيجة وبديعة جداً ويقع على مقربة من دار الضيافة العربي الذي كان المرحوم هينس يستعمله ذات يوم كمقره الشتوي في كريتر . والعرب يسمون هذا المعبد « جامع البنيان Banian Mosque » وأما المعبدان الآخران فإنهما مخصصان على النحو التالي : أحدهما وهو الموجود في سوق دسوين مخصص لهانومان Hanuman والآخر المحشور بعيداً في التلال المواجهة للسجن وهو مكرس لشيفا Shiva .

كم عدد الموظفين من ذوي الرتب الرسمية في عدن العارفين بالمقبرة اليهودية القديمة الهائلة والموجودة بالقرب من مسجد العيدروس ؟ ان رؤية السياج الذي يعزل القبور ويحيطها بسور محكم الطوق يكون كافيا لأن يجعل المرء يستحضر في ذهنه صورة عدن كما كانت عليها ذات مرة . واليوم لا يستطيع أن يدفن في تربة هذه المقبرة الصخرية أو ذات التربة الصلبة الا من كان واحداً من اليهود ذوي المكانة أو الذين يستحقون الاهتمام فقط .

ان بعض أسماء الأماكن في عدن مملوءة بالإثارة . فهي تلفت النظر أو تبعث على الرغبة في حب الاستطلاع ، ولكن الفراغ الذي قد يلوح داخل الكلمات أو يبدو من بين السطور يأبى الا الإتيان بشيء منهاوالمرور بذكرهابشكل مختصر .فالحرفان ب . و أو. « P.and O. » يشكلان اسماً علماً يطلق هنالك على كل من الدار والمكتب اللذين يطلق عليهما أيضا اسم « طمسن

---

(١) الياني أحد أتباع اليانية . واليانية Jainian دين هندي نشأ في القرن السادس ق . م . قوامه تحرير الروح بالمعرفة والإيمان وحسن السلوك . (المترجم)

Tamsen » تبعاً لإسم أحد الوكلاء الأوائل الذي كان اسمه طومبسن .Thompson والعرب يسمون الممتلكات العقارية لشركة الفحم العدنية بارشا أو بارشة «Barsha» والتفسير الطبيعي الوحيد الذي سمعته لذلك هو ان هذه الكلمة تُعتبر تحويراً أو من ثم تشويهاً وإفساداً لكلمة أخرى هي : « بروسي Prussian » . ومن المحتمل أن يكون هنالك سبب في اختيار هذه الكلمة إذ كان الالمان على علاقة مع الشركة المذكورة التي كانت تشتمل على مكاتب توكيل تجارية ومن بينها بعض الخطوط البحرية البخارية الالمانية .

وسهل المعلاّ يكون تطبيقاً للكلمة العربية محل أو ربع أو حي Quarter ولكنه مستعمل من قبل الهنود الذين منحوا هذه المساحة اسمها العربي الحالي . وهذه الكلمة تكون اسماً بلا معنى اذ لا يوجد فيها شيء من الدلالة على الصورة الذهنية لمفهوم النجد أو الربوة مما تتضمنه هذه الكلمة « مُعَلاّ » . والحي الصومالي الموجود على هذا السهل يدعى صومالي بورا Somalipura. وهذه حجة أخرى للتسمية الهندية . وأما أسماء أماكن الأحياء والجهات والمرتفعات والجبال الداخلة في البحر فانها مثقلة جميعها بالأساطير العربية . ولقد خلعنا عليها في حالات كثيرة أسماءنا الخاصة بنا وبذلك تلاشت عنها تلك الصورة الأسطورية فضاعت الرواية التخيلية والرومانسية .

ومن الأماكن الأخرى الهامة مزار الولي ريحان في خليج الصيادين أو السمّاكين . وما أقل وجود أولئك الذين زاروا هذا المكان الشهير والعريق في القدم ! ومن ذا الذي يعرف عن أبي النطقة الشيخ الولي والموجود عند سفح صيرة والذي يتحتم على القوم الملاّحين ان يسترضونه وأن يتقربوا اليه بذبح حيوان الماعز قبل أن يقوموا بإنزال حمولتهم الى البر أو يهمّوا بتفريغها ؟! ولقد زار عدد قليل ونفر زهيد من الناس تلك الجثث المحنطة أو مومياء حيوان الأطوم(١) Dugong الموجودة في أحد المتاجر الفارسية أو البارْسيّة (Parsee shops) في الكريسنت(٢) in the crescent ولكنهم لم يكونوا مهتمين ولا عابئين بالحقيقة العدنية لأن انتباههم قليل بشؤون الحياة الداخلية وشجون الأمور الجوهرية والمحلية الخفية وهي التي توجد في الأحياء العربية فقط .

في عام ١٣٨٦ ميلادية شب في عدن القديمة حريق هائل وشديد أتى على العديد من

---

(١) الأطوم حيوان ثديي مائي وهو يشبه السمك .

(المترجم)

(٢) المقصود بالكريسنت الهلال وهو شعار اسلامي يقابله الصليب The Cross الذي يعد شعاراً مسيحياً . وأبرز الدول الاسلامية التي تتخذ الهلال شعاراً لها هي الدولة التركية ولا سيما قبل أن تتقلص منها الخلافة العثمانية . وتطلق كلمة الكريسنت The Crescent أيضا على الشارع الملتوي في اللغة العامية الإنكليزية .

(المترجم)

المساكن ودمر الكثير من المدينة . ويقول المؤرخ عنها بأنها « نار هبطت من السماء » . وفي السنة التالية عصفت الزلازل المتلاحقة بعدن وهزتها هزاً عنيفاً فارتجّت مبانيها حتى الأساس . وقد لجأ الناس الى تلاوة القرآن وقراءه شروح البخاري . وهذا يعيد إلى الأذهان ذكرى الحادث الذي حل بالحديدة في عام ١٩٠٥ أو ما يقرب من ذلك التاريخ ويُذكّر به حيث ان وباء الكوليرا تفشّى هنالك بعنف واشتدّت وطأته فكان القوم يقرأون القرآن ليلاً ونهاراً ولكن الطاعون لم يمكث بينهم طويلاً . ولقد نُسبت تلك الكارثة الى فجور الفتيات وكان العلاج التركي موضع محك حقيقي ومحل اختبار فعلي اذ قاموا بإلحاق تلك الأخوات الضالات بأزواج لهن من أعضاء جنود الدرك العرب وهكذا عالجوا الوضع بالزواج للضرورة ولو ان المرض لم يمكث مع ذلك طويلا . ولكنّ شخصاً واحداً كان أحكم من بقية الآخرين اذ حوّل هذا الرجل انتباه، الى عيوب النظام الصحي والى قصوره ! وبذلك فقط كان قمع وباء الكوليرا بسرعة !

هل بركان عدن هامد ؟! ان المسلمين هناك يؤكدون بأنه قبل اليوم الأخير (أي يوم القيامة) سوف تنبثق النار التي تعتلج في أحشاء هضبة صيرة وتثور مرة أخرى ، وبأنها سوف تتخطى حدودها وتلتهم كل كائن حي فتقضي على الحياة في هذا الوجود . ولا جدال في أن جميع الأشياء تكون ممكنة ولا سيما عند ذلك الشخص الذي يؤمن أو يعتقد ! إذ يكون حدوثها بالنسبة اليه أمراً وشيكاً !

ان مشكلة المياه في عدن تجعل الحديث عنها يتكرر في أكثر من موضع فالمياه التي تتزود بها عدن غير مكررة وبدائية ويقال بأن تزويد عدن بمكثفات للمياه يؤثر على الأسنان بصورة خطيرة ومع ذلك فإن هذه المياه نقية ، ولو ان خطة ايصال المياه بواسطة الأنابيب من آبار الفيوش التي شيدناها بالقرب من لحج قد نضجت قبل الحرب لأصبحت عدن اليوم طافحة بالمياه ومشبعة بها لعدم وجود نظام كامل للمجاري ومن ثم لتصريف المياه التي تزيد عن الحاجة ولحدث نتيجة لذلك انتقال الكثير من الأمراض والأوبئة التي تحملها المياه أو تختلط بها في حين أن المكان يعتبر الآن خاليا منها نسبياً أو عند المقارنة . كما ان مجيء الأتراك أيضا الى مقاطعتنا في فترة الحرب ربما كان مصحوبا بقطع المياه عنا كلية . وان أحسن طريقة ينبغي اتباعها تكون في العمل على الزيادة في عدد المكثفات الحكومية وتزويد جميع السكان بالمياه النقية مقابل قيمة اسمية مهما كانت الخسارة التي قد تلحق بإيرادات الحكومة . ويخبرنا مؤلف كتاب « تاريخ المستبصر » بأن سلطان ايران شاه ابن جانشيد قد حاول ايصال المياه إلى عدن من زايدة الواقعة في اقليم لحج ، ولكنّ المسافة كانت كبيرة جداً . ثم يخبرنا بأن هذا الشاه هو الذي شيد بعد ذلك الصهاريج (السدود) لجمع مياه الأمطار وخزنها ، وبأن الاسمنت الذي استعمله في بنائها كان يتم جلبه

واحضاره إما من زايدة أو من أبين الواقعة في بلاد السلطان الفضلي . ونحن قد أيدنا بدورنا الرأي القائل بالعودة الى مياه نهر تبن التي تَصُبّ في زايدة .

في خلال الأيام الأولى المبكرة من الحياة في عدن وعلى الأخص في عهد الجنرال السير أومور كريف General Sir O'Moore Creagh ، كانت حفلات ألعاب الفروسية كثيرة وشائعة . وكان سلطان لحج زائراً مألوفاً وذا شأن فيها . وكانت تلك الألعاب تقام على سهل المعلّا فوق طريق ممهدة أعدت بصورة خاصة لهذا الغرض ، وكان يحضرها جميع العدنيين . وسباق الخيل من الأمور التي كانت محبوبة لدى الرسول . والحديث المنقول يسجل ذلك « لم يكن يحب شيئاً بعد النساء أكثر من حبه للخيل » ويقول حديث آخر « ان الملائكة لا تحضر أياً من لهو الرجل ، ولا في حالات تسليته وساعات أنسه ما عدا ثلاث منها ، وأعني بها مداعبة الرجل لزوجته وسباق الخيل ، والمباراة في الرمي بالرماح والنبال » . ويجب أن تعود تلك اللقاءات المنعشة الى الحياة فهي احدى طرق تحسين علاقاتنا مع العرب .

ان نشر العدل النزيه يأتي في المقام الأول اذ يكون عبارة عن أرصدتنا السياسية وموجوداتنا الدبلوماسية في عدن اليوم . والنص القرآني يكون بالنسبة الينا مطابقاً وصالحاً للاستشهاد ﴿ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾ والمثل المعكوس لا يصدق علينا « ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » .

وبعثة كيث فالكونر Keith - Falconer Mission مصدر قوة أخرى لنا ورصيد آخر رئيسي فالشيء الذي تقوم به نافع وثمين . ويأتي على رأس المبشرين اسم الدكتور جون كمرون يونق Dr. John Cameron Young فهو الرجل الذي يحتل مكان الصدارة . وان التأثير لعمل هذه البعثة يفوق الحصر ،ورجال القبائل يفدون على الشيخ عثمان من كل أنحاء اليمن ومن أماكن أخرى مماثلة وبعيدة كذلك مثل الحجاز ومسقط والجميع يرددون شكرهم وثناءهم للمداوي الاسكتلندي على الرغم من انهم يخصّون الله بتسبيحهم ويوحدونه بتمجيدهم لأنه هو الذي يكون « مسبب الأسباب » ولأنه « ما يداويك الا من يدويك » أي انه لا يعالجك أحد مثل الذي أحدث فيك الألم . وبسبب نشوب الحرب الكبرى (١٩١٤) أصبح عمل البعثة معلقاً وموقوفاً مدة ست سنوات تقريباً ثم أُعيد فتح المستشفى من جديد في شهر مارس عام ١٩٢١. وفي الاثني عشر شهراً التي تلت ذلك كان عدد المرضى الذين تمت معالجتهم خمسمائة وتسعة وستين شخصاً . وأجريت لتسعمائة وتسعة وثلاثين مريضاً عمليات



مجموعة من ابناء السلاطين والمشايخ قبل افتتاح مدرستها



معبد بهافاني في كريتر

جراحية ويلغ عدد الأشخاص الجدد الذين قدمت لهم العناية الطبية سبعة آلاف وتسعمائة وعشرين مريضاً . ولقد جعلت تلك العناية الطبية عدد الزيارات اللاحقة تبلغ تسعة وعشرين ألفاً وخمسمائة وثلاث وستين زيارة .وهكذا وصل الرقم الاجمالي للمعالجات المختلفة خلال عام الى ٣٨,٩٩١ .

وتعتبر الكتيبة العربية من المهام الأخرى والأرصدة الحيوية ذات النفع في ذلك الوقت الذي كابدت فيه هيبتنا وتعرضت كذلك للامتحان ولا سيما بعد الحرب . وتلك الكتيبة هي الأولى من نوعها من الجنود المشاة اليمنيين الذين كانت مراكز قياداتهم موجودة في الشيخ عثمان . ولقد كتبت فيما سبق[1] عن تقدير الايطاليين للروح العسكرية العربية ، وعن انتفاعهم بمجنديهم من العرب . وأما نحن فلقد أخذنا على عاتقنا منذ وقت طويل جداً دور المحسن الرحيم ، والأريحي الكريم ، ولكنه دور الحكومة المنقولة الى مسافة نائية والمرتحلة بعيداً . وان المنح الموزعة على السلاطين هنا وهناك ، والمقدمة اليهم في المناسبات ، والمشتملة على هدايا متقطعة من الأسلحة التي يُرهبون بها الأشخاص المتمردين والعصاة من رجال قبائلهم ، وكذلك الهبات المقدمة الى بعض الأشخاص الذين يفوزون بموافقة الزعيم قد تسببت جميعها في رضاء القليلين ومدحهم ، واستياء الكثيرين وسخطهم ، وهذا يتناقض بوضوح مع الأمل العربي ويأتي على عكس العادة القبلية التي تبيح حكم الشخص وتسمح به طالما طابق الرغبة لدى الكثيرين من رجاله فقط وهم الذين يختارونه وينتخبونه

وان قيام أول كتيبة من جنود المشاة اليمنيين وانشائها في عام ١٩١٨ قد قربنا مرة أخرى كذلك من المناطق التي تقع في داخل البلاد وجعلنا نختلط بها مرة أخرى عن كثب وأصبحنا نمسك بالخيوط التي كنا قد ألقيناها جانباً في عام ١٩٠٧ فابتدأنا نعمل ولكن بتطفل أقل مما كان يحدث خلال اقامتنا السابقة في أعالي البلاد كما ان المعاش المدفوع الى الكتيبة أصبح يذهب الى الكثيرين من الناس ومن ثم لقاء تعويض اذ هو عبارة عن هبة بمقابل ولا توجد فيه أية شبهة من ابتزاز للمال بالتهديد أو البلص . وكانت تلك المرتبات تذهب الى رجال يعيشون في مساحات واسعة موزعة ومتباعدة وهم جديرون بأن يكونوا موضع الاعتبار والتقدير الى حد بعيد.

إن الجندي العربي معتاد على أن يفاخر ويعتز ليس بنفسه أو فرقته فقط ولكن بالحكومة التي يأكل عيشها وملحها لأنه بالرغم من حبه للاستقلال فإنه يصبو الى دولة . فالعربي كما عبر عن ذلك أحدهم تلميحاً وتوريةً يتوق إلى دولة أو حكومة حتى ولو كانت تلك الدولة مجرد شركة أو مؤسسة تقوم بتوزيع الهبات وإنفاق الأموال ! أو تقديم الإعانات والمساعدات ! ونحن

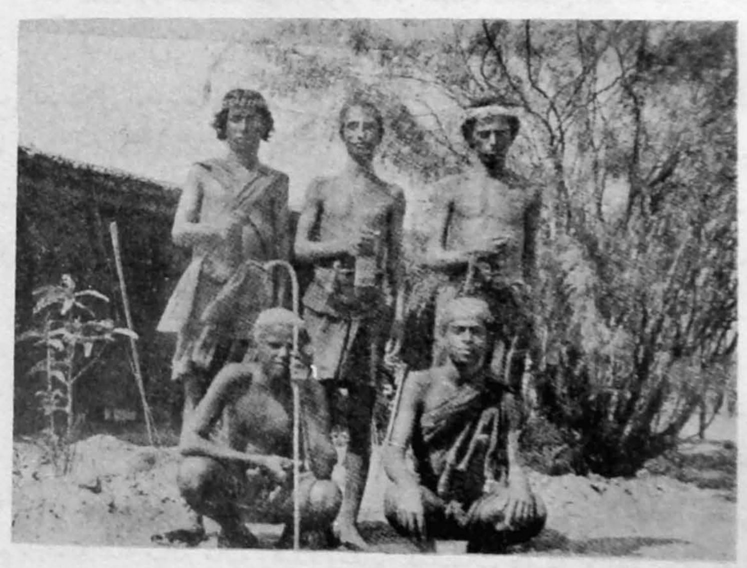
---

(١) راجع الجزء الأول (المترجم)

البريطانيون توجد لدينا عادة غريبة في جعل الآخرين يستهلون شيئاً جديداً ثم نتركهم بعدئذ يحذون حذونا بعرج وبتردد . وكل ضابط بريطاني يعمل في هذه الكتيبة انما يكون في حقيقة الأمر ومن الناحية الفعلية عبارة عن ضابط سياسي اذا ما تم انتخابه بحرص وعناية من أجل حبه للشرق . ومهما كان الأمر فإنه يجب أن يكون عدد الضباط البريطانيين محدوداً واالا فإن الضابط العربي سيجد نفسه عديم الأهمية ويصبح الجندي مجرد آلة متحركة تعوزها الحيوية أو مجرد شخص يعمل بطريقة روتينية أو آلية . ومن الواجب أن يكون القائد أو ضابط القيادة .C .0 أميراً خالصاً ومن سلالة ملكية نقية كما قال عن ذلك جون يعقوب John Jacob . ويجب ان تكون السلطة العليا السائدة بالقدر الذي يهم الناس أصحاب المصلحة ، « والقاعدة الوحيدة للنظام العسكري وهي القاعدة التي يفهمها جيداً جندي وطني هي الطاعة لقائده . وهو لا يستطيع أن يتعلم التطلع الى الوراء والنظر الى الخلف والالتفات الى ما حوله بدون خسارة كبيرة لنفوذه ولمقدرته » . وهذه الكلمات تستحق الكتابة بالذهب ، واذا ما كانت مطابقة للهنود فما أكثر انطباقها كذلك على الجنود العرب . وأنا أرى بأن استخدام الضباط من بين الأشخاص العاملين في الجيش البريطاني يكون أفضل من استخدام الضباط العاملين في الجيش الهندي لأن هؤلاء بسبب ألفتهم الطويلة مع الهنود يكونون عرضة للنظر الى العربي من وجهة النظر الهندية . ومع ذلك فإن ضابطاً كهذا تتوفر لديه المهارة كجندي سوف يذيب بعض قطع الجليد ويترك أثراً في فيلق عربي أو كتيبة عربية ولكنه أثر ضئيل . ولا شك أن اختلاط الضباط البريطانيين مع العرب في ألعابهم سيكون من أهم الأمور وأعظمها شأناً ، كما ان النظام سوف يحدث انقلاباً في شبه الجزيرة العربية . ولكن الترويج للألعاب أو اطلاقها من القيود سوف يشكل السلسلة التي سترابط العرب الينا وتجعلهم فيما بعد أكثر قرباً منا . ونحن نكون من هذه الناحية ممتازين جداً وبطريقة أخرى أكثر تفوقاً على الضباط الايطاليين الممتازين كذلك عند المقارنة .

ولقد وصلنا الى غرضنا أخيراً بإنشاء هذه الكتيبة من جنود المشاة اليمنيين . وان مشروعي المتعلق بالتجنيد والمطروح عام ١٩٠٥ وهو الذي كان يقابل بالرفض والاعتراض قد نضج الآن واستوى ، ولكن ليس من الحكمة النداء بالهتاف ما لم تكن الرغبة خالية من الصعاب اذ يشاع بين القوم هناك بأن وزارة المستعمرات ستقوم بعمل التدابير لخصي رجال الكتيبة وبيعهم بالجملة لقاء مبالغ مالية زهيدة ومقابل دريهمات طفيفة أو انها تنوي تحويلهم الى جماعات من جنود الهجانة الهزيلة ذات الأبدان الضعيفة والنحيلة من أجل القيام بالخدمة في أرض الصومال وبذلك تقل مقدرتهم وتضعف فائدتهم في حين ان جنود المشاة يكونون أفضل





أوائل المشاة اليمنيين .



نفس مجموعة المشاة بعد ثلاثة اسابيع من تدريبهم

المحاربين على الإطلاق من وجهة نظرهم . وهؤلاء الرجال اذا ما تركوا في أماكنهم ولم يطرأ تخفيض في عددهم بل بالأحرى يكون العمل على زيادته فإننا سوف لن نحتفظ بسلطة أدبية ومعنوية على البلاد التي تخلينا عنها وهجرناها في عام ١٩٠٧ فحسب ولكننا نستطيع ـ بدون أية مخاطرة ـ أن نقوم بإنقاص عدد الجنود الهنود العاملين الآن في عدن .

ويقال بأن العنصر الزيدي الموجود بين هؤلاء المجندين سوف لن يحارب الإمام الزيدي إذا ما دعت الحاجة الى مثل ذلك وهلمّ جرّا . هذا هو ما يقوله المتشائمون ومن يسيئون الظن . فهل نحن اذن أدنى من الايطاليين في قيادة الآسيويين ؟ وهل ليست لنا بالفعل أية أفضلية عليهم في هذا الخط ؟ وهل العرب أنفسهم الذين جنّدهم الايطاليون قد تخلّوا عنهم عند محاربة التركي المسلم ؟ وهل الجنود الهنود لم يفروا أبداً في كل من عدن وفرنسا وفي أماكن أخرى ؟ ولماذا كل هذا الثغاء والبلبلة ؟ في حين ان هنالك مسألة أخرى هامة وهي الافتقار الكلي الى مثل الآراء الوطنية السائدة في صفوف الجيش الهندي حيث لا يوجد شيء من ذلك النوع في شبه الجزيرة العربية .

وفيما يتعلق باحتمال رفض الجنود الزيود لمقاتلة حاكم صنعاء الزيدي في الظروف الاستثنائية التي تؤدي الى مثل ذلك أو بسبب قيام سياسة رديئة وغير سديدة قد تستطيع إحداثها في بعض الحالات عوامل وظروف طارئة فقط فإن تلك أفكار باطلة وتخرصات وهمية لأن الزيود أقل تعصباً من الشوافع كما وان كل الرجال من الفريقين أو الطائفتين سوف يقاتلون من أجل الشخص الذي يطعمهم ويدفع اليهم المرتبات . كما وان كل طائفة من الطائفتين سوف تندفع بعنف ضد الأخرى اذا ما آمنت بضباطها ورؤسائها سواء كان هؤلاء الضباط والرؤساء كافرين أم غير كافرين ـ نعم انهم سوف يقتلون حتى أقاربهم القبليين الحقيقيين .

ولتستمع مصغياً مرة أخرى الى جون يعقوب الذي ولد مفطوراً ليكون قائداً للرجال اذ يقول : « ان شخصاً واحداً يكون نشيطاً ومؤثراً وفعّالاً ومفكراً تفكيراً سليماً ومتحلياً بخصائص الرجل الانكليزي النبيل يستطيع ـ حتى عندما يكون وحيداً ـ أن يفرغ روحاً عظيمةً في الآلاف من أولئك الجنود الشرقيين لدرجة انهم سوف يتبعونه الى أي مكان ، ويطيعونه في كل الأمور » . ولقد ارتاب بعض المتشائمين عندما أنشئت الكتيبة العربية وتم تشكيلها وساورتهم الظنون فيما اذا كان الزيود والشوافع سوف يندمجون في كتيبة واحدة . وهذا الارتياب ناشىء عن التجربة الهندية فهو بالأحرى تصوير للاختلافات الحادة في الهند والتي قد تهدد بخنق شبه الجزيرة العربية اذ في الهند يكون خط الانقسام الفاصل بين السنة والشيعة أكثر وضوحاً ومحدد

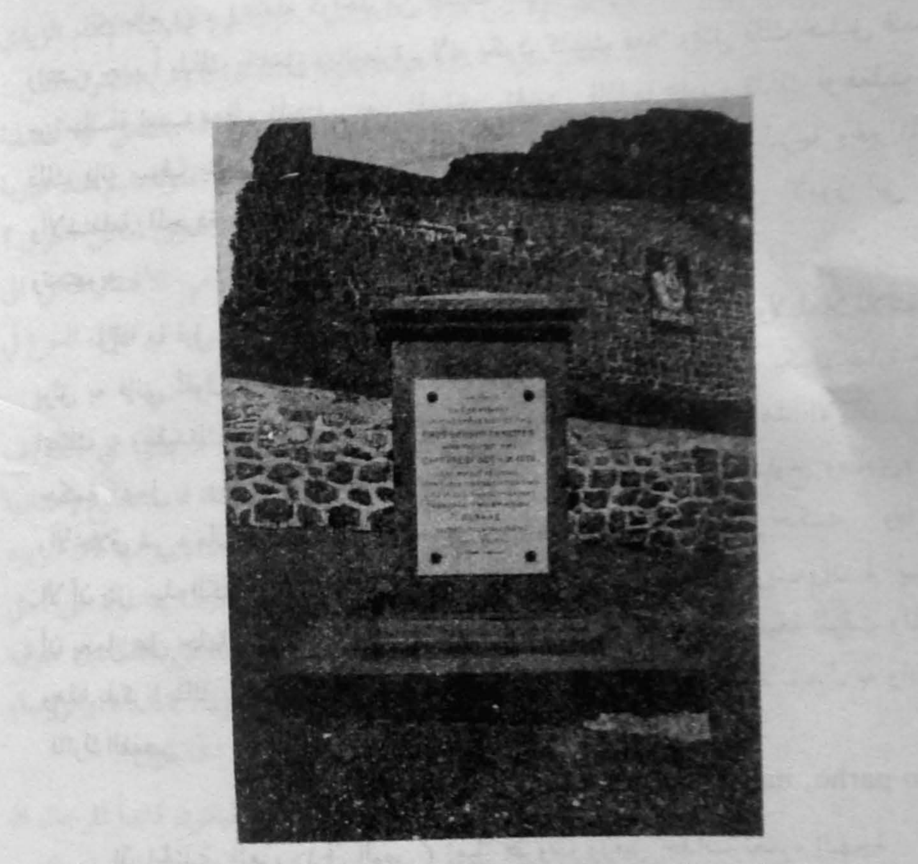
المعالم ومن الممكن التعرف عليه بجلاء كبير . وفي الهند أيضا يتحتم على كلا الطائفتين المتحزبتين أن تتعبدا على انفراد حيث تصلي كل واحدة منهما في مسجدها الخاص بها . وأما عند أول كتيبة من جنود المشاة اليمنيين فإن الأمر يختلف اذ يحتشد الجميع في مسجد واحد ويؤدون الصلاة مجتمعين .

ثِق بالعربي ، وعامله كواحد من السادة النبلاء والرجال الأوفياء بحكم الطبيعة والجبلّة واعتبره جديراً بذلك بالفعل وبالفطرة ـ لأنه يكون كذلك فعلا ويمثل ذلك خليق فنسبه أنقى من سلسلة نسب معظم المجندين من المسلمين الهنود ـ فإذا ما عاملته كذلك أو فعلت معه مثل ذلك فإنه سوف يتبعك في كل حين والى أي مكان كما ان العدالة النزيهة وغير المتحيزة ، والاستقامة المجردة ، والصبر الذي لا يعرف الكلل ولا الملل من الأمور التي تستميله وتستهويه .

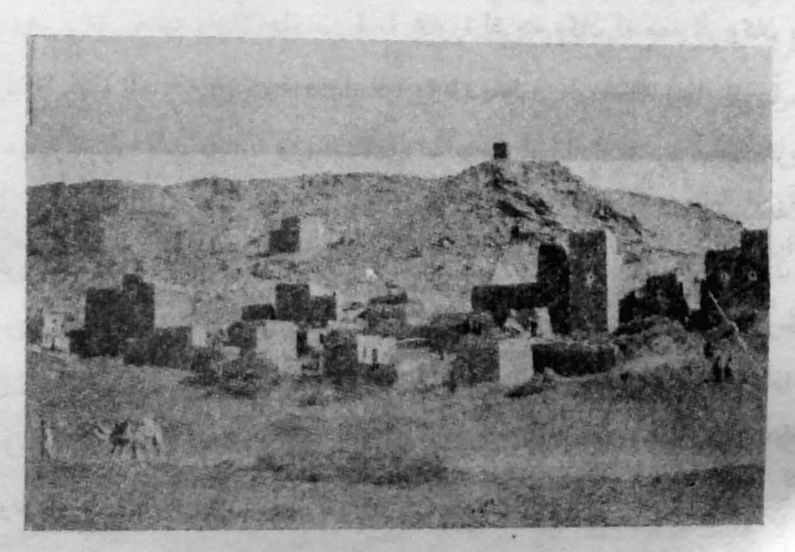
وإذا ما قيل بأن الجندي العربي لا يمكن أن يكون محلاً للأمان ولا أهلاً للائتمان اذ لا يوثق به فإنني أقول بأن مقياس نفوذك على رجل ما أو تأثيرك عليه ، يكون عبارة عن مدى ايمانك به وعقيدتك فيه وعن مدى إيمانه بأنك تؤمن به وعن عقيدته في هذا الايمان . انه كتاب حكمة مهمل ، وهل كتاب يحتوي على الحكمة السائرة والمثل الدارج ومبادىء الفضيلة والأخلاق شيء مألوف أو مبتذل ؟ تصفحه ، وطبقه عمليا ثم تحقق من حكمته . وما على المرء الا أن يثق بهذه الكتيبة العربية الثقة الكاملة والمطلقة التي لا يخالجها أدنى ريب وإن لم يفعل أن يعمل على حلها وتسريحها في الحال . وأي عمل غير ذلك يكون مضيعة للوقت والمال معاً . وهذا يذكرنا بالمثل الهندي القائل : « غنّ اذا كنت عازماً على الغناء والانشغال به وان لم تفعل فاترك القفص

Parho to parho, nahin to prinjara khâli karo ».

إن الجندي العربي (في اليمن) زميل طروب ورفيق جذاب تغمره البهجة . وهو مغنٍّ غرّيد تملأه الفرحة حينما يعمل. انه عشير مفرح وسارّ ، وصاحب مسلٍّ يحب النكتة والمزاح . ولقد وجدته على الدوام شخصاً مستقيماً وصادقاً في كلمته الموعودة ، ووفياً فيما يتعهد به . ويحتاج الأمر الى وقت قصير لكي يتشبع هذا الرجل بروح الجماعة وتنغرس في نفسه الألفة والتضامن . ان ساكن الجبال ذا الشعر الطويل مرتدي الملابس الزرقاء والثياب النيلية والذي تكون عمامته محشوة بنباتات عطرية يفوح منها العبير يتحول بسرعة الى الجندي المثالي . انه شخص معتدل القامة والهيئة ومن أجود ما يكون سلوكاً وشكلاً وقيافةً وانتصاباً مع ميل الى



لوحة تذكارية للذين سقطوا في عدن عام ١٨٣٩



A Ty نموذج لقرية يمنية .LAGE

التسامح والتهادي في مشية اللهو والمرح اذ يشعر في قرارة نفسه بأنه جندي . والعرب يعبرون عن ذلك بقولهم « كبرياء مصطنعة » أو يقولون : « انه يتنهود » ولا ريب ان ممارسته للصيد وحبه للقنص وتحليه بالرشاقة وخفة الحركة التي تُكتسب على قمم التلال حيث يتسلق حيوان الوعل والماعز الجبلي قد عجّل بالتحول العسكري لديه بسبب استعداده الحربي وعندما زارني في مقر القيادة شيخ من ساكني المرتفعات التي توجد في داخل البلاد كان متأثراً كثيراً بالسلوك العسكري والبسالة الحربية عند هؤلاء الرجال . ولقد نظر نحوي ثم نطق قائلاً « بالله ما أروعهم ! إنهم أبطال صنعتهم حكومتكم من بيننا معشر العرب ! » . وكان هذا الشيخ يتحدث وهو يرمق بعينيه رجلاً جاء من قرية مجاورة لقريته وكان له معه ثأر وكان بينهما دم .

وتبلغ القوة العددية في كتيبة المشاة اليمنية هذه حوالى أربعمائة رجل تقريباً . فهي اذن في مجموعها صغيرة العدد جداً . وفي اعتقادي انه يوجد فيها ثلاثة عشره ضابطاً عربياً . ونسبة الزيود الى الشوافع فيها من واحد الى أربعة تقريباً . وأنا أرغب في إسداء النصيحة بقيام نسبة زيدية مئوية أكبر لأن الزيود أفضل الجنود وأحسن العساكر . كما ان بعض البطون التي تعتبر من أحسن القبائل المحاربة لم تجنّد الى الآن . وفي الإمكان ابعاد العدد القليل من رجال القبائل المتقدمين للتجنيد من أجل الأفضلية . ولكن الاختيار يعد في جملته بديعاً ومقبولاً اذا ما أخذ به ككل . ويعود الفضل الأكبر في ذلك الى العقيد م . س. ليك Colonel M. C. Lake الذي ولد ليكون قائداً بين العرب وحائزاً على كسب كبير . والعربي شخص يحب الحرب ويحب أن يقاتل فالثأر يناديه الى ذلك . والمثل عندهم يقول (النار تأكل نفسها ان لم تجد ما تأكله) . والجنود في هذه الكتيبة لديهم هدف متوقع وغاية مرتقبة . انهم يستطيعون القتال اذا ما أُتيحت لهم الفرصة تحت العلم البريطاني .

ومن المفيد معرفته والجدير ذكره وتقديمه هدية الى نظامنا البريطاني القوي استعادة الكلمات التي وردت على لسان الشريف حسين صاحب أبي عريش وهي المروية عن طريق دوماس Dumas ذلك الكاتب والمؤلف الذي استشهدت به واقتبست عنه هنا وهناك حيث يناقش استحالة التدريب بين الحشود العربية المُجندة فيقول : « ان التدريب مع رجال مثلهم أمر مستحيل لأنهم نادراً ما يطيعون الرؤساء أو يمتثلون للزعماء الذين يعرفونهم منذ الطفولة فكيف سيصغون بعدئذ لأولئك الناس الذين لا يعرفونهم ؟ » .

لكن قد يوجه مثل هذا السؤال التالي : لماذا كان من المحتم علينا معشر البريطانيين تنشيط هذه الخميرة في اليمن ؟ ولسوف أجيب عن السؤال على الطريقة الاسكتلندية بالسؤال عمّا اذا كان السائل يفضل خميرة غيرها لقوة أوروبية أخرى تأتي هنا فتحلّ في مكاننا وتصبح عوضاً عنا ؟ واننا نرغب في أن نشاهد شبه الجزيرة العربية وقد أصبحت مرة ثانية تحت أيدي العرب ، وأن يكون كل واحد منهم قد غدا مقيماً في منطقته المحددة له وفي محيطه الخاص به ، فالقول بإلغاء الإمارات والممالك القائمة في هذه الأيام من أجل تنصيب حكام عرب آخرين من خارج مناطقهم المخصصة والمحددة ووضع تيجان على رؤوسهم انما يكون أمراً عقيماً وعملاً باطلاً . وتلك التيجان انما تكون في أمان طالما وقفنا بجانبها من أجل أن نُسندها فقط . والأمر الجوهري بالنسبة الينا في هذه البقعة ـ ونحن الذين مكثنا مدة ثلاثة وثمانين عاما على اتصال مستمر[1] « باليمن الخضراء » ـ هو انه من المحتم علينا الاحتفاظ بها والمحافظة عليها تحت نفوذنا الحامي لأن الحال كما قاله لي منذ عهد قريب داهية أمريكي : « أنتم معشر البريطانيين في علاقتكم بالآسيويين وفي تعاملكم معهم تملكون الطريقة التي لا يستطيع واحد آخر غيركم أن يجاريكم فيها أبداً أو أن يقلدكم » . ولقد شعرت بأن عليّ التزام بالموافقة على كلامه وبأنني مضطر إلى مجاراته في ما قاله .

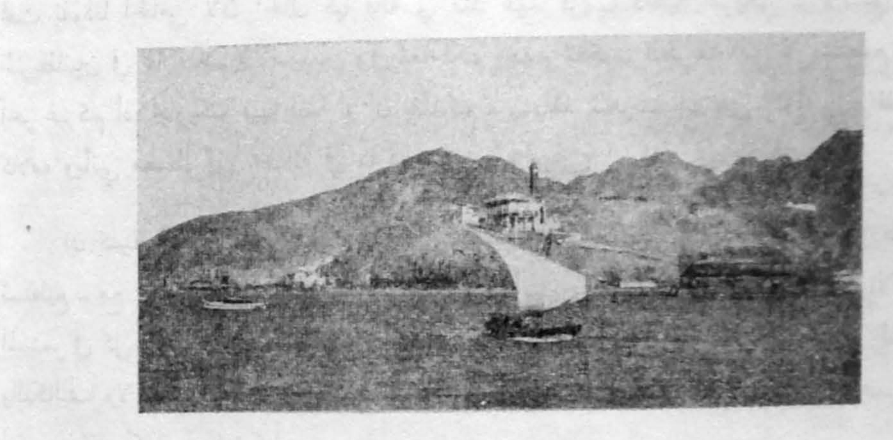
ان كتيبة المشاة اليمنية مصدر قوتنا السياسية وموجوداتنا الرئيسية اليوم ، وعن طريقها نستطيع ـ مع تحقيق النفع لأنفسنا وللعرب معاً ـ أن نحافظ على الارتباط الدائم والاتصال المستمر في كل أنحاء البلاد . والنفوذ وحده هو الشيء الذي يكون ماهراً وبارعاً وقليل النفقات والتكاليف ولا يحدث ضجة ولهذا فإن بلوغه الى أقصى مدى يكون عملاً مكفولاً ووصوله الى أبعد مسافة يكون أمراً ممكناً .

ومن الموجودات الثمينة الأخرى التي نملكها في اليمن ، الجندي البريطاني فهو منقطع النظير اذ لا يقاس بغيره ولا يقدر بثمن . وأخيراً يأتي دور المؤسسة العريقة للبيت التجاري القديم كواسجي دينشاو اخوان Cowasjee Dinshaw Bros. فلقد كانت هذه المؤسسة مفيدة لنا ونافعة على الدوام . وكان ما قدمته لنا أيضاً في الحرب العظمى وفيراً اذ يصل الى المائة ضعف وبذلك برهنت بالتجربة الفعلية على مواقفها معنا . ولم نكن نستطيع العمل لولا

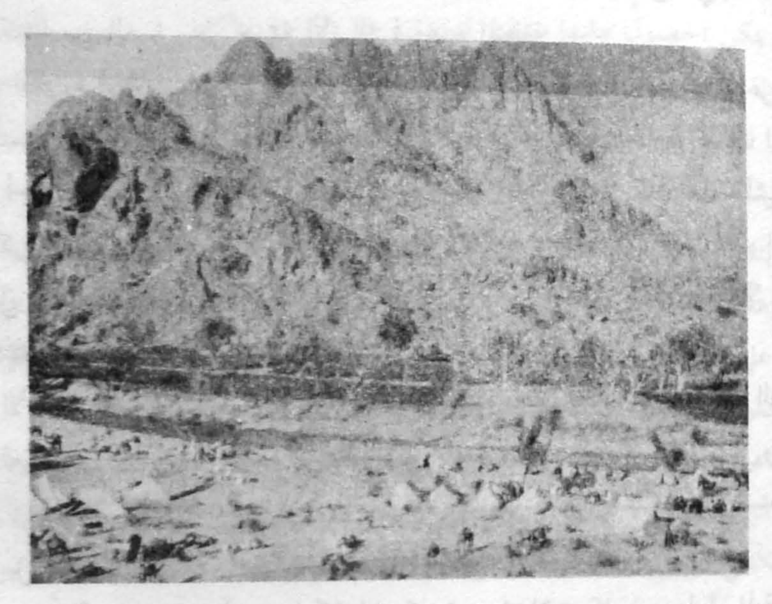
---

(١) ـ أصدر المؤلف كتابه عام ١٩٢٣ وكان قد مضى على وجود البريطانيين في جنوب اليمن ٨٣ عاماً كما يقول . ولكنهم رحلوا عن « اليمن الخضراء » في آخر عام ١٩٦٧ بعد أن مضى على وجودهم فيها ١٢٨ عاماً .

(المترجم)



سفن بخارية



مخيم في الحوشبي

المساعدة الفورية التي كانت تقدمها لنا السفن التي تملك منها هذه المؤسسة أسطولاً مكوناً من ست قطع بحرية . وعندما كان من المحتم علينا إيقاف حركة المراكب الشراعية العربية خشية من أن ترسو على اليابسة وتقوم بإنزال بضائع العدو وسلعه على امتداد ساحل البحر الأحمر حلت محلها شركة س. د. اخوان C. D. Bros. بكامل سفنها البخارية . وهكذا خففت عنّا أعباء المراقبة والإشراف والحراسة التي كانت تقوم بها البحرية الملكية وسفن خفر السواحل . والغريب انه يوجد ميل الى السخرية من الامتياز الذي حصل عليه هذا البيت التجاري خلال سنين طويلة في حين ان هذا الامتياز كان مفيداً لنا تماماً ومربحاً وقد برهن على انه وضع في محله وحصل على الاستحقاق الكامل اذ كانت س. د. اخوان احدى الوسائل التي مدّتنا بالمساعدة والعون ومكنتنا من العمل على هزيمة الأتراك في هذه المنطقة .

وان الشيء المطلوب في اليمن والذي تستدعيه الحاجة هناك هو عبارة عن مدّ خط حديدي لتنمية التجارة فيها . كما ان هذه البلاد بالأحرى في أمسّ الحاجة كذلك الى كلية أو معهد من أجل تعليم أبناء السلاطين والمشائخ . وفي عام ١٩٠٥ كان هذا المشروع تحت الدرس ولكن عدم التنفيذ هو الذي استأثر بالنجاح وفاز به . وأخيراً تم بعث هذه القضية من جديد بفعل المندوب السامي والقائد العام الجنرال السير جيمس ستوارت General Sir James Stuart.

ان الأطفال العرب ينمون ويكبرون وهم في جهل مطبق لكل شيء ما عدا القتال القَبَلي والعراك العشائري وفنون الحرب التي يتدربون عليها ويدشنونها في طفولتهم ومنذ نعومة أظفارهم . انهم لا يلعبون الألعاب الرياضية ولا يمارسونها بل يدمنون على استعمال ورق القات الوبيل الضار . فالقات هو الذي يقوض قواهم ويعطل طاقاتهم . ونحن نرغب في أن نتلقفهم صغاراً لأن للشباب العربي امكانيات كبيرة ومؤهلات كثيرة . ولعل الموقع المناسب للكلية المقترحة يقع في سهل خور مكسر حيث سيبتعد الفتيان عن العادات المفسدة والمؤثرات الضارة الموجودة في أسواق عدن . وللإشراف على الكلية يجب علينا ان نستدعي رجلاً انكليزياً نبيلاً متصفاً بالنشاط ومتحلياً بقوة التأثير والعزم . وينبغي أن تكون له معرفة باللغة العربية ومهارة بالألعاب الرياضية . وأن يكون فوق ذلك شخصاً حائزاً على فضيلة العطف والحنان والميل إلى مشاركة الغير وجدانياً وأن يتوفر لديه صبر أيوب . وأما عن المساعدين التابعين والموظفين المرؤوسين فإنه من الممكن وجودهم والعثور عليهم في مصر أو سورية حيث يكون في الاستطاعة الحصول عليهم من هذين البلدين . ولا بد من أن يتم اختيار التلاميذ وانتخابهم بواسطة المندوب السامي الذي سوف يرشح بعض الأطفال للتعليم المجاني ويقرر في كل

الأحوال الرسوم المعقولة . وينبغي أن يشتمل المنهاج المدرسي على الألعاب الرياضية العديدة والمختلفة ، وأن يتضمن كذلك لعبة البولو وأن ينص على تكوين فرق مدرسية تتلقى التدريب العسكري الأولي وأن يحتوي أيضاً على الأساس الشامل والالمام التام باللغة العربية والمعرفة بالأدب والتاريخ العربيين . ويجب أن يحتل القرآن مكاناً بارزاً في هذا المنهاج وأن يشتمل المقرر التعليمي أيضاً على الحساب والرياضيات الأولية وعلى المعرفة الكافية باللغة الانكليزية . ولعله من الممكن أن يتعلم بعض المؤهلين من التلاميذ القواعد والمبادىء الزراعية لأن العرب يتحركون في الطريق المحافظ ، ويسيرون في الممر المتوارث ولديهم القناعة والرضاء في أن يحذوا حذو أسلافهم وفي أن يكتفوا بما كان عليه أجدادهم . والفائدة السياسية الناتجة من معهد كهذا أو الميزة التي يمكن الحصول عليها سوف تتحقق على الوجه الأكمل . وسيتم التمويل عن طريق النفقات والمصروفات ثم بواسطة اصدار الأوراق المالية أو سندات دين الحكومة وبذلك يكون تدشين الكلية ومن ثم المحافظة عليها وإدارتها . وهذه بالأحرى ستكون سياسة مقوية ومعزّزة داخل محمياتنا أكثر منها موسعة وشاملة .

وفيما يتصل بالشبيبة العدنية تكون الحاجة ملحة إلى احداث فرق كشفية وفتيان مرشدين . وهذه الحركة سوف تكون رائجة جداً ومحبوبة للغاية عند كل من الشبان العرب والصوماليين على حد سواء ، لأن الشبان في عدن ينحدرون اليوم نحو الشيخوخة والوهن وإن الضعف والخمول قد أصبح يهددهم في الوقت الحاضر . وتسليتهم الوحيدة عبارة عن لعب القمار في المقاهي . وكان السيد بريدج Mr. Berridge شخصاً مُجدياً ومفيداً لمبادرته بإنشاء ورشة نجارة من أجلهم وفي سبيل مساعدتهم . وهذا المعهد المهني بحاجة الى رعاية دقيقة ، وعناية مبذولة عن طريق السلطات المسؤولة .

وقصارى الكلام أو بالاختصار نجد بأن الكتيبة العربية ، والكلية العربية ، والبعثة الطبية أمور ستربطنا بحبل مثلث إلى أفئدة القوم العرب والى قلوبهم . ولا حاجة بنا مع وجود مؤسسات في عدن كهذه الى الاهتمام بالهضاب والمرتفعات والسهول التي تقع خلف عدن لأن قوة الهضاب والمرتفعات تكمن هنا في عدن وهي بدورها قوة لنا أيضا ! « فها هو هنا يحرث حقله ويؤدي دوره .«Il faut cultiver son jardin

تبقى مسألة التجارة . والمشروع التجاري الخاص هو القوة المحرّكة التي سوف تجعل العجلات تسير وتندفع والدواليب تدور وتتحرك . واليمن بلد يتوق الى التجارة بالرغم من التقاليد « لا تدخل الآلة منزل قوم إلا وتحطّ من قدرهم » . وساندِمان لا يعلل هكذا في بلوشستان .



حاكم دالا الأمير شريف بن سيف



جامع العيدروس الكبير كما يبدو حاليا .

وفي شبه الجزيرة العربية يوجد لدينا فريق من المحاربين كما توجد لدينا كذلك طائفة من التجار الذين يناديهم رجال القبائل في الضالع بالمقرطسين أو « مُغلفي السلع في الورق » .
وكان مؤلف كتاب « العربية السعيدة L'Arabie Heureuse » حزيناً من مركز انكلترا في اليمن . ولقد كتب قائلاً : « ان التجارة العربية محطّمة تقريباً في عدن . والشيء الوحيد الذي يبعث الحياة ويساعد على الحركة هو عبارة عن ما يعاد عرضه في هذا الميناء أو يطرح للتداول من الحقيبة الهندية ! والتجارة بأكملها أو على وجه التقريب محصورة في الأيدي الانكليزية والهندية » . وإفادة دوماس[1] هذه أو روايته غير صحيحة . كما انه يوجد فيها تحامل وانحياز . فلقد ازدهرت التجارة في عهدنا وانتعشت بتولّينا بدون احتكار غير انه نادراً ما كان يحدث التعاطي في بعض السلع الإضافية المتاحة أو الموجودة في متناول اليد فكان يتم الإمساك بأهدابها واللمس في حافاتها . وكان محصول البن ضئيلاً بالنسبة الى ما كان ينبغي أن يكون عليه . وأما الجلود والمنتوجات الحيوانية فانها كانت وفيرة . والاحتلال التركي لم يشجع حجم التجارة الكامل أو التام وانما مارس الأتراك التجارة بالقدر الذي كان يفي بتطبيق سياستهم وادارة أمورهم اذ خافوا من قيام الرخاء في الأمة العربية الذي تتكفل بتحقيقه تجارة نشيطة ومزدهرة كما خافوا من يقظة الأمة العربية وصعودها نتيجة للازدهار التجاري السريع النمو والحركة أو بفعل الرخاء . ولو ان الأتراك مكثوا في البلاد مدة أطول وعلى الأخص الآن وبعد نهاية الحرب فانني أعتقد بأنهم كانوا سوف يتحركون للقيام بتلبية حاجات التنمية الملحة أو للعمل على استغلال الموارد الطبيعية وعلى الأخص المناجم والمعادن الموجودة في هذه البلاد والتي لم تُمس اذ يقال بأن الحديد موجود فيها ومثل ذلك النحاس والفحم والذهب والفضة وكذلك الملح الصخري حيث يكون متوفراً في أماكن عديدة . والقطن في هذه البلاد زراعته ممكنة ولإنتاج التبغ مستقبل مأمول . ومن الممكن توسيع وتحسين أحواض عدن الصناعية التي يستخرج منها الملح بطريقة التبخير لمياه البحر المالحة وبذلك يتم استغلاله بصورة مرضية وبكيفية تكون مربحة تجارياً فتزيد إيراداتنا ويرتفع دخلنا . ان هوريس Horace يترنّم « بكنوز العرب الدفينة وغير المستثمرة » وبروبرشيوس[2] Propertius يتحدث عن « جواهر البحر الأحمر وأحجاره الكريمة » .

---

(١) دوماس Dumas هو الاسكندر دوماس مؤلف كتاب « العربية السعيدة » المشار إليه .
(المترجم)

(٢) بروبرشيوس أو بروبرشيص Propertius هو شاعر روماني عاش في الستينات ق . م . وقد ورد ذكره في أكثر من موضع من هذا الكتاب .
(المترجم)

ولقد عرف الأتراك رواسب المعادن في اليمن ، وعن طريق الإعلان عرضت الحكومة في صنعاء في عام ١٨٨٠ دفع مبلغ خمسة آلاف دولار من أجل الإدلاء بمعلومات تؤدي الى اكتشاف الذهب . ومبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار في مقابل العثور على مكامن الفضة . وستمائة دولار من أجل التعريف بمناجم الفحم . غير أن العربي الماكر توارى في التراب .

* * *

انني لست محامياً ولا مدافعاً عن المؤسسات الأجنبية وأصحاب رؤوس الأموال من أجل الاستثمار في هذه البلاد أو القيام بالتنقيب ، أو الكشف والاستغلال. ومع ذلك فأنا مؤمن بسلامة قيام مشروع تجاري بريطاني أو شركة بريطانية خاصة بتقديم رؤوس الأموال من أجل الاستثمار شريطة أن يعمل روادنا من خلال وكالة عربية تتولى القيام بتمثيل ذلك المشروع أو تلك الشركة لأن تنمية البلاد تكمن بأمان في الأيدي العربية ، وهي التي يجب أن لاتكون مكرهة ولا مرغمة بطريقة من الطرق غير اللائقة . ولدى كل من إمام صنعاء[1] وحاكم صبيا في عسير استعداد كبير من أجل تنمية مواردهما . فهما لذلك أكثر من مهيئين ولديهما الرغبة في استثمار مصادر ثرواتهما ولا سيما الآن بعد أن ذهب الأتراك . وكل ما هو مطلوب أن تكون المشاركة الوجدانية منسجمة مع المطامح العربية ، وأن يتوفر الصبر الذي لا يبحث وراء الفوائد السريعة عن المصروفات ، ولا يتعجل العائدات الفورية عن النفقات .

وهناك الكثير مما يقال ويحكى عن التقاليد والعنعنات والأمثال السائرة ، والآثار المنقولة والمتداولة مثل : « الإيمان يمان والحكمة يمانية ، أساس كل الأشياء هنا ، أو كل الأشياء العظيمة والأمور الجليلة أصلها في اليمن ، والنسل سيدوم والحياة باقية مع بقاء كوكبها » .

* * *

---

(١) أي في عام ١٩٢٣ عندما أصدر المؤلف كتابه . (المترجم)

الفصل الخامس عشر

[جزيرة سقطرة وبلاد حضرموت القديمة]

تقع جزيرة سقطرة في المحيط الهندي عند خط العرض ١٢° ، ٣٠° شمالاً وخط الطول ٥٤° شرقاً . وهي تكون على بعد حوالى ١٣٠ ميلاً إلى الشرق والشمال الشرقي من رأس قاردفوي[١] Guardofui وعلى بعد ١٩٠ ميلاً الى الجنوب الشرقي من البر العربي الرئيسي[٢] وهذه الجزيرة تابعة لسلطان المهرة صاحب قشن وهو الذي يقع اقليمه على اليابسة ضمن الأرض الرئيسية العربية[٣] . والمهرة محصورة ما بين خطي ٥١° و ٥٣° من خطوط الطول شرقاً على وجه التقريب . وطول جزيرة سقطرة عبارة عن اثنين وسبعين ميلاً . ويبلغ عرضها حوالى اثنين وعشرين ميلاً . وتتراوح مساحتها ما بين ألفين وثلاثة آلاف ميلاً مربعاً . والعاصمة تماريدا ، وهي تقع عند خط الطول ٥٤° ومن المرجح ان البرتغاليين قد خلعوا عليها هذا الاسم بسبب أشجارها الكثيرة من النخيل وثمارها الوفيرة من التمور . وأهل سقطرة يسمونها حديبو . والعاصمة القديمة كانت تُدعى شيق ، وهذه الكلمة سقطرية أو سوق وهذه الكلمة عربية . وما زالت خرائبها قائمة وأطلالها باقية ومرئية وهي تقع الى الشرق قليلا من الحديبو . ومن الأماكن الأخرى الهامة كلانسية أو « قلنصية » الواقعة في أقصى الغرب . ثم الكثوب أو « القضوب » التي تقع أيضا في الجهة الغربية وعلى مقربة من الحديبو ويبلغ ارتفاع الجزء الرئيسي من جبل هجر أو « حجر » العظيم خمسة آلاف قدم تقريباً وصخوره مكونة من حجر الغرانيت أو الصوان المتبلّر أو السماقي (فلسبار) . وأما السهل أو النجد فإنه يكون على وجه العموم مكوناً من حجر الكلس أو الحجر الجيري . وسقطرة كانت في زمن ما جزءاً من البر الرئيسي . ويبلغ عدد السكان فيها قدراً يتراوح ما بين عشرة آلاف واثني عشرة ألف نفس . والسكان القاطنون على طول الساحل البحري أو في الأماكن القريبة من الشاطىء ينحدرون من أجناس وأقوام عديدة ومختلطة ، من بينهم العرب والهنود والافريقيون

---

(١) بالصومال .

(٢) جنوب شبه الجزيرة العربية .

(٣) جنوب اليمن .

(المترجم)

والبرتغاليون . وهؤلاء يعيشون في الغالب على ممارسة صيد الأسماك . وهم يفضلون القيام بعقد صفقات البيع والشراء عن طريق المبادلات السلعية والمقايضة العينية على عمليات البيع والشراء عن طريق استخدام النقود . وأما السكان الحقيقيون أو الوطنيون من أبناء البلاد الأصليين فإنهم يوجدون في أعالي الجبال . وهؤلاء يتمتعون بأجساد قوية وقامات طويلة وأجسامهم معرّاة تعرية خفيفة . ولهم شفاه دقيقة وغير سميكة وأنوف مستقيمة وشعر أسود سبط غير مجعد . واللغة الدارجة أو اللهجة المحلية في كل من سقطرة وفي المهرة على البر الرئيسي في شبه الجزيرة العربية قريبة الشبه من اللغات القديمة كالسبئية والمعينية . ومع ذلك فإن بين اللهجتين اختلافاً واضحاً وتبايناً بيّناً ومن المحتمل أن تكون اللهجة السقطرية أقدم اللهجتين[1] . والعاصمة الحديبو عبارة عن قرية يتألف سكانها من أربعمائة نفس . وهي تقع على الساحل الشمالي عند رأس خليج مفتوح . فهي لذلك سهل ساحلي شبه محصور تحيط به أطراف جبل هجر (أو حجر) كما تحيط بالقرية كذلك غابة كثيفة من أشجار النخيل الوارفة ذات التمور أو ثمار البلح . وهذا المكان المعزول يعتبر بحق مكاناً مفرحاً جداً وساراً فهو عامر

---

(١) المهرة هي احدى المقاطعات الحضرمية في جنوب اليمن ، وجزيرة سقطرة تعد جزءاً من هذه الأرض العربية وغالبية السكان فيها عرب ولغتهم هي اللغة العربية . ولقد زار المهرة حديثاً الأستاذ رياض نجيب الريس الصحافي اللبناني المعروف وتجول فيها وفي غيرها من الأماكن في جنوب اليمن ونشر تحقيقاً عن زيارته تلك في ملف « النهار » البيروتية وجاء في حديثه تحت عنوان (المهرة من عاد الى ثمود) ما يلي : [أما المهرة فهم الطرف الثالث في مثلث حضرموت ولكن من المؤكد ان المهرة عرب ، فهم قبائل قديمة لا يعرف أحد أصلها ، لها سمات افريقية ـ حبشية شاء الانكليز أن يستغلوها للتدليل على عدم عروبتها] .ثم يستطرد قائلاً: [لغتهم ثلاث لهجات ، فلهجة أهالي سقطرة مثلاً غير لهجة أهل الساحل . بعضهم يقول ـ ومنهم البروفيسور سارجنت الخبير في اللهجات الحضرمية ـ انها لغة سريانية وان القبائل المهرية نزحت من الشاطىء السوري واستقرّت في الجزيرة العربية قبل الاسلام بقرون . وآخرون يضيفون انها قبائل نزحت من افريقيا الشرقية وان لغتهم قريبة من اللغة الأمهرية في الحبشة . والرأي الأكثر شيوعاً انهم حميريون وان لغة أهلها هي الحميرية القديمة الا ان طه حسين يقول ان لا صلة لها باللغة الحميرية بل هي سامية جاءت من الشمال ثم انقرضت] . انتهى كلام الأستاذ الريس . أما مؤلف الكتاب وهو السياسي والعسكري والخبير البريطاني الذي زار تلك الربوع السقطرية وأمضى مدة من الزمن طويلة في جنوب اليمن فإنه قد أدلى برأي وسط ولم يقل عن اللغة التي وجدها ثمة بأنها سريانية كما قال بذلك البروفيسور سارجنت كما لم يذهب الى ما ذهب اليه الدكتور طه حسين فيقول بعدم الصلة بينها وبين اللغة الحميرية كما تقوله رواية الأستاذ الريس عن الرجلين ، وانما قال عن لغة السكان من أبناء تلك البلاد بأنها تمت بصلة القربى الى لغة أصولهم من سبئيين ومعينيين حيث ان هذه السلالات اليعربية تلتقي مع الفروع الأخرى الحميرية من بني عمومتهم عند الحد الأعلى وهو قحطان . واذا كان المؤلف قد قال بأن بين اللهجتين تبايناً وان السقطرية أقدم اللهجتين فإنه كمستشرق ملم باللغات الشرقية لم ينف عنها عروبتها .

(المترجم)

بالبهجة والانشراح . وانني أتمنى من كل قلبي لو أستطيع أن أقضي فيه بقية حياتي ، ويا ليتني أفعل ذلك ! ومما يروى عن الرسول انه كان مولعاً بثلاث : الخضرة والماء والوجه الحسن . وسقطرة تستطيع الإجابة عن الصفتين الأوليين . وإذا ما كان علينا أن نثق بدليلي السقطري فإن نساءً فاتنات يسكنّ هنالك على قنّة الطرف الشرقي من رأس مومة Mûmeh الممتد الى البحر ـ والاسم الآخر لهذا المكان وهو رأس ردرسة Radrasa الموضوع على الخريطة غير معروف لسكان الجزيرة ـ ويقال عن تلك النسوة بأنّهن يتألّقن بجمال أخّاذ وبأن لهنّ بريق واشعاع يخطف الأبصار لدرجة انه يتحتم على المرء أن يتحول ببصره وأن يخفض عينيه . ولعلّ سفناً كثيرة قد تحطمت عند رأس مومة هذا نتيجة للنداء الصادر عن السيرانس الحسان أو « السيرانات »[1] الفاتنات وبفعل ترديد أنغامهن المنبعثة من اللسان الأرضي الشديد الانحدار والداخل في البحر . وكأني بتلك الغواني وقد استوطنّ ذلك المكان وعمّرنه وجعلن منه سكناً منذ أجيال . ومما يقال بأن الاسكندر الأكبر قد ترك جماعة من المهاجرين أو المغتربين اليونانيين في سقطرة وبأنهم قد أقاموا لهم مستعمرة فيها ، ومن المحتمل أن يكون الدم اليوناني قد تدفّق في عروق سلالاتهم وانه قد وهب النسوة في قمة هذه الهضبة الشرقية جاذبيتهن . وواحسرتاه لأنني لم أقابلهن أبداً ! .

ومؤلف كتاب « الطواف بحراً Periphus » يبدي بعض الملاحظات الهامة جداً والمثيرة عن الأصل الذي انبثق عنه اسم سقطرة وكيف ومن أين جاءت تلك التسمية اذ يقول بأن الجزيرة كانت لها صلة قديمة وعلاقة طويلة بالقراصنة الهنود . ولذلك يبدو وكأن هذا الاسم (سقطرة) مشتق من اللغة السنسكريتية[2] من كلمتي دفِيْبَا سوقاطرة Dvipa Sukĥadĥâra أي الجزيرة التي يوجد فيها مأوى النعيم أو منزل الخلود ومن المحتمل أن يكون العرب قد حوّروا اسمها الى سوق قطرة « أي سوق التحلبات الناضجة » لشجرة العندم أو دم الأخوين أو دم الغزال أو التنّين The dragon's - blood tree (Dracaena Cinnabari) وتلك هي المادة الراتنجية الحمراء التي كانت في وقت من الأوقات عبارة عن المحصول الرئيسي في الجزيرة . ويُعتقد بأن سقطرة هي با ـ انش Pa - anch عند قدماء المصريين . كما يُعتقد

---

(١) السيرانه Syren أو Siren واحدة من مجموعة كائنات أسطورية عند الاغريق لها رؤوس نسوة وأجساد طيور ويقال بأنها كانت تسحر الملاّحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك . والسيرانة أيضا امرأة لعوب خطرة .

(المترجم)

(٢) السنسكريتية Sanskrit لغة الهند الأدبية القديمة وهي أيضاً لغة الكتابات المقدسة .

(المترجم)

كذلك بأنها بنشية[1] «Panchaia» في قصيدة فيرجيل [2] الشعرية التي نظمها في الزراعة وجاء ذكر لها في الكتاب الثاني بالبيت رقم ١٣٩ . [Tataque turiferis Panchaia pinquis arenis]

وبليني[3] Pliny يأتي على ذكر قصة العنقاء[4] Phoenix ذلك الطائر المقدس عند قدماء الفينيقيين ، اذ كان هذا الطائر مرتبطاً ببنشية Panchaia ومقترناً بها لأنه كان مقدساً ومكرساً لعبادة الشمس . وحينما كان يغدو كبيراً في السن كان يقوم ببناء عشه من أعواد القرفة وأغصان البخور ذات الروائح الزكية التي تمـلأه بالعبير وتمده بالشذاء العطري ، وهناك يضطجع مستلقياً بجسده مستسلماً للموت . ومن عظامه ثم من دماغه ونخاعه العظمي تثب هناك في العش دودة صغيرة، وهذه الدودة هي التي تتحول بدورها الى طائر صغير ، وهذا الطائر يقوم بتشييع جنازة سلفه فيحمل العش جميعه بما عليه الى مدينة الشمس بالقرب من بنشية وهناك يضعه على مذبح الإلّه حيث يودعه في رحاب تلك الألوهية . وتتم الدورة الحولية وينتهي العام بحياة هذا الطائر . وفي سفر أيوب بالاصحاح التاسع والعشرين فقرة ١٨ : [فقلت اني في وكري أسلّم الروح ومثل السَّمَنْدَل أُكثِّرُ أياماً] . والسِّينبر Cinnabar أو دم الأخوين أو الغزال ذو اللون الأحمر الزاهي Dragon's - blood مرتبط بالخلاف الدائر مع التنّين Dragon أو الأفعى Serpent من أجل الاستيلاء على مكان مقدّس . وان قصصاً كهذه كانت شائعة في جميع بلدان البحر الأبيض المتوسط . فهي مروية كذلك عن أبولّو[5]

---

(١) بنشية Panchaia - ae اسم لاتيني كان يطلق قديما على أحد الأقاليم في شبه الجزيرة العربية . وكان هذا الاقليم مشهوراً ببخوره وباللبان المتوفر فيه وذلك في العصور الوثنية عند الاغريق والرومان والفراعنة الذين كانوا ينحتون التماثيل ويشيدون المعابد والهياكل ويحرقون لها البخور ويتقربون فيها بالنذور ، فكانت تجارة البخور رائجة وتدر أرباحاً طائلة ، وكان البخور يتدفق من جنوب شبه الجزيرة العربية عبر الصحراء العربية والبحر الأحمر الى كل من خليجي العقبة والسويس ثم من ثمة الى الموانىء الأخرى في البحر الأبيض المتوسط . (المترجم)

(٢) فيرجيل Virgil شاعر لاتيني (٧٠ - ١٩ ق. م) وله قصيدة شعرية عن الزراعة والفلاحة في أربعة كتب . (المترجم)

(٣) بليني الأكبر عالم روماني (٢٣ - ٧٩ م) . وبليني الأصغر مؤلف روماني (٦٢ - ١١٣ م) وهو ابن أخ السابق . (المترجم)

(٤) العنقاء طائر خرافي زعم قدماء المصريين بأنه كان يعمر خمسة قرون أو ستة وبعد أن يحرق نفسه ينبعث من رماده وهو أتم ما يكون شباباً وجمالاً . (المترجم)

(٥) أبولّو اله الشعر والموسيقى والجمال الرجولي عند الاغريق . ودلفي مدينة يونانية قديمة . (المترجم)

Apollo في دلفي .Delphi وعن أدونيس Adonis في سورية . وهي أصل في الاعتقاد الحديث عن القديس جورج والتنين . وفي كل هذه الأساطير المتناقلة عند القوم الساميين أو المقتبسة منهم يكون المناضل والخصم بطلاً أسطورياً أو إلهاً . وفي سقطرة يقول البعض انه فيل .

ولعل أصل الصراع يرجع تاريخياً الى الهند حيث يكون الثالوث الهندوسي مؤلفاً من براهما Brahma وفشنو Vishnu وشيفا Shiva أي الخالق والحافظ والمميت على التوالي . وكانت هذه الآلهة تُعبد في مكان يعد مزاراً مقدساً . وهذا المكان يقع في جزيرة قريبة من ميناء بومباي وما زالت هذه الجزيرة حتى الآن تدعى الفيل أو « أليفانتة Elephanta » وكانت هذه الجزيرة على اتصال دائم وفي ارتباط وثيق ومستمر مع خليج عدن . ورأس الفيل يعتبر رمزاً ظاهراً وشعاراً مشهوداً للمقطع المقدّس أوم AUM الذي يمثل الثالوث ويدل عليه أو يعبّر عنه .

ولقد ناضل الفيل عن براهما أو فشنو بينما مثّل التنّين The dragon أو الأفعى Cobra شيفا المميت أو المهلك . والدم المسفوك الذي نشأ عنه ما يسمى بدم الأخوين كناية عن القتال الدائم والمبارزة المستمرة أو المنازلة بين فيل وتنّين وكل ذلك عبارة عن اصطلاح رمزي للقتال الأبدي الدائر بين أشخاص الثالوث الهندوسي . وتود Tod في كتابه « راجستهان Rajasthan » يورد هذه الملاحظة التالية التي أتى على ذكرها وهي مثقلة بالخيال : « تدعي قبيلة كماري The Camari tribe احدى طوائف عبدة الشمس في ساور شترة[1] Saurash-tra بأنها تنحدر من الطائر أي الإله المعبود فشنو Vishnu ـ الذي ساعد راما Rama على اكتشاف شيتاه ـ ثم من المكره Macara أو التمساح فتأرخت البداية الرهيبة من تلك الحادثة ، ولقد كان موطنهم الأصلي سنقطرة بت Sancodra Bet أو جزيرة سنقطرة ـ « وبالنسبة لما اذا أُطلق اسم ديوسقريطس Dioscorides على المدخل الواقع عند الخليج العربي « أو خليج عدن » [ومن الجلي انه محرّف من سانك ـ هادوارا[2] Sank - ha dwara الى سقطرة] فإننا سوف لن نوقف البحث . وكذلك الحال بالنسبة للجزيرة الواقعة في مدخل خليج كوتش حيث

---

(١) ساورشترة Saurashtra منطقة تقع في غرب الهند. وهي ولاية سابقة (١٩٤٨ ـ ١٩٥٦ م) في شبه جزيرة كاتياور Kathiawar وفي اقليم غوجرات Gujarat بين خليجي كوتش Kutch وكامبي .Cambay وفي عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٦٠ م كانت تابعة لولاية بومباي ، ومنذ عام ١٩٦٠ صارت تابعة لإقليم غوجرات . (المترجم)

(٢) سانك ـ ها Sankha تعني عرق اللؤلؤ أو الصدف (Pearl - shell) ودوارا dwara تعني مدخل أو باب (Portal) .
(المترجم)

ان هذا يعتبر بدوره مدخلاً ـ أو دوارا dwara أو بورتال portal ـ الى التجويف العربي الآخر أو الخليج العربي والذي تكثر فيه الصدف وتعج فيه عروق اللؤلؤ بغزارة ، اذ تستدل تلك القبيلة على أصلها ومنشئها من حملة راما Rama's expedition . وهم يزعمون بأن والدتهم السمكة أو الشبيهة بالسمكة قد حطت بهم هناك على اليابسة حيث يقيمون الى الآن » .

ويقول تود انه من العجيب ان اسم القبيلة كمر Camar وهو تحريف لإسم التمساح Macar (أي Crocodile أو ربما اسم التنين المشابه له أو القريب منه a cognete dragon) .

والرحالة بنت Bent يقول بحق ان شجرة دم التنين أو الأخوين وهي The dragon's blood tree ما زالت الى الآن تُدعى عند العرب « دم الأخوين » . والقصة فائقة ، وهي من الأهمية بمكان .

وتوجد عندي أنا نظرية قد تكون قضية مساعدة أو فكرة إضافية أو مرادفة . فالإسم الذي أطلقه الرومان على الجزيرة هو « جزيرة ديو سقوريطس Dioscorides Insula » ، وديو سقوري Dioscuri يكون عبارة عن التوأمين كاستور Castorوبولّوكس Pollux ابني كل من جوبيتر Jupiter وليدا Leda وقصتهما معروفة ، ومن ثم جاءت التسمية العربية للشجرة . وهوريوس Horace يحكي عن هذين الأخوين التوأمين فينسبهما إلى هيلين Helen ويقال انهما كانا يرغبان في إرشاد السفن عند الشدة أو في حالات الخطر فكانا بذلك أكبر مساعد للانسان وأقوى معين له ـ انهما ديو سقوري Dioscuri أو . Oeoi Owtnpes باليونانية .

ولعل مؤلف اللاّروك Lalla Rookh يشير الى وجود جزر أخرى غير سقطرة عندما يقول :

انني أعرف أين تكون جزر العطور والبخور ،
كثيرون نزلوا الى البحر وتوغلوا في الأعماق ،
متجهين الى الجنوب العربي حيث النور الساطع والشمس المشرقة .

وهو يستند فيما بنى عليه الى كتاب ديودوروس[1] Diodorus الذي يقول ان الجزر قد اختفت بينما يضع تلك الجزر ذات العطور والبخور الى الجنوب من العربية السعيدة أي

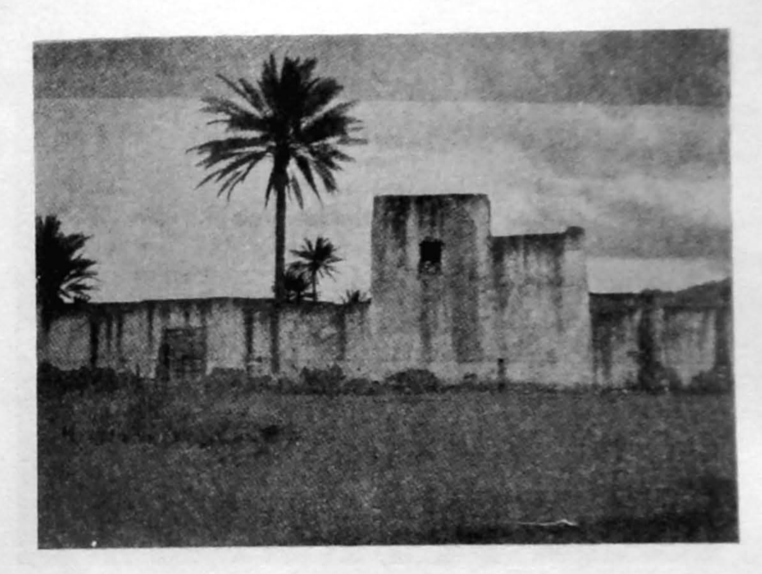
---

(١) ديودوروس من مواطني مدينة أجيروم .Agyrium وهو الذي كتب تاريخاً للعالم باللغة اليونانية (٦٠ ـ ٣٠ ق. م.)

(المترجم)



مجموعة من اهالي سقطرة



منزل من سقطرة

Arabia Felix . ويقول غراند بريه Grandpré في كتابه « رحلة الى المحيط الهندي Voyage to the Indian Ocean » بأنها قد غرقت في لجة من اللهب التي أضرمتها نار اندلعت من تحت قواعدها .

والجغرافيا الكلاسيكية تخبرنا عن وجود معبد على جزيرة بنشية وبأنه مخصص لجوبيتر تريفيليوس Jupiter Triphylius الذي اكتسب اسمه من جبل تريفيليا Triphylia وهو الذي أتمنى بأن يكون في الوقت الحاضر مطابقاً في هويته لجبل حجر في سقطرة . ومن المهم جداً القيام بدراسة علمية شاملة عن أصل الانسان ونشأته وعاداته وتقاليده في جزيرة سقطرة للحصول على مسح عام وتقييم شامل (ethnographical survey) . ولقد جاء كثيرون الى هنالك للقيام بتصنيف للحيوانات وتبويب للنباتات ولكن ذلك يعد فرعاً من الدراسات الأخرى التي قد تتعهد كذلك بتحقيق نتائج قيمة وممتعة وفيها نفع عظيم . وقبل الحرب مباشرة عزمت على القيام بمسح عام ودراسة شاملة ولكن كان الحال كما قال لي ذات مرة واحد من الهنود عن عدن : « ان هذا المكان غريب يا سيدي اذ لا يوجد على الاطلاق أمل في أي تقدم أو نجاح لأنه ليس هنالك فلاح واصلاح أبداً » . في عدن كانت توجد باستمرار السفينة ر. آي . م. R. I. M. Ship التي كانت دائماً موضوعة تحت تصرف المندوب السامي . ولكن أي شيء عملي ومفيد يكون سهل القطاف فعلاً أو قريب المنال حقيقة أو يتم بلوغه أو الوصول اليه ؟ ولا شك بأنني على حق واضح اذا ما قلت بأنه لو كانت هنالك أمة أخرى غيرنا قد سَطَت أو سيطرت على عدن لكانت بعض النتائج المادية والأمور الهامة المترتبة على إقامتنا أو نتيجة لوجودنا محسوسة وملموسة بل مرئية ومشاهدة ؟ وأنا أعتقد بأن النبيل مورلي Lord Morley هو الذي تحدث عن « موظفيها المحروقين (محمّصين) بأشعة الشمس » ، وبأنه كان على حق ! امنح عدن معتمداً سياسياً يكون مجتهداً أو نشيطاً ويشتغل طوال ساعات الدوام وعند ذلك سوف يتغير المكان ويتطور ويثور وتدور العجلة . وأما التوحيد السياسي ـ العسكري لجهاز الحكم فلن يكون بأية حال أكثر من وجود شخص قد يوصف بأنه مميت أو قاتل ومع ذلك يراد منه أن يكون قادراً على القيام بالإشراف والمراقبة . واذا ما كان القارىء سوف يصفح أو يتغاضى عن التلاعب بالألفاظ فإنه يمكن القول بأن الأمر يكاد يكون هنالك قدراً محتوماً ونصيباً مفروضاً لمحميتنا عبر البحار التي ظلت زمناً طويلاً مهمة جداً ومهجورة بهذا الشكل ومهملة على هذا النمط وبتنسيق وتخطيط واستخفاف .

ولقد ذكرت سابقاً مستعمرة الاسكندر وجاليته في سقطرة . ولكن الدكتور جورج فينلي Dr. George Finlay يخبرنا في كتابه « اليونان تحت حكم الرومان Greece under the

Romans ، بأن اليونانيين كانوا في أيام قسطنطين يتاجرون مع الجزيرة العربية . وبأن مستعمرة يونانية قد شُيِّدت وأرسيت قواعدها في سقطرة (Dioscorides) في زمن البطالمة وأنها استخدمت كمحطة للتجارة مع الهند وبأن تلك الجالية المختلطة بعدد من السوريين قد ظلت مستمرة وموجودة على الرغم من الاضطرابات والقلاقل التي قامت على طول الشواطىء الشمالية من البحر الأحمر بفعل عرب البادية . ويقال ان سكان سقطرة قد تكلموا اللغة السريانية في منتصف القرن الرابع واللغة اليونانية في القرن السادس عندما زارها كوزموس Cosmos وأما المسيحيون السقطريون فكأنهم نسطوريون[1] Nestorians أو يتراءى للمرء بأنهم كذلك . ويقال ان الجزيرة كانت تملك في العصور الوسطى حوالى عشرة آلاف مقاتل . واليوم وعندما زرتها في عام ١٩١١ كان يبدو على الناس فيها وكأنهم ليسوا بالمحاربين ولا مستعدين للقتال بل انهم مواطنون مسالمون الى أبعد الحدود كما ان انقيادهم سهل ومن الممكن ترويضهم بدون مشقة أو عناء . ولقد اعتقد السلطان الذي كان موجوداً معي في هذه الزيارة - وهو من العشيرة القشنية أو العائلة الحاكمة في قشن بالمهرة - بأن في استطاعة عشرة رجال مسلحين أن يستولوا على الجزيرة ومن ثمة يسيطرون عليها بسهولة . وعندما زرت شيق العاصمة القديمة انتظرت - وأنا مختبىء خلف أشجار النخيل ومعي آلة تصوير - الى حين خروج النسوة من المنزل الموجود أمامي حيث كان عليهن أن يتحادثن مع زوجتي وأن يتبادلن معها الحوار والمناقشة وبذلك يمنحني الفرصة لإلتقاط صورة فوتوغرافية لهنّ ، ولكنهن مع ذلك كنّ خجولات فلم تحصل النتائج المرجوة . وسيدات شيق أثبتن لواحدة من بنات جنسهن هنّ مهذارات جداً وثرثارات وذربات لسان للغاية وكثيرات الأسئلة والاستفسارات الى أبعد حد . فلقد سألن زوجتي عما إذا كانت عبارة عن زوجة سائحة ومتجولة أم مجرد أمٍّ لتربية الأطفال والرعاية في المنزل . وأنا كنت محلاً للتكهن من قبلهنّ باقتناء اثنتين من الزوجات . ثم حدا بهن الأمر الى الاعتقاد بأن ذلك شيء متوقع مني ! وباكتشافهن وجود طفل لنا تركناه في عدن ويبلغ من العمر ثلاثة أعوام قدمت الينا تلك الإناث المجاملات والنسوة اللطيفات طفلة لا يتعدى عمرها ثمانية عشر شهراً ،وطلبن من زوجتي أن تأخذها معها وأن تنقلها الى موطنها اذ

---

(١) النسطوري Nestorian ذو علاقة بمذهب نسطوريوس الذي كان اعتباره في عام ٤٣١ هرطقة عند المسيحيين لأنه ذهب الى أن الطبيعتين الإلهية والبشرية ظلتا منفصلتين عن يسوع المسيح . والنسطوري أيضاً ذو علاقة بكنيسة انفصلت عن النصرانية البيزنطية بعد عام ٤٣١ وانتشرت في فارس ولا زال ينتسب اليها الآشوريون . ونسطور Nestor أيضاً اسم ملك يوناني اشترك في حرب طروادة وكان طاعناً في السن . والنسطور أيضاً الزعيم أو المرشد الحكيم الطاعن في السن . والنسطوري أيضاً وأيضاً السيد .

(المترجم)

قد يرغب ابننا ـ مصادفة ـ عندما يكبر في قبولها زوجة له ، وان كان قد يفعل كبقية الآخرين من الرجال فيختار له واحدة أخرى غيرها في مكان آخر ، ولعلّ مزج السلالة السقطرية بسلالة أخرى غير سقطرية يعود بالنفع اذ يكون من الأمور الجميلة والطيبة !

ويذكر مونتان[١] Montaigne جزيرة سقطرة Zocotora فيقول ان الأسقف أوصوريوص Bishop Osorus كتب عن وجود الجزيرة في الطرف الآخر من العالم وان القدماء سموها ديوسقريطس Dioscorides وبأنها غنية بكل أنواع الأشجار المخصبة والمثمرة ، وبالفواكه العديدة التي توجد فيها بكثرة وبغزارة ، ثم يقول ان الهواء فيها جميل ، والنسيم عليل والطبيعة فائقة الحسن الى أبعد الحدود أو فوق كل ما هو معتاد أو متعارف عليه . وأما عن السكان فيقول انهم كانوا نصارى (مسيحيون) وتوجد عندهم الكنائس والمذابح . وهذه الكنائس مزخرفة بالصلبان ولكنها خالية من الصور أو التماثيل . وكان السكان مراقبين عظاماً ودقيقين وشديدي الحرص جداً في المحافظة على الصوم وعلى الأعياد . وكانوا محتشمين وعفيفين لدرجة انه لم يكن يسمح لأي واحد منهم بأن يعاشر أو يخالط أكثر من امرأة واحدة . وكانوا راضين كذلك بحالتهم ومكتفين بما عندهم لدرجة انهم لم يعرفوا شيئاً عن الملاحة البحرية مع انهم محاطون بالبحر . وكانوا قوماً بسطاء ومتخلفين لدرجة انهم لا يفقهون مقطعاً واحداً من الديانة التي يمارسونها . وماركو بولو[٢] Marco Polo وجد الكنائس هنالك . وتريستوا[٣] داكونا Tristawa da Cunha والبوكركيه[٤] Albuquerque استوليا عليها في عام ١٥٠٧ . والأول منهما شيد قلعة في سوقو Soco (شيق Shikh) ثم جردها في عام ١٥١١ من وسائل الدفاع . وفي منتصف القرن السابع عشر قال فنسنزو Vincenzo ان الناس كان يطلق عليهم اسم النصارى (المسيحيين) . غير انه كان يوجد لديهم خليط من الديانات كالمسيحية واليهودية والوثنية . وكانت جميع النسوة تسمى في كل الأحوال ماريا Maria . وفي عام ١٩١١ كان اكتشاف أنقاض احدى الكنائس . ولقد قام بذلك العمل السيد بريدج Mr. Berridge الذي رافقني الى الجزيرة .

---

(١) مونتان هو Michel Eyquem Montaigne كاتب فرنسي (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢ م) . (المترجم)

(٢) رحالة ايطالي (١٢٥٤ ـ ١٣٢٤ م) . (المترجم)

(٣) ملاح برتغالي (١٤٦٠ ـ ١٥٤٠ م) . (المترجم)

(٤) هو أنفونصو البوكركيه الفاتح البرتغالي المنتصر في الهند ونائب الملك (١٤٥٣ ـ ١٥١٥ م) . (المترجم)

ولقد ذكرت في الفصل الثاني قدوم الجنود البريطانيين الى سقطرة وتحدثت عن إقامتهم فيها فترة من الوقت ثم رحيلهم عنها في عام ١٨٣٥ . وعندما زار الجزيرة الملازم كروتندن في عام ١٨٤٧ - أي بعد مرور اثنتي عشرة سنة من التاريخ السابق - وجدها مهجورة ومقفرة تقريباً . وكانت تماريدا عبارة عن مقبرة كبيرة باستثناء عشرين شخصاً من السكان العرب الأحياء لأن الحُمّى التي كانت أعظم كارثة كبرى حلّت بالكتيبة الأوروبية كانت منتشرة كذلك ومتفشّية بين السكان العرب . ولقد انقطع المطر عنهم أيضا مدة ثلاثة أعوام ، وماتت مواشيهم وقطعانهم ، وكان القوم يأكلون المحار والأسماك الصدفية الصغيرة وما يسد الرمق ويلبي الحاجة من البوقاليوس buggaloes التي تحتمي بالرياح الموسمية المتجهة من جنوب غرب المحيط الهندي عند هبوب الرياح المسمّاة قوص . ويضيف كروتندن قائلاً : « كانت لديهم ذكريات جميلة . ولقد عبروا جميعاً عن الشكر والامتنان لسلوك الجنود الانكليز الذين أقاموا في الجزيرة ومكثوا فيها تحت قيادة الضابطين بيلي Bailey وكورسيليس Corsellis كما عبروا كذلك وبطريقة تلقائية وعفوية عن تمنيـاتهم ورغباتهم بعودتهما من جديد » . وطوبى للرجل المسن الطيب ، والوقور الكريم تومي اتكنس Tommy Atkins ان الشيء ذاته أو التصرف عينه كان يحدث أيضاً دائماً معه . فهو حيثما ذهب يروّج لسمعتنا الطيبة لمجرد قيام العلاقات الحسنة والمعاملات النبيلة بذات الأسلوب ولنفس الغاية ، وبعد ذلك وفي عام ١٩٠٧ وعندما استدعانا اللورد مورلي Lord Morley من الضالع أشار مُلمّحاً الى أن وجودنا كان بغيضاً لدى العرب ومنفراً لهم وبأنه تدخل مثير !

وقبل وصول كروتندن بثلاثة أعوام كانت تماريدا قد تعرضت لزلازل خطيرة . وكان الدمار الذي حلّ بها يبدو واضحاً للعيان .

* * *

ان نبات الصبر السقطري أو الصبّارة أو الألوه[1] Aloes كانت له ذات مرة شهرة عالمية . وفي الكتاب الهندي « كليلة ودمنة » قيل عن الأسد بأنه في صداقته المبكرة كفم ملؤه عسل اذ يكون حلواً حتى الحنك لفترة قصيرة ، ولكنه في النهاية يكون أكثر مرارة من صبر سقطرة . وفي الوقت الحاضر تكون صادرات الجزيرة عبارة عن أبقار الجاموسة ومنتجات ألبانها ثم الدخن والقطن والتبغ . وأما اللُّبان أو البخور فإنه يتم الحصول على أنواع جيدة منه في الوقت الحاضر من أماكن أخرى . « ودم الأخوين » انقطع تدفقه عملياً . والحمار في الجزيرة حيوان جميل جداً ونفيس .

---

(١) الألوه Aloe الصّبر وهو نبات يستخرج من بعض أنواعه عصير حاد ويستخرج من البعض الآخر عصارة مرّة تدعى aloes ويستعمل في الطب كمسهل . (المترجم)

والبقرة السقطرية تضاهي البقرة الألدرنيّة[1] Alderney وتنافسها . ولا توجد في الجزيرة كلاب . ولقد جمع أناس آخرون غيري معجماً صغيراً ومختصراً من مفردات اللغة السقطرية وكلماتها المحلية . وأما أنا فإنني سوف أذكر مجرد نماذج قليلة . فالكلمات التي تقال لإبليس هي مسجد Misgid ومطفوق Matfuk h وديدة Di'dih وشجرة دم الأخوين أو (The dragon's blood tree - يكون اسمها أدها Idha أو أرياط دقة Aryat dakka واسم البقرة آلّيه Illih والفرس قعّار Ka'ar والرّجُل آج Aj والمرأة آشيه Ashih والماء ريماو Rimau والصبي مُوْقشم Muksham والبنت كرهيم Kirhim والنار (أي التي تتولد عن طريق احتكاك قضيبين معاً لأن أعواد ثقاب الكبريت بدعة عندهم) اسمها شياط Shiyat والمركب الشراعي يسمونه صدق Sadak.

ولقد حدثني ضابط روسي كان يعمل في إحدى السفن الحربية التي زارت سقطرة خلال الحرب وأثناء رحلة لها الى عدن بأن المواطنين البسطاء والسذّج قبلوا منه زجاجة من الخمر! وذات مرة كان واحد من العرب أصحاب الابل يعاني ألماً مبرحاً بعد أن عضه البعير وأصبح الرجل الجريح طريحاً لا يطيق حراكاً ، فسكبت كأساً من الخمر الكثيف المعتق والمركّز ، وعندما شمّ الرجل رائحته سألني عما اذا كان ما يحتويه الكأس خمراً ، فأجبته بأنه دواء طيب وعند ذلك لعقه بكل لذة واستمتاع شديدين ؛ وعرف بعدئذ ماذا يكون ، ولكن لمّا لم أكن قد وصفته له بأنه خمر لم يسمح لضميره بالتأنيب . أو انه لم يستشعر في قرارة نفسه ضيقاً أو تأنيباً !!

والسقطريون قوم مشهورون بالسحر والشعوذة . ولقد حدثني بذلك واحد من عائلة السلطان في سقطرة وحكى لي هذه القصة التالية : إذا ما وقعت امرأة سقطرية في الحب مع شخص ورغبت في الذهاب الى محبوبها فانها تستطيع أن تحول نفسها الى طائر وبعد ذلك تطير الى المنزل الذي يقيم فيه الحبيب وتستعيد شكلها البشري . واذا ما رفض الرجل حبها فانها تستطيع تحويله الى ماعز أو كلب أو الى أي حيوان آخر . وفي سالف العصر والأوان تزوج رجل من سقطرة بسيدة من قشن (بالمهرة) ثم نزح عنها الى موطنه الأصلي في سقطرة ومكث بعيداً عن زوجته مدة سبع سنوات . فاشتاقت المرأة الى زوجها ولكن القدر والنصيب تدخلا في الأمر وحالا بينها وبين الحبيب الذى طال بها الحنين اليه . والنساء في قشن لديهن عادة يثابرن عليها خلال العشرة أيام الأولى من شهر المحرم وهي القيام بزيارة شاطىء البحر حيث يغتسلن ويرقصن

---

(١) أولدرني Alderney احدى جزر القنال الإنكليزي وهي مشهورة بتربية الماشية ولذلك تحمل الماشية فيها اسم الجزيرة وعلى الأخص الأبقار .

(المترجم)

كل ليلة ثم يرجعن بعد ذلك الى مضاجعهن . وفي احدى تلك الليالي العامرة بالاستحمام والرقص بثت الزوجة المهجورة شكواها الى بعض تلك السيدات اللاتي نصحنها بأن تمكث في الليلة القادمة عند الشاطىء بعد أن تكون بقية النسوة الأخريات قد رجعن الى منازلهن ، وعندما تجد حيواناً ضخماً من ذوات الثدي فان عليها أن تمتطيه على الفور . وفي اللحظة الحاسمة وعندما دنت لحظة الرحيل قذفت المرأة بنفسها من فوق ظهره ولم تجسر على ركوبه بسبب الخوف الذي تملّكها فانسحبت عائدة الى المنزل . وفي صباح اليوم التالي وجهت اليها صويحباتها اللوم والتوبيخ وعنّفنها على تخوفها ثم أخبرنها بأنها في الليلة التالية سوف تجد هنالك طائراً كبيراً يأتي لمساعدتها . فانصاعت وأصغت الى نصيحتهن وفعلت كما أخبرنها ولما وصل ذلك الطائر في الوقت المحدد وحسب البرنامج المرسوم امتطت المرأة ظهره ثم طارت عبر البحر الى شاطىء سقطرة وأمضت مع زوجها وقتاً سعيداً وأخبرته بوسيلة النقل التي استخدمتها ، وبعد ذلك رجعت الى الشاطىء حيث كان الطائر في انتظارها ولكنه رفض هذه المرة تقديم مساعدته لها ما لم تغتسل وتصبح طاهرة نظيفة . فاغتسلت وبعد ذلك حُملت على الفور عائدة الى قشن ولم يعرف أحد عن مغامرتها تلك ما عدا زوجها وهي والطائر ، ولذلك فقد احتاطت للأمر قبل أن تغادر زوجها وترحل حيث أخبرته عن احتمال حدوث الحمل بعد هذا اللقاء أو عن تكون الجنين من الآن فصاعداً . ولكي تبرهن له على اخلاصها له ومن ثم لتمنع ألسنة السوء من الافتراء عليها أو القذف في حقها فقد اقترحت عليه بأن يسلم اليها خاتمه وجمبيته (خنجره) ، فأعطاها ذلك ثم دوّن لها مذكرة دقيقة ومضبوطة عن هذه المقابلة . وبعد مرور أربعة أشهر على هذه الرحلة أصبحت متأكدة من انسان المستقبل فأبرزت على الفور الإمارتين ومذكرة الزوج التي دوّنها بخط يده وسلمها اليها . وهكذا أرضت فضول قومها وأسكتت غضبهم وأقنعت استغرابهم . أو لم يكن ذلك الطائر هو عنقاء الفينيقيين ؟!

إن السحر والساحرات في سقطرة مثل الرمل على شاطىء البحر ، لا يعد ولا يحصى . ولقد أخبرني سقطري بما يلي : ان أية ساحرة قد تأخذ رجلاً ما الى مكان مهجور ثم تذبحه ، وبعد ذلك تأكل لحمه المطبوخ ، وان أية ساحرة أخرى تستطيع اذا ما دُعيت الى التدخل أن تعيد الضحية القتيل الى ما كان عليه من قبل ولكن فرصته الجديدة للعيش بعدئذ قصيرة اذ يموت في الحال . واذا ما كانت ساحرة من تلك الساحرات متهمة أمام السلطان بسوء التصرف وبالإقدام على عمل محظور كهذا فانه يأمر بأن تُربط كلتا يديها الى جنبيها ، وبأن تقيّد من قدميها وساقيها بالأغلال والحجارة الى أن يصبح وزنها ثقيلاً ثم يُلقى بها في البحر فإذا غرقت في الأعماق ثم ظهرت من جديد بعد ذلك بوقت قصير فإنه يحكم ببراءتها ويُخلى سبيلها ، ولكن اذا لم يحدث شيء

من ذلك بل ظلت منذ البداية طافية على سطح الماء فإن ذنبها يكون مؤكداً وجرمها محققاً وثابتاً ويُرسل رجلان لإحضارها وجلبها الى خارج المياه وبعد ذلك يفك عنها الرباط وينفذ فيها حكم الإعدام .

ومن ناحية أخرى اذا ما سحرت امرأة رجلا فإن الطبيب المحلي يستطيع تشخيص حالته ومعرفتها في الحال ومن ثم يقوم باستصحاب الرجل المسحور الى بيت الساحرة ، وهناك يهددها بعقاب شديد وعذاب أليم ما لم تبطل سحرها وتزيله عن الرجل المسحور وعند ذلك تمتثل له بسرعة ! وتفعل على الفور ما طلبه منها ! والعديد من أولئك الأطباء يستطيعون التنبؤ بالحالات غير المشاهدة أو المرئية والتعرف عليها اذ قال لي محدثي بأنه لو كان نفسه على جهة المثل موجوداً في عدن وأفراد عائلته بسبب قلقهم عليه وتلهفهم اليه يرغبون في أن يكتشفوا كيف كان عائشاً أو ماذا حدث له في الرحلة فإن الطبيب يستطيع أن يخبرهم بالتحديد أين كان وماذا يفعل ، وطريقة العمل تكون كما يلي : يملأ الطبيب طاساً كبيراً (زبدية أو سلطانية) بالماء ثم يحدّق فيه ببصره بعناية وتركيز وعند ذلك يميط الماء اللثام عن المكان الصحيح للغائب فيظهره للعيان بكل دقة . وهذا هو عرّافنا البلوري Crystal - gazing الخاص بنا أو الشائع عندنا . ويعتقد بأن الأطباء الذين يكونون من هذا النوع يلتحق بهم عدد من عمالقة المَرَدة أو الجان الذين بمساعدتهم يستطيعون العمل ومزاولة المهنة . والطبيب عند رؤية رجل مريض يستطيع كذلك أن يُخبر في الحال عمّا اذا كان سيستعيد صحته أو انه سيموت . ومحدثي هذا قد يكون عرضة للتحدي والمجابهة بالمشكلة ذاتها وعلى النحو المشار اليه حيث اننا ونحن نخوض اليوم فيها ونتحدث عنها نتحداه في ما اذا كان ذلك الطبيب سوف يخبره عن ذلك ! انني أتصور بأنه كمسلم سوف يضع العبء ـ أو بالأحرى المسؤولية ـ على الله فيهتف قائلاً اذا شاء الله أو الله يعلم [1] .

والناس اذا ما تعرضوا للجدب فكابدوا نتيجة لذلك أو تعذبوا بسبب القحط فانهم قد يذبحون الابل التي يسمح لها مالكوها بالشرود والتيه . وبعد أن يأكلها هؤلاء الذابحون يلجأون في حالات كهذه الى القاعدة الجرمانية القائلة الغريق لا أثر له أو المفقود يفقد أثره spulos versenkt وهم بذلك يحاولون محو كل أثر لجريمتهم . ولكن اذا ما كان المجرم متهماً بعمل كهذا فإنه يجب أن يُعجم عوده وتُمتحن صفاته فيوضع تحت الاختبار بواسطة استخدام طريقة التعذيب

---

(١) العراف البلوري أو فاتح المنديل هو العراف الذي يدعي أو يتظاهر بأنه يكشف عن المستقبل عن طريق التحديق الى كرة بلّورية فهو اذاً العرّاف بالنظرة البلورية عند الانكليز فالشعوذة والخرافة والأساطير ليست سقطرية فقط وإنما هي كذلك انكليزية وان كان لها في سقطرة ما يبررها ! ولكن التحدي في نظر سكان المملكة المتحدة وكما هو رأي المؤلف يكون للسقطريين .

(المترجم)

التالية وهي المسماة أورديل[1] :ordeal يوضع قضيب من الحديد الساخن والمتوهج بالحرارة في لسانه الممدودة فإذا جفل أو قاوم أو صرخ فإنه يبرهن بذلك على انه مذنب وتُبتر ذراعه اليمين وتباع ممتلكاته اذا كانت له أية ممتلكات مقابل قيمة الحيوانات المسروقة . واذا لم يكن للحديد الساخن أي تأثير عليه فإنه يطلق سراحه ويخلى سبيله . وهذه العادة مُشينة وهي مألوفة في الكثير من المجالس السلطانية باليمن .

واذا أُتهم شخص ما بدين عليه فانه يؤتى به أمام السلطان فإذا اعترف هذا المدين بالإتهام الموجه اليه ولكنه يرفض دفع المبلغ المطالب به فإن منزله يباع وكذلك أشجار البلح التي يملكها ، ولكن اذا لم يكن له منزل ولا أملاك للبيع فانه يوضع في السجن على نفقة الدائن حتى يوافق هذا الأخير على إخلاء سبيله وإطلاق سراحه . ونحن اذا ما رجعنا الى الخلف ونظرنا الى تاريخ عدن المبكر فسوف نجد بأننا قد فعلنا مثل هذا نحن أنفسنا اذ كان الضابط أو الموظف يتقدم الى السجين بعرض يتضمن القيام بدفع نفقاته وغرامة اعتقاله ولكن العرض كان يقابل بالسخرية والازدراء .

وإذا حُكم على سقطري بأعمال ارتكبها أو اعتداءات اقترفها أو أضرار ألحقها بغيره فإنه يعاقب عليها بمثل تلك الأضرار والأعمال التي أحدثها بفعله أو ألحقها بالغير. وهذا ليس الا تطبيقاً قرآنياً لأن القرآن يتضمن جميع القوانين المدنية والجنائية ويكون العمل بها هنا بالقدر الذي يسمح به دستور الجزيرة المحلي .

إن الكثير من تلك الأحداث أو جميع الحوادث المحلية قد تبدو غريبة عابرة وأجنبية عارضة ولكنني قد آمنت بها جميعاً ومنحتها الثقة والتصديق . والشخص الذي يكون مؤمناً يرى بأن كل الأشياء بالنسبة اليه تكون ممكنة . ان المجاملات السهلة والتطلعات البسيطة والتوفيق والملاءمة الفكرية في وجهات النظر نحو حقائق الكون وعالم الروح وبقع المعرفة من حولنا تكون إحدى مفاتن الشرق . وكثيراً ما أتمنّى لو انني أستطيع ـ ولو حتى ليوم واحد ـ أن أدخل جلداً شرقياً وفي هذا الجلد أتقمص شخصية أحد الأشخاص الشرقيين ثم أنظر من خلال عينيه وعبر بصره ، فهل يكون من غير المحتمل بأنني سوف لا أهتم بعدئذ بالعودة الى حالتي السابقة ، أو بالرجوع الى ما كنت عليه ؟ « ان العقائد فوائد » كما يقولون . أي ان الإيمان يكون نافعاً ومفيداً فهو يأتي بالمكافأة ويعود بالربح . وأما نحن فإننا نتشكك في الله أو نسقط الألوهية من الحساب مذعنين للأفكار

---

(١) أورديل تعني المحاكمة بالتعذيب وهي وسيلة بدائية كانت تمارس وتفتعل لمعرفة ما اذا كان المتهم بريئاً أو مجرماً وذلك باخضاعه لضروب من الامتحان الخطر أو المؤلم . وكان الناس حينذاك يحسبونها خاضعة لسيطرة قوى خارقة للطبيعة .

(المترجم)

حاديبو عاصمة سوقطرة



THE بحيرة واشجار ونخيل في حاديبو BU.

التجريدية أو المجردة من الصلاح والعناية الإلهية . وأما أولئك القوم العاديون أو الأكثر بساطة فانهم يرون الله في كل مكان . وهم بالإضافة الى ذلك يحسون برسله (من الملائكة) مؤمنين بالكتاب القائل : ﴿له مُعقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾.

* * *

والآن وبعد أن انتهيت من استعراض سريع لسقطرة أنتقل الى وصف مختصر ووجيز لحضرموت . وحضرموت هنا عبارة عن اسم يشير الى الرجل الوارد ذكره في الإصحاح العاشر بالفقرة رقم ٢٦ من سفر التكوين (ويقطان ولد الموداد وشالف وحضرموت ويارح) . ولقد سميت البلاد باسمه ، وهو من ذرية يقطان وعقبه . ويقطان هذا اسم لقحطان العربي .

ولقد كتب أشخاص آخرون غيري عن الحياة الاجتماعية والقبلية في هذا الاقليم وبالأخص السيد فان دن بيرج C. Van Den Berg الذي قام بترجمة بحثه الى اللغة الانكليزية الرائد سيلي Major Sealy المساعد السياسي السابق في عدن . وفي السنين الأخيرة زار تلك البلاد الواقعة بعيداً عن الساحل كل من الضابط و. ليه ـ ورنر ـ Cap. W. Lee - Warner وذلك في عام ١٩١٩ ، والضابط ناصر الدين أحمد Cap. Nasiruddin Ahmed الذي تلاه في عام ١٩٢٠ . وكان الأخير يتمتع بامتيازات خاصة واستثنائية لأنه مسلم . والسيد فان دن بيرج يرغب في تحديد موقع حضرموت بالمنطقة الواقعة ما بين خطي الطول ٤٨° و ١٠، ٥١° شرقاً . وبهذا التحديد يكون اقليم حضرموت ممتداً ما بين تخوم عين المعبد على حدود السلطان الواحدي ، وسيحوت على حدود حاكم المهرة صاحب قشن وسيد سقطرة . فهو بهذا التحديد يجعل هذه البلاد النائية عن الساحل تشتمل على المناطق المكتظة بالسكان مثل شبام وتريم وسيؤون والغرفة ومريمة وطريس وبور وطاربة .

وشبام تعتبر عاصمة المنطقة الداخلية من البلاد وهي المنطقة النائية عن الساحل . وشبام هذه بلدة ملائمة كثيراً ومزدهرة جداً ، وتجارها متعصبون في كراهيتهم للأجانب . وأما تريم وسيؤون فإنهما مركزا الإدارة للسلاطين الكثيرين ،وهؤلاء هم الذين أبرم معهم السلطان المرحوم السير غالب بن عوض معاهدة في عام ١٩١٨ عن طريق وزيره القوي خان بهادور السيد حسين بن حامد المحضار . وكان الهدف الرئيسي منها عزل رجال قبيلة الحمومي المتوحشين والمولعين بالخصام والقتال والذين ظل السير غالب على اختلاف معهم طوال عدة سنين .

وكانت عاصمة حضرموت القديمة أو ما كان يسمى Chatramotitaé تُدعى سباطة أو « سباتة » Sabbatha وتوجد الآن في المنطقة المجاورة مناجم الملح . وتقع سباطة أو (سباتة) في وادي الرقية فوق وادي حضرموت وعلى بعد ستين ميلا تقريباً غرب العاصمة الحالية شبام .

وسباطة هذه هي سبوطة (سبوتة) Sabota عند بليني Pliny مع (ستين معبداً داخل أسوارها) . وتلك المنطقة الداخلية من البلاد أو النائية عن الساحل تتاخم من الشمال للربع الخالي .

وتوجد بين هذه البلاد الحضرمية العليا وبين كل من جاوة وسومطرة رابطة تجارية متينة جداً . ولقد كان الضابط ليه ورنر Capt. Lee Warner قادراً على اجتياز طريقه في هذه البلاد لبراعته في فهم اللغة الأندونوسية وهي لغة سكان جزر الأرخبيل الماليزي Malay tongue.

ولقد وضع سلطان الشحر والمكلا حظراً على الأشخاص القادمين الى بلاده من الممتلكات الهولندية الواقعة في جنوب شرق آسيا وهي المسماة[1] ـ Netherland's East Indies محاولاً بذلك منعهم من الدخول الحر والانتقال البري عبر بلاده وذلك قبل أن يعقد معاهدته مع السلطان الكثيري . وكانت الحكومة الهولندية التي تستعمر تلك الجزر قد عبرت عن عزمها على تنفيذ تهديد مضاد يقضي بحظر الهجرة من حضرموت إلى أندونوسيا . وبما أن معظم الثروة الحضرمية تأتي على وجه التقريب من هذا الارتباط الخارجي فإنه من الممكن للمرء أن يتصور على الفور فداحة الضربة القاصمة التي سوف توجه الى العمل التجاري بين البلدين نتيجة لذلك الخطر . وخوفاً من حدوث مضاعفات كهذه كان السير غالب بارعاً ، وقادراً من خلال حصافة وزيره على التراجع . وكل ما أخافه الآن هو أن تلك المعاهدة المعقودة ليست قائمة على أساس ثابت ودائم . والسلاطين الكثيريون في حنق دائم واستياء مستمر لحرمانهم من البحر ومن فوائده بسبب بعدهم عنه وصدهم منه . أما رعاياهم المباشرون ، والذين يبدون وكأن لصديقنا السلطان القعيطي بعض حقوق السيادة الظاهرية عليهم فإنهم كانوا جماعة من الأغنياء والموسرين ولذلك خطوا خطوة سريعة وعملية نحو الامام باعتبارهم أصحاب المصلحة المباشرة ، والتوّاقين الى التقدم ، أو المتحمسين للنمو المستمر والرخاء المتعاقب فاقتربوا من سيد الشحر والمكلا الذي يعد بدوره شخصاً من أصل يافعي ، وهذا السلطان يؤمن بقوة في مزايا الانتقال من مكان الى آخر ، والسير في خطوط مستقيمة مع مراعاة الأساليب القديمة والواقية والمحافظة عليها على نحو كامل وسليم . انه مثل الحرباء التي لا تفك قبضتها عن الغصن الموجود في الخلف الا بعد أن تعانق

---

(١) قبل عام ١٩٤٩ كانت مجموعة جزر الأرخبيل الأندونوسية أو الماليزية The Malay archipelago خاضعة للاستعمار الهولندي . وكانت تدعى Netherland's East Indies ومنذ عام ١٩٤٩ صارت تلك الجزر جمهورية مستقلة ذات سيادة تحمل اسم جمهورية أندونوسيا .

(المترجم)

يداها الغصن الموجود في الأمام فتمسك به بثبات ، ويكون مكانها التالي آمناً اذ تصبح فيه في وضع محكم ومتين .

إن جميع السادة في حضرموت أقوياء . وعندهم مواهب تجارية قوية وكبيرة وفعالة ، وعلى الأخص أولئك الأشخاص أصحاب « العينات » والمنحدرين من عائلة أهل الشيخ بو بكر سالم بن أحمد ، والقوم في عدن يرغبون في أن يقولوا عن التاجر الحضرمي خصوصاً وعن طبقته عموماً بأنهم أكثر جبناً من النساء من باب التورية أو الكناية ـ الحضارم أضل من الحريم ـ ، والحضرمي شخص لا يستطيع أن يستقر في المنزل أو يقبع في البيت ولكنه شخص قلق متشرد ومتململ لا يهدأ . وذات مرة أخبرني مسلم من كوتش[١] Cutch بأن تلك النزعة الطبيعية والميل الفطري من الأمور المتنبأ بها في القرآن . واستشهد على هذا من السورة الحادية عشرة بالآية ٦٣ : ﴿واتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ ، ولكنني أعتقد بأن ذلك خاص بقوم عاد الأقدمين الذين نروي الآية قصتهم[٢] وبأن حملها على الحكم بالإدانة نتيجة للرخاء الدنيوي والازدهار التجاري لدى هؤلاء السادة من التجار الحضارمة أو لدى أولئك التجار العدنيين على وجه الخصوص يكون غير سليم اذ ليس وجيهاً ولا وارداً في محله . كما لا اعتقد بأن صديقي الكوتشي قد سجل هدفاً حاسماً أو أصاب قلب الرمية عندما ألقى بسهمه على المجتمع أو حينما رمى هذه الجماعة من الناس بكلامه .

وفي شهر يناير عام ١٩١٤ زارني سيد من حضرموت زيارة قصيرة ، وكان يومئذ في طريقه الى تريم عائداً اليها من بومباي . ولقد فكر بالطبع تفكيراً جزئياً بالسلطان القعيطي ، وتحدث عنه حديثاً قليلاً ، ولكنه كان مسرفاً في مدحه للسلطان الكثيري منصور بن غالب صاحب سيؤون الذي قال عنه بأن جيشه يتألف من سبعمائة مقاتل من السادة ، ومن ثلاثين ألفاً من رجال القبائل . وهذه مبالغة سامية ، وما على المرء الا أن يقسم العدد على خمسة ، وبعد ذلك يأخذ الجذر التربيعي من حاصل القسمة ليصل الى واقعة أساسية . ولقد أخبرني هذا السيد بأن سلطانه

---

(١) كوتش Cutch أو Kutch مقاطعة هندية وهي تقع في غرب الهند الى الشمال من خليج كوتش . وكانت من قبل ولاية سابقة ولكنها الآن جزء من اقليم غوجرات . (المترجم)

(٢) ليس صواباً الاستشهاد بالآية الشريفة على النشاط التجاري بوجه عام ولا على نشاط هذه الجماعة من الناس بصورة خاصة لأن التجارة من الأمور المشروعة بل انها عمل حيوي وجوهري ، كما ان الرقم الصحيح للآية المذكورة ٦٠ وليس ٦٣ وهي لا تختص بقوم عاد فيما تقص عنهم لأن الآية ٩٩ من نفس السورة تحمل نفس المعنى وتتعلق بفرعون وقومه . وأما عن الآية ٦٣ فانها متعلقة بصالح وقومه ومغايرة لفظاً ومعنى . ولقد أنصف مؤلف الكتاب التجار الحضارمة بدفاعه عنهم ضد ما رماهم به أخوهم المسلم الهندي . (المترجم)

ينوي تحالفاً مع سلطة أجنبية أو مع إمام صنعاء لأن الكثيريين كما قال قد وضعوا في موضع الإهمال لفترة طويلة جداً وهم الآن يرغبون رغبة أكيدة في أن يكون لهم ميناء بحري من أجل تنمية تجارتهم المتزايدة وتطويرها . ثم طرح رأياً (جسّاً للنبض) وأبدى رغبة مستطلعاً للهدف فاقترح ما يوحي بأننا إذا ما خطونا خطوة متقدمة نحو الأمام فإنه من المحتمل بأن يفضل السلطان الكثيري حكومتنا على غيرها . ولقد سألته بدوري عما إذا كان الكثيري يريد حماية بريطانية ولكنه اعترض في الحال على العبارة التي استعملت وكأن فيها على الأرجح جرحاً لأحاسيس المتعصبين في حضرموت وإيذاءً لمشاعرهم . ثم قال لي : ماذا تقصد ؟ هل تعني محمية ؟ فشرحت الموقف وأوضحت الأمر وقلت ان العبارة تعني بأننا سوف لا نسمح بأي تدخل أجنبي في شؤون البلاد . وقد أجاب صديقي بأن كل ما يمكن لنا أن نتوقعه ويعد أمراً معقولاً هو الاشتراط بأن لا يكون التخلّي عن أقاليمهم أو تأجيرها أو رهنها إلا باذن من بريطانيا وان كان هذا الاشتراط قد يبدو فعلاً ومن الناحية العملية نفس الشيء كالحماية ولكنه سوف يكون منمقاً ومنسقاً عندما يصاغ بعبارة أكثر لباقة ودبلوماسية . ثم قال انه نفسه لا يريد تدخلنا في شؤون العرب كما سأل عما إذا كانت حكومة عدن ستبقى محايدة بكل دقة وعلى نحو تام وكامل إذا ما قام الكثيريون بمهاجمة الشحر والمكلا . ولعله كان خائفاً من اننا بالأحرى سوف نساعد صديقنا القعيطي . ولهذا لم أرد على كلامه ولكنه قد أدرك جوابه . ولقد سخر هذا السيد من ادعاء القعيطي لحقوق السيادة قائلاً بأن السير غالب اذا قرع طبله - اذا دق مرفعه - فإن أفراداً قليلين من رجال قبيلة الحوموم فقط سوف يحتشدون لندائه في حين ان الكثيري اذا ما نادى - استصرخهم - فإن حشوداً قبلية من الرجال المدججين بالسلاح سوف يهرعون ويحتشدون في الحال . ثم قال ان حضرموت بلاد شافعية من غير استثناء ، وجميع سكانها شوافع عن بكرة أبيهم فهم لذلك لا يؤيدون الإمام الزيدي أبداً ثم أردف قوله : ان الزيود أناس مبتدعة[1] ، فهم يعارضون الشافعية كما هو الحال عند البروتستانت بالنسبة الى

---

(١) ان الطعن بالزيود أو بمذهبهم ليس سليماً ولا وجيهاً لأنه ينم عن الجهل المطبق وعن التعصب الأعمى ضد هذا المذهب الذي يعتبر بحق أكمل المذاهب الفقهية المعروفة عند جمهور المسلمين وأكثرها قرباً من السنة والجماعة . ونحن اذا ما قارناه مع المذاهب الأربعة نجد بأنه قد جمع فأوعى كما نجد بأنه يعطي فقه الأئمة الأربعة مقاماً لا ينكر كما يعترف بذلك الشيخ الفاضل محمد أبو زهرة في كتابه (الإمام زيد) ، فلقد تحدث هذا العالم عن الإمام زيد وعن المذهب الزيدي حديث العارف الجليل ، والباحث المنصف النبيل فقال : « وفقه الإمام زيد أو بعبارة أدق المذهب الزيدي معمول به بين كثيرين من أهل اليمن أو الأكثرين منهم . فهو مذهب قد صقلته التجربة وأرهفه العمل به ونماه الاجتهاد فيه ليتواءم العمل مع الأحداث التي تحدث . وانه يحدث للناس من الأقضية بمقدار مايجد لهم من شؤون » .ثم يستطرد قائلاً :«واننا اذ نتجه الى فقه الشيعة ندرسه ونغوص في بحاره المترامية الأطراف نتقدم الى الإمام زيد ومذهبه لأنه أقرب المذاهب الشيعية الى فقه السنة » . ثم يقول في مكان آخر من الكتاب : « وقد اثر عن زيد فقه عظيم تلقاه الزيدية في كل الأقاليم الإسلامية وفرعوا عليه وخرجوا واختاروا =

الكاثوليك (كذا) . وأبدى قلقه من الاقتراح عندما قلت بأنني سوف أبرق الى الحكومة من أجل ابرام معاهدة . ولكنه ذكّرني بأن الموضوع يتطلب مالاً ونقوداً لأن جميع رجال القبائل سوف ينتظرون هبات سخية . وبعدئذ أشار مرة ثانية الى تعبير « الحماية » فأصر على أن لابسي العمائم الكبيرة وحامليها ـ عمامات كبار ـ سوف يستاؤون من الفكرة ويغتاظون لها ولكن التعهد بصد أعداء الكثيري ـ دفاعاً ـ سوف يمنع كل فرص الخوف ويحول دون قيام الذعر والهلع .

ولقد دافع السيد في سبيل القول بأنه يتحتم على سلطانه منصور وعلى البريطانيين التوصل الى تفاهم عاجل والى اتفاق مباشر يتم بحرية وبصرف النظر عن السلطان القعيطي لتصبح منفعة السلاطين الكثيريين أمراً ممكناً ومستمراً ومن ثم حقيقة ثابتة ودائمة . ثم قال إن علينا أن نخبر آل عوض بن عمر (الأسرة القعيطية) بأن الاستقلال شعار حضرموت ، وبأن السلام العادل والأمن المتبادل سيكون لمنفعة الجميع .

وقبيلة الحوموم التي سبق ذكرها تقيم في الفيل ابن يومين على الهضاب العالية والتلال المرتفعة حيث تقع مراكزها . ورجال تلك القبيلة من الجماعات العنيفة ، والعشائر المتمردة ، وهم يرجعون أصلهم الى الأسرة الكثيرية أو البيت الكثيري . والحقيقة أن الأسرة القعيطية يرجع قيامها الى تاريخ حديث نسبياً اذ جاءت أصلا من بين أفراد قبيلة يافع العولقية . ولقد جمع آل عوض هؤلاء ثروتهم خلال خدمتهم مع نظام حيدر اباد في ديكان[١] .Deccan

ونحن لم نعترف أبداً لا بشرعية حكم السلطان الكامل أو المطلق على تلك البلاد النائية عن الساحل والواقعة في الداخل ولا بوجوده عليها . ولكن منذ كان من الأفضل لنا أن نبتعد عن كل تدخل في الشؤون السياسية المحلية فانه يكون من اللباقة بجلاء ، ومن الدراية بوضوح الترحيب بالمعاهدة الجديدة أملاً ورجاءً في اتساع حكم حاكم واحد . ولا ريب بأن شخصاً مثل القعيطي سيكون مرغوباً وملائماً ، ولسوف يصبح حكمه الموحد قوياً ومتماسكاً بفضل وزيره الحصيف

= من غير ما تلقوا واجتهدوا ومزجوا ذلك كله بالمأثور عن فقه الإمام زيد رضي الله عنه وتكونت بذلك مجموعة فقهية لا نظير لها ولعله كان أوسع من سائر مذاهب الأمصار » . ثم يقارن الشيخ أبو زهرة بين المذهب الزيدي وبين بقية المذاهب فيقول : « وإنا نجد في كل مذهب تعصباً من معتنقيه خصوصاً في القرنين الرابع والخامس الا المذهب الزيدي فإنا نجد من معتنقيه قبولاً لكل ما يكون له مستند من الشرع » .

(المترجم)

(١) ديكان اقليم سهلي يقع في جنوب وسط الهند ما بين جبال قوتس Ghots الشرقية والغربية .

(المترجم)

اليقظ والشديد الحذر . ومن الحكمة في هذه المرحلة التغاضي عن النزعة الاستقلالية والانعزالية المعروفة عند العرب ، وصرف النظر عن الحواجز المنيعة للحكم المجزأ ، والتخلي عن الفوائد التي نجنيها من حكم منقسم على نفسه ، فالمكلا بعيدة عن عدن جداً من أجل ممارسة فعلية لنفوذنا هناك ، ويعتبر كل من السير غالب في حياته ووريثه الآن بعد مماته واعياً تماماً لمطالب الأزمنة المتجددة ، والأوقات المتغيرة ، وطالما أن البلاد مفتوحة للتجارة ، ومتحررة بالمكلا من جميع القيود المفروضة والحواجز المعوقة أو المغيظة منذ عهد قديم وتاريخ مبكر بل وموغل في القدم فإن كل شيء منذ الآن سوف يسير على ما يرام . لأن مستقبل حضرموت يكمن خلف حدودها الجغرافية ، فهو يقع في سنغفورة وفي جاوة، وفي ما وراءالبحار .واليافعيون يزاولون أيضا مشاريع تجارية كبيرة في جاوة ثم يعودون بالأموال المكتسبة ، والثروات المدخرة لإنفاقها في وطنهم أو على بيوتهم .

وفي عام ١٩١٦ تأسست هنا داخل حضرموت جمعية أطلقت على نفسها اسم « جمعية الحق » . وقد نشر منهاجها المطبوع في كل مكان داخل البلاد . ومن المحتمل أن يكون نشوؤها قد تكوّن أصلاً في جاوة ولكن المؤسسين لها كانوا أشخاصاً من حضرموت ومن سلالة كثيريّة . وكانت أهدافها تتضمن توفير العدل لكل الأطراف ، وصيانة الحق لجميع الفئات ، والتمسك الشديد بأوامر الشريعة الاسلامية ، والالتزام الأمين بما تمليه من تعاليم وقيم ومُثُل . وكان من أهدافها القيام بمساعدة الفقراء والمضطهدين والمظلومين ، ثم الإشراف على الشؤون السياسية والهيمنة على الأمور العسكرية لكي يصبح من الممكن توفير النمو وإيجاد التقدم والرخاء ، وقيام مواصلات سهلة ، والاستعانة بوسائل عامة للنقل من مكان الى آخر وفي حدود الاستطاعة الممكنة . ولقد احتضن السلاطين الكثيريّون أهداف المشروع المقترح ووعدوا بمشايعته بل وبمؤازرته ، كما عبروا عن إخلاصهم له على أن يكون مركز ادارة الجمعية في تريم أو سيؤون حيث يقيم أولئك السلاطين . وأما عن فروع الجمعية فإنها تكون منتشرة في كل أنحاء حضرموت ، وفي سنغافورة وجاوة ثم في عدن بحيث تظل تلك الفروع تابعة للمركز الرئيسي ، وخاضعة له ، ويكون الرئيس شخصاً منتخباً من أسرة الكثيري . وهذه بالاختصار حركة شعبية أو بالأحرى حركة جمهورية تهدف الى تحرير الجبهة الحضرمية كما تسعى الى قيام كتلة مستقلة . ولا شك ان الأفكار في أحوال كثيرة قد تكون ممتازة بقدر ما تكون الإصلاحات نابعة من الداخل ، أو منبثقة من المجتمع وكان العيب الوحيد في تلك الجمعية ينحصر في حملتها الخفية أو المقنّعة ضد الشخص المتمتع بحمايتنا الثابتة والمعترف بها وهو السلطان القعيطي على اعتبار انه شخص وفيّ ومخلص وقوي الإيمان بالمثل الأعلى البريطاني وشديد التعلق به طالما ظل جالسا على كرسي الحكم ومتربعاً

فوق عرش عربي . ولعله من حسن الحظ وسعد الطالع زوال تلك الجمعية فجأة اذ كان تلاشيها واضمحلالها بسبب اختلافات داخلية . وهكذا رجعت حركة الوثبة العربية الى الوراء ، وعادت القهقرى الى أجل غير مسمى ولا محدود . والبلاد في ظروف كتلك انما تكون في أمس الحاجة الى النمو السياسي الذي تكون بحاجة اليه ، أو تواقة ومتأهبة له ولو بعناء ومشقة وأنا أشعر واثقاً بأن مثل ذلك سوف يكون عبارة عن التطور اللاحق ، أو التحول المتتابع ولكن حتى يحين وقت كهذا أو من أجل العمل لمثل ذلك فإنني أعتقد أيضاً بأن حكم رجل واحد ينفرد بالسلطة سيكون دواءً لجميع الأمراض من أجل ابلال البلاد وشفائها ثم عودتها الى وضع سويّ ، فهي الآن لاهية بمصالح مجزأة وأوضاع مقسمة . ووجود ولايات أو دويلات صغيرة انما يكون في خدمة تلك المصالح المنقسمة أو المجزأة فقط ، بل ان ذلك هو الذي يعمل على رعايتها وتعزيزها . وانني أعتقد بأن الوقت سيحين عندما يكون من الأفضل قطع كل رابطة أو علاقة بريطانية قائمة وموجودة بشكل مباشر وسيفي بالغرض ان تنظر تلك البلاد الى بريطانيا كمستشار لها وكمثال تحتذيه اذ لا توجد حاجة الى تلوين الخريطة الحمراء . واذا ما رفضنا التدخل فإن شبه جزيرة عربية ستظهر متطورة تدريجياً ، أو ناشئة نامية على مهل ، وسوف تعود قريباً الى نفسها وقد ترجع الى ما ورثته فتستعيد مكانتها . ونحن قد نكسب جميع العالم العربي أو نظفر به « بدون الذهاب خارج الأبواب أو السير في الطرق الخلفية » .

والسادة رغم كل شيء هم الذين يحكمون بالفعل في حضرموت، وهم الذين يديرون حاجات مريديهم الذين يسمونهم بطريقة فنية أخدام (أو خدم) وسلطتهم تلك متمتعة بخصائص الحكومة الدينية أو الكهنوتية (ثيوقراطية Theocracy) وهذه انما تروق لأولئك الناس وحدهم دون سواهم اذ لم يبق ثمة بلد آخر غيره تحت سلطة الاكليروس أو محكوم بالكهنة ورجال الدين . ولقد وصف العالم م. صنوك هرجرونجيه Mr. Snauke Hargronje هذا الاقليم وكأن « ليست به حكومة ولا إدارة قانونية ، وبأنه خال من النظام والوحدة ، وعديم التماسك والالفة وأنه بدون أمل أو رجاء» ولكن قومي [1] سيحوزون وسيظفرون، فيكون لهم أيضاً

---

(١) المؤلف يتناقض مع نفسه في أكثر من موضع من الكتاب ، وهذ التناقض يدل على ازدواجية عجيبة حقاً في الحكام الانكليز ، والسبب في ذلك يرجع الى انهم أناس نبلاء في بلادهم فعلا سواء في أساليب حياتهم أو في طريقة حكمهم ، ولكنهم يتصرفون في المستعمرات التابعة لهم بأساليب أخرى مغايرة تتنافى كليا مع أساليبهم المعروفة داخل المملكة المتحدة ولهذا نجده في الكتاب يعبر امّا عرضا أو اتفاقا ، عن هذا التناقض ، فهو قد ينتقد أحياناً هذه الأساليب الجديدة المتبعة في المحميات أو في المستعمرات كما قد يبدي عطفا أو دفاعاً عن سكان هذه البلاد ، وأحياناً يتجاهل ذلك كله فيتحامل عليهم . وفي بعض المواقف ينتقد أساليب وزارة المستعمرات البريطانية بينما يثني على الاستعمار البريطاني ويهلل له في مواقف أخرى كما ←

مثل ذلك . وعلاوة على هذا فانني أعتقد بأن حضرموت سوف تنمو وتنجح وتزدهر في وقتها المحدد ، وأما التشاؤم فإنه لن يأتي بالنتائج المطلوبة أبداً كما لن يكسبها ، ولسوف يتحقق ما يعد اعتباره وعداً في طريقة الاعتداد والفخر والاعتزاز الموجودة عند القبائل التي تفضل - كما قال وليم هريسون William Harrison - « شم الرائحة القديمة المرتبطة بماضي السلالة العريقة والعرق الأصيل » ، فاليأس انما يكون خليقاً بالعِرْق الجبان أو الجنس الخوّاف أو قد يكون له ما يبرره عند الشخص المتردد دون غيره .

ان البعض قد يرغبون في توسيع مجال حضرموت أو في تكبير مساحتها لتشتمل على جميع خط الساحل الواقع الى الشرق من عدن وهو الممتد من حدود المنطقة العدنية والمنتهي بخط الطول ٥٣ ، ٤٠° شرقاً . وفي هذه المساحة الواسعة الممتدة على طول الساحل تتوفر للتجارة منافذ كثيرة ذات منافع كبيرة وفوائد عظيمة ولكن من الأفضل أن يكون العمل دائماً عن طريق وكالة عربية لأن مثل ذلك يزيل الشك أو يبعد الشبهة ويبدد الريبة الموجودة عند سواد الشعب .

ومن الغريب جداً كيف اننا كنا خلال الحرب (١٩١٤ - ١٩١٨ م) فاتري الشعور أو غير مبالين ! في حين أن الأتراك الذين أعدوا خططهم سلفاً لإحراز نصر محتمل لم يكونوا كذلك . ففي عام ١٩١٦ كان انتخاب بعض الرجال الذين وقع الاختيار عليهم من سنغافورة ليتم ارسالهم الى حضرموت من أجل العمل على شراء الزعماء العرب في كل من حضرموت ثم في اليمن على وجه الخصوص بما في ذلك الإمام يحيى إمام صنعاء نفسه . ولقد كان القنصل التركي في بتفيا Batavia ناشطاً مجتهداً بكل معنى الكلمة . اذ بعث تقريراً يقول فيه بأن تقديم أوسمة ونياشين الى المشائخ والسادة والى أصحاب المقامات والوجهاء في كل من اليمن وحضرموت سوف يمنعهم من أن يكونوا منساقين تحت تأثير التضليل أو الكيد الانكليزي ! ثم أوصى بانتداب الخطباء والمبشرين من بين الأشخاص الذين تتوفر لديهم المعرفة الكاملة باللغة العربية للحث على الجهاد . وكانت الطريقة الوحيدة لمعارضة خطأ كهذا ولإبطال مفعوله هو القيام من جانبنا بإرسال

٭ يلاحظ القارىء ذلك كله في أماكن متفرقة من الكتاب . وفي هذا الفصل الأخير نجده يدافع عن سكان حضرموت حينا ويغمط حقوقهم أحياناً . وعند تعرضه لذكر جمعية الحق الحضرمية يستعرض برنامجها الاصلاحي ببرارة ولكنه لا يستطيع كتم سروره وفرحته بتلاشي تلك الجمعية نتيجة لخلافات داخلية كما يقول ، وقد تكون الأصابع الانكليزية الرشيقة خلف هذا الاختلاف ! وعندما أورد حديث العالم صنوك هرجرونجيه عن عدم وجود اصلاحات رد عليه بقوله : ولكن قومي سيظفرون بها أيضاً أو يملكونها كذلك but my people will have it so، فهل شعب حضرموت شعبه ؟ وهل سكانها قومه ؟ وهل وجد هؤلاء القوم من الرعاية والرخاء والازدهار والعمران مثلما وجده ويجده بنو قومه الحقيقيون في الجزر البريطانية ؟

(المترجم)

المبشرين الى هنالك لإظهار الحقيقة وإعلانها . وهذا ليس الا عبارة عن شكل من أشكال الإعلان الذاتي والإعلام التلقائي الذي لم نتنازل الى تبنّيه ولم نعمل على اتخاذه وسيلة أبداً حتى في الهند . وأنا أعتقد بأننا قد خسرنا بذلك فرصاً عظيمة . ولكن نحن معشر الانكليز لم نكن من ناحية أخرى قائمين ولا موجودين على اتخاذ مثل تلك الوسائل كما لا يدخل هذا الأسلوب في تركيبنا ولا نتبنّاه ولعلّ هذا يرجع الى وجود مزايا أخرى مشابهة يمكن الحصول عليها ويتم احرازها بهدوء عن طريق صمتنا الخالي من الضجيج أو الأعمال غير الفضولية داخل مستعمرتنا في عدن . والمظهر الخارجي لعدم المبالاة أو عدم الأهمية الظاهري قد يجعل العقل الآسيوي متحيراً اذ يربك الفكر سلوك كهذا في أحوال كثيرة . وهذا في حد ذاته يعد حتى الآن مصدر قوة لنا . وكان السير غالب كثير الانزعاج والارتباك بسبب سكوننا المتقن في البراعة . ولكنني أعتقد بأن قلقه كان ناشئاً عن احساسه المبكر بطريقة حكمه المتروي الذي لم يكن حتى الآن مرناً اذ كان انعزاله عن عدن تاماً . وكان نشاط المبعوثين من قبل الإمام يثير الانتباه ويظهر بصورة غير اعتيادية بالرغم من ان خطط هذا الحاكم لم تكن منسجمة مع الخطط والمناورات التركية أو مع البلاغات والتصريحات التي كان يصدرها الجنرال علي سعيد باشا من مقر قيادته في لحج من حين الى آخر . وبعض السادة الحضارمة استجابوا فعلاً لدعايات الباشا المغرية ، وتفاعلوا مع الصور والأوصاف الجذابة عن الحكم التركي المقبل أو المرتقب . ولكن أهل البلاد كانوا ككل وبصورة اجمالية قلقين في المقام الأول على فقدان تجارتهم وتواقين الى انهاء الحرب بصرف النظر عن أي جانب يخرج منها منتصراً .

وحضرموت تقدم التسهيلات الكثيرة لانتشار زراعة نبات التبغ ولكن ما زالت التجارة في طفولتها . وفي أثناء الحرب كان حصارنا لجميع موانىء البحر الأحمر واغلاقها ـ باستثناء ميدي ـ عائقاً عرقل التجارة بصورة كبيرة وقيّد الصادرات وأضعفها الى حد بعيد . ولعل الملح في مقاطين والخبير والبوتاس في عثرب قد حققا فوائد طيبة وأكسبا أرباحاً جيدة وهذه الأماكن تقع داخل منطقة صديقنا وحليفنا سلطان قبيلة العوالق السفلى .

ولم يكن المرحوم السير غالب سلطان المكلا ساكناً أو عديم الحركة خلال مدة الحرب (١٩١٤ ـ ١٩١٨) فلقد اقترح تحالفاً مع سلطان المهرة صاحب قشن وسقطرة . وأنا أميل الى القول بأن الأخير ـ وهو عبد الله بن عيسى ـ قد تنبأ بوجود أهداف خفية أو مرامي بعيدة للضم والإلحاق اذ كتب الى عدن يقول بأن مثل هذه الاقتراحات تبدو غريبة وجديدة ولم يُسبق الى مثلها . فهل نسي أو تغاضى عن نزعتنا المماثلة في عام ١٨٣٥ أم انه قصد توجيه ضربة بارعة الى نشاطاتنا الأولى والمبكرة ؟ ولقد كان جوابه الى القعيطي مقنعاً اذ قال فيه : « لقد رفضنا اقتراح

السلطان غالب واقتراح وزيره لأننا لا نريد الدخول في تحالف مع أي حام آخر غير الحكومة البريطانية » . والجواب سياسى ونبق ومهذب وقد أمضاه بنفسه موقعاً هكذا « الواثق بالله الغفور السلطان عبد الله بن عيسى بن أحمد بن طوعري بن عفرار » والإسم الأخير هو اسم الجد الأعلى لعائلته .

ولقد قدم السير غالب الينا جنوده ولكن لم تكن لنا بهم حاجة ولو اننا كنا أكثر قلقاً وتلهفاً الى طرد الغزاة من لحج لكانت الفرصة هنا مناسبة وكبيرة ليعرف الأتراك المكان الذي نقف عليه ، ونثبت لهم بالدليل مكانتنا الراسخة في نفوس حلفائنا وفي أذهانهم . وهذه الحقيقة كانت كفيلة بإضعاف عزيمة المقاتل وتثبيط همته تماما طالما بقي الباشا في لحج . ولقد قدمت الينا العروض الكثيرة من المساعدات العربية ولكننا فضلنا مجرد حجز التركي فقط ، والعمل على ارهاقه بالفرك وانهاكه بالتفتيت ، والإجهاز عليه بالتآكل عن طريق الاحتكاك . ولو اننا كنا قادرين - ونحن الحكومة النصرانية - على اظهار تحالف أصدقائنا المسلمين الطوعي وتعاونهم معنا ضد التركي الذي انتحل لنفسه دور الاسلام المناضل في مقاتلة الكافر لكانت هيبتنا في اليمن معززة ألف ضعف . وان تحالفاً كهذا سوف يكسبنا مجداً وشهرة أكثر بكثير من هجمة مفاجئة وغزوة مستقلة نقوم بها من عدن وننتصر بها على القوات التركية بمفردنا وبدون مساعدة تقدم الينا ، فهذا العمل الأخير سوف يبرهن على رجولتنا فقط (تياسة) بينما العمل الأول - وهو التحالف المعلن - سوف يبرهن على رجولتنا كذلك زائد حصافتنا السياسية (سياسة) . والعرب انما يحتاجون الى قيادتنا فقط كما قال لي شخص عربي : « ورّي الحليم النجد ولا تورّي له الطريق » أي ما عليك الا أن تشير للرجل الذكي أو الحكيم نحو التل المرتفع أمامه ، ولكن ينبغي عليك الامتناع عن ارشاده الى الطريق التي يسلكها . ومعنى هذا القول أن العرب يعرفون الطريق المألوف والسبيل المطروق ، وأما ما يكون خارجاً عن الطريق أو يقع خلفها على أرض وعرة فهو الشيء الذي يحتاج الى ارشادنا فقط . وهذا المثل يسدي لنا خدمات ويفيدنا كشعار في جميع علاقاتنا المستقبلة وصلاتنا المقبلة مع الأمة العربية .

الفهرس
« ملوك العرب »